أصل الدين والإيمان

عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

موافقة وزارة الإعلام

رقـــم: ٧١٢٤٢

تاريخ: ٩/٢/٢٠٠٢

أصل الدين والإيمان

عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان

دراسة تحليلية منهجية شاملة
لأصول الإيمان ومنهج التوحيد ومسائل العقيدة
على منهاج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة

الجزء الثاني

تأليف الدكتور
مأمون حموش

بسم الله الرحمن الرحيم

- 19 -

- الإيمان باليوم الآخر -

مقدمة: الحمد لله الذي تفضل على عباده فعرفهم غاية الخلق وطرق النجاة وسبل السلام ، فأرسل للناس رسلاً يبلغون عنه معنى الأمن في الدنيا والآخرة وزودهم بالحجج والبيان ، ثم ختم فيهم سبحانه الرسالة والنبوة بخير البشر وأسوتهم محمد عليه الصلاة والسلام ، وجعل أمته أمة القيادة في الأرض والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتقود الأمم إلى شاطىء النجاة والأمان ، فإنه إذا صار الكتاب إلى أجله ، وأُلحق آخرُ الخلق بأوله ، أرجَّ الله الأرض وأرجفها ، وقلع جبالها ونسفها ، وأخرج من القبور من فيها فجدَّدهم ، وجمعهم بعد تفرقهم ثم ميَّزهم ، فجعلهم فريقين: فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير ، فأنعم على هؤلاء ، وانتقم من هؤلاء ، فله الحمد في السماوات وفي الأرض وله الكبرياء ، فلا يحصي نعماءه العادون ، ولا يؤدي حقه المجتهدون ، وقد حذَّر من الفتن الأنبياء والمرسلون.

فويل لمن أبعده الله وخسرت تجارته ، وويل لمن أدركته المنية وقد أشقته معصيتُه ، طوبى لمن زهد فيما في أيدي الناس وبكى ذنوبه ووسعه بيته ، طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً وربحت في الآخرة صفقتهُ ، هنيئاً لمن اجتنب الفتن فترفع وسمت أخلاقه وصفاته.

الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان ، كما روى مسلم من حديث عمر مرفوعاً: [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خير وشره][1].

---

(1) قد مضى تخريجه.

ورواه البيهقي عن عمر ولفظه: [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالجنة والنار والميزان، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره][1].

وله شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة ولفظه: [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه وبلقائه وبرسله وتؤمن بالبعث الآخر][1].

وأحب أن أقسم البحث إلى الأبواب التالية:

الباب الأول: الأدلة على الإيمان باليوم الآخر (أ ـ الأدلة النقلية. ب ـ الأدلة العقلية).

الباب الثاني: النفخ في الصور والقيام.

الباب الثالث: الحشر والحوض وأرض المحشر والزحام.

الباب الرابع: الحساب والقصاص والميزان.

الباب الخامس: الصراط على جهنم والشفاعة.

الباب السادس: النار، صفتها وصفة أهلها.

الباب السابع: الجنة، صفتها وصفة نعيمها وصفة أهلها.

* * *

(1) قد مضىٰ تخريجه.

ـ الباب الأول ـ

ـ الأدلة على الإيمان باليوم الآخر ـ

أ ـ الأدلة النقلية:

1 ـ إخباره تعالى عن اليوم الآخر بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]. وبقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: 7-8]. وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات 5 - 6]. وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: 7].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 4 - 6].

وقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: 1 - 4].

وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: 38 - 40].
وغيرها من الآيات.

2 ـ إخباره ـ ﷺ ـ لما قال له جبريل عليه السلام: أخبرني عن الإيمان قال: [أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره] البخاري ومسلم[1]. وبنحوه قوله ﷺ: [من نفَّس عن مؤمن كربة من كُرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة...] مسلم عن أبي هريرة[2].

وبمثل قوله: [من تعلم علماً مما يبتغىٰ به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة[3] يوم القيامة] رواه أبو داود عن أبي هريرة[4]. ونحو ذلك كثير كثير.

3 ـ اتفاق جميع الأديان السماوية، وإيمان الملايين من الأنبياء، والمرسلين، والحكماء، والعلماء، والصالحين من عباد الله، باليوم الآخر وبكل ما ورد فيه وتصديقهم الجازم بذلك.

ب ـ الأدلة العقلية:

1 ـ صلاح قُدرة الخالق سبحانه على إعادة الخلائق بعد فنائهم، لأن إعادتهم ليست بأصعبَ من خلقهم، وإيجادهم على غير مثال سابق.

2 ـ تأكُّدُنا من صدق الرسول صاحب الآيات والمعجزات التي تشهد للعقول بصدقِ رسالته، وعِلْمنا أن الله أسرى برسول الله، فرأى الجنة والنار، وحمل إلينا كلام الله، الذي خلق الحياة الدنيا، والحياة الأخرى، وأخبرنا عن الحياة التي تنتظِرُنا بعد موتنا.

فعِلْمُنا بالدار الآخرة جاءنا من أوثق المصادر، مِنَ الذي خلق الدنيا والآخرة، ومن رسوله الذي رأى الجنة والنار، ذلك وعد الله ولا يخلف الله الميعاد.

3 ـ ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ بأمارات للساعة ستقع في الدنيا وشاهدنا منها

---

(1) قد مضى تخريجه.
(2) مختصر صحيح مسلم (1888).
(3) يعني ريحها.
(4) وصححه الألباني في الترغيب 100/1.

الكثير ، فما شاهدناه يؤكد لنا صِدْقَ ما أخبر به الرسول عن الساعة والآخرة ، وكما رأينا هذه العلامات في الدنيا حقاً بعد ألف وأربعمائة عام فسنرى الجنة والنار حقاً. يقول الله تعالى : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف : 44].

4 ـ خالق الإنسان أكمل من الإنسان ، والإنسان يحب العدل ، ولا شك أن الله هو الذي خلق حُبَّ العدل في الأولين والآخرين ، وما عَدْلُ الناس جميعاً إلا قَبَسٌ من عَدْلِ الله ، فالله هو العدل الحكيم. ومن العدل أن يُثاب المُحْسن ويُعاقب المسيء ، ولما لا يتحقق هذا في الدنيا كان لا بد من يوم تقام فيه موازين العدل ، وهذا اليوم تجزم العقول بمجيئه. قال تعالى : ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [ن : 35 - 36].

وقال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم : 42].

5 ـ ولو تأملنا في خلق السماوات والأرض ، لوجدنا كل شيء قد وُضع مكانه ، السماء : والنجوم التي فيها والكواكب ، والأرض : وما فيها من نبات وحيوان وإنسان وجماد ، ثم الليل والنهار ، والجبال والبحار ، وكل ما في هذا الكون.

ولو نظرنا في تركيب الإنسان : القلب في مكانه ، والعين في مكانها ، والأنف في مكانه ، وكذلك الفم والأسنان والحواجب . . . وهكذا. ولا نجد مخالفة للحق في الأرض والسماء إلا في حال الإنسان ، فنجد الظالم في غير مكانه ، وقد نجد النبي المرسل مطارداً يؤذيه السفهاء. فلماذا لا نرى الحق قائماً في حياة الناس ، كما قام في خلق الأرض والسماء؟!

إن العقول تدلنا أن الذي خلق السماوات والأرض بالحق لا بد أن يقيم الحق في أحوال الناس ، وإذا كان هذا لا يكون في الدنيا نظراً لكونها دار ابتلاء وامتحان ، فلا بد أنه يتحقق في الدار الآخرة. قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية : 21 ـ 22].

6 ـ ولو تأمل الإنسان كيف حفظه الله ولم يضيعْهُ وهو نُطْفةً من ماء مهين أو علقة أو مضغة ، بل حفظهُ سبحانه طوال حياته ، دلَّه ذلك أن الله لا يُضيع الإنسان بالموت ، ويَجْعَلُهُ يذهَبُ سُدىً ، فالحكيم الذي يحفظ الأجزاء الصغيرة لا يُضيع الخِلقة التامة[1] ، قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة : 36 - 40] .

* * *

(1) تحليل بتصرف مستفاد من «كتاب الإيمان» قسم التوجيه والتربية الدينية/ اليمن 1982 .

الباب الثاني

ـ النفخ في الصور والقيام ـ

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة الزمر: ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿٦٧﴾ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴿٦٨﴾ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴿٦٩﴾ ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴿٧٠﴾ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴿٧١﴾ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴿٧٢﴾ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴿٧٣﴾ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴿٧٤﴾ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ [الزمر: 67 ـ 75]. وهذه الآيات الجامعات تصف المشهد كله يوم القيامة من النفخ في الصور إلى الاستقرار فريق في الجنة وفريق في السعير. وأما بداية المشهد فهو قوله سبحانه: ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يقبض

الله الأرض يوم القيامـة ويطوي السماء بيمينـه ثم يقول: أنا الملك أيـن ملـوك الأرض][1].

ورواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر ولفظه: [يَطوي الله السماوات يومَ القيامـة ثم يأخذهن بيـده اليمنى ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون، أيـن المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين يأخذهن بيده الأخرى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟][2].

وله شاهد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال: [جاء حَبْرٌ من اليهود إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! إن الله يُمْسك السماوات يوم القيامة على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزّهن، فيقول: أنا الملك، أنا الله، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال الحَبْرُ تصديقاً له ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾][3].

وروى مسلم عن عائشة قالت: [سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذ؟ قال: على الصراط][4].

ثم قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

أي: ونفخ إسرافيل فـي القرن وهي النفخـة الأولى نفخـة الصعق. فعن السدي: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال: مات. وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ اختلف فيه: قال السدي: (جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت).

---

(1) أخرجه البخاري (4812) ومسلم (2787).

(2) مختصر صحيح مسلم (1946).

(3) أخرجه البخاري (4811) ومسلم (2786).

(4) أخرجه مسلم (2791) وأحمد (3516).

وقال سعيد بن جبير: (الشهداء ثنية الله حول العرش متقلدين السيوف).

وقيل: بلى عني بالاستثناء في الفزع: الشهداء، وفي الصعق: جبريل وملك الموت وحملة العرش، واختاره ابن جرير والله تعالى أعلم.

قلت: والنفخ في الصور على ثلاثة أنواع:

الأولىٰ: نفخة الفزع. كما قال جل ثناؤه في سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 87 - 88].

الثانية: نفخة الصعق. كما قال جل وعز في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾. يروي البخاري عن ابن عباس [قال في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ الصور و(الراجفة): النفخة الأولى و(الرادفة): الثانية][1].

الثالثة: نفخة القيام لرب العالمين: كما قال سبحانه في تتمة آية الزمر: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

فبنفخة الصعق يموت الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من استثنى الله، ثم يقبض سبحانه أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء ويقول: [لمن الملك اليوم، لمن الملك اليوم، لمن الملك اليوم] ثم يجيب نفسه بنفسه سبحانه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أنا الذي كنت وحدي وقد قهرت كل شيء وحكمت بالفناء على كل شيء. ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور نفخة أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

---

(1) رواه البخاري في ترجمة باب. تخريج المشكاة (5529).

قال الحافظ ابن كثير: (أي: أحياءً، بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة). والآية مفسَّرة في القرآن بآية سورة النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ وبآية الإسراء: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وبآية الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [بينما يهودي يعرض سلعة له أعطي بها شيئاً كرهه أو لم يرضه قال: لا والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه قال: تقول والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ قال: فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً وقال: فلان لطم وجهي. فقال رسول الله ﷺ: لم لطمت وجهه؟ قال: قال يا رسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى عرف الغضب في وجهه ثم قال: لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله. قال: ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث أو في أول من بعث فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش (وفي رواية: آخذ بقائمة من قوائم العرش) فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي. ولا أقول إن أحداً أفضلُ من يونس بن متى عليه السلام][1] وفي لفظ: [فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور]. قال أهل العلم: (والصعق لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء، فموسى إن كان لم يصعق معهم يكون قد جوزي بصعقة يوم تجلىٰ ربه للجبل فجعله دكاً).

وأما ما بين النفختين فهو أربعون. كما في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت[2]. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. ثم يُنزل اللهُ من السماء ماءً فينبتون كما ينبتُ البقلُ. قال: وليس من الإنسان شيء

(1) رواه مسلم (7/100 - 101) وهو في مختصر مسلم برقم (1612) ورواه البخاري.

(2) أي: امتنعت عن الجواب لأني ما أدري ما الصواب.

لا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذنب[1] ومنه يُركب الخلق يوم القيامة][2]. وفي رواية لمسلم: [كل ابنِ آدم يأكله التراب إلا عجبَ الذنب منه خلق وفيه يركب].

فإذا تذكر المسلم ذلك الهول ونفخة الصور قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. كما خرَّج الترمذي في جامعه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [كيف أنعم وصاحبُ الصور قد التقمه وأصغى سمعه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ؟ فقالوا: يا رسول الله! وما تأمرنا؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعمَ الوكيل][3].

وقد فصل النبي ﷺ يوماً الأحداث المتسارعة والأهوال المخيفة التي تسبق النفخ في الصور، كما روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [يخرجُ الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً أو أربعين ليلة فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيظهر فيهلكه الله تعالى. (وفي رواية: فيطلبه فيهلكه) ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه.

ويبقى شرار الناس في خفة الطير[4] وأحلام السباع[5]، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً. قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها وهم في ذلك دارَّة أرزاقهم حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً (أي: أمال صفحة عنقه) وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه (أي: يصلحه ويطينه) فيصعق ثم لا يبقى أحد إلا صعق ثم يرسل الله

---

(1) العظم بين الأليتين أسفل الصلب.
(2) أخرجه البخاري (4935) ومسلم 141/2955.
(3) تخريج المشكاة (5527) وسنده حسن.
(4) المراد سرعتهم للشرور والشهوات والفساد كسرعة الطير.
(5) المراد العدوان والظلم كالسباع الضارية العادية.

تعالى مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال :

أيها الناس هلموا إلى ربكم (﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ ثم يقال : أخرجوا بعث النار ، فيقال كم؟ فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فيومئذ تبعث الولدان شيباً ويومئذ يكشف عن ساق . وفي رواية : (فذلك يوم يجعل الولدان شيباً . وذلك يوم يكشف عن ساق)][1] .

* * *

(1) صحيح أخرجه مسلم (2940) وأحمد 166/2 .

الباب الثالث

- الحشر والحوض وأرض المحشر والزحام -

لقد قال الله جل ثناؤه في سورة (ق): ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم
مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا
تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ (٤) بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥)
أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ (٩) وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا
لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ
وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ
بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ
حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ
عَتِيدٌ (١٨) وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ (٢٠)
وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ
حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
مُّرِيبٍ (٢٥) ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن
كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠
بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ
بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ٱدْخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ
مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا

مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ
ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ
عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن
يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: 1 - 45].

قال ابن عباس: (السائق من الملائكة، والشهيد شاهد عليه من نفسه).

فلقد كنت في غفلة من هذا الذي عايَنْتَ اليوم أيها الإنسان من الأهوال والشدائد، فكشفنا عنك غطاءك فجلينا ذلك لك وأظهرناه لعينيك حتى رأيته وعاينته فزالت الغفلة عنك.

قال ابن عباس: (﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ قال: الحياة بعد الموت).

وقال قتادة: (﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ قال: عاين الآخرة).

فأنت اليوم نافذ البصر تبصر بقوة كالحديد فأنت اليوم في أرض المحشر، فيا أيها الإنسان الغافل استمع يوم ينادي المناد من مكان قريب ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾.

فقد روي عن كعب أنه قال: (ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادي: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء).

ثم قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ وتفصيل ذلك.

أولاً: إنهم يحشرون حفاة عراة غرلاً[1].

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراة غُرْلاً. قلت: يا رسول الله! الرجال

(1) أي: دون ختان كما خلقهم الله.

والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: يا عائشة: الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض][1].

وله شاهد في الصحيحين أيضاً من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [يا أيها الناس! إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ألا وإن أول الخلائق يُكسا يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك (وفي رواية: فأقول: أُصَيْحابي أُصَيْحابي فيقول: إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم) فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم][2].

فقد عاشوا يبتدعون في دينهم طرقاً وعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله عليه الصلاة والسلام، وقد ضيعوا العمر بالشهوات والفواحش والزنا وأكل الربا والمال الحرام، وسفكوا الدماء التي حرَّم الله وسهروا على رؤية العهر وأفلام العري وفاسد القصص والأحلام.

ثانياً: يحشر الكافر على وجهه ذليلاً صغيراً حقيراً.

ففي الصحيحين عن أنس أن رجلاً قال: [يا نبي الله! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة][3].

والحديث تفسير لقوله جل ثناؤه في سورة الفرقان: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ليأتي الرجل

---

(1) تخريج المشكاة (5536)، ومختصر صحيح مسلم (1950) ورواه البخاري.

(2) مسلم (157/8) وهو في مختصر صحيح مسلم برقم (2151) وانظر تخريج المشكاة (5535).

(3) تخريج المشكاة (5537).

العظيمُ السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: اقرؤوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾][1].

وكذلك، فقد خرَّج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ[2] وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد. فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال لإبراهيم: ما تحتَ رجليك؟ فينظر فإذا هو بذِيخ[3] متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيُلقى في النار][4].

ثالثاً: يعرق الناس في أرض المحشر بقدر أعمالهم حيث تدنو الشمس منهم، بينما يظل الله سبعة أصناف من المؤمنين.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يعرق الناس يومِ القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويُلجمهم حتى يبلغَ آذانهم][5].

وفي صحيح الإمام مسلم عن المقداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [تُدنى الشمسُ يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكونُ الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه[6]، ومنهم من يلجمهم العرق إلجاماً. وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه][7].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [سبعة يظلهم الله في ظله يوم

---

(1) تخريج المشكاة (5543).
(2) القترة: السواد من الكآبة والحزن.
(3) الذيخ: ذكر الضبع الكثير الشعر.
(4) مختصر البخاري (1344).
(5) تخريج المشكاة (5539).
(6) الحقو: الخصر.
(7) مختصر صحيح مسلم برقم (1953).

لا ظل إلا ظِلهُ: إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجلٌ قلبُه مُعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابّا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ربَّ العالمين ، ورجل تَصَدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمَ شِمالُه ما تُنْفِقُ يمينهُ][1] .

وفي المسند بسند صحيح عن معاذ بن جبل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [المتحابون في الله يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله] .

وله شاهد فيه عن أبي هريرة مرفوعاً: [إن الله تعالى يقول: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظل عرشي ، يوم لا ظل إلا ظلي] وسنده صحيح[2] .

رابعاً: يشرب المؤمنون من الحوض فينعمون ، بينما يُحرم من ذلك المبتدعون والمحدثون.

وأحاديث الحوض تبلغ حد التواتر رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً منها:

1 ـ روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن ، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء][3] .

2 ـ روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: [إني فرطكم على الحوض ، من مرَّ عليّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً ، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني ، ثم يحال بيني وبينهم. (وفي لفظ: ليردن علي ناس من أصحابي حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني فأقول: أصحابي ، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك)][4] .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (537) ، ومختصر صحيح البخاري (374) .
(2) ورواه مسلم . انظر صحيح الجامع (1910) .
(3) تخريج الطحاوية 188 .
(4) ورواه أحمد . صحيح الجامع (2464) .

3 ـ وفي صحيح مسلم عن أنس قال: [أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتسماً، إما قال لهم وإما قالوا له: لم ضحكتَ؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه أنزلت عليَّ آنفاً سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر حتى ختمها ثم قال لهم: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة، عليه خير كثير، تردُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يُختلج العبد منهم فأقول: يا رب إنه من أمتي فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك](1).

ـ قال الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية: (ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض، والحوض في العرصات قبل الصراط، لأنه يختلج عنه ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط).

4 ـ وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء، وماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من يشرب منه فلا يظمأ أبداً](2).

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته حق).

وقال الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية: (والخلاصة من الأحاديث أنه حوض عظيم ومورد كريم، يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر، الذي هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج وأحلى من العسل وأطيب ريحاً من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر. وببعضها: كلما شرب منه وهو في زيادة واتساع، وأنه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب ويثمر ألوان الجواهر. وورد أن لكل نبي حوضاً وأن حوضه ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً).

---

(1) مسلم (400) وكذلك له شاهد في المسند (102/3).

(2) صحيح الجامع (3156).

قلت: يشير إلى ما رواه الترمذي وصححه الألباني عن الحسن عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن لكل نبي حوضاً، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردةً، وإني أرجو الله أن أكون أَكْثَرَهم ورادة][1].

والحوض قبل الميزان والله تعالى أعلم.

خامساً: ثم يشقى الناس في الزحام وشدة الحر فيأتون الأنبياء ليشفعوا إلى الله ويتخلصوا من المحشر ويبدأ الحساب.

ففي الصحيحين والمسند واللفظ للإمام أحمد عن أبي هريرة قال: [أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بِلَحْم فَدُفِعَ إليه الذراع وكانت تُعْجِبُهُ فنهس منها نَهسَةً ثم قال: أنا سيّد الناس يوم القيامة وهل تدرون لم ذلك! يجمع الله عز وجل الأولين والآخرين في صعيد واحد يُسْمِعُهم الداعي ويَنْفُذُهُمُ البصرُ وتَدْنُو الشمسُ فَيَبْلُغُ الناس من الغمّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه ألا ترون إلى ما قد بلغكم، ألا تنظرون مَنْ يَشفَعُ لكم إلى ربكم عزَّ وجل؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتون آدم ﷺ فيقولون: يا آدمُ أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم عليه السلام: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مِثْلَه ولن يغضبَ بعدَه مِثْلَه وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً ﷺ فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسمّاك الله عبداً شكوراً فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مِثْلَهُ ولن يغضَب بعدَه مِثْلَه وإنه كانت لي دعوةٌ على قومي نفسي نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم. فيَأتون إبراهيمَ فيقولون: يا إبراهيم! أنتَ نبيُّ الله وخليلُهُ من أهل الأرض اشفَعْ لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غَضِبَ اليوم غضباً لم يغضب قبله مِثْلَهُ ولن

(1) تخريج الطحاوية (190) وصحيح الجامع (2152).

يغضَبَ بعدَه مثله ، فذكر كَذِبَاتِه ، نفسي نفسي ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى عليه السلام . فيأتون موسى ، فيقولون: يا موسى أنت رسول الله اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قَبْلَهُ مِثْلَهُ ولن يغضبَ بعده مثله وإني قتلت نفساً لم أُومر بقتلها ، نفسي نفسي، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى . فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مَرْيَمَ وروح منه قال: هكذا هو ، وكلمت الناس في المهد فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكرْ له ذنباً ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتوني فيقولون: يا محمد! أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، غفر الله لك ذنبك ما تقدم منه وما تأخر فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فآتي تحتَ العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل ثم يفتَحُ الله عليَّ ويُلهمني من محامده وحُسْنِ الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ، فيقال: يا محمدُ ارْفَعْ رأسك، سَلْ تُعْطَه، اشفع تُشَفَّع، فأرفع رأسي فأقول: يا ربِّ أمتي أمتي! فيقال يا محمد أَدْخِل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب. ثم قال: والذي نفس محمد بيده ، لما بين مِصْراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى][1].

والشفاعة أنواع كما ذكر أهل العلم:

1 ـ الشفاعة الأولى وهي العظمى الخاصة بنبينا ﷺ من بين الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ليتخلص الناس من شقاء الزحام وآلام المحشر كما مر ذكره آنفاً.

2 ـ شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة.

---

(1) صحيح مسلم (127/1 - 129) ، وهو في مختصر مسلم برقم (92). ورواه البخاري وأحمد ، (تخريج الطحاوية 41).

3ـ شفاعته ﷺ في أقوام آخرين قد أُمِرَ بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

4 ـ شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

5 ـ الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب. ويستشهد لذلك بحديث عكاشة حين دعا له النبي ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

6 ـ الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه ، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف من عذابه. فإن قيل: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: 48]؟! قيل: لا تنفعهم في الخروج من النار ، كما تنفع عصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة.

7 ـ شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة ، ويستشهدون بحديث مسلم عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: [أنا أول شفيع في الجنة].

8 ـ شفاعته في أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار ليخرجوا منها ، وتشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون. ويستشهدون بحديث الإمام أحمد عن أنس ، عن النبي ﷺ: [شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي]. وغير ذلك مما سيأتي تفصيله في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى.

تنبيه: الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال كما ذكر الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية:

1 ـ المشركون والنصارىٰ والمبتدعون من الغلاة في المشايخ يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

2ـ المعتزلة والخوارج أنكروا شفاعته ﷺ وغيره في أهل الكبائر.

3 ـ أهل السنة والجماعة يقرون بشفاعته ﷺ بأهل الكبائر وشفاعة غيره ، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويَحُدَّ له حداً.

ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري: [إنهم يأتون آدم ، ثم نوحاً ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فيقول لهم عيسى عليه السلام: اذهبوا إلى

محمد فإنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتوني فأذهب فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً ، فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي ، لا أحسنها الآن ، فيقول : أي محمد ارفع رأسك وقل يُسمع ، واشفع تشفع ، فأقول ربي أمتي ، فَيُحَدُّ لي حدّاً فأدخلهم الجنة ، ثم انطلق فأسجد ، فيحدّ لي حدّاً][1] .

* * *

(1) سيأتي تفصيله في بحث الصراط والشفاعة .

الباب الرابع

- الحساب والقصاص والميزان -

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة الكهف: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وقال في سورة النبأ: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

فوصف الله سبحانه يوم الحشر ، يوم يسوق الملائكة الناس إلى المحشر ، ثم يجيء الله غاضِباً ليقتص من الطغاة والمجرمين ، ولينعم على المؤمنين ، فقد اصطفَّ الناس أمامه جميعهم بعد أن متعهم في الحياة الدنيا إلى حين ، فهاهم اليوم قد جاؤوا كما خلقهم أول مرة وقد علاهم الصمت والخوف من الله رب العالمين. كما قال جل ثناؤه في سورة هود: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ . وهنا قال في سورة النبأ: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ .

وقد وصف الله مجيئه يوم القيامة في سورة الفجر فقال: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ . ووصف النبي ﷺ في الحديث السابق مجيء الله يوم القيامة غاضباً كما تكرر على ألسنة الرسل: [إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله] ، فقد اجتمع اليوم بين يديه الطغاة والمتجبرون ، ومن عاثوا في الأرض فساداً وعطلوا شرعه ومنهاجه ، وظلموا الناس وسفكوا الدم الحرام ، وأكلوا الربا والمال الحرام ، وأكثروا من الزنا والفواحش وسهروا على موائد الخمر مع اللئام ، وصدوا عن سبيل الله بالمكر والخداع على مرّ الأيام ، فجاء الجبار اليوم غاضباً ليقتص منهم بعدما أمهلهم وصبر عليهم ، وبعدما أمدَّهم بالمال والبنين وأكثر لهم ، وتركهم يرأسون ويربعون ولكن أملى لهم .

ويفتتح القصاص بالقصاص بين البهائم .

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه والبخاري في الأدب المفرد وأحمد في المسند عن أبي هريرة مرفوعاً: [لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء](1) .

وله شاهد عند الإمام أحمد عنه مرفوعاً بلفظ: [يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء من القرناء ، وحتى الذرة من الذرة](2) . ومن طريق أبي حجيرة عنه مرفوعاً بلفظ: [ألا والذي نفسي بيده ، ليختصمن كل شيء يوم

(1) مختصر صحيح مسلم (1837) .

(2) أحمد (363/2) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1967) .

القيامة حتى الشاتان فيما انتطحتا] رواه أحمد وسنده حسن(1).

وفي مسند الطيالسي بسند صحيح عن أبي ذر قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان، فقال: [يا أبا ذر! أتدري فيما تنتطحان؟ قلت: لا، قال: ولكن ربك يدري، وسيقضي بينهما يوم القيامة](2). وفي زوائد المسند لعبد الله بن الإمام أحمد بسند جيد عن عثمان أن رسول الله ﷺ قال: [إن الجماء لَتُقَصُّ من القرناء يوم القيامة](3).

فإذا ما رأى الكافر قصاص البهائم بعضها من بعض، ثم سمع قول الله لها عند انتهائها: كوني تراباً تقطع قلبه ندامة وحسرة وقال: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾. فقد ارتسمت أمامه جرائمه التي أَجَّجَ فيها الحياة الدنيا، وتخيل لحظات القصاص اليوم، ولكنه أيقن أن لا فرار من أمر الله ولا نهاية لعذابه ونكاله، وعلم أن البهائم قد اقتصت من بعضها ولكنها سعدت إذ انتهت، وأما من كفر بالله من الثقلين فلا سبيل اليوم إلى الفرار أو الخلاص.

وفي التفاسير عن ابن عمر (ونحوه عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة) قال: (إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرض مَدَّ الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحوش، ثم يوضع القصاص بين البهائم، حتى يُقْتَصَّ للشاة الجماء من الشاة القرناء بنطحتها، فإذا فرغ من القصاص بينها قيل لها: كوني ترابا، فعند ذلك يقول الكافر ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾).

ثم يبدأ الحساب بعد دخول من لا حساب عليهم ولا عذاب إلى الجنة.

كما أخرج الشيخان عن عائشة أن النبي ﷺ قال: [ليس أحد يحاسَبُ يومَ القيامة إلا هلك. قلت: أوليس يقول الله: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش في الحساب يهلك](4).

وفي الصحيحين أيضاً عن عديٍّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: [ما منكم

---

(1) أحمد (290/2) وانظر الصحيحة ج 3 ص 609.
(2) أخرجه أحمد (162/5).
(3) أحمد (72/1) وقال الألباني بتحسينه (الصحيحة 1967).
(4) البخاري (4939) ومسلم (2876).

أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينَه وبينه ترجمان ، ولاحجابٌ يَحْجُبُه ، فينظرُ أيمنَ منه فلا يرى إلا ما قدَّم من عمله ، وينظرُ أشأمَ منه فلا يرى إلا ما قدَّم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النارَ تلقاء وجههِ ، فاتقوا النار ولو بشقِّ تمرة][1] .

وأما **تفصيل الحساب والقصاص والوزن** ، فألتمس العون من الله والتوفيق في ذلك ، فإن أحسنت فهو فضله سبحانه وكرمه ، وإن تعثرت فالله أعلم بحقيقة الموقف وترتيباته يوم القيامة.

أولاً: إن أول من يدعى على رؤوس الأشهاد يوم القيامة من كذب على الله بعبادته ، وأشرك في سريرته ونِيَّتِهِ.

كما يروي الترمذي والحاكم عن أبي هريرة قال: حدثني رسول الله ﷺ: [إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم ، وكلُّ أمة جاثية ، فأول من يدعىٰ رجل جمع القرآن ، ورجل قُتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله عز وجل للقارىء: ألم أُعَلِّمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب ، قال: فما عملتَ فيما علمتَ؟ قال: كنتُ أقومُ به آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله عز وجل له: كذبتَ ، وتقول له الملائكة: كذبتَ ، ويقول الله تبارك وتعالى: بل أردت أن يقال: فلان قارىء ، وقد قيل ذلك.

ويؤتى بصاحب المال ، فيقول الله عز وجل: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق. فيقول الله له: كذبت ، وتقول الملائكة: كذبتَ ، ويقول الله تبارك وتعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد ، وقد قيل ذلك.

ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله ، فيقول الله له: فيماذا قُتِلتَ؟ فيقول: أي ربِّ! أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قُتلت. فيقول الله له: كذبت ، وتقول الملائكة: كذبت ، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جريء ، فقد قيل ذلك.

---

(1) وفي رواية (ولو بكلمة طيبة) زيادة على ما سبق. تخريج المشكاة (115) وصحيح الجامع (5674).

ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة! أولئك الثلاثة، أولُ خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة][1].

قال معاوية عندما سمع بهذا الحديث: صدق اللهُ ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2].

ثانياً: يوضع الميزان ليزن أعمال العباد.

كما قال جل ثناؤه في سورة الأنبياء: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾. وكقوله في سورة الأعراف: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

فالوزن للأعمال بعد المحاسبة، فالمحاسبة لتقرير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها. قيل: ويحتمل المراد بالموازين عدة موازين ومؤشرات توزن بها الأعمال، أو المراد الموزونات لتنوع الأعمال الموزونة.

وفي صحيح الحاكم بسند جيد عن سلمان عن النبي ﷺ قال: [يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يا رب: لِمَنْ يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. ويوضع الصراط مثل حد الموس فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي. فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك][3].

فهو ميزان دقيق ذو كفتين، عالي الحساسية والدقة، يعطي الوزن الدقيق الصحيح لكل عمل حسب قيمته وظروف القيام به، والغربة التي رافقته ودواعي النفس والسوء التي صاحبته، وخَلاصُه من الرياء وحب السمعة، وبُعده عن

---

(1) صحيح الترغيب (20/1) ص 13 - 15 كتاب الإخلاص (الترهيب من الرياء) تحقيق الألباني.
(2) المرجع السابق.
(3) السلسلة الصحيحة (941).

الظهور وحب الرياسة ، والأذى الذي لحق بصاحبه ، والصبر الذي صُرِف له ، وكظم الغيظ ومعالي الأخلاق وجميل الحلم الذي احْتُسِبَ عند الله سبحانه ، فقد هيأ الله هذا الميزان يوم القيامة ليؤشر ويدخل في الحساب هذه الدقة العالية .

يروي ابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : [يُصاح برجلٍ من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فينشر له تسعةٌ وتسعون سِجلاً ، كل سجلٍّ مدُّ البصر ، ثم يقول الله تبارك وتعالى : هل تُنْكر من هذا شيئاً؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أظَلَمَك كَتَبتي الحافظون؟ فيقول : لا يا رب ، ثم يقول : ألك عذرٌ ، ألك حسنةٌ؟ فيهاب الرجل فيقول : لا ، فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة ، وإنه لا ظلم عليكَ اليوم ، فتُخرجُ له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول : إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة](1) .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾](2) .

وفي المسند بإسناد حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه : [أنه كان يجني سِواكاً من الأراك وكان دقيق الساقين ، فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله ﷺ : ممَّ تضحكون؟ قالوا : يا نبي الله من دقة ساقيه فقال : والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد](3) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم](4) .

---

(1) صحيح الجامع (7951) وتخريج الترغيب (2/240 - 241) .
(2) قد مضى في بحث الحشر والحوض وأرض المحشر .
(3) تخريج الطحاوية (82) ، تحقيق الألباني .
(4) مختصر البخاري (2134) في التوحيد . وأخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة برقم (2694) .

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [الطهور شطرُ الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض][1].

والخلاصة: لقد دلت السنة الصحيحة أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان، وثبت كذلك وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال والله أعلم بالكيفيات فهو العليم الحكيم الخبير.

ثالثاً: ينادي الله آدم: أخرج بعث النار.

كما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: [يقول الله تعالى يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك والخير كله في يديك. فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فعندها يشيب الصغير ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف. والذي نفسي بيده، أرجو أن تكونوا ربعَ أهل الجنة. فكبَّرنا. فقال: أرجو أن تكونوا ثلثَ أهل الجنة. فكبَّرنا. فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا. قال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود، أو كالرَّقمة في ذراع الحمار][2].

رابعاً: يُفْرز الناس كل قوم وما كانوا يعبدون. وينطق المؤمنون بكلمة السر بينهم وبين الله ربهم.

يروي عبد الله بن الإمام أحمد في «السنة» بسند صحيح عن ابن مسعود، أن النبي ﷺ قال: [يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام

---

(1) مختصر صحيح مسلم برقم (120).

(2) الرقمة: هي هنا الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل، وهما رقمتان في ذراعيها. انظر مختصر الإمام مسلم (103) تحقيق الألباني. والحديث في صحيح مسلم (139/1 - 140)، ورواه البخاري.

من العرش إلى الكرسي ، ثم ينادي مناد: أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً أن يولي كل ناس ما كان يتولىٰ ويعبد في الدنيا؟ أليس ذلك عدلاً من ربكم؟ قالوا: بلى فينطلقون ، فيتمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون ، فمنهم من ينطلق إلى الشمس ، ومنهم من ينطلق إلى القمر ، وإلى الأوثان ، ويتمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ، ولمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير ، ويبقىٰ محمد وأمته ، فيتمثل الرب عز وجل لهم فيأتيهم فيقول: ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس؟ فيقولون: بيننا وبينه علامة فإذا رأيناه عرفناه ، فيقول: ما هي؟ فيقولون: يكشف عن ساق. فعند ذلك يكشف عن ساقه فيخرون ، ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون ثم يقول: ارفعوا رؤوسكم ، فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم ، والرب عز وجل أمامهم](1).

كما أخرج الدارمي في سننه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا جمع الله العباد بصعيد واحد ، نادى مناد: يلحق كل قوم بما كانوا يعبدون. ويبقى الناس على حالهم ، فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم ها هنا؟ فيقولون: ننتظر إلهنا. فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: إذا تعرف إلينا عرفناه ، فيكشف لهم عن ساقه فيقعون سجداً وذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ويبقى كل منافق فلا يستطيع أن يسجد ، ثم يقودهم إلى الجنة](2).

فكان الإيمان بالأسماء والصفات سبباً للنجاة يوم القيامة ، لما اشتملت هذه الصفات على كلمة السر التي بين الله وبين المؤمنين وهي الساق التي هي صفة من صفاته ، وهي ساق تليق بجلاله وجماله وبكماله ، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

---

(1) مختصر العلو 69 ص 110. وقد أخرجه بتمامه عبد الله بن أحمد في «السنة» ص 177. وهو حديث صحيح كما أفاد الذهبي وأقره الألباني.

(2) سنن الدارمي (326/2) وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (584) وقال: (وهذا إسناد جيد رجاله ثقات رجال الصحيح).

أما أهل الكفر والرياء ، أهل الكبر والغرور والعناد أهل الشقاء ، فيلحق كل فئة منهم بمن كانوا يعبدون ، ومَنْ كانوا له يتبعون ، كما قال سبحانه في سورة الصافات : ﴿ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [لصافات : 22 - 24] .

وأما المؤمنون فيطمئن الله قلوبهم من الفزع ، .يضحك في وجوههم فيأنسون ويسعدون ، وتحيا قلوبهم بالأمن والرضا واليقين ولذة الإيمان .

فقد أخرج ابن خزيمة بسند صحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [إذا جمع الله الأولى والأخرى يوم القيامة ، جاء الرب تبارك وتعالى إلى المؤمنين فوقف عليهم ، والمؤمنون على كوم (فقالوا لعقبة : ما الكوم؟ قال : مكان مرتفع) فيقول : هل تعرفون ربكم؟ فيقولون : إن عرفنا نفسه عرفناه ، ثم يقول لهم الثانية ، فيضحك في وجوههم ، فيخرون له سجداً](1) .

خامساً : ثم تُوزَّعُ الصُحف ، فتطرحها الملائكة على أصحابها ، فمِنْ مُعْطاها باليمين ومن آخذها بالشمال .

كما قال جل ذكره في سورة الانشقاق : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق : 7 - 15] .

وقال في سورة الحاقة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة : 19 - 37] .

---

(1) السلسلة الصحيحة 756 . وهو عند ابن خزيمة في التوحيد ص 153 .

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يدني المؤمن فيضعُ عليه كَنَفُه[1] ويستره فيقول: أتعرف ذنبَ كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربّ، حتى قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾][2].

سادساً: ثم يحاج العبد ربه بمن يشهد عليه، فتنطق جوارحه لتحكم وتفضح عمل السر والعلانية وما كان لديه.

كما قال سبحانه في سورة فصلت: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: 19 - 23].

وكقوله جل ذكره في سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: 23 - 25].

وفي صحيح الإمام مسلم عن أنس قال: [كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: هل تدرون مما أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبةِ العبد ربَّه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلىٰ. فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيُخْتَمُ على فيه، ويقال لأركانه انْطُقي، فتنطق بأعماله، ثم

---

(1) أي: حفظه وستره.

(2) أخرجه البخاري (2441) ومسلم (2768) وأحمد (74/2).

يُخَلَّىٰ بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل][1] أي أجادل وأدافع وأخاصم .

سابعاً : يُجاء بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ فيها صبغة ، وَبأَبْأَسِ أهل الدنيا من أهل الجنة فيصبغ فيها صبغة .

يروي مسلم عن أنسٍ قال : قال رسول الله ﷺ : [يؤتىٰ بِأَنْعَم أهل الدنيا من أهل النار يومَ القيامة ، فَيُصْبَغُ في النار صَبْغة ، ثم يقال : يا ابن آدم! هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول : لا والله يا رب! ويؤتىٰ بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فَيُصبَغُ صَبْغَةً في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم! هل رأيت بؤساً قط؟ وهل مرَّ بك شدةٌ قط؟ فيقول : لا والله ، يا رب ، ما مرَّ بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط][2] .

* * *

(1) مختصر صحيح مسلم (1933) .

(2) مختصر صحيح مسلم (1986) .

الباب الخامس

ـ الصراط على جهنم والشفاعة ـ

قال الله جل ثناؤه في سورة مريم: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: 66 - 72].

والصراط: هو جسر على جهنم، يُوجَّهُ الناس إليه بعد مفارقهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط حيث يفترق المنافقون عن المؤمنين ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنعهم الوصول إليهم.

ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [إن رسول الله ﷺ سُئل: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال: هم في الظلمة دون الجسر][1].

وعن قتادة: (﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: هو المر عليها). أي: المرور على الصراط. وعن أبي الأحوص عن عبد الله: (في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: الصراط على جهنم مثلُ حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلِّم سلِّم).

---

(1) قد مضى تخريجه في بحث النفخ في الصور.

وأما قولـه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾، قال مجاهـد: (قضاء) أي: قضـاء مقضياً. وقال قتادة: (قسماً واجباً).

ثم قال جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ قال قتادة: (على ركبهم. قال: إن الناس وردوا جهنم وهي سوداء مظلمة، فأما المؤمنون فأضاءت لهم حسناتهم فأنجو منها، وأما الكفار فأوبقتهم أعمالهم واحتبسوا بذنوبهم)[1].

وفي صحيح مسلم من حديث جابر عن أم مُبَشِّر عن النبي ﷺ قال: [والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحدٌ بايع تحت الشجرة. قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ فقال: ألا تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾][2].

فأخبرها عليه الصلاة والسلام أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال نجاه الله منهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا﴾، ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا﴾ ولم يكن العذاب أصابهم بل أصاب غيرهم. ذكره شارح الطحاوية.

يروي الحاكم والبيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال: (يجمع الله الناس يوم القيامة، إلى أن قال: فَيُعْطَوْن نورهم على قدر أعمالهم، وقال: فمنهم من يعطىٰ نورَه مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطىٰ نوره فوق ذلك، ومنهم من يُعطىٰ نوره مثلَ النخلة بيمينه، ومنهم من يعطىٰ دون ذلك بيمينه حتى يكون آخر من يعطىٰ نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ مرة، إذا أضاء قدَّم قدمه، وإذا طفىء قام، قال: فيمر ويمرون على الصراط والصراط كحد السيف، دَحْضٌ، مزَلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشدِّ الرَّجل، يَرْمُل رَمَلاً، فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخرُّ يدٌ،

---

(1) تفسير الطبري.

(2) مسلم (2496) وأحمد (420/6).

وتعلق يد ، وتخر رجل وتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، فيخلصون فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجّانا منك بعد أن أراناك ، لقد أعطانا الله ما لم يُعطَ أحدٌ).

فصفة الصراط كحد الموس في دقته ، لا ينفع في المرور عليه إلا توفيق الله ورحمته.

يروي الحاكم بسند صحيح عن سلمان عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: [يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. ويوضع الصراط مثل حد الموس فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي ، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك] وقد مضى بتمامه.

كما لا يستطيع أن يتدخل في الموقف ويشفع ، إلا من أذن الله له بالكلام وأكرمه بالشفاعة فيحدِّد له من يستحقها ممن حال بينه وبينها ما يمنع.

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن ناساً قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: [نعم ، هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صَحْواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صَحْواً لَيْسَ فيها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله! قال: ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما. إذا كان يوم القيامة أذَّن مؤذن: ليتَّبِعْ كلُّ أمة ما كانت تعبد. فلا يبقىٰ أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبُد الله من برٍّ وفاجر ، أتاهم رب العالمين ، قال: فماذا تنظرون؟ يتبع كل أمة ما كانت تعبد. قالوا: يا ربنا فارَقْنا الناس في الدنيا أفقرَ ما كنا إليهم ولم نُصاحبهم.

وفي رواية: (فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون: نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة. كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل الشفاعة ، ويقولون: اللهم سَلِّم سَلِّم ،

فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب، فنـاج مُسَلَّم[1] ، ومخدوش مرسَل[2] ، ومكدوس في نار جهنم[3] ، حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدةً في الحـق ـ قد تبين لكم ـ من المؤمنين لله يـوم القيامـة لإخوانهم الذيـن فـي النـار. يقولون:

ربنا! كانوا يصومون معنا ، ويصلون ويحجُّون ، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون: ربنا! ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصفِ دينار من خير فأخرجوه فيُخرجون خلقاً كثيراً. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً. ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيراً. فيقول الله: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحمُ الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فَيُخرِجُ منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حُمَماً ، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهرُ الحياة ، فيَخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم ، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمان ، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه ، فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثلُهُ معه)][4] .

ولكن هذه **الشفاعة هي لأهل الكبائر دون الشرك** ، والذين قضى الله عليهم أن يمكثوا في النار دهوراً وأياماً ، حتى يحين وقت الشفاعة. كما روى مسلم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فَحماً أُذِنَ بالشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل: يا أهل

---

(1) أي: نجاة وسلامة.
(2) أي: خدش ولكن صاحبه ينطلق ويصل مع الإرهاق.
(3) أي: متراكم بعضه فوق بعض في جهنم.
(4) صحيح مسلم (118/1).

الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل][1] .

ولكن لا يبقىٰ في جهنم إلا كل هالك ، كل كافر مشرك معاند ، وأما من كان في قلبه ذرة إيمان وخوف من الله فلا يخلد فيها ، بل إن لم تنله شفاعة الرسل والمؤمنين والشهداء والأبرار نالته شفاعة خاصة من الله ، فإن من نطق يوماً بـ(لا إله إلا الله) صدقاً من قلبه لا يمكث في النار .

ففي صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض ، فيأتون آدم فيقولون: اشفع إلى ربك فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمان. فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسىٰ فإنه كليم الله. فيأتون موسىٰ فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسىٰ فإنـه روح الله وكلمتـه. فيأتون عيسىٰ فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمـد. فيأتوني فأقول: أنا لها فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن ، فأحمده بتلك المحامد وأخرُّ له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول يا رب أمتي أمتي فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان فأنطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأقول: يا رب أمتي أمتي فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان فأنطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول يا رب أمتي أمتي فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال حبة خردلة من إيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق فأفعل. ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال يا محمد: ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأقـول يا رب: ائذن لي فيمن قـال لا إله إلا الله! قال: ليس ذلك لـك ، ولكـن وعزتـي وجلالي وكبريائـي وعظمتي لأخرجن منهـا من قـال لا إله إلا الله][2] .

---

(1) المرجع السابق.

(2) أخرجه مسلم في الإيمان (193) والبخاري في التوحيد (مختصر البخاري (2133)).

ولكن من يحال بينه وبين الشفاعة.

أولاً: الكافرون المخلدون في النار.

كما قال جل ثناؤه في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾.

وكما قال سبحانه في سورة الحج: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

وكقوله في سورة السجدة: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

وكقوله في سورة محمد: ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾.

وكقوله جل ثناؤه في سورة الكهف: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾. والمهل: هو ما ذاب من الحديد والنحاس والقطران.

وقد خرّج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمنا حسنته يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدينا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها][1].

ثانياً: المُحدِثون المبتدعون، الذين يزيدون في دين الله أو ينقصون، ويأتون بالعبادة كما يشتهون.

قال الله في سورة مريم: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾.

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: [إني فرطكم على

---

(1) مختصر صحيح مسلم (60).

الحوض ، مَنْ مرَّ عليَّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً ، ليردن عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ، ثم يحال بيني وبينهم فأقول: إنهم مني فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول: سُحقاً سحقاً لمن غيَّر بعدي](1) .

فإن كانوا أئمة في الضلال والابتداع فأمرهم أشد ، وفرصة حصول الشفاعة في المستقبل لهم أبعد ، والأمر يختلف بين الإحداث في أصل الدين أو في فروعه. كما روى الشيخان وابن ماجه عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: [تكون دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها ، هم قومٌ من جلدتنا ، يتكلمون بألسنتنا ، فالْزَم جماعة المسلمين وإمامهم ، فإن لم تكن جماعة ولا إمام فاعتزل تلكَ الفرق كُلَّها ولو أن تَعَضَّ بأصلِ شجرة حتى يُدركَكَ الموتُ وأنت كذلك](2) .

ثالثاً: المنافقون الذين يُبْطِنُون ما لا يظهرون ، يبطنون الاستهزاء بالله وشرعه وحبّ الشهوات الحرام ، ويظهرون الإيمان والتقوىٰ والإحسان.

فقد قال الله في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ .

وقال في سورة التوبة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: 65 - 68].

وقد خرّج الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: [يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقىٰ من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً](3) .

---

(1) وفي لفظ (لمن بدل بعدي) ورواه أحمد. انظر صحيح الجامع (2464).

(2) رواه البخاري في الفتن ، ومسلم في الإمارة ، ورواه ابن ماجه. صحيح الجامع (2991).

(3) قد مضى تخريجه.

رابعاً: الأئمة الطغاة والحكام الظالمون.

قال الله في سورة النساء: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء: 108 - 109].

يروي الطبراني بإسناد حسن عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [صنفان من أمتي لن تنالَهُمَا شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، وكل غالٍ مارق][1].

* * *

(1) حسن. صحيح الجامع (3692). والسلسلة الصحيحة (470).

الباب السادس

ـ النار: صفتها وصفة أهلها ـ

فقد قال الله في سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾.

وقال في سورة المائدة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾.

وقال في سورة الأنعام: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وقال في سورة الكهف: ﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾.

وقال في سورة الحج: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ ﴾: مثل الكافر والمؤمن

اختصما في البعث) . وقال عطاء: (هم المؤمنون والكافرون). وقال عكرمة: (هي الجنة والنار ، قالت النار: اجعلني للعقوبة ، وقالت الجنة: اجعلني للرحمة).

وقوله: ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ قال سعيد بن جبير: (من نحاس) وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي. ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾ قال ابن عباس: (هو النحاس المذاب ، أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء) وكذلك تذوب جلودهم. ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ قال ابن عباس: (يضربون بها ، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور). وقال الفضيل بن عياض: (والله ما طمعوا في الخروج ، إن الأرجل لمقيدة ، وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها) . وتفصيل ذلك:

أولاً: نار جهنم سبعون ضعفاً من نار الدنيا.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [ناركم جزء من سبعين جُزءاً من نار جهنم . قيل يا رسول الله! إن كانت لكافية قال: فُضِّلَتْ عليهن بتسعة وستين جُزءاً كلهنَّ مثلُ حرها].

وفي رواية بلفظ: [ناركم هذه التي توقد بنو آدم ، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم] وفيها: [فإنَّها فَضَلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً ، كُلُّهُن مثلُ حرِّها][(1)].

وسؤال الصحابة (إن كانت لكافية) أي إن هذه النار الدنيوية كافية في العقبىٰ لاحتراق الكفار ، فهلاَّ اكتفي بها ، ولم زيد في حرِّها؟ . قلت: وهذه الحِدَّةُ لنار جهنم والأضعاف المضاعفة في اللهب عن نار الدنيا وصفها الله في سورة المرسلات بقوله: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

والمراد لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب ، ثم إن ظل الدخان لا يغني بنفسه من اللهب وإنما يتطاير الشرر من لهبها كالقصر . قال ابن مسعود: (كالحصون) . وقال ابن عباس ومجاهد: (يعني أصول الشجر) . وقوله ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ فيه أكثر من تأويل:

---

(1) مختصر صحيح مسلم برقم (1976).

التأويل الأول: قيل المراد بـه الإبل السـود ، ذكره الحسن وقتـادة واختـاره ابن جرير .

التأويل الثاني: قيل بل المراد قطع النحاس ، ذكره ابن عباس .

التأويل الثالث: قيل بل المراد به حبال السفن ذكره مجاهد[1] .

قال الحافظ ابن كثير : (وقال البخاري : ثنا عمرو بن علي ، ثنا يحيى أنا سفيان عن عبد الرحمن بن عابس قال : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ قال : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للبناء فنسميه القصر ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال) .
قلت : وخلاصة القول فإن شدة اللهب المنبعث من سعير جهنم يتطاير شرره في السماء بشدة وسرعة حتى ينشطر ثلاثة فروع كل واحد منهم كحبل السفينة المفتول والعياذ بالله .

ثانياً : نار جهنم لها سبعة أبواب وسبعون ألف زِمام .

فقد وصفها الله بذلك في سورة الحِجْر فقال : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أي : قد كتب الله لكل باب قسم من أتباع إبليس ومن سار على نهجه ، فقسم سبحانه أهل الضلال على هذه الأبواب ووزع دخولهم عليها . وقال عكرمة : (سبعة أبواب سبعة أطباق) . وقال ابن جريج : (سبعة أبواب : أولها جهنم ، ثم لظىٰ ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية) . وقال قتادة : (هي والله منازلهم بأعمالهم) ذكره ابن جرير .

وقد روى الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : [يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مَعَ كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها][2] .

ثالثاً : أهون أهل النار عذاباً يغلي منها دماغه .

فقد خرج البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [أهونُ أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو مُنْتَعل بنعلين يغلي منهما دماغه] . وفي لفظ في الصحيحين

(1) وانظر تفسير الطبري والقرطبي .
(2) مختصر صحيح مسلم (1975) .

من طريق النعمان بن بشير : [إن أهونَ أهل النار عذاباً من له نعلانِ وشراكانِ من نار ، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، ما يُرى أنَّ أحداً أشدُّ منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً](1) .

رابعاً : يسأل أهل النار أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء .

فقد وصف الله ذلك في سورة الأعراف بقوله : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ .

خامساً : يسأل أهل النار الله سبحانه العودة إلى الدنيا لاستئناف الصالحات فيخذلهم الجبار عز وجل وينتصر للمؤمنين .

وقد حفل القرآن بذكر مثل هذه الصور المخزية والمواقف المؤلمة فقال في سورة المؤمنون : ﴿ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ .

وقال في سورة فاطر : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ .

وقال في سورة السجدة : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ .

---

(1) ويشهد لذلك ما في مختصر مسلم برقم (99 - 100) .

وفي الصحيحين عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : [يقول الله لأهون أهلِ النار عذاباً يوم القيامة : لو أنَّ لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول : نعم . فيقول : أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تُشرك بي] .

وفي لفظ آخر : [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة : يا ابن آدم! كيف وجدت مضجعك؟ فيقول : شر مضجع ، فيقال له : لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول : نعم ، فيقول : كذبت ، قد أردت منك أهون من هذا ، وأنت في صلب (وفي رواية : ظهر) آدم أن لا تشرك بي شيئاً ولا أدخلك النار ، فأبيت إلا الشرك ، فيؤمر به إلى النار][1] .

سادساً : حوار المجرمين في نار جهنم .

لقد أخبر القرآن الكريم عن حوار حقيقي بين المستضعفين من المجرمين ورؤسائهم ، وعن محاولة كل طرف إلقاء اللوم وتعليق المصيبة على الآخر ، ظناً منهم أن ذلك قد ينفعهم بتخفيف العذاب عنهم ، ومضاعفته على زعمائهم رؤوس الكفر ليتشفىٰ بذلك غليلهم منهم .

فقد قال الله سبحانه في سورة إبراهيم : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ .

ثم كشف لهم الشيطان عن نفسه ومكره أحوج ما يحتاجون إلى رؤية صدق أمانيه : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 22] .

وقال في سورة الصافات : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾

(1) مختصر صحيح مسلم (1955) .

فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون (31) فأغويناكم إنا كنا غاوين (32) فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون (33) إنا كذلك نفعل بالمجرمين﴾ [الصافات: 27 - 34].

وقال في سورة فصلت: ﴿ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون (28) وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾ [فصلت: 28 - 29].

وقال في سورة سبأ: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين (31) قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين (32) وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ [سبأ: 31 - 33].

وقال جل ذكره في سورة (ص): ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق (57) وآخر من شكله أزواج (58) هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار (59) قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار (60) قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار (61) وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار (62) أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار (63) إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ [ص: 57 - 64].

وبين سبحانه في سورة الأعراف لعن المجرمين بعضهم بعضاً بعدما كانوا في الدنيا يتقاسمون المصالح والمكر فيما بينهم فقال سبحانه: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون (38) وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ [الأعراف: 38 - 39].

سابعاً: تـغـطّي النـار المجرمين كلٌّ حسب جُرْمـه وعِظَـم خطيئته.

فالمنافقون في أسفل الدركات كما قال جل ثناؤه في سورة النساء: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا﴾ [النساء: 145]. والكانزون للمال والخير دون تزكيته وإخراج حق الفقير منه يحمى عليهم في صحائف الذهب والفضة

وما كانوا يكنزون ويمنعون ، كما قال سبحانه في سورة التوبة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: 34 - 35].

وفي صحيح الإمام مسلم عن سمرة بن جندب ، أن النبي ﷺ قال: [منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِه[1] ، ومنهم من تأخذه النار إلى تَرْقُوَتِهِ][2].

ثامناً: يغلظ جلد الكافر وضرسه يوم القيامة لتزداد سعة العذاب.

قول الله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56].

وقد خرَّج الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما بين منكبي الكافر في النار مسيرةُ ثلاثة أيام للراكب المسرع. وفي رواية: (ضِرْسُ الكافر مثل أحدٍ ، وغِلظ جلده مسيرة ثلاث)][3].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً ، وإن ضِرْسَهُ مثل أحد ، وإن مَجْلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة][4].

تاسعاً: طعام أهل النار الزقوم وشرابهم طينة الخبال وصديد أجسامهم.

فقد قال الله سبحانه في سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

---

(1) الحجزة: وسط الإنسان ومعقد إزاره.

(2) وانظر مختصر صحيح مسلم (1953) في تفصيل أكبر من حديث المقداد بن الأسود.

(3) مختصر صحيح مسلم (1983).

(4) تخريج المشكاة (5675) والسلسلة الصحيحة (1105) وصحيح الجامع (2110) بزيادة (وأربعون ذراعاً بذراع الجبار) أي من جبابرة الآدميين ممن كان في القرون الأولى ممن كان أعظم خلقاً وأطول أعضاء وذراعاً من الناس.

ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: 43 - 49]. وقال في سورة الصافات: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 62 - 68].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ قال رسول الله ﷺ: [لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشَهم، فكيف بمن يكون طعامه؟!][1].

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسْقون من عُصَارة أهل النار، طينةِ الخبال][2].

عاشراً: ثم يرسل عليهم البكاء فيبكون الدم ندماً وحسرة حتى يصير في وجوههم أخاديد تتسع للسفن.

ففي مستدرك الحاكم بسند حسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: [إن أهل النار ليَبْكون حتى لو أُجْريت السفن في دموعهم جَرَتْ، وإنهم ليبكون الدم][3].

ووراه في شرح السنة عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [يا أيها الناس! ابكوا فإن لم تستطيعوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم، كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع، فتسيل الدماء، فتقرَّح العيون، فلو أن سُفُناً أُزْجِيَتْ[4] فيها لجَرَت][5].

---

(1) تخريج المشكاة (5683) وصحيح الجامع (5126).
(2) تخريج المشكاة (5112) وصحيح الجامع (7896).
(3) حسن. سلسلة الأحاديث الصحيحة (1679).
(4) أي: أرسلت.
(5) وانظر تفصيل ذلك في الصحيحة (1679).

حادي عشر : الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة .

قول الله سبحانه : ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴾ [التكوير : 1 - 2] .

وعند البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [الشمس والقمر مكوران يوم القيامة][1] .

ورواه البيهقي بلفظ : [الشمس والقمر ثوران مكوران[2] في النار يوم القيامة][3] .

* * *

(1) وفي لفظ (يكوَّران) . انظر السلسلة الصحيحة (124) وصحيح الجامع (3631) .
(2) أي : ملقيان .
(3) وصححه الألباني في الصحيحة (124) .

الباب السابع

ـ الجنة وصفتها وصفة أهلها ونعيمها ـ

فقد قال الله سبحانه في سورة الواقعة: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ [الواقعة: 1 - 40].

وقوله: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ قال عثمان بن عبد الله بن سراقة: (اثنان في الجنة وواحد في النار. يقول: الحور العين للسابقين والعُرُب الأتراب لأصحاب اليمين).

وقوله: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ مبتدأ وخبر، أي: السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله. وفيه أقوال:

الأول: عن عثمان بن أبي سودة قال: (﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ أولهم رواحاً إلى المساجد، وأسرعهم خفوقاً في سبيل الله).

الثاني: عن محمد بن سيرين قال: (هم الذين صلوا إلى القبلتين، دليله قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾).

الثالث: عن محمد بن كعب القُرظي قال: (إنهم الأنبياء).

الرابع: عن سعيد بن جبير قال: (السابقون إلى التوبة وأعمال البر، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ثم أثنى عليهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾).

الخامس: عن ابن عباس قال: (إنهم أربعة، منه سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية، وسابقان في أمة محمد ﷺ وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما)(1).

السادس: ما ذكره ابن جرير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ قال: (هم الذين سبقوا الناس أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله). قلت: وهم في كل زمان ومكان من سارعوا إلى تعظيم الحق وسابقوا إلى المعالي وحمل لواء الحق وحراسة دين الله وسياسة الدنيا به.

وأما تفصيل دخول أهل الجنة الجنة:

أولاً: يدخل الجنة السابقون السابقون (من لا حساب عليهم ولا عذاب).

كما قال الله جل ثناؤه في سورة الزمر: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: 10].

وكما قال جل ذكره في سورة المؤمن: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [المؤمن: 40].

وفي صحيح الحاكم وسنن البيهقي بسند صحيح على شرط الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أتعلمُ؟ أولُ زمرةٍ تدخل الجنة من أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم؟ فقال: المهاجرون، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أوقد حوسبتم؟ فيقولون: بأي شيء نحاسبُ وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا

---

(1) انظر لما سبق تفسير القرطبي والطبري وابن كثير.

على ذلك؟ قال: فيفتح لهم فيقيلون فيها أربعين عاماً قبل أن يدخلها الناس][1] .

وكذلك فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، والطبراني في المعجم عن نعيم بن همار عن النبي ﷺ قال: [أفضل الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول فلا يلفِتون وجوهَهُمْ حتى يُقْتَلوا ، أولئك يتلبطون في الغرف العُلىٰ من الجنة ، يضحك إليهم ربُّكَ ، فإذا ضحك رَبُّكَ إلى عبد في موطن فلا حساب عليه][2] .

فقُدِّم السابقون أمام الخلق يوم القيامة إلى الجنة ، وهم حملة لواء الحق في كل زمان من كل أمة ، الذين ربطوا مستقبلهم ومصيرهم بمستقبل هذا الحق وهذا الدين العظيم ، وهو الراجح لديَّ في تعريف وترجمة السابقين وفي تفسير قوله سبحانه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ . والدليل عندي ما أخرج أبو نعيم في الحلية وعنه الديلمي بسند جيد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [في كل قرن من أمتي سابقون][3] . وفي رواية : [لكل قرن من أمتي سابقون][4] . وفي طريق آخر من حديث أنس بلفظ: [لكل قرن سابق][5] وهم كما وصفهم ربهم: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ . وفيها تفسيران اثنان:

الأول: قيل جماعة من الأمم الماضية وقليل من أمة محمد (ممن آمن بمحمد ﷺ) .

الثاني: وقد روي عن أبي بكر رضي الله عنه: (كلا الثلتين من أمة محمد ﷺ ، فمنهم من هو في أول أمته ، ومنهم من هو في آخرها) .

والثلة في لغة العرب: من ثَلَلْتُ الشيء أي: قطعته (والثلة: كالفرقة) .

ثم وصفهم ربهم سبحانه بأنهم ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ والوضن في كلام العرب: النسج المضاعف ، من وضَنَ فلان الحجر والآجُرَّ إذا وضعه بعضه فوق بعض فهو موضون .

---

(1) السلسلة الصحيحة (853) وصحيح الجامع (95) .
(2) صحيح الجامع (1118) .
(3) حسن . السلسلة الصحيحة (2001) .
(4) صحيح الجامع (5048) .
(5) صحيح الجامع (5047) .

قال ابـن عباس: (﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾: منسوجـة بالذهب). وقـال عكرمـة: (مشبكة بالدر والياقوت).

ثم زادهم سبحانه على سرورهم وهم على سررهم شراباً فقال: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ قال قتادة: (أي: من خمر جارية) وهم: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ قال قتادة: (ليس لها وجع رأس). فلا يعتري شاربها الصداع كما كان يعتري شارب خمر الدنيا، فإن الاسم واحد والطعم واللون واللذة شيء آخر.

وأما قوله: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ فقد قرأها قراء المدينة والبصرة بفتح الزاي (يُنْزَفون) أي: لا تنزف عقولهم. بينما قرأها قـراء الكوفـة بكسر الزاي (ولا يُـنْـزِفـون) أي: لا ينفـد شرابهم[1].

ثانياً: ثم يدخل الجنة أصحاب اليمين.

وأصحاب اليمين هم من أخذ نحو اليمين وأعطي كتابه بيمينه يوم الحشر في أرض المحشر. وقد وصف الله مقامهم: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي في ثمر سدر موقر حملاً لا شوك فيه، ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ وهو الموز بعضه على بعض كما ذكر ابن عباس. ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: ظل دائم لا تنسخه الشمس فتذهبه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن في الجنة لشجرةً يسير الراكبُ الجوادَ المضمَّر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها][2]. زاد ابن جرير في رواية عنده: (اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾).

ثم وصف سبحانه ما أعد لهم من الأبكار وأجمل النساء فقال جل ذكره: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾. قال سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس: (هن من بني آدم، نساء كن في الدنيا، ينشئهن الله أبكاراً عذارى عرباً). وعُرباً: جمع عَروب وهي المرأة المتحبِّبة المتوددة إلى زوجها. وكانت العرب تقول للمرأة إذا كانت حسنةَ التبعل: إنها لعَرِبَة. وقوله: ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: على ميلاد واحد، وهو جمع (تِرْب) وهو ما كان من سنٍّ واحدة.

---

(1) تفسير الطبري.

(2) ورواه أحمد عن أنس والترمذي عن أبي سعيد. انظر صحيح الجامع (2121).

قال سعيد بن جبير: (العُرُب اللاتي يشتهين أزواجهنَّ).

وأما تفصيل الدخول والتنعم وأشكال هذا النعيم فهي:

أولاً: تدخل إلى الجنة الزمرة الأولى.

وهذه الزمرة وصفها النبي ﷺ في الصحيحين من حديث أبي هريرة بقوله: [أول زمرة تَلِجُ الجنة صورتُهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصُقون فيها، ولا يمتخطون ولا يتغوطونَ، آنيتُهُمْ فيها الذَهب، وأمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامِرُهُمْ الألُوَّة، ورشحُهم المِسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مُخُّ سُوقِها من وراء اللحم من الحُسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلبٌ واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً][1].

ثانياً: ثم تدخل الزمرة الثانية.

وهذه الزمرة جاء وصفها في الصحيح والمسند. فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلةَ البدر، والثانية على لونِ أحسنَ من كوكب دري في السماء لكل رجل منهم زوجتان، على كل زوجة سبعون حُلة يبدو مُخُّ ساقها من ورائها][1].

ولفظ الصحيحين من طريق أبي هريرة: [أول زمرة تدخلُ الجنة على صورة القمر ليلةَ البدر، والذين على أثرهم كأشَدِّ كوكب دري في السماء إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد لا اختلاف بينهم ولا تباغُضَ، ولا تحاسُدَ، لكل امرىء منهم زوجتان، كلُّ واحدة منهما يُرى مخ سوقِها من وراء لحمها من الحُسن، يسبحون الله بكرة وعشيا، لا يسقمون ولا يمتخطون ولا يبصُقونَ، آنيتُهُمُ الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامِرهم الألُوَّة][1]. والألُوَّة: العود الذي يتبخر منه.

ثالثاً: أول طعام يُستقبل به أهل الجنة هو لحم كبد الحوت.

فإن الملائكة تستقبلهم يوم القيامة فور دخولهم الجنة بوجبة عظيمة اختارها

---

(1) انظر مختصر صحيح مسلم (1956) و(1957) وصحيح الجامع (2561) (2562) (2563).

الرحمان ضيافة لهم ، وهي لحم لذيذ من كبد الحوت يفوق بلذة طعمه كل لذة حصلت لهم من اللحم في الدنيا .

فقد أخرج الطيالسي بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال : [أول شيء يأكله أهلُ الجنة زيادةُ كبدِ الحوت][1] .

قلت : وهذا معلوم في التوراة . ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : [تكون الأرض يومَ القيامة خبزةً واحدة ، يتكفَّؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدُكُمْ خُبْزَتَهُ في السفر نزلاً لأهل الجنة . فأتى رجل من اليهود ، فقال : بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم! ألا أخبرُك بِنُزُلِ أهل الجنة يوم القيامة؟ قال : بلى ، قال : تكون الأرض خبزة واحدة كما قال النبي ﷺ . فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : ألا أخبرك بإدامهم؟ بالام والنون . قالوا : وما هذا؟ قال : ثورٌ وَنون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً][2] . وبالام بالعبرانية وهي تعني الثور . والنون : الحوت . وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان : وقد سئل رسول الله ﷺ عن تحفة أهل الجنة حين يدخلونها فقال : [زيادة كبد النون (أي : الحوت) . قال : فما غذاؤهم على أثرها؟ قال : ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها . . .] الحديث[3] .

رابعاً : سائر طعام أهل الجنة اللحم والفاكهة وأصناف من ذلك كثيرة .

فقد قال الله سبحانه في سورة الزخرف : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ . وقال في سورة الحاقة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ .

وقال في سورة المرسلات : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

---

(1) صحيح الجامع (2564) وأحمد في المسند (108/3) و(189/3) .

(2) البخاري (331/2) وصحيح الجامع (2985) .

(3) مختصر مسلم (1963) .

وقال في سورة الطور: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾. وكذلك كما مر تفصيل الطعام في سورة الواقعة، فالسابقون السابقون طعامهم وصفه سبحانه بقوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، وأصحاب اليمين وصفه بقوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

وفي صحيح الإمام مسلم من حديث جابر مرفوعاً: [يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم ذلك جشاء[1] كريح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس. وفي رواية: قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك. يلهمون التسبيح والحمد][2].

وكذلك أخرج الإمام أحمد في المسند والنسائي في السنن بإسناد صحيح عن زيد بن أرقم قال: [جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: نعم والذي نفس محمد بيده، إن أحدهم ليعطىٰ قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة. قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة أذى. قال: تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بطنه][3].

وقد روىٰ الحسن بن عرفة عن ابن مسعود مرفوعاً: (إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً) وإسناده جيد كما ذكر الشيخ وانلي في صفة الجنة، ثم ساق أثراً طيباً من كلام ابن القيم حيث قال: (تضمنت النصوص أن لهم فيها الخبز واللحم والفاكهة والحلوى وأنواع الأشربة من الماء واللبن والخمر وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، وأما المسميات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر).

خامساً: أما شراب أهل الجنة فمن الأنهار والعيون والكوثر.

فقد قال الله في سورة محمد: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ

(1) الجشاء: ريح يخرج من الفم عند الشبع ويرافقه صوت.
(2) صحيح مسلم (147/8).
(3) صفة الجنة. وانلي ص 124.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ . فانتفت الآفات عنها: فالماء يصبح آسناً من طول المكث واللبن يتغير طعمه مع الزمن ، والخمر تتغير لذته ومذاقه مع الوقت ، وأما العسل فآفته عدم التصفية. فقد انتفت كل هذه الآفات.

والأنهار تجري تحت الغرف والقصور والبساتين وتجوب في ربوع الجنة كما قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وفي سورة التوبة: ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وفي سورة الكهف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ . وقال في سورة الكوثر: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾.

وفي المسند وجامع الترمذي بإسناد صحيح عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة بحرَ الماء وبحرَ العسل وبحرَ اللبن وبحرَ الخمر ثم تشقق الأنهار بعد][1] . قال ابن القيم: (نفى الله عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو والإنزاف وعدم اللذة).

وهذه الأنهار تتفجر من أعلاها ثم تنحدر نازلة لتمر تحت قصور وبيوت ومساكن المؤمنين. فقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة مائة درجة أعدها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تتفجر أنهار الجنة][2] .

وفيه أيضاً عن أنس مرفوعاً: [بينما أنا أسيرُ في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدرِّ المجوف ، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربُّك فإذا طينهُ مسك أذفر[3]][4] .

---

(1) تخريج المشكاة (5650).
(2) ورواه أحمد. انظر الصحيحة (918).
(3) أي: شديد الرائحة.
(4) ورواه الترمذي. انظر صحيح الجامع (2854).

وفيه أيضاً عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: [رفعت إلى سدرة المنتهى في السماء السابعة، نبقها مثل قلال هجر، وورقها مثل آذان الفيلة، يخرج من ساقها نهران ظاهران، ونهران باطنان. فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: أما النهران الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات][1]. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (إن أنهار الجنة تفجر من جبل مسك).

ولمسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [سَيحان وجيحان والفرات والنيل كلها من أنهار الجنة][2].

ولكن ألذ وأطيب هذه الأنهار هو نهر الكوثر الذي اختص الله به نبينا عليه الصلاة والسلام وشرفه به دون غيره بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾. والأبتر هو المقطوع الخير الذي سيحرم من الشرب منه ومن دخول الجنة أصلاً. وفي صحيح الإمام مسلم عن أنس عن النبي ﷺ قال: [الكوثر نهر في الجنة وعدنيه ربي عز وجل][3]. وعند الترمذي بسند صحيح عن ابن عمر مرفوعاً: [الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج][3]. وهذه الأنهار تجري لا أخاديد لها كأنهار الأرض.

قال أنس: (أظنكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض؟ والله إنها لسائحة على وجه الأرض إحدى حافتيها اللؤلؤ والأخرى الياقوت وطينها المسك الأذفر الذي لا خلط له) ذكره ابن أبي الدنيا[4].

وقد ذكر ابن القيم في حادي الأرواح رواية عن أنس مرفوعاً: [أعطيت الكوثر فإذا هو يجري ولم يشق شقاً. وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى تربته فإذا مسك أذفر وإذا حصباؤه اللؤلؤ][5].

---

(1) السلسلة الصحيحة (112).
(2) صحيح الجامع (3546)، ومختصر مسلم (1968).
(3) صحيح الجامع (4491)، وتخريج المشكاة (5641).
(4) وانظر صفة الجنة. وانلي.
(5) صفة الجنة. وانلي (114).

وأما **العيون** فكثيرة كما قال سبحانه في سورة الحجر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ وكذلك في سورة الذاريات وهي أنواع:

1 ـ عيون نضاخة بالماء والمسك والفواكه. كما قال سبحانه في سورة الرحمان: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ قال أنس: (نضاختان بالمسك والعنبر ينضخان على دور أهل الجنة كما ينضخ المطر على دور أهل الدنيا). وقال سعيد: (نضاختان بالماء والفواكه).

2 ـ عيون جارية كما قال سبحانه في سورة الرحمن: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾. قال البراء: (اللتان تجريان أفضل من النضاختين). وكذلك وصفها الله في سورة الغاشية بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾.

3 ـ عين السلسبيل: وهي عين ممزوجة بالزنجبيل، كما ذكر سبحانه في سورة الدهر: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾.

4 ـ عين ماء يمزج بالكافور: وهو خاص بالأبرار المقربين كما قال سبحانه في سورة الدهر: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

5 ـ عين ماء يمزج بالتسنيم. وهو قوله في سورة المطففين: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ قال ابن عباس: (يشرب منها المقربون صرفاً وتمزج لمن دونهم). وكذلك قال ابن مسعود: (ومزاجه من تسنيم: تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفاً).

وقال ابن القيم رحمه الله: (أخبر تعالى عن مزاج شرابهم بالكافور ثم الزنجبيل، وفي الأول برد يقابل حرارة الخوف، ثم يجيء الزنجبيل فيعدل بحرارته وطيبه)[1].

---

(1) انظر صفة الجنة. وانلي.

سادساً: لباس وثياب أهل الجنة وأعمارهم فيها.

فقد قال الله سبحانه في سورة الكهف: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾. والسندس والاستبرق كما قال الزجاج: (هما نوعان من الحرير). وقد تكرر ذكره في سورة الدخان حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾. والسندس ما رَقَّ من الديباج والاستبرق ما غلظ منه، وقد ذكر الله الحرير في أكثر من موضع كما في سورة الدهر: ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ وكما في سورة فاطر: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾. وقد وصف الله ذلك اللباس بأنه لباس زينة وجمال ينعم به أهل الجنة ويزدادون به جمالاً إلى جمالهم، فقال في سورة الدهر: ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾. وهذه الثياب تخرج من شجرة طوبى في الجنة.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [طوبى شجرة في الجنة، مسيرةَ مائةِ عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها][1].

وفي الصحيحين عن البراء قال: أهدي لرسول الله ﷺ ثوب حرير فجعلوا يعجبون من لينه فقال رسول الله ﷺ: [تعجبون من هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا][2].

وقد جاء تفصيل ألوان الزينة من الثياب والنعيم، في الجنة للمؤمنين في حديث الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: [قلنا يا رسول الله! إنا إذا رأيناكَ رقَّت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجَبَتْنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد. قال: لو تكونون ـ أو قال ـ لو أنكم تكونون على كل حالٍ على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفِّهم ولزارتكم في بيوتكم ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفِرَ لهم. قلنا: يا رسول الله حدِّثنا عن الجنة ما بناؤها قال: لبنَة ذهب ولبنَة

---

(1) السلسلة الصحيحة (1985).

(2) وفي صحيح مسلم من حديث البراء بلفظ: (خير منها وألين) مختصر مسلم (1701).

فضة ، ومِلاطُها المِسْكُ الأَذْفَرُ ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابُها الزَّعفرانُ ، من يَدْخُلُها يَنعم ولا يَبْأَس ، ويخلُدُ ولا يموت ، لا تبلى ثيابُهُ ولا يفنى شبابُه ، ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتُهمُ : الإمام العادل ، والصائم حتى يُفطِرَ ، ودعوةُ المظلوم تحملُ على الغمام وتُفْتَحُ لها أبواب السماء ويقول الربُّ عز وجل : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين][1] .

وأما أعمار أهل الجنة فهي سنُّ الشباب والمتعة والقوة وهي سن الثلاثينات .

فقد روى الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [أهل الجنة جُرْدٌ ، مُرْدٌ ، كُحْلٌ ، لا يفنى شبابهم ، ولا تبلى ثيابهم][2] .

وفي رواية في المسند من طريق معاذ بلفظ : [يدخل أهل الجنة الجنةَ جُرْداً مرداً مكحلين (وفي رواية : كأنهم مكحلون) أبناء ثلاث وثلاثين (وفي رواية : أبناء ثلاثين)][3] .

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً . وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً . وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرموا أبداً . وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأَسوا أبداً] . وذلك قوله عز وجل : ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : 43][4] .

سابعاً : عدد صفوف أهل الجنة وتفصيل صفاتهم التي استحقوا بها هذا الخلود .

ففي المسند وجامع الترمذي بسند صحيح عن بريدة عن النبي ﷺ قال : [أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون منها من هذه الأمة ، وأربعون من سائر الأمم][5] .

وأما تفصيل صفاتهم :

ففي الصحيحين من حديث حارثة بن وهب قال : سمعت النبي ﷺ يقول : [ألا

---

(1) السلسلة الصحيحة (967) و(969) ورواه الترمذي وصححه الألباني .
(2) تخريج المشكاة (5638) .
(3) صحيح الجامع (7928) .
(4) مختصر مسلم (2140) .
(5) صحيح الجامع (2523) .

أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ متكبر][1] .

والعتل : الغليظ ، والجواظ : المختال الجافي .

وفي صحيح مسلم من حديث عياض المجاشعي قوله ﷺ: [أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال][2] الحديث .

وعند البخاري عن عمران بن حصين قال : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : [اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء ، واطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء][3] .

وقد وصفهم الله في أكثر من موضع :

ففي سورة آل عمران : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران : 133 - 136] . فوصفهم بالمتقين .

ووصفهم في سورة البقرة بقوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : 25] فوصفهم بالمؤمنين العاملين .

ووصفهم في سورة فصلت بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : 30] فوصفهم بالاستقامة على الدين .

---

(1) صحيح الجامع (2595) .

(2) مختصر مسلم (1973) .

(3) ورواه أحمد عن ابن عباس . صحيح الجامع (1041) .

ووصفهم في سورة التوبة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111] فوصفهم بالمقاتلين في سبيل الله العظيم.

ووصفهم في سورة التوبة أيضاً بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: 20 ـ22] فوصفهم بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين.

ووصفهم في سورة يس بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: 11] فوصفهم بالخاشعين الذاكرين.

وجمع لهم من محاسن الوصف في سورة المؤمنون بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فوصفهم بالقيام على أمر الدين. من صلاة وزكاة وحفظ للفروج والأمانة والعهد وإعراض عن اللغو واللاغين. وجمع لهم وصفاً مثله في سورة التوبة بقوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112] فوصفهم بالتائبين العابدين السائحين الراكعين الساجدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والحافظين لحدود الله، المؤمنين.

يروي ابن ماجه عن ابن مسعود قال: [خط لنا رسول الله ﷺ خطاً وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره ثم قال: هذه سبل وعلى كل سبيل

منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾][1] .

وفي صحيح البخاري عن جابر قال: [جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ فقال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً. فقالوا: مثله مثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً. فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أوّلوها له يفقهها. فقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان. الدار الجنة ، والداعي محمد. فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله ، ومحمد فَرَّقَ بين الناس][2] .

ثامناً: أخلاق أهل الجنة: لا غل ولا حقد ولا حسد ، وقد أذهب الله عنهم الحزن والنصب والتعب.

فقد قال الله في سورة الأعراف: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43].

ووصفهم كذلك في سورة فاطر: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: 33 - 35].

وعن حفص عن شمر قال: (لما أدخل الله أهل الجنة الجنة قالوا: الحمد الله الذي أذهب عنا الحزن ، قال: حزن الخبز) فشبه السعي في الحياة بالسعي للخبز.

وعن قتادة قال: (كانوا في الدنيا يعملون وينصبون وهم في خوف أو يحزنون).

وعن ابن عباس في قوله: (﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾: قال: حزن النار).

---

(1) قد مضى تخريجه. وانظر صحيح ابن ماجه (11) ص 7 تحقيق الألباني.

(2) صحيح البخاري 7281. وانظر صفة الجنة وانلي ص 40 - 41.

وروى ابن جرير بسنده عن الحسن قال: (إن المؤمنين قوم ذُلُل ، ذلت والله الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم مرض ، وإنهم لأصحة القلوب ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ والحزن: والله ما حزنهم حزن الدنيا ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وإنه من لا يتعز بعزاء الله يقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب ، فقد قل علمه وحضر عذابه).

فاليوم ينعمون بطيب القول وجميل المنظر ولذيذ المطعم والمشرب ، وقد نزع الله من صدورهم كل غلٍّ أو حسد كما قال في سورة الحجر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ . وكما قال في سورة الطور: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ . وكما قال في سورة النبأ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ وكذلك في سورة الغاشية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ .

فإن الحزن الذي كان في الدنيا والنصب ، وما في مصائب الحياة من انعكاس على القلوب والنفوس بالآلام والتعب ، قد يغير بعض القلوب ويشغلها بأمراض الغل والحسد ، وقد يصيب الألسنة في حالة ضعف القلوب فيشغلها بعيوب الناس والغيبة والنميمة من القول وما فسد ، فاليوم طهر الله الألسنة والقلوب من كل هذه الآفات التي عكرت صفو الحياة الدنيا وكانت شكلاً من أشكال النكد ، فصار حديثهم اليوم التسبيح والحمد لله المنعم الكريم.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ولا يتغوطون فيها ولا يتمخطون فيها ، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم

من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً][1] .

تاسعاً : سكان الغرف في الجنة هم السابقون السابقون .

فقد قال الله في سورة العنكبوت : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت : 58 - 59] .

وقال في سورة الزمر : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الزمر : 20] . وقال في سورة الفرقان : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : 75] .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : [إن أهل الجنة يتراءَون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق ، من المشرق أو المغرب لتفاضُلِ ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله ! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرُهم . قال : بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين][2] .

قال ابن القيم رحمه الله : (أخبر أنها غرف فوق غرف ، وأنها مبنية بناء حقيقة ، لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل ، وأنه ليس هناك بناء . بل تتصور النفوس غرفاً مبنية كالعلالي ، بعضها فوق بعض حتى كأنه ينظر إليها عياناً . ومبنية صفة للغرف الأولى والثانية ، أي لهم منازل مرتفعة وفوقها منازل أرفع منها) يشير إلى آية الزمر .

وأما آية الفرقان فقال فيها : (الغرفة جنس كالجنة . وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله ، الغرفة والتحية والسلام ، في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم ، فبدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم) .

---

(1) قد مضى تخريجه برواياته المختلفة في صفة الداخلين الجنة .

(2) مختصر صحيح مسلم (1961) ورواه البخاري .

وقد وصف الله أهل الغرف بأنهم ينعمون فيها بنعمة الأمن ، مقابل ما اعتراهم في الحياة الدنيا وهم يجاهدون ويحذرون ، ويفقدون الأمن أحياناً أو يخافون. فقال في سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: 37].

وقد وصفهم نبيُّهم بالصفات العليا التي استحقوا بها السكن في الغرف وامتازوا بها على غيرهم وهي إطعام الطعام والمداومة على الصيام والصلاة بالليل والقيام. فقد خرج الطبراني بسند حسن عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: [إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام][(1)].

عاشراً: الشهداء في سبيل الله يزوج كل منهم اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ، والكاظمون الغيظ يخيَّرون منهن ما شاؤوا.

فقد قال الله في سورة محمد: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ [محمد: 4-6].

وقال في سورة الدخان: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: 54-55].

والحور في لغة العرب جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسناء ، الجميلة البيضاء ، الشديدة سواد العين.

قال ابن عباس: (الحور في كلام العرب البيض). وقال مجاهد: (وزوجناهم بحور عين: أي قرناهم بهن ، قال والعرب لا تقول تزوجت بها وإنما تزوجتها).

وقال زيد بن أسلم: (الحوراء التي يحار فيها الطرف. وعين حسان الأعين).

وفي المسند للإمام أحمد بسند صحيح عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: [للشهيد عند الله سبعُ خصال: يغفرُ له في أول دفعة من دمه ، ويرى مقعدَه من الجنة ، ويُحلَّىٰ حلَّة الإيمان ، ويزوَّج اثنين وسبعين زوجة من الحور

(1) صحيح الجامع (2119).

العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاجُ الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويَشفَعُ في سبعين إنساناً من أهل بيته][1] .

وكذلك روىٰ الإمام البخاري عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [غدوةٌ في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأت ما بينهما ريحاً ، ولنصيفها[2] على رأسها خير من الدنيا وما فيها][3] .

وأما الكاظمون الغيظ فيخيِّرهم ربهم من الحور العين ليزوجهم منهن ما شاؤوا .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن معاذ بن أنس عن النبي ﷺ قال : [من كظم غيظاً وهو قادر على أن يُنْفِذَهُ ، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين ، يزوجه منها ما شاء][4] .

حادي عشر : نساء أهل الجنة ، وقوة الجماع التي سَيُزَوَّد بها المؤمنون .

فقد قال الله سبحانه في سورة يس : ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس : 55 - 58] .

وقد قرأها قراء الكوفة بضم الغين «في شُغُل» . بينما قرأها قراء المدينة وبعض قراء البصرة بتسكينها أي : «في شُغْل» . قال ابن مسعود : (شغلهم افتضاض العذارى) . وقال ابن عباس : (افتضاض الأبكار) . وقال أبو قِلابَة : (بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله ، إذ قيل له تحول إلى أهلك ، فيقول : أنا مع أهلي مشغول ، فيقال : تحول أيضاً إلى أهلك) .

---

(1) أحكام الجنائز (35 - 36) وصحيح الجامع (5058) .
(2) النصيف : الخمار .
(3) مختصر صحيح البخاري (1150) و(1152) . وصحيح الجامع (4027) .
(4) حسن ، تخريج المشكاة (5088) .

وقيل: بل هم مشغولون في السماع. ذكره وكيع.

وقيل: بل هم مشغولون في ضيافة الله تعالى. حكاه القرطبي.

وقيل: بل هم مشغولون بالنعيم. كما ذكر ذلك عن مجاهد (قوله «في شغل» قال: في نعمة).

وقيل: بل هم مشغولون بالملذات عن الاهتمام بمصير وحال أهل النار. فعن الحسن: (شغلهم النعيم عما فيه أهل النار من العذاب). وقال إسماعيل بن أبي خالد: (في شغل عما يلقى أهل النار)[1].

قلت: وخلاصة القول أنَّ المؤمنين مشغولون بألوان الملذات من افتضاض العذارى والأبكار، والتقلب في ألوان الطعام والشراب، وضيافة الله تعالى لهم، وهم وزوجاتهم فاكهون مسرورون ناعمون وقد أعطاهم الله قوة مائة في النساء.

فقد روى الترمذي بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع. قيل يا رسول الله: أويُطيق ذلك؟ قال: يُعطى قوةَ مائة].

وفي رواية: (يُعطى المؤمن في الجنة قوة مائة في النساء)[2].

وكذلك، فقد روى الطبراني بإسناد على شرط الصحيح عن أبي هريرة قال: [قيل: يا رسول الله هل نصل إلى نسائنا في الجنة؟ فقال: إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء][3].

ثاني عشر: السوق في الجنة والتقاء المؤمنين فيه كلّ جُمعة.

فقد روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جُمعة، فتهب ريحُ الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا

---

(1) تفسير الطبري والقرطبي وابن كثير.

(2) صحيح الجامع (7962) وتخريج المشكاة (5636).

(3) وله شاهد في صحيح الجامع برقم (1623).

حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً. فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً][1].

ثالث عشر: غراس الجنة.

فإن غراس أرض الجنة وترتبها هو تسبيح المؤمنين في الدنيا وتهليلهم وتحميدهم وتكبيرهم. وأصل ذلك ما روى الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [لقيت إبراهيم ليلةَ أسريَ بي ، فقال: يا محمد أقرىء أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبةُ الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر][2].

رابع عشر: غناء نساء أهل الجنة.

فقد روى الطبراني في الأوسط والصغير وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط ، إنَّ مما يغنين: نحن الخيِّرات الحسان ، أزواج قوم كرام ، ينظرن بقرة أعيان. وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يمتنه ، نحن الآمنات فلا يخفنه ، نحن المقيمات فلا يظعنه][3].

وله شاهد في الروض النضير من حديث أنس ولفظه: [إن الحور العينَ لتغنين في الجنة يقلن: نحن الحور الحسان ، خبئنا لأزواج كرام][4].

خامس عشر: لا موت في الجنة.

فإن الله سبحانه يمثل يوم القيامة ، بعد دخول المؤمنين الجنة والكافرين النار ، الموتَ بكبش ثم يأمر بذبحه إشارة لمعنى الخلود ، والدوام والبقاء ، ليهنأ المؤمنون بذلك فيزدادون فرحاً إلى فرحهم ، وليتعس الكفار بذلك فيزدادون شقاء إلى شقائهم.

وأصل ذلك في الصحيحين عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دخل

---

(1) مختصر مسلم (1967).
(2) حسن. صحيح الجامع (5028).
(3) صحيح الجامع (1557).
(4) صحيح الجامع (1598).

أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، يجاء بالموت كأنه كبش أملحُ ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، ثم ينادىٰ: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، فيؤمر به فيذبح ، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت][1] .

وفي رواية عند البخاري: (ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ وهؤلاء في غفلةٍ أهلُ الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾). وفي رواية لمسلم: (وأشار بيده إلى الدنيا).

وفي لفظ عند الإمام أحمد فيه زيادة: (فازداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم وازداد أهل النار حُزناً إلى حزنهم).

وهذا المعنى قد ورد في القرآن في أكثر من موضع. ففي سورة البينة: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ .

سادس عشر: رؤية المؤمنين لوجه الله في الجنة.

وهذا هو غاية سرور القلب وبهجته ، وذروة سعادة الدنيا والآخرة ، وكمال اللذة والنعيم كما قال سبحانه في سورة القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال ابن عباس: (تنظر إلى وجه ربها عز وجل). وقال عكرمة: (﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال: من النعم ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى ربها نظراً).

وقال ابن القيم رحمه الله: (إضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله وتعديته بأداة (إلى) الصريحة في نظر العين ، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدىٰ بإلى خلاف حقيقته وموضوعه ، صريح في أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله. فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه ، فإن عدي بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ ، وإن عدي بفي فمعناه التفكر

---

(1) صحيح مسلم (153/8) وصحيح الجامع (536) ومختصر مسلم (2149).

والاعتبار كقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وإن عدي بإلى فمعناه المعاينة والإبصار كقوله : ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ ، فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟) .

وكذلك فقد جاء في التنزيل ما يدل على ذلك ، كقوله سبحانه في سورة البقرة : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وكقوله في سورة الأحزاب : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ . وكقوله في سورة البقرة : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ . وكقوله في سورة الكهف : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ .

قال ابن القيم رحمه الله : (أجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحي السليم من العمى والمانع اقتضى المعاينة والرؤية) .

وفي صحيح الإمام مسلم عن صهيب قال : [قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً ، ويريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو؟ ألم يثقل موازيننا ، ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار (وفي رواية : وينجنا من النار)؟ فيكشف الحجاب فينظرون الله فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة . (وفي رواية : فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم)](1) .

فهلم إلى جنة عرضها السماوات والأرض فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، أعدت للصادقين والمجاهدين في سبيل الله ، وللكاظمين الغيظ والقائمين على حدود الله ، وللمرابطين على الثغور يحمون شريعة الله ، وللمنفقين أموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله ، فها هي الجنة نفسها قد اشتاقت إليهم وأخذت تسأل الله عنهم .

يروي الليث بن سعد عن معاوية بن صالح عن عبد الملك بن بشير ورفع

---

(1) صحيح الجامع (535) وتخريج الطحاوية (144) ورواه أحمد وابن خزيمة بألفاظ متقاربة .

الحديث قال: [ما من يوم إلا والجنة والنار يسألان. تقول الجنة: يا رب قد طاب ثمري واطردت أنهاري واشتقت إلى أوليائي فعجل إليَّ بأهلي. وتقول النار: اشتد حري وبعد قعري وعظم جمري فعجل عليَّ بأهلي][1].

اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار.

وأختم بقصيدتين رائعتين في وصف الجنة واليوم الآخر، الأولى: للعلامة ابن القيم رحمه الله، والثانية: للشاعر عبد الرحمن العشماوي حفظه الله.

- القصيدة الأولى -

«شعر في وصف الجنة»[2]

وما ذاك إلا غيرة أن ينالها ... سوى كفئها والرب بالخلق أعلم
وإن حجبت عنا بكل كريهة ... وحفت بما يؤذي النفوس ويؤلم
فلله ما في حشوها من مسرة ... وأصناف لذات بها يتنعم
ولله برد العيش بين خيامها ... وروضاتها والثغر في الروض يبسم
ولله واديها الذي هو موعد المزيد ... لوفد الحب لو كنت منهم
بذيالك الوادي يهيم صبابة ... محب يرى أن الصبابة مغنم
ولله أفراح المحبين عندما ... يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة ... فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة ... أمن بعدها يسلو المحب المتيم
ولله كم من خيرة إن تبسمت ... أضاء لها نور من الفجر أعظم
فيا لذة الأبصار إن هي أقبلت ... ويا لذة الأسماع حين تكلم
ويا خجلة الغصن الرطيب إذا انثنت ... ويا خجلة الفجرين حين تبسم
فإن كنت ذا قلب عليل بحبها ... فلم يبق إلا وصلها لك مرهم
ولا سيما في لثمها عند ضمها ... وقد صار منها تحت جيدك معصم
تراه إذا أبدت له حسن وجهها ... يلذ به قبل الوصال وينعم

(1) صفة الجنة. والنلي ص 214 وإسناده حسن.

(2) من كتاب حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ص 5-7.

تفكه منها العين عند اجتلائها ... فواكه شتى طلعها ليس يعدم
عناقيد من كرم وتفاح جنة ... ورمان أغصان به القلب مغرم
وللورد ما قد ألبسته خدودها ... وللخمر ما قد ضمه الريق والفم
تقسم منها الحسن في جمع واحد ... فيا عجباً من واحد يتقسم
لها فرق من الحسن أجمعت ... بجملتها إن السلو محرم
تذكر بالرحمن من هو ناظر ... فينطق بالتسبيح لا يتلعثم
إذا قابلت جيش الهموم بوجهها ... تولى على أعقابه الجيش يهزم
فياخاطب الحسناء إن كنت راغباً ... فهذا زمان المهر فهو المقدم
ولما جرى ماء الشباب بغصنها ... تيقن حقاً أنه ليس يهرم
وكن مبغضاً للخائنات لحبها ... فتحظىٰ بها من دونهن وتنعم
وكن أيما ممن سواها فإنها ... لمثلك في جنات عدن تأيم
وصم يومك الأدنى لعلك في غد ... تفوز بعيد الفطر والناس صوم
وأقدم ولا تقنع بعيش منغص ... فما فاز باللذات من ليس يقدم
وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها ... ولم يك فيها منزل لك يعلم
فَحَيَّ على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشطت به أوطانه فهو مغرم
وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تحكم
وحي على السوق الذي فيه يلتقي ... المحبون ذاك السوق للقوم يعلم
فما شئت خذ منه بلا ثمن له ... فقد أسلف التجار فيه وأسلموا
وحي على يوم المزيد الذي به ... زيارة رب العرش فاليوم موسم
وحي على واد هنالك أفيح ... وتربته من إذفر المسك أعظم
منابر من نور هناك وفضة ... ومن خالص العقيان لا تتقصم
وكثبان مسك قد جعلن مقاعداً ... لمن دون أصحاب المنابر يعلم
فبينا همو في عيشهم وسرورهم ... وأرزاقهم تجري عليهم وتقسم
إذا هم بنور ساطع أشرقت له ... بأقطارها الجنات لا يتوهم
تجلى لهم رب السماوات جهرة ... فيضحك فوق العرش ثم يكلم

سلام عليكم يسمعون جميعهم ... بآذانهم تسليمه إذ يسلم
يقول سلوني ما اشتهيتم فكل ما ... تريدون عندي إنني أنا أرحم
فقالوا جميعاً نحن نسألك الرضا ... فأنت الذي تولي الجميل وترحم
فيعطيهم هذا ويشهد جمعهم ... عليه تعالى الله فالله أكرم
فيا بائعاً هذا ببخس معجل ... كأنك لا تدري بلى سوف تعلم
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

ـ القصيدة الثانية ـ
«وصف اليوم الآخر»

كل الخلائق في صعيد واحد جمعـ ... ـت فسبحان الذي لا يغفل
وأقيم ميزان العدالة بينهم ... هذا به يعلو وذلك ينزل
وتجمعت كل البهائم بعضها يقتص ... من بعض وربك أعدل
حتى إذا فرغ الحساب وأنصفت ... من بعضها نزل القضاء الأمثل
كوني تراباً يا بهائم عندها ... صاح الطغاة وبالأماني جلجلوا
يا ليتنا كنا تراباً مثلها ... يا ليتنا عن أصلنا نتحول
هيهات لا تجدي الندامة بعدما ... نصب الصراط لكم وقام الفيصل

❊ ❊ ❊

هذا هو النمرود يندب حظه ... والدمع من هول المصيبة يهطل
وهناك فرعون المؤله نفسه ... يسعى بغير بصيرة ويولول
وهناك قيصر نفسه مكسورة ... وبقلبه مما يعاني مِرجَلُ
وهناك كسرى تاه عن إيوانه ... مترنح في سيره متململ
وهنا أبو جهل يراجع نفسه ... عيناه توحي أنه يتوسل
يا رب أرجعنا لنعمل صالحاً ... غير الذي كنا نقول ونعمل
هيهات قد طوي الكتاب ألم ... يكن فيكم رسول بالهداية مرسل

❊ ❊ ❊

وأجلْتُ طرفي في الوجوه فلاحَ لي ... وَجْـهٌ بـدا وكـأنمـا هـو مِشْعَـل
وجـه الـرسـول يُشِعُّ نـوراً صـادقـاً ... قـد جـاء فـي حُلـلِ السعـادة يَـرْفُـلُ
ورأيت أصحاب الرسول وقد مضوا ... نحـو الجنـان وفـي المنـازل أنـزلـوا
ورأيت مؤمن آل فرعون الذي نبذوا ... وصفحـــة وجهـــه تتهلـــل
والكوثر الرقراق لا تسأل فما مثلي يجيب ... وليـــس مثلـــي يُســأل
نهـر كـأن الـدر يجـري بينـه ... أو أنـه النـور الـذي يتَسلْسَـلُ
سبحـان ربـك هـا هنـا حصـل الـذي ... مـا كـان لـولا فضـل ربـك يحصـل

*   *   *

غُـرَفٌ بطـائنهـا الحـريـر وتُـرْبهـا ... مسـك بمـاء المكـرمـات مُبَلـل
ونساؤها حور فوجه مشرق كالشـ ... ـمـس سـاطعـةً وطـرفُ أكحَـلُ
أنهارها عسل وخمر لذة للشاربين ... وشُـــرْبُهــــا لا يُثْمِـــلُ
وبنـاؤهـا مـن فضـة مـن فـوقهـا ... ذهـب وعنـد الله مـا هـو أفضـل
وأقـل مـن فيهـا نصيبـاً حظـه أضعـاف ... دنيـــانـــا وربـــك يُجْـــزِلُ
ورأيـت فيهـا السـاكنيـن ربـوعَهـا ... مستبشـريـن بمـا رأوه وحصَّلـوا
وعلـى الأرائـك يجلسـون حـديثهـم ... عـذبٌ ولا هـمٌّ لـديهـم يُشغـل
يتذكرون حوادث الدنيا التي صمدوا ... لهـا وعلـى الإلـه تـوكلـوا
طـوبـى لكـم هـذي منـازلكـم فمـا ... خـابـت مسـاعـي مـن يجـدُّ ويعمـل

*   *   *

ورفعـت طـرفـي لحظـة فـرأيـت مـن ... لا شـيء يشبهـه وليـس يُمَثـل
نـور تجلـى للخـلائـق كلهـا ... فتـواضعـوا لجـلالـه وتـذللـوا
وقعـوا سجـوداً يلهجـون بـذكـره ... والكـون بـالصمـت المهيـب مكلـل
سجـدوا وأمـا المبطلـون فحـاولـوا ... أن يسجـدوا لكنهـم لـم يفعلـوا

*   *   *

ـ فـوائـد ـ

فائدة (1): اتفق أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، وشذت المعتزلة والقدرية فأنكرت وقالت: بل ينشئهما يوم القيامة ، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعةً لما يفعله الله ، وأنه ينبغي أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا وقاسوه على خلقه في أفعالهم ، فقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مدداً طويلة ، وخالفوا بذلك نصوص الكتاب والسنة.

ففي التنزيل:

1 ـ ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133].

2 ـ ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: 21].

3 ـ ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 24].

4 ـ ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾ [النبأ: 21 - 22].

5 ـ ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ [النجم: 13 - 15].

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان ، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه ، وكل يعمل لما قد فرغ منه وصائر إلى ما خلق له ، والخير والشر مقدران على العباد) متن الطحاوية.

وأما السنة الصحيحة فقد حفلت بكنوز من جوامع الكلم تثبت هذا المعنى وتؤكده:

1 ـ ففي الصحيحين في حديث الإسراء: [ثم انطلق بي جبريل حتى أتى سدرة

المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي ، قال : ثم دخلت الجنة فإذا هي جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك][1] .

2 ـ وكذلك في صحيح البخاري من حديث أنس ، عن النبي ﷺ قال : [بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قبابُ الدر المجوف ، قلتُ : ما هذا يا جبريل؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فإذا طينُه مِسْكٌ أذفَرُ[2]][1] .

3 ـ وفي المسند من حديث حذيفة وفيه : [حتى أتيتُ بيت المقدس ، ففتحت لي أبواب السماء ، ورأيت الجنة والنار][1] .

4 ـ وفي الصحيحين من حديث ابن عمر : [إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة][3] .

5 ـ وفي صحيح أبي داود من حديث البراء : [. . . . ينادي مناد من السماء أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال : فيأتيه من رَوْحها وطيبها][4] .

6 ـ وفي صحيح مسلم من حديث عائشة : [خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ ، ـ فذكرت الحديث ـ وفيه قال ﷺ : رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به ، حتى لقد رأيتني آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني تقدمت ، ولقد رأيت النار يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت][5] .

7 ـ وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس قال : [انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ . . . . فقالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك ثم رأيناك تكعكعت؟ فقال : إني رأيت الجنة وتناولت عنقوداً ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار ، فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع ، ورأيت أكثر أهلها

---

(1) السيرة النبوية على منهج الوحيين . د . مأمون حموش . الإسراء والمعراج (294 - 315) .
(2) هو الشديد الرائحة .
(3) مختصر مسلم (490) ورواه البخاري بنحوه .
(4) قد مضى بتمامه .
(5) مختصر صحيح مسلم (445) .

النساء ، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن. قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت خيراً قط][1] .

8 ـ وفي صحيح مسلم من حديث أنس: [وأيم الذي نفسي بيده ، لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً وبكيتم كثيراً. قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت الجنة والنار][1] .

9 ـ وفي صحيح الترمذي عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ قال: [لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ، فقال: يا محمد أقرىء أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر][2] .

10 ـ وفي المسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب، فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: أيْ ربِّ! وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، ثم حفَّها بالمكاره ، ثم قال: يا جبريل! اذهب فانظر إليها ، فذهب ، ثم نظر إليها ، ثم جاء فقال: أي رب! وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد ، فلما خلق الله النار ، قال: ياجبريل! اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ، ثم جاء فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخُلها ، فحفها بالشهوات ، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها ، فذهب ، فنظر إليها فقال: أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يبقىٰ أحد إلا دخلها] وسنده صحيح[3] .

فائدة (2): الجنة والنار لا تفنيان ولا تبيدان.

هذا ما عليه أهل السنة والجماعة ، وقد أنكروا على الجهم بن صفوان إمام المعطلة الذي قال بفنائهما ، واحتجوا بقوله تعالى:

1 ـ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: 37].

---

(1) مختصر البخاري (534) ورواه مسلم في الكسوف (907).

(2) حسن. صحيح الجامع (5028).

(3) تخريج الطحاوية (416) وتخريج المشكاة (5696).

2 ـ ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف : 74 ـ 77] .

3 ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : 36] .

4 ـ ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ : 30] .

5 ـ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [البينة : 8] .

6 ـ ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : 48] .

7 ـ ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : 167] .

8 ـ ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان : 65] أي : مقيماً لازماً .

9 ـ ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة : [يناد مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وأن تحيوا فلا تموتوا أبداً](1) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [من يدخل الجنة ينعمْ فيها ، لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابهُ](2) .

وفي حديث الشفاعة : يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، ويبقى الكفار والمشركون ، وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما بل بإبقاء الله لهما .

وأما حجج المنكرين القائلين بفناء الجنة والنار :

1 ـ ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : 128] .

2 ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : 106 - 107] .

---

(1) ورواه أحمد والترمذي وابن ماجه . انظر صحيح الجامع بتمام لفظه (8020) .
(2) مختصر صحيح مسلم (1964) .

3 ـ ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴾ [النبأ : 23] .

4 ـ ﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾ [الأعراف : 156] .

5 ـ ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ [غافر : 7] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [لما قضى الله الخلق ، كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي][1] .

وقد رد أهل العلم المتشابه من هذه الأدلة إلى المحكم ليفسَّر به :

فقوله : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ ﴾ له أكثر من تأويل عند المفسرين :

الأول : قيل معناه إلا مدة مكثهم في النار . وذلك في أهل التوحيد .

فعن قتادة قال : (الله أعلم بثُنَياه . وذكر لنا أن ناساً يصيبهم سَفْعٌ من النار بذنوب أصابوها ، ثم يدخلهم الجنة) . وقال الضحاك بن مزاحم : (يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة ، فهم الذين استثنى لهم) .

وعن خالد بن معدان في قوله : ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴾ وقوله : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ ﴾ أنهما في أهل التوحيد .

الثاني : قيل الاستثناء لأهل التوحيد إلا أن يتجاوز الله عنهم فلا يدخلهم النار ، فوجهوا الاستثناء إلى أنه من قوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ ﴾ ، ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ ﴾ لا من الخلود . قال أبو مجلز : (هو جزاؤه ، فإن شاء الله تجاوز عن عذابه) .

الثالث : قيل الاستثناء مدة مقامهم في الموقف . بعض المفسِّرين .

الرابع : قيل : إلا مدة مقامهم في القبور والموقف . فلم يغيبوا عن الجنة أو النار إلا بقدر إقامتهم في البرزخ والمحشر . ذكره الطبري .

الخامس : قيل : خالدين في الجنة أو النار دوامَ السماء والأرض إلا مدة تعميرهم في الدنيا . أهل اللغة .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1923) ورواه البخاري .

السادس: قيل: هو استثناء الرب ولا يفعله، وهذا متشابه قد وصل بمحكم: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

السابع: قيل: هو لإعلامهم بأنهم مع خلودهم ففي مشيئة الله، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾. ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾. ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ذكره شارح الطحاوية.

والخلاصة: فإن منهج التفسير عند الراسخين يتضمن ردّ المتشابه إلى المحكم، فقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ محكم، مثل قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾، ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ مما يدل أن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء للوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة. وإن كان القول بفناء النار دون الجنة منقولاً عن ابن مسعود وأبي هريرة ولكنها مراسيل لا يحتج بها. والناس في أبدية النار ودوامها على ثمانية أقوال ذكرها شارح الطحاوية:

1 ـ من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد (الخوارج والمعتزلة).

2 ـ أهلها يعذبون فيها ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة النارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم (ابن عربي إمام الاتحادية).

3 ـ أهلها يعذبون لوقت محدود ثم يخرجون ويدخل غيرهم (اليهود وأكذبهم الله)، ففي التنزيل: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

4 ـ يخرجون منها وتبقى على حالها لا أحد فيها.

5 ـ تفنى بنفسها لأنها حادثة، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه (الجهم وشيعته) ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار.

6 ـ تفنى حركات أهلها ويصيرون جماداً لا يحسُّون بألم (أبو الهذيل العلاف).

7 ـ يخرج الله منها من يشاء كما ورد بالحديث ثم يبقيها شيئاً ثم يفنيها فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه .

8 ـ يخرج الله منها من شاء كما ورد في السنة ويُبقي فيها الكفار بقاء لا انقضاء له .

والقول الأخير هو الذي عليه فهم الصحابة وأهل العلم ، وإن كان القول السابع قد أُثِر عن بعضهم إلا أنه قول مرجوح بالذي بعده ، وباقي الأقوال ظاهرة البطلان والله المستعان .

* * *

-20-

ـ الإيمان بالقدر ـ

الحمد لله الذي لا يحصي نعماءَه العادون ، ولا يؤدي بعض حقه المجتهدون ، فهو الله سبحانه لا تدركه الأبصار ولا بُعْـد الهمم ، ولا يناله غوصُ الفطن ، قد أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتـداء ، بلا رويـة أجالها ، ولا تجربـة استفادها ، فعلم كل توجهات الكائنات وأعمالها ، وأحصاها عنده في اللوح المحفوظ وكتبها ، وعلم مستقبلها ومنتهاها ، وكتب أرزاقها وآجالها ، وأفعالها وأقوالها ، فقال جل ثناؤه : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس : 7 - 10] . وقال جل جلاله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل : 5ـ10] .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله قال : [قالت أم حبيبة زوجُ النبي ﷺ : اللهم أَمْتِعْني بزوجي رسولِ الله ﷺ وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية . قال : فقال النبي ﷺ : قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يُعَجِّل شيئاً قَبْل حِلِّه أو يؤخر شيئاً عن حِلِّه ، ولو كنت سألت الله أن يُعيذك من عذاب في النـار أو عـذاب فـي القبـر كـان خيـراً وأفضـل . قـال : وذُكِـرَت عنـده القِـرَدَةُ ـ و(الخنازير) ـ مِنْ مَسْخ فقال : إن الله لم يَجْعل لِمَسْخٍ نَسْلاً ولا عَقِباً ، وقد كانت القِرَدة والخنازير قبل ذلك] . وفي رواية : (فقال رجل : يا رسول الله القِرَدة والخنازير هي مما مُسِخَ؟ فقال النبي ﷺ : إن الله عز وجل لم يُهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعلَ لهم نسلاً وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك) ذكره في باب القدر[1] .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1846) باب : في ضرب الآجال وقسم الأرزاق .

والإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان. كما روى مسلم من حديث عمر: [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره](1).

يروي ابن أبي عاصم في كتاب السنة، ورجاله رجال الشيخين، عن أبي هريرة: [أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله: أنعمل في أمر نأتَنِفُهُ، أم في أمر قد فرغ منه؟ قال: بل في أمر قد فرغ منه. فقال: ففيم العمل؟ فقال: يا عمر، كلا لا يدرك إلا بعمل. قال: فالآن نجتهد يا رسول الله] وأصله - كما سيأتي - في الصحيحين(2).

وفي رواية من طريق سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب أنه قال: [قلت يا رسول الله: أرأيت عملنا هذا على أمر قد فرغ منه أم على أمر نستقبله؟ فقال رسول الله ﷺ: بل على أمر قد فرغ منه. قال عمر: ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: كلا، لا يُنال إلا بعمل. فقال عمر: إذاً نجتهد] ورجاله ثقات(3).

وكذلك روى الآجري، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن هشام بن حكيم أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أنبتدىء الأعمال أم قد قُضي القضاء؟ فقال: إن الله تعالى أخذ ذرية آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، فقال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار] ورواه ابن أبي عاصم في السنة وسنده صحيح(4).

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد مَنْ يدخل الجنة وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكل ميسر لما خُلِقَ له،

---

(1) قد مضى بتمامه.
(2) انظر مختصر مسلم (1843).
(3) ويشهد له ما في صحيح مسلم (8/48 - 49) و(8/46 - 47).
(4) ويشهد له ما في مختصر صحيح مسلم (1844) باب: في القدر والشقاوة والسعادة من حديث علي رضي الله عنه.

والأعمال بالخواتيم ، والسعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله)[1] .

وقال شيخ الإسلام : (قال الشيخ عبد القادر قدس الله روحه : كثير من الرجال إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا ، وأنا انفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والولي من كان منازعاً للقدر لا من يكون موافقاً له)[2] .

وأما تفصيل هذا المفهوم العظيم والركن الكريم فسيكون في الأبواب السبعة القادمة :

الباب الأول : قواعد الإيمان بالقدر .

الباب الثاني : مفهوم الكتابة في اللوح المحفوظ وأنواعها .

الباب الثالث : مفهوم الرزق وعلاقته بالقدر .

الباب الرابع : مفهوم الاستخارة والتوكل والدعاء وصلة ذلك بالقدر .

الباب الخامس : مفهوم الموت وعلاقته بالقدر .

الباب السادس : مفهوم المشيئة والاستطاعة .

الباب السابع : مراتب الهداية والضلال .

وأحب أن أشير ابتداء إلى أن هذا المفهوم العظيم ـ مفهوم القدر ـ هو من أشد المفاهيم دقة في الإسلام ، وقد خاض الناس في الماضي فيه وما نجا منهم إلا من أصاب منهج الوحي في فهمه ، بينما سقط الباقون صرعى الانحراف يتخبطون .

* * *

---

(1) متن العقيدة الطحاوية .

(2) الفتاوى ـ مجلد الربوبية ـ 458 .

الباب الأول

ـ قواعد الإيمان بالقدر ـ

لقد قال الله جل ثناؤه في سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 40 - 55].

يخبر سبحانه وتعالى في هذه الآيات عن فرعون وقومه كيف جاءهم موسى عليه الصلاة والسلام بالبشارة والنذارة وبالآيات والمعجزات فكذبوا بالآيات وكذبوا بالقدر ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وأبادهم فما بقي لهم أثر ، فهل كفاركم أيها المشركون من قريش والعرب خير ممن تقدم ذكر حالهم ، أم لديكم براءة من الله ألا ينالكم بعذاب يسحتكم مهما تماديتم بالتكذيب والكبر والعناد ، أم تظنون أن بعضكم ينصر الآخر أو أن جمعكم سيغني عنكم وسيشفع لكم؟ كلا سيهزم جمعكم وتتفرقون ، وستولون الدبر وتهزمون. فعاب عليهم سبحانه تكذيبهم بالقدر ، كما عاب ذلك على الأمم قبلهم.

فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ كقوله جل ثناؤه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ وكقوله : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ .

لقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قال : [جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر. فنزلت ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ

﴿فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾][1] .

وله شاهد عند الإمام البخاري في خلق أفعال العباد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : [نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ في أهل القدر] أي : المكذبين بالقدر .

فالله سبحانه قد علم المقادير كلها وكتبها في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقها ويوجدها ، فكتب سبحانه الأرزاق والآجال ، والأعمال والأقوال ، الصالح منها والطالح ، والحسن منها والقبيح ، والخيِّر منها والسيء ، كل قد علمه وكتبه ثم قدر حدوثه ووجوده ، كما قال جل وعز في سورة الحديد : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [الحديد : 22 - 23] .

يروي الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن عبادة بن الوليد بن عبادة قال : حدثني أبي قال : [دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت : يا أبتاه أوصني واجتهد لي ، فقال : أجلسوني ، فلما أجلسوه قال : يا بني إنك لم تطعم الإيمان ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره . قلت : يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة . يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار][2] .

وفي رواية : [قال : دعاني أبي حين حضره الموت فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب قال : يا رب وما أكتب؟ قال : اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد][3] .

وفي لفظ آخر : (اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1838) .
(2) أحمد في المسند (317/5) والترمذي في التفسير (232/2) وانظر تخريج المشكاة (94) .
(3) تخريج المشكاة (94) .

وفي لفظ آخر: (اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة).

وكذلك، فقد روى الإمام الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يؤمن أحد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره][1].

وأصل القضاء في لغة العرب الحُكْم، ومنه قولهم قضى فلان قضاء: أي حكم، وقد يأتي بمعنى الفراغ نحو قولك قضى فلان حاجته: أي فرغ منها. قال الرازي من أهل اللغة: (وقد يكون بمعنى الأداء والإنهاء تقول قضىٰ دَيْنَه ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أنهيناه إليه وأبلغناه ذلك. ثم قال: وقد يكون بمعنى الصنع والتقدير يقال: قضاه أي: صنعه وقدَّره ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ومنه (القضاء) والقدر). انتهى.

وأما القدر فهو من قَدَرَ في أصل اللغة. يقال: (قَدْر) الشيء مَبْلَغُه وهو بسكون الدال وفتحها. والقَدَرُ و(القَدْر) هو ما يقَدِّره الله من القضاء. وقَدَر الشيءَ أي قَدَّره من التقدير.

ويمكن القول بأن القضاء هو إتمام الشي قولاً أو فعلاً أو إرادة.

ومثال الأول: قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2] وهذا بمعنى القضاء قولاً.

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[3] وهذا بمعنى القضاء فعلاً.

ومثال الثالث: قوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4] وهو بمعنى القضاء إرادة.

---

(1) صحيح الجامع (7460) وتخريج المشكاة (104).
(2) الإسراء (23).
(3) فصلت: (12).
(4) آل عمران: (47).

كما يمكن القول بأن القدَر و(القدْر) هو ما يقدره الله تعالى من القضاء وهو تبيين أمر الشيء كماً وكيفاً.

فالقضاء والقدر هما علم الله الأزلي لما أراد إيجاده من العوالم والخلائق وتقدير ذلك الخلق وكتابته في اللوح المحفوظ ثم إيجاده وفق المعلوم، كما قال جل ثناؤه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، وكقوله جل ذكره: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: 21-22].

ولقد خاض الناس في القدر قديماً وحديثاً. من منزه لله عن خلق القبائح والمعاصي أشرك ولو لم يدر. ومن مثبت الخلق كله لله خيره وشره والإنسان عنده مجبر، فنسب الظلم لله وهو لا يدري. فالقدرية والمعتزلة قالوا: الله لا يحب المعاصي والكفر فهو إذن لم يخلقها ولا يريدها، فهو منزه عن أن يضاف إليه شر وظلم أو فعل هو كفر ومعصية. قالت المعتزلة: (لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً، كما لو خلق العدل كان عادلاً). ومنهم من قال: (الله يخلق الخير والإنسان يخلق أفعاله التي فيها شر) فجعلوا خالقين فأشركوا، ولم يفرقوا بين المحبة والإرادة حين استشهدوا بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ وقد غفلوا عن قوله سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ولم يصيبوا في فهم قوله جل ثناؤه: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾. فهناك فرق بين المحبة والإرادة فقد يريد الله ما لا يحب ويشاء ما لا يرضى كما شاء خلق إبليس ولا يحبه.

يروي البيهقي بسند صحيح لغيره عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال النبي ﷺ لأبي بكر: [يا أبا بكر: لو أراد الله أن لا يُعصى ما خلق إبليس][1].

وله شاهد عند أبي نعيم في الحلية عن ابن عمر أن النبي ﷺ ضرب كتف أبي بكر وقال: [إن الله لو شاء أن لا يُعصى ما خلق إبليس][1].

وفي سنن أبي داود وصحيح الحاكم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [القدرية مجوس هذه الأمة، إنْ مَرِضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم][2].

---

(1) حسن. صحيح الجامع (1808) والسلسلة الصحيحة (1642).
(2) حسن. تخريج المشكاة (107) وتخريج الطحاوية (242).

وأما الجبرية فهم يقولون بأن الله يخلق أفعالنا خيرها وشرها ولكنهم ينفون الفعل عن العبد ويضيفونه إلى الرب تعالى ، وهم نوعان:

النوع الأول: الجبرية الخالصة: وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً.

النوع الثاني: الجبرية المتوسطة: وهي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً.

وهم بين الناس اليوم كثير ، يريدون أن يصفوا حالهم بأنهم مجبرون على ما يقترفون من معاصٍ وآثام طالما أرادها الله وكتبها وعلمها ، وطالما لم يهدهم الله بعد إلى طريق الرشاد ، حتى قال قائلهم:

أصبحت منفعلاً لما يختار مني ... ففعلي كله طاعات

فهم ينسبون الظلم لله إذ كيف سيحاسبهم وهم مجبرون.

وأما المؤمنون فقواعد الإيمان بالقدر الذي أمروا أن يؤمنوا به ثلاثة:

القاعدة الأولى: علم الله المطلق.

فهو سبحانه عالم بما كان وما يكون وما سيكون ، وما لن يكن ، ولكن إذا قُدِّر وكان كيف سيكون.

ودليل علمه سبحانه بما كان قوله جل ثناؤه في سورة هود يخاطب نبيَّه محمداً عليه الصلاة والسلام: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: 49].

وقوله جل وعز له في سورة يوسف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: 4]. وقوله في سورة النساء: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 17].

وأما دليل علمه سبحانه بما يكون فهو قوله سبحانه في سورة سبأ: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (ق): ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ

إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ . وقوله سبحانه في سورة النساء : ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ . وقوله جل ذكره في سورة المجادلة : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ . وقوله في سورة لقمان : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٍ مِّنۡ خَرۡدَلٍ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ .

وأما دليل علمه بما سيكون فهو قوله سبحانه في سورة الروم : ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ . وقوله فيها : ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ . وقوله في سورة السجدة : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ . وقوله في سورة سبأ : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ . وقوله في سورة الأحقاف : ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ . وقوله في نفس السورة : ﴿ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ . وقوله في سورة إبراهيم : ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم : 48-50] .

وأما دليل علمه سبحانه بما لن يكون ، لكن إذا كان كيف سوف يكون ، فقوله سبحانه في سورة الأنعام : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ .

فقال : (وُقفوا) ولم يقل (أوقفوا) فهو الفصيح من كلام العرب كما قال

أبو عمرو: (ما سمعت أحداً من العرب يقول: «أوقفت الشيء» بالألف، إلا أني لو رأيت رجلاً بمكان فقلت: ما أوقفك ها هنا؟ بالألف: لرأيته حسناً). فكأن التقدير (ولو ترى إذا وقفوا) فقالوا إذ حُبسوا في النار: يا ليتنا نرد إلى الدنيا حتى نتوب ونراجع طاعة الله ولا نكذب بحججه وآياته ونكون من المصدقين لرسله المتبعين لأمره ونهيه فكذبهم الله.

وعن السدي: (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل: يقول بدت لهم أعمالهم في الآخرة، التي أخفوها في الدنيا). وقال الحافظ ابن كثير: (أي بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبله بيسير: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم، من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كقوله مخبراً عن موسى، أنه قال لفرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ الآية، وقوله تعالى مخبراً عن فرعون وقومه ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين، الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ويبطنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة، من كلام طائفة من الكفار).

وفي الحقيقة فإنهم ما طلبوا العودةَ إلى الدنيا محبة في الإيمان ولا رغبة في الصدق والإحسان، وإنما خوفاً من العذاب وليتخلصوا من النيران، فأخبر العليم الخبير عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا إلى المخالفة والكبر والعناد، فإن الكذب غالب علىٰ طبعهم وقلوبهم، وإن المكر وحب الظلم والعلو والكبر والبغي تهواه قلوبهم ونفوسهم حتى ينسوا معه ما عاينوه من العذاب ويقولوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

وكان ابن زيد يقول: (هذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء الكفرة الذين وقفوا على النار: أنهم لو ردوا إلى الدنيا لقالوا: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾).

فالله سبحانه لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء وقد خلق كل شيء

وقدَّره تقديراً ، وعلم دقائقه وأبعاده وتفاصيله ، وكتبها في اللوح المحفوظ عنده ، ثم أوجدها في الكون حيث شاء إيجادها .

ففي المسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [قدر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة] ورواه الترمذي وسنده صحيح[1] .

وفي معجم الطبراني عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : [فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألفَ سنة] وسنده صحيح[2] .

وكذلك روى الطبراني عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : [فرغ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس : من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد][3] . وفي رواية : (من عمله وأجله ورزقه وأثره ومضجعه)[4] .

وله شاهد عند ابن عساكر بسند جيد عن أنس ولفظه : (فرغَ الله من أربع : من الخَلق والخُلُق والرزق والأجل)[5] .

ولكنَّ علم الله بذلك كله ، ودقيقه وجله ، لم يؤثر على اختيار العبد طريقه وعمله ، ولم يجبره على اجتراح الآثام أو اقتراف الدنايا ، كما لم يجبره على امتثال الطاعات وما فيه رفع للدرجات ، وحصول المسرات يوم القيامة ، لذلك فإن هناك فرقاً بين العلم والعمل ، فكم من عالمٍ بالحق لا يعمل به ، فهَل العلم حمله على المخالفة والوقوع في شباك الباطل ، أم أنه استسلم لشيطانه وشهوته فوقع ، ورضي بوساوس اللعين وما دفع .

فلو أن إنساناً أوقد ناراً وأراد أن يقحم نفسه فيها ، وأبصره رجل آخر وهو يباشر إلقاء نفسه في النار ، وحصل عند ذلك الرجل الناظر علم أن ذلك الإنسان سيهلك نفسه بالحرق وآلام النار ، وربما يموت إن أصرَّ على حرق نفسه ، فهل ذلك العلم

---

(1) صحيح الجامع (4256) .
(2) تخريج الطحاوية (78) .
(3) صحيح الجامع (4077) .
(4) صحيح الجامع (4078) .
(5) صحيح الجامع (4079) .

حمل ذلك الرجل على مباشرة ذلك المصير ، أو على بلوغ الموت ومفارقة الحياة؟

كلا ، فالعلم لم يفقده حرية الاختيار ، وإنما العلم بنتائج الأمور كان بالنظر إلى مقدماتها ، والله الخالق سبحانه قد علم المقدمات وعلم النتائج كما قال جل ثناؤه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : 14].

ولذلك فصل رسول الله ﷺ هذا المفهوم ، كما في الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل الشقاوة ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾][1].

ولذلك أجاب النبي ﷺ عمر بن الخطاب كما روى ابن أبي عاصم في كتاب السنة حين قال: [قلت: يا رسول الله! أرأيت عملنا هذا على أمر قد فرغ منه أم على أمر نستقبله؟ فقال رسول الله ﷺ: بل على أمر قد فرغ منه. قال عمر: ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: كلا ، لا يُنال إلا بعمل. فقال عمر: إذاً نجتهد][2].

ولكن المشكلة عند كثير من الناس المجادلين بالقدر ، أنهم يريدون أن يتصوروا علم الله وسعته ويحيطوا بشيء من قدْرِه فيتخيلوه ، وكأنهم يظنون أن الله يعلم أكثر منهم بعدد من المرات ، فأساس الجدال عندهم محاولة المقارنة بين علم الله سبحانه وبين ما يعلمون ، وهيهات لقطرة من البحر أو أحد محيطات الدنيا أن تنسب إلى حجم مياه الكون والمحيطات والبحار والأنهار.

فإذا سما العقل البشري بنور هذا الوحي ، وعلم أن ثمة مقارنة كهذه مستحيلة ، لأنه لم يعد اسمه خالقاً عندئذ ، طالما أمكن المقارنة بينه وبين مخلوقاته ، فهناك

(1) قد مضى. وانظر مختصر صحيح مسلم (1844).
(2) قد مضى.

يسلم العقل لخالقه وبارئه ومصوره ، ويزيده ذلك تسبيحاً له وتعظيماً ، واستسلاماً لأمره وعلمه وقدره وتسليماً .

القاعدة الثانية : الحكمة الكاملة .

فهو سبحانه موصوف بالحكمة الكاملة المطلقة ، إذ الحكمة هي وضع الأمور بمكانها الأمثل ، وهي صفة متعلقة بالعلم ، وقد وصف الله بها نفسه فقال جل ثناؤه : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ .

وفي المسند بسند صحيح عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [لا تعجبوا بعمل أحد حتى تنظروا بما يختم له ، فإن العامل يعمل زماناً من دهره أو برهة من دهره بعمل صالح ، لو مات عليه دخل الجنة ، ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً . وإن العبد ليعمل زماناً من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً . وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته فوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه][1] .

ومن حكمته سبحانه أن حفَّ النار بالشهوات والجنة بالمكاره وقضى أن يملأ كل واحدة منهما بأهلٍ يلائمونها . فقد خرَّج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [حُجِبَت النار بالشهوات ، وحُجِبَتِ الجنة بالمكاره][2] . وكذلك خرَّج الإمام مسلم عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [احتجَّت الجنة والنار ، فقالت الجنة : يدخلني الضعفاء والمساكين ، وقالت النار : يدخلني الجبارون والمتكبرون ، فقال الله للنار : أنت عذابي ، أنتقم بك ممن شئت ، وقال للجنة : أنت رحمتي ، أرحمُ بكِ منْ شئتُ ، ولكل واحدةٍ منكما ملؤها][3] .

فإذا عاش المؤمن في آفاق هذه الصفة العظيمة لله سبحانه ، وتأثر قلبه وعقله بها ، وحلقت نفسه ومشاعره بأرجائها ، أدرك أن ما يجري حوله من أحْدَاث وما يصيبه من مصائب هي عين الخير وأمثل القضاء ، كما روى الإمام عبد الله بن

---

(1) السلسلة الصحيحة (1334) .

(2) صحيح الجامع (3121) .

(3) ورواه الترمذي وابن خزيمة . انظر صحيح الجامع (183) .

الإمام أحمد في زوائد المسند بسند صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [عجبتُ للمؤمن إن الله تعالى لم يقض له قضاء إلا كان خيراً له][1].

وكما روى الطيالسي في المسند والبيهقي في الشعب بإسناد صحيح من حديث سعد عن النبي ﷺ قال: [عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر ، وإذا أصابه خير حمدَ الله وشكر ، إن المسلمَ يؤجر في كلِّ شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه][2].

وأصل معناه في صحيح الإمام مسلم عن صهيب ، قال رسول الله ﷺ: [عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كلَّهُ له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سرَّاء شكر وكان خيراً له ، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له][3].

فليهنأ المؤمن بأقدار الله سبحانه في حياته ، فإنها مبعث طمأنينة في قلبه لأنها صدرت عن الحكيم جل ثناؤه.

القاعدة الثالثة: العدل التَّام.

وهي صفة للرحمان ، وصف بها نفسه وهي ضد الظلم والطغيان ، والعدل يأتي بمعنى المثل كما قال جل ثناؤه في سورة النحل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

وكقوله جل وعز في سورة فصلت: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

وكقوله في سورة الشورى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: 40].

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل:

---

(1) صحيح الجامع (3880).
(2) السلسلة الصحيحة (141).
(3) مختصر مسلم (2092).

[قال الله تعالى: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. . .][1].

وفي المسند عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لو أنَّ الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أُحُدٍ ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لدخلت النار][2].

وصفة العدل مرتبطة بصفتي العلم والحكمة لله العظيم جل ذكره.

فقد أخرج الترمذي في جامعه بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم نوراً من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله عز وجل][3].

فإذا علم المؤمن اتصاف الخالق سبحانه بهذه الصفة الجليلة، سكنت نفسه لأقدار الله في حياته وحياة من حوله، واطمأن قلبه رضاً عن الله عز وجل وقدره، وذاق لذَّة وحلاوة وحقيقة الإيمان.

كما أخرج الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [إن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه] وسنده صحيح[4].

فهذه قواعد الإيمان بالقدر عند المؤمنين، وهي صفات جليلة لرب العالمين، وهي العلم والحكمة والعدل فتبارك الله العليم الحكيم.

وأختم الباب بلطيفة أوردها ابن القيم رحمه الله في كتابه الجواب الكافي لمن

---

(1) قد مضى بتمامه.

(2) تخريج الطحاوية (447).

(3) تخريج المشكاة (101) والسلسلة الصحيحة (1076).

(4) ويشهد له ما في المسند (317/5) وما في جامع الترمذي (232/2) وانظر تخريج المشكاة (94).

سأل عن الدواء الشافي، حول إنسان يترك الدعاء والسبب محتجاً بأن الأمر قد قُدِّر. قال: (فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والري قد قدرا لك فلا بد من وقوعهما أكلت أو لم تأكل. وإن كان الولد قدر لك فلا بد منه وطأت الزوجة والأمة أو لم تطأهما). فرحمه الله كم كان يستحضر من أمثال هذه اللطائف.

* * *

الباب الثاني

ـ مفهوم الكتابة في اللوح المحفوظ وأنواعها ـ

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 1 - 7].

وقال جل ثناؤه في سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: 1 - 5].

فوصف الله سبحانه المؤمنين في آية البقرة بالإيمان بالغيب والقدر، وبالإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وبما أنزل من قبل على الرسل، بينما أشار إلى الكافرين المعاندين بأنه قد سبق في علم الله أنهم سيختارون الكفر، وبأن الله جل ذكره قد كتب عليهم ذلك في اللوح المحفوظ كتابة علم لا قهر فيها ولا جبر، وبأنهم بتخبطهم سوف لن تنفعهم النذر. فقال في حياتهم سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

بينما كان التحدي أكبر في شأن أبي لهب، وامرأته حمالة الحطب، التي كانت قد بسطت لسانها في النبي ﷺ ولطالما حاولت إيذاءه، ومضت على منهاج زوجها اللعين البذيء الذي تطاول على رسول الله ﷺ يوم بُعث وقد أحبَّ لهم الخير فناداهم على الصفا ليسمعوا نداءه، ولينذرهم بطش الله وأيامه وما أذاق أعداءه، ولكن

الغرور والعمى والكبر قد أفقد على أبي لهب صوابَه. وأرداه صريع اللؤم والحسد فنطق بالكفر فاستحق عقابه، ووعيده سبحانه وعذابه.

فنزلت في حياة أبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، مع أن الله لم يجبره على اختيار طريق الكذب والعناد، ولكنه تحداه سبحانه بأنه لن يؤمن، وسيخرج من هذه الحياة كافراً، متكبراً معانداً، وسيصلى في الآخرة ناراً حامية. فكيف كتب الله عليه ذلك؟ وكيف كتب على الكافرين من قبل عدم جدوى محاولات الإنذار وانغلاق تلك الطرق والمسالك؟ هذا ما سنفصله بعون الله العظيم المالك.

فقوله: (كفروا) أي: غطوا الحق وستروه، وقد كتب الله ذلك عليهم لعلمه سبحانه بفساد قلوبهم، وحبهم للكبر والكلام برأيهم، وتعظيم عقولهم وفلسفتهم، فوق الوحي وحجة الحق وأوامر الله لهم، وعُجُبهم بنفوسهم وأشخاصهم ورياستهم. فسواء عليك يا محمد إنذارك لهم وعدمه، كما قال جل ثناؤه في سورة يونس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾. وكما قال جل وعز في سورة البقرة: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾. وكما قال جل ذكره في سورة الأنفال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾. وكقوله جل قدره في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

قال القاسمي رحمه الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: (تناهوا في الغواية والضلال، إلى حيث لا يجديهم الإنذار والتذكير).

فإن القلوب بيد الله سبحانه، يعلم نيات وسرائر أصحابها وما يحول في صدورهم، فَيُقَلِّبُها كيف يشاء عدلاً منه بهم، وما يملك مفاتيح هذه القلوب أحد غيره، وما كان على الأنبياء والرسل أكثر من بلاغ أمره وحكمه وذكره، ثم يقضي الله بحكمته وبعلمه ما يشاء فيهم.

كما قال ابن عباس: (كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه

على الهدى ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول).

لقد أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان ، فقال أتدرون ما هذان الكتابان؟ قال: قلنا لا إلاَّ أن تُخْبرَنا يا رسول الله ، فقال للذي في يده اليمنى ، هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أُجْمِلَ على آخرهم ، فلا يُزاد فيهم ولا يُنْقَصُ منهم أبداً. ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقَصُ منهم أبداً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء إذن نعمَلُ إن كان هذا أمْراً قد فُرِغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: سددوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل ، ثم قال بيده فقبضَها ، ثم قال: فرغ ربكم عز وجل من العباد ، ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة ، ونبذ باليسرى فقال: فريق في السعير][1].

فما هي **أنواع الكتابة في اللوح المحفوظ** ، وما هو مفهوم كل نوع من هذه الأنواع؟ هذا ما سنفصله بعون الله سبحانه.

إن الكتابة في اللوح المحفوظ على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الكتابة الكونية.

وهي تقدير الله سبحانه إيجاد العوالم والخلائق وفق صفات وخصائص معيّنة ، والمرء مسيَّر في ذلك مجبر عليه ، نحو أن يولد جميلاً أو قبيحاً ، غنياً أو فقيراً ، طويلاً أو قصيراً ، أسودَ أو أبيضَ ، ذكراً أو أنثى ، ومنها سنن الله الكونية في حركة الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ، وهبوب الرياح والعواصف وتعاقب أمواج البحار.

فقد قال سبحانه في سورة يس: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ

---

(1) السلسلة الصحيحة (46) وصحيح الجامع (88).

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 38 - 40].

وكقوله في نفس السورة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 77 - 83].

وقال في سورة الشورى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 49 - 50].

وقد خرّج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. وكان عرشه على الماء][1].

فالطول واللون والحُسْنُ أو القبح والأجل وحجم الرزق الكلي وأمثال ذلك قد علمه الله وكتبه كتابة كونية لا تغيير لها، فلا سبيل لمن اختاره الله من أبوين معينين أن يتخلص من نسبته إليهما، فيبقىٰ فلان بنَ فلان في الدنيا وفي الآخرة، فما كتبه الله لا سبيل لتغييره أو تعديله فلا أحد يملك في الدنيا أن يُعدل فيه أو يبدل، فلو اجتمعت الأمم على أن ينزلوا ضراً برجل لم يكتب الله لهم أن ينالوا منه فلا سبيل لهم إلى مرادهم، وكذلك لو اجتمعوا على أن يلحقوا نفعاً برجل لم يرد الله أن ينفعه بذلك فلا طريق لهم إلى تحقيق مناهم، شأن المشركين في مكة يوم اجتمعوا على قتل النبي ﷺ وأرادوا ذلك وأعدوا له، إلا أن إرادتهم بذلك لم تتوافق مع إرادة الله فخانتهم آمالهم، وخيبتهم عقولهم، ونصر الله نبيه عليه الصلاة والسلام وأعزَّه وأذلهم، وحاق مكرهم بهم فقتلهم النبي ﷺ وأصحابه يوم بدر بأيديهم.

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1841) بلفظ (كتب الله مقادير الخلائق...) وانظر صحيح مسلم (51/8). باب: كتب المقادير قبل الخلق.

أخرج الترمذي في جامعه بسند صحيح أن النبي ﷺ قال لابن عمه ابن عباس: [يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يَحْفظكَ، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام ورفعت الصحف][1].

وعند أبي نعيم في الحلية بسند حسن عن جابر عن النبي ﷺ قال: [لو أن ابنَ آدم هربَ من رزقه كما يهربُ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت][2].

النوع الثاني: الكتابة الشرعية.

وهي كتابة أفعال العباد وما تعلق بالتكليف والأمر والنهي، وما يترتب عليه السؤال بين يدي الله يوم القيامة، وكذلك عقوبات الدنيا وحياة البرزخ وأحوالها، فهي كتابة للأعمال الصالحة والسيئة. ولما كان منتهى العباد إلى الجنة أو النار اعتماداً على علم الله المسبق، فهي كتابة عِلْمٍ لا جَبْرَ فيها. فالمرء مخيَّر بين القيام بأمر الله وبين تركه، وبين اجتناب ما نهىٰ عنه أو اقترافه؟، فإنك لو شاهدت إنساناً يلقي بنفسه من الشرفة العاشرة، تَشَكَّلَ عندك علم أنه سينزل مُتَضرِّراً إما بكسر أو تحطم أو موت أو غير ذلك، فهل علمك بذلك قبل وصوله إلى الأرض أجبره على تلقي تلك النتيجة التي وصل إليها؟

ومن هنا نفهم الحديث السابق: [أتدرون ما هذان الكتابان، فقال للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة... ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً...].

فإن الكتابة هنا كتابة شرعية، وهي كتابة علم لا جبر فيها، فما شعر أهل الإيمان يوماً أنهم مجبرون على التقوى، وعلى حضور صلاة الجماعة، وعلى إخراج زكاة أموالهم، وعلى صيام شهر رمضان، وعلى ترك الزنا وترك شرب

---

(1) تخريج المشكاة (5302) وصحيح الجامع (7834).

(2) حسن. السلسلة الصحيحة (950)، وصحيح الجامع (5116).

الخمور. كما أنه ما شعر أهل الفجور والكفر يوماً أنهم مجبرون على النطق بكلام الكفر أومحاربة الله ورسوله والاستهزاء بدينه أو القيام بفعل الفواحش كالزنا والسرقة وشرب الخمور.

ومن هنا نفهم معنى نزول سورة المسد، في حياة أبي لهب، يتوعده الله بما كتب عليه من الشقاء والهلاك في جهنم والعطب، وهو حيّ يرزق في مكة يأكل ويشرب ويطرب، فإن الله سبحانه هو الذي خلق أبا لهب، وعلم حبَّ الكبر في قلبه وحُبَّ التعالي على الحق دون كلل أو نصب، هو وامرأته حمالة الحطب، وهذا ما ظهر فعلاً في الحياة الدنيا فرآه الناس وعانى منه أقرب الناس إليه في النسب، وهذا ما كان الله سبحانه في اللوح المحفوظ قد كتب، فخرج أبو لهب من الحياة الدنيا وهو على شركه وكبره وعناده الذي اختاره لنفسه إلا أن الله العليم الخبير قد علمه من قبل وكتبه فلا عجب.

ونحو ذلك ما في الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة. فقال رجل يا رسول الله: أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة. فقال: اعملوا فكل ميسر ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾][1].

وكذلك خرَّج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [إن أحدكم يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقةً مثلُ ذلك، ثم يكون مضغةً مثلُ ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً، ويؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد. ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعملُ بعمل أهل النار فيدخل النار. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها

(1) قد مضى. وانظر مختصر مسلم (1844).

إلا ذراع فيسبقُ عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة][1] .

وهذا الحديث مُفَسَّرٌ بالحديث الآخر الذي هو في الصحيحين عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال : [إن الرجل ليعمل عملَ الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عملَ النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة][2] . زاد البخاري في رواية : (وإنما الأعمال بخواتيمها) .

ويبدو أن العمل كان يرافقه بعض الرياء وحب السمعة حتى رفض الله قبوله كعمل صالح ، فلم ينفع صاحبه أحوج ما يكون إليه ، فقد اعترى القلب مبكراً بعض الأمراض التي تفسد حياته وتؤدي إلى مماته ، ولكنه تركها ولم يدافعها حتى ترعرعت وفشت في القلب وعمت أرجاءه ، وصارت مصدر تهديد لحياة القلب وإخلاصه لله وخوفه منه وتعظيمه له ، وصار القلب يأنس بالناس وكلامهم ومدحهم أكثر مما يأنس بالله فكانت الحالقة ، وكان ذلك بدء انتهاء حياة القلب وإعلان الوفاة .

ولهذا جاء الخبر صريحاً بذلك من النبي ﷺ كما روى ابن سعد بسند حسن عن أبي سعد بن أبي فَضالة عنه صلوات الله وسلامه عليه : [إذا كان يومُ القيامة نادىٰ مُناد : منْ عملَ عملاً لغير الله فليطلب ثوابه مِمَّنْ عَمِلَهُ له][3] .

وأصل معناه في صحيح الإمام مسلم وسنن ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عَمِلَ عملاً أشركَ فيه معي غيري تركتُه وشِركَه][4] .

فنعوذ بالله من الرياء وحب الظهور الذي يقطع الظهور ، ونعوذ بالله من سوء الخاتمة وفساد السريرة ، ونعوذ بالله من خزي الآخرة والفضيحة ، ونعوذ بالله من الندامة يوم لا تنفع الندامة .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1847) .
(2) انظر مختصر صحيح مسلم (1027) و(1845) .
(3) حسن . تخريج المشكاة (5318) وصحيح الجامع (794) .
(4) مختصر مسلم (2089) .

النوع الثالث : الكتابة المعلقة .

وهي كتابة ما عَلَّقَ سبحانه تنفيذه على أمور : نحو دفع الداء بالتداوي والدواء ، ونحو زيادة العمر بصلة الرحم والأقرباء ، ونحو رفع البلاء بالدعاء .

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : 186] .

كما قال جل وعز في سورة غافر : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : 60] .

وكما قال جل ذكره في سورة نوح : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح : 3 - 4] .

ثم إن السنة الصحيحة لَتَحْفَلُ بذكر هذا المفهوم العظيم الذي غفل عنه كثير من المسلمين ، ونتج عن ذلك عجز واستسلام للمصائب والفقر والأمراض وما ابتلي به الناس وامتحنهم به ربُّ العالمين .

الحديث الأول : عن صلة زيادة العمر وجمال الحياة بصلة الرحم وحسن الخلق .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن عائشة عن النبي ﷺ قال : [صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ، ويزيدان في الأعمار][(1)] .

انظر كيف عطف الحسن على بعضه واعتبره واحداً ، بينما اعتبر الثاني هو صلة الرحم ، فكلاهما يعمران الديار ويزيدان في الأعمار ، إشارة منه عليه الصلاة والسلام أنه لا يستقيم حسن الخلق دون حسن الجوار ، فهو من لوازمه ومقتضياته وكلاهما يكمل الآخر .

وللحديث رواية أخرى بلفظ : (صلة الرحم ، وحسنُ الخلق وحسنُ الجوارِ ، يعمِّرن الديار ، ويزِدن في الأعمار)[(2)] .

---

(1) صحيح . صحيح الجامع (3661) والسلسلة الصحيحة (518) .
(2) المرجع السابق .

الحديث الثاني : عن صلة بسط الرزق وسعته وزيادة العمر مع صلة الرحم .

ففي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال : [من أحب أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره ، فليصل رحمه][1] .

وبنحوه كذلك في المسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [صلة القرابة مثراة في المال ، محبة في الأهل ، منسأة في الأجل][2] .

فكان طريق إنعاش الأسرة والأهل بالمحبة فيما بينهم هو صلة القرابة ، وكثيراً ما يترتب على هذه الصلات المعمقة إنعاشاً اقتصادياً في محيط الأهل والرحم ، ومشاريعَ مشتركة يأمن بها الأرحام على المال ودقة وإتقان العمل ، كما يكون منفذاً فطرياً لأبناء الأسرة الواحدة لكسب المال وسد الحاجة والبعد عن البطالة ، فليس هناك بعد صلة الإيمان صلة كصلة الرحم ، فإذا اجتمع الإيمان والرحم كان ذلك نوراً على نور ، وقوة إلى قوة ، وحياة مع الحياة .

الحديث الثالث : عن صلة الدعاء برفع البلاء أو تخفيف المصيبة .

فقد أخرج الحاكم عن سلمان بسند جيد عن النبي ﷺ قال : [لا يرد القضاءَ إلا الدعاءُ ، ولا يزيد في العمر إلا البر][3] .

وبنحوه كذلك روى الحاكم بسند حسن عن عائشة عن النبي ﷺ قال : [لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل ، فيتلقاه الدعاء ، فيعتلجان إلى يوم القيامة][4] .

فالدعاء هو من أسلحة الدقة العالية في حياة المؤمن ، يستعين به على تغيير حركة التاريخ ، كما يستعين به على رد المصائب أو تخفيفها ، فهو خير كله .

الحديث الرابع : عن صلة أعمال الخير بالتصدي للمهالك ومصارع السوء .

فقد أخرج الحاكم عن أنس عن النبي ﷺ قال : [صنائع المعروف تقي مصارع

---

(1) ورواه أبو داود والنسائي ، صحيح الجامع (5832) .

(2) السلسلة الصحيحة (276) وصحيح الجامع (3662) .

(3) حسن . الصحيحة (154) .

(4) تخريج المشكاة (2234) .

السوء والآفات والهلكات ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة][1] .

فليكثر المسلم من العمل الصالح ، فإنه يصبح له دِرعاً وحِصناً حصيناً يدفع عنه السقوط عند المصائب والهلكات ، ويقيه الله به شر الآفات والعثرات ، ثم إن أهل المعروف في الدنيا قد وعدهم الوحي الكريم أن يكونوا أهل المعروف في الآخرة .

الحديث الخامس : عن صلة صدقة السر بإطفاء غضب الرب .

فقد أخرج الطبراني بسند حسن عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : [صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر][2] .

فهو علاج أمثل للذنب والسقوط في الزلات ، بأن يكثر المسلم من النفقات في وجه الله والصدقات ، فيرضى بذلك البرُّ سبحانه ويتجاوز عن السيئات .

وجملة القول : فإن هذا القسم من القدر قد غفل عنه كثير من المسلمين اليوم حتى خواصهم ، فنتج عن ذلك استسلام للمصائب وركون للمرض والفقر وما في الحياة من أحداث تعصف بهم ، بحجة أنه مكتوب فَيُعَلِّقون المصيبة على القدر وينسبون لذلك تقصيرهم ، وإنما المؤمنون قوم يفرون من قدر الله إلى قدر الله ، ويدفعون القدر بالقدر فيغيِّر الله سبحانه في قضائه من أجلهم .

وقد فهم الصحابة الكرام هذا المعنى وامتثلوه في حياتهم ، وطبقوه أحسن التطبيق في غزواتهم وجهادهم . فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس : [أن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسَرْغَ لقيهُ أمرَاءُ الأجناد أبو عبيدة بنُ الجراح وأصحابهُ فأخبروه أنَّ الوباء قد وقع بأرض الشأم. قال ابن عباس: فقال عمر ادْعُ لي المُهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا فقال بعضهم: قد خرجْتَ لأمر ولا نرى أن ترجعَ عنه . وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحابُ

(1) السلسلة الصحيحة (1908) .

(2) حسن . تخريج الترغيب (31/2) وصحيح الجامع (3691) .

رسول الله ﷺ ولا نرى أن تُقْدِمَهم على هذا الوباء. فقال: ارتفعوا عني ثم قال: ادعوا لي الأنصار فدعوتُهُم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادعُ لي من كان ها هنا من مشيخةِ قُرَيشٍ من مُهاجِرَة الفتح فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان فقالوا: نرى أن تَرْجعَ بالناس ولا تُقْدِمَهُم على هذا الوباء فنادى عمر في الناس: إني مُصَبِّحٌ على ظهرٍ فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة بنُ الجراح: أفِراراً من قَدَرِ الله؟ فقال عمر: لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيتَ لو كان لكَ إبلٌ هَبَطَتْ وادياً له عُدْوتان إحداهما خَصِبَةٌ والأخرى جَدْبَةٌ أليس إن رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رعيتها بقدر الله وإن رعَيْتَ الجدبة رعيتها بقدر الله. قال: فجاء عبدُ الرحمن بنُ عوف وكان متغيباً في بعض حاجته فقال: إن عندي في هذا علماً. سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا سمعتُمْ به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه. قال: فحمدَ اللهَ عمرُ ثمَّ انصرف](1).

ففهم أهل العلم من الصحابة رضوان الله عليهم أن منهج المؤمنين بالقدر يتضمن الفرار من شر القدر إلى خير القدر، ويشتمل على دفع القدر بالقدر.

قال ابن القيم رحمه الله: (بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة).

فإذا استنفذ المؤمن ما بوسعه من أخذٍ للأسباب والدعاء، ورأى أن القدر يحيط به لا محالة، فيصبر عندها لقضاء الله وقدره ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها. كما قال جل ثناؤه في سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾.

---

(1) وله شواهد في المسند من حديث أسامة بن زيد. انظر صحيح الجامع (629) و(630). وصحيح أبي داود (2660) باب الخروج من الطاعون.

وفي صحيح الإمام مسلم عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: [ما من مسلمٍ تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، اللهم آجرني في مصيبتي، واخلفْ لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبته، وأخلفَ الله له خيراً منها][1].

وهناك يقطع المسلم على الشيطان طريقه، فقد أدى ما بوسعه، ثم استسلم لقدر الله راضياً مطمئناً، كما في حديث الإمام مسلم عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: [المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان][2].

وختام الباب حديث جميل، يصف به النبي ﷺ حال المؤمن، رواه النسائي بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: [المؤمن بخير على كل حال، تُنزَعُ نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله][3].

لقد أفرز منهج النبوة في الإيمان بالقدر رجالاً مؤمنين في حياة النبي عليه الصلاة والسلام. فهموا القدر بقواعده الثلاثة وهي صفات الله سبحانه: العلم والحكمة والعدل بين الأنام. وفهموا أنواع الكتابة في اللوح المحفوظ: من كونية وشرعية ومعلقة فدافعوا القدر بالقدر وواجهوا المحن والآلام. فهانت عليهم الدنيا ومصائبها، وهان عليهم الطغاة في الأرض وما بَيَّتوا من مكر وإجرام.

ثم تحركوا بإيمانهم وعدَّتهم فدكوا أكبر معاقل الكفر في الأرض، معاقل فارس والروم ومعاقل الطغيان. فرضي الله عنهم وعن أعمالهم وأورثهم الحور العين الحسان في مقام الخلد وغرف الجنان. واليوم تُدعى الأمة لفهم القدر على منهاج أولئك الأصحاب الكرام. ليرفع الله عن الأمة المحن والنوازل وما حل فيها من مصائب وآلام.

* * *

---

(1) مختصر صحيح مسلم (461)، وصحيح الجامع (5640).

(2) مختصر صحيح مسلم (1840).

(3) السلسلة الصحيحة (1632) وصحيح الجامع (6528).

الباب الثالث

ـ مفهوم الرزق وعلاقته بالقدر ـ

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 31 - 35].

احتج الله سبحانه بهذه الآيات المكية على مشركي قريش سوء فهمهم للقدر، وأنه سبحانه وتعالى وحده قاسم الرزق والأجل، وأن ما قدَّره سبحانه من الرزق بين عباده كان بالحكمة والعدل، ولو شاء بسط الرزق والمال للكافرين بطريقة تفتن العقل والقلب والنظر، ولكن رحمة بالمؤمنين ألا يفتنوا عن دينهم إذا رأوا أهل البغي وقد عجلت لهم الخيرات في الدنيا فيتركوا العمل، ويصيبهم العجز وحب الدنيا والكسل، ويتركوا العلم والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويجتاحهم الكلل، وإلا فإن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ومن أجل هذا أعطاها للكافر الذي دمَّره الأشر والبطر.

وعن ابن عباس قال: (يعني بالعظيم: الوليدَ بن المغيرة القرشي أو حبيبَ بنَ عمرو بنِ عمير الثقفي. وبالقريتين: مكة والطائف).

فهم يريدون الحق في رؤسائهم وزعمائهم، هكذا أملت لهم عقولهم وأهواؤهم، فأجابهم الله عز وجل: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ﴾.

وعن قتادة: (قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: فتلقاه ضعيف الحيلة عيي اللسان وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة سليط اللسان وهو مقتور عليه. قال الله جل ثناؤه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كما قسم بينهم صورهم وأخلاقهم تبارك ربنا وتعالى).

ثم قال جل ذكره: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قال السّدي: (يستخدم بعضهم بعضاً في السخرة) أو سبباً في المعاش. ثم قال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾. قال ابن جرير: (ورحمة ربك يا محمد بإدخالهم الجنة خير لهم مما يجمعون من الأموال في الدنيا)(1).

ثم ذكر سبحانه ما قد يترتب على بسط المال وأسباب الزينة والترف لأهل الدنيا من الفساد الذي قد يؤذي المؤمنين ويفتنهم عن دينهم فقال جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال ابن زيد: (لولا أن يختار الناس دنياهم على دينهم لجعلنا هذا لأهل الكفر)(2).

أي: لولا أن يفتن المؤمنون فتنة لا يستقيم معها دينهم وإيمانهم: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ومصادر الرزق هما مصدران اثنان بينهما صلة: وهما السعي والتقوى.

والمؤمن مأمور بالسعي والعمل وقد علق الله سبحانه على سعيه رزقاً لا يدرك بدونه. ثم علق سبحانه رزقاً آخر على التقوى خاص بها وبأهلها. وتفصيل ذلك:

أولاً: السعي المأمور به المسلم سعي في تؤدة واطمئنان، يرافقه إخلاص في العمل وإتقان.

فقد قال الله سبحانه في سورة هود: ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: 6].

---

(1) تفسير الإمام الطبري سورة الزخرف الآيات: 31 - 35.
(2) المرجع السابق.

وقال في سورة العنكبوت : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت : 60 - 62].

وقال في سورة الذاريات : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات : 22 - 23].

وقال في سورة تبارك : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [تبارك : 15].

وقوله : ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ أي : لكي تمشوا في أطرافها ونواحيها وآكامها وجبالها. قال مجاهد : (في أطرافها) وقال أيضاً : (في طرقها وفجاجها). وأصل المَنْكِب الجانب ومنه مَنْكِب الرجل. قال الكلبي : (في جوانبها) وقال القرطبي : (يقول : امشوا حيث أردتم فقد جعلتها لكم ذلولاً لا تمتنع).

وقال الحافظ ابن كثير : (أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلا أن ييسره الله لكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل).

فاستعمل سبحانه لفظ المشي لا الهرولة والعَدْو ، فإن في جمال السعي جميل الرزق والكسب ، ولا أحد يظن أنه يخرج من الدنيا قبل اكتمال الرزق الذي قسمه الله له ، فمن شاء أطاب السعي والكسب والعمل ، ومن شاء أفسد السعي وأكل الحرام والكدر.

يروي ابن ماجه في سننه بسند صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [آلفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده ، لَتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صباً ، حتى لا يزيغَ قلب أحدكم إن أزاغه إلا هي ، وأيمُ الله ، لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء][1].

---

(1) حسن. صحيح الجامع (9).

وأخرج البيهقي بسند حسن عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يحب إذا عمِلَ أحدُكم عملاً أن يتقنه][1].

وعند أبي نعيم في الحلية بسند حسن عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [إن روح القدس نفث في رُوعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته][2].

وفي معجم الطبراني عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الرزق ليطلب العبدَ أكثرَ مما يطلبه أجله][3].

ثانياً: الإسلام العظيم يرغب أهله بتقليل ساعات العمل، والتماس الواجبات الأخرى والاستعداد ليوم الأجل.

فقد رغب الإسلام أبناءه بالتقلل من ساعات السعي في طلب الرزق، وبصرف الوقت بألوان العبادة الأخرى، من طلب للعلم وحياة مع الجماعة والمسجد وأهل الإيمان، من صلة للأهل والأقارب وبذل للأرحام، من مشي في حاجة الفقير والمحتاج والاهتمام بأمر المسلمين والإسلام، وقد وعد الله على هذه الأصناف من التقوى الرزق والإحسان.

فقال جل ثناؤه في سورة طه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 132]. فربط العبادة بمفهوم الرزق، فإن الشيطان يهم بالعبد كلما حاول تفريغ جزء من وقته لأهله، فجاءت الآية تطمئن المؤمن أن الصبر على تعليم الأهل والولد الحق والصلاة وحب الله ورسوله والجهاد في سبيله لا يؤخر من الرزق شيئاً.

وقال في سورة الطلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2ـ3].

---

(1) حسن. السلسلة الصحيحة (1113).
(2) تخريج المشكاة (15) وتخريج فقه السيرة (96).
(3) صحيح الجامع (1626).

وقال فيها أيضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: 4 - 5].

وقال في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56 - 58]. وهنا ربط العبادة مرة أخرى بالرزق، فلا يظن ظان أن تخصيص جُلَّ الوقت لإخلاص العبادة لله وطلب العلم والجهاد يقلل الرزق أو يفوت الفرص بل هو المطلوب أولاً قبل أمور الدنيا.

يروي الإمام أحمد في المسند، والترمذي في السنن، عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لو أنكم توكلون على الله تعالى حقَّ توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً](1).

وفي المسند أيضاً وجامع الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى يقول: يا ابنَ آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسُدَّ فقرك، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً ولم أسُدَّ فقرك] وإسناده صحيح(2).

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [من كانت الآخرة همَّهُ، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّهُ، جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له](3).

ثالثاً: الأسرة في الإسلام هي الرئة الاقتصادية الصحية، وهي المعونة المالية الأمثلية.

فقد اعتبر الإسلام إحسان الرجل بناءه لأسرته، وصلة الرحم والقرابة في عشيرته، أمثل نواة صحية اقتصادية، وأفضل علاقة مالية. وقد بدأ علماء الغرب

(1) تخريج المشكاة (23).
(2) صحيح الجامع (1910) والسلسلة الصحيحة (1359).
(3) السلسلة الصحيحة (947) و(948) وصحيح الجامع (6386).

اليوم يدندنون حولها ويدركون أثرها بينما جاء بها الإسلام العظيم قبل أربعة عشر قرناً هجرية.

فقد حاز بروفيسور الاقتصاد الأمريكي (غاري بيكر) مؤخراً على جائزة نوبل في الاقتصاد، وهو أستاذ الاقتصاد في جامعة شيكاغو، حيث قدم بحثاً بعنوان (رسالة حول الأسرة) ردَّ فيها على مالتوس القائل: (إن الزيادة السريعة في السكان تمثل عائقاً ضخماً في طريق التقدم. إن الإنتاج الزراعي لن يستطيع وحده مواجهة هذا النمو السريع للسكان). ورأى مالتوس الحل بالتحديد الإداري للنسل وضرب لذلك مثلاً فقال: (برفع سن الزواج لكي نتجنب تفشي المجاعة والفقر).

فردَّ عليه بيكر قائلاً: (كانت الأسرة أو الأقارب والأهل عاملاً مهماً لأنها تحمي كل أفرادها من غدر الحياة وكانت بمثابة شركة تأمين ذات فاعلية. قال: إن الفردية حلت محل الأسرية فبعدما كان الأطفال فيما مضى نوعاً من الاستثمار، أصبحوا اليوم مواد استهلاكية).

ويرى بيكر أن الزواج هو بمثابة عقد لتوزيع العمل، فالرجل يعمل بطبيعته خارج المنزل، والمرأة تقوم في المنزل بمهامِّ الأمومة والأعمال المنزلية. قال: (وقد أدَّى دخول المرأة الواسع في مجال السوق إلى إنقاص الربح الاقتصادي للزوج من جهة، وسهولة الطلاق من جهة أخرى).

وأضيف على بيكر فأقول:

1 ـ لما أخذت المرأة مكان رجل في العمل، تشكلت مجموعة من الشباب العاطل عن العمل، عاشوا الفراغ والبطالة، فأخذوا يفكرون في ملء الوقت بألوان من الانحراف والشذوذ والإرهاب والإجرام، مما أخَّر تلك المجتمعات وأساء إليها في بنيتها الاجتماعية والاقتصادية. وهي وإن كانت سرعة التطور والتقدم الصناعي لَتُغَطِّي عليها شيئاً من ذلك العوار والتمزق الاجتماعي والتأثر الاقتصادي، إلا أن المصيبة أشد وضوحاً في المجتمعات المتخلفة صناعياً وتقنياً، شأن أكثر بلاد المسلمين.

2 ـ لما تعرضت المرأة للفتنة في العمل، أحبَّت ما ظهر لها ألطف من زوجها، والزوج في المقابل برؤيته المتبرجات حوله في العمل أحبَّ ما ظهر له ألطف من

زوجته ، فوقع الشريكان في مصيدة مؤلمة ، عَرَّضَت البيت والأسرة للهدم والخراب ، وكان الناتج هو الطلاق ، وتشرد الأطفال كضحية لهذه الفتنة ومعاكسة الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وضبط سبحانه بها العلاقات بين الرجال والنساء في ضوابط دقيقة ، يلزم مِنْ تَجاوزِها دفع الثمن الباهظ المؤلم شأن المجتمعات الغربية اليوم .

3 ـ تكاليف التلطف والتبرج أصبحت تشكل رقماً مالياً كبيراً ، يؤثر على دخل الأسرة تأثيراً كثيراً ، ويحرم الأسرة من التمتع بجزء وفير من المال كان يمكن أن يسد في حاجات الأسرة ويسهم في توازنها المالي إسهاماً وفيراً ، وقد بدأ علماء الاقتصاد في الغرب إدراك ذلك .

4 ـ وأما المرأة في الإسلام فقد رفعها الله سبحانه بشرعه ، وأعزَّ قدرها بمنهجه ، وأعلى شأنها بدينه ووحيه ، فقد خرجت يوماً لسد حاجة في المجتمع المؤمن حين احتاجها ، فقاتلت في سبيل الله ، وضمدت الجرحى ، وسقت العطشى ، ولكن ما تعاطت أسباب الفتنة والتبرج ، بل امتثلت آداب التقوى والحجاب ، ثم عادت إلى قواعدها لتلبي المجتمع ثانية عند حاجته إليها .

لقد نادى الإسلام العظيم بهذا الخير والفضيلة والتألق قبل ألف وأربعمائة سنة .

فقد أخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : [ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة ، من قطيعة الرحم والخيانة والكذب ، وإن أعجل الطاعة ثواباً لصلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم إذا تواصلوا](1) .

وأخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [صلة القرابة مثراة في المال ، محبة في الأهل ، منسأة في الأجل](2) .

فإذا ما تعاونت الأسرة على استثمار أموالها في أعمال مفيدة تنعكس بالخير واليمن على كل أفرادها ، كان هذا قوة في اقتصادها وتماسكاً في بنائها .

---

(1) السلسلة الصحيحة (917) (978) وصحيح الجامع (5582) .

(2) قد مضى تخريجه .

وكذلك أخرج الإمام أحمد عن سلمان بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: [الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة] وسنده صحيح(1).

ورواه الطبراني في الأوسط بسند حسن عنه ولفظه: (صدقة ذي الرحم على ذي الرحم صدقة وصلة)(2).

فتآلف الأسرة المسلمة وتعاونها وتعاطفها وسد حاجة فقيرها، قابله مضاعفة في الأجر عند الله في الدنيا والآخرة، فقد انعكس في حياتهم رحمة وألفة وزيادة في الخير والمال والرزق.

رابعاً: قانون الربح في الإسلام هو امتثال التقوى بالتلازم مع امتثال الأمر بالسعي. وقانون الضمان والتأمين على المستقبل هو التوكل على المعونة الإلهية.

فقد قال الله سبحانه في سورة الطلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2-3].

وقال في سورة طه: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 132].

يروي الإمام مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمناً حسنته، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزىٰ بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها](3).

ويروي الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن المعونة تأتي من الله للعبد على قَدْر المؤنة، وإن الصبر يأتي من الله على قدْر البلاء]. وفي رواية (على قدر المصيبة)(4).

---

(1) تخريج المشكاة (1939) وصحيح الجامع (3752).
(2) الإرواء (875).
(3) صحيح الجامع (1849).
(4) صحيح الجامع (1948) والسلسلة الصحيحة (1664).

وفي رواية: [إنّ الله يُنْزِلُ المعونة على قدر المؤنة ، وينزل الصبر على قدر البلاء][1] . وهي رواية لابن عدي في الكامل.

فلا يعيش المؤمن بعد ذلك بأهاويل ومخاوف المستقبل ، ولا يسهر قلقاً على ما ستحمله له الأيام في مجال الرزق والعمل ، فإذا استقام منهجه وتوافق مع منهج الحق والوحي كان ذلك هو الأصل ، فإن سلاح المؤمن هو الدعاء والرجاء لله إذا ادلهمت الخطوب وخشي الوقوع والزلل ، فهنيئاً لمن توافق طريقه في الحياة مع طريق الأنبياء والرسل ، فإن أكبر ضائقة وأشد مصيبة تهون أمام المؤمن فقد جاء الوحي لها بالحل الأمثل.

* * *

(1) تخريج الترغيب (3/ 81) صحيح الجامع (1915).

الباب الرابع

ـ مفهوم الاستخارة والتوكل والدعاء وصلة ذلك بالقدر ـ

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة آل عمران : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران : 156 - 160] .

وقال في سورة الشورى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى : 36 - 38] .

يخاطب الله سبحانه عباده المؤمنين في سورة آل عمران فيقول : يا أيها المؤمنون لا تكونوا كمن كفر بالله وجحد نبوة محمد ، إذا خرج الناس في التجارة أو الغزو في سبيل الله فماتوا في سفرهم ، قالوا : لو لم يكونوا قد خرجوا ما ماتوا ، فهم يكذبون بالقدر .

قال السدي : (هؤلاء المنافقون أصحاب عبد الله بن أبي ، ﴿ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : وهي التجارة) .

وقال ابن إسحاق : (الضرب في الأرض في طاعة الله وطاعة رسوله ، ﴿ لِيَجْعَلَ

ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ قال: لقلة اليقين بربهم جل ثناؤه، ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي فتجاوز عنهم ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذنوب من قارف من أهل الإيمان منهم).

ثم قال سبحانه ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ قال قتادة: (أمر الله عز وجل نبيَّه أن يشاور أصحابه في الأمور وهو يأتيه وحي السماء لأنه أطيب لأنفس القوم، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضاً وأرادوا بذلك وجه الله عزم لهم على أرشده).

وقال الحسن: (ما شاور قوم قط إلا هُدوا لأرشد أمورهم).

فالمشاورة: طلب الرأي في أمر من الأمور والمداولة فيه. والاستخارة: سؤال خير الأمرين والتوفيق له. وبينهما صلة من النسب.

ثم قال جل ثناؤه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي بعد المشورة والأخذ بالسَّببِ واختيار الأصلح، اسْتخر الله وامض متوكلاً عليه، فإن هذا هو سبيل المؤمنين المتوكلين الذين يحبهم الله وينصرهم ويفتح لهم.

فقد دعا الله نبيَّه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين التزام منهج التوكل الأمثل، وذلك قبل أن يقدم أحدهم على أمر ذي بال في حياته أو ماله أو روحه بأن يعطيه حقه من البحث وأخذ الأسباب لاكتشاف صلاحه من فساده في الدين والدنيا والآخرة، ثم أن يستخير الله العظيم، الذي قد امتنَّ على المؤمنين، وفتح لهم باباً رائعاً يكشف لهم فيه شيئاً عن الغيب الذي يجهلونه، وهو باب الاستخارة ليعلم أحدهم إن كان ما أقدم عليه خيراً أو غير ذلك.

يروي الإمام البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: [كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن، يقول: إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ـ قال البخاري: ثم تسميه بعينه ـ خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: (عاجل أمري وآجله) فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: (عاجل أمري وآجله) فاصرفه

عني واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به][1]. قال: ويسمي حاجته.

فما هي الاستخارة وما معناها وما جوابها؟

هل هي أن تعرض على الله أمرين أو أكثر ليختار لك واحداً منهما ثم يعطيك الجواب برؤيا في اليقظة أو إلهام؟ أم هي أن تُقْرِعَ أنت بين أمريك فيكون جواب الاستخارة عبر منام تراه بالليل والناس نيام؟ أم هي بأن تفتح القرآن فإن صادف الفتح ذكر الجنة والخير كانت الاستخارة قد نجحت وعليك مباشرة الأمر بالجد والقيام؟ وإن صادف الفتح ذكر النار أو الشر كان جواب الاستخارة باجتناب الأمر وعدم الإقدام؟ فلنر معنى الاستخارة ومفهومها وطريقة جوابها بعيداً عن خرافات القاصين وهذيانات الأفاكين ، وبعيداً عن جهالات الكسالى وتأملات النائمين.

فالاستخارة لغة: طلب الخِيْرة يقال: استخر الله يَخِرْ لك. قال الرازي: (والخِيْرة بِوزْن المِيرة الاسم من قولك (خار) الله لك في هذا الأمر أي اختار).

وفي المفهوم الشرعي: فالاستخارة دعاء خاص عقب ركعتين نافلة ، للتثبت من سلامة الإقدام على أمر قد عزمت عليه وهَمَمْتَ به ، وعلامة السلامة هي التوفيق. وتفصيل ذلك:

أولاً: قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا همَّ أحدكم بالأمر) صريح في أنه يفترض أن يكون قد أعطى الأمر حقه من الدراسة والتحليل والتمحيص ، ديناً ودنيا ، وسأل أهل الرأي والعلم ، وشاور أهل الخبرة والتجربة ، كما أمر الله نبيَّه وأصحابه.

ثانياً: فإذا اطمأن لأمره الذي يفكر بالإقدام عليه ، أو اختاره من بين أمور كثيرة تعترضه ، نحو أن يختار الزواج من بين ما هو معروض عليه: (من سفر أو تجارة أو زواج) أو غير ذلك ، وذلك نتيجة البحث والسؤال والتمحيص ، فهنا يركع ركعتين نافلة لله سبحانه ، ثم يقرأ في التشهد أو بعد التسليم دعاء الاستخارة ، ثم يقبل على أمره الذي اختاره عن علم واستخار الله لأجله.

ثالثاً: إن علامة صحة الإقدام ومباشرة العمل قد نصَّ عليها الدعاء صراحة بقوله

---

(1) مختصر صحيح البخاري (580) أبواب التطوع.

عليه الصلاة والسلام (فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه). فإذا تيسرت أسباب الأمر نتيجة الإقدام وتذللت مصاعبه واتضحت معالمه وهانت عقباته كان ذلك جواب الاستخارة بالتأييد والإقرار، على خير ما يُقْدَمُ عليه، فإن رافق ذلك انشراح في الصدر وراحة في القلب كان ذلك نوراً على نور، وإن رافق ذلك حلم لطيف في النوم يشير إلى الخير أو يدل على التوفيق كان ذلك أيضاً نوراً على نور، ولكن ذلك ليس هو الأصل في جواب الاستخارة، بل الأصل ما ثبت بالنص نفسه (فاقدره لي ويسره لي) أي التقدير والتيسير، ولذلك لا ينظر المؤمن مع وجود التيسير إلى ما قد يعتريه في نفسه من وساوس الشيطان ومحاولاته لإضعاف همته والتكاسل عن إقدامه، ولا يثنيه حلم من الشيطان وقد عزَّ عليه رؤية المؤمن وهو في حالة من القوة والصراع مع أحزانه، فإن الشيطان كثيراً ما يَهُمُّ بالمؤمن في هذه الحال، ليعطل عليه الحصول على أي نوع من القوة في الإيمان أو العلم أو العمل أو المال، ليبقى المؤمن عاجزاً كسولاً، مضْياعاً لفرصته مريضاً جهولاً، وليفوت عليه محاولة تجديد الحياة والإيمان، لتبقى المصائب تحيط به وتدمر ما بقي لديه من طموح نحو الإتقان، أو محاولة للوصول إلى درجات الإحسان.

رابعاً: فإن تعسرت أسباب الأمر وطرقه، وظهرت من العقبات ما لم يكن يحتسبه، وضاقت عليه مآربه وسبله، كأن ظهر له من الفتاة التي يطمح بالزواج منها ما يدعوه للنفور عنها، أو كشف الله له عيوباً ما كان على علم بها، أو تعسرت أوراق السفر فجأة ولا سبيل لمتابعتها، أو ظهر له أن ذلك النوع من التجارة مغامرة ولها ما يهددها، أو حصل حادث يدل بمعناه على التمهل والتوقف ومعاودة البحث والتأمل قبل أي إقدام.

خامساً: ولكن اللطف الإلهي ما كان ليترك المؤمن حائراً تائهاً، قد ضاعت عليه الفرصة فأمسى حزيناً كئيباً، بل تداركه لطف الله سبحانه في نص الدعاء حيث جَاء في ختامه: (واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به) أي: لا تتركني متألماً حزيناً، وقد علمتَ أن الخير لي بعدم الإقدام، وأنا بحاجة إلى الفرج والمخرج، وقد ظهر لي عدم صلاح تلك الفتاة التي تعلقت بها، أو عدم صلاح ذلك السفر الذي شغل عليَّ عقلي وقلبي زماناً طويلاً، أو فساد تلك الشركة في محاولة للتجارة والكسب الحلال الطيب، فاقدر لي يا رحمن الدنيا والآخرة، يا حي يا قيوم،

يا مجيب دعوة المضطرين خيراً مما مُنِعْتُ عنه ثم رضني به وبارك لي فيه ، فهناك فلينتظر فرجاً من الله ومخرجاً ، وفجأة في الخير من الله وفرحاً ومبهجاً.

فكان محور الاستخارة هو الدعاء ، فإن الدعاء هو من أسلحة الدقة العالية في حياة المؤمن. ويوم انحسر الدعاء من حياة كثير من المسلمين اليوم ، أصيبت الرابطة والصلة بينهم وبين بارئهم واستسلموا للقدر عاجزين حيارى في أمرهم ، وانقطعت المناجاة بين العباد ومليكهم ، إذ لم يرفعوا إليه حوائجهم ، ولم يبثوا إليه أحزانهم وآلامهم ، حتى قال قائلهم : (اللهم إنا لا نسألك ردَّ القضاء ولكن نسألك اللُّطفَ فيه) ظناً منهم أنه لا سبيل لردِّه عنهم ، جهلاً منهم بدين ربهم وسنة نبيِّهم.

فقد روى الحاكم بسند حسن عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : [لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء ، فيعتلجان إلى يوم القيامة](1).

فدفعت الأمة الثمن غالياً يوم جهلت أسماء الله وصفاته ، وآثارها ولوازمها التي تجب في حياة عباده ، فأهمل الدعاء واستُسْلم للمصائب.

وأما خصائص الدعاء وفوائده وآدابه :

أولاً : الدعاء هو محور حياة الرسل ، وعمود منهجهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه : (ما كرب نبي من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح).

فإليه توجه نوح من قبل يوم أجابه قومه مستهزئين : ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود : 32]. فتوجه إلى الله بالدعاء كما حكى الله عنه في سورة القمر فقال : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾. فاستجاب الله له وأنزل العذاب بقومه فقال : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 10 - 15].

وإليه لجأ شعيب صلوات الله وسلامه عليه يوم كذبه قومه واستهزؤوا ساخرين ، حين قالوا : ﴿ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا

(1) حسن . تخريج المشكاة (2234) وصحيح الجامع (7616).

رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: 91]. فلجأ إلى الله بالدعاء فقال لهم: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89]. فجاء الجواب الأكيد كما وعد الله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 91ـ92].

وإليه آوى لوط عليه الصلاة والسلام يوم حذر قومه من مغبة استمرارهم بالفاحشة، ومن خطر ما يتربصهم في إصرارهم على المضي في طريقة منحرفة، تسيِّرهم بها أهواؤهم إلى الهلاك في الدنيا والخسران يوم ترجف الراجفة، فأجابوه مستكبرين: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: 167]. فأعلن براءته وكراهيته لما يعملون، ثم توجه إلى الله بالدعاء فقال: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: 168 - 169]. فأجابه سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: 73-74].

وإليه أقبل محمد ﷺ يوم اشتد عليه أذى قومه وعنادهم، وحاولوا السخرية منه بمختلف أساليبهم، كما في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (واللفظ للإمام مسلم) قال: [بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس، وقد نُحِرَت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم، فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضَعَه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر لو كانت لي مَنَعَةٌ طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلقَ إنسانٌ فأخبر فاطمةَ رضي الله عنها، فجاءت وهي جوَيْريةٌ فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال: «اللهم عليك بقريش» ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي مُعَيْط، وذكر السابع ولم أحفظه (وهو برواية البخاري: عمارة بن الوليد)، فوالذي بعث

محمداً ﷺ بالحق ، لقد رأيت الذين سمَّى صَرْعى يوم بدر ، ثم سُحبوا إلى القليب قليب بدر][1] .

وجملة القول أن الدعاء من القدر ، وهو محور حياة ومنهج الرسل ، وهو من أسلحة الدقة العالية التي أعطاها الله للمؤمنين، وقد أمر الله به بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60] ، وبقول نبيّه ﷺ: [من لم يسأل الله يغضب عليه][2] .

وفيه معان:

1 ـ الوجود: فإن ليس بموجود لا يدعىٰ .

2 ـ الغنى: فإن الفقير لا يدعىٰ .

3 ـ السمع: فالأصم لا يدعى .

4 ـ الكرم: فالبخيل لا يدعىٰ .

5 ـ الرحمة: فالقاسي لا يدعى .

6 ـ القدرة: فالعاجز لا يدعى .

والربّ سبحانه هو الذي حرّك العبد إلى دعائه فهذا الخير منه ، والعبد محتاج إلى بارئه في كل لحظة من لحظات حياته ولا يستطيع أن يستغني عن رحمة ربه وفضله .

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (ويملك كل شيء ولا يملكه شيء. ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين ، ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحَيْن ـ أي الهلاك ـ)[3] .

ثانياً: الدعاء فيه صفة التذلُّل والتواضع من العبد لربه ، فهو يورثه به سبحانه تواضعاً بين خلقه ، ويرفعه بين الناس كما يرفعه في رضوانه .

فقد قال جل ثناؤه في سورة السجدة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1167) .

(2) تخريج المشكاة (2238) وهو في صحيح الجامع برقم (2414) بلفظ: (إنه من لم يسأل الله تعالى يغضب عليه) ، رواه الترمذي عن أبي هريرة وصححه الألباني .

(3) متن العقيدة الطحاوية (91) .

خَوْفًا وَطَمَعًا﴾. وقال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾. وقال في سورة الأعراف: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

ويوم خُيِّر النبي ﷺ بين مقام الملك ومقام العبودية وما فيه من الدعاء والتذلل لله، اختار المقام الثاني لشرفه وعلوه، وبذلك نصح له جبريل عليه السلام.

فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال: [جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خُلِقَ قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك: أملكاً أجعلك أم عبداً رسولاً؟ قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد! فقال رسول الله ﷺ: لا، بل عبداً رسولاً] وسنده صحيح على شرط الإمام مسلم[1].

وقد قيل للحسن: (نراك طويل البكاء؟ فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي).

وقد خرج الإمام مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ أنه خطبهم فقال: [إن الله أوحىٰ إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد][2].

وكذلك روى الطبراني حديثاً رائعاً في هذا المعنى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمَة بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك دع حكمته][3]. وفي رواية (ضع حكمته). وسنده حسن.

والحَكَمَةُ: موضع أعلى الناصية.

فإن الدعاء يحمل صاحبه على أن يكون متواضعاً بين الناس، رقيق القلب،

---

(1) السلسلة الصحيحة (1002) وأحمد (231/2).

(2) مسلم 160/8. ورواه أبو داود وابن ماجه. صحيح الجامع (1721).

(3) صحيح الجامع (5551).

طيب النفس ، لما فيه من صفة التذلل والخضوع والخوف من الله جل ثناؤه ، فيصير بنهج الدعاء سهلاً ، ليناً ، هيناً ، قريباً من الناس ، كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام ، أن هذه صفات من حرمه الله على النار .

فقد أخرج الإمام أحمد والطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غداً؟ على كل هَيِّن لين قريب سهل][1] .

ولذلك كان من خير الدعاء وجوامع الكلم الذي يحمل هذا المعنى من التواضع بين يدي الله والتذلل أمام عظمته وكبريائه هو سيد الاستغفار .

فقد أخرج الإمام البخاري والإمام أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [ألا أدلك على سيد الاستغفار؟ اللهم أنت ربي لا إله إلا أنتَ ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، وأبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأعترف بذنوبي ، فاغفر لي ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . زاد الترمذي : لا يقولها أحد حين يمسي ، فيأتي عليه قدرٌ قبل أن يصبحَ إلا وجبت له الجنة ، ولا يقولها حينَ يصبحُ ، فيأتي عليه قدرٌ قبل أن يمسيَ إلا وجبت له الجنة][2] .

وكذلك من جوامع الدعاء والكلم الذي يورث التواضع بين الناس كنتيجة للتواضع والاستسلام والرضاء عن الله وقدره هو قول العبد (لا حول ولا قوة إلا بالله) .

فقد أخرج الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة؟ تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فيقول الله : أسلم عبدي واستسلم][3] .

---

(1) صحيح الجامع (2606) .
(2) صحيح الجامع (2609) والسلسلة الصحيحة (1747) .
(3) تخريج المشكاة (2321) .

ثالثاً: للدعاء أوقات خاصة بالإجابة ، وأحوال خاصة للقلب من الخشوع والخشية واليقين والإنابة ، ودخول بالاستغفار والتذلل ثم الصلاة على النبي ﷺ.

قول عمرَ رضي الله عنه: (لا أحمل هم الإجابة ، ولكن أحمل همَّ الدعاء ، فإن ألهمت الدعاء كانت الإجابة).

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ينزل ربنا تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له ، ومن يسألني فأعطيه ، ومن يستغفرني فأغفرَ له][(1)].

وفي جامع الترمذي عن عمرو بن عبسة عن النبي ﷺ قال: [أقرب ما يكون الربُّ من العبد في جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن][(2)].

وعند الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء][(3)].

وفي مسند الطيالسي بسند جيد عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إذا نودي بالصلاة فتحت أبواب السماء واستجيب الدعاء][(4)]. وروى الترمذي كذلك عن أنس عن النبي ﷺ قال: [التمسوا الساعة التي تُرجىٰ في يوم الجمعة بعد العصر إلى غيبوبة الشمس][(5)].

وفي معجم الطبراني عن علي مرفوعاً: [كل دعاء محجوب حتى يصلىٰ على النبي ﷺ][(6)].

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1880).
(2) الترغيب (276/2) وصحيح الجامع (1184).
(3) مختصر صحيح مسلم (298).
(4) السلسلة الصحيحة (1413).
(5) حسن. صحيح الجامع (1248).
(6) صحيح الجامع (4399).

وفيه أيضاً عن ابن عباس قال: [كان إذا دعا جعل باطن كفه إلى وجهه][1].

قال ابن القيم رحمه الله: (لكن قد يتخلف عنه أثره إما لضعفه في نفسه، بأن يكون دعاء لا يحبه الله، لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً، وإما لحصول المانع من الإجابة، من أكل الحرام والظلم، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها. قال: وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتا من أوقات الإجابة الستة وهي الثلث الأخير من الليل وعند الأذان وبين الأذان والإقامة وأدبار الصلوات المكتوبات وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة وآخر ساعة بعد العصر من ذاك اليوم، وصادف خشوعاً في القلب وانكساراً بين يدي الرب وذلاً له وتضرعاً ورقة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ﷺ، ثم قدّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله وألحَّ عليه في المسألة وتملقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً ولاسيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة أو أنها متضمنة للاسم الأعظم).

رابعاً: التوجه إلى الله بالإكثار في الرجاء، والتماس جوامع الكلم من الدعاء، والدعاء باسم الله الأعظم.

فإنه من السنة أن لا يُحَجّم العبد مسألته بقليل الخير، بل يتمنى على الله ويكثر فهو المنعم الكريم، ولا يعجزه تحقيق شيء لعبده مهما كبر وعظم.

فقد أخرج الطبراني في المعجم بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: [إذا تمنى أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه][2]. وفي رواية: [إذا سأل

---

(1) صحيح الجامع (4597).
(2) صحيح الجامع (450).

أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه][1] أي: يسأل سميعاً بصيراً منعماً متفضلاً كريماً.

فلا يسأل العبد الفرج ببيت صغير يظن أن ذلك أتقىٰ وأخشع، وأقرب له إلى الله سبحانه، كلا فإن مثل هذا السائل قد جهل آفاق أسماء الله وصفاته وحدَّدها، فالله هو الكريم الرازق الذي ليس لكرمه حدود، بل يسأل الله أن يفرج عنه ببيت كثير المرافق، وواسع الأرجاء، فإنَّ ذلك كما وصفه النبي ﷺ من السعادة. وكذلك فإنَّ المسلم في حالة العجز أو اليأس من الناس أن يزوجوه لا يسأل الله أن يزوجه أيَّ زوجة مهما كانت صفاتها، بل يتمنى على الله ويسأله بأجمل الصفات وأحسن الأخلاق وخير ما جمعت زوجة زُفَّت إلى زوجها. وكذلك إذا تذكر الآخرة لا يسأل الله بأدنى مقعد في الجنة وأقل منزل ومصير، بل يسأل الله الفردوس فإنه سر الجنة وأعلى الجنة ومنه تتدفق أنهار الجنة.

خبر النبي ﷺ رواه الطبراني عن العرباض عن النبي ﷺ قال: [إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه سرّ الجنة][2].

ثم يتوجه إلى الله سبحانه بجوامع الدعاء، وما اشتمل من كلام النبوة على أكمل الخطاب والرجاء، نحو ما روى الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يقول: [اللهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى][3].

ونحو ما في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: [كان أكثر دعاء النبي ﷺ: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار][4].

ونحو ما روى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن

---

(1) صحيح الجامع (605).
(2) صحيح الجامع (606).
(3) صحيح الجامع (1286).
(4) وفي لفظ مسلم: (كان أكثر دعوة يدعو بها يقول...) مختصر مسلم (1873).

تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً. قيل يا رسول الله ألا نتعلمها؟ قال: بلى ، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها][1].

وأما اسم الله الأعظم فقد جاء في أحاديث كثيرة:

الحديث الأول: روى أصحاب السنن عن بريدة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فقال: [لقد سألت الله تعالى بالاسم الأعظم ، الذي إذا سُئِل به أعطىٰ ، وإذا دُعي به أجاب][2]. وفي رواية: [لقد سألت الله تعالى باسمه الأعظم].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والنسائي عن أنس رضي الله عنه ، أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلي ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديعُ السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، فقال النبي ﷺ: [لقد دعا الله تعالى باسمه العظيم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئِل به أعطىٰ][3].

الحديث الثالث: يروي الترمذي عن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: [اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ ، وفاتحة آل عمران: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾][4].

الحديث الرابع: أخرج الحاكم والطحاوي بإسناد حسن عن القاسم أبي عبد الرَّحمن عن أبي أمامة مرفوعاً: [اسمُ الله الأعظمُ في سور من القرآن ثلاث: في «البقرة» و«آل عمران» و«طه»][5]. قال القاسم أبو عبد الرحمن: (فالتمست في (البقرة) فإذا هو في آية الكرسي ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ، وفي

---

(1) تخريج الأذكار للنووي ص 203.
(2) صحيح الترمذي (2763) وصحيح ابن ماجه (3857) ، تحقيق الألباني.
(3) صحيح ابن ماجه (3112) تحقيق الألباني.
(4) السلسلة الصحيحة (746) وصحيح الترمذي (2764).
(5) المرجع السابق.

(آل عمران) فاتحتها: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ ، وفي طه: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ ﴾).

الحديث الخامس: يروي الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ: [كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه إلى السماء، وإذا اجتهد في الدعاء قال: يا حيُّ يا قيوم].

ورواه عن أنس بلفظ آخر: (كان إذا كربه أمر قال: يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث)[1].

ورواه الحاكم بلفظ آخر: (يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين)[2].

الحديث السادس: يروي النسائي والترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال: [ألظوا بياذا الجلال والإكرام][3] أي: الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها.

الحديث السابع: يروي الترمذي عن سعد عن النبي ﷺ قال: [دعوة ذي النون إذ دعا ربَّه وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لمْ يدعُ بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له][4].

ورواه الحاكم بلفظ: (ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كَرْبٌ، أو بلاء، من أمر الدنيا دعا به ففرِّج عنه؟ دعاء ذي النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)[5].

الحديث الثامن: روى أحمد عن علي رضي الله عنه قال: [علمني رسول الله ﷺ إذا نزل بي كرب أن أقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين][6].

---

(1) صحيح الترمذي (2796).
(2) انظر صحيح الكلم الطيب ص 49.
(3) صحيح الترمذي (2797).
(4) صحيح الترمذي (2785).
(5) صحيح الجامع (2602).
(6) ويشهد له ما في الصحيحين عن ابن عباس، وما في صحيح الترمذي برقم (2732).

خامساً: الكف عن الظلم والمعاصي والآثام، ورد الحقوق إلى أصحابها.

فإن ذلك له صلة بإجابة الدعاء، فكم من داع مطعمه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، وكم من سائل آكل لحقوق الناس وأموالهم مضيع لأماناتهم وعهودهم، وكم من داع كانت تحته زوجة سيئة الخلق فلم يطلقها، أو أقرض أمواله من يحتاجها دون الإشهاد عليها، فضيَّع بذلك حقوق زوجته وأولاده من بعده، إلى غير ذلك من أنواع الظلم الذي يحول بين العبد وبين الدعاء المجاب.

فقد قال الله سبحانه في سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: 186].

يروي الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [أيها الناس! إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام فأنىٰ يستجاب لذلك][1].

وكذلك فقد روى الحاكم بسند صحيح عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاثة يدعون الله عزَّ وجل فلا يُستجابُ لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخُلق فلم يطلقها، ورجل كان له على رجل مال فلم يشهد عليه، ورجل آتى سفيهاً ماله، وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾][2].

وفي المسند عن أنس عن النبي ﷺ قال: [اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنه ليس دونها حجاب][3].

وله شاهد عند الطبراني عن خزيمة بن ثابت ولفظه: [اتقوا دعوة المظلوم،

---

(1) مختصر صحيح مسلم (540).
(2) صحيح الجامع (3070).
(3) حسن. الصحيحة (766).

فإنها تحمل على الغمام ، يقول الله : وعزتي وجلالي ، لأنصرنك ولو بعد حين][1] .

قال ابن القيم رحمه الله : (ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب ، فيظن الجاهل أن السرَّ للقبر ، ولم يعلم أن السرَّ للاضطرار ، وصدق اللجاء إلى الله ، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله كان أفضل وأحب إلى الله .

ثم قال : والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح ، والسلاح بضاربه لا بِحَدِّه فقط ، فمتىٰ كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به ، والساعد قوي والمانع مفقود ، حصلت به النكاية في العدو ، فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء أو كان ثمَّ مانع من الإجابة لم يحصل الأثر) .

سادساً : عدم اليأس أو الاستعجال ، واليقين بالإجابة عند السؤال .

كما قال جلَّ ثناؤه في سورة يوسف : ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ . وكما قال سبحانه في سورة الحجر : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ . وكما قال في سورة السجدة : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

يروي الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل . قيل يا رسول الله : ما الاستعجال؟ قال : يقول : قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لي ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء][2] .

وفي جامع الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه][3] .

قال ابن القيم رحمه الله : (ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء ، ومكثت بمكة مدة تعتريني أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواء ، فكنت

(1) حسن . صحيح الجامع (116) والصحيحة (868) .
(2) مختصر مسلم (1877) .
(3) حسن . صحيح الجامع (243) والسلسلة الصحيحة (596) .

أعالج نفسي بالفاتحة فأرى لها تأثيراً عجيباً ، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً ، وكان كثير منهم يبرأ سريعاً. لكن تستدعي قبول المحل وقوة همَّة الفاعل وتأثيره ، فمتى تخلف الشفاء ، كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفعل).

قلت: ومن أرفع مقامات الدعاء ، الدعاء بعمل صالح خبأتَه سراً بينك وبين الله سبحانه ، وقد ذكر لي ثقة قصة شاب تعرض في شبابه الجميل لمحاولة فتاة حسناء في محاولة صيده لجانبها وما يعقب ذلك من مظنة الوقوع فيما يسخط الله سبحانه ، وكان شاباً يلتزم المسجد وصلاة الجماعة وحفظ القرآن الكريم ، والتفقه وطلب العلم ، فتركها لله سبحانه أحوج ما كان الداعي إلى ذلك قوياً ولاسيما في أيام غربة ، ولما حاول الزواج بعد مدة رُفض لفقره ، فلجأ إلى الله بهذا العمل الصالح فقال وهو يغدو في طريقه إلى صلاة الفجر: اللهم إني كنت فُتِنْتُ بتلك الفتاة الحسناء في أيام مضت من الشباب ، اللهم إني تركت وأقلعت عن الخوض في الفتنة حياء من وجهك الكريم وتعظيماً لأمرك العظيم ، اللهم إن كان هذا يرضيك فيسّر لي زوجة أفضل منها حسناً وديناً وخلقاً. قال: فمكثت أسبوعاً فساق الله لي خيراً عظيماً وفرجاً كبيراً ، وزوجني أحسن منها وذلَّل لي كل مصاعب الزواج.

ويروي لي شاب آخر نشأ في طاعة الله عز وجل ، وانحدر من أسرة فقيرة فقدت ربَّ أسرتها في أيام مبكرة ، وكان هو أكبر إخوته سناً ، وإخوته أطفال صغار ، وكان يعمل ويدرس ، ليعين والدته وإخوته بعد رحيل والده ، وكانت الأسرة تسكن في بيت صغير قديم ، وكان يحافظ على صلاة الجماعة في المسجد الذي يجاور البيت ، ولما حاول التفكير بالزواج كانت العقبة الكبرىٰ أمامه إمكانية وجود بيت للزواج ، وهو لا يقدر على الاستئجار ، وملزم برعاية أسرته وتقديم نفقتهم. قال لي: وقد بلغ الهمُّ في نفسي أيّما مبلغ ، وأخذ من تفكيري وعقلي الكثير الكثير فكنت ألتجىء إلى الله سبحانه وأدعوه بالفرج. وذات يوم غدوت إلى المسجد كعادتي لأصلي مع الجماعة وإذا برجل من الحي يرقبني وتشتد ملاحظته لي ، ولم أكن على صلة به من قبل ، فأتى وجلس بجانبي بعد الصلاة وقال لي: إني كنت ألاحظك منذ أيام طويلة ، وأتابع حرصك على صلاة الجماعة في المسجد ، ولقد أعجبني التزامك ولطفك الذي يظهر عليك في مشيك وحركتك وسلامك على الناس وكلامك معهم ، وإني أتشرف بأن أخيرك بين بناتي لتتزوج من شئت منهن ، ولك

مني هدية مع الفتاة بيت يكون باسمك تسكن أنت وزوجتك به . قال: فذهبت معه واخترت وتزوجت وسكنت في المنزل وكان ذلك فرجاً كبيراً من الله لي ومخرجاً .

يروي لي آخر بسند جيد عن شاب نشأ في طاعة الله والحرص على طلب العلم والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان شاباً فقيراً من أسرة فقيرة يعمل ويدرس ، قال: ففاجأني أستاذي وشيخي يوماً بأنه قد قدم عليه رجل غني قد هيأ بيتاً وجهزه بأحسن الكسوة والأثاث ليتقرب إلى الله بتقديمه هبة لشاب مستحق من أهل العلم والصلاح يتزوج فيه. قال الشيخ: فأنا أختارك من بين مَنْ حولك فأنت أشد استحقاقاً كما أعلم من غيرك. قال الشاب: فتزوجت فيه وفرج الله به همي أيّما فرج .

وجملة القول: إن الدعاء هو من أسلحة الدقة العالية في حياة المؤمن ، يفرج الله به أعظم المصائب وأشد الكرب ، فالمؤمن يكثر في الرخاء من العمل الصالح بينه وبين الله سبحانه ، ليكون له زاداً عند الشدائد والآلام ، فيكشف الله بالدعاء بتلك الأعمال العالية الخفية ما أهمه وأغمه عبر المحن والأيام ، ويستخير الله عندما يعزم على أمره ليعلم إن كان ما يقدم عليه خيراً أو غير ذلك .

قال مطرِّف بن عبد الله ابن الشخير ـ أحد أئمة التابعين ـ: (نظرت في هذا الأمر ، فوجدت مبدأه من الله ، وتمامه على الله ، ووجدتُ مِلاك ذلك الدعاء) .

والدعاء كله خير ، وإجابة الدعاء أعم من إعطاء عين السؤال: ففي المسند وصحيح الحاكم من حديث أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال: [ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته ، أو يدخر له من الخير مثلها أو يصرف عنه من الشر مثلها ، قالوا: يا رسول الله: إذاً نكثر ، قال: الله أكثر](1) .

* * *

---

(1) ويشهد له ما في صحيح الجامع (5590) .

الباب الخامس

ـ مفهوم الموت وعلاقته بالقدر ـ

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة العنكبوت: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

وقال في سورة الأنبياء: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

وقال في سورة طه: ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾.

وقال في سورة الرحمن: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾.

وقال في سورة النساء: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾.

وقال في سورة الجمعة: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾.

فقوله سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي: متجرعة كأسه وأحواله. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذِكره: كل نفس منفوسة من خلقه، معالجة غصص الموت، ومتجرعة كأسها).

وقال ابن عباس: (﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾. قال: بالرخاء والشدة، وكلاهما بلاء).

وقال ابن زيد: (نبلوهم بما يحبون وبما يكرهون، نختبرهم بذلك لننظر كيف شكرهم فيما يحبون، وكيف صبرهم فيما يكرهون).

ثم ينزل الموت بهم لا محالة، ولا هروب منه فإنه قدر الله الذي ليس له استحالة، فهو سبحانه يقلب الإنسان في هذه الحياة الدنيا بين الشدة والرخاء، وبين الصحة والسقم، وبين الغنى والفقر، وبين الحلال والحرام، وبين الطاعة

والمعصية ، وبين الهدى والضلالة ، ثم يردُّه إليه فيجازيه إن خيراً فخير وإن شراً فَشر ، وَالموت حياة جديدة ، وهي ما يسمى بحياة البرزخ . وتفصيل ذلك :

أولاً : الموت قدر الله المقسوم ، وأجل من الله معلوم .

فقد قال الله في سورة النحل : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

وفي صحيح الإمام مسلم عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ قال : [إذا مرَّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها مَلَكاً فصوَّرها ، وخلق سمعها وَبصرَها ، وجلدَها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى[1]؟ فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يقول : يا رب أجلُهُ ، فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ، ثم يقول : يا رب رزقه ، فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملكُ ، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده ، فلا يزيد على أمرٍ ، ولا ينقص][2] .

وله لفظ آخر : (إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة ، ثم يتسور عليها الملك الذي يُخَلِّقُها ، فيقول : يا رب أذكر أو أنثى؟ فيجعلُهُ الله ذكراً أو أنثى ، ثم يقول : يا رب أسوِيٌّ أو غيرُ سويّ؟ فيجعله الله سوياً أو غيرَ سويَّ ، ثم يقول : يا رب ما رزقه؟ ما أجله؟ ما خلقُهُ؟ ثم يجعله الله شقياً أو سعيداً)[3] .

وهناك اختصار في حديث حذيفة للمراحل المبسوطة بتفصيل في حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين ولفظه : (إن أحدكم يجمع خلقُه في بطن أمه أربعينَ يوماً نطفة ، ثم يكون علقةً مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً ، ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح . . . .) الحديث[4] .

وقد مضى حديث أبي أمامة الذي رواه الطبراني وفيه : (إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها . . .) .

---

(1) أي : بعد المرور بالمراحل الثلاثة كما سيأتي .

(2) صحيح الجامع (809) .

(3) صحيح الجامع (1980) .

(4) مختصر صحيح مسلم (1847) .

وقد خرَّج الإمام مسلم في صحيحه في باب القدر حديثاً رائعاً عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أمُ حَبيبة زَوْجُ النبي ﷺ: [اللهم أمْتِعني (وفي رواية: متعني) بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية. فقال النبي ﷺ: [قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة، لن يُعَجِّلَ شيئاً قَبْلَ حِلِّه، أو يؤخِّرَ شيئاً عن حِلِّه، ولو كنت سألْتِ الله أن يعيذك من عذاب في النار أو عذابٍ في القبر كان خيراً وأفضل]. وفي رواية: قال لها: [إنك سألت الله لآجال مضروبة، وآثارٍ موطوءَةٍ، وأرزاق مقسومة، لا يُعَجِّلُ شيئاً منها قبل حِلِّه، ولا يؤخِّر منها شيئاً بعد حِلِّه، ولو سألت الله أن يُعافيَكِ من عذاب في النار وعذاب في القبر لكان خيراً لك])[1].

فإن الله سبحانه قد فرغ من كتابة آجال العباد، وعلمها قبل كتابتها، فلا يعجل شيئاً منها قبل حله، ولا يؤخر شيئاً منها عن وقته، فهو أمر الله الذي خبأه عن عباده وفي هذا خير لهم، فإنهم إن علموه أفسد الشيطان عليهم حياتهم، وسولت لهم أنفسهم التمادي بالشهوات والغي إلى قُبيل ميعادهم، ولربما تسعرت الحياة بالإجرام وقلت الطاعات، وغابت روح الخشوع والورع عن حياة الناس، فمن رحمته غَيَّبَ علم الآجال عن عباده، ليزداد المؤمنون رقياً في سلم درجاته، وفي الخوف والورع والإعداد ليوم لقائه، وتقوم الحجة على الكافرين بتماديهم، واستهزائهم بيوم رحيلهم، وبما أعدَّ الله لهم من سوء الحساب ونيل الشقاء.

ثانياً: الإيمان بالقدر، وبأن الله يرسل على العسر يسراً بعد يسر، يمنع المؤمن من تمني الموت.

فإنه لا يغلب عسر يُسرين، كما قال جل ثناؤه في سورة الانشراح: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾. وكما قال سبحانه في سورة الطلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾. وقال فيها أيضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾. وقال أيضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾.

---

(1) صحيح الجامع (4250).

ولقد كره رسول الله ﷺ للمؤمنين تمني الموت بسبب ضر نزل بأحدهم أو لأجل التخلص من هموم تزاحمت عليهم ، ولا بأس به لخوف الفتنة في الدين :

ففي الصحيحين واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: [لا يتمنىٰ أحدُكُم الموتَ ، إما مُحْسِناً فلعله يزداد ، وإما مسيئاً فلعلَّه يستعتِب][1] أي : يرجع إلى الله بالتوبة ورد المظالم .

وفي رواية لمسلم بلفظ: (لا يَتمنَّىٰ أحدُكم الموتَ ، ولا يَدْعُ به مِنْ قبلِ أنْ يأتيهُ ، إنه إذا مات انقطع عَملُه ، وإنه لا يزيد المؤمنَ عمُرُه إلا خيراً)[2] .

وقد أخرج الحاكم عن أم الفضل رضي الله عنها : [أن رسول الله ﷺ دخل عليهم وعباس عم رسول الله ﷺ يشتكي ، فتمنى عباس الموت ، فقال له رسول الله ﷺ : يا عم! لا تتمن الموت ، فإنك إن كنت محسناً ، فأن تؤخر تزداد إحساناً إلى إحسانك خير لك ، وإن كنت مسيئاً ، فأن تؤخر فتستعتب من إساءتك خير لك ، فلا تتمن الموت][3] . وهو على شرط البخاري .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : [لا يتمنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ لضر أصابه ، فإن كان لا بدَّ فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي][4] .

وفيهما واللفظ للبخاري عن قيسِ بن أبي حازم قال: [دخلنا على خبَّاب بن الأرتِّ رضي الله عنه نعوده ، وقد اكتوى سَبْعَ كَيَّاتٍ فقال: إن أصحابنا الذين سَلَفُوا مَضَوْا ، ولم تَنْقُصْهُمُ الدنيا ، وإنا أصَبْنَا ما لا نَجِدُ له مَوْضِعاً إلا الترابَ ، ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعوَ بالموت لدعوتُ به ، ثم أتيناهُ مَرَّة أخرى وهو يَبْني حائطاً له ، فقال: إن المسلم ليؤجَرُ في كل شيء يُنْفِقُهُ إلا في شيء يجعَلُهُ في هذا التراب][5] .

---

(1) صحيح الجامع (7486) .
(2) مختصر صحيح مسلم (1885) .
(3) أخرجه الحاكم (339/1) وصححه الألباني في أحكام الجنائز (3) .
(4) وهو في مختصر مسلم برقم (1884) .
(5) تخريج المشكاة (5182) .

وقوله: (ولم تنقصهم الدنيا): أي لم تستطع الدنيا أن تسلبهم شيئاً من مراتبهم المعدة لهم في الآخرة لعدم تمتعهم بملذاتها، فبقيت أجورهم كاملة.

وقوله: (أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا التراب): أي: يدفن فيه ويكنز خوف السرقة.

فلا يتمن المؤمن الموت بسبب ألم أو مصيبة نزلت به، بل يدافع القدر بالقدر، ويلجأ إلى الله بالدعاء والإلحاح فقد وعد سبحانه أن يجيب المضطر، فحياة المؤمن من خير إلى خير، وكلما طال عمره زاد أجره، لزيادة أعماله الصالحة وصبره ويقينه.

ثالثاً: الموت يقطع الأمل والعمل، إلا بعض الأعمال العالية فإنها تخترق وتتجاوز الأجل.

فقد قال الله سبحانه في سورة المنافقون: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

وقال في سورة المؤمنون: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ (٩٩)
لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ (١٠٠)
فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (١٠٢) وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ
خَٰلِدُونَ (١٠٣) تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ (١٠٤) أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ
عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ إلى أن قال: ﴿ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ (١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ
كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾.

يروي البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ

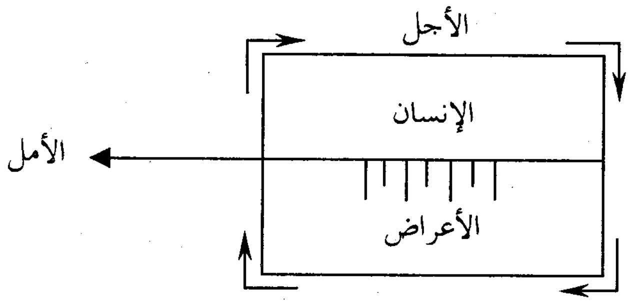
بمَنكبي فقال: [كن في الدنيا كأنك غريبٌ، أو عابرُ سبيل]. ورواه أحمد وزاد: [وعدَّ نفسك من أهل القبور](1).

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول: [إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك](2).

وخرَّج البخاري كذلك عن أنس رضي الله عنه قال: [خطَّ النبي ﷺ خطوطاً فقال: هذا الأمل (أي: أمل الإنسان) وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذْ جاء الخط الأقرب].

ورواه عن عبد الله بن مسعود بلفظ: [خط النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخطَّ خطًّا في الوسط خارجاً منه، وخطَّ خطوطاً صِغاراً إلىٰ هذا الذي في الوسط من جانبِهِ الذي في الوسط، فقال: هذا الإنسانُ وهذا أجله محيطاً به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارجٌ أمَلُهُ، وهذه الخُطُطُ الصِّغارُ الأعْراضُ، فإن أخطأه هذا، نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا](3).

وهذه صورته:



قال والدي حفظه الله في تعليقه على الحديث في شرحه وتحقيقه لرياض

---

(1) صحيح الجامع (4455) والسلسلة الصحيحة (1157).
(2) المرجع السابق.
(3) تخريج رياض الصالحين (3/574) و(4/575). د. أحمد راتب حموش.

الصالحين: (الخط الأوسط في المربع هو الإنسان، وامتداده إلى خارج المربع هو الأمل، والمربع نفسه هو الأجل يحيط بالإنسان من كل جانب، والخطوط الصغار هي أعراض الحياة الدنيا التي تحل بالإنسان في الدنيا من خير أو شر، فإن سلم من آفة أهلكته أخرى، وإن سلم من الجميع حلَّ به الأجل المحيط به من كل جهة قبل أن يصل إلى أمله البعيد عنه، فالإنسان في الدنيا إذن، يرنو إلى الأمل وتتقاذفه الأعراض، وبينما هو كذلك إذ يحل به الأجل قبل بلوغه الأمل. وفي الحديث التحريض على قصر الأمل والاستعداد لبغتة الأجل. وفيه أيضاً للمهتمين بالتربية والتعليم درس عظيم جليل من المعلم الأعظم سيدنا محمد رسول الله ﷺ يعتمد على وسائل الإيضاح المعينة والمقربة الأمور للأفهام، قبل أن تعرف هذه الوسائل في التعليم بزمن طويل).

ولكن ما الذي يبقى من العمل، ويخترق حدود الأجل؟

لقد خرَّج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفعُ به، أو ولدٍ صالح يدعو له](1).

وفي المسند وسنن ابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن الرجل لترفعُ درجتهُ في الجنة، فيقول: أنىٰ لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك لك](2).

ويروي ابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن مما يَلحقُ المؤمنَ من عمله وحسناته بعد موته، علماً علَّمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورَّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، يلحقُه منْ بعد موته](3).

وكذلك عند ابن ماجه بسند صحيح عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [خير ما يُخلِّف الرجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له،

---

(1) مختصر مسلم (1001).
(2) صحيح الجامع (1613).
(3) حسن. تخريج الترغيب (74/1) ص 36. تحقيق الألباني.

وصدقة تجري يبلغُهُ أجرُها ، وعلمٌ يُعمل به من بعده][1] .

وروى أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط بسند صحيح عن أبي أمامةَ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [أربعة تجري عليهم أجورُهم بعد الموت : رجلٌ ماتَ مُرابطاً في سبيل الله ، ورجل علَّمَ علماً ، فأجره يجري عليه ما عُمِل به ، ورجل أجرى صدقة ، فأجرُها له ما جَرَتْ ، ورجل ترك ولداً صالحاً يدعو له][2] .

وروى مسلم عن أبي مسعود البدري : [أن رجلاً أتى النبي ﷺ يَستحملُه ، فقال : إنـه قـد أبْـدِعَ بـي ، فقال رسول الله ﷺ : ائت فلاناً . فأتاه فحمَلَـهُ ، فقال رسول الله ﷺ : من دَلَّ على خير ، فلـه مثل أجرِ فاعِلـه ، أو قال عاملـه][3] . وقوله (أُبدع بي) أي : عطبت ركابه وانقطع .

ورواه البزار مختصراً بلفظ : (الدال على الخير كفاعله) .

ولمسلم أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : [من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبِعَهُ ، لا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام من اتَّبَعَه ، لا ينقصُ ذلك من آثامهم شيئاً][4] .

فالمؤمن يحرص في حياته الدنيا على أن يزرع زرعاً يحصده من بعد مماته ، ويبقى أثره ينتفع به من بعده من ذريته ومن أمته ، وتزهر ثماره يوم القيامة ليشرق بنور عمله وجهه وقلبه ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، وإن اليوم عمل وغداً حساب .

رابعاً : المؤمن يبادر بصالح العمل ، ليستعد للقاء الموت وانقطاع الأجل .

فقد قال الله في سورة آل عمران : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : 185] .

وقال في سورة الحديد : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ

---

(1) حسن . أحكام الجنائز (175) والإرواء (1079) .

(2) حسن . تخريج الترغيب (71/1) وصحيح الجامع (890) .

(3) مختصر مسلم (1101) .

(4) مختصر مسلم (1860) .

مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

يروي الترمذي بإسناد حسن عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: [كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثُ الليل قام فقال: يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموتُ بما فيه، جاء الموت بما فيه. قلتُ: يا رسول الله، إني أُكْثِرُ الصلاةَ عليك، فكم أجْعَلُ لك من صلاتي؟ فقال: ما شئت، قلتُ: الرُّبُعَ؟ قال: ما شئتَ، فإن زدتَ فهو خيرٌ لك، قلتُ: فالنصفَ؟ قال: ما شئتَ، فإن زدتَ فهو خيرٌ لك، قلتُ: فالثلثين؟ قال: ما شئت، فإن زدتَ فهو خيرٌ لك. قلتُ: أجعل لك صلاتي كُلَّها؟ قال: إذن تُكفىٰ هَمَّك، ويُغْفَرَ لكَ ذنبُكَ»](1).

وروىٰ البيهقي وابن حبان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [أكثروا ذكر هادم اللذات: الموتُ، فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسَّعَه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه](2).

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [يوشكُ أن يكونَ خيرَ مال المسلم غنمٌ يتبعُ بها شَعَفَ الجبال، ومواقعَ القطرِ، يفر بدينه من الفتن](3). وشعف الجبال: أعلاها.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: [من خير معاشِ الناس لهم رجلٌ ممسك عِنانَ فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمِعَ هيعة أو فزعة، طار عليه يبتغي القتل والموت مظانَّهُ، أو رجلٌ في غُنيمة في رأس شَعفة من هذه الشَّعف، أو بطنِ واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربَّه حتى يأتيَهُ اليقين، ليس من الناس إلا في خير](4).

فهو يمسك بلجام فرسه يسرع وهو على ظهره كلما سمع صيحة الفزعة للحرب والجهاد، يرجو الشهادة في سبيل الله وهي أحسن الموت، وأفضل أنواع الرحيل

(1) حسن. السلسلة الصحيحة (952) وصحيح الجامع (7740).
(2) الإرواء (682) وصحيح الجامع (1222).
(3) صحيح الجامع (8039).
(4) صحيح مسلم (39/6).

والمغادرة ، إذ يطير على فرسه يطلب الموت في مواضعه وأماكنه حيث مرضاة الله ، فإن لم يكن جهاد وكانت فتن ، اعتزلها ولو في أعلى جبل من هذه الجبال ، يعبُد الله ويعظم أوامره ، في وقت الفتن وبعد الناس عن الحق وتعظيم الشهوات ، حتى يأتيه الموت وهو كذلك.

قلت: ومن هذه المبادرة بصالح الأعمال استعداداً للموت ، كتابة الوصية الشرعية ، التي يبين المسلم فيها لأهله حقوق الله التي يجب عليهم أن يلتزموها ، وأحوال الموت وسنن الدفن والغسل والتعزية التي يجب عليهم أن يمتثلوها ، ويذكرهم بصلة الأرحام وحسن الخلق وأداء الحقوق إلى أهلها ، وما ينفعهم في أمر دنياهم وآخرتهم.

ففي الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: [ما حق امرئٍ مسلم ، له شيء يوصي فيه ، يبيتُ ليلتين إلا ووصيَّته مكتوبة عنده][1].

وفي رواية لمسلم: (يبيت ثلاثَ ليال). قال ابن عمر: (ما مَرَّت عليَّ ليلةٌ مُنذ سمعتُ رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي).

خامساً: الموت مرحلة انتقال لا انقطاع ، واستمرار في عالم البرزخ إلى يوم البعث ، ولا غموض في مستقبل ما بعد الموت عند المسلمين ، بل حياة فيها نعيم أو جحيم ، يشترك بذلك الروح مع الجسد.

فقد قال الله سبحانه في سورة الأعلى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾. فالموت وسيلة انتقال من حياة إلى أخرى ، وهو يمثل نهاية التكليف ومرحلة بدء الحساب. وهو فترة ما بين حياة الدنيا وحياة الآخرة ، تطول أو تقصر ، ولكنه لا بد من عبورها ، والكل ماض فيها ، والموت مراحله هي عكس مراحل الحياة ، فيلتقي الموت بنهايته مع بدء الخلق وذلك من التراب ، الذي هو مآل الخلق كلهم ، كما قال جل ثناؤه: ﴿ ۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾.

---

(1) صحيح الجامع (5491).

والعاقل من تهيأ لتلك اللحظات الحرجة ، والدقائق الحاسمة ، يوم يحتاج للنطق بحسن الختام ، شهادة أن لا إله إلا الله ، والتي تأتي عوناً من الله له ، وترجمة عن حياته وصدق قيامه بلوازمها.

يروي أبو يعلى في المسند ، وابن عدي في الكامل بسند حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [أكثروا من شهادة أن لا إله إلا الله ، قبلَ أن يحال بينكم وبينها ، ولقنوها موتاكم][1].

والموت راحة للمؤمن من نصب الدنيا وشقائها وهمومها ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. والموت هو القوة والعدل الذي يقهر الناس جميعهم ، فينزل بهم سواسية فقيرهم وغنيهم ، تاركين وراءهم زينتهم وأموالهم وسلطانهم ، وجاههم وجمالهم ، ليحملوا من بين ذلك الركام كله أعمالهم: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

ثم المؤمن لا يخاف الموت ولا يجبن عند ذكره ، بل يخشع قلبه ويلين عند سماع خبره ، فهو أشد الناس علماً بأن الخوف والجبن لا يطيلان في العمر ، كما أن الشجاعة والإقدام لا ينقصان منه ، وهو عندئذ من أشجع الناس وأقدمهم على المخاطر ، وأكرمهم نفساً ، وأهدئهم بالاً . ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ . ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ .

وسبب الموت انتهاء الأجل ، سواء كان بسبب ظاهر أو بلا سبب ، والأجل نوعان: مطلق ومقيد. فالأجل المطلق هو الموت الحتمي ، والأجل المقيد هو الموت نتيجة عوارض من قتل أو مرض. والموت الذي كتب بالسبب لا يتخلف عنه أبداً ، فإن تعاطى سببه أدركه الموت ، والكتابة ليست حجة لأحد ، إذ هي كتابة علم واطلاع ، فعلم الله أن فلاناً سَيُقْطَعُ رَأسُه فكتب عليه الموت بذلك ، لا يصح معه قيل من قال: لو لم يقطع رأسه سوف يعيش ، فالله سبحانه إذا كتب أمراً كان محققاً ، فيتوافق المكتوب مع المقدور ، ولكن علينا الأخذ بالأسباب ، أسباب النجاة والحياة. قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ . فلا

---

(1) السلسلة الصحيحة (468).

يجوز تعريض النفس للمهالك بحجة أن العمر مكتوب ، إذ الإنسان يجهل السبب الذي سيموت فيه ، فلا يباشر سبباً يسخطه الله فربما كان هو السبب الذي يقبض الله به روحه وإثمه عند الله يوم القيامة ، بل يباشر ما يرضي الله من القول والعمل ، ليكرمه سبحانه مناً منه بخير الأجل ، وأجمل المستقبل .

ثم الأجل قابل للتأخير والزيادة ، كما قال سبحانه في سورة نوح : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

فطاعة الله ورسوله ، والحرص على التقوى والبر ، سبب لتأخير الأجل وزيادة العمر .

ففي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال : [من سره أن يُعْظِمَ اللهُ رزقَهُ ، وأن يمدَّ في أجله ، فليصِل رحمه][1] .

وعند الطبراني عن أنس عن النبي ﷺ قال : [صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر] وسنده حسن[2] .

وفي المسند للإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [صلة القرابة مثراة في المال ، محبة في الأهل ، منسأة في الأجل][3] .

وفيه عن عائشة عن النبي ﷺ قال : [صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار ، يعمران الديار ويزيدان في الأعمار] وسنده صحيح[4] .

فالعمر يزيد على أثر تلك الأعمال العالية ، وقد كتب الله ذلك وعلمه ، فلا يصح قول أحدهم : إني أعتمد على المكتوب ، والمكتوب ليس منه هروب ، إذ لا يتغير . إذ يقال له : من أخبرك بما كُتب لك ، ومن أعلمك بأن الله كتب لك زيادة في الأجل حتى تستسلم للمكتوب ، فهل اطلعت على الغيب أم تفتري على الله

---

(1) وفي لفظ : [من سرَّه أن يُبْسَطَ عليه رزقه وينسأ في أثره فليصل رحمه] مختصر صحيح مسلم (1762) .

(2) حسن . تخريج الترغيب (31/2) وصحيح الجامع (3691) .

(3) صحيح الجامع (3662) .

(4) السلسلة الصحيحة (518) وصحيح الجامع (3661) .

كذباً ، وتنطق تافهاً من القول وسخفاً من الأباطيل ، فربنا سبحانه علم أن فلاناً سوف يتقاعس عن صلة رحمه فلم يزد سبحانه في عمره ، وما أجبره جل وعز على ذلك التقاعس والإهمال ، وبالعكس ، فإن الله قد علم أن فلاناً سيصل رحمه فزاد في عمره ، وبارك له فيه ، وما أجبره أن يصل أهله وقرابته ، فالكتابة كتابة علم واطلاع ، لا كتابة قهر وإجبار وإكراه ، والله هو الحكيم العليم.

ثم إذا مات العبد صعدت روحه إلى السماء ، بعد أن يسحبها ملك الموت وتأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، في حنوط الجنة وكفن من أكفانها إن كان من المؤمنين ، وفي مسوح من النار وكفن منها إن كان من الكافرين أو الفاجرين ، فيَصعدون بروح المؤمن التي تفوح في الكون بالعطر الزكي ويشيعه من كل سماء مقربوها إلى الله تعالى فيستقبلها وتكتب له في عليين ، ثم يأمرهم بإعادتها إلى جسده في قبره ، وأما إن كان كافراً فيخرج منها كأنتن ريح جيفة فلا يفتح لها في السماء الدنيا ويأمر الله بإعادتها فتطرح في جسده حين يصل قبره ، ثم يكون سؤال الملكين.

يروي ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن الميت تحضُره الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحاً قال: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدةً ، وأبشري بروح وريحان ، وربٍّ غيرِ غضبان ، فلا يزالُ يقال لها ذلك حتى تخرجَ ، ثم يُعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال: منْ هذا؟ فيقول فلان ، فيقال: مرحَباً بالنفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، وربٍّ غيرِ غضبان ، فلا يزال يُقال لها ذلك حتى يُنْتَهى بها إلى السماء التي فيها الله تبارك وتعالى. فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يُقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعرجُ بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال: مَنْ هذا؟ فيقال: فُلان ، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنها لا تفتح لك أبوابُ السماء ، فترسلُ من السماء ، ثم تصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالح في قبره ، غير فزعٍ ولا مشعوف[1] ثم يقال له: فيمَ كنتَ

---

(1) الشعف: شدة الفزع حتى يذهب بالقلب.

فيقول: كنتُ في الإسلام. فيقال له: ما هذا الرجلُ؟ فيقول: محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه. فيقال له: هل رأيتَ الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى الله، فيفرجُ لهُ فرجة قبلَ النار، فينظرُ إليها يحطِمُ بعضُها بعضاً، فيقال له: انظر إلى ما وقاكَ الله تعالى، ثم يفرج له فرجةٌ قبلَ الجنة، فينظرُ إلى زهرتِها، وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك، ويقالُ له: على اليقين كنتَ، وعليه مُتَّ، وعليه تبعث إن شاء الله. ويجلس الرجل السوء في قبره فزِعاً مشعوفاً، فيقال له: فيم كنتَ؟ فيقول لا أدري، فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقُلته! فيفرج له فرجةٌ قبلَ الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صرف الله عنك، ثم يفرجُ له فرجةٌ إلى النار، فينظر إليها يَحْطم بعضُها بعضاً فيقال: هذا مقعدك، على الشك كنتَ، وعليه مُتَّ، وعليه تبعث إن شاء الله][1].

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً، وبسؤال مُنكر ونكير للميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه على ما جاءت به الأخبار عن رسول ربه ﷺ، وعن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ونؤمن بالبعث وبجزاء الأعمال يوم القيامة والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان)[2].

قلت: ولم يصح تسمية قابض الروح عند الفراق بعزرائيل، بل هو مسمى بملك الموت كما في الحديث الصحيح، ولا تعارض بين قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: 11]، وبين قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: 61]، وقوله جل ذكره: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر: 42]. لأن ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ويتولونها بعده ـ كما مرَّ ذكره ببحث

---

(1) صحيح الجامع (1964) وتخريج الترغيب (4/188 - 189).
(2) متن الطحاوية (79 - 82).

الإيمان بالملائكة ـ وكل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره وحكمه وأمره ، فصحت إضافة التوفي إلى كل بحسبه .

والنفس جسم نوراني عُلوي خفيف حي متحرك ، ينفذ في جوهر الأعضاء ، ويسري فيها سريان الماء في الورد ، والدهن في الزيتون ، والنار في الفحم ، فيفيدها من الآثار من الحس والحركة الإرادية . والإنسان اسم لروحه وجسده ، والنفس والروح تارة مدلول واحد ، وتارة يختلفان ، وتفصيل ذلك :

1 ـ النفس تطلق أحياناً على الروح ، ولكن غالب ما يسمى نفساً إذا كانت متصلة بالبدن ، وأما مجردة فإن تسمية الروح أغلب .

ففي التنزيل : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : 145] .

﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : 27 - 28] .

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] .

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة قالت : [دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره ، فأغمضه ثم قال : إن الروح إذا قبض تبعه البصر ، فضج ناس من أهله فقال : لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير . . .][1] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [ألم تروا إلى الإنسان إذا مات شخص بصرُه ، فذلك حينَ يتبعُ بصرُه نفسَه][2] .

وفي صحيح ابن ماجه من حديث أبي هريرة وفيه : [اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ـ ولنفس الكافر ـ اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث][3] .

2 ـ النفس تطلق على الأحاسيس والمشاعر ، والروح هي المحرك لهذه المشاعر .

قال الله في سورة يوسف : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ . وقال : ﴿ هِىَ

---

(1) ورواه أحمد (297/6) .

(2) صحيح الجامع (1325) .

(3) قد مضى بتمامه .

رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ . وقال : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ . فهي تشمل أشياء من الجسد والروح معاً .

وفي المسند عن معاذ عن النبي ﷺ قال : [ما من نفس تموت وهي تشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، يرجع ذلك إلى قلب موقن ، إلا غفر الله له](1) .

وفي الصحيحين عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : [ما من نفس منفوسة اليوم ، يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية](2) .

3 ـ النفس يراد بها الدم ببعض كلام الفقهاء ، كقولهم : (ما لا نفس له سائلة ، لا ينجس الماء إذا مات فيه) .

4 ـ النفس : العين . كقولهم : أصابت فلاناً نفس أي عين .

5 ـ النفس : الذات . كقوله تعالى : ﴿ فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

6 ـ الروح : القرآن أو جبريل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] . ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء : 193] .

7 ـ الروح : ما يؤيد الله به أولياءه ، وهي روح أخرى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ .

8 ـ والروح يطلق على الهواء المتردد في بدن الإنسان ، وكذلك يقال للقوى التي في البدن أرواحاً : الروح الباصر ، الروح السامع ، الروح الشامّ .

9 ـ الروح : قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته .

ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن . فالعلم روح ، والإحسان روح ، والمحبة روح ، والتوكل روح ، والصدق روح ، والناس متفاوتون في هذه

(1) حسن . السلسلة الصحيحة (2278) .
(2) صحيح الجامع (5671) .

الروح ، فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً ، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً .

10 ـ النفس أنواع: مطمئنة ولوّامة وأمارة. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: 27]. ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: 2]. ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: 53].

فهي نفس واحدة لها صفات ، فهي أمارة بالسوء فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها ، وتلوم بين الفعل والترك ، فإذا قوي الإيمان صارت مطمئنة .

وفي صحيح ابن ماجه من حديث جابر بن سمرة: [ومن كان منكم تسره حسنته وتسوؤه سيئته فهو مؤمن](1) .

11 ـ موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها .

فقد اختلف الناس قديماً هل تموت الروح أم لا؟ قالت طائفة: تموت لأنها نفس ، وكل نفس ذائقة الموت ، وقد قال الله سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: 27 - 26] . ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: 88]. قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت .

وقال آخرون: لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان ، والدليل أحاديث نعيمها وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها .

وفي التحقيق فإن موت النفوس مفارقتها لأجسادها ، لا تعدم بالكلية ، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو عذاب .

ففي المُسْند ومعجم الطبراني من حديث عبد الرحمن بن كعب: [أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر تعلق في أشجار الجنة حتى يردها الله إلى أجسادها يوم القيامة](2) .

---

(1) ابن ماجه (64/2) وأحمد (177/1) وصححه الألباني في الصحيحة (431) .

(2) تخريج المشكاة (1631) وصحيح الجامع (925) .

وفي التنزيل أن أهل الجنة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: 56]. وتلك الموتة هي مفارقة الروح للجسد.

وأما قول أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [المؤمن: 11]. وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28]، فالمراد ـ كما ذكر المفسرون ـ أنهم كانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلاكانت ثلاث موتات.

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية: (وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها فالناس يصعقون يوم القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره وليس ذلك بموت. . . وكذا صَعْق موسىٰ لم يكن موتاً، بل نفخة الصعق موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق والله أعلم، أما من ذاق الموت أو لم يكتب عليه الموت من الحور والولدان وغيرهم فلا تدل الآية أنه يموت موتة ثانية والله أعلم).

12 ـ عذاب القبر على الروح والجسد، ونعيم المؤمن بعد الموت في البرزخ على الروح والجسد.

ففي التنزيل: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: 45 - 46]. وقال سبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: 45 - 47].

قال أهل العلم: وهذا يحتمل عذابهم بالقتل في الدنيا وعذابهم في البرزخ وهو أظهر، لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: إنَّهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرىء من البول، وأما

الآخر فكان يمشي بالنميمة ، فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا][1] .

وفي صحيح أبي داود من حديث البراء: [فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول هاه هاه لا أدري ، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء: أن كذب فافرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرِّها وسمومها ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه. . .][2] .

وفي صحيح ابن ماجه من حديث أبي هريرة ـ يقال للمؤمن في القبر: [انظر إلى ما وقاك الله تعالى ، ثم يفرج له فرجة قبل الجنة ، فينظر إلى زهرتها ، وما فيها ، فيقال له: هذا مقعدك ، ويقال له: على اليقين كنتَ ، وعليه مُتَّ ، وعليه تبعث إن شاء الله][3] .

وفي صحيح البخاري عن أنس ، قال رسول الله ﷺ: [إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم ، فيأتيه ملكان فيقعِدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقول له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً][4] .

وله شاهد في صحيح الترمذي بلفظ: [إذا قُبِرَ أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير. . .][5] .

والخلاصة: يجب الإيمان بعذاب القبر دون الخوض في كيفيته ، إذ ليس للعقل الوقوف على ذلك لكونه لا عهد له به في هذه الدار ، والشرع قد يأتي بما تُحار به العقول. وكذلك فإنَّ عود الروح إلى الجسد في القبر عند السؤال ليس على الوجه المعهود في الدنيا.

---

(1) البخاري (1/317/216) ومسلم (1/240/292) .
(2) قد مضى بتمامه. وانظر أحكام الجنائز ص 157 .
(3) قد مضى. صحيح الجامع (1964) .
(4) مختصر صحيح البخاري (638) .
(5) حسن. السلسلة الصحيحة (1391) وصحيح الجامع (737) .

فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

1 ـ تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

2 ـ تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

3 ـ تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

4 ـ تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة، فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسلّم، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

5 ـ تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً، فالنوم أخو الموت.

فعذاب القبر للنفس والبدن معاً باتفاق أهل السنة والجماعة، والنفس تنعمُ وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به، وعذاب القبر هو عذاب البرزخ، ينال كل مستحق للعذاب بعد الموت سواء قُبر أم لم يقبر، أكلته السباع أو احترق وصار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر، فإنه يصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، ومن ثمَّ فإن ما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك يجب أن يُفهم عنه ﷺ مراده بذلك من غير غلو ولا تقصير. ولو قبر رجلين جانب بعضهما هذا في روضة من الجنة وهذا في حفرة من النار، فلا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره ولا من هذا لذاك من نعيمه، وكله بقدرة الله عز وجل، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً، ولو شاء الله أن يطلع عباده الغيب لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب ولما تدافن الناس.

ففي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد، قال رسول الله ﷺ: [لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع][1].

---

(1) صحيح مسلم (161/8).

ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم سمعته وأدركته.

فائدة (1): عذاب القبر يدوم لبعض الناس كما قال جل ثناؤه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: 46]. وفي المسند من حديث البراء: [ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة][1].

والنوع الثاني: يدوم مدة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب صاحبها بحسبها ثم يخفف عنه.

ففي صحيح مسلم من حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ قال: [إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها][2].

فائدة (2): اختلف في مستقر الأرواح بين الموت إلى قيام الساعة، والخلاصة:

الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت فمنها:

أ ـ أرواح في أعلى عليين: في الملإ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، وهم متفاوتون في منازلهم.

ب ـ أرواح في حواصل طير خُضر: تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء لا كلهم، بل منهم من تحبس روحه عن دخول الجنة لدَين عليه. ففي المسند بسند صحيح عن عبد الله بن جحش أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: [يا رسول الله: مالي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: الجنة، فلما ولّى قال: إلا الدَّين سارني به جبرائيل آنفاً][3].

ج ـ أرواح محبوسة على باب الجنة.

---

(1) قد مضى بتمامه.

(2) مختصر صحيح مسلم (493).

(3) تخريج الطحاوية (80).

ففي صحيح أبي داود عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ قال: [. . . إن فلاناً مأسور بدينه عن الجنة][1].

وفي لفظ: [رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة].

د ـ أرواح محبوسة في القبر أو في الأرض أو تكون في تنور الزناة والزواني أو في نهر الدم تسبح فيه وتُلقم بالحجارة كما جاء في أحاديث متفرقة.

هـ ـ أرواح المؤمنين عامة في أجواف طير خضر.

ففي الموطأ عن كعب بن مالك عن النبي ﷺ قال: [إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه][2].

وفي لفظ عند الطبراني: [أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر تعلق[3] في أشجار الجنة حتى يردها الله إلى أجسادها يوم القيامة][4].

قلت: وأما الشهداء فقد تميزوا أكثر إذ جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ثم تأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش.

فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [لما أصيب إخوانكم بأُحد جعل الله عز وجل أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يَنْكُلوا[5] عند الحرب، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم. فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾][6].

---

(1) المرجع السابق، والمسند (11/5) وأبو داود (84/2) وأحكام الجنائز (17).
(2) ويشهد له ما في المشكاة (1631).
(3) تأكل.
(4) صحيح الجامع (925).
(5) يرجعوا هائبين لعدوهم خائفين منه.
(6) صحيح الجامع (5081) وتخريج الطحاوية (393).

ثم إنه لما كان المسلم يعلم ما هو قادم عليه في القبر ، يوصي أهله ألا يجزعوا عند فراقه ، فقد غادرهم إلى ما هو أجمل وأطيب ، فليهنؤوا وليحمدوا الله على ذلك ، بدلاً من البكاء والعويل وعمل الشيطان ، فإن ذلك يؤذي الميت ويعذبه .

ففي الصحيحين عن عمر عن النبي ﷺ قال : [إن الميت ليعذَّبُ ببكاء الحي][1] .

وفيهما عن ابن عمر بلفظ آخر : [إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه][2] .

فبدلاً من ذلك فليسرعوا بتجهيزه وتكفينه ليصل إلى سعادة لا تغمرها سعادة ، وأيام هي أجمل من كل أيام العمر ، فهنيئاً للطائعين المؤمنين والمجاهدين في سبيل الله مثواهم .

* * *

(1) أحكام الجنائز ص 28 .

الباب السادس

ـ مفهوم المشيئة والاستطاعة ـ

أ ـ مفهوم المشيئة :

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة المدثر : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةًۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًاۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر : 31 - 56].

قال ابن جرير رحمه الله : (﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ من خلقه ، فيخذله عن إصابة الحق ، ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ منهم فيوفقه لإصابة الصواب).

وفي قوله : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ قال ابن عباس : (من شاء اتبع طاعة الله ، ومن شاء تأخّر عنها). وقال قتادة : (يتقدم في طاعة الله ، أو يتأخر في معصيته).

وأما قوله : ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ قال القرطبي : (أي : اتَّعَظَ به ، وما يتعظون إلا أن يشاء الله ، أي : ليس يقدرون على الاتعاظ والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لهم).

وقال الطبري: (لأنه لا أحد يقدر على شيء إلا بأن يشاء الله، يقدره عليه، ويعطيه القدرة عليه).

فكل شيء يجري وفق إرادته سبحانه وإذنه، فالنصر والهزيمة والضعف والشوكة بقدره، وظهور الأمم وزوالها وتمكنها وأفولها وانهيارها بمشيئته وأمره، وكل حادث في الكون يصرفه سبحانه بحكمته وإرادته، فَما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

لقد أخرج الإمام أحمد وَالإمام مسلم، عن أبي هريرة، واللفظ لأحمد، قال رسول الله ﷺ: [لا تسبوا الدهر، فإن الله عز وجل قال: أنا الدهر، الأيام والليالي لي أجددها وأبليها، وآتي بملوك بعد ملوك][1].

وفي لفظ لمسلم: [قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر، فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما][2].

وفي كلام العرب، المشيئة هي الإرادة، تقول: شاء يشاء مشيئة. قال الرازي: (وفي ديوان الأدب: المشيئة أخص من الإرادة). وفي التنزيل وردت في مواضع كثيرة:

ففي سورة القصص قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وفي سورة يونس قال جل وعز: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وكذلك فيها قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

وكذلك فيها قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1814).

(2) مختصر صحيح مسلم (1813).

وفي سورة الدهر: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

وكذلك قوله في سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾.

وفي سورة البروج قوله: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وبنحوه في سورة الأنبياء: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾.

والمشيئة كما وردت في الكتاب والسنة ثلاثة أقسام: كونية وشرعية ومشتركة.

أولاً: المشيئة الكونية.

وهي كل ما شاء الله إيجاده، وكتبه في اللوح المحفوظ كتابة كونية، فلا راد لقضائه في ذلك. وهي نوعان:

1 ـ المشيئة الإجبارية: من سنن الله الكونية، كتعاقب الليل والنهار، وكحركة الشمس والقمر والنجوم والكواكب وأمواج البحار. وكمجمل الأرزاق والآجال والأعمار. كما قال جل وعز في سورة الأنعام: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

2 ـ المشيئة الإذنية: وهي المشيئة المرتبطة بعلم الله وعدله وحكمته، إذ علم الأعمال وكتبها فلا أحد اختار الإيمان رغم مشيئة الله ولا أحد اختار الكفر رغم مشيئة الله، بل الكل داخل في اختياره تحت مشيئته سبحانه، فلا أحد يخرج بإرادته ومشيئته عن إرادة الله ومشيئته عز وجل.

فقد قال سبحانه في سورة يونس: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

وقال جل وعز في سورة النساء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

وقال جل ثناؤه في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾.

وقال في سورة النحل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقال في سورة يونس: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

فهو لا يسأل عما يفعل لتمام علمه وكمال حكمته وعدله.

ثانياً: المشيئة الشرعية.

وهي أمر الله ونهيه كقوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 43]. وكقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: 30 - 31]. ومن المعلوم أن من الناس من لا يصلي ولا يزكي ولا يغض طرفه عن الحرام، فإن الله لم يشأ لهم ذلك بمشيئته النافذة، فلم يشأ سبحانه أن يجبرهم على التزام أوامره، (فإن الله سبحانه يحب ما لا يشاء، ويشاء ما لا يحب). ومفهوم ذلك:

فهو سبحانه يحب الإيمان للكفار ولكنه لم يشأه لهم، بمعنى أنه لم يجبرهم على الإيمان.

وهو سبحانه يحب التواضع من المستكبرين ولكنه لم يشأه لهم. ويحب التوبة من المجرمين قبل الغرغرة، لكنه لم يشأ ذلك جبراً وإرغاماً لهم. ويحب للحكام أن يتحاكموا لأمره ويحكموا بشرعه، لكنه ما شاء ذلك رغماً وإجباراً. ويحب الدعاء والتضرع من المؤمنين إليه، ولكنه لم يشأه جبراً عنهم، فهذا كله داخل في مفهوم **(يحب ما لا يشاء)**.

وأما مفهوم **(يشاء ما لا يحب)**:

فهو سبحانه قد شاء خلق إبليس مع أنه لا يحبه.

وشاء خَلْق الخِنزير ولا يحبُّه. وخلق الخمر ولا يحبها. وخلق الربا والزنا والميسر ولا يحبها. فهو سبحانه (يشاء ما لا يحب).

فهناك فرق بين **المحبة والإرادة**، فقد يريد الله أمراً لا يحبه كخلقه إبليس، وقد يحب أمراً سبحانه ولا يريده كالإيمان للكفار، بمعنى لا يجبرهم عليه فتبارك الله أحسن الخالقين.

وهنا لا بد من الانتباه بأن الله سبحانه قد أثبت للعبد مشيئة:

فقال في سورة الكهف: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾.

وقال في سورة النبأ: ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾.

وقال في سورة المدثر: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ وقال فيها أيضاً: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ ولكنها مشيئة مقهورة بمشيئته، لذلك قال: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾.

وقال في سورة التكوير: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾.

وقال في سورة عبس: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴾.

وقال في سورة الدهر: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾. فأثبت سبحانه للعبد مشيئة ولكنّه بيَّن أنها مشيئة مقهورة بمشيئته سبحانه، فلا أحد يستطيع أن يعلو في الأرض كما يشاء، ولا أحد يستطيع أن يفسد في الأرض كما يشاء، ولا أحد يستطيع أن يكثر من الطاعات ما شاء، ولا أحد يستطيع أن يختار مستقبله كما يشاء، بل الكل مرتبط بمشيئة الله سبحانه مقهور بها، فإن توافقت مشيئة العبد مع مشيئة الله كان له ذلك، وإن عارضته مشيئة الله بمرض أو مصيبة أو حادث أو طارىء أو أمر شاءه سبحانه فلا سبيل للعبد إلى أمله وحاجته إلا بسماح الله وإذنه وإطلاقه له من قيوده التي قيَّده بها، فإن قضىٰ الله أن يقيِّده دون آماله وبلوغها فلا سبيل له إلى الوصول مع ما يظن من حرية الاختيار وسلوك السبل، فإن

الله لا يقهر أمره أحد في السماوات ولا في الأرض ، والجميع مقهور بعلمه وعدله وحكمته فتبارك الله ربُّ العالمين .

يروي أبو نعيم في الحلية بسند حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [إن الله لو شاء أن لا يُعصى ما خلق إبليس](1) .

فهو خلقه بحكمته سبحانه فشاء ما لا يحب وهو أحكم الحاكمين .

ثالثاً : المشيئة المشتركة .

هي اشتراك وارتباط بين المشيئة الكونية والمشيئة الشرعية ، والعبد فيها بين التخيير والتسيير ، فقد جمع الله سبحانه له في ذلك بين الاختيار والإجبار . وتفصيل ذلك :

فالمرء مخيَّر بانتقاء الزوجة الصالحة أو غير ذلك ، فهو مختار لزوجته مجبر على انتساب ولده إليه ، لا يَنْفَكُّ بتبعيته إليه حتى في يوم الحساب . ومَنْ ألقى بنفسه من شاهق ، فهو مخيَّر في ذلك الإلقاء مختار له ، ولكنه مجبر على النتيجة التي سيلقاها عبر وصوله إلى الأرض .

كذلك مَنْ ضيَّع العمر بالنفاق واللهو وتعظيم الشهوات فهو مخيَّر في ذلك مختار له ، ولكنه مجبر على النتيجة التي يلقاها في الآخرة .

كما قال جل ثناؤه في سورة الجاثية : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يروي الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : [أتاني جبريل ، فقال : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامُه بالليل ، وعزَّه استغناؤه عن الناس](2) .

فإذا علمت مفهوم المشيئة المشتركة فسارع إلى اختيار الأعمال العالية الرفيعة ، المصحوبة بنية طيبة وأقدم على المعالي ، عسى الله سبحانه بكرمه أن يشاء لك

---

(1) صحيح الجامع (1808) والسلسلة الصحيحة (1642) .
(2) حسن . صحيح الجامع (73) والسلسلة الصحيحة (829) .

ما يرفعك به في الدنيا والآخرة ، فإن عشت ورأيت ذلك قد تحقق في حياتك وحياة من حولك فاحمد الله العظيم الذي شاءه لك ، وإن لم تره قد تحقق فاعلم أن نية المؤمن في كثير من الأحيانِ أطيب من عمله ، فتبارك الله الذي لا يشاء إلا الأمثل والأكمل من القضاء ، وهو أحكم الحاكمين.

ب ـ مفهوم الاستطاعة :

الاستطاعة : هي القدرة على القيام بالعمل ، وهي قسمان : استطاعة قبل العمل ، واستطاعة موافقة للعمل . وتفصيل ذلك :

أولاً : الاستطاعة قبل العمل .

وتعني سلامة الجوارح والآلات وأعضاء البدن ، أو بكلام آخر : حضور القدرة الجسدية والإرادة العقلية ، وهي استطاعة مخلوقة مع الإنسان وليس ابتداءً عند العمل كما يظن كثير من الناس ، لأن العقل لا يكون عقلاً إذا لم يكن مريداً مميزاً ، والقوي لا يقال عنه قوي ما لم يكن معروفاً بالقوة وأسبابها ، وإلا فغياب العقل سبب لرفع التكليف ، كما في القاعدة الأصولية : (إذا أخذ ما أوهب ، أسقط ما أوجب) . فقوام العقل التمييز والإرادة والاختيار ، وقوام الاستطاعة القدرة وسلامة الجوارح .

فقد قال الله في سورة آل عمران : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ .

وقال في سورة التغابن : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ . وقال في سورة المجادلة : ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ﴾ .

فلو كانت الاستطاعة هذه لا توجد إلا مع الفعل لما وجب الحج إلا على من حجَّ ، ولا الصيام إلاّ على من صام ، ولا الصلاة إلا على من صلى ، ولا القيام فيها إلا على من قام ، وهذا فاسد ، إذ يترتب عليه ألا يعاقب تارك الحج أو الصيام .

وبنحو هذا قوله سبحانه في سورة النساء : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾ إذ المراد استطاعة الآلات

والأسباب ، أي : من سلامة الجوارح والبدن والعقل ، لذا لم يكلف سبحانه غير العاقل ولن يعاقبه .

يروي البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : [صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإني لم تستطع فعلى جنب][1] .

ويروي الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : [من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها][2] .

وكذلك روىٰ أبو داود عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : [من استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين قبلته أحد فليفعل][3] .

وفي صحيح الإمام مسلم من حديث عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : [من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل][4] .

وكذلك روى عن جابر عن رسول الله ﷺ قال : [من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه][5] .

وبنحوه روى الضياء عن الزبير مرفوعاً : [من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل][6] .

ثانياً : الاستطاعة الموافقة للعمل .

وهي خلق القدرة على ذلك العمل ، وتأتي بمعنى التوفيق ، كما قال جل ثناؤه في سورة الكهف : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ .

وكما قال سبحانه في سورة هود : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم

---

(1) ورواه أبو داود . صحيح أبي داود (878) .
(2) تخريج المشكاة (5720) .
(3) صحيح أبي داود (696) ـ تحقيق الألباني .
(4) صحيح الجامع (5893) .
(5) مختصر صحيح مسلم (1452) .
(6) السلسلة الصحيحة (2313) وصحيح الجامع (5894) .

بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ .

وكقوله كذلك في سورة القلم: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ . فلا يوفقهم الله إلى السجود هناك ، بل يخزيهم ويجعل ظهورهم طبقاً واحداً فلا يستطيعون ، أحوج ما كانوا يحتاجون إلى ذلك ، جزاء وفاقاً بما ضيعوا شرعه سبحانه في الحياة الدنيا ، وحَكَّموا أهواءهم وشهواتهم ، واستهزؤوا بكتابه وبأنبيائه ورسله. كما يمنع جل وعز يأجوج ومأجوج في كل يوم من الخروج كلما نقبوا السد ورأوا شعاع الشمس ، أحوج ما يحتاجون إلى الخروج من ذلك الضيق والعذاب ، جزاء عدلاً من الله على استهزائهم بالحق وحب الظلم والكبر والعلو والبغي في الأر ض ، إلى أن يجيء اليوم الذي يتذكرون مشيئة الله التي تقهر مشيئتهم فهناك يخرجون بمشيئته سبحانه ، كما قال جل ثناؤه في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ ، وأمامحاولاتهم في كل يوم فلا تلقى توفيقاً من الله ولا يأذن لهم بتلك الاستطاعة الموافقة للعمل كما قال سبحانه في سورة الكهف: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ .

وهنا يكمن الفرق بين النوعين من الاستطاعة ، قبل العمل وتلك الموافقة للعمل ، فإن قوله سبحانه في سورة القلم: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ يضم النوعين معاً.

فأما الاستطاعة قبل العمل فداخلة في قوله: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ إشارة إلى سلامة الجوارح والآلات وأعضاء البدن ، واستعدادها للسجود وامتثال الأمر الإلهي العظيم بذلك ، فهناك حضور للقدرة الجسدية والإرادة العقلية. وأما الاستطاعة الموافقة للعمل فهي موضحة بقوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ فإن الله سبحانه يفقدهم القدرة آنذاك ويسلبهم الاستطاعة التي كانوا ينعمون بها في الدنيا ولكنهم بطروها وركبوا الحرام والشرك والبغي ، فبادلهم بذلك أن سلبهم التوفيق إلى الطاعة أحوج ما يحتاجون إليه كسبب لدخول

الجنة . وأما المؤمنون فقد كان بينهم وبين ربهم سبحانه كلمة من السر وهي كشف الساق ، فكان علمهم بالأسماء والصفات وتوحيدهم لله وعملهم بأوامره سبباً لنجاتهم وتوفيقهم إذ سمعوا الأمر وتلقوا الإشارة فخروا ساجدين بعون الله وتوفيقه لهم .

فقد أخرج البخاري عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد ، فيعود ظهره طبقاً واحداً][1] .

وله شاهد عند الدارمي عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إذا جمع الله العباد بصعيد واحد ، نادى مناد : يلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، ويبقى الناس على حالهم ، فيأتيهم فيقول : ما بال الناس ذهبوا وأنتم ههنا؟ فيقولون : ننتظر إلهنا ، فيقول : هل تعرفونه؟ فيقولون : إذا تعرف إلينا عرفناه ، فيكشف لهم عن ساقه فيقعون سجداً وذلك قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ويبقى كل منافق فلا يستطيع أن يسجد ثم يقودهم إلى الجنة][2] .

وكذلك فإن الله سبحانه يمنع يأجوج ومأجوج من الخروج وذلك في كل يوم حيث يحاولون نقب السد فيعيده الله أشد مما كان ، فلا يستطيعون الخروج ولا يوفقهم سبحانه لبلوغ مرامهم ، حتى يشاء سبحانه فمشيئته قهرت كل مشيئة ، وكل مشيئة واستطاعة فمن خَلْقِه وتحت أمره ، كما قال سبحانه : ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ .

يروي الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً : [إن يأجوج ومأجوج يحفرون كُلَّ يوم ، حتى إذا كادوا يَرَوْن شعاعَ الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فسنحفره غداً فيعيده الله أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مُدَّتُهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فسنحفره غداً إن شاء الله تعالى واستثنَوا ، فيعودون إليه وهو كهيئته حين

---

(1) قد مضى تخريجه .

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة (584) وسنن الدارمي (326/2) .

تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم . . .] الحديث[1]. وسيأتي بتمامه إن شاء الله عند الحديث عن علامات الساعة واقتراب القيامة.

وروى أحمد أيضاً عن عمرو بن ميمون مرسلاً، والحاكم والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [اغتنم خمساً قبل خمس: حياتَك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك][2].

فإذا وهبك الله عقلاً سديداً فأشغله بالعلم والقرآن، وإذا وهبك الله قوة وسلامة في البدن والجوارح فبادر إلى الطاعات والصدقات والقيام، وخذ من الليل إن استطعت قبل أن لا تستطيع القيام، واعلم أن الله قد يخذل من استطاع وضيع العمر باللهو وارتكاب الحرام، فلا يوفقه للنطق بالشهادة عند الاحتضار في لحظات الختام، ويحرمه من لذة النظر إلى وجهه يوم القيامة كما يحرمه نعمة الأمن هناك والأمان.

كما خرَّج البخاري في صحيحه عن جرير رضي الله عنه قال: [كنَّا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلةً فقال: إنكم سترون ربَّكم، كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا. ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾][3].

نور تجلَّى للخلائق كلها ... فتواضعوا لجلاله وتَذَلَّلُوا
وقعوا سجوداً يلهجون بذكره ... والكون بالصمت المهيب مكلل
سجدوا وأما المبطلون فحاولوا ... أن يسجدوا لكنهم لم يفعلوا
وأقيم ميزان العدالة بينهم ... هذا به يعلو وذلك ينزل
هذا هو النمرود يندب حظه ... والدمع من هول المصيبة يهطل
وهناك فرعون المؤله نفسه ... يسعى بغير بصيرة ويولول

(1) صحيح الجامع (2272).
(2) صحيح الجامع (1088).
(3) ورواه أحمد وأصحاب السنن. صحيح الجامع (2302).

وهنـــاك كســـرى تـــاه عـــن إيـــوانـــه   متـــرنـــح فـــي سيـــره متملمـــل
وهنـــاك قيصـــر نفســـه مكســـورة   وبقلبـــه ممـــا يعـــانـــي مـــرجـــل
وهنـــا أبـــو جهـــل يـــراجـــع نفســـه   عينـــاه تـــوحـــي أنـــه يتـــوســـل
يـــا رب أرجعنـــا لنعمـــل صـــالحـــاً   غيـــر الـــذي كنـــا نقـــول ونعمـــل
هيهـــات قـــد طـــوي الكتـــاب ألـــم يكـــن فيكـــم نبـــي بـــالهـــدايـــة مـــرســـل

* * *

الباب السابع

ـ مراتب الهداية والضلال ـ

أ ـ مراتب الهداية :

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة القصص : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال جل وعز في سورة المائدة : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

يروي مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : [قال رسول الله ﷺ لعمه عند الموت : قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله فأبىٰ ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ الآية][1] . وفي رواية من طريق آخر قال : [لولا أن تعيرني قريش يقولون

(1) مختصر صحيح مسلم (3) كتاب الإيمان . باب : أول الإيمان قول لا إله إلا الله .

إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله الآية].

وأما قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي: ما رضيه الله ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ قال القرطبي: (طرق السلامة الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة والمؤمنة من كل مخافة وهي الجنة).

وقال الحسن والسُّدي: (السلام الله عز وجل، فالمعنى دين الله وهو الإسلام، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾).

وقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات الضياع والقلق وتحكم الغرائز وضغط الشهوات وما يعقبها من كبر وعلو في الأرض وبغي وكفر، إلى نور الوحي الذي يضبط الغرائز ويهذب انطلاقها ويرويها، وينعش النفس والعقل والقلب والروح فيهديها.

قال ابن جرير رحمه الله: (تحبيبه إياه الإيمان، برفع طابع الكفر عن قلبه، وخاتم الشرك عنه، وتوفيقه لإبصار سُبل السلام).

فمن باشر السير في طريق رضوان الله سبحانه، هيّأ له سُبُلاً من الخير والتوفيق والإلهام، وأسباباً لسعادة الدنيا والآخرة.

وأصل الهداية في لغة العرب من الهدى وهو الرشاد والدلالة وهو يذكر ويؤنث. يقال: هداه الله للدين يهديه هدى. قال أبو عمرو بن العلاء: (﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ معناه أولم يبيّن لهم).

وقال الرازي: (قد ورد (هدى) في الكتاب العزيز على ثلاثة أوجه: مُعَدًّى بنفسه كقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾. ومعدًّى باللام كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾. ومعدًّى بإلى كقوله تعالى: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾).

وقال الفراء: (قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ قال: معناه: لا يهتدي).

وأما مراتب الهداية كما وردت في الوحيين الكريمين الكتاب والسنة فهي كما يلي:

أولاً : هداية الخالق خلقه لمصالحهم .

وهي هداية عامة من الخالق سبحانه لمخلوقاته ، من جن وإنس وحيوان ونبات ، من رياح وجبال وبحار وأنهار ومحيطات ، من شمس وقمر وكواكب ومجرَّات ، كل قد علم طريقة حياته وأسلوب عمله ووظيفته ، وما يصلح ويقوم به حاله .

قال سبحانه في سورة الأعلى : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ .

وقال في سورة طه : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

وقال في سورة السجدة : ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ .

فهو الذي عَلَّمَ الطفل الرضيع كيف يميز أباه وأمه من بين عشرات الناس ، وهو الذي هداه كيف يأخذ طعامه من ثدي أمه وكيف يحنو إليها عند الألم أو النعاس . وهو الذي هدى النحل إلى أزهار الحقول ، وعرَّفها طريقة صنع العسل المعسول . وهو الذي هدى أنثى الفِيَلَة للتوجه عند الولادة نحو الماء وذلك خشية سقوط وليدها على الأرض نتيجة علو أوصالها وارتفاع البناء . وهو الذي هدى العنكبوت طريقة نسج بيته ، وإنَّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . وهو الذي هدى الرياح لاتجاهات هبوبها ، وليستفيد أهل البحار من دفعها وقوتها ، فتتحرك السفن والمراكب في البحار والمحيطات وأرجائها . وهو الذي هدى الشمس لمدارها ، وهدى القمر لمنازله لينزل خلالها . وهو الذي هدى الكواكب والمجرات لحركتها ودورانها ، وهدى النجوم لترسل على الشياطين شهبها .

قال الراغب الأصبهاني رحمه الله في «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين» : (كُلُّ ما أوجده الله تعالى فإنه هداه لما فيه مصلحتُه كما نبّه عليه بقوله تعالى : ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ . لكنّ هدايته للجمادات بالتسخير فقط ، كالأشياء الأرضية التي إذا تركت تنحو نحو الأسفل ، وكالنار التي تنحو نحو العلوّ. وهدايته للحيوانات إلى أفعال تتعاطاها بالتسخير والإلهام ، كالنحل فيما يتعاطاه من السياسة

ومن عمل العسل ، وكالسُّرْفة[1] فيما تبنيه من الأبنية ، وكالعنكبوت في نسجه. وهدايته للملائكة بالتسخير والإلهام وببداهة العقل وما جعل لها من العلوم الضرورية. فأما الإنسان فهدايته تعالى له بكل ذلك وبالفكر ، وذلك أنه بالتسخير تنفُّسُه وكثير من حركاته ونحو ذلك من أفعاله ، وبالإلهام هدايتُه طفلاً للارتضاع ولمصّ الثدي ، وطلب الغذاء ، والتشكيِّ من الآلام والبكاء. وببديهة العقل يعرف مبادىء العلوم. وبالفكر يتوصل إلى استنباط المجهول من المعلوم ، فهو وإن خُلق عارياً من المعارف التي جعلها الله تعالى للحيوانات بالإلهام ، ومن الملابس والأسلحة التي جعلها لها بالتسخير فقد جعل له بالعقل والفكر قوة التعلم وتحصيل الملابس والأسلحة والآلات المختلفة ، ووكَلَهُ إلى نفسه في الاستفادة ، ومكّنه من ذلك ، وذلك فضيلة له لا نقيصة ، ورفعة لا ضَعة ، فإنه بإعطائه العلم والعقل واليدَ العاملة قد أعطاه كل شيء. قال: وإلى تمكن الإنسان من تحصيل ما يريده أشار الله تعالى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: 78]).

وجملة القول: فإن الله سبحانه قد هدى الأشياء والمخلوقات لأسلوب حياتها ولوظيفتها منذ أن خلقها. كما روى الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

[خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخَلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل][2].

ثانياً: هداية الدلالة والإرشاد.

وهي هداية البيان ونقل العلم وإقامة الحجة من الله سبحانه على عباده من الجن والإنس ، وهي هداية ترغيب وترهيب وخوف وطمع ، يقوم بها الأنبياء

---

(1) السُّرْفَة: دويبة تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقاق العيدان ، تضم بعضها إلى بعض باللعاب ، ثم تدخل فيه وتموت.

(2) مختصر صحيح مسلم (1605).

والمرسلون ، ومن بعدهم العلماء والصالحون ، فيعرفهم بها خالقهم سبحانه بسبيل السعادة في حياتهم وبعد مماتهم ، ويحذرهم فيها مغبة اتباع الشياطين والتحاكم إلى أهوائهم وشهواتهم ، ويبصِّرُهم فيها بالتكليف وحجم الأمانة ، وبمصير من يخون الأمانة ، ويذكرهم فيها بالموقف بين يديه ، وبمفهوم الأمن والنجاة من عذابه وعقابه .

فقد قال الله في سورة البلد : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ . وقال في سورة الدهر : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ . وقال في سورة الشورى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ . وقال في سورة فصِّلت : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ .

وقال في سورة تبارك : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ .

وقال في سورة النساء : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

وقال في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ .

وقال في سورة الإسراء : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ .

فإن قال قائل : فكيف التوفيق بين قوله سبحانه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ وبين قوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ؟

قيل له : إن الآية الأولى تتعلق بفعل الهداية وحركة القلب وتأثره ، والآية الثانية تتعلق بالبلاغ ، فإن القلب بيد الله يصرفه كيف يشاء ، ولا أحد يملك إدخال الهدىٰ والنور إليه سواه ، وأما الهداية التي بمعنى البلاغ فقد أمر الله بها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ومن مضى على منهاجهم ، من العلماء والصالحين وأهل العلم من بعدهم .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال :

[بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبدَ الله تعالى وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رُمحي ، وجُعِل الذلُّ والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم] وسنده صحيح(1) .

وكذلك روى الإمام أحمد والإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : [إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإنَّ أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجيء فتنة (وفي رواية : وتجيء فتن) فيرقق بعضها بعضاً (وفي رواية : فيزْفِق بعضُها بعضاً) وتجيء الفتنة ، فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر](2) .

وعند الطبراني عن السائب بن يزيد عن النبي ﷺ قال : [فضلت على الأنبياء بخمس : بعثت إلى الناس كافة ، وادخرت شفاعتي لأمتي ، وَنُصِرْتُ بالرعب شهراً أمامي وشهراً خلفي ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحِلَّ لأحد قبلي](3) .

وقد أجاد الراغب الأصبهاني وأفاد حين بحث في فضيلة الشرع فقال : (اعلم أن أحكام الشرع من وجهٍ دواء معجون مفروغ عنه ، تولى اتخاذهُ من له الخلق والأمر . وهو دواءٌ مفيد للحياة الأبدية والسلامة الدائمة كما قال تعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ وكما قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ فجعل ذلك روحاً لإفادة الحياة الأبدية ، وكما قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ وكقوله تعالى : ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

---

(1) الإرواء (1256) وصحيح الجامع (2828) .
(2) مختصر مسلم (1199) .
(3) صحيح الجامع (4097) ويشهد له ما في الإرواء (255) .

قال: ومن وَجْه هي ماء مطهِّر مزيل للأنجاس والأرجاس النفسانية كما قال تعالى في صفة القرآن: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ وكذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

ومن وَجْه هي نور وسراج ومزيل لظلمة الحَيْرة والجهالة كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومن جهة وسيلةٌ إلى الله تعالى كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ وكما قال فيمن مدحهم: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾.

ومن وجه هو الطريق المستقيم كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾). انتهى.

فهذا ما بعث به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم في أقوامهم، هداية الدلالة والإرشاد، وإمامهم في ذلك خاتمهم محمد ﷺ إذ بعث إلى الناس أجمعين إلى يوم القيامة.

ثالثاً: هداية التوفيق والإلهام.

وهي هداية خاصة بالمؤمنين الذين صدقوا الرسل واتبعوهم، وصار لهم قدم صدق في الإسلام والإيمان والإحسان، وتعلقت قلوبهم بالله ومحَابه، فهناك يكرمهم ربهم تباركت أسماؤه وصفاته بهداية خاصة بعد هداية الدلالة والإرشاد، وذلك كلما أكثروا من العمل الصالح وأخلصوا نياتهم لله، وتعلقت قلوبهم بالقرآن والحق ومنهج النبوة، فبادلهم الله بهذا الرقيِّ فضلاً منه ونوراً، بأن شرح صُدورهم للحق والخير، وأتحف حياتهم بالتوفيق والإلهام، والكرامات وبشائر المستقبل.

كما قال جل ثناؤه في سورة التغابن: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾. وكما قال جل وعز في سورة مريم: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾. وكما قال جل ذكره في سورة المائدة: ﴿قَدْ جَآءَكُم

﴿مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. وكقوله في سورة العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وكقوله في سورة الحجرات: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. وكقوله في سورة النحل: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾. وكقوله في سورة الزمر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

وكقوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. وفي سورة آل عمران: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

فقوله سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ﴾ أي: نوراً وبصيرة وكرامة، فهو نور على نور، نور الإيمان والصدق والبصيرة على نور الوحي والشريعة والقرآن.

يروي البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، ومايزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما تردَّدت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته][1].

لقد بلغت العلاقة بين المؤمن وربه عز وجل حالةً من الرقي والازدهار، بحيث يتردَّد سبحانه عن أمر قد يسيء لعبده وهو لا يحب مساءته، إذ أصبح ولياً لله من عباده المؤمنين الصالحين الذين أصبحت جوارحهم وقلوبهم تتحرك بالحق ولا تُشغل بسواه.

---

(1) البخاري (231/4) والبغوي في شرح السنة (2/142/1) ويشهد له ما في المسند (256/6).

فقد روى الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبّه، فينادي في السماء، ثم تُنزل له المحبة في الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل: إني أبغضت فلاناً، فينادي في السماء ثم تُنزل له البغضاء في الأرض][1].

وكذلك روى الترمذي عن قتادة بن النعمان، قال رسول الله ﷺ: [إذا أحب الله عبداً حماه في الدنيا كما يحمي أحدكم سقيمه الماء][2].

رابعاً: هداية الله المؤمنين يوم القيامة إلى الجنة.

وهي هداية في الدار الآخرة إلى طريق النعيم والخلود في الجنان، وتجاوز الجحيم والنيران، برحمة الله ومنِّه وكرمه وبالفضل منه والإحسان.

كما قال سبحانه في سورة الحج: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

وكما قال جل ثناؤه في سورة محمد: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾.

وكقوله في سورة يونس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وعن مجاهد: (يهديهم ربهم بإيمانهم: قال يكون لهم نوراً يمشون به).

وقال ابن جرير: (يرشدهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة).

وفي قوله سبحانه: (﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ الآية. قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً).

---

(1) صحيح الجامع (281).

(2) تخريج المشكاة (5250).

وقال ابن عباس: (هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم).

وقال محمد بن كعب: (يعرفونها كما تعرفون بيوتكم في الدنيا إذا انصرفتم من يوم الجمعة).

يروي البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن نبيَّ الله ﷺ قال: [إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، يتقاصُّون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم بدخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا][1].

وفيه من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأحوالكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم إذا دخلوا الجنة][2].

فهذه مراتب الهداية وسلم الرقي أمامك أيها المسلم، فهَّلا عاكست هوى نفسك وأرضيت ربك، وهلاَّ مضيت في طريق سعادة دنياك وآخرتك، فإن ربك قد أكرمك أولاً إذ هدى كل جزءٍ منك لوظيفته وصيَّرك بشراً سوياً، لا تنشغل بهضم ولا تنفس ولا حركة دم وقلب بل جعله لك رحمة بك أمراً مقضياً، ثم أرسل إليك رسلاً ليرشدوك إلى سبيل سعادتك وليبصِّروك بِعَدُوِّك الذي يَنْهَمُّ لحرف فطرتك بكرة وعشياً، ولتصير عبداً لغرائزك وشهواتك ولتنحط إنساناً شقياً، فأنقذك ربك بالوحي ليرفعك به مكاناً علياً، فإذا مضيت في طريق الحق كشف لك من النور والإلهام والتوفيق فصيرك عبداً نقياً تقياً، ثم هو يوم القيامة قد أعدَّ لك نزلاً بهيّاً.

ب ـ مراتب الضلال:

وأما مراتب الضلال وسُلَّم الهوي والهبوط فهو يبدأ من الخطوة الأولى باتجاه الأسفل وهي:

أولاً ـ الضياع والانحراف.

وهي كنتيجة لرفض الحق وطريق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والتطاول

---

(1) ورواه أحمد. انظر صحيح الجامع (524).

(2) ويشهد له ما في المسند (13/3) و(74/3).

والتعالي على الحق والخلق ، والعكوف على الهوى والشهوات واختيار رفقاء السوء.

كما قال جل ثناؤه:

﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة: 108].

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: 116].

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: 17].

﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ ﴾ [يونس: 108].

﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت: 29].

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الشعراء: 99].

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: 29].

﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ ﴾ [الأعراف: 38].

﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: 67].

﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [ق: 27].

يروي ابن ماجه بسند حسن عن أبي الدرداء ، قال رسول الله ﷺ: [آالفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لتصُبَّن عليكم الدنيا صباً حتى لا يزيغ قلب أحدكم إن أزاغه إلا هي ، وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء](1).

فمن تكبر على حجة الحق وبيان الرسل وآثر رأيه وهواه ، وقدمه على التنزيل فقد عرَّض نفسه للضياع والانحراف ، والذي إن لم يصحبه نوع خوف واحتساب لجبروت الله بل صاحبه شطط في البعد والعناد وتعمد للفواحش وما يسخط الله ، فقد هوى بنفسه إلى الدرك الأدنى من هذا ، وهو الخذلان.

---

(1) حسن. صحيح الجامع (9) والسلسلة الصحيحة (688).

ثانياً: الترك والإهمال والتناسي والخذلان.

وهذا الحال يصل إليه صاحبه كنتيجة للغور في البعد عن الله ، وتعمد ما يسخطه ، والتطاول بالرأي والادعاء والغرور على كلامه ووحيه ، والشعور بالفوقية على هدي نبيّه ، فهنالك يخذله الله ويتركه إلى نفسه ، ويكله إلى شيطانه ، ويهمل شأنه وحاله ، ليزداد ضلالاً وضياعاً وشقاء ، إذ يزين له الشيطان سوء عمله فيظنه جميلاً مقبولاً .

كما قال جل ثناؤه في سورة الصف : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ . وكقوله في سورة التوبة : ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ ﴾ . وكقوله في سورة الحشر : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ . وقال في سورة المؤمن : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ . وقال فيها أيضاً : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ . وقال في سورة الكهف : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ .

وفي صحيح الإمامْ مسلم عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، (وفي رواية : عرض الحصير عوداً عوداً) فأي قلب أُشربها نكتت فيه نكتةٌ سوداء ، وأي قلب أنكرها نكِتت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة مادامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مُرْبداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه][(1)] .

فمن استصغر المعاصي واستسهل الصغائر كانت بريداً له إلى الكبائر ، وإلى غفلة القلب والران الذي يحيط به ، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، فقد تشبَّع القلب بالصور الماجنة والعوارت المحرَّمة والكلام اللغو الباطل وحب الغيبة والنميمة ورؤية الفساد في الأرض ، فيخذله الله وربما لعثم لسانه فما استطاع النطق بالشهادة عند الموت وهو في طريقه إلى بئس المصير ومثوى السعير . فنعوذ بالله من الخذلان ، ومن حال أهل المعصية وصلي النيران .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1990) .

ثالثاً ـ الهداية إلى النار يوم القيامة .

وهو نهاية المطاف لأهل الكبر والفساد في الأرض ، لأهل البغي والظلم والعلو والاستهزاء بيوم العرض ، يوم يصطفون أذلاء داخرين أمام الله العظيم ، وقد جاء غاضباً يومئذ ليقتص لشرعه القويم ، وينصر دينه الحكيم ، وقد حشر الجبابرة والطغاة أمامه بعدما أمهلهم ، وأمدهم بالمال والبنين والمأكل والمشرب والملبس والمركب الذي كان فتنة لهم ، وسقاهم من الماء البارد وتركهم يرأسون ويربعون وقد أملى لهم ، فهناك يقول جل وعز في كبريائه وجبروته :

﴿ ۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ [1] وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصافات : 22 - 24] .

وقد كان حذرهم من قبل بهذا المصير الفاجع كما قال في سورة طه : ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ .

ثم هداهم إلى طريق السعير ، طريق جهنم وبئس المصير ، ليرتاح الكون من ظلمهم وبغيهم وعنادهم ، وليذلهم ويضيق عليهم بعدما انتشروا في الأرض ظالمين. فقال سبحانه في سورة النساء : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ .

أخرج الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال][2] .

فبدلهم الله بعدله الحال المزيف الذي كانوا يعيشونه بين الناس ، والكذب الذي كانوا يفترونه ويشوهون به معالم الحق شأن الوسواس الخناس ، بدلهم حالاً صريحاً بحقيقة شأنهم ، ويُظهر فيه سبحانه خبايا نفوسهم ، وما كانوا يبيتون من

---

(1) قال ابن عباس : (ومن أشبههم من الظلمة) وقال أبو العالية : (الذين ظلموا وأشياعهم) .

(2) تخريج المشكاة (5112) وصحيح الجامع (7896) وهو حديث حسن .

المكر والقول السيء وعمل المنكر والظلم والاستهزاء بالحق واليوم الآخر ، فنعوذ بالله من حال المستهزئين الساخرين الذين يمكر الله بهم وهم لا يشعرون .

ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره :

1 ـ يكسب العبد قوة الشكيمة ومضاء العزيمة فيمضي مطمئناً قد تحطمت أمامه حواجز الحيرة والتردد ، وانتفت من حياته أحوال القلق والاضطراب .

ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : [جاء سُراقة بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله بيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أم فيما يستقبل؟ قال : لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير . قال : ففيم العمل؟ فقال : اعملوا فكل ميسر](1) .

2 ـ إذا ترجح له أمر أقدم عليه بلا خوف ولا تردد ، وعماده في ذلك دعاء الاستخارة وصلاتها ، فهو كاسبٌ للفرص متخول للهمم والمعالي .

3 ـ لا يحزن على ماض ولا يغتم على حاضر ولا يخاف المستقبل .

قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد : 22 - 23] .

4 ـ يصلح باله ويهدىء خاطره وتطمئن نفسه لأمر الله وتقديره ، فيصبح طيب النفس سعيد الحال .

ففي زوائد المسند عن أنس عن النبي ﷺ قال : [عجبت للمؤمن إن الله تعالى لم يقض له قضاء إلا كان خيراً له] وسنده صحيح(2) .

وله شاهد عند البيهقي من حديث سعد بلفظ : [عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر ، وإذا أصابه خير حمد الله وشكر ، إن المسلم يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه](3) .

---

(1) ويشهد له حديث علي الذي في الصحيحين ، وقد مضى بتمامه .
(2) السلسلة الصحيحة (148) .
(3) وصححه الألباني في صحيح الجامع (3881) .

5 ـ شجاعة القلب وقوة العقل وحسن الخلق والتحلي بالكرم.

فمن عرف أن أجله محدود، ورزقه معدود، لا الجبن يزيد في عمره، ولا الشح يزيد في رزقه، فينافس في البطولات ويسابق في المكرمات، وهذا حال السابقين من الأوائل، قادوا الأمم وسادوا الديار وذللوا الملوك بنفوس مؤمنة يزينها الكرم والصبر والحلم والعلم وما أفرزه الإيمان بالقدر.

ففي المسند عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار](1).

6 ـ عدم الاستسلام لنوازل القدر، بل ينازع ويدفع القدر بالقدر ولا يعجز، ويمضي متوكلاً على الله يقتحم العقبات بحسن توكله.

ففي صحيح مسلم من حديث صهيب: [عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له](2).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: [المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز](3).

وفي صحيح ابن ماجه ومعجم الطبراني من حديث سهل بن سعد: [عند الله خزائن الخير والشر مفاتيحها الرجال، فطوبىٰ لمن جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، وويل لمن جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير](4).

* * *

(1) سنده صحيح، وقد مضىٰ تخريجه.
(2) مختصر صحيح مسلم (2092) كتاب الزهد والرقائق. باب المؤمن أمره خير كله.
(3) مختصر صحيح مسلم (1840) كتاب القدر. باب: في الأمر بالقوة وترك العجز.
(4) حسن. صحيح الجامع (3987).

-21-

- ثمرة منهج الإيمان -

الباب الأول

مفهوم الجماعة - خصائص الصحابة

لقد قرأنا معاً منهج الوحي في فهم الإيمان ، بدأنا بالإيمان بالله وهو الركن الأول من هذه الأركان ، ثم ثنينا بالإيمان بالملائكة الكرام ، ثم كان الركن الثالث عن الإيمان بالكتب: التوراة والزبور والإنجيل والقرآن ، ثم كان الركن الرابع عن الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، ثم الركن الخامس وهو الإيمان باليوم الآخر يوم يشتد الهول على الناس والزحام والقيام ، ثم الركن السادس هو الإيمان بالقدر آخر هذه الأركان.

لقد أفرز هذا المنهج النبوي ، منهج الوحي في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، جماعة من الأصحاب وصفهم الله تعالى بالإيمان ، فكانوا خيرَ أسوة للناس في المنهج والخُلُقِ وَحُسْن السيرة وأدب الاجتماع وأدب الكلام ، وكان من خصائصهم ما مدحهم الله به في سورة الفتح حيث قال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ .

فوصفهم سبحانه بعلامة في وجوههم ، وهي أثر السجود على جباههم ، فقال سبحانه: ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم ﴾ قال شمر: (تهيَّجٌ في الوجه من سهر الليل). وقال

سعيد بن جبير: (ثرى الأرض وندى الطهور). وقال الحسن: (بياضاً في وجوههم يوم القيامة).

فذاك مثل أصحاب محمد في التوراة وصفة أتباعه. وأما مثلهم في إنجيل عيسى كزرع أخرج شطأه، أي نباته وفراخه، لأنهم ابتدؤوا بالدخول في الإسلام قلة، ثم تزايدوا كالزرع المفرخ، (فآزره) أي: فقوّاه. قال مجاهد: (فشدَّه وأعانه). وقال الضحاك: (كان أصحاب محمد ﷺ قليلاً ثم كثروا، ثم استغلظوا ليغيظ الله بهم الكفار) فيعجب الذين زرعوه.

وقال قتادة: (هذا مثل أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل، قيل لهم: إنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر).

أخرج الحاكم بسند صحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [مكتوبٌ في الإنجيل: لا فظٌّ، ولا غليظٌ، ولا سخَّابٌ بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلَها، بل يعفو ويصفح][1].

وأخرج الإمام البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بنَ عمرو بن العاص، قلت: [أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: أجل، والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً][2].

وعن كعب يحكي عن التوراة قال: (نجد مكتوباً محمد رسول الله، عبدي المختار، لا فظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة، وهجرته بطيبة، وملكه بالشام، وأمته الحمادون، يحمدون الله في السراء والضراء، يحمدون الله في كل منزلة،

---

(1) رواه الحاكم (614/2) وابن عساكر (2/264/1) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (2458).

(2) تخريج المشكاة (5752) باب فضائل سيد المرسلين. كتاب الفضائل والشمائل.

ويكبرونه على كل شرف ، رعاة للشمس ، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها ، يتأزّرون على أنصافهم ، ويتوضؤون على أطرافهم ، مناديهم ينادي في جو السماء ، صفهم في القتال وصفهم في الصلاة سواء ، لهم بالليل دوي كدوي النحل]. هذا لفظ المصابيح ورواه الدارمي مع تغيير يسير(1).

فما هي خصائص هؤلاء الصحابة ، وهم جماعة الحق التي أفرزها منهج الإيمان؟

أولاً : شهادة الله لهم بالخيرية .

فقد قال لهم سبحانه في سورة آل عمران : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ . قال الضحاك : (هم أصحاب رسول الله ﷺ خاصة ، يعني : وكانوا هم الرواة الدعاةَ الذين أمرَ الله المسلمين بطاعتهم) .

وقال مجاهد : (كنتم خير الناس للناس على هذا الشرط ، أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتؤمنوا بالله) .

وفي المسند للإمام أحمد ، بسند صحيح عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : [دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده ، لو أنفقتم مثل أحد ذهباً ما بلغتم أعمالهم](2) .

ثانياً : شهادة الله لهم بالإيمان .

فقد قال سبحانه في سورة النساء : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ . فوصف الصحابة بالمؤمنين ، ووصف المنهج أنه منهجهم ، والطريق أنه طريقهم ، والهدي أنه هديهم .

ويرى الإمام الشافعي رحمه الله حجيّة الإجماع من هذه الآية بحيث تحرم مخالفته .

---

(1) تخريج المشكاة (5771) ، كتاب الفضائل والشمائل .

(2) صحيح الجامع الصغير (3380/2) والسلسلة الصحيحة (1923) .

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: 74].

ثالثاً: رضىٰ الله عنهم وعن فهمهم لمراده.

فقد قال الله في سورة المائدة يخاطب نبيَّه وأصحابه: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: 3].

قال ابن جرير: (﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ بالصفة التي هو بها اليوم، والحال التي أنتم عليها اليوم منه.

قال: ورضيت لكم الاستسلام لأمري، والانقياد لطاعتي، على ما شرعت لكم من حدوده وفرائضه ومعالمه. (دينا): قال: طاعة منكم لي).

وقال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: 18].

وكذلك قال الله في سورة البينة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: 7-8].

فإن الفهم ما فهموه، وإن العلم ما علموه، وإن التأويل ما تأولوه، وإن التفسير ما فسروه، فلهم قال سبحانه: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ أي: الإسلام الذي فهمتموه. فضبط الله فهم الوحي بفهمهم، إذ رضي عنهم وعن فهمهم، فالعاقل يتأسىٰ بمنهجهم ليصل إلى ما وصلوا إليه، والغبي يقول: هم رجال ونحن رجال، والمستشرقون والفلاسفة والمبطلون رجال. فَضَلَّ قوم الطريق إذ فسَّروا القرآن بشاذ اللغة وتحاكموا إلى معانيها وما أكثرها، وتحاكم آخرون إلى العقل وما أكثر ما يخطر به، وتحاكم آخرون إلى الواقع وما أكثر متناقضاته، وتحاكم آخرون إلى التاريخ وما أكثر مآسيه وفتنه، وتحاكموا إلى الفلسفة والرأي وما أكثر تخبط أهله، وتحاكموا لعلم النفس وما أكثر من يجهل آفاقة ودقائقه وسننه.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله ـ في عقيدته ـ: (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير

الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم إلا بخير . وحبهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان)[1] .

وهو يرد بذلك على الروافض والنواصب ، فإن الله أثنىٰ على الصحابة هو ورسوله ورضي عنهم ووعدهم الحسنىٰ . وفي التنزيل : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة : 100] .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : [كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء ، فسبَّه خالد ، فقال رسول الله ﷺ: لا تسبوا أحداً من أصحابي ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه][2] .

والحديث يشير إلى عبد الرحمن من السابقين الأولين ومن أسلم قبل الفتح وشهد بيعة الرضوان ، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان ومنهم خالد ، فنهى أن يسب من له صحبة آخراً من له صحبة أولاً ، لامتيازهم عنهم من الصحبة .

يروي ابن بطة بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال: [لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ ، فلمقام أحدهم ساعة يعني مع النبي ﷺ خير من عمل أحدكم أربعين سنة][3] .

وفي صحيح مسلم عن جابر ، عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة][4] .

وفي المسند وصحيح الحاكم وكذلك عند الطيالسي وحسنه الألباني موقوفاً ، قال عبد الله بن مسعود : (إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب

---

(1) متن الطحاوية (93) .
(2) وله شاهد من حديث أبي هريرة . مختصر صحيح مسلم (1746) .
(3) تخريج الطحاوية (93) .
(4) وله شاهد من حديث أم مُبَشِّر . صحيح مسلم (169/7) .

محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون على دينه ، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيء])[1] .

رابعاً : شهادة الله لهم بأنهم «الصادقون المفلحون» .

قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2] [الحشر : 8 - 9] .

خامساً : شهادة الله لهم بأنهم : «الراشدون» .

قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات : 7] .

سادساً : شهادة الله لهم بأنهم «أشداء على الكفار رحماء بينهم الركع السُّجد» .

قال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح : 29] .

سابعاً : شهادة الله ورسوله لهم بالوسطية والاعتدال .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا[3] لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة : 143] .

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : [يجيء نوحٌ وأمته ، فيقول الله : هل بلَّغت؟ فيقول : نعم أي ربِّ! فيقول لأمته : هل بلَّغكم؟ فيقولون : لا ، ما جاء لنا من نبي ، فيقول لنوحٍ : من يشهد لك؟ فيقول : محمد

---

(1) تخريج الطحاوية .

(2) ﴿ تَبَوَّءُو ﴾ : توطنوا المدينة من المؤمنين . ﴿ حَاجَةً ﴾ : أي : حزازة وحسداً . ﴿ خَصَاصَةٌ ﴾ : فقر واحتياج . ﴿ يُوقَ ﴾ : يجنّبْ . ﴿ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ : بخل نفسه مع الحرص .

(3) وسطاً : خياراً عدولاً .

وأمته ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ، والوسط : العدل ، فيُدعون ، فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم](1) .

وصحَّ أن أمة محمد ﷺ تشهد لكل نبي أيضاً بالبلاغ حين يكذبه قومه يوم القيامة ، وذلك بقول هذه الأمة لله سبحانه : [جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فصدقناه](2) .

ثامناً : شهادة رسول الله ﷺ لهم بالخيرية .

يروي الترمذي والحاكم عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : [خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يأتي من بعدهم قوم يتسمَّنون ويحبون السِّمن ، يُعطون الشهادة قبل أن يُسألوها](3) .

فلقد كان أصحاب رسول الله ﷺ نِحال الأجساد أقوياء الأبدان ، شغلهم قيام الليل والجهاد في سبيل الله ، فخلف من بعدهم خلف تركوا ما كانوا عليه ، وبالغوا في التفنن بألوان الطعام والشراب وحب الدنيا ، فانتفخوا وظهر فيهم السِّمن ، وأكلوا أكثر من حاجتهم ثم ناموا ، وقاموا وكأنهم يحملون أثقالاً ، فضعفوا عن قيام الليل وعن صلاة الفجر في الجماعة ، وسلَّط الله عليهم الذل بصنيعهم هذا ، وتَرْكِ اهتمامهم بدينهم وأسباب قوتهم ، بينما سبقتهم الأمم المجاورة بالعلم والأخذ بأسباب القوة وتقليل كمية الطعام ، فظهروا عليهم واستعبدوهم ونهبوا كنوز بلادهم ، بينما يذيقهم الله الخزي بالجهل والضعف والتخلف والاستهزاء بالدين .

تاسعاً : نزول الوحي بين أظهرهم وهم يمتثلون الإسلام .

فقد أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها : [أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه

---

(1) ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه . انظر صحيح الجامع (7890) .
(2) السلسلة الصحيحة (2448) . وقد رواه البخاري من حديث أبي سعيد .
(3) السلسلة الصحيحة (699) وصحيح الجامع (3289) .

الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً][1] .

عاشراً: اختيار الله لهم دون الناس لصحبة نبيّه ﷺ ، وتميز صفاتهم .

ففي المسند للإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [أكرموا أصحابي فإنهم خياركم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يظهر الكذب ، حتى إن الرجل ليحلف ولا يستحلف ، ويشهد ولا يستشهد ، ألا من سرَّه بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد ، ولا يخلون رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهم ، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن][2] .

وفي التنزيل: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 62]. فهم أنصار رسول الله ﷺ ومؤيدوه .

حادي عشر: سلامة فطرتهم وقوة لسانهم بالعربية وسلامته من الاعوجاج .

فالدين الذي فهموه عن الله ورسوله بما يملكونه من قوة اللسان والفهم والبيان والفصاحة مما لا يملكه كثير من المسلمين اليوم ، هو الدين الذي رضيه الله للأمة إلى يوم القيامة ، فالفهم الذي فهموه لا يُعلىٰ عليه ، إذ كانوا أساتذة الفصاحة والإعجاز في زمن التنزيل .

كما قال الإمام مالك رحمه الله: (لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . ما لم يكن ديناً يومئذ لا يكون ديناً الآن) .

وأما اليوم ، فقد تخبط المسلمون نتيجة انحرافهم عن ذلك المنهج ، منهج الوحي في البناء والتربية ، منهج العلم والعمل وفق هذا العلم ، وتفرق المسلمون فرقاً وأحزاباً:

أولاً: طائفة رأت تجميع الناس بإثارة حماسهم وعواطفهم لمعان من هذا العلم ، وحولت الإسلام في كثير من مواقفه إلى مهرجانات لم يتعبدنا الله بالتصفيق لها ، ورأت للوصول تقليد الآخرين في مختلف وسائلهم وفي كثير من أساليبهم وتخبطهم بحجة شمولية الإسلام. بينما اقتصرت طائفة على نبذ بعض البدع

---

(1) مختصر البخاري (2) بدء الوحي .

(2) السلسلة الصحيحة (431) بلفظ أحسنوا ، وأحمد (177/1) .

ومظاهر الشرك ودعوة لبعض السنن فحسب ، وربما رافق ذلك عدم اعتناء بالسلوك وأدب الخلاف ، وظهرت بمظهر عدم التوازن إذ ضيقت واسعاً وأهملت جوانب أخرى كثيرة من منهج الإسلام الشامل المتكامل ، وأطلقت على نفسها تسميات يشير الواقع والتاريخ أنها دونها بكثير .

ثانياً: طائفة رأت في المنهج وفي العلم ضرورة تثقيفية ، ومبادلات عقلية ، وقصرت بفهمها المحدود فعل النبي ﷺ بمكة على أنه كان مرحلة فكرية ، وبالغت في تضخيم العقل ، وتجاوزت مراحل من منهج الوحي ـ منهج التربية المتكامل ـ واختزلت منهج النبوة ، فطالبت مباشرة بإعادة الخلافة .

ثالثاً: طائفة رأت في العلم أنه فضائل أعمال ورقائق ، وعدم اعتناء بالجهاد وبالحياة واللباس . بالغت طائفة أخرى فرأت في العلم امتثال طرق ورقصات وقفزات ، وعدَّادات للذكر ميكانيكية ، سجلت فيها أرقام قياسية ، باتت تنافس الأرقام العالمية .

رابعاً: وطائفة رأت في المنهج والعلم أنه النهضة الصناعية والاقتصادية ، وزعموا أنه إذا استقامت الصناعة والاقتصاد استقام الرجال . سبقهم إليها أصحاب النظرية الماركسية والمادية التاريخية . بالغت طائفة أخرى فدعت للتحلل من الأصول ومن اللباس ، وقدمت المرأة في الصلاة لتؤم الرجال .

خامساً: وطائفة رأت في العلم قواعد جامدة وأصولاً قاطعة فانصرفت لتكفير كل من خالفها ، وأحيت سيرة الخوارج في الأمة . بالغت طائفة أخرى ، فرأت ضرورة إلزام الناس بمفاهيم هذا العلم ، فخطفت الطائرات واحتجزت الرهائن وفجرت المباني وقتلت الناس والسواح والمخالفين لها ، فصار كل انفجار يُسعر في الأرض يشيرُ به الغرب إلى المسلمين ، وَقد يبرؤون من بعضه ، إلا أن فيهم من هو متورط بذلك ، فقد أحيا بعضهم معالمَ من شخصية فرعون ، وفيهم من سَنَّ سنة ابنِ آدم الأول . وهذه الأفعال الهزيلة المهزوزة تأتي في وقت أحوج ما تحتاج الأمة فيه إلى شباب ، يُجْلون الصورة عن الإسلام الجريح ، الذي اتهمه الشرق والغرب بالإرهاب .

وكل من هذه الطوائف يدّعي أنه الفرقة الناجية والطائفة المنصورة ، وغاب

المثل الأعلى عن حياة الناس ، ووصلنا إلى الزمان الذي أخبر عنه النبي ﷺ أنه يكثر فيه الجهل وتزداد غربة الحق وغربة منهج النبوة .

يروي الترمذي وابن ماجه وابن حبان عن العرباض بن سارية قال : [وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وَجِلَتْ منها القلوب وذَرَفَتْ منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مُوَدِّعٍ فأوصنا . قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد ، وإنهُ من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضُّوا عليها بالنواجد ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة][1] .

وروى أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير من معجمه ، بإسناد حسن عن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه قال : لقد سمعت حديثاً منذ زمان : [إذا كنت في قوم ، عشرين رجلاً أو أقلَّ أو أكثر ، فتصفحتَ وجوههم ، فلم ترَ فيهم رجلاً يُهابُ في الله عز وجل ، فاعلم أن الأمر قد رقَّ][2] .

وروى أبو نعيم في الحلية عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ ـ ذات يوم لأصحابه ـ : [أنتم اليوم على بينة من ربكم ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في سبيل الله ، ثم تظهر فيكم السكرتان : سكرة الجهل وسكرة حب العيش وستحولون عن ذلك ، فلا تأمرون بمعروف ولا تنهون عن منكر ولا تجاهدون في سبيل الله . القائمون يومئذ بالكتاب والسنة لهم أجر خمسين صديقاً . قالوا : يا رسول الله منا أو منهم؟ قال : لا بل منكم] وسنده صحيح[3] .

وأخرج ابن نصر في السنة عن عتبة بن غزوان أن رسول الله ﷺ قال : [إن من ورائكم أيامَ الصبر ، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم . قالوا : يا نبي الله أو منهم؟ قال : بل منكم][4] .

---

(1) الإرواء (2521) وصحيح الجامع (2546) .

(2) حسن . تخريج الترغيب (99/1) .

(3) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (49/8) . وانظر رسالة درء الارتياب عن حديث ما أنا عليه اليوم والأصحاب .

(4) السلسلة الصحيحة (494) .

فإن التمسك الذي يدعىٰ إليه المسلمون اليوم هو تمسك الأوائل بدينهم ، بما أقاموه وبالمنهج الإلهي الذي سلكوه :

لم يلجؤوا إذ خالفهم الناس إلى وضع العبوات الناسفة في محلاتهم ، كلا ولم يلجؤوا إلى وضع السيارات المفخخة أمام بيوتهم ، كلا ولم يلجؤوا إلى نَسف حافلات السائحين في ساحاتهم ، ما لجأ أصحاب النبي ﷺ وجماعة الحق من بعده إلى هذه المهزلة ، التي يتقنها بعض المنهزمين اليوم من المسلمين ، فقد ملأ حياتهم منهجٌ ثري رفعهم عن التدلي إلى تقليد بعض القاصرين في عالمنا المعاصر ، والذين استخدموا الإسلام دريئة لردود فعلهم وتفريغاً لحظوظ أنفسهم في خصامهم مع غيرهم ، وما أسهل قطف بعض النصوص دون فقه وفهم والاحتجاج بها ، فإن هذا ديدن كثير من جماعات المسلمين اليوم ، فقلما تجد فيهم وفي قياداتهم راسخين في العلم على منهاج النبوة .

لقد شغل على الأصحاب منهج الوحي في التغيير قلوبهم وجهادهم وبذلهم ، فما تخبطوا تخبط مسلمي اليوم الذين أفلس كثير منهم من المنهج وانهزموا أمام ثقل الأمانة التي ألقاها الله على الرسل وورثتهم ، فحولوا الإسلام إلى ردود فعل بإثارة الغريزة الغضبية ، ليأكل الشرق والغرب على هذه الأعمال ويشفوا غليلهم فيتهموا الإسلام بالإرهاب .

لقد استحق الصحابة الكرام بذلك الثبات على المنهج وذلك التألق في الامتثال أن يستخلفهم الله في الأرض ، وأن يوفيهم ما وعدهم ، وقد تحقق ذلك في زمن الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ كما قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور : 55] .

وكما استحقوا الإمامة الدنيوية ، والتمكين على أيديهم للدين الذي يرتضيه الله ، استحقوا أن يجعلهم الله أئمةً للدين يرضىٰ الله عنهم وعَنْ مَنْ يتبعُهُمْ بإحسان . قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ

رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة : 100] .

هذه هي الأمة التي حفظ الله بها الدين ، ورضي عنها وأرضى عنها الأمم والشعوب ، فدانَتْ لها وأحَبَّتْها رغْمَ اختلاف أجناسها وألوانها ولغاتها .

* * *

ـ ثمرة منهج الإيمان ـ

الباب الثاني

خصائص الجماعة المؤمنة ، وأثر الانحراف

الحمد لله الذي امتنَّ على الأمة بـ(لا إله إلا الله) أن جعلها منهاج النجاة في الدنيا والآخرة ، وأرسل محمداً عليه الصلاة والسلام ففَّهم الأمة لوازمها ومقتضياتها ومعنى الإيمان بها ، وعرفهم سبيل العلم والعمل بها. فإن أخطر ما أصيب به المسلمون اليوم اتباعُ الهوى وطول الأمل. فأما اتباع الهوىٰ فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة. فلقد بقي اليوم في الأرض من أهل الحق والمنهج رجال غض أبصارهم ذكر المرجع ، وأراق دموعهم خوف المحشر ، يعيشون غربة الحق والمنهج وما آل إليه حال البشر ، فهم بين شريد غريب ، وخائف مقموع ، وساكت حزين ، وثكلان موجع. قد نَصبوا الحق طريقاً لهم في حياتهم ، وعكفوا على الإخلاص والإحسان منهجاً في سلوكهم ، وقاموا بالأمر معظمين شريعة ربهم وهدي نبيهم ، يوم غرقَ الناس في شبهاتهم وسكراتهم وفي إصلاح أموالهم.

فقد قال الله عز وجل في سورة آل عمران: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا
تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ
عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن
مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾
وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ
تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ

تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ .

فأمر سبحانه وتعالى بالاعتصام بحبله ، و(حبل الله) فيه أكثر من تأويل :

التأويل الأول : حبل الله هو القرآن الكريم .

فعن الضحاك : (﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ : قال : القرآن) .

وقد أخرج الطبراني بإسناد صحيح عن جبير قال : قال رسول الله ﷺ : [أبشروا أبشروا ، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله؟ فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبداً] . وفي رواية : [أبشروا ، فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيدكم فتمسكوا به ، فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبداً][1] .

التأويل الثاني : قيل حبل الله : عهد الله .

فعن قتادة : (﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ قال : بعهد الله وأمره) .

التأويل الثالث : قيل حبل الله : إخلاص التوحيد لله .

فعن أبي العالية : (﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾» يقول : اعتصموا بالإخلاص لله وحده) .

التأويل الرابع : قيل حبل الله هو الإسلام .

قال ابن زيد : (الحبل الإسلام) .

التأويل الخامس : حبل الله هو الجماعة .

فعن ابن مسعود (أنه قال في قوله : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ قال : الجماعة) وكان يقول : (عليكم بالطاعة والجماعة ، فإنها حبل الله الذي أمر به) .

وأما قوله : «ولا تفرقوا» فهو أمر من الله بالتزام الجماعة وعدم الخروج عليها

(1) صحيح الجامع (34) والسلسلة الصحيحة (712) .

والحرص على بنائها ، فهي الحصن الحصين الذي يأمن فيه المسلم على دينه ودين أهله وأبنائه .

قال أبو العالية : (ولا تَعادَوْا عليه ، يقول : على الإخلاص لله ، وكونوا عليه إخواناً) .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله : (أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة ، وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ) .

يروي الترمذي في جامعه بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى لا يجمع أمتي على ضلالة ، ويد الله على الجماعة][1] .

ثم قال جل ثناؤه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ أي : أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال الضحاك : (هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة ، يعني المجاهدين والعلماء) .

وأما **خصائص الجماعة المؤمنة** ـ وهي فئة الحق في الأمة واستمرار الجماعة الأولى جماعة الصحابة رضوان الله عليهم ـ فهي :

أولاً : شدة تمسكهم ورسوخ علمهم بالحق بحيث لا يبالون من خذلهم أو نصرهم :

يروي ابن ماجه بسند صحيح عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : [لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة][2] .

ثم روى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : [لا تزال طائفة من أمتي قَوَّامَةً على أمر الله لا يضرها من خالفها] وسنده حسن[3] .

ثم روى عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : [لا يزال طائفة من أمتي على الحق

---

(1) تخريج المشكاة (173) وصحيح الجامع (1844) .
(2) صحيح ابن ماجه (6) .
(3) صحيح ابن ماجه (7) .

منصورين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل] وسنده صحيح[1].

وكذلك روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال: [قام معاوية خطيباً فقال: أين علماؤكم؟ أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تقوم الساعة إلا وطائفة من أمتي ظاهرون على الناس، لا يبالون من خذلهم ولا من نصرهم][2].

ثم ختم الباب ـ باب اتباع سنة الرسول ﷺ ـ بحديث جابر رضي الله عنه قال: [كنا عند النبي ﷺ فخط خطاً. وخط خطين عن يمينه وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال: هذا سبيل الله ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾][3].

ثانياً: جمال أخلاقهم وحسن سمتهم ولباسهم وقربهم من الناس:

فقد قال الله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

يروي الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غداً؟ على كل هين لين قريب سهل][4].

وعند الطبراني عن عبد الله بن سرجس عن النبي ﷺ قال: [التؤدة والاقتصاد والسمت الحسن جزءٌ من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة][5].

وفي سنن أبي داود من حديث جابر بن سُليم أن رسول الله قال: [لا تسبن أحداً ولا تحقرن شيئاً من المعروف وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة. وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك فلا تعيره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه][6].

---

(1) صحيح ابن ماجه (10).
(2) صحيح ابن ماجه (9).
(3) صحيح ابن ماجه (11).
(4) صحيح الجامع (2606).
(5) تخريج المشكاة (5059).
(6) صحيح الجامع (7186).

وفي مسند الإمام أحمد عن أنس عن النبي ﷺ قال: [الإزار إلى نصف الساق أو إلى الكعبين لا خير في أسفل من ذلك][1]. وفي رواية: [الإزار إلى نصف الساق، فلما رأى شدة ذلك على المسلمين قال: إلى الكعبين، لا خير فيما أسفل من ذلك].

فتقصير الثوب مبالغة عن ذلك يصير لباس شهرة، فإن كان التزام التقصير إلى الكعبين أقرب إلى سهولة الاتصال بالناس ودعوتهم فهذا أفضل، فالمسلم مرآة الحضارة والأناقة في كل زمان. ومثله تهذيب اللحية والاعتناء بها وعدم تركها مهلهلة بلا اعتناء وتجميل، شريطة أن تبقى لحية والأفضل ألا تقل عن القبضة، ولكن لا بأس بتناسقها مع شعر الرأس فقد كان بعض السلف يفعل ذلك.

قال إبراهيم بن يزيد النخعي ـ وهو من تلامذة ابن مسعود وأدرك بعض الأصحاب ـ: (كان من قبلنا يأخذون من لحيتهم).

وقد صنف ابن أبي شيبة باباً في مصنفه سماه (باب ما قالوا في الأخذ من اللحية):

ذكر فيه عن ابن طاوس عن سماك بن يزيد قال: (كان عليٌّ يأخذ من لحيته مما يلي وجهه).

ثم ذكر عن أبي زُرعة قال: (كان أبو هريرة يقبض على لحيته ثم يأخذ ما فضل عن القبضة).

ثم ساق أثراً عن عطاء بن أبي رباح قال: (كانوا يحبون أن يعفوا اللحية إلا في حج أو عمرة، وكان إبراهيم يأخذ من عارض لحيته).

ثم روى عن ابن طاوس عن أبيه: (أنه كان يأخذ من لحيته ولا يوجبه).

وكذلك عن الحسن حيث قال: (كانوا يرخصون فيما زاد على القبضة من اللحية أن يؤخذ منها).

قال: (وكان القاسم إذا حلق رأسه أخذ من لحيته وشاربه).

فهذه الآثار العظيمة تدل كل الدلالة أنه ما كان من هدي الصحابة والتابعين أن يطلقوا لحاهم حتى ولو جرُّوها أرضاً، كما يظن بعض الناس من إطلاق الحديث

---

(1) السلسلة الصحيحة (1765) وصحيح الجامع (2766).

الذي في الصحيحين ، فقد رواه ابن عمر ، وهو الذي كان يأخذ من لحيته ، فهو أعلم بمفهوم روايته ممن جاء بعده ، وألصق بعمل النبي ﷺ وأصحابه ممن جاء بعدهم من المتأخرين .

ثالثاً: تواصيهم بالحق والصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فقد قال الله في سورة العصر : ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ .

فأطلق سبحانه في مقدمتها لفظ الإنسان ، بأنه خاسر ، ثم دلَّ أن النجاة هي بالجماعة أهل الحق والإيمان ، فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ . فإن الإنسان وحده مظنة الوقوع والزلل وحدوث الخسارة ، وسبيل النجاة هو التزام الجماعة والحياة مع فئة الحق أهل العلم والإيمان ، فيأمن بعون الله بهم على دينه ومستقبله ومستقبل ذريته ، فالجماعة حصن المؤمنين .

يروي الدارمي[1] بسند صحيح عن عمرو بن سلمة قال : [كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد ، فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال : أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ قلنا : لا ، فجلس معنا حتى خرج ، فلما خرج قمنا إليه جميعاً . فقال له أبو موسىٰ : يا أبا عبد الرحمن! إني رأيت في المسجد آنفاً أمراً أنكرته ، ولم أر والحمد لله إلا خيراً ، قال : فما هو؟ فقال : إن عشت فستراه . قال : رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً ينتظرون الصلاة ، في كل حلقة رجل ، وفي أيديهم حصىً ، فيقول : كبِّروا مائة ، فيكبرون مائة ، فيقول : هللوا مائة ، فيهللون مائة ، ويقول : سبحوا مائة فيسبحون مائة ، قال : فماذا قلت لهم؟ قال : ما قلت لهم شيئاً انتظار رأيك ، قال أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم ، وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء؟ ثم مضىٰ ومضينا معه حتى أتىٰ حَلْقة من تلك الحِلق فوقف عليهم . فقال : ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا : يا أبا عبد الرحمن! حصىً نعدّ به التكبير والتهليل والتسبيح . قال : فعدُّوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسَناتكم شيء ،

(1) سنن الدارمي (1/68 - 69) .

وَيْحَكُمْ يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة نبيِّكم ﷺ متوافرون ، وهذه ثيابه لم تَبْلَ وآنيتُه لم تكسر. والذي نفسي بيده ، إنكم لعلى ملة هي أهدىٰ من ملة محمد ، أو مفتتحوا باب ضلالة؟ قالوا: وَالله يا أبا عبد الرحمن! ما أردنا إلا الخير ، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه. إن رسول الله ﷺ حدثنا: (إن قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقِيَهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية). وأيم الله ما أدري لعل أكثرهم منكم. ثم تولى عنهم. فقال عمرو بن سلمة: فرأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج][1].

فلقد بدأت بانحراف وبدعة في الدين ، وانتهت بالقتل وسفك الدماء ، مما يدل أن الانحراف عن منهج الفهم الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه مظنة الوصول إلى غايات ونتائج لا تحمد عقباها ، وها هو العالم اليوم يئن من تطرف بعض المسلمين وأسلوبهم الفظ الغليظ في إنكار المنكر ، وهذا التطرف هو ثمرة تقليد الآخرين في طريقة الوصول ، وسلوك مسالكهم ، والتنافس على الحكم على طريقتهم.

رابعاً: الجماعة بركة.

يروي أبو نُعيم في الحلية بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [آمركم بثلاث وأنهاكم عن ثلاث ، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وتسمعوا وتطيعوا لمن ولاه الله أمركم. وأنهاكم عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال][2].

وفي صحيح ابن حبان من حديث زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره ، فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه ، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث خصال لا يغل عليهن قلب مسلم أبداً. إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم الجماعة فإن دعوتهم تحيط من ورائهم][3].

---

(1) وانظر تخريج السنة (914) و(926) و(945) وصحيح الجامع (7908) ,(7909). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (2005).

(2) صحيح الجامع (12).

(3) صحيح الجامع (6642).

وفي سنن ابن ماجه بسند حسن عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [كلوا جميعاً ولا تفرقوا، فإن طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة والأربعة. كلوا جميعاً ولا تفرقوا، فإن البركة في الجماعة](1).

خامساً: الجماعة رحمة.

يروي عبد الله بن أحمد في زوائد المسند بسند حسن عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: [من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب](2).

سادساً: الجماعة أمان من الفتن.

فقد قال الله في سورة آل عمران: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾. وقال في سورة الكهف: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

وفي صحيح ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [كيف بكم بزمان يوشك أن يأتي يغربل الناس فيه غربلة، ويبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه؟ تأخذون بما تعرفون وتدعون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم وتذرون أمر عامتكم](3).

سابعاً: الجماعة مستقبل الإسلام ونواة شوكته.

فقد قال الله في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

---

(1) حسن. السلسلة الصحيحة (1686).
(2) السلسلة الصحيحة (417).
(3) صحيح الجامع (4470).

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفُرقة زيغاً وعذاباً)[1].

يروي ابن ماجه بسند صحيح عن أبي عنبة الخولاني وكان قد صلى القبلتن مع رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته][2].

وفي المسند بسند صحيح عن جُبير بن نُفير أن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى النبي ﷺ فقال: إني سئمت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها. قلت: لا قتال، فقال له النبي ﷺ: [الآن جاء القتال: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس، يزيغ الله قلوب أقوام يقاتلونهم، ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله عز وجل وهم على ذلك. ألا إن عقر دار المؤمنين الشام، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة][3].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: (اتفق الشراح على أن معنىٰ قوله: ظاهرين على من خالفهم أن المراد علوهم عليهم بالغلبة).

وقال النووي رحمه الله: (يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين. ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومحدث ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد. ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض).

وقال عبد الله بن المبارك: (هم عندي أصحاب الحديث).

ثامناً: الجماعة نجاة في الآخرة.

فقد قال الله سبحانه في سورة فصلت: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: تواصوا بالصبر على الحق والغربة واجتناب ما حرَّم الله. وقال في سورة الأحقاف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

(1) متن الطحاوية (102).
(2) صحيح ابن ماجه (8) ص 6. والسلسلة الصحيحة (2442).
(3) أخرجه أحمد في المسند (104/4) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1961).

ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ . فكانت ثمرة استقامتهم على الحق وتواصيهم به أن جمعهم الله في جنَّتِه يوم القيامة كما اجتمعوا على طاعته في الدنيا .

وفي سنن ابن ماجه ومسند الإمام أحمد عن جابر بن سمرة قال : [خطب عمر الناس بالجابية فقال : إن رسول الله ﷺ قام في مثل مقامي هذا فقال : أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم يحلف أحدهم على اليمين قبل أن يُستحلف عليها ، ويشهد على الشهادة قبل أن يُسْتشهد ، فمن أحب منكم أن ينال بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ، ولا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان ، ومن كان منكم تسره حسنته وتسوؤه سيئته فهو مؤمن][1] .

وجملة القول : فإن أكبر التحديات التي تواجه المسلمين اليوم هو بناء فئة الحق ، والتي هي نواة جماعة المؤمنين ، والتي تنهل في صنع قرارها من منهاج النبوة ، والتي ببركة تمسكها بالحق وانتشارها في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحكمة في عرض مفاهيم وأصول هذا الدين ، وتألق أخلاقها وسلوكها ، يعيد الله إلى الأمة الشوكة في الأرض وقيادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

* * *

(1) السلسلة الصحيحة (431) وأحمد في المسند (177/1) .

ـ ثمرة منهج الإيمان ـ

الباب الثالث

الصفات الخُلقية لجماعة الحق وأدب الخلاف

فقد قال الله في سورة الفتح: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن حنيف قال: [فلقد رأيتنا يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا. فجاء عمر، فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل، أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلىٰ. قال: ففيم أعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا. فقال: يا ابن الخطاب، إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً، فرجع متغيضاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً. فنزلت سورة الفتح][1].

وفي رواية لمسلم: (فنزل القرآن على رسول الله ﷺ فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه فقال: يا رسول الله! أوَفتح هو؟ قال: نعم، فطابت نفسه).

فمن الصفات الخُلقية لجماعة الحق:

أولاً: شموخهم واعتزازهم بالحق شموخاً انعكس هيبةً في شخصياتهم.

قال الله في سورة التوبة: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن

(1) وانظر، الصحيح المسند من أسباب النزول. سورة الفتح. مقبل الوادعي.

يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال: [استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وعنده نسوة[1] من قريش يكلمنه ويستكثرنه، عاليةٌ أصواتهن، فلما استأذن عمر قُمْنَ فبادرن الحجاب، فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك، فقال: أضحك الله سنك يا رسول الله، ما أضحكك؟ فقال النبي ﷺ: عجبت من هؤلاء اللاتي كنَّ عندي، فلما سمعنَ صوتَكَ ابتدرن الحجاب. قال عمر: يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبْنَ رَسول الله ﷺ؟ فقلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ، فقال رسول الله ﷺ: إيه يا ابن الخطاب! والذي نفسي بيده، ما لقيكَ الشيطان سالكاً فجّاً قط إلا سلك فجّاً غير فجك][2].

وروى رزين عن عمر، وذُكر عنده أبو بكر فبكىٰ وقال: [وددت أن عملي كلَّه مثل عمله يوماً واحداً من أيامه، وليلة واحدة من لياليه، أما ليلته فليلة سار مع رسول الله ﷺ إلى الغار، فلما انتهيا إليه قال: والله لا تدخله حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخل فكسحه[3]، ووجد في جانبه ثُقَباً، فشقَّ إزاره وسدَّها به وبقي منها اثنان فألقمهما رجليه، ثم قال لرسول الله ﷺ ادخُل، فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجره ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الحجر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ فسقطت دموعهُ على وجه رسول الله ﷺ، فقال: ما لك يا أبا بكر؟ قال: لُدِغْتُ، فداكَ أبي وأمي، فتفل رسول الله ﷺ فذهب ما يجده، ثم انتقض[4] عليه، وكان سبب موته. وأما يومُهُ، فلما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ ارتدت العرب وقالوا: لا نؤدي زكاة، فقال: لو منعوني عِقالاً لجاهدتهم عليه. فقلت: يا خليفة رسول الله ﷺ: تألف الناس وارفق بهم. فقال

(1) قيل أزواجه: عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب بنت جحش.

(2) مختصر صحيح مسلم (1633) ورواه البخاري.

(3) كنسه.

(4) رجع أثر السم.

لي: أجبار في الجاهلية وخوّار في الإسلام ، إنه قد انقطع الوحيُ وتم الدين ، أَيُنْقَصُ وأنا حيّ][1] .

قلت: وقد تكلم بعض المحدثين في سنده وبعضهم حَسَّـنَـهُ ، وإن كان موقف أبي بكر من أهل الردة وخطابه لعمر ثابتاً في الصحيح .

ثانياً: حرصهم على أبواب الخير ، وتسابقهم خفية في عمل الآخرة .

فقد وصفهم الله في سورة الذاريات بقوله: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ .

وفي جامع الترمذي عن عمر رضي الله عنه قال: [أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ، ووافق ذلك عندي مالاً . فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً . قال: فجئت بنصف مالي. فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك فقلت مثله. وأتىٰ أبو بكر بكل ما عنده ، فقال: يا أبا بكر! ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً][2] .

وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي بسند حسن عن عبد الرحمن بن سمرة قال: [جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في كمِّه حين جهز جيش العسرة ، فنثرها في حجره ، فرأيت النبي ﷺ يقلبها في حجره ويقول: ما ضرَّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم. مرتين][3] .

ثالثاً: بعدهم وخشيتهم من الفتوى .

فقد كانوا مستحضرين لآيات مخيفة من القرآن ، كقوله في سورة الأنعام: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

يروي ابن ماجه في سننه عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [من حدث

---

(1) مشكاة المصابيح. فضائل عمر.
(2) تخريج المشكاة (6021) قال الألباني: وإسناده حسن.
(3) أخرجه أحمد (63/5) قال الألباني: وإسناد حسن. المشكاة (6064).

عني حديثاً وهو يُرىٰ أنه كذب فهو أحد الكاذِبَيْن] وسنده صحيح[1].

ورِوىٰ عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: [إياكم وكثرةَ الحديث عني، فمن قال عليَّ فليقل حقاً أو صدقاً، ومن تقول عليَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار] وسنده حسن[2].

وعن عبد الرحمان بن أبي ليلىٰ قال: (أدركت في هذا المسجد ـ مسجد رسول الله ﷺ ـ مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم أحد يُسأل عن حديث أو فتيا إلا ودَّ أن أخاه كفاه ذلك).

وفي لفظ آخر قال: (كانت المسألة تعرض على أحدهم، فيردها إلى الآخر، ويردها الآخر إلى الآخر، حتى ترجع إلى الذي سأل عنها أول مرة).

ورُوي أن رجلاً سأل الإمام مالك عن مسألة وذكر أن قومه أرسلوه يسأله عنها من مسيرة ستة أشهر فقال له الإمام مالك: (فأخبر الذي أرسلك أني لا علم لي بها). قال الرجل: ومن يعلمها؟ قال مالك: (من علَّمه الله، قالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾).

وروي عن الإمام مالك أيضاً أنه سُئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري. وكان ابن عجلان يقول: (إذا أخطأ العالم قول «لا أدري» أصيبت مقاتله).

رابعاً: إقرارهم بفضل بعضهم، وسُمُوِّ أدبهم وتألق أخلاقهم عند اختلافهم.

فقد ورثوا ذلك من رسول الله ﷺ الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. ووجهم سبحانه للاقتداء به فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

يروي أبو داود في كتاب المناسك بسند صحيح عن عبد الرحمن بن يزيد قال: [صلى عثمان بمِنى أربعاً، فقال عبد الله: صليتُ مع النبي ﷺ ركعتين ومع أبي بكر ركعتين ومع عمر ركعتين.

---

(1) صحيح ابن ماجه (36) ورواه مسلم.
(2) صحيح ابن ماجه (33) والسلسلة الصحيحة (1753).

قال الأعمش: فحدثني معاوية بن قُرَّة عن أشياخه: أن عبد الله صلى أربعاً. فقيل له: عِبْتَ على عثمان ثم صليت أربعاً؟ قال: الخلاف شر][1].

وهذه كوكبة من أخلاق أئمة المسلمين وعلمائهم:

1 ـ **الإمام مالك والإمام الشافعي**. فقد جاء في الانتقاء، قال الشافعي: (مالك بن أنس معلمي وعنه أخذت العلم، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد أَمَنُّ علي من مالك بن أنس).

2 ـ **الإمام مالك والإمام أبو حنيفة**. فقد أخرج القاضي عياض في المدارك عن الليث بن سعد قال: (لقيت مالكاً في المدينة فقلت له: إني أراك تمسح العرق عن جبينك. قال: عَرِقْتُ مع أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري. قال الليث: ثم لقيت أبا حنيفة وقلت له: ما أحسن قول هذا الرجل فيك (يشير إلى مالك) فقال أبو حنيفة: ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقد تام).

وكذلك فقد جاء في الانتقاء عن الشافعي أنه قال: (سئل مالك يوماً عن عثمان البتِّي فقال: كان رجلاً مقارباً، وسئل عن ابن أبي شبرمة فقال: كان رجلاً مقارباً. قيل: فأبو حنيفة؟ قال: لو جاء إلى أساطينكم هذه (يعني سواري المسجد) فقايسكم على أنها خشب لظننتم أنها خشب) إشارة لبراعته في القياس، وتألق في اعتراف بعضهم بفضل بعض.

3 ـ **الإمام الشافعي والإمام أبو حنيفة**. فقد كان الشافعي يقول: (الناس في الفقة عيال على أبي حنيفة).

4 ـ **الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل**. فعن أبي زرعة الدمشقي قال: (سمعت أحمد بن حنبل يُسأل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرواية فقال: مالك أكبر في قلبي. قال: قلت: فمالك والأوزاعي إذا اختلفا؟ فقال: مالك أحبُّ إلي، وإن كان الأوزاعي من الأئمة).

5 ـ **الإمام أحمد والإمام الشافعي**. فعن عبد الله بن الإمام أحمد قال: (قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي فإني أسمعك تكثر الدعاء له؟ فقال: يا بني: كان

---

(1) صحيح أبي داود. كتاب المناسك.

الشافعي رحمه الله كالشمس للدنيا وكالعافية للناس ، فانظر هل لهذين من خلف أو عوض).

وعن صالح بن الإمام أحمد قال: (لقيني يحيى بن معين فقال: ألا يستحي أبوك مما يفعل؟ فقلت: وما يفعل؟ قال: رأيته مع الشافعي والشافعي راكب ، وهو راجل آخذ بزمام دابته ، فقلت لأبي ذلك ، فقال: إن لقيته فقل: يقول لك أبي: إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر).

فهذه كانت أخلاق سَلف الأمة وقيادة الجماعة ، ما كانوا يطعنون وينالون من بعضهم ، وما كان الصبية يخرجون من بينهم ويقولون هم رجال ونحن رجال ، بل كان الأدب يغمر خلافهم ، ويغشىٰ مجالسهم ، وما خرج من تلامذتهم ولا من بين صفوفهم شبابٌ ناشئٌ يشبه بعض الشباب اليوم الذين هم في بداية الطريق ، إذا خالفته في مسألة رماك مبتدعاً أو رماك فاسقاً أو عميلاً.

وفي التنزيل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف.

وقد أجاد الإمام الطحاوي حين دون في عقيدته فقال: (وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين ـ أهل الخير والأثر ، وأهل الفقه والنظر ـ لا يُذكرون إلا بالجميل ، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل)(1).

فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين خصوصاً ورثة الأنبياء ، كما قال سبحانه في سورة النساء: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾. ومن ثم فإنه لو وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له في تركه من عذر ، **وجماع الأعذار ثلاثة أصناف** كما ذكر أهل العلم:

1 ـ عدم اعتقاده ثبوت النص عن النبي ﷺ أو عدم وصوله إليه.

2 ـ عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

3 ـ اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

---

(1) متن الطحاوية (97).

فالأول يدور حول اختلافهم في التصحيح والتضعيف لبعض النصوص أو غياب العلم بثبوته أو أن النبي ﷺ قاله ، والثاني يدور حول اختلافهم بالفهم والتأويل والمراد من ذلك النص ، والثالث يدخل في علم الناسخ والمنسوخ وصعوبات الإثبات والنفي فيه في بعض الحالات .

ويجب على المسلم إثبات الفضل لأهل العلم في الأمة وعدم اتهامهم بالتقصير ، والذب عن أعراضهم فهم بين أجر أو أجرين لمن أصاب منهم الحق أو أخطأه ، ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وفي الصحيحين : [عن النبي ﷺ أنه قال : لما نزل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ الأنعام . قال : أعوذ بوجهك : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : هاتان أهون][1] . فدل أنه لا بد أن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول من هذه الحال وهم فيها في جاهلية .

وتنازع الأمة في الأصول والفروع إذا لم يُردَّ إلى الله والرسول لم يتبين الحق ، فإن رحمهم الله أقرَّ بعضهم بعضاً ولم يبغ بعضهم على بعض ، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضاً ولا يعتدي ولا يُعتدى عليه ، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم فبغىٰ بعضهم على بعض ، إما بالقول مثل تكفيره أو تفسيقه أو بالفعل مثل حَبْسِه وضربه وقتله ، والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ، ابتدعوا بدعة وكفَّروا من خالفهم ، واستحلوا منعَ حقه وعقوبته .

فالناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول إما عادلون وإما ظالمون ، فالعادل فيهم : الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره ، والظالم الذي يعتدي على غيره ، وأكثرهم يظلمون مع علمهم أنه يظلمون ، ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ .

---

(1) تخريج الطحاوية (97) .

والاختلاف قسمان:

أ ـ اختلاف تنوع.

ب ـ اختلاف تضاد.

واختلاف التنوع حالات:

1 ـ منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة رضوان الله عليهم حتى زجرهم النبي ﷺ وقال: [كلاكما محسن] رواه البخاري من حديث ابن مسعود.

ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان والإقامة والاستفتاح ومحل سجود السهو والتشهد وصلاة الخوف وتكبيرات العيد مما شرع جميعه وإن كان بعض أنواعه أرجحَ وأفضل.

2 ـ ومنه ما يكون كل من القولين هو في المعنىٰ القول الآخر، لكنِ العبارتان مختلفتان كما يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود وصيغ الأدلة والتعبير عن المسميات. ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين وذمِّ الأخرى والاعتداء على قائلها.

وأما اختلاف التضاد:

فهو القولان المتنافيان إما في الأصول وإما في الفروع. وذلك عند الجمهور الذين يقولون المصيب واحد. وهنا الخطب أشد، فكثير ما نجد القول الباطل الذي منازعه فيه حق ما، أو معه دليل يقتضي حقاً ما، فيرد الحق مع الباطل، حتى يبقىٰ هذا مبطلاً في البعض كما كان الأول مبطلاً في الأصل وهذا يجري كثيراً لأهل السنة، أما أهل البدعة فالأمر فيهم ظاهر لمن هدىٰ الله قلبه ونوَّره من الكتاب والسنة.

أما نتائج ذلك:

1 ـ اختلاف التنوع الذمُّ فيه على من بغىٰ على الآخر. وقد دلَّ القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك إذا لم يحصل بغي، كما قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الحشر. وقد كانوا اختلفوا

في قطع الأشجار فقطع قوم وترك آخرون ، وكقوله : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ الأنبياء. فخصَّ سليمان بالفهم وأثنىٰ عليهما بالحكم والعلم. وكما في إقرار النبي ﷺ يوم بني قريظة لمن صلىٰ العصر في وقتها ولمن أخرها إلى أن وصل إلى بني قريظة ، كما في الصحيحين من حديث ابن عمر : [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة].

وفي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر].

2 ـ الاختلاف الثاني (التضاد) هو ما حُمِدَ فيه إحدى الطائفتين وذُمَّت الأخرى كما قال تعالى : ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ الحج. وكقوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ ﴾ البقرة.

وأكثر الاختلاف الذين يؤول إلى الأهواء في الأمة من القسم الأول ، كما يؤول أحياناً لسفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء ، لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها ، بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل والأخرىٰ كذلك ، ولذلك جعل الله مصدره البغي في قوله : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ البقرة. لأن البغي مجاوزة الحد ، وقد أكثر الله ذكره في القرآن للعبرة وأخذ الحذر.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم](1).

فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به ، معللاً أن سبب هلاك الأولين كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية(2).

---

(1) مختصر صحيح مسلم (939) ورواه البخاري.

(2) شرح العقيدة الطحاوية.

خامساً: خوفهم من الآخرة ، وبكاؤهم إذا ذكر الموت والحشر والقيامة .

فقد قال الله سبحانه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : 9].

يروي الإمام البخاري عن المسور بن مَخْرمة قال: [لما طُعن عمر جعل يألم ، فقال له ابن عباس وكأنه يُجَزِّعه: يا أمير المؤمنين: ولا كل ذلك؟! لقد صحبت رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته ثم فارقك وهو عنك راض ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته ، ثم فارقك وهو عنك راض ، ثم صحبت المسلمين فأحسنت صحبتهم ، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون ، قال: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه ، فإنما ذلك مَنٌّ من الله مَنَّ به عليَّ ، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه ، فإنما ذلك مَنٌّ من الله مَنَّ به عليَّ ، وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك ومن أجل أصحابك ، والله لو أن لي طلاعَ الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه][1].

وقد جاء في سير أعلام النبلاء عن المروزي قال: قلت لأحمد: كيف أصبحت؟ قال: (كيف أصبح مَنْ ربُّه يطالبُهُ بأداء الفرائض ، ونبيُّهُ يطالبه بأداء السنة ، والملكان يطالبانه بتصحيح العمل ، ونفسه تطالبه بهواها ، وإبليس يطالبه بالفحشاء ، وملك الموت يُراقب قبض روحه ، وعيالهُ يطالبونه بالنفقة).

فهذه هي بعض الصفات الخُلقية والسلوكية لجماعة الحق ، فقد ملأ القرآن الكريم عليهم قلوبهم وعقولهم ، وتأثرت بهديه أخلاقهم ، وشغفوا بسيرة نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ، فتعلقت أرواحهم بهديه وأخلاقه ، وورثوا عنه العلم والخلق معاً ، فإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا مالاً ولا متاعاً من متاع الدنيا ، وإنما ورثوا العلم والصفات العليا التي يتحلى بها أهل العلم من بعدهم ، فما عرف التاريخ أخلاقاً وسيرة أسمىٰ من سيرة وأخلاق علماء الإسلام .

* * *

---

(1) مشكاة المصابيح ، فضائل عمر .

- ثمرة منهج الإيمان -

الباب الرابع

الخلافة الراشدة وفضائل العشرة

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة، ثم لعمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون، الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون)[1].

أولاً: خلافة أبي بكر الصديق.

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم الملقب بالعتيق والمكنى بأبي بكر والشهير في الأمة بالصديق، وبنو تيم هم أحد بطون قريش الاثني عشر.

ولد سنة 51 قبل الهجرة، فهو بذلك أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين وبضعة أشهر. وتزوج في الجاهلية امرأتين: قتيلة بنت عبد العزىٰ وأنجبت له عبد الله وأسماء. وتزوج أم رومان بنت عامر الكنانية فأنجبت له عبد الرحمن وعائشة.

قال ابن هشام: (كان أبو بكر رضي الله عنه أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاركاً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه، لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجارته وحسن مجالسته)[2].

وكان تاجراً كريماً محبوباً، ولم يشرب الخمر في حياته ولم يسجد لصنم في الجاهلية.

---

(1) متن العقيدة الطحاوية (94).

(2) سيرة ابن هشام.

أخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت: [لقد كان حرم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية].

وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي عن عائشة قالت: [ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية].

وكان صديقاً حميماً لنبينا ﷺ قبل الإسلام، فلما أخبره النبي عليه السلام بالوحي والنبوة سارع إلى تصديقه والإيمان به لما رأى من علامات تصديق ذلك.

وقد صحب النبي ﷺ وهاجر معه ودافع عنه وثبت حين فرَّ الناس يوم أحد وحنين، وكان يقاتل قرب النبي ﷺ لحمايته، ولذلك لم تكن له صولة وحركة كبيرة في ساحات القتال كحمزة وأبي دجانة، وكان كريماً سخياً مسارعاً إلى البذل وصلة الرحم وقد أنزل الله في حقه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾.

وقد أسلم على يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وذلك في أول أيام الإسلام، ثم أسلم عثمان بن مظعون، وأبو عبيدة بن الجراح، والأرقم بن أبي الأرقم، وأبو سلمة عبد الله بن عَبد الأسد المخزومي.

وقد ثبتت خلافة أبي بكر بالنص، إذ فهم الصحابة رضوان الله عليهم من كلام النبي ﷺ استحقاق الصديق للخلافة من بعده وعدم تقديم غيره عليه. وفي ذلك أحاديث صحيحة:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: [إنَّ مِنْ أَمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا تُبْقَيَنَّ في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر](1).

قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: (قال العلماء: هذا إشارة إلى الخلافة).

الحديث الثاني: روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: [قال لي

(1) رواه البخاري في المناقب، فتح الباري (227/7) ومسلم في فضائل الصحابة (2382).

رسول الله ﷺ في مرضه: ادعي لي أبا بكر أباك، وأخاك، حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمن، ويقول قائل: أنا ولا (وفي رواية: أنا أولى) ويأبىٰ الله والمؤمنون إلا أبا بكر] ورواه البخاري[1].

وفي رواية: (فلا يطمع في هذا الأمر طامع).

ثم إنه صلوات الله وسلامه عليه لم يكتب الكتاب، ليقينه أن الأمة لا يمكن أن تختلف بعده على أبي بكر، وفي ذلك دليل قوي وحجة ضد من يدعي أن الأمة تآمرت على عليٍّ من بعد وفاته ﷺ واستلبت منه الخلافة.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عائشة قالت: [قال لي رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه: ادعي لي عبد الرحمن بن أبي بكر أكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه أحد من بعدي، ثم قال: دعيه، معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر][2].

قال ابن حزم: (فهذا نص جلي على استخلافه عليه الصلاة والسلام أبا بكر على ولاية الأمة بعده)[3].

الحديث الثالث: أخرج الشيخان عن أبي موسى قال: [مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس. قالت عائشة: إنه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس. قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فعادت. فقال: مري أبا بكر فليصل بالناس، فإنكن صواحب يوسف، فأتاه الرسول فصلىٰ بالناس في حياة النبي ﷺ][4].

وفي المسند من مسائل الإمام أحمد للخلال[5]: قال المروزي: (قيل لأبي عبد الله ـ أحمد بن حنبل ـ قول النبي ﷺ: يؤم القوم أقرؤهم، فلما مرض

---

(1) رواه البخاري في الأحكام (فتح الباري 205/13)، ومسلم في فضائل الصحابة (فضائل أبي بكر: 2387).

(2) مسند الإمام أحمد (106/6) و(144/6).

(3) الفصل (108/1).

(4) رواه البخاري في الأذان (فتح الباري: 164/2)، ومسلم في الصلاة (418).

(5) ورقة (43) وانظر فتح الباري (52/9).

قال: قدموا أبا بكر يصلي بالناس، وقد كان في القوم من هو أقرأ من أبي بكر؟ فقال أبو عبد الله: إنما أراد الخلافة).

قال السيوطي: (قال العلماء: هذا الحديث أوضح دلالة على أن الصديق أفضل الصحابة على الإطلاق وأحقهم بالخلافة وأولاهم بالإمامة) تاريخ الخلفاء ص: 63.

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال: [أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ كأنها تريد الموت. قال: إن لم تجديني فأت أبا بكر][1].

قال ابن حزم: (وهذا نص جلي على استخلاف أبي بكر)[2].

الحديث الخامس: يروي الحاكم بسند صحيح عن أنس قال: [بعثني بنو المصطلق إلى رسول الله ﷺ أن سله إلى من ندفع صدقاتنا بعدك؟ فأتيته فسألته فقال: إلى أبي بكر][3].

الحديث السادس: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [بينا أنا نائم رأيتُني على قليب، عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة، فنزع منها ذَنوباً أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم استحالت غَرْباً، فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس يفري فَرْيَهُ، حتى ضرب الناسُ بعطن[4]][5].

الحديث السابع: أخرج أبو داود وغيره بسند صحيح عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قال ذات يوم: [من رأى منكم رؤيا؟ فقال رجل أنا، رأيت ميزاناً أنزل من السماء فوُزنتَ أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبي بكر، ثم وزن عمر وأبو بكر فرجح

---

(1) رواه البخاري في الأحكام فتح الباري (206/13)، ومسلم في الفضائل: فضائل أبي بكر (2386).

(2) الفصل (108/4).

(3) الحاكم (77/3) وصححه الذهبي. انظر الإمامة العظمى ـ الدميجي ـ ص 131.

(4) الذنوب: الدلو المملوءة. والغَرْب: الدلو العظيمة. وفي رواية: (حتىٰ رَوِيَ الناسُ وضربوا العَطَن) أي أخذوا كفايتهم.

(5) صحيح الجامع (2866).

أبو بكر ، وَوُزِنَ عمر وعثمان فرجح عمر ، ثم رفع ، فرأيت الكراهة في وجه النبي ﷺ فقال: خلافة نبوة ، ثم يؤتي الله الملك من يشاء][1] .

وله شاهد في صحيح أبي داود من حديث جابر: [رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيطَ برسول الله ﷺ ونيط عمر بأبي بكر ، ونيط عثمان بعمر . قال جابر: فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ ، وأما المنوطُ بعضهم ببعض فهم ولاة هذا الأمر الذي بعث الله به نبيه][2] .

الحديث الثامن: يروي البخاري عن أبي الدرداء قال: [كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتىٰ أبدىٰ عن رُكْبَتِه ، فقال النبي ﷺ: أما صاحبكم فقد غامر[3] ، فسلَّم وقال: يا رسول الله إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لي فأبى عليَّ ، فأقبلت إليك ، فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثاً ، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر ، فسأل: أثمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا ، فأتى إلىٰ النبي ﷺ فسلم عليه فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّر ، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله ، والله أنا كنت أظلم ، مرتين ، فقال النبي ﷺ: إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبتَ ، وقال أبو بكر: صَدَق ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ مرتين ، فما أوذيَ بعدها][4] .

الحديث التاسع: يروي الإمام مسلم في صحيحه عن عمرو بن العاص: [أن رسول الله ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل ، فأتيته فقلت: أي الناس أحبُّ إليك؟ قال: عائشة . قلت: من الرجال؟ قال: أبوها . قلت: ثم من؟ قال: عمر ، وعدَّ رجالاً][5] .

وأما من احتج بقول عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: [إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني يعني أبا بكر ، وإن لا أستخلف فلم

---

(1) صحيح أبي داود (3875) تحقيق الألباني .

(2) وانظر صحيح الترمذي (2403) .

(3) غاضب وخاصم .

(4) مختصر صحيح البخاري (1451) ، كتاب فضائل الصحابة .

(5) صحيح مسلم (109/7) .

يستخلف من هو خير مني يعني رسول الله ﷺ. قال عبد الله: فعرفت أنه حين ذكر رسول الله ﷺ غير مستخلف].

قال أهل العلم: والمراد لم يستخلف بعهد مكتوب والله أعلم، وإلا فهو قد همَّ أن يكتب كتاباً: [يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر] مسلم. فكان هذا أبلغ من مجرد العهد، فهو ﷺ دلَّ المسلمين على استخلاف أبي بكر وأرشدهم إليه بأقواله وأفعاله[1].

ثانياً: خلافة عمر بن الخطاب.

وهو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزى بن... بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي رضي الله عنه. أسلم سنة ست من النبوة وهو ابن ستٍ وعشرين سنة، وكان يتصف بحدة الطبع وقوة الشكيمة، وكان رجلاً قوياً مهيباً، وقد دعا النبي ﷺ له وتمنى له الإسلام.

ففي صحيح الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: [اللهم أعِزَّ الإسلام بأحبِّ هذين الرجلين إليك، بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب. قال: وكان أحبَّهما إليه عمر][2].

فاستجاب الله دعاء نبيِّه ﷺ وأسلم عمر فاعتز به الإسلام والمسلمون وصلوا بالبيت العتيق دون أن يتعرض لهم المشركون.

يروي البخاري عن ابن مسعود قال: (مازلنا أعزة منذ أسلم عمر)[3].

والمؤمنون يثبتون الخلافة لعمر بعد أبي بكر رضي الله عنهما ولا يرون أحداً أحق بذلك منهما. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: يروي أهل السنن من حديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: [اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر][4].

---

(1) انظر تفصيل ذلك في كتاب الإمامة العظمىٰ ـ الدميجي 149 - 186.

(2) تخريج المشكاة (6036) وانظر صحيح ابن ماجه (85).

(3) صحيح البخاري (فتح الباري 177,41/7).

(4) انظر صحيح ابن ماجه (80) بلفظ: (إني لا أدري ماقدْرُ بقائي فيكم. فاقتدوا باللذين من =

الحديث الثاني: في صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عهما قال: [وُضِعَ عمر على سريره، فتَكَنَّفَهُ الناس يدعون ويُثنون ويصلون عليه قبل أن يرفع، وأنا فيهم، فلم يَرُعْني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت إليه فإذا هو عليّ، فترحم على عمر، وقال: ما خلّفتَ أحداً أحبَّ إليَّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وأيم الله، إن كنتُ لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذلك أني كنت كثيراً ما أسمع رسول الله ﷺ يقول: جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، فإن كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما][1].

وقد بينت بعض الأحاديث فضائله وخصاله، منها:

الحديث الثالث: يروي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون[2]، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر][3].

الحديث الرابع: يروي البخاري ومسلم من حديث سعد، قال رسول الله ﷺ: [إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً إلا سلك فجّاً غير فَجِّك][4].

الحديث الخامس: يروي الشيخان عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون عليّ، وعليهم قمصٌ، منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما دون ذلك، وعرض عليَّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجرُّه، قالوا: فما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال: الدِّين][5].

= بعدي. وأشار إلى أبي بكر وعمر). وانظر تخريج المشكاة (6052) والسلسلة الصحيحة (1233).

(1) ورواه ابن ماجه. انظر صحيح ابن ماجه (81) تحقيق الألباني بلفظ مقارب.

(2) ملهمون.

(3) انظر مختصر صحيح مسلم (1634).

(4) جزء من حديث طويل. مختصر مسلم (1633).

(5) وله شاهد من حديث أبي سعيد بلفظ مقارب. مختصر مسلم (1629).

ثالثاً: خلافة عثمان بن عفان.

وهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو بذلك يلتقي مع رسول الله ﷺ من ناحية أبيه بعبد مناف أو بالجد الرابع، كما يلتقي به من ناحية أمه أيضاً، فأمه أروى بنت كريز، وأم أروى هي البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ. ولد عثمان في الطائف سنة 47 قبل الهجرة، فهو أصغر من رسول الله ﷺ بست سنوات. وكان أبوه عفان ثرياً صاحب تجارة، مات برحلة للشام وخلف لابنه ثروة، فاتجر بها عثمان وربح وجاد على قومه فأحبوه وقدموه، وكان وجيهاً في بني أمية، وكان عمره حين بعث رسول الله ﷺ أربعاً وثلاثين، فأسلم مع السابقين وكان من العشرة الأوائل، ومن العشرة المبشرين بالجنة، وهو ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه.

وقد جبله الله سبحانه على خصال حميدة، فكان مثال الرجل الحيي الورع في أمة الإسلام، ومثال الرجل الكريم الذي أكثر من البذل لجيش الحق والإيمان، وقد جاء في فضائله وصفاته أحاديث كثيرة، والمؤمنون يثبتون له الخلافة بعد عمر، فإلى ذكر بعض شمائله:

الحديث الأول: روى مسلم عن عائشة قالت: [كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيته، كاشفاً عن فخذيه ـ أو ساقيه ـ فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوّى ثيابه، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتشَّ له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟ فقال: ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة][1].

الحديث الثاني: يروي البخاري عن ابن عمر ـ في قصة البيعة حين ذهب

---

(1) مختصر مسلم (1637).

عثمان لمكة فقال النبي ﷺ ـ: [هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذه لعثمان][1] .

الحديث الثالث : يروي الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن عبد الرحمن بن سمرة قال : [جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في كمه حين جهز جيش العُسْرة ، فنثرها في حجره ، فرأيت النبي ﷺ يقلبها في حجره ويقول : ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم . مرتين][2] .

رابعاً : خلافة علي بن أبي طالب :

وهو ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة ، وأحد الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين في الجنة ، ومن أوائل الذين أسلموا ، ولد سنة 23 قبل الهجرة ، فهو أصغر من رسول الله ﷺ بثلاثين عاماً ، أسلم ولم يبلغ العاشرة ، ولم يعرف وثنية قط ، وكان بطل المعارك وفارس الإسلام وأشجع المبارزين الذين يفتتحون القتال .

والمؤمنون يثبتون له الخلافة بعد عثمان ، وهو الذي أكمل الثلاثين في خلافة النبوة التي ورد بها النص : [خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء][3] ، حيث كانت خلافة أبي بكر : سنتين وثلاثة أشهر .

وخلافة عمر : عشر سنين ونصفاً .

وخلافة عثمان : اثني عشر سنة .

وخلافة علي : أربع سنين وتسعة أشهر .

وخلافة الحسن : ستة أشهر[4] .

---

(1) مختصر البخاري (1461) .

(2) السيرة النبوية على منهج الوحيين . د . مأمون حموش ج 3 ص 1226 .

(3) السلسلة الصحيحة (459)(1534),(1535) .

(4) أول ملوك المسلمين معاوية رضي الله عنه وهو خير ملوك المسلمين ، لكنه إنما صار إماماً حقاً لما فوّض إليه الحسن بن علي رضي الله عنه الخلافة ، فإن الحسن بايعه أهل العراق بعد موت أبيه ثم بعد ستة أشهر فوّض الأمر إلى معاوية ، فظهر صدق النبي ﷺ : [إن ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين] رواه الشيخان من حديث أبي بكرة .

وقد امتلأت كتب السنة بذكره وذكر فضائله ، ومن ذلك :

الحديث الأول: يروي البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ لعلي : [أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ ، إلا أنه لا نبي بعدي][1] .

الحديث الثاني: يروي الشيخان عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : [لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله . قال : فتطاولنا لها فقال : ادعوا لي علياً ، فأتي به أرمد ، فبصق في عينيه ، ودفع الراية إليه ففتح الله عليه][2] .

الحديث الثالث: روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص : [لما نزلت ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلي][3] .

فَنُثْبِتُ الخلافة لعلي رضي الله عنه بمبايعة الصحابة له سوىٰ معاوية مع أهل الشام ، ونرى الحقَّ مع علي رضي الله عنه ، فإنه لما قتل عثمان كثر الكذب والافتراء عليه وعلى من كان بالمدينة من أكابر الصحابة كعلي وطلحة والزبير ، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال ، وقويت الشهوة في نفوس ذوي الأهواء والأغراض ممن بعدت داره من أهل الشام ، ويحمي الله عثمان أن يظن بالأكابر ظنون سوء ، ويبلغه عنهم أخبار منها ما هو كذب أو محرَّف ، وانضم لذلك أهواء قوم يحبون العلو في الأرض ، وكان في عسكر علي رضي الله عنه من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان مَنْ لَمْ يُعرف بعينه ، ومن تنتصر له قبيلته ، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله ، ومَنْ في قلبه نفاق ومكر ، ورأى طلحة والزبير أنه إن لم ينتصر للشهيد المظلوم ينزل غضب الله ، فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ولا من طلحة والزبير أثارها المفسدون ، ثم جرت فتنة صفين لرأي ، وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم أو لا يتمكن من العدل عليهم ، وهم كافّون حتى يجتمع أمر

---

(1) رواه البخاري في المغازي ، مختصر البخاري (1618) . ورواه مسلم في فضائل أصحاب النبي ﷺ . مختصر مسلم (1639) .

(2) مختصر صحيح مسلم (1640) ، باب فضائل علي رضي الله عنه .

(3) انظر السيرة النبوية على منهج الوحيين . عام الوفود . د . حموش .

الأمة ، وأنهم يخافون طغيان من في العسكر كما طغوا على الشهيد المظلوم ، وعلي رضي الله عنه هو الخليفة الراشد الواجب طاعته ، فاعْتَقَدَ أن الطاعة واجتماع الناس عليه الواجبتين تحصل بقتالهم ، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلفة قلوبهم على عهد النبي ﷺ والخليفتين مما يسوغ[1] .

والخلاصة : لقد كان ترتيب الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم في الفضل والعلم كترتيبهم في الخلافة ، ولأبي بكر وعمر مزية الاقتداء إضافة للاتباع ، فقد صح عن النبي ﷺ القول : [اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر][2] . كما صَحَّ عن ابن عمر أنه قال : [كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم][3] .

ففرق بين الاقتداء ، والاتباع الوارد في حديث العرباض : [فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها ، عضوا عليها بالنواجذ] صحيح الترمذي[4] . فحال أبي بكر وعمر فوق حال عثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين .

وأما بقية العشرة فقد ورد في فضائلهم أحاديث كثيرة تثبت لهم السبق في الأمة والكرامة العالية الرفيعة .

قال الإمام الطحاوي رحمه الله : (وأن العشرة الذي سمّاهم رسول الله ﷺ وبشّرهم بالجنة ، نشهد لهم بالجنة ، على ما شهد لهم رسول الله ﷺ وقوله الحق وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح ، وهو أمين هذه الأمة ، رضي الله عنهم أجمعين)[5] .

قلت : وأصل ذلك في صحيح ابن ماجه وغيره عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل يقول : [كان رسول الله ﷺ عاشرَ عشرة فقال : أبو بكر في الجنة ، وعمر في

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية .
(2) قد مضى من حديث حذيفة . صحيح ابن ماجه (80) .
(3) رواه البخاري . وانظر تخريج المشكاة . فضائل أبي بكر وعمر .
(4) قد مضى تخريجه .
(5) متن العقيدة الطحاوية (95) .

الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وسعدٌ في الجنة ، وعبد الرحمن في الجنة فقيل له: من التاسع؟ قال: أنا][1]. وفي لفظ: [ولو شئت لسميت العاشر ، قال: فقالوا: من هو؟ قال: سعيد بن زيد ، وقال: لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ يَغْبَرُ منه وجهه ، خير من عمل أحدكم ولو عُمِّر عُمُرَ نوح] وصححه الألباني.

فإلى ذكر بعض مناقب هؤلاء السابقين في أمة الحق:

الحديث الأول: روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة ، قالت: وسمعنا صوت السلاح ، فقال النبي ﷺ من هذا؟ فقال سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله جئت أحرسك. وفي لفظ: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام][2].

الحديث الثاني: روى مسلم عن علي قال: [ما رأيت رسول الله ﷺ جمع أبويه لأحد غير سعد بن مالك[3]. فإنه قال له يوم أحد: ارْمِ سعد! فداك أبي وأمي][4].

الحديث الثالث: يروي البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: [رأيت يد طلحة شلّاء ، وقىٰ بها رسول الله ﷺ يوم أحد].

وفي لفظ: [رأيت يد طلحة التي وقىٰ بها النبي ﷺ يوم أحد قد شُلَّت][5].

الحديث الرابع: يروي البخاري عن أبي عثمان النهدي قال: [لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض الأيام التي قاتل فيها النبي ﷺ غير طلحة وسعد][6].

الحديث الخامس: يروي الشيخان عن جابر قال: [ندب رسول الله ﷺ الناس

---

(1) صحيح ابن ماجه (110).

(2) مختصر صحيح مسلم (1647).

(3) هو سعد بن أبي وقاص.

(4) ويشهد له ما في صحيح مسلم (125/7).

(5) مختصر البخاري (1465).

(6) مختصر البخاري (1464).

يوم الخندق فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير ، فقال النبي ﷺ: لكل نبي حواريّ ، وحواريي الزبير][1] .

وفي لفظ عند ابن ماجه : [قال رسول الله ﷺ يوم قريظة : من يأتينا بخبر القوم؟ فقال الزبير : أنا ، فقال : من يأتينا بخبر القوم؟ قال الزبير : أنا ، ثلاثاً ، فقال النبي ﷺ : لكل نبيٍّ حواري ، وإن حواريَّ الزبير][2] .

الحديث السادس : يروي البخاري ومسلم عن الزبير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : [من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم ، فانطلقت ، فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال : فداك أبي وأمي][3] .

وقد حصل ذلك أيضاً يوم أحد : ففي صحيح ابن ماجه عن الزبير قال : [لقد جمع[4] لي رسول الله ﷺ أبويه يوم أحد] .

الحديث السابع : روى مسلم عن أبي هريرة قال : [كان رسول الله ﷺ على حِراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير ، فتحركت الصخرة ، فقال رسول الله ﷺ : اهدأ ، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد][5] .

الحديث الثامن : يروى ابن ماجه بسند صحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : [أرحم[6] أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم علي بن أبي طالب ، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم[7] زيد بن ثابت ، ألا وإن لكل أمة أمينا ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح][8] .

ملاحظة : تهجر الرافضة اسم (عشرة) لكراهيتهم لهم إلا علي ، مع أن الله مدح

---

(1) مختصر مسلم (1643) .
(2) صحيح ابن ماجه (99) تحقيق الألباني .
(3) مختصر البخاري (1463) ومختصر مسلم (1644) .
(4) أي بأبي وأمي ، أنت مفدىً بهما ، والحديث في صحيح ابن ماجه (100) .
(5) صحيح مسلم (128/7) .
(6) وفي رواية : أرأف .
(7) وفي رواية : وأعلمهم بالفرائض .
(8) صحيح ابن ماجه (125) .

الرقم عشرة في التنزيل ومدحه رسوله في الوحي الثاني (السنة). ففي القرآن، قال الله جل ثناؤه: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: 196]، ﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: 142]، ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: 1-2]. وفي السنة، قال رسول الله ﷺ: [التمسوها في العشر الأواخر من رمضان] البخاري عن ابن عباس.

[ما من أيام العملُ الصالح فيهن أحب إلى الله من أيام العشر] البخاري عن ابن عباس.

والرافضة توالي بدل العشرة المبشرين في الجنة اثني عشر إماماً، أولهم علي رضي الله عنه، ويدّعون بلا دليل أنه وصي النبي ﷺ، ثم الحسن رضي الله عنه، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسىٰ بن جعفر الكاظم، ثم علي بن موسىٰ الرضىٰ، ثم محمد بن علي الجواد، ثم علي بن محمد الهادي، ثم الحسن بن علي العسكري، ثم محمد بن الحسن ويغالون فيهم. والحديث التالي ليس لهم بل حجة عليهم: [لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً كلهم من قريش][(1)].

قلت: والواجب على المؤمن إنزال الناس منازلهم وتقدير مكانتهم دون غلو في أحد، فإن النص جاء بفضائل العشرة وضمن لهم الجنة، كما جاء بالوصية بأهل بيت المصطفىٰ ﷺ خيراً.

ففي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: [قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بماء يدعىٰ: خُمّاً بين مكة والمدينة فقال: أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور،

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية، والحديث في الصحيحين والمسند وبعض السنن عن جابر بن سمرة بلفظ أعم: [لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشرَ خليفة، كلهم تجتمع عليه الأمة، كلهم من قريش، ثم يكون الهرج]. وانظر السلسلة الصحيحة(962),(376) وصحيح الجامع (7580).

فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، فحث على كتاب الله وَرَغَّبَ فيه ثم قال : وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثاً][1] .

قال الإمام الطحاوي ـ في عقيدته ـ (ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس ، فقد برىء من النفاق)[2] .

* * *

(1) تخريج الطحاوية (96) .
(2) متن العقيدة الطحاوية (96) .

-22-

ـ علامات الساعة ودلائل القيامة ـ

1- العلامات الصغرىٰ

الحمد لله الذي لا يؤدي حقه المُجِدُّون ، ولا يحيط بعلمه العلماء ولا المجتهدون ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فإنه إذا تصرمت الأمور ، وتقضَّت الدهور ، أخرجهم من ضرائح القبور ، وأوكار الطيور ، وأوجرة السباع ومطارح المهالك ، قياماً صفوفاً ، رعيلا صموتا ، عليهم لبوسُ الاستكانة ، وضرع الاستسلام والذلة ، قد ضلت الحيل ، وانقطع الأمل ، ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعي . فبادروا عباد الله آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم ، وترحّلوا فقد جُدَّ بكم ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فإن الله سبحانه لم يخلقنا عبثاً ، ولم يتركنا سُدى ، وما بين الناس وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل بهم . وإن غاية تنقُصُها اللحظة ، وتَهْدِمُهَا الساعة ، لجديرة بقصرِ المدة ، وإن قادماً يقدم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدّة ، فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تَحْرزون به أنفسكم غداً ، فإنه إذا مات العبد فقد قامت قيامته ، وإن الزمن قد استدار وعادت الجاهلية ، وكثرت الفتن التي يعاقب الله بها عباده نتيجة استهتارهم بدينهم ، وظهرت البوادر الصغرى للقيامة واقتراب الساعة ، لتتبعها البوادر الكبرى وأحداث القيامة .

فقد قال الله سبحانه في سورة الروم : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : 41] .

فكان ظهور المعاصي في بر الأرض وبحرها ، في الفلوات وفي الأمصار والقرى التي على المياه والأنهار والبحار هو بكسب أيدي الناس ما نهاهم الله عنه .

فعن مجاهد : (﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ [البقرة : 205] الآية ، قال : إذا ولى سعى بالتعدي والظلم ، فيحبس الله القطر فـ (يُهلك الحرثَ والنسلَ والله لا يحب الفساد) ثم قرأ مجاهد : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ الآية .

ثم قال : أما والله ما هو بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر) .

وقال عكرمة : (إن العرب تسمي الأمصار بحراً) ، فقال : (البحر الأمصار ، والقرى ما كان منها على جانب نهر) .

وقال الحسن : (أفسدهم الله بذنوبهم ، في بحر الأرض وبرها ، بأعمالهم الخبيثة) .

وقال زيد بن رفيع : (ظهر الفساد : يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر يعني دوابه) .

وقال مجاهد : (فساد البر قتل ابن آدم ، وفساد البحر أخذ السفينة غصباً) .

وقال أبو العالية : (مَنْ عصىٰ الله في الأرض فقد أفسد في الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة)(1) .

وقال الحافظ ابن كثير في التفسير : (ومعنىٰ قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ﴾ أي بأن النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي . قال : ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود (لَحَدٌّ يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً) والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض ، ولهذا إذا نزل عيسىٰ بن مريم عليه السلام في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية ، وهو تركها ، فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا

---

(1) وتفصيل ذلك في تفسير الإمام الطبري رحمه الله .

أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض : أخرجي بركتك ، فيأكل من الرمانـة الفئام من الناس ، ويستظلون بقحفها ، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس ، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير . ولهذا ثبت في الصحيحين أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب) انتهىٰ .

وقوله ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ أي يبادلهم ثمرة عصيانهم وتعظيم شهواتهم وتنحية أمر ربهم بنقص في الأموال والأنفس والثمرات وتسليط الظالمين وأهل السوء ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إلى دينهم وربهم والقيام بما أوجبه عليهم .

وعن الحسن (لعلهم يرجعون : قال يتوبون) . وعن منصور عن إبراهيم (لعلهم يرجعون : قال إلى الحق) .

وقال قتادة : (لعل راجعاً أن يرجع ، لعل تائباً أن يتوب ، لعل مستعتباً أن يستعتب) .

وقيل : (لعله يرجع مَنْ بَعْدهم) .

وقال ابن جرير : (ليصيبهم بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوا ، ومعصيتهم التي عصوا ، كي ينيبوا إلى الحق ، ويرجعوا إلى التوبة ، ويتركوا معاصي الله) .

وفي الصحيحين عن حذيفة قال : [قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ، ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّث به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابي هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته ، فأراه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه][1] .

ونبدأ بالعلامات الصغرىٰ :

أولاً : كثرة المنكرات وهجوم الفتن :

فقد قال الله سبحانه في سورة الشورى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1993) ورواه البخاري .

وفي صحيح الإمام مسلم عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: [تُعْرَضُ الفتنُ على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأي قلب أُشرْبها نُكِتَتْ فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكِتَتْ فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير على قلبين: أبيض بمثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسودُ مِرْباداً ، كالكوز مَجْخيّاً لا يَعْرِفُ معروفاً ولا يُنكر منكراً إلا ما أُشربَ من هواه][1] .

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا][2] .

وفيه عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: [ستكون فتن ، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرَّفَ لها تستشرفه ، فمن وجد ملجأ أو معاذاً فليَعُذْ به]. ورواه البخاري ، وفي لفظ لمسلم: [تكون فتنة ، النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الساعي ، فمن وجد ملجأ أو معاذاً فليستعِذْ به][3] .

ورواه مسلم من حديث أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنها ستكون فتن ، ألا ثم تكون فتن ، ألا ثم تكون فتنة ، القاعد خير من الماشي فيها ، والماشي فيها خير من الساعي إليها ، ألا فإذا وقعَت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه . فقال رجل: يا رسول الله! أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: يعمد إلى سيفه فيدق على حدِّه بحجر ، ثم لينْجُ إن استطاع النجاء ، اللهم هل بلغت؟ ثلاثاً ، فقال رجل: يا رسول الله! أرأيت إن أُكْرِهت حتى يُنْطلقَ بي إلى أحد الصّفين ، فضربني رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار][4] .

(1) مختصر مسلم (1990) . مرباداً: أي كلون الرماد ، مَجْخِيّاً: أي مائلا منكوساً .
(2) مختصر مسلم (2038) .
(3) مختصر مسلم (2004) .
(4) مختصر صحيح مسلم (2004) .

وكذلك في الصحيحين عن أسامة بن زيد قال: أشرف النبي ﷺ على أُطُمٍ - حصن عال أو بناء مرتفع - من آطام المدينة فقال: [هل ترون ما أرىٰ؟ قالوا: لا ، قال: فإني لأرىٰ الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع المطر](1).

وعند البخاري عن أبي سعيد ، قال: قال رسول الله ﷺ: [يوشِكَ أن يكونَ خيرَ مالِ المسلمِ غنمٌ يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفِرّ بدينه من الفتن](2).

فكانت نصيحة النبي ﷺ قبل هجوم الفتن المبادرة بالأعمال العالية ، والأفعال الصالحة الرفيعة ، التي يرفع الله بها المحن عن العبد عند الفتن ، وينجيه من أهوالها ، ويحميه من الوقوع في حبالها وشباكها.

كما روى الحاكم عن أنس عن النبي ﷺ قال: [صنائع المعروف تقي مصارعَ السوء والآفات والهلكات ، وأهل المعروف في الدنيا ، هم أهل المعروف في الآخرة](3).

وكذلك روى الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: [صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، والصدقة خفّياً تُطفىء غضبَ الرب ، وصلةُ الرحم زيادة في العمر ، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة](4).

ثانياً: تضييع الأمانة وتوسيد الأمر لغير أهله.

فقد قال الله في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

وفي الصحيحين عن حذيفة قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، رأيت أحدَهما وأنا أنتظر الآخر: حدثنا: [إن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنة. وحدثنا عن رفعها فقال: ينام الرجل النومة فتقبض

(1) مختصر مسلم (1989).
(2) ورواه أحمد وأصحاب السنن إلا الترمذي. انظر صحيح الجامع (8039).
(3) السلسلة الصحيحة (1908).
(4) صحيح الجامع (3690).

الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت ـ الشيء اليسير كالنقطة ـ ثم ينام فتقبض ، فيبقىٰ أثرها مثل أثر المَجْل ـ وهو أثر العمل في اليد ـ كجمر دَحْرَجْتَهُ على رجلك ، فَنَفِطَ ، فتراه منتبراً ـ أي منتفخاً ـ وليس فيه شيء ، ويصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة ، فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، ويقال للرجل : ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبةٍ من خرْدل من إيمان][1] .

وفي جامع الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن النبي ﷺ قال : [كيف بكِ إذا أُبقيتَ في حُثالةٍ من الناس مَرِجت ـ أي فسدت ـ عهودهم وأماناتهم؟ واختلفوا فكانوا هكذا؟ وشبك بين أصابعه . قال : فبم تأمرني؟ قال : عليك بما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بخاصة نفسك ، وإياك وعوامَّهم] ، وفي رواية : (الزم بيتك ، واملك عليك لسانك ، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ، وعليك بأمر خاصةِ نفسك ، ودع أمر العامة) وسنده صحيح .

وراه ابن ماجه بلفظ : (كيف بكم بزمان يوشِك أن يأتيَ يُغَرْبلُ الناس فيه غربلة ، ويبقى حُثالةٌ من الناس ، قَدْ مَرِجَتْ عهودهم ، وأماناتهم ، واختلفوا وكانوا هكذا (وشبك بين أصابعه)؟ تأخذون بما تعرفون ، وتدعون ما تنكرون ، وتقبلون على أمر خاصتكم ، وتذرون أمر عامتكم)[2] .

وفي صحيح الإمام البخاري عن أبي هريرة قال : [بينما كان النبي ﷺ يُحدِّثُ إذ جاء أعرابي فقال : متىٰ الساعة؟ قال : (إذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظر الساعة) . قال : كيف إضاعتها؟ قال : (إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة)][3] .

فإذا ظهر الغدر بالعهد وإضاعة الأمانة ودنت الساعة ، سارع المسلم إلى تصفية حقوق الناس حتىٰ لا يحشره الله مع الغادرين والخائنين ، كما قال جل ثناؤه في وصف المؤمنين في سورة المؤمنون : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ . وكما قال في سورة النساء : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ .

---

(1) مختصر مسلم (2035) .
(2) صحيح الجامع (4470) .
(3) صحيح البخاري : العلم (2) .

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال: [لكل غادر لواءٌ يُعْرَفُ به يومَ القيامة][1].

ورواه مسلم عن أبي سعيد بلفظ: [لكل غادر لواء عند اسْتِهِ يومَ القيامة][2].

وفي لفظ آخر: (لكل غادر لواء يوم القيامة، يُرْفَعُ له بقَدْرِ غَدْرَتِهِ، ألا ولا غادرَ أعظمُ غدراً من أمير عامة)[3].

ورواه البخاري عن ابن عمر بلفظ: (لكل غادر لواء ينصبُ بغَدْرَتِهِ)[4].

فنعوذ بالله من أكل حقوق الناس أو الغدر بالعهد أو تضييع الأمانة.

ثالثاً: ظهور دعاة الضلالة، والنفاق، والأمر بالمنكر:

فقد قال الله في سورة التوبة: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وفي الصحيحين عن حذيفة قال: [كان الناسُ يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسألُه عن الشر مخافة أن يدركني، قال: قلتُ: يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلتُ: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن - أي غير صاف ولا خالص - قلت: وما دَخَنُهُ؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هَدْيي، تعرف منهم وتُنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله! صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزمُ جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

---

(1) البخاري (301/2) ومسلم، وأحمد (142/3).
(2) مسلم (142/5).
(3) وانظر مسند أحمد (7/3)،(61/3)،(19/3).
(4) صحيح الجامع (5046).

قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يُدْرِكَكَ الموتُ وأنت على ذلك][1].

وفي رواية لمسلم: (يكون بعدي أئمة لا يهتدون بُهداي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال، قلوبهم قلوبُ الشياطين في جثمان إنس. قال حذيفة: قلت: كيف أصنع يا رسول الله! إن أدركت ذلك؟ قال تسمَعُ وتطيعُ الأمير، وإن ضُرب ظهرك، وأخِذَ مالك فاسمع وأطع).

ورواه أبو داود بلفظ: (قلت يا رسول الله! أيكون بعد هذا الخير شر، كما كان قبله شر؟ قال: نعم، قلت: فما العصمة؟ قال: السيف، قلتُ: وهل بعد السيف بقية؟ قال: نعم، تكون إمارة على أقذاء، وهدنة على دخن. قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم ينشأ دعاةُ الضلال، فإن كان لله في الأرض خليفة جَلَدَ ظهرك، وأَخَذَ مالكَ، فأطِعْه، وإلا فمتْ وأنت عاضٌّ على جَذْلِ شجرة] أي على أصل شجرة.

وفي رواية: [فإن مُتَّ يا حذيفة! وأنت عاض على جَذْلِ خير لكَ من أن تتبعَ أحداً منهم][2].

ولذلك حذّر النبي ﷺ كثيراً من ظهور دعاة الزيغ والهوى، الذين يفتنون الناس بلسانهم وبأساليب منطقهم، وطريقة كلامهم، ليكون المسلمون على بصيرة من دينهم، ألا يقعوا في الشبهات المهلكة.

فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلّون][3].

ورواه عن عمر أيضاً بلفظ: [إن أخوف ما أخاف على أمتي كلُّ منافقٍ عليم اللسان][4].

---

(1) البخاري في الفتن ومسلم في الإمارة.
(2) أخرجه أبو داود (4247) وأحمد (403/5) وانظر السلسلة الصحيحة (1791).
(3) صحيح الجامع (1547).
(4) السلسلة الصحيحة (1013).

ورواه الطبراني والبيهقي من حديث عمران بن حصين بلفظ: [إن أخوفَ ما أخافُ عليكم بعدِي كلُّ منافقٍ عليمِ اللسان][1].

فإنه مع اقتراب الساعة يقبض الله العلماء، ويبقىٰ حثالة من الناس يُقَدِّمُونَ من يغنيهم ويطربهم ليفتيهم، ومَنْ هم رؤوس في الجهل ليحكم بينهم.

فقد أخرج الستة عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: [إن الله تعالى لا يَقْبِضُ العِلمَ انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالا، فَسُئِلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلّوا][2].

ورواه الطبراني بسند حسن عن أبي هريرة بلفظ آخر: [إن الله لا ينزعُ العلمَ منكم بعدَما أعطاكموه انتزاعاً، ولكن يقبضُ العلماءَ بعلمهم، ويبقىٰ جُهّال، فيُسألونَ فيُفتون، فَيَضِلُّونَ ويُضِلّون][3].

وأخرج ابن المبارك في الزهد والطبراني في الكبير بسند جيد عن أبي أمية الجمحي، أن رسول الله ﷺ قال: [إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر][4].

قال ابن المبارك: (الأصاغر: أهل البدع).

رابعاً: فشو الجهل وغياب العلم وانتشار الهرج وهو القتل:

فقد ربط بينها رسول الله ﷺ في حديث واحد، كما أخرج الترمذي وابن ماجه بسند صحيح عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [إن من ورائكم أياماً ينزلُ فيها الجهل، ويُرْفَعُ فيها العلم، ويكثرُ فيها الهرجُ: القتل][5]. قلت: ولا شك أن قبض العلم ورفعه بموت العلماء ـ علماء الإسلام ـ وعدم وجود من يخلفهم.

---

(1) تخريج الترغيب (78/1) وصحيح الجامع (1552).
(2) صحيح الجامع (1850).
(3) حسن. صحيح الجامع (1857).
(4) صحيح الجامع (2203).
(5) صحيح الجامع (2229).

وأصل معناه في الصحيحين[1] ، وفي لفظ للإمام مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [والذي نفسي بيده ، لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يومٌ لا يدري القاتلُ فيمَ قَتَل؟ ولا المقتول فيم قُتِل؟ فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: الهَرْجُ ، القاتل والمقتول في النار].

وفصّل عليه الصلاة والسلام في أثر غياب العلم ومنهج النبوة في التغيير ، وما يكون منه من انتشار للهرج والقتل ورخص الأرواح.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي موسىٰ الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: [إن بين يدي الساعةِ الهرج ، قالوا: وما الهرج؟ قال: القتل ، إنه ليس بقتلكم المشركين ، ولكن قَتْلُ بعضكم بعضاً ، حتى يقتل الرجل جاره ، ويقتل أخاه ، ويقتل عمه ، ويقتل ابن عمه. قالوا: ومعنا عقولنا يومئذ؟ قال: إنه لتُنْزَعُ عقول أهل ذلك الزمان ، ويَخْلِفُ له هباء من الناس ، يحسب أكثرهم أنهم على شيء ، وليسوا على شيء]وهو صحيح لغيره[2].

قال أبو موسىٰ: (والذي نفسي بيده ما أجد لي ولكم منها مخرجاً إن أدركتني وإياكم ـ إلا أن نخرج منها كما دخلنا فيها ، لم نصب منها دماً ولا مالاً).

ولذلك أوصىٰ عليه الصلاة والسلام عند اشتداد الهرج في الأمة وفشو القتل ، بعدم الخوض في الفتنة ، وبكسر السيف ولزوم البيت وجماعة الحق ، وبالانكباب على العلم والاهتمام بدقائق منهج النبوة.

فقد أخرج الإمام مسلم عن معقل بن يسار ، قال: قال رسول الله ﷺ: [العبادة في الهرج كهجرة إلي][3].

ولقد ربط النبي ﷺ أحسن الربط بين غياب العلم وانتشار القتل وكأنه يعيش معنا في زماننا هذا ، فإن العلم يحتاج إلى رجال وإلى حسن انصراف ، وإلى تفرغ وتقلل من الحياة الدنيا ، وإلى صبر وبناء وتربية وتصفية ، وهذا ما لا يجده كثير من

---

(1) البخاري (368/4) ومسلم (58/8-59).
(2) صحيح الجامع (2043).
(3) رواه مسلم في الفتن ، وأحمد (25/5).

المسلمين اليوم في حياتهم ، فينصرفون وراء تلك التجمعات الهزيلة التي تخوض في أوحالٍ جاهلية من تقليد لغير المسلمين في المراوغة للوصول بأي طريق ، ويأبىٰ الله ورسوله إلا منهاج الوحي ، منهاج النبوة.

يروي ابن حبان في صحيحه عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً: [إن بين يدي الساعة لفتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، القاعد فيها خير من القائم ، والماشي فيها خير من الساعي ، فكسِّروا فيها قِسِيَّكم[1] ، وقَطِّعوا فيها أوتاركم ، واضربوا سيوفكم بالحجارة ، فإن دُخِل على أحد منكم فليكن كخير ابني آدم[2]] ورواه أبو داود وسنده صحيح[3].

إن تورط بعض القاصرين من المسلمين اليوم في كثير من أنحاء الأرض بأعمال القتل ظناً منهم أنهم ينتصرون للإسلام ، إنما هو دلالة على غياب منهج النبوة في حياتهم ، وعدم إدراك وفهم المنهج الإلهي في التغيير ، كما هو إشارة إلى ضعف تلك القيادات الوهمية التي نصبّت نفسها أو نُصِّبَتْ من غيرها مدعية الحل والإنقاذ ورؤية المستقبل ، والناس من حولهم يدفعون ثمن هذا التهور وغياب العلم ، في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، فنعوذ بالله من تخبط الجاهلين.

خامساً: تقارب الزمان وظهور الشح ورفع البركة.

فإن من عقوبات الله في عباده عند تخليهم عن دينهم وعدم أخذهم له بقوة وانصرافهم إلى الشهوات التي تصبح أهم لهم في حياتهم من الإسلام والدعوة إليه والصبر على البناء والجهاد ، أن يرفع البركة من حياتهم وأوقاتهم ، فتمر الأيام كالساعات والشهور كالأسابيع والسنوات كالشهور ، ولا فائدة ترجىٰ لديهم في أوقاتهم.

ففي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يتقارب الزمان ،

---

(1) جمع قوس.

(2) وخيرهما هو هابيل.

(3) الإرواء (2517) والسلسلة الصحيحة (1535).

ويُقْبَضُ العلم ، ويُلقىٰ الشح ، وتَظهر الفتن ، ويكثر الهرج ، قيل : وما الهرج؟ قال : القتل][1] .

فتَظهر صور من الشح والطمع في الحياة نتيجة تسابق الناس إلى حطام الدنيا وجمع الأموال ، وترك الالتفات إلى إصلاح القلب والسريرة والاستعداد للموت ، وكنتيجة لذلك يرفع الله البركة في الأرض من أثر الغش وكثرة الحلف الكاذب والتكالب على الدنيا ، ويرفع بركة الوقت فما يرى الناس إلا والموت يفجؤهم .

يروي الحاكم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : [اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حِرصاً ، ولا يزدادون من الله إلا بُعدا] وسنده حسن[2] .

وفي المسند وجامع الترمذي بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال : [لا تقوم الساعةُ حتى يتقاربَ الزمان ، فتكونَ السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، وتكون الجمعة كاليوم ، ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كالضّرمة بالنار][3] .

سادساً : ظهور الكذابين ومدعي النبوة .

روى مسلم عن جابر بن سَمُرة ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول : [إن بين يدي الساعة كذابين ، فاحذروهم][4] .

وروى أحمد ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [يكون في آخر الزمان دجالون كذّابون ، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم ، لا يُضلونكم ولا يفتنونكم][5] .

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ثوبان ، قال : قال رسول الله ﷺ : [إذا وُضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبُدَ قبائلُ من أمتي الأوثان ، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبيّ الله ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبيَّ بعدي ،

---

(1) مختصر مسلم (1857) ورواه البخاري .
(2) صحيح الجامع (1157) .
(3) تخريج المشكاة (5448) وصحيح الجامع (7299) .
(4) مختصر مسلم (1196) .
(5) صحيح الجامع (8007) .

ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمْرُ الله][1] ، وبعضه في صحيح الإمام مسلم .

ففي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [لا تقوم الساعة حتى يُبعثَ دجالون كذّابون ، قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله][2] .

وفي المسند عن أبي هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : [سيكون في أمتي دجالون كّذابون يحدثونكم ببدع من الحديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يفتنونكم] ، وفي لفظ : [بين يدي الساعة قريبٌ من ثلاثين دجالين كذابين ، كلهم يقول : أنا نبي ، أنا نبي] . وفي لفظ من طريق ابن عمر : [إن بين يدي الساعة ثلاثين دجالا كذابا][3] . وفي لفظ عنده وعند الطبراني عن حذيفة : [في أمتي كذابون ودجّالون ، سبعة وعشرون ، منهم أربعُ نسوة ، وإني خاتِم النبيين ، لا نبيَّ بعدي][4] .

سابعاً : كثرة النساء وقلة الرجال ، وظهور الكاسيات العاريات وانتشار الزنا والخمر .

ففي الصحيحين عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إن من أشراط الساعة أن يُرفعَ العلم ، ويكثرَ الجهل ، ويكثرَ الزنا ، ويَكثرَ شربُ الخمر ، ويقلَّ الرجال ، وتكثرَ النساء ، حتى يكون لخمسين امرأةً القيم الواحد[5]][6] . وفي رواية (يقلَّ العلم ، ويظهرَ الجهل) ، والمقصود بكثرة الجهل : أي الجهل بالدين .

وفي سنن ابن ماجه عن أبي أمامة ، قال رسول الله ﷺ : [لا تذهب الأيام

---

(1) تخريج المشكاة (5406) .
(2) مختصر مسلم (2023) .
(3) صحيح الجامع (2044) .
(4) صحيح الجامع (2044) .
(5) أي أن الرجل الواحد يقوم على مصالحهن ، وليس بالمراد أنهن كلهن زوجاته بل قد يكون فيهن الزوجة إلى الأربع والباقي من قريباته كالعمات والخالات والأخوات ونحو ذلك .
(6) صحيح الجامع (2202) .

والليالي ، حتى تشرب طائفة من أمتي الخمرَ ، يسموها بغير اسمها][1] .

وفي المسند عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : [لتستحلن طائفة من أمتي الخمر باسم يسمونها إياه][2] .

وفي رواية من طريق أبي مالك الأشعري : [ليشربن أناس من أمتي الخمر ، يسمونها بغير اسمها] .

ورواه ابن ماجه وابن حبان والطبراني عن أبي مالك الأشعري أيضاً بلفظ : [ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بِغير اسمها ، ويُضرب على رؤوسهم بالمعازف والقيْنات ، يخسِفُ الله بهم الأرَض ، ويجعل منهم قردةً وخنازير][3] .

فإذا انتشر الخمر ، انتشر التعري وظهر الزنا ، كعلامة للسكر وتجاهل حرمات الله ، ولذلك جاء في صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [صنفان من أهل النار لم أرهُما بعدُ : قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البُخْت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحَها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا][4] .

لقد كان هناك بعض الصعوبة في فهم حالة النساء اللائي وصفهن رسول الله ﷺ بأنَّهُنَّ سَيَخْرُجْنَ في آخر هذه الأمة ، وأنّهن كاسياتٌ عاريات . وقد يحتار الإنسان ، كيف تكون المرأةُ كاسيةً وعاريةً في آن واحد ، حتى رأينا ذلك في زَمَنِنا ، فلِلمَرأة كِساءٌ ، ولكنه ضَيِّقٌ أو شفَّاف يصفِ الجسم ويُظهره ، أولَها الملابس الكثيرة ، ولكنها تُفَصِّلُها قصيرة ، أو تكون لابسة كاسية في بعض الأماكن ، متعرِّية في أماكن أخرىٰ . وهُنَّ أيضاً مائلات مميلات ، وقد اكتمل المَيْلُ عن الطريق المستقيم ، والتمايل بالأجساد ، حتى وضعوا لَهُنَّ في أحذيتهن كعوباً عالية ، لاستكمال الميل

(1) صحيح الجامع (7150) .
(2) صحيح الجامع (4945) .
(3) السلسلة الصحيحة (90-91) .
(4) أخرجه مسلم (155/8) وأحمد (355/2-356) . وقوله «معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس» إشارة إلى الذين يعتدون ظلماً على الناس فيضربونهم بالسياط .

في الأجسام ، وَهُنَّ بهذا المَيْل مميلات لكثير من الشباب مُضِلَّات لهم بِفِتْنَتِهِنَّ المَعْروضَة. ورؤوسهن كأسنمة البُخْت المائلة : أي كأسنمة الجِمال المائلة . وهذا ما نشاهده في زماننا ، مِصداقاً لحديث رسول الله ﷺ الذي كشف الله له هذا الغَيْبَ قبل ألفٍ وأرْبَعَمائةِ عام .

وقد سُعِّرت الأرض اليوم بألوان الشذوذ الجنسي والانحراف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وصار الزنا والاغتصاب والفواحش بين الرجال بعضهم بعضاً وبين النساء بعضهن بعضاً مما يكثر سماعه اليوم في الأرض ، وهو من الأخبار التي تشكل رواجا وتجارة بين طائفة كبيرة من الناس ، وقد سمعت كثيراً عن هذه الظواهر في أمريكا وأوربا وشاهدت انحلال الغرب أيام التخصص في الولايات المتحدة .

ففي الصين نشأت ظاهرة وأد البنات نتيجة سياسة تحديد الإنجاب ، ومع انهيار الشيوعية والهجرة للبحث عن العمل ظهر خروج جماعي لنساء أوربا الشرقية يتسابقن لبيع أنفسهن مقابل وهم الحياة الرغدة ، لتصطف ثلاثمائة فتاة في ليلة كل سبت على الطريق التشيكي الواصل بين برلين وبراغ بألبسة مغرية ، ليلتقط سائقو الشاحنات والعمال فتاة بثلاثين دولاراً لمدة نصف ساعة . وقد لاحقت الشرطة في هولندا وبلجيكا وألمانيا شبكات نجحت باصطياد ثلاثة آلاف امرأة من العالم الشرقي وأمريكا اللاتينية وآسيا وأوروبا الشرقية بحيلة العمل كمضيفات وراقصات ، يباغتن عند وصولهن بمصادرة أجورهن لسداد قيمة البطاقات المزورة وبطاقات الطائرات اللاتي أرسلت لهن للقدوم ، فيجبروهن بذلك على البغاء .

وقد أكد مؤتمر المنظمات النسائية عام 1991 : (أن هناك ما يقرب من ثلاثين مليون امرأة تمَّ بيعهن منذ منتصف السبعينات في سائر أنحاء العالم) .

تقول فرانسيس ميرت رئيسة جمعية الملجأ الإنسانية ببروكسل : (الكثير من هؤلاء الفتيات أسنانهن محطمة ، وعادة ما يقلن إنهن سقطن من على الدرج ، لكنهن كثيرات إلى حد يوحي بأن درج هذه المهنة هو أسوأ درج في العالم ، وأن هؤلاء الفتيات يتعرضن لِلَكْمِ العنيف) .

فتكسر هذه العصابات أسنانهن لإجبارهن على البغاء ، وترويج الأرباح من هذا الرقّ الحديث ، رِقِّ القرن العشرين ، وإفراز الحضارة المادية المفلسفة .

ويقول مفتش الشرطة جيرد هايتزر : (تحدث عمليات اغتصاب جماعية لتحطيم إرادتهن ، وفي نهاية المطاف تستسلم الضحايا ، وعندئذ يتم تدويرهن على ملاهي أوربا بتصاريح عمل مؤقتة بوصفهن فنانات) .

وأذكر يوماً في أمريكا ، عرض فيه التلفاز الأمريكي والصحف قصة رجل له أربع بنات ، ينام في كل ليلة مع واحدة من بناته ، وله من كل واحدة منهن أولاد . كما عرضت ندوة تلفزيونية حول الأسرة في تلك الأيام قصة رجل آخر طلق زوجته وله منها ابنتان فاختارت واحدة منهن الحياة مع أمها واختارت الأخرىٰ الحياة مع أبيها ، فكان الأب يفحش بابنته التي آثرت البقاء معه وشاعت في ذلك قصة قبيحة ، حتى أذكر أن المذيع للبرنامج قد عرض على تلك الفتاة أن يتكفل هو بنفقتها على أن تترك والدها فقالت : لا أستطيع ، إني قد تعلقت به .

فهذه هي صورة الأسرة في المجتمع الغربي ، وتلك هي قيمة المرأة التي ينادون بتحررها من أجل أن ينهكوا عرضها وشرفها ، ويستعبدوها على طريقتهم .

وأما ظاهرة بغاء الأطفال فهي أشد وأدهىٰ ، ففي شوارع موسكو اليوم أكثر من ألف من الأولاد والفتيات الصغار ، يبيعون أجسادهم . وفي تايلند أكبر هذه الأرقام في العالم ، فقد احتلت المرتبة الأولى في انتشار بغاء الأطفال ، فيها : ثمانمائة ألف من هؤلاء المشردين .

بينما تَصَدَّرَت الهند المرتبة الثانية في العالم وحصلت على أربعمائة ألف كمجموع المشردين في بغاء الأطفال . بينما حازت البرازيل على المرتبة الثالثة : مئتان وخمسون ألفاً في مسابقة هذا الانحلال والتدلي .

وجاء في المرتبة الرابعة : الفيليبين : ستون ألفاً . ثم الصين والولايات المتحدة الأمريكية .

أطفال يهربون من أبوين قاسيين أو بسبب الاضطهاد الجسدي أو الجنسي الذي تعرضوا له من آبائهم وداخل أسرهم ، ليخرجوا إلى الطرقات فيسقطوا صرعىٰ الإدمان والمخدرات والشذوذ ومرض الإيدز .

وقد تدفق الأوربيون والأستراليون واليابانيون والأمريكيون في الآونة الأخيرة

بالآلاف ، للاستمتاع في جنوب شرق آسيا بأبناء تايلند والفيليبين وسيريلانكا ، الأمر الذي يكلفهم سنوات في السجون لو فعلوه في بلادهم ، مستغلين بذلك ضعف أنظمة بعض هذه البلدان .

ولذلك صرح الطبيب الراهب الفرنسي فرانسوا ليفور حيث قال : (إننا نعيش في عالم مليءٍ بالتناقضات والأكاذيب والجبن . إن هذه المشكلة ليست فقط مشكلة بانجوك أو كولومبو أو مانيلا ، بل إنها مشكلة باريس وبروكسل وروما . إنها مشكلة الرجال البيض المتأنقين المحترمين ، الذين يذهبون إلى هناك لكي يغتصبوا هؤلاء الأطفال) .

فأخذ مرض الإيدز اليوم يفتك بأجساد الأطفال ، كما فعل بأجسام النساء والرجال الذين آثروا الزنا على الزواج وكانوا بذلك علامة من علامات الساعة .

لقد حقّ في هذه الأمم قول الله سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه : 124] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف : 36-37] .

وفيما يروي ابن ماجه والبزار والبيهقي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : [يا معشر المهاجرين : خصال خمس إن ابتُليتم بهن و نزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قطُّ حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم . . .] الحديث(1) .

فإنه لن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

ثامناً : كثرة الزلازل وظهور المسخ والقذف والخسف .

فقد قال الله سبحانه يحكي قصة أقوام مكروا فزلزل الأرض من تحتهم : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل : 26] .

---

(1) صحيح الجامع (7855) .

وفي صحيح الإمام البخاري ومسند الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقوم الساعة حتىٰ يقبضَ العلم ، وتكثرَ الزلازل ، ويتقاربَ الزمانُ ، وتظهرَ الفتنُ ، ويكثرَ الهرجُ . وهو القتل](1) .

وفي جامع الترمذي بسند صحيح من حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: [في هذه الأمة خَسْفٌ ، ومَسْخٌ ، وقذْف ، إذا ظهَرت القِيانُ والمعازِفُ ، وشُرِبَت الخمورُ](2) .

وفي رواية من حديث ابن عمر بلفظ: [في هذه الأمة خسْف ، ومسخٌ وقذف ، في أهل القدر](3) .

ورواه الحاكم عن عبد الله بن عمرو بلفظ: [في أمتي خسْفٌ ومَسْخٌ وقذفٌ] .

ورواه ابن ماجه من طريق عبد الله عن النبي ﷺ بلفظ: [بين يدي الساعة مسخٌ ، وخَسْفٌ ، وقَذْف](4) .

ورواه الترمذي من حديث عائشة بلفظ: [يكون في آخر هذه الأمة خسْف ومسْخ وقذْف. قالت: قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخَبثُ](5) .

ورواه من طريق عمران بن حصين وفيه (فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذاك؟ قال: إذا ظهرت القَيْناتُ والمعازِفُ وشُرِبَت الخمور) .

وقد جعل الله سبحانه الزلازل والفتن والقتل عذابا لهذه الأمة في الدنيا عند انحرافها وتساهلها في ما يسخط الله عز وجل .

كما يروي أبو داود وأحمد والحاكم بسند جيد عن أبي بردة عن أبي موسىٰ قال:

---

(1) صحيح الجامع (7305) .
(2) صحيح الجامع (4149) .
(3) صحيح الجامع (4150) .
(4) السلسلة الصحيحة (1787) وصحيح الجامع (2853) .
(5) السلسلة الصحيحة (987) وصحيح الجامع (8012) .

قال رسول الله ﷺ: [أمتي أمة مرحومة ، ليس عليها عذاب في الآخرة ، عذابُها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل].

وفي رواية عند الحاكم: قال أبو بردة: (أعجب من قوم دينهم واحد ، ونَبِيُّهُم واحد ، ودعوتهم واحدة ، وحجهم واحد ، وغزوهم واحد ، يستحِل بعضهم قتل بعض . فقال له رجل من الأنصار: فلا تعجب فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [أمتي أمتي مرحومة ، ليس عليها عذاب في الآخرة ، عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل][1].

فالهلاك والزلازل يبعثها الله على حين غفلة من الناس وتكالب على الدنيا وتزاحم على جمع الأموال والحطام وعدم اكتراث من الأمة بمستقبلها بعد الموت ، ولا بِنُصرة دينها الذين خلقت له ، ولا بالجهاد في سبيل الله الذي فيه عز الدنيا والآخرة ، وأخطر من ذلك تأويل القرآن بما يتماشىٰ والأهواء والشهوات وبما يشكك الأمة في دينها.

يروي الإمام أحمد في المسند عن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [هلاك أمتي في الكتاب واللبن ، قالوا: يا رسول الله! ما الكتاب واللبن؟ قال: يتعلمون القرآن فيتأولونه على غير ما أنزل الله عز وجل ، ويحبون اللَّبَنَ فيدعون الجماعات والجمع ويَبْدون[2]][3].

تاسعاً: التكذيب بالقدر والإيمان بالنجوم وحيف السلطان:

فقد أخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [إن أخوف ما أخافُ على أمتي في آخر زمانها النجوم ، وتكذيبٌ بالقدر ، وحيفُ السلطان][4].

---

(1) ورواه أبو داود والطبراني من حديث أبي موسىٰ بلفظ: [أمتي هذه أمة مرحومة ، ليس عليها عذاب في الآخرة ، إنما عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل والبلايا]. انظر صحيح الجامع (1392) والسلسلة الصحيحة (957).

(2) أي يخرجون للبادية لطلب مواضع اللبن في المراعي إذ هو أهم عندهم من أمر دينهم ، كناية عن عدم اهتمامهم بأمر آخرتهم.

(3) السلسلة الصحيحة (2778) وقد مضىٰ.

(4) صحيح الجامع (1549).

وفي المسند للإمام أحمد بسند صحيح عن أبي أمامة مرفوعاً : [يكون في هذه الأمة في آخر الزمان رجال معهم سياط كأنها أذناب البقر ، يغدْون في سخط الله ، ويروحون في غضبه][1] إشارة لشرطة آخر الزمان.

وأخرج أبو يعلىٰ في مسنده عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يكون أمَراء فلا يُرَدُّ عليهم (وفي رواية: فلا يرد عليهم قولهم) ، يتهافتون في النار ، يتْبَعُ بعضُهم بعضاً] وإسناده حسن ، وله طريق آخر عند أبي يعلىٰ عن أبي قبيل قال:

[خطبنا معاوية في يوم جُمعة ، فقال: إنما المالُ مالُنا ، والفيء فيئُنا ، من شئنا أعطينا ، ومن شئنا منعنا ، فلم يَرُدَّ عليه أحد ، فلما كانت الجمعة الثانية قال مثل مقالته ، فلم يَرُدَّ عليه أحد ، فلما كانت الجمعة الثالثة قال مثل مقالته ، فقام إليه رجل ممن شهد المسجد ، فقال: كلاّ ، بل المال مالنا ، والفيء فيئنا ، من حال بيننا وبينه حاكمناه بأسيافنا ، فلما صلى أمر بالرجل فأدخل عليه ، فأجلسه معه على السرير ، ثم أذن للناس فدخلوا عليه ثم قال: أيها الناس إني تكلمت في أول جمعة فلم يردَّ عليَّ أحد ، وفي الثانية ، فلم يرد عليَّ أحد ، فلما كانت الثالثة أحياني هذا ، أحياه الله ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيأتي قوم يتكلمون فلا يردُّ عليهم ، يتقاحمون في النار تقاحم القردة) فخشيت أن يجعلني الله منهم ، فلما ردّ هذا عليَّ أحياني ، أحياه الله ، ورجوتُ أن لا يجعلني الله منهم] ورجاله ثقات[2].

فإذا فشا التكذيب بالقدر ، وراجت تجارة المنجمين والكذابين والمشعوذين ، وظهر الأمراء المستبدون فذلك من علامات اقتراب الساعة.

عاشراً: تزيين وزخرفة المساجد والتباهي بذلك:

وهذه الحالة رأيتها في أمريكا أيام التخصص ، كما هي منتشرة اليوم أيضاً في

---

(1) رواه أحمد في المسند (250/5) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1893).

(2) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (1781/4)،(1779/4) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1790).

كثير من بلاد ومساجد المسلمين ، فترىٰ المسجد الذي أنفق عليه الملايين الكثيرة من الأموال في المبالغة في الزخرفة والزينة ليصرف الناس عن الخشوع في الصلاة إلى التأمل في صنعة المزخرفين وأهل النحت والتصوير ، بينما هو في المقابل لا يعمره الرجال ، وربما لا تقام فيه كثير من الصلوات كما هو الحال في بعض ما رأيت من المساجد في الولايات المتحدة والتي تبرع بها أصحاب أموال من المسلمين ، كان أولىٰ بهم أن ينفقوا هذه الأموال على حاجات الأمة المستعصية كأزمة البيوت وما يساهم في تزويج الشباب ، وَكَعَوْنِ المحتاجين والفقراء في أمة الإسلام ، وعلاج المرضىٰ وتهيئة الدعاة وطلاب العلم وحملة لواء الإسلام.

لقد تنبأ النبي ﷺ عن ذلك ، كما روى الإمام أحمد وابن حبان عن أنس عنه قال: [لا تقوم الساعة حتىٰ يتباهىٰ النـاسُ في المساجد] ورواه أبو داود وسنده صحيح[1].

والأمة بذلك قد تنكبت طريق نبيّها وهدي خلفائه من بعده ، وأصابها مرض تقليد الأعاجم في زخرفة كنائسهم وبيعهم والمباهاة والمفاخرة بذلك ، وصرف معنى العبادة إلى معانٍ من الدنيا.

كما يروي البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي أخذ القرون قبلها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، قيل يا رسول الله! كفارس والروم؟ قالَ: ومَنِ الناس إلا أولئك][2].

وله شاهد عند الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً: [لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وباعاً بباع ، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب دخلتم ، وحتى لو أن أحدهم ضاجع أمه بالطريق لفعلتم] وسنده صحيح[3].

وقد اعتبر النبي ﷺ الاهتمام بزخرفة المساجد وتحلية المصاحف وتزيينها والمبالغة في ذلك علامة هلاك الأمة وحصول الدمار فيها.

---

(1) صحيح أبي داود (475) وصحيح الجامع (7298).

(2) صحيح الجامع (7285).

(3) وله روايات أخرىٰ في صحيح الجامع برقم (4939),(4943). وانظر السلسلة الصحيحة (1348).

فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف بسند حسن عن سعيد بن أبي سعيد مرفوعاً: [إذا زوقتم مساجدكم ، وحليتم مصاحفكم ، فالدمار عليكم][1] .

وله شاهد موقوف عن أبي الدرداء أخرجه عبد الله بن المبارك ولفظه: [إذا زخرفتم مساجدَكم ، وحليتم مصاحفكم ، فالدمار عليكم][1] ـ.

وجملة القول فإن إسرافاً في الأموال يحصل في الأمة اليوم بشأن زخرفة المساجد تستدرج به عواطف المسلمين ليبذلوا أموالهم ، وهم يتوهمون أنهم بذلك يرضون ربهم ليستر على ذنوبهم ، فهم يبذلون وينفقون لإعمار مساجده أجمل من بيوتهم المليئة بالصور والزخارف وترف الحياة الدنيا ، وإنما ذلك من علامات اقتراب الساعة لو كانوا يعلمون ، في وقت أحوج ما تحتاج فيه الأمة إلى هذه الأموال لتوضع في معالجة مشكلاتها العضال. وصدق النبي ﷺ حيث قال: [من أشراط الساعة أن يتباهىٰ الناس في المساجد][2] .

حادي عشر: ترك حج البيت وإهمال الصلاة في المسجد وتحول قبلة كثير من المسلمين إلى بلاد الشهوات.

فإنه مع اقتراب الساعة يتباهىٰ الناس بالحج إلى بلاد أوربا وأمريكا ورؤية آخر الموضات والصرعات وحركات الهوى والشياطين ، وربما كان هؤلاء ممن لم يَحُجّوا بيت الله الحرام بعد ، وهم مقتدرون مستطيعون ، فضلاً عن أن أحدهم يمر بالمسجد فلا يدخل حتى لصلاة الجماعة . وأما بيوتهم فقد تحولت فيها القبلة ، لتُوَجه الصحون من على شرفاتهم إلى عورات الشرق والغرب ورؤية أسفل ما انحطت إليه البشرية من الانحطاط والشذوذ الخلقي وممارسة الفواحش والرذيلة ، وكثيراً ما أَنْصَرِفُ من صلاة العشاء ، وأُبْصِرُ بعض الشباب والرجال على شرفاتهم في الأبنية المجاورة للمسجد وهم يتحكمون في توجيه هذه الصحون إلى قبلتهم الجديدة وهي فروج الزانيات ، فإن القبلة قد تطورت معهم مع تطور الزمن.

---

(1) حسن. السلسلة الصحيحة (1351) وصحيح الجامع (599).

(2) صحيح أبي داود (275) من حديث أنس.

يروى ابـن حبان والحاكم بسنـد صحيح عن أبـي سعيـد عـن النبي ﷺ قال: [لا تقوم الساعة حتى لا يُحجَّ البيت][1].

وفي صحيح ابن خزيمة بسند لابأس به عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً: [إن من أشراط الساعة أن يمر الرجل في المسجد لا يصلي فيه ركعتين][2].

ثاني عشر: مشاركة المرأة لزوجها في التجارة وحضورها في السوق مع التجار وتسليم الخاصة.

وهذه الظاهرة قد تفشت في أسواق الناس اليوم في بلدان كثيرة، فترىٰ المرأة تشارك في التجارة والبيع وعرض البضاعة، سواء مع زوجها أو مع غيره، وكثيراً ما تكون عرضة للفتنة من الشباب الذين خرجوا بقصد رؤيتها ومحادثتها وجرّها إلى ما يريدون لا بقصد الشراء والتسوق، وقد تفقد بهذا العمل أثمن شيء في حياتها نتيجة استغلال أصحاب العمل لها، وهذا ما رأيته يحصل في بلاد أمريكا وأوربا، لتصبح المرأة سلعة مثل البضاعة يساوم عليها، وكان أولىٰ بها أن تحفظ ما سترها الله به من العفاف والأنوثة والجمال، من أن تعرض ذلك لعبث اللاهين وتجارة الفاسدين.

أخرج الإمام أحمد في المسند عن طارق بن شهاب عن النبي ﷺ قال: [إن بين يدي الساعة تسليمَ الخاصة، وفُشُوَّ التجارة، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطْعَ الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهور القلم][3]. وفي رواية للبخاري: (وفُشوَّ القلم، وظهور الشهادة بالزور، وكتمان شهادة الحق).

وله شاهد عند الطيالسي في مسنده بسند جيد عن عمرو بن تغلب قال: سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: [.. وإن مـن أشـراط السـاعـة أن يكثـر التجـار، ويظهـر القلم][4].

---

(1) صحيح الجامع (7296).

(2) السلسلة الصحيحة (649).

(3) أخرجه أحمد في المسند (1/407-408) وانظر السلسلة الصحيحة (647).

(4) مسند الطيالسي (1171) والسلسلة الصحيحة ج 2 ص 251.

قلت: وفشو القلم أي كثرة استخدام القلم ، وهو دليل على كثرة القراءة والكتابة.

وأما تسليم المعرفة أو الخاصة فهو أن يسلم الرجل على من يخصه بمصلحة دون غيره ، وقد رأينا ذلك في هذا الزمان.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند والطبراني في المعجم الكبير بسند جيد عن الأسود بن يزيد قال: [أقيمت الصلاة في المسجد ، فجئنا نمشي مع عبد الله بن مسعود فلما ركع الناس ، ركع عبد الله وركعنا معه ونحن نمشي ، فمر رجل بين يديه ، فقال: السلام عليك يا أبا عبد الرحمن ، فقال عبد الله وهو راكع: صدق الله ورسوله ، فلما انصرف سأله بعض القوم لم قلت: حين سلم عليك الرجل: صدق الله ورسوله؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن من أشراط الساعة إذا كانت التحية على المعرفة].

وفي رواية: [أن يسلم الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة][1].

ثالث عشر: ولادة الأَمَةِ سيدتها وتطاول الحفاة العراة رعاة الغنم في البناء.

وهذا الأمر الأول كناية عن انتشار الحروب وكثرة السبي فينكح الشريفُ الأمَةَ فتأتي بِحُرَّةٍ أُمُّها أمَةٌ ، فتكون الأمَةُ قد ولدت بذلك رَّبتها ، وأما الأمر الثاني فهو كناية عن وصول الأمر وتوسيده إلى غير أهله ، عقوبة الله إلى الأمة إذ تنكرت لمنهاجها فسلط الله عليها بذلك غير أخيارها وأكفائها.

وأصل هذا المعنىٰ في صحيح الإمام مسلم في حديث جبريل وهو محور بحث هذا الكتاب ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قال جبريل للنبي ﷺ: [فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترىٰ الحفاة العراة العالة رعاءَ الشاء يتطاولون في البنيان ، ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال يا عمر: أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم][2].

---

(1) أخرجه أحمد في المسند (387/1) والطبراني في الكبير (2/36/3). انظر الصحيحة (648).
(2) قد مضى بتمامه.

وفي لفظ الإمام أحمد من طريق عبد الله بن عباس مرفوعاً: [.. قال: يا رسول الله فحدثني متىٰ الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: سبحان الله خمس من الغيب لا يعلمهن إلا هو: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾.

ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك، قال: أجل يا رسول الله، فحدثني، قال رسول الله ﷺ: إذا رأيت الأمة ولدت ربتها أو ربَّها، ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون بالبنيان، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها][1].

إن الحافِيَ الذي لا يملك حِذاءً، العارِيَ الذي لا يجد ثوباً يَسْتُر كُلَّ جِسْمه، العالة في طعامه على غيره، الذي لا يُجيد من العمل غير رَعْي الغنم، إن الذي يتصف بكل هذا لا يتصور أحد من الناس من قَبْلُ، أنه سيتمكَّنُ من بناء أي بَيْتٍ، فَضْلاً على أن يَجْعَلَ ذلك البيتَ من البيوت الطويلة، ويُطاوِلُ غيرَه في البناء، وفَضْلاً عن أن يكون ذلك ظاهرة لا تحدُثُ لشخص واحد، بل تحدث لجماعات كثيرة من رعاة الغنم الحفاةِ، العراةِ، العالة. فهذا أمر ما كان يخطر ببال أحد، لكن الأمر وقع، فبعد أن فتح الله على المسلمين، وغيرهِم من ثَرَوات الأرض، وخاصة البُتْرول، رأينا رُعاة الغنم، الحفاةَ، العراةَ، العالة، يتطاولون في البُنيان، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ وبيّنَ أن هذه من علامات الساعة.

رابع عشر: الخضب بالسواد.

وهو من علامات اقتراب الساعة، إذ يحاول كثير من الرجال تغيير الشيب بالسواد والخداع بمظاهر الشباب، وقد جاء النهي بذلك للرجال والنساء.

ففي صحيح أبي داود والنسائي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [يكون في آخر الزمان قومٌ يَخْضِبون بالسواد كحواصل الحمام، لا يريحون رائحة الجنة][2].

---

(1) قد مضىٰ.

(2) صحيح الجامع (8009).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [إن اليهود والنصارىٰ لا يَصْبِغونَ ، فخالفوهم][1] .

والمراد خِضاب شَعْر اللحية والرأس بِصُفْرة أو حُمْرة ، وأما السَّواد ، فمنهي عنه لما روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: [أُتِيَ بأبي قُحافةَ والدِ أبي بكر الصديق رضي الله عنهما يومَ فتح مكة ورأسه ولحْيَتُه كالثغامةِ بياضاً ، فقال رسول الله ﷺ: غيّروا هذا واجتبنوا السواد][2] .

خامس عشر: كثرة الهموم والمصائب والآلام.

وهو مقابلة الله تعالى لسيء أعمال عباده مع اقتراب الساعة ، فيرسل عليهم الضيق والهموم والأحزان ، فتأكل من قلوبهم ونفوسهم ، وتشغل عليهم فكرهم وعقولهم ، حتىٰ تطغىٰ كما طغوا فتفسد عليهم سعادة حياتهم ، فلا يستمتعون معها بطعام ولا شراب ولا نكاح ، بل يرون الموت أرحم لهم ، وحتىٰ يأتي أحدهم إلى قبر صاحبه الذي سبقه فيغبطه على مكانه من شدة الهم .

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [والذي نفسي بيده ، لا تذهب الدنيا حتىٰ يمرَّ الرجل على القبر ، فيتمرغ عليه ، ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر ، وليس به الدِّين ، إلا البلاءُ][3] .

وفي لفظ آخر في الصحيحين: [لا تقوم الساعة حتى يمرَّ الرجل بقبر الرجل ، فيقول يا ليتني مكانه][4] .

أي ما به حبُّ لقاء الله سبحانه ، وإنما يتمنىٰ الموت من شدة الهم والغم الذي نزل به وكاد يطبق عليه ، ويدل على ذلك لفظ للإمام أحمد: [لا تقوم الساعة حتى يمرَّ الرجل بقبر الرجل ، فيقول: يا ليتني مكانه ما به حب لقاء الله عز وجل][5] .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1348) .
(2) مختصر مسلم (1347) .
(3) مختصر مسلم (2008) .
(4) صحيح الجامع (7309) .
(5) مسند أحمد (530/2) وصححه الألباني في السلسلة (578) .

سادس عشر: قطيعة الأرحام.

فقد قال الله في سورة محمد: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

وقد أخرج الإمام أحمد في المسند والطبراني في الكبير بسند صحيح عن عابس الغفاري عن النبي ﷺ قال: [بادروا بالأعمال ستاً، إمارةَ السفهاء، وكثرةَ الشُّرَطِ، وبيعَ الحُكمِ، واستخفافاً بالدم، وقطيعة الرحم، ونشْواً يتخذون القرآن مزامير، يقدمون أحدَهم ليغنيهم، وإن كان أقلَّهُمْ فِقْهاً][1].

فكانت قطيعة الرحم علامة من علامات اقتراب الساعة، وصفة من أشراطها. كما مرّ في حديث الإمام أحمد عن طارق بن شهاب عن النبي ﷺ قال: [إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة، وفشوّ التجارة، حتىٰ تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهور القلم][2].

حتىٰ إن الرجل اليوم ليفخر أنه لا يعرف كثيراً من أبناء عمومته أو أبناء أخواله وخالاته، وحتىٰ إن كثيراً من المسلمين قد تعارفوا على طريقة جديدة يشعرون أنهم قد وصلوا أرحامهم بها، وهي قَصْرُ تزاورهم فيما بينهم على أيام العيد، فإذا مضى العيد فأمامهم سنة كاملة ليس عليهم من صلة القرابة واجب في شيء، ولا تزداد الأسرة اليوم إلا تَمَزُّقاً، ولا تزداد الأرحام إلا تقطعاً، ولا يزداد الناس مع أهليهم إلا جفاء.

مع أن الله سبحانه قد علّق على صلة الأرحام خيراً كثيراً، ورزقاً وفيراً، وسعادة في العمر وزيادة في الأجل، كما علق على قطيعة الرحم شراً كبيراً، وشقاء في الدنيا قبل الآخرة.

يروي الحاكم عن أنس بسند صحيح قال: قال رسول الله ﷺ: [بابان معجّلان عقوبتُهما في الدنيا، البغي والعقوق][3].

---

(1) صحيح الجامع (2809).

(2) قد مضىٰ بتمامه.

(3) السلسلة الصحيحة (1120).

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: [مامن ذنبٍ أجدرُ أن يعجل الله تعالىٰ لصاحبه العقوبة في الدنيا ، مع ما يدخره له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم]. ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والطبراني وسنده صحيح(1).

ولفظ الطبراني: [ما من ذنب أجدر أن يعجلَ الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدينا ، مع ما يدخره له في الآخرة ، من قطيعة الرحم ، والخيانةِ والكذب ، وإن أعجلَ الطاعة ثواباً لصلة الرحم ، حتىٰ إن أهل البيت ليكونوا فجرة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم ، إذا تواصلوا].

وفي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [من أحب أن يُبْسَطَ له في رزقه ، وأن يُنْسأَ له في أثره ، فليصل رحمه](2).

وعند الطبراني عن عمرو بن سهل عن النبي ﷺ قال: [صلةُ القرابةِ مثراةٌ في المال ، محبّةٌ في الأهل ، منسأة في الأجل](3).

وقد عطف النبي ﷺ قطيعة الرحم على انتشار الفحش والتفحش في الكلام والسلوك فقال: [من أشراط الساعة الفحْش والتفحش وقطيعة الرحم وتخوين الأمين وائتمان الخائن](4).

سابع عشر: شهادة الزور وكتمان شهادة الحق.

وهذه العلامة من العلامات الظاهرة اليوم والتي تنذر باقتراب الساعة ، فقد فشا الكذب بين الناس ، وصار متداولاً وظهر التلاعب بالشهادة وعطفِها لتميل مع المصالح ، وشاعت شهادة الزور ، حتىٰ صارت كأنها من الصغائر ، وقد قال الله في سورة الحج: ﴿ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴾. وقال في سورة الفرقان: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾.

وقد خرّج الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحهما عن أبي بَكْرَة رضي الله

---

(1) صحيح الجامع (5580),(5581).
(2) صحيح الجامع (5832).
(3) ورواه أحمد عن أبي هريرة. انظر صحيح الجامع (3662).
(4) صحيح الجامع (5770).

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلىٰ يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقولُ الزور! أو وشهادة الزور، فما زال يُكَرِّرُها حتى قلنا ليتَه سكت][1].

وفي الصحيحين عن أسماءَ بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها: [أن امرأة قالت: يا رسولَ الله، إن لي ضَرَّة، فهل عَلَيَّ جُنَاحٌ إنْ تَشَبَّعْتُ من زوجي غيرَ الذي يُعطيني؟ فقال النبي ﷺ: المتشبِّعُ بما لم يُعْطَ كلابِسِ ثَوْبَيْ زورٍ][2].

والمتشبع: هو الذي يُظهر الشَّبَع وليس بشبعان، والمراد أن يُظْهر أنه حَصَلَ له فضيلة وليست حاصلة، فكأنها تريد أن تتفاخر أمام ضَرّتها بما لم يحصل لها، فأخبرها عليه الصلاة والسلام أن هذا من الزور وهو الكذب والباطل.

وقد مضىٰ أن شهادة الزور وكتمان شهادة الحق من أشراط الساعة وذلك في حديث طارق بن شهاب الذي رواه الإمام أحمد.

ثامن عشر: حَبْس الله المطر وجفاف الينابيع والأنهار والآبار.

وقد جعل الله ذلك عقوبة للناس الذين استهتروا بأمره وعظموا شهواتهم على هديه وهدي نبيّه ﷺ. فقال سبحانه في سورة تبارك: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾.

يروي الطبراني عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [خمس بخمس: ما نَقَضَ قوم العهد إلا سُلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا مُنِعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا مَنعوا الزكاة إلا حُبِس عنهم القطر][3].

فهدد الله الأمة المستهترة بدفع الزكاة وحق المال بنقص المياه ومنع المطر، وبجفاف آبارها وينابيعها وما كان يتدفق عبد الصخر والحجر.

أخرج الحاكم على شرط الشيخين عن ابن عباس قال: [مامن عام بأكثر مطراً من

---

(1) ورواه أحمد والترمذي. انظر صحيح الجامع (2625).

(2) صحيح الجامع (6551).

(3) تخريج الترغيب (271/1) وقد مضى.

عام ، ولكن الله يصرفه بين خلقه حيث يشاء ، ثم قرأ : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾][1] .

وله شاهد عند البغوي عن ابن مسعود يرفعه : [ليس من سنة بأَمَرَّ من أخرىٰ ، ولكن الله قسم هذه الأرزاق ، فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم ، وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار][2] .

تاسع عشر : وضع السيف وترك الجهاد في سبيل الله .

فإنه مع اقتراب الساعة والتفات الناس إلى الشهوات والدنيا ، يستصعبون التفكير في الجهاد ، وتحديث النفس به ، فيوضع السيف في الأمة ، ويذيقها الله الذل بإهمالها فريضة الجهاد .

وقد خرّج الإمام أحمد والترمذي عن ثوبان عن النبي ﷺ قال : [إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة][3] .

وقد عطف النبي ﷺ ظهور ذلك على فشو الربا والتلاعب بالحرام وأكل أموال الناس بالباطل والركون إلى اللهو والدنيا والمبالغة في إعمارها على حساب إعمار الآخرة .

ففي سنن أبي داود بسند صحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : [إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذنابَ البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهادَ ، سلط الله عليكم ذُلاً ، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم][4] ورواه الإمام أحمد .

عشرون : عودة أرض العرب مروجاً وأنهاراً .

يروي الإمام مسلم والإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :

---

(1) السلسلة الصحيحة (2461) .
(2) المرجع السابق ـ السلسلة الصحيحة ـ ج 5 ص 593 .
(3) صحيح الجامع (2312) والسلسلة الصحيحة (1582) .
(4) صحيح الجامع (416) .

[لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً][1].

وهذا الحديث يدل على تهيئة الله أرض الإسلام بالكنوز والخيرات لتعود الخلافة الراشدة فوق أرضها ، ويكون ذلك مصدر قوة لتقف الأمة من جديد لحمل منهاجها ، وقد صنّفه العلامة الألباني رحمه الله ضمن الأحاديث الدالة على أن المستقبل للإسلام فقال : (وقد بدأت تباشير هذا الحديث تتحقق في بعض الجهات من جزيرة العرب بما أفاض الله عليها من خيرات وبركات وآلات ناضحات تستنبط الماء الغزير من بطن أرض الصحراء ، وهناك فكرة بجر نهر الفرات إلى الجزيرة ، كما قرأنا في بعض الجرائد المحلية ، فلعلها تخرج إلى حيز الوجود وإن غداً لناظره قريب ، قال : هذا ومما يجب أن يعلم بهذه المناسبة أن قوله ﷺ : [لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم] رواه البخاري في الفتن من حديث أنس مرفوعاً. فهذا الحديث ينبغي أن يفهم على ضوء الأحاديث المتقدمة ـ أحاديث المستقبل للإسلام ـ وغيرها مثل أحاديث المهدي ونزول عيسىٰ عليه السلام ، فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومه بل هو من العام المخصوص ، فلا يجوز إفهام الناس أنه على عمومه فيقعوا في اليأس الذي لا يصح أن يتصف به المؤمن ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ . أسأل الله أن يجعلنا مؤمنين به حقاً) انتهى[2].

حادي وعشرون : نطق الجماد وتكليم السباع الإنس.

ففي صحيح الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : [والذي نفسي بيده ، لا تقوم الساعة حتى تُكلِّمَ السباعُ الإنس ، وحتىٰ تكلم الرجلَ عذبة[3] سوطه ، وشِراك نعله ، ويخبره فخذُه بما أحدث أهله بعده] وصححه الألباني في المشكاة[4].

وله شاهد في المسند بلفظ : [إنها أمَاراتٌ من أمَارات بين يدي الساعة ، أو شك

(1) صحيح مسلم (84/3) ومسند أحمد (703/2).
(2) السلسلة الصحيحة ج 1 ص (10).
(3) أي طرفه.
(4) تخريج المشكاة (5459).

الرجل أن يخرُجَ ، فلا يرجِعَ ، حتى يحدِّثه نعْلاه ، وسَوْطهُ ، ما أحدث أهلُهُ من بعده].

النعل جماد ، والسَّوط جَماد ، وما كان أحد يتصور أن الجماد سينطق ، وقد نطق الجماد فِعلا ، وأما كيف يُحَدِّث النعل ، أو السوطُ الرجل عما أحدث أهل بيته بعده؟ فبعض أهلِ العلم شبهها في المخترعات الحديثة من أجهزة يحملها الإنسان في يده ، فتنقُل له الأصواتَ ، والكلام مِن بيته ، أو من بيت غيره ، وما بقي إلا أن تُشَكلَّ في شكل سَوْط ، ليَسْهُلَ حَمْلُهَا ، أو تُصنَع في الحذاء فلا تُرى ، ويمكن تركيبها في طرف العصا أو في مكانٍ ما من الحذاء بحيث لا ترىٰ.

قلت: والإيمان بالغيب يقتضي إثبات النص على ظاهره دون تكلف ، فكيف سيشبهون لنا تكليم السباع للإنس؟! إن خبر الوحي مفاده العلم الحقيقي ، ومن ثم فالقوة كل القوة أن نؤمن بحدوث ذلك على الحقيقة دون تشبيه متكلف به.

علامات متفرقة:

22ـ وشي البيوت ونقشها بالتصاوير.

يروي البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني في السلسلة[1] الصحيحة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقوم الساعة حتى يبني الناس بيوتاً يوشونها وشي المراحيل].

والمراحيل: الثياب المخططة كما فسّرها شيخ البخاري (إبراهيم). وفي النهاية: (المرحل الذي قد نقش فيه تصاوير الرحال ، ومنه الحديث: كان يصلي وعليه من هذه المرحلات يعني المروط المرحلة وتجمع على المراحل ، ومنه هذا الحديث... يوشونها وشي المراحل ، ويقال لذلك العمل الترحيل) السلسلة الصحيحة 159/1.

23ـ خروج نار من أرض الحجاز.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال:

---

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة (279).

[لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، تضيء أعناق الإبل ببصرى][1] .

24ـ عبادة دوس لصنمها ذي الخلصة .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [لا تقوم الساعة حتى تَضْطَرِبَ أَلياتُ نِساءِ دَوْسٍ حول ذي الخَلصة][2] .

وكانت صنماً تعبدها دوس في الجاهلية بِتَبالة . «تبالة : موضع باليمن» .

25ـ خروج رجل من قطحان :

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوقُ الناس بعصاه[3]][4] .

26ـ تملك رجل يقال له الجهجاه .

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [لا تذهب الأيام والليالي حتى يَمْلكَ رجل يُقال له الجَهْجاه][5] .

27ـ لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس لكع بن لكع .

ففي المسند بسند صحيح عن حذيفة عن النبي ﷺ قال : [لا تقوم الساعة حتى يكون أسعدَ الناس بالدنيا لُكع بن لكع][6] .

28ـ انتفاخ الأهلة .

أخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة وأن يُرىٰ الهلال الليلة ، فَيُقال : هو ابن ليلتين][7] .

* * *

(1) مختصر صحيح مسلم (2011) ورواه البخاري .
(2) صحيح مسلم (182/8) وانظر مختصر مسلم (2012) باب : لا تقوم الساعة حتىٰ تعبد دوس ذا الخلصة .
(3) أي يتصرف فيهم كما يتصرف الراعي بالماشية .
(4) مختصر مسلم (2018) باب : لا تقوم الساعة حتىٰ يخرج رجل من قحطان .
(5) صحيح مسلم (184/8) .
(6) ورواه الترمذي . صحيح الجامع (7308) .
(7) السلسلة الصحيحة (2292) .

ـ علامات الساعة ودلائل القيامة ـ

2 ـ العلامات الكبرىٰ

إن الباحث في القرآن الكريم وهدي خير المرسلين والمتأمل في ما أراده الله في المستقبل من أحداث تكون تمهيداً لقيام الساعة يشعر بالخوف والقلق على نفسه وعلى ذريته من بعده ممن سيعاين هذه الأهوال وتلك الفتن ، فيزيده العلم بها خوفاً من الله العظيم ، وحرصاً على رعاية مَنْ حَمَّلَهُ الله السؤال عنهم يوم الدين .

ففي صحيح مسلم عن أبي إدريس الخَوْلاني كان يقول : قال حذيفة بن اليمان : [والله إني لأعلمُ الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة ، وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسَرَّ إليَّ في ذلك شيئاً لم يحدِّثه غَيْري ، ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يحدث مجلساً أنا فيه عن الفتن فقال رسول الله ﷺ وهو يَعُدُّ الفِتن : منهُنَّ ثلاثٌ لا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شيئاً ، ومنهن فِتَنٌ كرياح الصيف ، منها صغار ومنها كبار . قال حذيفة : فذهب أولئك الرهط كُلُّهم غيري][1] .

وفيه عن حذيفة رضي الله عنه قال : [قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّثَ به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابي هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء قد نَسيته ، فأراه فأذكرُهُ كما يذكر الرجل وَجْهَ الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه][2] .

وكذلك في صحيح الإمام مسلم عن أبي زيد ـ يعني عمرو بن أخطب ـ قال : صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر ، وصعِد المنبر ، فخطبنا حتىٰ حضرت الظهرُ ، فنزل

---

(1) صحيح مسلم (172/8) . وهو في مختصر مسلم برقم (1992) كِتاب الفتن . باب : في الفتن وصفاتها .

(2) مختصر مسلم (1993) .

فصلّىٰ ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتىٰ حضرت العصرُ ، ثم نزل فصلىٰ ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما كان ، وبما هو كائن ، فأعلمُنا أحفظُنا][1] .

فإلى تفصيل هذه العلامات الكبرىٰ والتغيرات الكبيرة .

أولاً : عودة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة وفتح روما .

فإن بين يدي العلامات الكبرىٰ لقيام الساعة واقتراب انتهاء الحياة فوق هذه الأرض ، عودة الخلافة الراشدة التي بشّر بها النبي ﷺ والحكم على منهاج النبوة ، وانتهاء مرحلة الظلم الجبري في الأرض التي وصفها عليه الصلاة والسلام بعد مرحلة الملك العاض الذي اجتاح الأرض قبل ذلك .

فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن النعمان بن بشير قال : كنا قعوداً في المسجد ، وكان بشير رجلاً يكف حديثه ، فجاء أبو ثعلبة الخشني فقال : يا بشير بن سعد أتحفظ حديث رسول الله ﷺ في الأمراء؟ فقال حذيفة : أنا أحفظ خطبته ، فجلس أبو ثعلبة ، فقال حذيفة يرفعه إلى النبي ﷺ : [تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت][2] .

وقد أجمعت الأمة على اعتبار الخلافة الراشدة الأولىٰ بعد عهد النبوة أنها تمثلت بحكم الأربعة المبشرين في الجنة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم التي دامت ثلاثين سنة ، وقد صحّ بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ .

فقد روى أحمد والترمذي وابن حبان بسند صحيح عن سفينة عن النبي ﷺ قال :

---

(1) المرجع السابق (1995) .

(2) رواه أحمد (273/4) وصححه الألباني في الصحيحة (5) .

[الخلافة بَعدي في أمتي ثلاثون سنة ، ثم مُلك بعد ذلك][1] .

وفي لفظ : [الخلافة ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً . ثم يقول سفينة : أمْسِك ـ أي احسب وعدّ ـ خلافة أبي بكر سنتين وخلافة عمر عشرة وعثمان اثني عشرة ، وعلي ستة][2] .

وقد أشار عليه الصلاة والسلام في أكثر من موقف لخلافة أبي بكر من بعد وفاته وقد فهمت الأمة عنه ذلك ، وما كان الأمر ليستقر لأحد من بعده إلا للصديق الذي أجمعوا على بيعته واختياره ثم كانت الخلافة لعمر بعد وفاة أبي بكر .

ففي الصحيحين عن عمر قال : [إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني ـ يعني أبا بكر ـ وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ـ يعني رسول الله ﷺ][3] .

وهكذا فقد استخلف أبو بكر عمر بن الخطاب ، وعهد له بالأمر وهو من الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وكان أبو بكر قد خيّر المسلمين أن يختاروا لأنفسهم في حياته من يخلفه فيهم بعد وفاته ولكنهم تورعوا عنها . فدعا أبو بكر في مرضه عبد الرحمن بن عوف فقال له : (أخبرني عن عمر بن الخطاب؟ فقال له : ما تسألني عنه أمراً إلا وأنت أعلم به مني . فقال له : وإن ، فقال عبد الرحمن : هو أفضل من رأيك فيه) .

ثم دعا عثمان بن عفان ، فقال له مثل ذلك ، فقال : (علمي به أن سريرته خير من علانِيَّتِه ، وأنه ليس فينا مثله ، فقال أبو بكر : يرحمك الله ، والله لو تركته ما عدوتك) .

ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك ، فقال أسيد : (اللهم أعلمه الخيرة بعدك ، يرضىٰ للرضا ، ويسخط للسخط ، والذي يسرّ خير من الذي يعلن ، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه) .

وكتب بذلك كتاباً وهو مضطجع على فراش الموت ، فكان يوصي وعثمان

---

(1) صحيح الجامع (3336) .

(2) السلسلة الصحيحة (460) .

(3) قد مضىٰ تخريجه في بحث فضائل العشرة .

يكتب ، ثم أشرف أبو بكر على الناس من كوته فقال : (أيها الناس إني قد عهدت عهداً ، أفترضونه؟ فقال الناس : رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ ، فقام عليٌّ رضي الله عنه فقال : لا نرضىٰ إلا أن يكون عمر)[1] .

فأقروا بذلك جميعاً ورضوا به ، ثم بايعوا ، فرفع أبو بكر رضي الله عنه يديه فقال : (اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ، فعلمت فيهم ما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأيي ، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه ، وأحرصهم على ما أرشدهم . وقد حضرني من أول ما حضر ، فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك ، فأصلح لهم أميرهم ، واجعله من خلفائك الراشدين ، يتبع هدى نبي الرحمة ، وهدى الصالحين بعده ، وأصلح له رعيته ، ثم دعاه فأوصاه)[2] .

ثم كانت خلافة عمر فملأ الأرض عدلاً وقسطا ، كما قال له ابن عباس عندما طعن : (لقد كان إسلامك عزاً ، وإمارتك فتحاً ، ولقد ملأت الأرض عدلاً) . فقال عمر : أتشهد لي بذلك يا ابن عباس؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابن عباس : قل نعم وأنا معك . فكان عمر يقول : (والله لوددت أني نجوت منها كفافاً لا علي ولا لي) .

وكان عمر يريد ألا يستخلف إلا أن ابنه عبد الله قد أقنعه بذلك ، فقال عمر : (قد رأيت من أصحابي حرصاً شديداً ، وإني جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض) . فجعلها شورىٰ في ستة : عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم ، وجعل عبد الله بن عمر معهم مشيراً وليس منهم ، وأجّلهم ثلاثاً ، وأمر صهيباً أن يصلي بالناس .

ثم دفن عُمَر واجتمع الناس للشورىٰ وكادت الأصوات تعلو والآراء تتشعب ، إذ وقف سعد وقال : يا عبد الرحمن : افرغ قبل أن يفتن الناس ، فقال عبد الرحمن : (إني قد نظرت وشاورت ، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً ، ودعا علياً ،

---

(1) وانظر تفصيل ما سبق في البداية والنهاية .
(2) التاريخ الإسلامي . الخلفاء الراشدون ـ محمود شاكر .

فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؟ قال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي، قال: نعم، فبايَعَهُ، وبايع الناس جميعاً).

فكانت الخلافة لعثمان رضي الله عنه، فملأ الأرض فتوحاً ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ولكن هذه الجموع كانت تحتاج إلى تربية على أخلاق الإسلام وصبر على المحن والفتن والآلام، الأمر الذي لم يأخذ نصيبه من العناية والرعاية كما كان عليه أيام النبي ﷺ، وهذا ما حمل بعض المنحرفين من الرعاع والغوغاء أن يتأولوا ما شاؤوا ويقدموا على قتل الخليفة الراشد صهر رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه، ثم يهددوا أهل المدينة بقتل أهل الشورى وكبار الصحابة ومن يقدرون عليه من دار الهجرة إن لم يجدوا أحداً على قبول الخلافة، وقالوا لهم: دونكم يا أهل المدينة فقد أجلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن علياً والزبير وأناساً كثيرين. وكان هذا خوفاً منهم أن تصل جند الأمصار فتحاكمهم وتقيم عليهم الحد بقتل عثمان، فحرصوا على أن يخرج خليفة يمضي برأيهم[1].

يروي ابن ماجه عن كعب بن عُجرة قال: [ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقربها، فمرّ رجل مقنع رأسه فقال رسول الله ﷺ: (هذا يومئذ على الهُدىٰ). فوثبت فأخذْتُ بِضَبْعَيْ عثمان، ثم استقبلت رسول الله ﷺ فقلت: هذا؟ قال: هذا][2].

وروى بسند صحيح أيضاً عن عائشة. قالت: قال رسول الله ﷺ: [يا عثمان! إن ولّاك الله هذا الأمْرَ يوماً، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصَكَ الذي قَمّصَكَ الله، فلا تَخْلَعْهُ، يقول ذلك ثلاث مرات. قال النعمان: فقلت لعائشة: ما منعك أن تُعْلِمي الناس بهذا؟ قالت: أُنْسيتُهُ][3].

وروى عنها أيضاً قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه: [ودِدْتُ أنّ عندي بعض أصحابي. قلنا: يا رسول الله! ألا ندعو لك أبا بكر؟ فسكت. قلنا: ألا ندعو لك عُمَر؟ فسكت. قلنا: ألا ندعو لك عثمان؟ قال: نعم. فجاء فخلا به، فجعل

---

(1) التاريخ الإسلامي ـ الخلفاء الراشدون ـ محمود شاكر.
(2) تخريج المشكاة (6067) وصحيح ابن ماجه (89).
(3) صحيح ابن ماجه (90) وتخريج المشكاة (6068).

النبي ﷺ يكلمه. ووجه عثمانَ يتغيّر]. قال قيسٌ: (فحدثني أبو سهلة مَوْلى عثمان: أن عثمان بن عفان قال، يومَ الدار: إن رسول الله ﷺ عَهِدَ إليَّ عهداً. فأنا صائر إليه). وقال علي في حديثه: (وأنا صابر عليه). قال قيس: (فكانوا يُرَوْنَهُ ذلك اليوم)(1).

ثم عرض الصحابة الأمر على علي بن أبي طالب وقالوا له: نبايعك فقد ترىٰ ما نزل بالإسلام، وما ابتلينا به من ذوي القربىٰ، فقال علي: دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول. فقالوا: ننشدك الله ألا ترى ما نرىٰ! ألا ترىٰ الإسلام! ألا ترىٰ الفتنة! ألا تخاف الله! فقال: قد أجبتكم لما أرىٰ، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، ثم افترقوا وتواعدوا في اليوم التالي فجاؤوا ومعهم طلحة والزبير وبايعوا علياً، ثم بايعه الناس.

فرأى علي رضي الله عنه أولاً إعادة الأمن إلى المدينة، بإبعاد الغوغاء والرعاع الذين شاركوا في الفوضىٰ وهدر دم عثمان، ورأى تأجيل محاكمة القتلة حتى يستقر الأمن وتعود الشوكة إذ لا رأي لمن لا يطاع.

وهكذا خاض علي رضي الله عنه أصعب الأوحال وأحلك الظلام، حيث تشتد الفتن على أمة الإسلام، ويزداد نفوذ الطامعين في تقويض شوكة الحق ودولة الإسلام، ليتسنىٰ لهم تحقيق مآربهم وتشويه ما يمكن أن يؤثر بنضارته على أهوائهم ومطامعهم، ولقد كان أولى لهم أن يتابعوه ويطيعوه(2).

يروي ابن ماجه بسند صحيح عن البراء قال: [أقبلنا مع رسول الله ﷺ في حجته التي حجّ، فنزل في بعض الطريق فأمر الصلاة جامعة، فأخذ بيد عليّ، فقال: ألست أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلىٰ، قال: ألست أولىٰ بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلىٰ. قال: فهذا وليّ من أنـا مولاه، اللهم والِ مـن والاه، اللهم عاد من عاداه](3).

---

(1) صحيح ابن ماجه (91) وتخريج المشكاة (6070).
(2) وانظر تفاصيل هذه الأحداث في التاريخ الإسلامي ـ الخلفاء الراشدون ـ محمود شاكر.
(3) صحيح ابن ماجه (94) تحقيق الألباني. والسلسلة الصحيحة (1750).

ولكن للأسف ، لقد انتهت خلافة علي رضي الله عنه بقتله على يد عبد الرحمن ابن ملجم ، حيث ضربه بسيفه المسموم فقضىٰ علي رضي الله عنه على أثر ذلك ، ودخل جندب بن عبد الله على علي بعد إصابته وقبل أن يفارق الحياة فقال له: يا أمير المؤمنين! إنْ فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن ، فقال: ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر. ونهى عليٌّ عن المثلة بقاتله وقال: (إن مت فاقتلوه بي ، وإن عشت رأيت رأيي فيه).

ثم لم يلبث أن توفي ، وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ، وكفن ، وقد كثرت الروايات حول قبره ، الأمر الذي جعل قبره مجهولاً.

ثم اتجه الناس إلى الحسن فبايعوه ، ولكنه رأى تخاذل كثير من أصحابه فآثر الصلح وتنازل لمعاوية ، وانتهت بذلك مرحلة الخلافة الراشدة العطرة التي سارت على منهاج النبوة ، وكان أبطالها هؤلاء الخلفاء الأربعة: (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي) رضي الله عنهم.

يروي ابن ماجه بإسناد صحيح عن سعيد بن زيد قال: أشهد على رسول الله ﷺ أني سمعته يقول: [اثبت حِرَاء ، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد. وَعَدَّهم: رسول الله ﷺ ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وابنُ عوف وسعيد بن زيد][1].

فهذه بعض مناقب هؤلاء الخلفاء الأربعة خير الناس بعد رسول الله ﷺ.

ثم إن الأمة لم تتحدث عن خلافة راشدة بعدهم ، إلا ما كان من الإشارة إلى خلافة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وخلافة عمر بن عبد العزيز ، وفي غير ذلك فما اجتمعت الأمة على وصف خليفة من الخلفاء الذين تعاقبوا على الأمة زمن بني أمية وبني العباس وبعدهم بأنه كان خليفة راشداً على منهاج النبوة ، وإن كان كثير من الخلفاء قد وُصفوا بالصلاح وإقامة صرح الإسلام.

وعبد الله بن الزبير هو ابن الزبير بن العوام أحد السابقين في الإسلام والذي أسلم ولم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ،

---

(1) صحيح ابن ماجه (111) والسلسلة الصحيحة (875).

وهي آخر من مات من المهاجرات بعد مقتل ابنها عبد الله بمدة وجيزة ، وقد ولد عبد الله بقباء أول مقدمهم المدينة مهاجرين ، حيث هاجرت أمه أسماء وهي حامل به فنزلت به قباء فولدته ثم أتت به رسول الله ﷺ.

يروي البخاري عن أسماء : [أنها حملت بعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، قالت : فخرجت وأنا مُتِمٌّ ، فأتيتُ المدينة فنزلت بقُباء ، فولدتُه بقُباء ، ثم أتيتُ به النبي ﷺ فوضَعْتُهُ في حَجْره ، ثم دعا بتَمْرةٍ فمضَغَهَا ، ثم تَفَل في فيه ، فكان أوّل شيء دخل جَوْفَهُ ريق رسول الله ﷺ ، ثم حنّكه بتَمْرةٍ ، ثم دعا له وبرّك عليه ، وكان أول مولود في الإسلام][1] .

وقد شهد عبد الله بن الزبير اليرموك مع أبيه وهو صغير ، ودافع عن عثمان يوم الدار ، وجرح يومئذ بضع عشرة جراحة ، وقاتل البربر مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وقتل القائد البيزنطي (جرجير) في موقعة (سبيطلة) عام 27 هـ. وقدم إلى دمشق لغزو القسطنطينية أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما .

وكان نحيفاً كثير السجود لا ينازع في ثلاث : في العبادة والشجاعة والفصاحة . وكان فارس الخلفاء رضي الله عنهم .

قال حماد بن زيد عن ثابت البناني : (كنت أمر بعبد الله بن الزبير وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك) .

وسئل ابن عباس عن ابن الزبير فقال : (كان قارئاً لكتاب الله ، متبعاً لسنة رسول الله ، قانتاً لله ، صائماً في الهواجر من مخافة الله ، ابن حواري رسول الله ، وأمه بنت الصديق ، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله ، زوجة رسول الله فلا يجهل حقه إلا من أعماه الله) البداية والنهاية .

وبعث عبد الله بن سَعد بن أبيّ سرح بالبشارة بانتصار المسلمين على البربر وقتل ملكهم وأخذ غنائم كثيرة مع ابن الزبير إلى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فقصّ على عثمان الخبر وكيف جرىٰ ، فقال له عثمان : إن استطعت أن تؤدي هذا للناس فوق المنبر ، قال : نعم! فصعد ابن الزبير فوق المنبر فخطب الناس وذكر

---

(1) أخرجه البخاري (5469 ـ فتح الباري) ومسلم (2146 ، شرح النووي) .

لهم كيفية ما جرىٰ ، قال عبد الله : (فالتفت فإذا أبي الزبير في جملة من حضر ، فلما تبيّنت وجهه كاد أن يرتج عليّ في الكلام من هيبته في قلبي ، فرمزني بعينه وأشار إليّ ليحصني ، فمضيت في الخطبة كما كنت فلما نزلت قال : والله لكأني أسمع خطبة أبي بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بني) .

بويع عبد الله بن الزبير بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية سنة أربع وستين ، وبقي حتىٰ قتل سنة ثلاث وسبعين ، وحج بالناس كل هذه المدة ، وبنىٰ الكعبة أيام خلافته ، وكساها الحرير ، وكانت كسوتها قبل ذلك الأنطاع والمسوح .

وقد دانت له البلاد جميعاً في زمانه وبايعته الأمصار بالخلافة ، سوى جزء صغير من بلاد الشام مع مروان بن الحكم ، وكان خلافته خلافة راشدة على منهاج النبوة ، ولكن الفتن كانت أسرع والاختلاف قد فرّق فاستتب ملك مروان وانكمشت خلافة ابن الزبير حتى قضي عليه .

يروي الطبراني عن إسحاق بن أبي إسحاق قال : (أنا حاضر مقتل عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام ، يوم قتل جعلت الجيوش تدخل من أبواب المسجد ، وكلما دخل قوم من باب حمل عليهم حتى يخرجهم ، فبينما هو على تلك الحال إذ جاءت شرفة من شرفات المسجد ، فوقعت على رأسه فصرعته ، وهو يتمثل بهذه الأبيات :

أسمـــــاء أسمــــاء لا تبكينـــــي ... لــــم يبـــق إلا حسبـــي ودينـــي

وصـــــارم لانــــت بــــه يمينــــي

وكان يخرج من باب المسجد الحرام وهناك خمسمائة فارس وراجل فيحمل عليهم فيتفرقون عنه يميناً وشمالاً ، ولا يثبت له أحد) .

وأما الخلافة السادسة الراشدة فكانت لعمر بن عبد العزيز أحد خلفاء بني أمية .

فقد ولد بالمدينة المنورة عام 61 هـ ، وأمه هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وقد انتقل مع بني أمية إلى الشام بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وكان مع أبيه في مصر عندما تولى إمرتها ثم طلب من والده الرحيل إلى المدينة ليجلس إلى فقهائها ، فوافق والده وجعله عند الإمام الحافظ المربي صالح بن كيسان ليؤدبه ، وعندما توفي والده عبد العزيز عام 85 هـ بعث إليه عبد الملك وضمّه إلى أولاده ، وقدّمه على كثير منهم ، وزوّجه ابنته فاطمة وولاه إمرة خناصرة ـ من

أعمال حلب ـ وبقي فيها حتى مات عبد الملك . ولما بويع الوليد أعطاه إمرة المدينة وبقي عليها حتى عام 93 هـ ، وقد قرب إليه العلماء ، ثم انتقل إلى دمشق فلما كانت خلافة سليمان بن عبد الملك استوزره ثم عهد إليه بالخلافة من بعده .

وقد كان في شبابه كثير التطيب ، يرتدي أغلى الثياب وأجملها ، ثم تبدل حاله أيام خلافته حتىٰ اعتقد أن ما عند زوجته فاطمة من حلي وجواهر إنما جاء عن طريق بيت المال، لذا خيّرها بين ردّه أو اللحاق بأهلها، ففضلت الحياة معه وردت كل ما كان عندها .

وقيل : إنه ضيق على نفسه وعلى زوجه وأولاده في الطعام واللباس ، فسألته زوجته أن يجري عليها خاصة ، فقال لها : ليس في مالي سعة ، قالت : فلم كنت أنت تأخذ منهم؟ قال : كانت المهنأة لي والإثم والتبعة عليهم ، أما إذا وليت فلا أفعل ذلك فيكون إثمه علي .

وقد أصلح كثيراً من الأراضي الزراعية وعمر الطرق وحفر الآبار وأقام المساجد ولكنه لم يَعْتَن بزخرفتها ، وأعاد الأراضي المغتصبة إلى بيت مال المسلمين ، حتى إنه قد قضىٰ أيام خلافته على الفقر والحاجة ولم يبق من يأخذ من أموال الزكاة .

ثم إنه قد رفع رواتب عماله حتى بلغت ثلاثمائة دينار ، ولما سئل عن ذلك أجاب : أردت أن أغنيهم عن الخيانة .

وقد أرسل إلى الجند الذين يحاصرون القسطنطينية بإمرة مسلمة بن عبد الملك المعونة والطعام والجند ، ثم أمر مسلمة بالعودة وفك الحصار خوفاً على جنده من الهلاك .

ويوم أغار الترك على أذربيجان وقتلوا جماعة من المسلمين أرسل إليهم حاتم بن النعمان الباهلي فقتل الترك ، ولم يفلت منهم إلا اليسير وعاد بخمسين أسيراً منهم .

وقد غزا بلاد الروم وفرنسا واخترق جبال البرانس وأغار على اكيتانيا وحاصر طلوشة ـ طولوز ـ فخرج له دوق اكيتانيا بجيش كبير ونشبت معركة عظيمة استشهد فيها السمح بن مالك الخولاني عام 102 هـ وتولى إمرة جند المسلمين عبد الرحمن الغافقي فانسحب إلى ناربونة (قاعدة سبتمانيا) .

ولم تطل خلافته إذ توفي ولم يتجاوز الأربعين ، وقد ملأ الدنيا فتوحاً وانشغل الناس في زمانه بالجهاد في سبيل الله إذ لم تكن هناك أحداث داخلية تشغلهم ، فرحمه الله من خليفة راشد .

قال الإمام أحمد بن حنبل : (لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز) .

يروي الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية بسنده إلى سلام بن سليم قال : (لما وُلي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر وكان أول خطبة حمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال : أيها الناس! من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا. يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيينا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه ، ولا يتغابن عندنا أحداً ، ولا يعرضن فيما لا يعنيه. فانقشع عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله .

وكان فيما قال : أيها الناس! إنه لا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد عليه السلام ، وإني لست بقاض ولكني منفذ ، وإني لست بمبتدع ولكني متبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم إلا أن الإمام الظالم هو العاصي ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عز وجل . (وفي رواية : وإني لست بخير من أحد منكم ، ولكنني أثقلكم حملاً ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الله ، ألا هل أسمعت) .

وفيه قال وهب بن منبه : (إن كان في هذه الأمة مهدي فهو عمر بن عبد العزيز) .

وقال سعيد بن المسيب : (الخلفاء أبو بكر والعمران) .

وقال عباد السماك وكان يجالس سفيان الثوري : سمعت الثوري يقول : (الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز) .

وقال ابن كثير رحمه الله بعد ذكر أقوال أهل العلم في عمر بن عبد العزيز : (وأجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة

المهديين. وذكره غير واحد في الأئمة الاثني عشر، الذين جاء فيهم الحديث الصحيح: ((لا يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى يكون فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش)).

قلت: وهـذا الحديث هو فـي الصحيحين والمسند وسنن أبي داود والترمذي عن جابر بـن سمرة عن النبي ﷺ قال: [لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنـا عشر خليفـةً، كلهم تجتمع عليه الأمـةُ، كلهم مـن قريـشٍ، ثم يكـون الهرج][1].

وله لفظ آخر عند الإمام مسلم وأحمد: [لا يزال الدين قائماً حتىٰ تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش][1].

وفي رواية لمسلم ولأبي داود عن جابر بن سمرة مرفوعاً: [لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش][2].

وفي لفظ آخر لمسلم وأحمد: [لا يزال هذا الأمر عزيزاً منيعاً يُنصرون على من ناوأهم عليه إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش][3].

وفي رواية لأحمد: [لا يزال هذا الأمر ماضياً حتىٰ يقوم اثنا عشر أميراً كلهم من قريش] وهو على شرط مسلم[4].

وله شاهد في المسند ومستدرك الحاكم عن الشعبي عن مسروق قال: [كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن هل سألتم رسول الله ﷺ كم تملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال عبد الله بن مسعود: ما سألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ثم قال: نعم ولقد سألنا رسول الله ﷺ فقال: اثنا عشر، كعدة نقباء بني إسرائيل][5].

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1196) كتاب الإمارة، باب: الخلفاء من قريش.
(2) أخرجه مسلم (3/6) وأحمد (93/5).
(3) أخرجه مسلم (3/6-4) وأحمد (101/5).
(4) أخرجه أحمد (97/5-98) وصححه الألباني في الصحيحة (376).
(5) أخرجه أحمد (398/1) وانظر الصحيحة ج 1 ص 107.

وكذلك مافي الصحيحين عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: [لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان][1].

فهذه نصوص في بيان عدد الخلفاء الراشدين في هذه الأمة ابتداءً بأبي بكر رضي الله عنه وانتهاء بآخر خليفة راشد وهو محمد بن عبد الله المهدي الذي سيحكم في الأرض ويملؤها قسطاً وعدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً، يخرج والأمة لها شوكة ورجال فيكرمها الله بتلك القيادة.

ولكن قبل ذلك فإن الخلافة الراشدة سَتُسْتَأْنَفُ وستعود الشوكة والقوة في هذه الأمة، في تتابع من الخلفاء على منهاج النبوة لاستكمال العدد الكلي وهو اثنا عشر خليفة، إذ مضىٰ الحديث في الأمة عن ستة راشدين منهم أو نحو ذلك أو قريباً من ذلك.

ومما يشير إلى الخلافة ما روى الإمام أحمد والطيالسي عن جابر بن سمرة مرفوعاً: [لا يزال هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة][2].

فلا يوجد قتال بدون إمارة، فإن السيف لا يرفع في هذه الأمة إلا تحت ظل الحاكم المسلم وبإمرته. فإن الخليفة هو الذي يوجه حركة السيف، وإلا فلو ترك الأمر لكل الناس صارت فتنة كما يحدث اليوم في كثير من بقاع الأرض، فلا يجوز لأمير جماعة لم تجمع الأمة على إمارته أن يحرك السيف كما يشاء، وأن يتكلم بلسان الأمة كلها.

وخير دليل على وجود خلافة قبل المهدي عليه السلام فتح روما الذي بشر به النبي ﷺ، إذ لا يكون فتح في الأمة بدون أمير ذي قوة مطاع، وهذا معلوم بالفطرة والعقل والنقل.

فقد أخرج الإمام أحمد والدارمي وابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي قبيل قال: [كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاصي، وسئل أي المدينتين تفتح أولا القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، فأخرج منه كتاباً. فقال عبد الله: بينما

---

(1) أخرجه البخاري (416/6) ومسلم (3/7).

(2) صحيح الجامع (7581).

نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولاً . يعني قسطنطينية][1] .

و(رومية) هي روما كما في (معجم البلدان) وهي عاصمة إيطاليا اليوم .

وقد علقّ المحدث الألباني على الحديث بقوله : (وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف ، وذلك بعد أكثر من ثمانمئة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح ، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولابد ، ولتعلمن نبأه بعد حين . ولاشك أيضاً أن تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة ، وهذا مما يبشرنا به ﷺ بقوله في الحديث : (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون . . .) . وذكر الحديث الذي مضىٰ وفي آخره : (ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت))[2] .

قلت : ومما يدل على عودة القوة والخلافة في أمة الإسلام وأن المستقبل القادم لهذا الدين العظيم ما روى الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : [لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقالت عائشة : يا رسول الله إن كنتُ لأظن حين أنزل الله ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ أن ذلك تاماً ، قال : إنه سيكون من ذلك ما شاء الله][3] .

فهذه الآية التي ذكرتها أم المؤمنين تدل على أن المستقبل للإسلام بشوكته وظهوره وحكمه وسيطرته على مناهج وأديان الأرض جميعاً ، وما الذي تحقق في الماضي إلا جزء من هذا الوعد الإلهي ، حيث حفلت الأمة في عهده عليه الصلاة والسلام بأوج شوكتها وقوتها ، وكذلك كان الأمر من بعده في حياة الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين الذين مضوا على منهاجه وسيرته . ويبدو أن الله سيختم الحياة في الأرض بشوكة جديدة على منهاج الشوكة الأولى فيعلي الحق

---

(1) أخرجه أحمد (176/2) وصححه الألباني في السلسلة ج (1) حديث رقم (4) .

(2) المرجع السابق ص 8 .

(3) مختصر صحيح مسلم (2013) .

وأهله من جديد ، وتهيمن جيوش المسلمين على الأرض مرة أخرىٰ تحمي البلاد ودين العباد .

ففي صحيح الإمام مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله زوى لي الأرض ـ أي جمعها وضمّها ـ ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها][1] .

وفي مسند الإمام أحمد ومعجم الطبراني وصحيح ابن حبان بسند صحيح عن المقداد بن الأسود عن النبي ﷺ قال: [ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر][2] .

فالظهور في الآية السابقة التي ذكرتها عائشة رضي الله عنها لم يتحقق بتمامه ، لتأتي هذه الأحاديث الصحيحة فتفسر أن هذا التحقق سيكون بتمامه في المستقبل ، وأن التمام سيكون بسيطرة الإسلام على جميع الكرة الأرضية ، حجة الله على الخلق جميعاً قبل قيام الساعة . ومما لاشك فيه أن ظهور هذا الانتشار وتحقق ذلك الوعد بدخول الإسلام كل المدن والبوادي والقرىٰ والأمصار ، يستلزم أن يعود المسلمون أقوياء في إيمانهم وفي بنائهم ومعنوياتهم وادياتهم وسلاحهم ليتمكنوا بذلك من الوقوف بوجه قوى الكفر والطغيان في الأرض ، ودك عروش العتاة من الأمم الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ويعيثون فيها ظلماً وفساداً ، ويحولون دون وصول هذا النور الإلهي إلى أقوامهم . وفي الأفق اليوم ما يبشر بأن المسلمين قد استأنفوا السير نحو ذلك المجد القادم ، ونحو تحقيق ذلك الوعد الجازم .

وقد وصف النبي ﷺ الحياة في عهد بعض خلفاء المسلمين آخر الزمان بأنها حياة رغدة يكثر فيها المال ويفيض على الأمة .

ففي صحيح الإمام مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [يكون في آخر

---

(1) مختصر مسلم (2000) ورواه أحمد وبعض أصحاب السنن .

(2) صحيح ابن حبان (1631),(1632) والسلسلة الصحيحة (3) .

الزمان خليفة يقسِمُ المال ولا يعده]. وفي رواية: (يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً، ولا يعده عدّاً)[1].

قال النووي في شرحه على صحيح الإمام مسلم: (وهذا الحثو الذي يفعله هذا الخليفة يكون لكثرة الأموال والغنائم والفتوحات مع سخاء نفسه).

ثانياً: انحسار نهر الفرات عن جبل من ذهب:

وهذا الأمر من العلامات الكبرى حيث تحصل مقتلة عظيمة لشدة حرص الناس على المال، إذ يكون هو شاغلهم مع تباعد الزمن وبعد حياتهم عن منهاج رب العالمين وسبيل سعداء الدارين، وقد بدأت ملامح شدة الاقتتال على المال تلوح في زماننا هذا.

يروي الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يوشك الفراتُ أن يحسر ـ يكشف ـ عن كنز من ذهب، فمن حضر فلا يأخذ منه شيئاً][2].

ورواه مسلم عنه بلفظ آخر: [لا تقوم الساعة حتى يحسِرَ الفراتُ عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مائةٍ تسعةٌ وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلي أكونُ أنا الذي أنجو][3].

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [تقيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدِها أمثالَ الأسطوانة من الذهب والفضة، فيجيء القاتلُ، فيقول: في هذا قَتَلتُ، ويجيء القاطعُ فيقول: في هذا قطعتُ رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعت يدي، ثم يدَعونه، فلا يأخذون منه شيئاً][4].

وقد بين رسول الله ﷺ في حديث آخر، أن الحرص المبالغ به على هذه الدنيا ومتاعها يوافقه بعد عن الله وقلة اهتمام بأوامره.

---

(1) مختصر صحيح مسلم (2036).
(2) مختصر مسلم (2016).
(3) مختصر صحيح مسلم (2015).
(4) مختصر مسلم (527).

ففي مستدرك الحاكم بسند حسن عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حِرْصاً، ولا يزدادون من الله إلا بعدا](1).

وتزداد الفتنة على الناس نتيجة تسارعهم إلى الشهوات والمبالغة في ترخصهم بأمر الحلال والحرام، وعدم التثبت به كما يتثبتون لأموالهم وتجارتهم ومصالحهم، وهنا يسلط الله عليهم حالة من السكر في طلب المال فلا يقيم الناس وزناً للحلال والحرام، إذ يصبح همهم تحصيل المال بأية طريقة كانت.

يروي البخاري ذلك في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ليأتينَّ على الناس زمانٌ لا يبالي المرء بما أخذ المال؟ أمِنْ حلالٍ أم من حرام](2).

وكثيراً ما يرافق ذلك تسول وكذب في السؤال والقصد منه جمع المال، وقد حذر منه النبي ﷺ بأنه سبيل إلى تسليط الله الفقر والمصائب.

ففي صحيح الإمام مسلم ومسند الإمام أحمد عن قبيصة أن النبي ﷺ قال له: [يا قبيصة! إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثةٍ: رجلٍ تحمّل حَمالةً فَتحِلُّ له المسألةُ حتى يُصيبها ثم يُمسِكَ، ورجلٍ أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة، حتىٰ يصيب قواماً من عيشٍ، ورجلٌ أصابته فاقة حتىٰ يقول ثلاثة من ذوي الحِجا من قومه: لقد أصاب فلاناً فاقة، فحلت له المسألة حتى يُصيبَ قواماً من عيش، ثم يُمسك، فما سِواهن من المسألة فَسُحْتٌ، يأكلها صاحبها سُحتاً](3).

وفي لفظ الترمذي عن حُبشي عن النبي ﷺ قال: [إن المسألة لا تحل لغني، ولا لذي مِرَّةٍ سَويٍّ، إلا لذي فقر مُدقع، أو غرم مُفظِع، ومن سأل الناس ليثرىٰ به ماله، كان خُموشاً في وجهه يوم القيامة، ورَضْفاً يأكله من جهنم، فمن شاء فَليُقْللِ، ومن شاء فليكثرِ](4).

---

(1) حسن. صحيح الجامع (1157) والسلسلة الصحيحة (1510).

(2) تخريج الترغيب (14/3) وصحيح الجامع (5220).

(3) مختصر مسلم (568).

(4) تخريج الترغيب (796/1).

ثالثاً: جيش يخسف به ببيداء المدينة.

وهذا الجيش يخرج فيما يبدو على حين اختلاف وموت خليفة في آخر الزمان، إذ يعوذ عائذ بالبيت فيخرج ذلك الجيش في أثره وفيه من هو مكره على الخروج، ويظهر أن الخروج ما كان إلا ظلماً وبغياً، فيخسف الله عز وجل به في بيداء من الأرض.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: [يعوذ عائذ بالبيت، فَيُبعَثُ إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِفَ بهم. قيل: يا رسول الله! فكيف بمن كان كارها؟ قال: يُخسف به معهم، ولكنه يُبْعثُ يوم القيامة على نِيَّتِهِ][1].

ورواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: [يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، خُسِفَ بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم][2].

ورواه النسائي من حديث أبي هريرة ولفظه: [يغزو هذا البيت جيش فيُخسف بهم بالبيداء][3]. وفي رواية: [لا تنتهي البعوثُ عن غَزْوِ هذا البيت، حتى يُخْسَفَ بجيش منهم][4].

وفي صحيح مسلم بشرح النووي عند حديث غزاة الكعبة ذلك، الذين يهلكهم الله جميعاً وفيه: [فيهم المستبصر، والمجبور وابن السبيل، يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتىٰ، يبعثهم الله على نياتهم].

قال النووي رحمه الله: (وفيه من الفقه التباعد من أهل الظلم والتحذير من مجالستهم ومجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين لئلا ينالهم ما يعاقبون به. وفيه: أن من كثّر سواد قوم جرى عليهم حكمهم في ظاهر عقوبات الدنيا).

وهناك رواية موضحة لملابسات هذا الحدث القادم، في سنن أبي داود ولكن

---

(1) مختصر مسلم (2030).
(2) صحيح الجامع (7970).
(3) السلسلة الصحيحة (2432).
(4) المرجع السابق. وصحيح الجامع (7341).

إسنادها ضعيف وهي من حديث أم سلمة عن النبي ﷺ قال: [يكون اختلاف عند موتِ خليفة، فيخرج رجل من أهلِ المدينة هارباً إلى مكة، فيأتيه الناس من أهل مكة فيخرجوه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليه بعث من الشام، فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة...] الحديث.

ولكن الثابت هو أن الخسف من علامات قرب الساعة لقوله عليه الصلاة والسلام: [إذا سمعتم بجيش قد خسف به قريباً فقد أظلت الساعة][1].

رابعاً: اقتتال فئتين عظيمتين وملاحم كثيرة مع الروم، وعاصمة المسلمين يومئذ في الشام.

فهناك مقتلة عظيمة بين فئتين كبيرتين قرب قيام الساعة وصفها النبي ﷺ كما في الصحيحين عن أبي هريرة قال: [لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله...] الحديث[2].

وفي تلك الأثناء وبعد فتح روما واستعادة الأمة لخلافتها التي على منهاج النبوة والخلافة الراشدة الأولى، ستصير جيوش المسلمين إلى أوج قوتها وأكبر شوكتها في الأرض، وستنشأ نتيجة لذلك الملاحم المختلفة المتتابعة مع الروم الذين يحبون العلو في الأرض والكلمة النافذة فوق الأمم. ويبدو من السنة الصحيحة أن عاصمة الإسلام ستؤول إلى الشام، وأن جيش الشام سيكون من أخطر الجيوش في الأرض آنذاك يرعب الله به أعداءه، ويمحو الله به الباطل في الأرض.

لقد أخرج أحمد في المسند عن أبي قتيلة عن ابن حوالة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: [سيصير الأمر إلى أن تكون جنود مجندة، جند بالشام وجند باليمن وجند بالعراق. فقال ابن حوالة: خر لي يا رسول الله إن أدركت ذلك! قال: عليك بالشام فإنه خيرة الله من أرضه يجتبي إليه خيرته من عباده، فإن أبيتم فعليكم بِيَمَنِكُم

---

(1) السلسلة الصحيحة (1355) وعزاه إلى مسند أحمد (378/6) من حديث بقيرة امرأة القعقاع بن أبي حدرد الأسلمي.

(2) مختصر مسلم (2007) ورواه البخاري.

واسقوا من غدركم ، فإن الله عز وجل قد توكل لي بالشام وأهله][1] .

وفي رواية له بلفظ : [سيكون جند بالشام وجند باليمن . فقال رجل : فخر لي يا رسول الله إذا كان ذلك . فقال رسول الله ﷺ: عليك بالشام عليك بالشام عليك بالشام ، ثلاثاً عليك بالشام ، فمن أبىٰ فليلحق بيمنه وليسق من غدره ، فإن الله تبارك وتعالىٰ قد تكفل لي بالشام وأهله][2] . قال أبو إدريس : (ومن تكفل الله به فلا ضيعة عليه) .

وفي المسند أيضاً عن ابن حوالة الأزدي أن النبي ﷺ قال : [ليفتحن لكم الشام والروم وفارس ، أو الروم وفارس ، حتى يكون لأحدكم من الإبل كذا وكذا ومن البقر كذا وكذا ومن الغنم ، حتى يعطىٰ أحدهم مائة دينار فيسخطها . ثم وضع يده على رأسي أو هامتي فقال : يا ابن حوالة : إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك][3] .

وللشام فضائل كثيرة اختصها الله بها لتتهيأ لتكون مركز قوة المسلمين وعاصمة مستقبل الإسلام . فقد قال الله سبحانه في سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ [الإسراء : 1] .

وقال في سورة الأنبياء : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأنبياء : 81] .

وقال في سورة المائدة : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة : 21] .

وقال في سورة الأنبياء : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 71] .

---

(1) صحيح الجامع (3553) .
(2) فضائل الشام (2) .
(3) المرجع السابق .

وتحفل السنة الصحيحة بفضائل الشام عاصمة جيوش الإسلام في المستقبل القادم. فهي:

1- الشام تقع تحت حماية من الملائكة.

فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال: [سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا طوبىٰ للشام! يا طوبىٰ للشام! يا طوبىٰ للشام! قالوا: يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطوا أجنحتها على الشام] ورواه الإمام أحمد.

وفي رواية: [طوبىٰ للشام إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه]. وفي رواية [لأنَّ ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه][1].

2- الشام أرض الإيمان حين تقع الفتن في الأرض.

فقد أخرج الحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فنظرت فإذا هو نور ساطع عُمد به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام][2].

ورواه الإمام أحمد عن أبي الدرداء بلفظ: [بينا أنا نائم إذ رأيتُ عمودَ الكتاب احتمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهوب به فأتبعته بصري، فَعُمِدَ به إلى الشام، ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام][2].

3- الشام أرض الأمن حين يضطرب الأمن في الأرض.

فقد أخرج الطبراني بسند حسن عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: [رأيتُ في المنام أخذوا عمودَ الكتاب فعمدوا به إلى الشام، فإذا وقعت الفتنُ فالأمن بالشام][3].

---

(1) تخريج فضائل الشام، الأحاديث الصحيحة (502) وصحيح الجامع (3815).
(2) تخريج فضائل الشام.
(3) المرجع السابق.

وقد دعا النبي ﷺ بالبركة لأرض الشام واليمن مراراً.

فقد أخرج الإمام أحمد والبخاري عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: [اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالها مراراً، فلما كان في الثالثة أو الرابعة، قالوا: يا رسول الله، ففي عراقنا!! قال: بها الزلازل، والفتن، وبها يطلع قرنُ الشيطان][1].

قال السيوطي في المراد بقرن الشيطان: (أي حزبه وأهل وقته وزمانه وأعوانه).

وقيل: قد يكون المراد قوة الشيطان وما يستعين به على الإضلال.

قلت: والتاريخ يشهد أن الفتن والابتداع والغلو نشأ في المشرق وكانت الفرقة. وللحديث روايات أخرىٰ عند الإمام مسلم والطبراني وأبي نُعيم وابن عساكر:

[قال ابن عمر: صلى رسول الله ﷺ الفجر ثم أقبل على القوم فقال: (اللهم بارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في مدِّنا وصاعنا، اللهم بارك لنا في حرمنا، وبارك لنا في شامنا).

فقال رجل: وفي العراق؟ فسكت. ثم أعاد، قال الرجل: وفي عراقنا؟ فسكت. ثم قال: اللهم بارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في مدِّنا وصاعنا، اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم اجعل مع البركة بركة، والذي نفسي بيده مامن المدينة شعب ولا نقب إلا وعليه ملكان يحرسانها حتىٰ تقدموا عليها][2].

وفي حديث عند الإمام مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قام عند باب حفصة فقال بيده نحو المشرق: [الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان. قالها (مرتين أو ثلاثاً)].

وفي رواية عن سالم بن عبد الله قال: [يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة؟! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: فذكره][3].

---

(1) المرجع السابق.
(2) تخريج فضائل الشام.
(3) مختصر صحيح مسلم (1997) كِتاب (الفتن). باب: الفتنة نحو المشرق.

وعند ابن عساكر عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ: [اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا. قالوا: وفي نجدنا؟ قال: هناك الزلازل...] الحديث.

والمقصود بـ (نجد) إنما هو العراق كما فسّره بذلك الإمام الخطابي والحافظ ابن حجر العسقلاني.

وفي المسند عن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ستخرج نار في آخر الزمان من (حَضْرَمَوْت) تحشر الناس. قلنا: فماذا تأمرنا يا رسول الله؟ قال: عليكم بالشام][1].

وفيه أيضاً وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لن تبرح هذه الأمة منصورين أينما توجهوا، لا يضرهم من خذلهم من الناس، حتى يأتي أمر الله. زاد برواية ضعيفة: أكثرهم أهل الشام][2].

ولكن صحّ ذكر الشام في حديث معاذ قال: (وهم بالشام) وهو مخرج في الصحيحين، ولفظ مسلم من حديث سعد مرفوعاً: [لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة][3].

وقد فسّره الإمام أحمد وشيخ الإسلام بأن المراد بأهل الغرب أهل الشام لورود ذلك اللفظ صراحة في بعض الأحاديث من جهة، ولأن في لغة أهل المدينة: أهل الغرب هم أهل الشام من جهة أخرىٰ.

4 - الشام هي صفوة الأرض إلى الله، وخَلَقَ فيها صفوته من خلقه وعباده.

فقد أخرج الطبراني في الكبير بسند صحيح عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [صَفْوة الله من أرضه الشام، وفيها صفوته من خلقه وعباده، وليدْخُلنَّ الجنة من أمتي ثلة لا حسابَ عليهم ولا عذاب][4].

---

(1) ويشهد له مافي صحيح مسلم (179/8) كتاب الفتن. باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة. وانظر مختصر مسلم (2037).

(2) ويشهد له مافي صحيح الجامع (5096).

(3) مختصر مسلم (1097).

(4) صحيح الجامع (3659) والسلسلة الصحيحة (1909).

وفي حديث عبد الله بن حوالة أنه قال: [يا رسول الله ، اكتب لي بلداً أكون فيه ، فلو أعلم أنك تبقىٰ لم أختر على قربك. قال: عليك بالشام (ثلاثاً). فلما رأى النبي ﷺ كراهيته للشام قال: هل تدرون ما يقول الله عز وجل؟ يقول: . . . أنت صفوتي من بلادي ، أدخل فيك خيرتي من عبادي . . .][1].

فالنور الساطع للحق سيظهر قبل يوم القيامة أيام الخلافة الراشدة القادمة على منهاج النبوة من أرض الشام ، وسيحمل هذا الحق جند أوفياء ممن اصطفاهم الله لحمل أمانته وحراسة دينه. وقد أمضيت سبع سنين في أمريكا أيام التخصص ، والتقيت بمختلف جنسيات العالم الإسلامي. ورأيت تَمَيُّزاً للمتمسكين من المسلمين من أهل الشام على مختلف تلك الجنسيات من المسلمين على الغالب ، فقد اختصهم الله بعمق رؤيا ووعي للواقع وحضور بين الأمم على مدىٰ التاريخ وتعاقب الأيام ، وقد أفرزت أرض الشام علماء من السابقين والراسخين في العلم والفهم ممن لهم قدم صدق في الأمة حتى يومنا هذا ، وممن كان لهم الأثر العظيم في الوقوف أمام الانحراف الذي كاد يسري في الأمة ويغير على أبنائها.

وهذا النور في الشام قد جاء في حديث ابن حوالة من رواية الطبراني وغيره عن النبي ﷺ قال: [رأيت ليلة أُسْرِيَ بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة ، قلتُ: ما تحملون؟ قالوا: عمود الإسلام أمِرْنَا أن نضعَهُ بالشام. وبينا أنا نائم رأيت عمودَ الكتاب اخْتُلِسَ من تحت وسادتي فظننت أن الله قد تخلَّىٰ من أهل الأرض فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع بين يديَّ ، حتىٰ وضع بالشام. فقال ابن حوالة: يا رسول الله خر لي؟ قال: عليك بالشام][2].

5 - بقاء طائفة من المؤمنين بالشام لحماية الدين وسياسة الدنيا به.

وقد جاءت النصوص الكثيرة تشيد بهذ الطائفة المرابطة لحراسة الحق والاستعلاء به ، ودحض الباطل والظهور عليه.

---

(1) المرجع السابق.
(2) تخريج فضائل الشام.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا فَسَد أهلُ الشام فلا خيرَ فيكم ، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة](1) .

وأخرج البخاري عن عمير بن هانيء عن معاوية بن أبي سفيان أنه خطبهم قال: [سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تزال طائفة من أمتي قائمةً بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمرُ الله ، وهم على ذلك. قال عمير: قال مالك بن يُخامِرَ: يا أمير المؤمنين: سمعت معاذاً يقول: هم بالشام](2) .

ورواه محمد بن كثير عن الأوزاعي عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة وأومأ بيده إلى الشام] .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: (اتفق الشرّاح على أن معنىٰ قوله ظاهرين على من خالفهم أن المراد علوهم عليهم بالغلبة) .

وقال النووي رحمه الله: (يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ، ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومحدث ، ومفسِّر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وزاهد وعابد ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد ، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد ، وافتراقهم في أقطار الأرض) .

وقال عبد الله بن المبارك: (هم عندي أصحاب الحديث) .

وروى أبو يعلىٰ ورجاله ثقات عن أبي صالح الخولاني عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: [لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق ، وما حَوْلَهُ ، وعلى أبواب بيتِ المقْدِس ، وما حَوْلَهُ ، لا يضرهم خُذْلانُ مَنْ خذلهم ، ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة](3) .

---

(1) تخريج المشكاة (6283) وتخريج فضائل الشام رقم (5) وصحيح الجامع (715) .

(2) ورواه أحمد في المسند. انظر صحيح الجامع (7167) .

(3) تخريج فضائل الشام.

6 ـ دمشق فسطاط المسلمين يوم الملاحم المتتابعة ، وفيها نزول عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وهي أرض المحشر .

فقد أخرج الطبراني والبيهقي والإمام أحمد وابن حبان عن عوف بن مالك قال : [أتيتُ النبي ﷺ وهو في خباء له فسلمت عليه فقال : عوف بن مالك؟ فقلت : نعم . فقال : ادخل ، فقلت : أكُلِّي أو بعضي؟ فقال : بل كُلُّكَ . فقال : يا عوف بن مالك اعدُدْ ستاً بين يدي الساعة : أولهن موتي ، فاستبكيت حتى جعل يسكتني ، ثم قال : قُلْ إحدىٰ ، فقلت : إحْدىٰ . والثانية : فتْحُ بيتِ المَقْدِسِ ، قل ثنتان ، فقلت : ثنتان . فقال : والثالثة : مُوْتان تكون في أمتي تأخذهم مثل نعاس الغنم ، قل ثلاث فقلت ثلاث . فقال : والرابعة : فتنة تكون في أمتي وعظمها . ثم قال : قل أربع فقلت أربع . فقال : والخامسة يفيض فيكم المال حتىٰ إن الرجل لَيُعْطى المائة دينار ، فيسخطها ، قل خمس فقلت : خمس . فقال : والسادسة هُدْنة بينكم وبَيْنَ بني الأصفر ، فيسيرون على ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً ، فُسطاط المسلمين يومئذ في أرض يُقال لها الغوطة في مدينة يُقال لها دمشق][(1)] .

والفسطاط : هو المخيّم والتجمع والمؤتمر ، ففيه إشارة إلى أن مركز قيادة المسلمين يومئذ في دمشق . ومركز القرار العسكري ومكان تنظيم الجيوش وانطلاقها هو الغوطة التي تحيط بدمشق خير منازل المسلمين يومئذ .

وبعد استكمال هذا التبيان لفضائل دمشق عاصمة الشام آنذاك ، نعود إلى بيان الملاحم المتعاقبة مع الروم والتي سينتصر جيش المسلمين فيه غالباً ، ليؤيد الله بهم الدين .

فقد أخرج ابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : [إذا وقعت الملاحم بعث الله من دمشق بعثاً من الموالي أكرم العرب فرساً وأجودهم سلاحاً يؤيد الله بهم الدين][(2)] .

ويوم غزا التتار بلاد الشام ، حرّض شيخ الإسلام المسلمين على غزوهم

---

(1) فضائل الشام ص 23 . وتخريج الطحاوية (502) وصحيح الجامع (1056) .

(2) السلسلة الصحيحة (2777) .

وأمرهم بلزوم دمشق ونهاهم عن الفرار إلى مصر ، واستدعىٰ العسكر المصري إلى الشام ، لتثبيت إخوانهم في الشام ، وسافر بنفسه إلى مصر سنة 700 هـ ورجع قبل الجيش ، وكتب رسالة كبيرة قارن فيها بين غزوة الخندق وموقف المسلمين تجاه التتار ، وبشر الناس بالنصر ، وكان الأمر كما قال بعون الله وتوفيقه. فاجتماع اليهود والمشركين والمناقين يوم الخندق ، قابله اجتماع التتار من الخارج والنصارى والروافض من الداخل ، يوم حصارهم لدمشق. وقابل الرياح يوم الخندق ثلوج وأمطار يوم غزو التتار وكانت من أسباب رحيلهم ، وكما كان رحيل الأحزاب عن المدينة ، بعد مناوشات بسيطة ، فقد قابله رحيل التتار عن الشام هذه السنة بعد مناوشات بسيطة حول دمشق وحماة.

وكان فيما ذكر رحمه الله في حث الجنود على لزوم الشام حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [سيكون هجرة بعد هجرة ، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ، ويبقىٰ في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم ، وتقذرهم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير. أخرجه أبو داود بسند حسن وزاد فيه رواية للإمام أحمد وابن عساكر: تبيت معهم حيثما كانوا ، وتقيل معهم حيثما قالوا].

ثم قال: (فقد أخبر أن خيار أهل الأرض من ألزمهم مهاجر إبراهيم ، بخلاف من يأتي إليه ثم يذهب عنه ، ومهاجر إبراهيم هي الشام. قال: وبيان أن هذه الهجرة التي لهم بعد هجرة أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة ، لأن الهجرة إلى حيث يكون الرسول وآثاره ، وقد جعل الله مهاجر إبراهيم تعدل مهاجر نبينا ﷺ فإن الهجرة إلى مهاجره انقطعت بفتح مكة) انتهىٰ.

وأما نزول عيسىٰ بن مريم في دمشق فثابت في السنة الصحيحة. فقد أخرج الطبراني بسند صحيح عن أوس بن أوس أنه سمع النبي ﷺ يقول: [ينزل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق][(1)].

وفي رواية: (عليه ممصرتان ، وكأن رأسه يقطر منه الجُمان).

---

(1) صحيح الجامع (8025).

والممصرة من الثياب: هي التي فيها صفرة خفيفة. والجمان: صغار اللؤلؤ.

وأما كون الشام أرض المحشر فقد ثبت ذلك من حديث الإمام أحمد وغيره بأسانيد صحيحة عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: [الشام أرض المحشر والمنشر](1).

قال شيخ الإسلام: (والشام إليها يحشر الناس كما في قوله: «لأول الحشر» نبه على الحشر الثاني، فمكة مبدأ، وإيلياء معاد في الخلق، وكذلك بدء الأمر. فإنه أُسري بالرسول من مكة إلى إيلياء، ومبعثه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى يملكه المهدي بالشام، فمكة هي الأول، والشام هي الآخر في الخلق والأمر، في الكلمات الكونية والدينية).

وبعد ذكر هذه الفضائل التي اتصفت بها بلاد الشام، وعاصمتها دمشق عاصمة الحق والقوة كلما زادت الفتن في الأرض على مر الزمان، نعود بعون الله وتوفيقه لذكر تلك الملاحم والأحداث الجسام، التي ستشهدها هذه الأرض المباركة مع مرور الأيام، والتي سيهزم بها جيوش الكفر والبغي في الأرض والكبِرِ والطغيان، أمام جيوش الحق التي تكون قاعدتها يومئذ في الشام.

وقبل ذكر بعض تفاصيل تلك المعارك والملاحم، أحب أن أشير إلى نبوءة المصطفى ﷺ **بأن الروم هم أكثر الناس في الأرض مع اقتراب الساعة، وهم ولاة الأمر اليوم في أكثر الأرض، آية من آيات النبوة.**

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن موسىٰ بن عُلَيٍّ عن أبيه قال: [قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقوم الساعة والروم أكثر الناس. فقال له عمرو: أبْصِر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: لئن قلت ذاك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحْلَمُ الناس عند فتنة، وأسرَعهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكُهُم كرَّةً بعد فرة، وخيرهُمْ لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك](2).

قلت: ولقد شاهدت وعاينت هذه الخصال بنفسي من هؤلاء الروم النصارى

---

(1) أحاديث فضائل الشام رقم (4).

(2) مختصر صحيح مسلم (2026).

عندمامكثت بينهم سبع سنين في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهم متصفون بذلك في بلادهم فعلاً ، إذ يقدمون للمسكين واليتيم والضعيف خدمات واسعة ، ويصرفون له عناية كبيرة ، ويوظفون لذلك أموالاً طائلة ، ثم إنهم قد تألقوا في مجال الحكم واختيار الحاكم ونصحه ونقده إذا دعت الحاجة ، وقد اشتهرت بينهم الشورىٰ ليحفظوا حكامهم من الوقوع في الظلم والتعسف وحظ النفس ، أضف إلى ذلك شدة حرصهم على حياتهم ودقة حساباتهم عند الحروب والفتن ، وسرعتهم في الإفاقة بعد المصائب ، والتهيؤ لاستقبال ما يحمل لهم المستقبل. لقد أتقنوا الصناعة والزراعة ونبغوا في العلوم الكونية وتسخير الطبيعة لبناء صروح حضارتهم ، وتألقوا في الحرص على الوقت وكيفية الاستفادة منه ، في وقت تضيع فيه أوقات أبناء أمتنا وتضيع طاقاتهم وتبدد أموالهم وجهودهم خلف الشهوات والجهل وحب الرخاء.

ولقد كان من أمرهم أن سَلَّطَهُم الله علىٰ كثير من بلاد أمتنا فمكثوا فيها أياماً وسنيناً للاستفادة من كنوزها وخيراتها وعقولها لتسخر لمصالحهم وللإسهام في بناء صروح مجدهم.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [منعت العراق درهَمَها وقفيزَها ، ومنعتِ الشام مُدْيَها ودينارها ، ومنعت مصر إرْدَبَّها ودينارها ، وعُدْتُم من حيث بدأتم ، وعدتم من حيث بدأتم ، وعدتم من حيث بدأتم. شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمُه][1].

والقفيز: مكيال معروف لأهل العراق ، وهو ثمانية مكاكيك ، والمكوك: صاع ونصف ، والمُدْي مكيال معروف لأهل الشام يسع خمسة عشر مكوكاً ، والإرْدَبّ مكيال لأهل مصر يسع أربعة وعشرين صاعاً. ومعنىٰ الحديث أن العجم والروم يستولون على هذه البلاد في آخر الزمان فيمنعون حصول ذلك الخير للمسلمين. وقد انسحبوا ولله الحمد فاستقلت سورية والعراق ومصر ، وإن كانت بقية آثارهم قد تركوها وخلفوها قبل خروجهم ، لتظهر في مختلف نواحي الحياة.

---

(1) ورواه أحمد في المسند. صحيح الجامع (6499).

ولكن النبي ﷺ أخبر عن وجود طائفة الحق التي سيكتب الله لها الاستمرار والثبات حتىٰ تحقيق النصر الحقيقي الذي يهيء الأرض لاستقبال خلافة الحق والعدل وذلك قبل خروج الدجال.

فقد أخرج الإمام مسلم عن جابر بن سمرة عن نافع بن عُتْبَةَ رضي الله عنهما قال: [كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، قال: فأتى النبي ﷺ قوم من المغرب ـ يعني مغرب المدينة ـ عليهم ثياب الصوف فوافقوه عند أَكَمَة، فإنهم لقيام، ورسول الله ﷺ قاعد، قال: فقالت لي نفسي: ائتهم فقم بينهم وبينه لا يغتالونه، قال: ثم قلتُ: لعله نَجِيٌّ معهم، فأتيتهم، فقمت بينهم وبينه، قال: فحفظت منه أربع كلمات أَعُدُّهُنَّ في يدي، قال: تغزون جزيرة العرب، فيفتحها الله عز وجل، ثم فارسَ، فيفتحها الله عز وجل، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله. قال: فقال نافع: يا جابر لا نُرىٰ أنّ الدجال يخرج حتى تُفْتَح الروم][1].

فإلى تفاصيل هذه المعارك القادمة من الأحاديث الصحيحة:

الحديث الأول: ما في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقوم الساعة حتىٰ تقاتلوا قوماً، نعالهم الشَّعْرُ ـ أي من جلود غير مدبوغة ـ وحتى تُقاتلوا التركَ صغارَ الأعين، حمر الوجوه، ذُلفَ الأنوف ـ أي فطسها وصغارها ـ، كأن وجوههم المجَان المُطْرَقة ـ أي التروس التي يطرق بعضها بعضا][2].

الحديث الثاني: روى الإمام البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقوم الساعةُ حتىٰ تُقاتلوا خوزاً وكرمان من الأعاجم، حمر الوجوه، فطس الأنوف، صغار الأعين، وجوههم المجان المطرقة، نعالهم الشَّعْر][3].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قَوْماً صغِارَ الأعْين، عِرَاض الوجوه، كأن أعينَهم حَدَقُ الجراد، كأن وجوههم المِجانُّ المُطْرَقة، ينتعلون

---

(1) مختصر صحيح مسلم (2028).
(2) صحيح الجامع (7290).
(3) صحيح الجامع (7292).

الشَّعْرَ ، ويتخذون الدَّرْقَ ، حتى يَرْبطوا خيولهم بالنخل][1] .

وجميعها إشارة إلى معركة قادمة مع الترك .

الحديث الرابع : أخرج أبو داود بإسناد جيد عن أبي بكرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [ينزل أناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة ، عند نهر يقال له دجلةُ ، يكون عليه جِسْرٌ ، يكثر أهلها ، ويكون من أمصار المسلمين ، وإذا كان في آخر الزمان جاء بنو قَنْطوراءَ ـ اسم لأبي الترك ـ عِراضُ الوجوه ، صغار الأعين ، حتى ينزلوا على شط النّهر ، فيتفرق أهلها ثلاثَ فِرَق ، فرقَةٌ يأخذون في أذناب البقر والبريّة وهلكوا ، وفرقة يأخذون لأنفسهم ـ أي يطلبون الأمان من الترك ـ وهلكوا ، وفرقة يجعلون ذراريهم خَلْفَ ظهورهم ويُقاتلونهم وهم الشهداء][2] .

ويبدو من هذه الأحاديث أن المعارك مع الترك كثيرة ، وقد وصفهم رسول الله ﷺ أنهم ذلف الأنوف أي في أنوفهم فطس وقصر ، مع استواء الأرنبة وغلظها ، وأن وجوههم كالمجَانِّ المُطْرَقَة ، والمجان جمع مجن وهو الترس ، و(المطرقة) ، أي ألبست الأطرقة من الجلود وهي الأغشية ، جمع طراق ، وهي جلدة تقدر على قدر الترس وتلصق عليها . فشبه عليه الصلاة والسلام وجوههم بالترس لبسطها وتدويرها ، وبالمطرقة : لغلظها وكثرة لحمها ، ونتوء وجناتها . وقد عَيّنَهُم في الحديث الثاني بقوله : (حتىٰ تقاتلوا خوزاً وكِرْمان من الأعاجم) . وخوز : بلاد الأهواز وتستر ، وكرمان : بين خراسان وبحر الهند .

وقد جاء في سند لين عند أبي داود وصف أدق لهذه المعارك من حديث بريدة قال : (تسوقونهم ثلاث مرات حتىٰ تلحقوهم بجزيرة العرب ، فأما في السياقة الأولى فينجو من هرب منهم ، وأما في الثانية فينجو بعض ويهلك بعض ، وأما في الثالثة فيُصْطَلمُون ـ أي يُحصدون بالسيف ويُستأصلون ـ) .

الحديث الخامس : أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ذي مِخْبَرٍ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ستصالحون الروم صلحاً آمناً ، فتغزون أنتم وهم عدواً من

---

(1) السلسلة الصحيحة (2429) .

(2) حسن . تخريج المشكاة (5432) وصحيح الجامع (8026) .

ورائكم ، فتُنْصَرون وتغنمون وتسلمون ثم ترجعون ، حتى تنزلوا بِمَرْجٍ ذي تُلول ، فيرفع رجلٌ من أهل النصرانية الصليب ، فيقول: غَلَبَ الصليبُ ، فيَغضب رجل من المسلمين فيدقه ـ أي فيكسره ـ فعند ذلك تغدُر الروم ، وتجمع للملحمة. وزاد بعضهم: فيثور المسلمون إلى أسلحتهم ، فيقتتلون ، فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة](1).

قلت: وهذا التحالف لا يكون إلا بحضور الخليفة المسلم آنذاك ، فإن العلاقات الدولية لا ينبغي لأحد البتّ فيها إلا الحاكم المسلم صاحب الشوكة المطاع ، وفيه إشارة إلى وجود الخلافة في تلك الأيام ، وتَظَلُّل المسلمين يومئذ تحت رايتها ، وفي الحديث فوائد كثيرة:

1- جواز التحالف بين المسلمين وأهل الكتاب ضد من هو أخطر منهم من المشركين.

2- وجود الحاكم المسلم الذي يؤول إليه تقدير مثل هذه المعاهدات.

3- رجحان شوكة المسلمين على حليفهم من غيرهم للتصدي لحالة مظنة ظهور الغدر منه.

4- عدم ذوبان الأهداف والرايات ، بل يقال للمؤمن مؤمنٌ صراحة ، وللكافر كافرٌ صراحة.

5- عدم السماح للحليف من غير المسلمين بإظهار ما يؤذي دين المسلمين.

6- الغضب لله ونقض التحالف عند محاولة الكفر الاستعلاء براية الشرك.

7- إثبات الله سبحانه الشهادة لمن يقتل دون ذلك.

فهذه الوقعة ستكون مع اقتراب الساعة ، وهي نتيجة ظرف مرحلي طارىء يقدره الخليفة آنذاك ، للظهور على عدو أخطر يعيث في الأرض فساداً ، لكسر شوكته واستعلاء الحق عليه.

وآخر تلك الملاحم فيما تثبت السنة ، ملحمة في منطقة دابق قرب مدينة

---

(1) صحيح. تخريج المشكاة (5428) وصحيح الجامع (3606).

حلب ، وهي أشد تلك المعارك ضراوة ومن أقسىٰ ما شهدته الأرض على ظهرها من القتال ، وستكون القسطنطينية ـ استانبول في تركيا اليوم ـ عاصمة الروم ، وقاعدة جيوشها ، وتكون الملاحم المتتابعة بين هذه الجيوش وجيوش المسلمين في الشام ، وسيحالف النصر فيما يظهر المسلمين في معظم تلك اللقاءات إن لم تكن جميعها ، وسيشارك في هذه المعركة جيش المدينة الذي يضم من خيار أهل الأرض يومئذ ، والذي هو على صلة وثيقة بجيش الشام الذي يضم صفوة الله وخيرته من خلقه أيضاً. وتفصيل ذلك في الحديث التالي :

الحديث السادس: فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق ـ الأعماق اسم موضع بالمدينة ودابق كذلك وقيل: من أعمال حلب ـ فيخرج إليهم جيش من المدينة ، من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافّوا قالت الروم: خَلُّوا بيننا وبين الذين سَبَوْا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم ، فينهزِمُ ثلثٌ لا يتوبُ الله عليهم أبداً ، ويُقْتَلُ ثلثهم أفضل الشهداء عند الله ، ويفتتح الثلثُ لا يفتنون أبداً ، فيفتتحون قسطنطينية ، فبيناهم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيحَ قد خلفكم في أهليكم فيخرجون ، وذلك باطل ، فإذا جاؤوا الشام خرج ، فبيناهم يُعدّون للقتال يسوُّون الصفوف ، إذْ أُقيمت الصلاة ، فينزل عيسى بن مريم ، فأمَّهم ، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لا نذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه في حَرْبَتِهِ][1] .

فهذا الحديث العظيم يشير إلى نهاية الصليبيّة في الأرض ، وإلى شدة بأس جيوش المسلمين يومئذ ، وإلى عميق التنسيق بين قيادة الشام والمدينة ، فإن قيادة الروم فوجئت في دابق بقدوم جيش عظيم من المدينة ، فقالوا لقادته: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، أي اتركونا وأهل الشام الذين كثر انتصارهم علينا في ملاحم سابقة ، وكثر سبيهم منها لنقتص منهم ، فما كان من قيادة جيش المدينة إلا أن قالوا: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا ، ثم يكون القتال الشديد الذي يدوم

---

(1) مختصر صحيح مسلم (2029).

ثلاثة أيام ، حيث يفرّ المنافقون في اليوم الأول من شراسة القتال ، فأولئك لا يتوب الله عليهم أبداً ، ويقتل الثلث في اليوم الثاني وقد اعتبرهم عليه الصلاة والسلام أفضل الشهداء في الأرض عند الله ، ثم يرسل الله النصر في اليوم الثالث لبقية الجيش المسلم ، ويرسل الهزيمة على جيش الروم الذي سينال شر هزيمة .

وقد فصّل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الموقعة تفصيلاً رائعاً رواه الإمام مسلم في صحيحه حيث قال : [إن الساعة لا تقومُ حتى لا يُقْسَمَ ميراثٌ ، ولا يُفرحَ بغنيمة . ثم قال ـ بيده هكذا ونحا نحو الشام ـ فقال : عدوٌّ يجمعون لأهل الشام ، ويجمع لهم أهل الإسلام ، يعني الروم ، فيتشرَّط (وفي رواية فيشترط) المسلمون شُرطةً ـ أي طائفة من الجيش تتقدم للقتال ـ للموت لا ترجع إلا غالبةً ، فيقتتلون ، حتى يحجزَ بَيْنَهم الليل ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفنىٰ الشرطة ، ثم يتشرط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون ، حتى يحجز بينهم الليل ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفنىٰ الشرطة ، ثم يتشرط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون حتىٰ يمسوا ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب وتفنىٰ الشرطة ، فإذا كان يوم الرابع نَهَدَ إليهم بقيةُ أهل الإسلام فيجعل الله الدَبَرَة عليهم ـ أي الهزيمة ـ ، فيقتتلون مقتلة لم يُر مثلها ، حتى إن الطائر ليمرُّ بجنباتهم فلا يخلّفهم حتى يخرّ ميّتاً ، فيتعادّ ـ أي يعد بعضهم بعضاً ـ بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد ، فبأي غنيمة يفرح أو أيّ ميراث يقسم؟

فبيناهم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك ، فجاءهم الصريخ : أنّ الدجّال قد خلفهم في ذراريّهم ، فيرفضون ـ أي يتركون ـ ما في أيديهم ، ويُقبلون فيبعثون عشر فوارسَ طليعة ، قال رسول الله ﷺ : (إني لأعرف أسمائهم وأسماءَ آبائهم ، وألوان خيولهم ، هم خير فوارس ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ)][1] .

وفي رواية فيها : (وتكونُ عند ذاكم القتال رَدَّةٌ شديدة) . وفي نهاية الحديث :

---

(1) صحيح مسلم (8/ 177 - 178) كتاب الفتن ، باب : في قتال الروم وكثرة القتل عند خروج الدجال .

(فيجعل الله الدَّبَرة عليهم) أي على الروم بمعنىٰ الدائرة والهزيمة. وقد رواه بعض رواة مسلم بلفظ (الدائرة) وهي بمعنىٰ الديرة. وقال الأزهري: (الدائرة هي الدولة تدور على الأعداء وقيل هي الحادثة).

وقد فصل رسول الله ﷺ هذه الملحمة الكبيرة في حديث آخر رواه الإمام مسلم، فيه تفصيل بعض صفات القسطنطينية وصفات فتحها الثاني، فإلى ذلك:

الحديث السابع: روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: [هل سمعتم بمدينة، جانب منها في البر، وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم يا رسول الله! قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا، فلم يُقاتِلوا بسلاح ولم يَرْمُوا بِسَهم، قالوا لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانِبَيْها، قال ثور[1]: لا أعلمه إلا قال الذي في البحر، ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر فَيُفَرَّجُ لهم فيدخلوها فيغْنَموا، (وفي رواية: فيدخلونها فيغنمون)، فبينما هُمْ يقتسمون المغانِمَ إذْ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كُلَّ شيء ويَرْجِعون][2].

قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: (قال القاضي كذا هو في جميع أصول صحيح مسلم (من بني إسحاق) قال: قال بعضهم: المعروف المحفوظ من بني إسماعيل، وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه، لأنه إنما أراد العرب وهذه المدينة هي القسطنطينية).

فهذا الحديث العظيم يُوضح به النبي ﷺ عدد الجيش المسلم الذي سيفتح الفتح الثاني للقسطنطينية، ويبيّن فيه عليه الصلاة والسلام صفة أولئك الرجال الذي تركوا المغانم التي في أيديهم لما سمعوا بخطرٍ أكبر وهو خروج المسيح الدجال الذي يفتن الناس ويدعوهم إلى عبادته، إذ كان أولئك الأبطال أهل علم بالكتاب والسنة وما أخبر به نبيّ الأمة عليه السلام من الأهوال والفتن التي تهدد الناس مع قيام

---

(1) هو ثور بن زيد الديلي أحد رواة الحديث.

(2) مختصر صحيح مسلم (2014) كتاب الفتن. باب: لا تقوم الساعة حتى تغزىٰ مدينة جانبها في البحر والآخر في البر.

الساعة ، فباشروا الأمر وسارعوا إلى العودة لعلمهم بخطورة الدجال على ذراريهم ، ولعلمهم بصفات الدجال التي أعطاه الله إياها لفتنة من ضعف يقينه بالله وتمسكه بدينه ، ليقع في مصائد ادعاءات الربوبية والألوهية من المسيح الدجال فيتبعه ويعبده من دون الله ، كما سيكون ذلك من المغضوب عليهم اليهود كما سنرى إن شاء الله تعالىٰ .

ويبدو لي من هـذه الأحاديث التي تذكر صفات هـذه الملحمة في دابق مع الروم أن قائد الجيش آنذاك هو آخر خليفة راشد في الأمة وهو محمد بن عبد الله المهدي ، كما سيدل على ذلك تفصيل الإعداد بعد ذلك لقتال اليهود ونزول عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام للمشاركة في يوم الملحمة الكبرىٰ وفي آخر معركة في الأرض بين المسلمين واليهود ، والتي بها تنتهي اليهودية من الأرض وينحسر المكر والخداع في الأرض إلى غير رجعة .

خامساً: حكم الخليفة الراشد محمد بن عبد الله المهدي .

وهو آخر خليفة في الأمة من الخلفاء الذين وصفهم رسول الله ﷺ أنهم على منهاج النبوة ، فقد سبق بيان عددهم أنه اثنا عشر خليفة ، قسمهم الله سبحانه بحكمته وبعلمه على مرحلتين . المرحلة الأولى : وهي مرحلة الخلافة الراشدة بعد وفاة النبي ﷺ . والمرحلة الثانية : هي الخلافة الراشدة التي يختم بها الله الحياة في الأرض قبل قيام الساعة ، والتي جاء ذكرها في حديث الإمام أحمد من طريق حذيفة يرفعه إلى النبي ﷺ حيث قال فيه : [. . ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت][1] .

فآخر هؤلاء الخلفاء الذين يمضون في الأمة على هدي النبوة هو الخليفة محمد بن عبد الله المهدي ، وهو الخليفة الثاني عشر في الأمة من بين مجموع خلفائها المهديين الراشدين .

فقد أخرج الشيخان وبعض أصحاب السنن عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ

---

(1) قد مضىٰ بتمامه أول هذا البحث .

قال: [لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة ، كلهم تجتمع عليه الأمة ، كلهم من قريش ، ثم يكون الهرج][1] .

وفي رواية مسلم: [لا يزال هذا الأمر عزيزاً منيعاً ينصرون على من ناوأهم عليه إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش][1] .

ورواه أحمد أيضاً بلفظ: [لا يزال هذا الأمر ماضياً حتى يقوم اثنا عشر أميراً كلهم من قريش][1] .

وقد اختص الله قريشاً بحكمته سبحانه بفضائل كثيرة ، وبمواهب كبيرة ، فالرجل من قريش يجمع الله له في الإسلام طاقات وفيرة ، وقد قضىٰ أن تختار الأمة لقيادتها من رجال قريش ، وقد مضىٰ بعض هذا الاختيار يوم اختاروا الأربعة الخلفاء الراشدين وظهر للأمة قوة ذلك الاختيار الذي تم بعون الله وتوفيقه .

فقد أخرج البخاري في التاريخ الكبير عن أم هانىء مرفوعاً: [فضل الله قريشاً بسبع خصال:

1- فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قرشي .

2- وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون .

3- وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يُدخِل فيهم غيرهم: (لإيلاف قريش) .

4- وفضلهم بأن فيهم النبوة .

5- والخلافة .

6- والحجابة .

7- والسقاية] وسنده حسن[2] .

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن من حديث عتبة بن عبد مرفوعاً: [الخلافة

---

(1) قد مضى تخريجه أوائل هذا البحث .

(2) السلسلة الصحيحة(1944) وصحيح الجامع (4085) .

في قريش ، والحكمُ في الأنصار ، والدعوة في الحبشة ، والهجرة في المسلمين ، والمهاجرين بعد][1] .

وكذلك أخرج ابن حبان والحاكم وأحمد عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : [إن للقرشي مِثْلَي قوةِ الرجل من غَيْر قريش][2] .

وقد قيل في القرشية أنها النسب إلى (النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر) .

وقيل بل إلى (فهر بن مالك) .

قال الشنقيطي في أضواء البيان : (فالفهري قرشي بلا نزاع ، ومن كان من أولاد مالك بن النضر ، أو أولاد النضر بن كنانة ففيه خلاف ، ومن كان من أولاد كنانة من غير النضر فليس بقرشي بلا نزاع) .

قلت : ويؤيد هذا ما روى مسلم عن واثلة بن الأسقَع عن النبي ﷺ قال : [إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كَنانة ، واصطفىٰ من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم][3] .

ومفهوم الأئمة من قريش أن خلاصة سعي الأمة عند اختيارها لخليفتها وقيادتها سيقع على من يحقق شروط الخلافة الشرعية التي تركنا عليها رسول الله ﷺ ومنها تفضيل القرشية عند استواء بقية الشروط ، والتي هي في الإجمال : (الإسلام ، والعقل ، والبلوغ ، والحرية ، والذكورة ، والعلم ، والعدالة ، والكفاءة النفسية ، والكفاءة الجسمية ، وعدم الحرص عليها ، والقرشية) .

وقد خرج البخاري في (باب الأمراء من قريش) حديثاً عن عبد الله بن عمرو من طريق الزهري قال : كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية ـ وهم عنده في وفد قريش ـ أن عبد الله بن عمرو يحدث أنه سيكون ملك من قحطان ، قال : [فغضب فقام فأثنىٰ على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد : فإنه بلغني أن رجالاً منكم

---

(1) صحيح الجامع (3337) .
(2) السلسلة الصحيحة (1697) وصحيح الجامع (2177) .
(3) مختصر صحيح مسلم (1523) .

يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ وأولئك جهالكم ، فإياكم والأماني التي تضل أهلها ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدّين][1] .

قلت : أما لو أراد عبد الله بن عمرو ـ القحطاني ـ الذي في الحديث إشارة له كما خَرَّجَ البخاري في كتاب الفتن من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطانَ يسوق الناس بعصاه][2] فلا وجه لإنكار معاوية حينئذ .

ومن تلك الأحاديث الدالة على وجوب اختيار القرشي عند استواء بقية الشروط الشرعية للإمامة العظمىٰ مافي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [الناس تبع لقريش في هذا الشأن ، مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم][3] .

وفيهما أيضاً وفي المسند كذلك عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : [لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان][4] .

والمراد انتفاء حصول ذلك ، أي أن الأمة ستختار بجهدها وإخلاصها الخليفة الذي ارتضاه الله لها وسمّاه .

وقد فصَّل عليه الصلاة والسلام بعض الصفات البارزة لأولئك الخلفاء القرشيين .

فقد أخرج أحمد في المسند بسند صحيح عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : [الأئمة من قريش ، إن لهم عليكم حقاً ، ولكم عليهم حقاً مثل ذلك ، ما إن استرحموا رحموا ، وإن عاهدوا وفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين][5] .

---

(1) صحيح الجامع (2240) .

(2) صحيح الجامع (7302) .

(3) ويشهد له حديث جابر عند الإمام مسلم بلفظ : (الناس تبع لقريش في الخير والشر) . انظر صحيح الجامع (6671) .

(4) قد مضىٰ .

(5) رواه أحمد في المسند (183/3) وصححه الألباني . انظر (531/2) من كتاب السنة .

وأخرج أيضاً بإسنادٍ مرسل حسن أن أبا بكر وعمر لما ذهبا إلى سقيفة بني ساعدة حين اجتمع الأنصار لاختيار خليفة رسول الله ﷺ ، تكلم أبو بكر ولم يترك شيئاً أنزل في الأنصار ، وذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا ذكره وقال: [ولقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال:

لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً سلكت وادي الأنصار ، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر ، فَبَرُّ الناس تبع لبرهم ، وفاجرهم تبع لفاجرهم ، فقال له سعد: صدقت ، نحن الوزراء وأنتم الأمراء][1] .

وبعد هـذه المقدمة ، نأتي إلى بيـان **صفات آخر هؤلاء الخلفـاء** الراشديـن المهديين وهو محمد بن عبد الله المهدي رضي الله عنه ، فإلى تفصيل ذلك من الأحاديث الصحيحة.

الحديث الأول: أخرج الإمام الترمذي في جامعه والإمام أبو داود في سننه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [لا تذهب الدنيا حتى يملك العربَ رجل من أهل بيتي ، يُواطِئُ اسمه اسمي] وسنده صحيح[2] . ورواه بلفظ آخر: [يلي رجلٌ من أهل بيتي يُواطىء اسمُهُ اسْمي] وكلاهما حسن صحيح[2] .

الحديث الثاني: روى أبوداود بإسناد حسن عنه بلفظ آخر: [لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطّول الله ذلك اليومَ حتى يبعثَ الله فيه رجلاً مني ـ أو من أهل بيتي ـ يواطىء اسمه اسمي واسمُ أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما مُلئت ظلماً وجوراً][3] . وفي لفظ عند ابن ماجه عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: [المهدي مِنّا ، أهلَ البيتِ ، يُصْلِحُهُ الله في ليلة][4] .

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بإسناد جيد عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: [المهدي من عترتي من أولاد فاطمة]. ورواه ابن ماجه عن سعيد بن المسيب قال:

---

(1) رواه أحمد في مسنده بإسناد مرسل حسن (5/1). انظر كتاب الإمامة العظمىٰ ـ الدميجي ص 271.

(2) تخريج المشكاة (5452) وصحيح الجامع (7152).

(3) صحيح الجامع (5180).

(4) صحيح الجامع (6611).

كنا عند أم سلمة ، فتذاكرنا المهدي ، فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [المَهْديّ مِنْ وَلَدِ فاطِمة][1] .

الحديث الرابع: أخرج أبو داود أيضاً بسند حسن عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [المهدي مني ، أجْلىٰ الجبهة ، أقْنىٰ الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما مُلئت ظلماً وجوراً ، يملك سبع سنين][2] .

فذكر من صفاته:

1- أنّه من أهل بيت النبي ﷺ يُصلحه الله في ليلة .

2- أنّه من نسل ابنته فاطمة رضي الله عنها .

3- أن اسمه يواطىء اسم رسول الله ﷺ كما أن اسمَ أبيه يواطىء اسم والِد النبي عليه الصلاة والسلام أي محمد بن عبد الله .

4- أنّه سيحكم في الأمة سبع سنين يملؤها قسطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظلماًوجوراً .

5- أنّه أجلى الجبهة أي واسعها ، أقنىٰ الأنف أي طويله ودقيق أرنبته .

6- أنه لابد خارج وظاهر ولا تقوم الساعة حتىٰ يستقر حكمه وعدله في الأرض .

الحديث الخامس: أخرج البزار والطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [لَتُمْلأَنَّ الأرضُ جَوْراً وظُلماً ، فإذا مُلِئَتْ جَوْراً وظُلماً ، يبعثُ الله رجلاً منّي ، اسمُه اسمي ، واسمُ أبيه اسمُ أبي ، فيملؤُها عَدْلاً وقِسْطاً ، كما مُلِئَتْ جَوْراً وظلماً ، فلا تمنعُ السماء شيئاً من قطرها ، ولا الأرض شيئاً من نباتها ، يَمْكُثُ فيكم سبعاً ، أو ثمانياً ، فإن أكثرَ فتِسعاً] وسنده صحيح[3] .

الحديث السادس: أخرج أحمد وابن حبان والحاكم بسند صحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [لَتُملأنَ الأرَضُ ظُلماً وعدواناً ، ثم ليخرجَنَّ رجل من أهل

---

(1) صحيح الجامع (6610) .
(2) صحيح الجامع (6612) .
(3) السلسلة الصحيحة (1529) .

بيتي ، حتى يملأَها قِسطاً وعدلاً ، كما مُلِئَتْ ظلماً وعدواناً][1] .

الحديث السابع : أخرج ابن ماجه بسند حسن عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : [يكونُ في أمتي المَهْدِيُّ . إن قُصِرَ فَسَبْعٌ ، وإلا فَتِسْعٌ . فتنْعَمُ فيه أمتي نَعْمَةً لم يَنْعموا مثلَها قط . تؤتي أُكُلَها . ولا تَدَّخِرُ منهم شيئاً . والمال يومئذ كدُوسٌ . فيقوم الرَّجُلُ فيقول : يا مَهْدِيُّ ! أعْطني . فيقول : خُذْ][2] .

ورواه الترمذي بلفظ آخر عن أبي سعيد قال : [خشينا أن يكون بعد نبينا حدث ، فسألنا نبي الله ﷺ فقال : إن في أمتي المَهْدِيَّ يخْرُج يعيشُ خمْساً ، أوْ سبعاً ، أو تِسْعاً ـ زيد الشَّاكُ ـ قال : قلنا : وما ذاك ، قال : سنين ، قال : فيجيء إليه الرجل فيقول : يا مَهْدِيُّ ! أعطِني أعْطِني . قال : فيحثي لَهُ في ثوبه ما استطاع أن يَحْمِلَهُ] وسنده حسن[3] .

سادساً : خروج المسيح الدجال .

فإنه بعد خروج الجيش المسلم الذي سيغزو القسطنطينية ويفتحها الفتح الثاني ، بإمداد من جيش المدينة الذي يسعف جيش الشام ويخرج معهم إلى دابق لقتال الروم التي ستتجمع هناك كما مرّ ذكره في حديث الإمام مسلم ، والذي يبدو فيه أن الخليفة المهدي سيكون في قيادته ويدخل بالجيش المنتصر ليفتح المدينة بثلاث تكبيرات ، فإنه أثناء ذلك سيصرخ فيهم الشيطان كما مرّ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه : (أن الدجال قد خلفكم في ذراريكم) وهو نداء كاذب ، إلا أن المسلمين يومئذ أهل علم وبصيرة بالحق الذي يقاتلون من أجله ، وبالواقع الذي يجاهدون فيه ، وبالمستقبل الذي سيمضي إليه دينهم العظيم ، ليكسر بشوكته كل محاولة للباطل أن يرفع رأسه قبيل قيام الساعة ، حتىٰ يقبض الله المؤمنين من كل الأرض ويبقي أشرار القوم ليريهم قيام الساعة .

والأعور الدجال هو بقية رؤوس الكفر في الأرض ، وأخطر ما خبأ الله من فتنة في الحياة الدنيا ، وأعظم امتحان يواجه المنافقين والمذبذبين في أمة الإسلام ،

---

(1) المرجع السابق .

(2) صحيح ابن ماجه (3299) تحقيق الألباني .

(3) صحيح الترمذي (1820) تحقيق الألباني .

ولا ينفع يومئذ في مواجهته إلا صدق الإيمان بالله وصدق العلم به وبأسمائه وصفاته والرسوخ واليقين ، وصدق العمل الصالح الذين يصدق هذا العلم الكريم ، فيثبت الله عند ذلك برحمته المؤمنين ويمحق الكافرين .

فيبعث القائد المسلم آنذاك كما مرّ ذكره عشر فوارس طليعة ليتأكدوا من صحة الدعوىٰ التي أطلقها الشيطان لهم وهم يقتسمون الغنائم وقد علقوا سيوفهم بالزيتون ، وقد أكد النبي ﷺ معرفة أولئك الأبطال بقوله : (إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم ، هم خير فوارس ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ)[1] . فيخرجون فيصلون دمشق فإذا بدعوى الشيطان كذب ، فإذا وصل بقية الجيش إلى الشام خرج الدجال وسمع خروجه في الأرض .

فيا ويل من اتخذوا يومئذ دينهم هزواً ولعباً ، ويا ويل من ضيعوا أوامر الله يومئذ من أجل أهوائهم وشهواتهم ، فإن فتنة الأعور الدجال بالنسبة لهم هي الطامة الكبرى في الحياة الدنيا التي تهدد مستقبلهم في الحياة الآخرة .

ويخرج الدجال من مستقره الذي كان يقطن فيه هذه القرون الطويلة في قصر في جزيرة بالبحر مهجورة ، كما صرّح بذلك من رآه من أصحاب النبي ﷺ كما سيمر تفصيله إن شاء الله ، وأول ما يدخل فيما يبدو إلى خراسان (أو أصفهان) التي هي في بلاد إيران اليوم ، ليتبعه من هناك سبعون ألف يهودي قد اجتمعوا لنصرته وقد طال انتظارهم له ، إذ يرونه : منقذهم المنتظر .

فقد أخرج الإمام مسلم عن أنس ، عن رسول الله ﷺ قال : [يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة][2] .

فإلى تفاصيل **هذا الخروج** وما يكون قبله وما صفات هذا الأعور الكذاب :

1- الدجال يخرج بعد مرور فتن تتعاقب في الأمة يميز الله بها المؤمنين من المنافقين .

فإن الفتن ستتعاقب في الأمة جزاء كثرة الخبث في الأرض وانتشار المنكر ،

---

(1) قد مضى من حديث الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود .

(2) ورواه أحمد في المسند . انظر السلسلة الصحيحة (2457) .

بينما سيكون ذلك صقلاً لقلوب الطائفة التي أخبر النبي ﷺ عن ثباتها واستمرارها في حمل لواء الحق في الأرض والقتال في سبيله ، حتىٰ يحدث الله لها شوكة عظيمة بالخلافة الراشدة التي هي على منهاج النبوة والخلافة الأولىٰ .

فقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمر قال: [كنا قعوداً عند النبي ﷺ فذكر الفتن ، فأكثر في ذكرها ، حتى ذكر فتنة الأحلاس ، فقال قائل: وما فتنة الأحلاس؟ قال: هي هرب وحرب ، ثم فتنة السرَّاء دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي ، يزعم أنه مني وليس مني ، إنما أوليائي المتقون ، ثم يصطلح الناس على رجل كَوِركٍ على ضِلَعٍ ، ثم فتنة الدُّهيَماء لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته لطمةً ، فإذا قيل: انقضت تَمادت ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، حتْ يصير الناس إلى فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ، فإذا كان ذلك فانتظروا الدجال من يومه أو غده][1] .

ففيه إشارة إلى الفتن المتعاقبة التي سيمتحن الله بها الأمة ، إلى أن يصطلح الناس على رجل لا نظام له ولا استقامة لأمره ، ثم تأتي فتنة الدهيماء أي الفتنة المظلمة والتصغير فيها للتعظيم ، ليتأثر بها كل أحد في هذه الأمة والله أعلم بطبيعتها وبشدتها التي يصرع أمامها كثير من الناس فيصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً من هول فتنتها ، والعياذ بالله من الزيغ واتباع الهوىٰ ، إلى أن تصقل هذه الفتن المؤمنين وتميزهم عن أهل النفاق والدنيا ، ويصير الناس إلى فسطاطين وجماعتين ، جماعة مؤمنة لا نفاق فيها ، وجماعة منافقة لا إيمان فيها ، وهذا التميز سيكون من علامات خروج الدجال ، فإذا خرج كان المؤمنون أشد إيماناً من أي وقت مضىٰ ليكشف الله لهم عواره، بينما يُعَرِّض الله المنافقين للفتنة باتباعه وتصديقه ومتابعته .

لقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث عمران بن حصين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمرٌ أكبرَ من الدجال][2] .

2- الدجال قد حذّره الأنبياء أقوامهم وأنذروهم من خروجه وفتنته .

فقد مضىٰ الأنبيـاء من عهـد نوح عليهم الصلاة والسـلام على تحـذير أممهـم

(1) صحيح أبي داود (3568) تحقيق الألباني .

(2) وفي لفظ (خَلْقٌ) بدل (أمر) . مختصر صحيح مسلم (2058) .

وأقوامهم من شر غائب يُنتظر ، وشر عدو يهدد المستقبل ، ليأخذوا أهبتهم ، كيلا يقعوا في شباكه .

ففي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [مامن نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذّاب ، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه كـ ف ر][1] .

وفي رواية في الصحيحين عن أبي هريرة فيها : (وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه) .

وفي جامع الترمذي وسنن أبي داود عن أبي عبيدة بن الجراح قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إنه لم يكن نبيٌّ بعد نوح إلا قد أنذر الدجالَ قومَه وإني أنذركموه . فوصفه لنا . قال : لعله سيدركه بعض من رآني أو سمع كلامي . قالوا : يا رسول الله فكيف قلوبنا يومئذ؟ قال : مثلها (يعني اليوم) أو خير][2] .

3- الدجال من أصل يهودي على الغالب فيما يظهر .

وأكبر هذه الأدلة هي اتباع اليهود له على أنه منقذهم ، واليهود لا يرضون قيادة من غيرهم ، مع أنهم سيذهبون إلى أنه ربهم فيؤمنون بربوبيته ويعطونه الألوهية ، ولما ولد في المدينة غلام ممسوحة عينه أمه يهودية اسمه ابن صياد ظنه رسول الله ﷺ والمؤمنون أنه الدجال ، مما يشير إلى أن له علاقة باليهود وصلة ونسباً .

فقد أخرج الترمذي عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : [يمكثُ أبوا الدجال ثلاثين عاماً ، لا يولد لهما ولد ، ثم يولد لهما غلامٌ أعورُ أضرسُ - أي عظيم الضرس - وأقلُّهُ منفعة ، تنام عيناه ولا ينام قلبه . ثم نعت لنا رسول الله ﷺ أبويه فقال : أبوه طوال ضرب اللحم - أي خفيفه - كأن أنفه منقار ، وأمُّه امرأة فِرضاخيّة - أي ضخمة عظيمة - طويلة اليدين . فقال أبو بكرة : فسمعنا بمولود في اليهود ، فذهبت أنا والزبير بن العوام ، حتىٰ دخلنا على أبويه ، فإذا نعت رسول الله ﷺ فيهما ، فقلنا : هلْ لكما ولدٌ؟ فقالا : مكثنا ثلاثين عاماً ، لا يُولَدُ لنا ولد ، ثم ولد لنا غلام أعور أضرس ، وأقله منفعة ، تنام عيناه ولا ينام قلبه ، قال : فخرجنا من عندهما ، فإذا هو منجدل - أي ملقىٰ على وجه الأرض - في الشمس في قطيفة ، وله

---

(1) انظر صحيح الجامع (5665) والسلسلة الصحيحة (1193) للروايات المختلفة .

(2) تخريج المشكاة (5486) .

هَمْهَمةٌ ، فكشف عن رأسه فقال : ما قلتما؟ قلنا : وهل سمعت ما قُلْنا؟ قال : نعم ، تنام عيناي ولا ينام قلبي](1) .

وروى في شرح السنة عن جابر : [أن امرأةً من اليهود بالمدينة وَلَدَتْ غُلاماً ممسوحةً عينُه طالعةً نابُهُ ، فأشفق رسول الله ﷺ أن يكون الدجال ، فوجده تحت قطيفة يُهَمْهِم. فآذنته أمه فقالت : يا عبد الله! هذا أبو القاسم. فخرج من القطيفة ، فقال رسول الله ﷺ : (مالها قاتلها الله؟ لو تركتْه لَبَيَّن) فذكر ـ جابر ـ مثل حديث ابن عمر (الذي سيأتي بعد هذا الحديث). فقال عمر بن الخطاب : (ائذن لي يا رسول الله! فأَقْتُلَهُ ، فقال رسول الله ﷺ : (إن يكن هو فلسْت صاحِبَهُ ، إنما صاحِبُه عيسىٰ بن مريم ، وإلا يكن هو فليس لك أن تَقْتُلَ رجلاً من أهل العهد) قال : فلم يزل رسول الله ﷺ مشفقاً أنه هو الدجال](2) .

وتفصيل ذلك بحديث الصحيحين عن عبد الله بن عُمَرَ : [أنّ عمر بن الخطاب انطلقَ مع رسول الله ﷺ ، في رَهْطٍ من أصحابهِ قِبَلَ ابن الصياد ، حتى وجدوه يلعبُ مع الصبيان في أُطُمِ ـ أي حصن ـ بني مَغالة ، وقد قارب ابنُ صيادٍ يومئذ الحُلمَ ، فلم يشعر حتى ضَرَبَ رسول الله ﷺ ظهرَه بيده ، ثم قال : أتشهد أني رسول الله؟ فنظر إليه ، فقال : أَشْهدُ أنك رسول الأميين. ثم قال ابن صياد : أتشهد أني رسول الله؟ فرصَّهُ النبي ﷺ ـ أي ضغطه بعضه لبعض ـ ثم قال : آمنت بالله وبرسله. ثم قال لابن صيّاد : ماذا ترىٰ؟ قال : يأتيني صادقٌ وكاذب ، قال رسول الله ﷺ : خُلِطَ عليك الأمر. قال رسول الله ﷺ : إني خبأْتُ لك خبيئاً ، وخَبَّأَ له : (يوم تأتي السماء بدخان مبين) فقال : هوَ الدُّخ. فقال : اخسأ فلن تعدوَ قدْرك.

قال عمر : يا رسول الله! أتأذنُ لي فيه أن أضربَ عنُقه؟ قال رسول الله ﷺ : إن يكن هو لا تُسَلَّط عليه ، وإن لم يكنْ هو فلا خيرَ لك في قتله. قال ابن عمر : انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ وأبيُّ بن كعب الأنصاري يؤمّان النخل التي فيها ابنُ صياد ، فطفق رسول الله ﷺ يتقي بجذوع النخل وهو يختِلُ أن يسمعَ من ابن صيادٍ شيئاً قبل أن يراه ، وابنُ صياد مضطجع على فراشه في قطيفةٍ ، له فيها زمزمة ـ صوت خفي ـ

---

(1) تخريج المشكاة (5503) .
(2) تخريج المشكاة (5504) .

فرأت أمّ ابن صياد النبي ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل ، فقالت : أيْ صافُ ـ وهو اسمُه ـ هذا محمد .

فتناهىٰ ابنُ صياد . قال رسول الله ﷺ : لو تركته بَيَّنَ . قال عبد الله بن عمرَ : قام رسول الله ﷺ في الناس ، فأثنىٰ على الله بما هو أهلُه ، ثم ذكر الدّجال فقال : إني أنذركموهُ ، ومامن نبيّ إلا وقد أنذرَ قومه ، لقد أنذر نوحٌ قومه ، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبيّ لقومه ، تعلمون أنه أعور ، وأنه الله ليس بأعور][1] .

4- الدجال يسبق خروجه ثلاث سنوات شداد .

فقد أخرج ابن ماجه وابن خزيمة والحاكم بسند صحيح عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : [يا أيها الناس ! إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض ، منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظمَ من فتنة الدجال ، وإن الله عز وجل لم يبعث نبيّاً إلا حذّرَ أمته الدجال ، وأنا آخر الأنبياء ، وأنتم آخر الأمم ، وهو خارج فيكم لا محالة ، فإن يخرج وأنا بين أظهركم ، فأنا حجيجٌ لكل مسلم ، وإن يخرج من بعدي ، فكل حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، وإنه يخرج من خلة بين الشام والعراق فيعيث يميناً وشمالاً ، يا عباد الله ! أيها الناس ! فاثبتوا . . .

ثم قال : وإن قبل خروج الدجال ثلاثَ سنواتٍ شداد ، يصيب الناسَ فيها جوعٌ شديد ، يأمر الله السماءَ السنة الأولىٰ أن تحبسَ ثلث مطرها ، ويأمر الأرض أن تحبسَ ثلثَ نباتها ، ثم يأمر السماء في السنة الثانية فتحبس ثُلثي مطرِها ، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها ، ثم يأمر السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كلَّه ، فلا تقطرُ قطرةً ، ويأمر الأرض فتحبسُ نباتها كلَّه فلا تُنبتُ خضراءَ ، فلا يبقى ذات ظِلف إلا هلكت إلا ما شاء الله ، قيل : فما يُعيشُ الناسَ في ذلك الزمان؟ قال : التهليل ، والتكبير ، والتحميد ، ويجزىء ذلك عليهم مجزأةَ الطعام][2] .

فلقد حوّل الله بركة هذا التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل غذاء نافعاً لأجسام المؤمنين المخلصين في ذلك الزمان ، الذي ربطوا حاضرهم بمستقبل هذا الدين

---

(1) تخريج المشكاة (5494). وانظر مختصر صحيح مسلم (2044) كتاب الفتن. باب: في قصة ابن صياد.

(2) صحيح الجامع (7752) ـ جزء من حديث طويل ـ.

العظيم ، وجهاد أعدائه الملحدين ، فإن شحت الدنيا عليهم فتح الله عليهم من بركاته ورحمته وفضله ، ليكون شحّها عقاباً للكافرين والمنافقين ، ويبقىٰ وعده سبحانه أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب .

5- الدجال أعور عين اليمنىٰ مكتوب بين عينيه كافر .

فيبعثه الله في وقت لا ينفع نفساً إيمانها مالم تكن آمنت به من قبل وكسبت في إيمانها خيراً ، فإذا كان الرجل مؤمناً قرأ على جبين الدجال كلمة كافر كرامةً من الله تعالى لأهل الإيمان . وأما من أسرف على نفسه وضيّع إيمانها وعكف على شهوات الدنيا وتعظيمها فيجعله الله فتنة له فيتبعه ويؤمن به ويصدقه ، عقوبة من الله لأهل النفاق والكبر وأصحاب الدنيا والشهوات .

ففي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوعُ الشمس من مغربها ، والدجّال ، ودابة الأرض][1] .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله تعالى ليس بأعور ، وإن المسيح الدجال أعورُ عين اليمنىٰ ، كأنه عينَه عِنَبَةٌ طافيةٌ][2] .

وفيهما عن أنس عن النبي ﷺ قال : [ما من نبي إلا أنذر أمته الأعورَ الكذاب ، ألا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه : ك ف ر] . وفي رواية لأبي داود : (وإن بين عينيه مكتوباً كافر) .

ولمسلم عن حذيفة بلفظ : [إن الدجال ممسوح العين ، عليها ظفرة غليظة ، مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن ، كاتبٌ وغيرُ كاتب][3] . وفي رواية لأبي داود : (يقرؤه كل مسلم) .

فجعل الله للمؤمن كرامة وإن كان لا يقرأ ولا يكتب ، ليبصر كلمة الكفر على

---

(1) مختصر صحيح مسلم (2138) .
(2) ويشهد له حديث ابن عمر . مختصر مسلم (79) .
(3) قد مضىٰ نحوه .

جبين الدجال ، رحمة من الله بأهل الصدق واليقين والإيمان .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : [رأيتني الليلة عند الكعبة فرأيت رجلاً آدم كأحسن ما أنت راءٍ من أُدم الرجال ، له لِمَّةٌ كأحسن ما أنت راء من اللِّمم قَدْ رَجَّلها ، فهي تقطر ماءً ، متكئاً على عواتق رجلين ، يطوف بالبيت ، فسألتُ : من هذا؟ فقالوا : هذا المسيح بن مريم . قال : ثم إذا أنا برجل جعد قَطَطٍ ، أعورِ العين اليمنىٰ ، كأن عينه عِنَبة طافية ، كأشبه من رأيت من الناس بابن قَطَن ، واضعاً يديه على منكبي رجلين ، يطوف بالبيت ، فسألت من هذا؟ فقالوا : هذا المسيح الدجال](1) .

وفي رواية قال : [رجل أحمر جسيم ، جعد الرأس ، أعور عين اليمنى ، أقرب الناس به شبهاً ابنُ قطن - رجل مشرك -] .

وفي سنن أبي داود بسند جيد عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال : [إني حدثتكم عن الدجال حتىٰ خشيت أن لا تعقلوا ، إن المسيح الدجال قصير ، أفحج ، جعد أعور مطموس العين ، ليست بناتئة ولا حجْراء ، فإن ألبس عليكم فاعلموا أن ربّكم ليس بأعور](2) .

وفي المسند للإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً : [الدجال أعور هجان أزهر (وفي رواية : أقمر) ، كأن رأسه أصلة أشبه الناس بعبد العزى بن قطن ، فإما هلك الهُلَّك فإن ربكم تعالى ليس بأعور](3) .

6- الدجال يخرج من قبل المشرق على حمار أبيض .

فقد أخرج الترمذي عن أبي بكر الصديق قال حدثنا رسول الله ﷺ قال : [الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان ، يتبعه أقوام كأن وجوههم المَجان المطرقة](4) .

---

(1) مختصر مسلم (79) .
(2) صحيح أبي داود (3630) تحقيق الألباني .
(3) أحمد (313,240/1) والسلسلة الصحيحة (1193) .
(4) ورواه الحاكم . صحيح الجامع (3398) .

والمجان: جمع مجن، وهو الترس، وهؤلاء الذي يتبعونه هم اليهود كما جاء في حديث الإمام مسلم عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: [يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة][1].

وهناك أرقام اليوم تفيد أن في خراسان من اليهود حوالي ثلاثمائة ألف، وهم ينظرون إلى الدجال أنه منقذهم المنتظر.

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يخرج الدجال على حمارٍ أقمر ـ أي شديد البياض ـ ما بين أذنيه سبعون باعاً][2].

وَيَهُمُّ الدجال بدخول المدينة وهو قادم من قبل المشرق فتصرف الملائكة وجهه إلى الشام، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: [يأتي المسيح من قِبَلِ المشرق همَّته المدينة حتى ينزل دُبُرَ أُحدٍ، ثم تصرفُ الملائكة وجهه قِبَل الشام، وهنالك يهلك][3].

7- الدجال يخرج ومعه جنة ونار، فناره جنة وجنته نار.

وأصل ذلك في الصحيحين من حديث أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: [ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال، ما حدّث به نبي قومه؟ إنه أعور، وإنه يجيء معه بمثل الجنة والنار، فالتي يقول إنها الجنة هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه][4].

وفيهما أيضاً عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: [إن الدجال يخرج وإن معه ماءً وناراً، فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فإنه ماء عذب طيب][5].

ورواه مسلم عنه بلفظ آخر: [الدجال أعورُ العين اليسرىٰ، جُفال الشعر ـ أي

(1) مختصر صحيح مسلم (2056).
(2) مشكاة المصابيح (5493).
(3) تخريج المشكاة (5480).
(4) المرجع السابق (5472).
(5) المرجع السابق (5473).

كثيره ـ معه جنته وناره ، فناره جنة ، وجنته نار][1] .

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة قال: [ما سأل أحد رسولَ الله ﷺ عن الدجال أكثرَ ممّا سألته ، وإنه قال لي: ما يضرك؟ قلت: إنهم يقولون: إنّ معه جبلَ خبز ونَهْرَ ماء ، قال: هو أهونُ على الله من ذلك][2] .

8- الدجال يفر الناس منه إلى الجبال.

وقد أخبر بذلك النبي ﷺ وأوصىٰ به ، لئلا يقع المسلم في شبهاته وليحفظ الله عليه دينه.

فقد روى مسلم في صحيحه عن أم شريك قالت: [قال رسول الله ﷺ: [لَيَفِرَّنَ الناس من الدجال حتىٰ يلحقوا بالجبال]. قالت أم شريك: قلتُ: يا رسول الله! فأين العربُ يومئذٍ؟ قال: هم قليل][3] .

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: [من سمع بالدجال فَلْيَنْأَ منه ، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فيتبعه مما يُبْعَثُ به من الشبهات][4] .

9- الدجال سيمكث في الأرض أربعين يوماً يعيث في الأرض فساداً ، والجوار من فتنته فواتح سورة الكهف.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال: [إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرُجْ ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط عينه طافية ، كأني أُشَبِّهُهُ بعَبْد العزىٰ بن قَطَن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه بفواتح سورة الكهف ، فإنها جوارُكم من فتنته ، إنه خارج خَلَّة بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وعاث شمالاً ، يا عبادَ الله فاثبتوا. قلنا يا رسول الله! وما لَبْثُهُ في الأرض؟

---

(1) مختصر مسلم (2047).
(2) تخريج المشكاة (5492).
(3) مختصر صحيح مسلم (2057).
(4) وصححه الألباني في المشكاة (5488).

قال: أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله! فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاةُ يوم؟ قال: لا، اقدُروا له قَدَرَه، قلنا: يا رسول الله! وما إسراعُه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم، فيدعوهم فيؤمنون به، فيأمر السماءَ فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمرّ بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل....][1].

وله شاهد عند أبي داود عن أبي الدرداء يرويه عن النبي ﷺ قال: [مَنْ حَفظَ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال][2].

وقد وقع في رواية عنده عن قتادة بلفظ: [من حفظ من خواتيم سورة الكهف أو قال من آخر الكهف] والأولىٰ أصح وأشهر ويشهد لها حديث النواس[3].

10- الدجال ينصح من رآه بمتابعة النبي ﷺ ويخبر وهو في منفاه في البحر عن آيات خروجه.

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن فاطمة بنت قيس قالت: سمعت منادي رسول الله ﷺ ينادي: الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله ﷺ، فلما قضىٰ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال: [ليلزم كلُ إنسان مصلاه. ثم قال: هل تدرون لِمَ جمعتكم؟ قالوا: الله ورسولهُ أعلم. قال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم به عن المسيح

---

(1) مختصر صحيح مسلم (2048).
(2) صحيح أبي داود (3633) تحقيق الألباني.
(3) قلت: لكن ثبت في معجم الطبراني الأوسط ورواته رواة الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [من قرأ سورة الكهف كانت له نوراً إلى يوم القيامة، من مقامه إلى مكة، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضرّه] وصححه الألباني في الترغيب.

الدجال ، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخْمٍ وجُذام ، فلعب بهم الموج شهراً في البحر ، فأرفؤوا إلى جزيرة ـ أي التجؤوا ـ حين تغرب الشمس ، فجلسوا في أقرب السفينة ، فدخلوا الجزيرة ، فلقيتهم دابة أهلبُ ـ الأهلب الكثيف الشعر ـ كثيرُ الشعر لا يدرون ما قُبُله من دُبُره من كثرة الشعر. قالوا: ويلك ما أنت؟ قالت: أنا الجَسّاسة. قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق ، قال: لما سَمَّت لنا رجلاً فَرِقنا منها ـ أي خفنا ـ أن تكون شيطانة. قال: فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدّير ، فإذا فيه أعظم إنسان ما رأيناه قط خَلْقاً ، وأشدُّه وَثاقا ، مجموعة يداه إلى عُنقه ، ما بني ركبتيه إلى كعبيه بالحديد. قلنا: ويلَكَ ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري ، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فلعب بنا البحر شهراً فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابةٌ أهلب فقالت: أنا الجساسة ، اعمِدوا إلى هذا في الدَّير ، فأقبلنا إليك سراعاً ، وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة.

فقال: أخبروني عن نخل بيسان ـ قرية بالشام بين حوران وفلسطين كثيرة النخل ـ؟ قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل تثمر؟ قلنا: نعم. قال: أما إنها توشك أن لا تثمر. قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية؟قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماءٌ؟ قلنا: هي كثيرة الماء. قال: أما إن ماءَها يوشِكُ أن يذهب. قال: أخبروني عن عينِ زُغَرَ ـ بلدة معروفة في الجانب القبلي من الشام ـ؟ قالوا: وعن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماءٌ؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم ، هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قلنا: قد خرج من مكة ونزل يثرِب. قال: أقاتله العربُ؟ قلنا: نعم ، قال: كيف صَنَعَ بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب ، وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذلك خيرٌ لهم أن يطيعوه ، وإني مُخبركم عني: إني أنا المسيحُ الدجال ، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج ، فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتُها في أربعين ليلة ، غير مكة وطيبة ، هما محرمتان عليَّ كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدةً أو واحداً منهما استقبلني مَلَكٌ بيده السيف صلتاً يَصُدُّني عنها ، وإن على كل نَقْبٍ منها ملائكة

يحرسونها. قال رسول الله ﷺ: وطعن بمخصَرته في المنبر: هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبةٌ، يعني المدينة، ألا هل كنت حدثتكم؟ فقال الناس: نعم. فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أُحَدثكم عنه وعن المدينة ومكة. ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن. لا، بل من قِبَلِ المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو، وأومأ بيده إلى المشرق][1].

ورواه أبو داود بسند صحيح عن فاطمة بنت قيس قالت: قال ـ أي تميم ـ: [فإذا أنا بامرأة تجرّ شعرها قال: ما أنت؟ قالت: أنا الجساسة، اذهب إلى ذلك القصر، فأتيته فإذا رجل يجرُّ شعره، مسلسل في الأغلال، ينزو فيما بين السماء والأرض، فقلت: من أنت؟ قال: أنا الدجال، خرج نبي الأميين بعد؟ قلت: نعم! قال: أطاعوه أم عصوه؟ قلت: بل أطاعوه، قال: ذاك خير لهم][2].

ورواه ابن ماجه عن فاطمة بنت قيس بلفظ آخر. قالت: [صلى رسول الله ﷺ ذات يوم، وصعد المنبر، وكان لا يصعد عليه، قبل ذلك، إلا يوم الجمعة، فاشتد ذلك على الناس. فمن بين قائم وجالس، فأشار إليهم بيده أن اقعدوا: فإني، والله! ما قُمت مُقامي هذا لأمْرٍ يَنْفَعُكُمْ، لِرَغْبَةٍ ولا لِرَهْبَة، ولكن تميماً الداري أتاني فأخبرني خَبَراً مَنعني القَيْلولَة، من الفَرَح وقرَّةِ العين. فأحْبَبْتُ أن أَنْشُرَ عليكم فَرَحَ نبيّكم. ألا إن ابنَ عَمٍّ لتميم الداري أخبرني أن الريح ألْجَأتهم إلى جزيرة لا يعرفونها. فقعدوا في قوارب السفينة، فخرجوا فيها. فإذا هم بشيء أهدبَ[3]، أسودَ. قالوا له: ما أنْتَ؟ قال: أنا الجَسَّاسة. قالوا: أخبرينا، قالت: ما أنا بِمُخْبِرَتِكم شيئاً. ولا سَائِلَتِكم. ولكنْ هذا الدَّيْرُ، قد رمقتموه. فأْتُوهُ. فإن فيه رجلاً بالأشواق إلى أن تُخبِروه ويُخْبِرَكُمْ. فأتوه فدخلوا عَلَيْه. فإذا هُمْ بشيخٍ مُوثَقٍ، شديد الوثاق. يُظْهِرُ الحُزْنَ. شديدِ التَشَكّي. فقال لهم: مِن أين؟ قالوا: مِن الشام.

(1) مختصر صحيح مسلم (2054).

(2) تخريج المشكاة (5484) تحقيق الألباني.

(3) وقوله أهدب: أي كثير الهدب أو طويله، والهُدب: شعر أشفار العين، ويصح بتسكين الدال أي: الهُدْب. والجساسة سميت بذلك لأنها تجس الأخبار للدجال. وقوله (رمقتموه) أي رأيتموه فأنتم تنظرون إليه من رمقه إذا نظر إليه. والزفير أول صوت الحمار والشهيق آخره. لأن الزفير إدخال النفس والشهيق إخراجه.

قال: ما فعَلَتِ العَرَبُ؟ قالوا: نحنُ قومٌ من العرب. عَمَّ تسأل؟ قال: ما فعل هذا الرجل الذي خرج فيكم؟ قالوا: خَيْراً. ناوى قوماً - أي عاداهم - فأظْهَرَه الله عليهم. فأمْرُهُمْ، اليوم، جميع: إلهُهُم واحِدٌ، ودينُهُم واحد. قال: ما فَعَلتْ عينُ زُغَرَ؟ قالوا: خيْراً، يَسْقون مِنْها زُرْوعَهم، ويَسْتَقون منها لسَقْيهم. قال: فما فعل نَخْلٌ بين عمَّانَ وبيسانَ؟ قالوا: يُطعِمُ ثَمَرُهُ كُلَّ عام. قال: فما فعلت بُحَيْرَةُ الطبرية؟ قالوا: تَدَفَّقُ جَنباتُهَا مِنْ كثرة الماء. قال: فَزَفَرَ ثلاثَ زفراتٍ، ثم قال: لو انْفَلَتُّ من وَثَاقِي هذا، لَمْ أَدَعْ أرضاً إلا وطِئْتُها بِرِجْلَيَّ هاتين، إلا طيبةَ، ليس لي عليها سبيل. قال النبي ﷺ: إلى هذا ينتهي فَرَحي. هذه طيبة. والذي نفسي بيده! ما فيها طريق ضيق ولا واسع، ولا سهل ولا جبل، إلا وعليه ملك شاهر سَيْفَهُ إلى يوم القيامة][1].

فجاء في هذا الحديث أنه زفَر ثلاث زفرات، بينما جاء في رواية أبي داود أنه كان ينزو فيما بين السماء والأرض، أي أنه يتحرق تحرقاً إلى الانفلات والخروج في الأرض ليعيث فيها كبراً وفساداً وعلواً، وليسقط المنافقون واليهود صرعىٰ أمام الفتن التي سلطها الله عليهم بتسخيرها له ليفتنهم بها.

وفي لغة العرب: نزا الرجل إذا وثب وبابه عدا، فهو ينزو نَـزَواناً بفتحتين.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه - أي الدجال - إنما يخرج من غضبة يغضبها. وأصل ذلك ما روى مسلم في صحيحه عن نافع قال: لقي ابنُ عمر ابنَ صياد في بعض طرق المدينة فقال له قولاً أغضبه، فانتفخ حتى ملأ السِّكة، فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها، فقالت له: [رحمك الله، ما أردت من ابن صياد؟ أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: إنما يخرج من غضبة يغضبها][2].

أي إن كان الدجال هو فلا تغضبه، وقد علمت أنه سيخرج نتيجة غضبة يغضبها، فلا تكن أنت من يثيره إلى ذلك.

---

(1) صحيح ابن ماجه (3293) تحقيق الألباني.

(2) تخريج المشكاة (5497).

11 - يقارع الدجال بكشف باطله أمام الناس أعظمُ الناس شهادة عند رب العالمين.

فقد أخبر النبي ﷺ عن شاب مؤمن يتحدىٰ الدجال أمام الناس وأمام أتباعه اليهود. ويبين لهم ما علمه من هدي النبي ﷺ عن كذب هذا الدعي الدجال.

فقد أخرج الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [يأتي الدجال وهو محرم عليه أن يدخل نقاب[1] المدينة فينزل بعضَ السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه رجل، وهو خير الناس أو من خيار الناس، فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسولُ الله ﷺ حديثَهُ، فيقولُ الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييتُه، هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول: والله ما كنتُ فيك أشدَّ بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يُسَلَّطُ عليه][2].

وعند الإمام مسلم تفصيل آخر من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [يخرج الدجال فيتوجه قِبَله رجل من المؤمنين، فيلقاه المسالِحُ مسالِحُ الدجال، فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج. قال: فيقولون له: أوما تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاءٌ. فيقولون: اقتلوه. فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه. قال: فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس! هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ قال: فيأمر الدجال به فَيُشَبَّحُ ـ أي يمد على بطنه للضرب ـ فيقول: خذوه وشجُّوه فيوسع ظهرُه وبطْنُهُ ضرباً. قال: فيقول: أوما تؤمن بي؟ قال: فيقول: أنت المسيح الكذاب. قال: فيؤمر به فيؤشَرُ بالمنشار من مَفرِقه حتى يُفَرَّقَ بين رجليه. قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قمْ فيستوي قائماً، ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددتُ إلا بصيرة. قال: ثم يقول: يا أيها الناس! إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس. قال: فيأخذه الدجال ليذبَحه، فَيُجْعَلُ ما بين رقبته إلى تَرْقُوته نحاساً فلا

---

(1) النقاب: جمع نقب وهو الطريق بين جبلين.

(2) المرجع السابق (5479).

يستطيع إليه سبيلاً. قال: فيأخذه بيديه ورجليه، فيقذفُ به، فيحسب الناسُ أنما قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنة، فقال رسول الله ﷺ: هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين][(1)].

وله شاهد عند ابن خزيمة والحاكم من حديث أبي أمامة وفيه تفصيل جميل وشامل. قال رسول الله ﷺ: [وإني سأصفه لكم صفةً لم يصفها إياه قبلي نبي، . . . يقول: أنا ربكم، ولا ترون ربكم حتى تموتوا، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمنٍ، كاتبٍ أو غير كاتب.

وإن من فتنتهِ أن معه جنة وناراً، فناره جنةٌ، وجنته نار، فمن ابتلي بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتِحَ الكهف، . . .

وإن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرأيتَ إن بعثْتُ لك أباك وأمَّك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بنيّ اتبعه، فإنه ربك، وإن من فتنته أن يسلَّط على نفس واحدة فيقتلها، ينشرُهُا بالمنشار حتى تُلقىٰ شِقيَّن، ثم يقول: انظروا إلى عبدي هذا، فإنه أبعثه ثم يزعم أن له رباً غيري، فيبعثُه الله، ويقول له الخبيث: من ربك؟ فيقول: ربيَّ الله، وأنت عدو الله، أنت الدجال، الله ما كنت قط أشدَّ بصيرةً بك مني اليومَ.

وإن من فتنتهِ أن يأمرَ السماء أن تمطرَ، فتمطِرُ، ويأمرَ الأرضَ أن تُنْبِت، فَتُنْبِت.

وإن من فتنتهِ أن يمرَّ بالحي فيكذِّبونه، فلا يبقىٰ لهم سائمةٌ إلا هلكت.

وإن من فتنته أن يمر بالحي، فيصدِّقونه، فيأمُرُ السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تُنْبِتَ فتنبِتُ، حتى تروحَ مواشيهم من يومهم ذلك أسمنَ ما كانت، وأعظَمَهُ، وأمدَّه خواصِرَ وأدرَّه ضروعاً][(2)].

وفي رواية عند الإمام مسلم من حديث النواس بن سمعان وفيه: [ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين ـ أي قطعتين ـ، رميةَ الغرض، ـ أي

(1) مختصر صحيح مسلم (2050).
(2) صحيح ابن ماجه (7752) وهو جزء من حديث طويل.

يجعل بين الجزلتين مقدار رمية السهم إلى الهدف ـ ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك][1] .

12- المدينة محرمة على الدجال أن يدخلها وكذلك مكة المكرمة .

فإن الدجال يسير في الأرض كالغيث استدبرته الريح فلا يدع قرية إلا هبطها في أربعين ليلة ويعيث في الأرض فساداً ، وقد أعطاه الله من المعجزات ليفتن بها المنافقين وأصحاب الأهواء ليضلوا ضلالاً فوق ضلالهم ، وليزيغوا زيغاً مع زيغهم ، وليحملوا أثقالاً مع أثقالهم ، جزاء بما كسبوا وكانوا يستهزئون ، ولكن الله قد حرم عليه دخول أرض الهجرة النبوية ، مدينة رسول الله ﷺ .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : [يأتي المسيح من قِبل المشرق هِمَّتُهُ المدينة ، حتى ينزلَ دُبُرَ أُحُدٍ ، ثم تصرِفُ الملائكةُ وجهه قِبَلَ الشام ، وهنالك يهلكِ][2] .

وكذلك خرّج البخاري من حديث أبي بكرة ، عن النبي ﷺ قال : [لا يدخلُ المدينة رُعْبُ المسيح الدجال ، لها يومئذ سبعةُ أبواب ، على كل باب ملكان][3] .

وكذلك فقد جاء في حديث فاطمة بنت قيس في ما روى الإمام مسلم عنها عن رسول الله ﷺ فيما ذكره له تميم الداري لما لقي الدجال وقال لهم : [إني أنا المسيحُ الدجال ، وإني يوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرُج ، فأسير في الأرض ، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة ، غيرَ مكة وطيبةَ ، هما مُحَرّمتان عليَّ كلتاهما ، كلما أردت أن أدخُلَ واحدة أو واحداً منهما استقبلني ملك بيده السيفُ صلتا يصدُّني عنها ، وإن على كل نَقَبٍ منها ملائكة يحرسونها ، قال رسول الله ﷺ ـ وطعنَ بمخصَرته في المنبر ـ : هذه طيبة ، هذه طيبة ، هذه طيبة ، يعني المدينة][4] .

وكذلك في صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة قال : قال أبو القاسم ﷺ : [من

---

(1) جزء من حديث طويل . انظر مختصر مسلم (2048) .
(2) قد مضى بتمامه .
(3) صحيح الجامع (7555) .
(4) جزء من حديث سابق . مختصر مسلم (2054) .

أراد أهل هذه البلدة بسوء ، يعني المدينة ، أذابه الله كما يذوب الملح في الماء][1] .

وفي صحيح الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [يأتي الدَّجال المدينة فيجِدُ الملائكة يَحْرُسُونَها ، فلا يدخلُهَا الطّاعونُ ، ولا الدجال إن شاء الله][2] .

وفيه أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [الإيمان يَمان ، والكفْرُ مِنْ قِبَلِ المَشْرِق ، والسكينة لأهل الغنم ، والفخر والرّياء في الفَدّادِين أهلِ الخيل وأهل الوبر ، يأتي المسيح ـ أي الدجال ـ إذا جاء دُبُرَ أُحُدٍ ، صَرَفَتْ الملائكة وَجْهَهُ قِبَلَ الشام وهنالِكَ يَهْلِكُ] ورواه مسلم[3] .

وفي مستدرك الحاكم وصحيح ابن ماجه وابن خزيمة عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: [وإنه لا يبقىٰ شيءٌ من الأرض إلا وطِئَه وظهر عليه ، إلا مكة والمدينة ، لا يأتيهما من نقبٍ من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صَلْتَةً ، حتى ينزل عند الضريب الأحمر ، عند مُنْقَطَعِ السبخة ، فترجف المدينَةُ بأهلها ثلاثَ رجفاتٍ ، فلا يبقىٰ فيها منافقٌ ولا منافقةٌ إلا خرج إليه ، فتنفي الخبيثَ منها ، كما ينفي الكير خبثَ الحديد ، ويدعىٰ ذلك اليوم يومَ الخلاص ، قيل: فأين العرب يومئذ؟ قال: هم يومئذ قليل ، . . .] الحديث[4] .

سابعاً: نزولُ المسيح عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام .

ففي أثناء عودة جيش المسلمين من فتح القسطنطينية ، كما مر معنا ، يتهيأ المسلمون لاستقبال الخطر الأكبر على دينهم وذراريهم ، ألا وهو المسيح الدجال ، إذ يبعثون عشر فوارس طليعة للتحقق من صحة الصريخ الذي صرخ به الشيطان حيث قال: (إن الدجال قد خلفكم في ذراريكم) فيجدونه لم يخرج بعد ، إلا أنه ما إن يصل الجيش إلى الشام إلا ويكون الدجال قد خرج ، فيبدؤون الإعداد

---

(1) مختصر مسلم (784) .
(2) وله شاهد عند البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ: (لا يدخل المدينة المسيح ، والطاعون) وانظر صحيح الجامع (7554),(7868) .
(3) أخرجه الترمذي (3/238-239- تحفة) وأحمد (2/407-408) ومسلم (1/52),(4/120) .
(4) جزء من حديث صحيح طويل أخرجه ابن ماجه وابن خزيمة . انظر تمام الحديث في صحيح الجامع (7752) .

لمعركة قاسية مع هذا الدجال وأتباعه اليهود ، وأمير جماعة المؤمنين يومئذ الخليفة الراشد محمد بن عبد الله المهدي ، وهم يتوقعون مع أميرهم نزول النبي المسيح عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام بين عشية وضحاها .

وبالفعل ، بينا هم ذات يوم من تلك الأيام الدقيقة ، وقد أقيمت صلاة الفجر في مسجد عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، وقد تقدم الخليفة المهدي ليؤمهم بها ، إذ أبصر المسلمون هبوط عيسىٰ بن مريم صلوات الله وسلامه عليه .

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث النواس بن سمعان ـ السابق ـ قال رسول الله ﷺ : [فبينما هو كذلك إذْ بعث اللهُ المسيح بن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء ، شرقيّ دمشق بين مهروذتين[1] ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه مثل جُمان كاللؤلؤ . (وفي رواية : تحدر منه جمانٌ مثل اللؤلؤ) فلا يحل لكافر يجد من ريح نَفَسه إلا مات . . .][2] .

وفي المعجم الكبير للطبراني بسند صحيح عن أوس بن أوس عن النبي ﷺ قال : [ينزل عيسىٰ بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق][3] .

فإذا نزل وقد أقاموا صلاة الفجر في المسجد الذي عند المنارة البيضاء ـ آنذاك ـ شرقي دمشق وقد ذهب أميرهم ليتقدم للصلاة إذ أبصره فقدمه ليصلي بالمؤمنين الفرحين بوصوله والمبتهجين لقدومه ، فيأبىٰ أن يتقدم إلا من أقيمت له صلوات الله وسلامه عليه .

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : [لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة . قال : فينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم : تعال صلِّ لنا ، فيقول : لا ، إنَّ بعضكم على بعض أُمَرَاءُ ، تكرمةَ الله هذه الأمة][4] .

---

(1) أي يلبس ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران : ذكره النووي .

(2) جزء من حديث طويل ، مختصر مسلم (2048) .

(3) تخريج فضائل الشام (26,25,23,22) وصحيح الجامع (8025) .

(4) مختصر صحيح مسلم (2061) .

وفي صحيح ابن ماجه وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم بسند صحيح من حديث أبي أمامة ، قال رسول الله ﷺ: [وإمامهم رجلٌ صالح ، فبينما إمامهم قد تقدَّم يصلي بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسىٰ بن مريمَ الصبحَ ، فرجع ذلك الإمامُ ينكُصُ يمشي القَهقَرى ليتقدمَ عيسىٰ ، فيضع عيسىٰ يدَه بين كتفيه ، ثم يقول له : تقدمْ فَصَلِّ ، فإنها لك أقيمت ، فَيُصَلي بهم إمامهم][1] .

فإذا قضى المسلمون صلاتهم ، امتثلوا لأوامر قيادتهم النبوية والراشدة ، في الاستعداد لأكبر الملاحم التي ستشهدها الأرض ، وهي الملحمة الكبرى مع اليهود ، الذين يقودهم المسيح الدجال ، فيعقد نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام مع الخليفة المهدي والجيش المسلم مؤتمراً في مخيم الجيش ومعسكره في غوطة دمشق ، ليتلقىٰ منه الجنود الأبطال أوامر قيادتهم ، لفهم طبيعة المعركة التي سيقدمون عليها ، وطبيعة ما سيسخره الله لهم من أسباب النصر .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : [فسطاطُ المسلمين يومَ الملحمة الكبرى بأرض يُقال لها : الغوطةُ ، فيها مدينةٌ يُقال لها دمشق ، خيرُ منازل المسلمين يومئذ][2] . ورواه أبو داود بلفظ : [إن فُسْطاط المسلمين يوم الملحمة بالغُوطة إلى جانب مدينة يقال لها : دمشق ، من خير مدائن الشام] .

وبالفعل ، يخرج الجيش المسلم من مخيّمه في غوطة دمشق ، تتقدمه القيادة النبوية والراشدة ليزحف باتجاه بيت المقدس ، حيث إنَّ الدجال قد فرّ باتجاهها ، عندما أبصر نزول المسيح الحقيقي عيسى بن مريم في سماء دمشق ، فيلوذ بالفرار عند رؤيته ، ويذوب كما يذوب الملح ، ويلحق به جنده اليهود ليتحصنوا في أطراف وأرجاء بيت المقدس .

والدليل على ذلك ما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: [. . . فبينما هم يُعدون للقتال يُسَوّون الصفوف ، إذ أقيمت

---

(1) جزء من حديث سابق . صحيح الجامع (7752) .

(2) فضائل الشام (15) وصحيح الجامع (4081) .

الصلاةُ ، فينزل عيسىٰ بن مريم ﷺ فأمَّهم ، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يَهلك ، ولكن يَقْتُله الله بيده فيُريهم دمه في حَرْبته][1] .

فإذا بلغ الجيش المسلم بيت المقدس وتصافّ الجيشان وقد حال بينهم الباب ، ناداهم عيسىٰ عليه الصلاة والسلام أن افتحوا الباب لبدء القتال ، فيفتحون فإذا وراءه الدجال في مقدمة جيش اليهود ، فإذا أبصر الدجالُ نبيّ الله عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ترك جيشه وفرّ هارباً ، لا يلوي على أحد ، يقطع السهول والهضاب ، فيلحق به المسيح بن مريم ﷺ تاركاً قيادة الجيش للمهدي الذي ينظم الصفوف ويقود الملحمة ، وأما عيسىٰ عليه الصلاة والسلام فيدرك الدجال بباب لُدٍّ فيذبحه بحربته ليعود مسرعاً ويشارك المؤمنين نصرهم على اليهود ويريهم دمه في حربته ، ولينعم مع الجنود المؤمنين بتِسخير الله الطبيعة لهم تشاركهم نصرهم ، ولينطق الحجر والشجر أن يا مسلم يا عبد الله ، هذا يهودي مختبىء ورائي تعال فاقتله ، فيحصدهم المسلمون حصداً .

ففي حديث ابن ماجه وابن خزيمة السابق عن أبي أمامة قال ﷺ : [فإذا انصرف - أي عيسى إلى بيت المقدس - قال عيسىٰ : افتحوا الباب ، فيفتحون ووراءَه الدجال معه سبعون ألف يهودي ، كلهم ذو سيفٍ محلًّى وساجٍ ، فإذا نظر إليه الدجال ذابَ كما يذوبُ الملحُ في الماء ، وينطلق هارباً . . . فيدركه عند باب لُدٍّ الشرقي ، فيقتله ، فيهزم الله اليهود ، فلا يبقىٰ شيء مما خلق الله عز وجل يتواقىٰ به يهودي ، إلا أنطق الله ذلك الشيءَ ، لا حجرٌ ولا شجرٌ ، ولا حائط ولا دابة ، إلا الغرقدة ، فإنها من شجرهم لا تنطق ، إلا قال : يا عبدَ الله المسلمَ هذا يهودي فتعال اقتله . . .][2] .

وفي حديث الإمام مسلم عن النواس : [فلا يحل لكافر يجد من ريح نفسه إلا

---

(1) جزء من حديث طويل رواه مسلم (8/175-176) .

(2) جزء من حديث طويل سابق . صحيح الجامع (7752) .

مات ، ونَـفَسُـهُ ينتهي حيث ينتهي طرفه ـ أي عيسىٰ عليه السلام ـ فيطلبه حتىٰ يدركه بباب لُدٍّ فيقتُـلُه][1] .

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقوم الساعة حتى يقاتلَ المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يَخْتَبِىءَ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهوديٌّ خلفي ، فتعال فاقتله ، إلا الغرقد ـ شجر فيه شوك ـ فإنه من شجر اليهود][2] .

وأما صفات عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وتفصيل الحياة بعد هذه الملحمة والأعمال التي يقوم بها فهي على النحو التالي :

(أولاً) : صفات عيسىٰ بن مريم ﷺ .

1- هو رجل مربوع إلى الحمرة والبياض .

2- ليس بينه وبين نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام نبي .

3- نزوله في سماء دمشق عند المنارة البيضاء من جهة الشرق كما مضى .

4- ينزل وعليه ثياب فيها صفرة خفيفة واضعاً كفيه على أجنحة ملكين .

5- يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفائه .

6- لا يمكن لكافر يجد من ريح نفسه إلا مات .

7- نَفَسُه ينتهي حث ينتهي طَرَفُه .

8- يمكث في الأرض أربعين سنة .

(ثانياً) : تفصيل أعماله وذكر ما يجري في زَمانه .

1- يقود المعركة مع المهدي ضدّ اليهود .

2- يحضر مع المؤمنين في مخيّمهم بصحبة المهدي مؤتمرهم في غوطة دمشق قبل المعركة .

---

(1) جزء من حديث النواس السابق ، مختصر مسلم (2048) .

(2) مختصر صحيح مسلم (2025) .

3- يلحق بالدجال في أول المعركة حتى يدركه بباب لُدٍّ فيقتله بحربته كما مضىٰ ، وينطق في زمانه الحجر والشجر .

4- يحكم في الأرض بالعدل ويقوم بمنهاج الكتاب والسنة .

5- يكسر الصليب ويقتل الخنزير .

6- يقاتل الناس على الإسلام فلا يقبل الجزية بل الإسلام أو السيف .

7- يهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام .

8- يفيض المال في زمانه حتى لا تجد أحداً يقبله .

9- تعود البركة إلى الأرض ويسود الأمن والطمأنينة .

10- يحدث المؤمنين بدرجاتهم في الجنة .

11- تذهب الشحناء والبغضاء وأمراض الحقد والحسد .

12- توادع السباع الإنس والبهائم .

13- يوحي الله إليه ليحرز المؤمنين إلى جبل الطور تحصناً من قوافل يأجوج ومأجوج .

14- يمكث مع المؤمنين في الجبل حتى يبعث طليعة يخبره بهلاكهم .

15- يستمر في إقامة صرح الحق بعد وفاة المهدي عليه السلام .

فإلى أدلة ذلك :

الدليل الأول: قول الله سبحانه في سورة النساء : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابنُ مريم ، حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة : فاقرؤوا إن شئتم ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ

ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ الآية][1].

الدليل الثاني: روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [والله لينزلن ابنُ مريم حكماً عادلاً، فليكسِرَنَّ الصليبَ، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، وليتركن القلاص - جمع قلوص: وهي الناقة الشابة - فلا يسعىٰ عليها، ولتذهبنَّ الشحناء، والتباغض والتحاسد، وليَدْعُوَنَّ إلى المال فلا يقبله أحد][2].

وفي رواية لهما - أي للبخاري ومسلم - قال: [كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم][3].

الدليل الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال:

[ليس بيني وبينَه نبيٌّ - يعني عيسىٰ - وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مَرْبوعٌ، إلى الحمرة والبياض، بين مُمصَّرَتَيْن - الممصرة: ثياب فيها صفرة خفيفة - كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدقُّ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يُتوفىٰ فيصلي عليه المسلمون][4].

الدليل الرابع: يروي ابن ماجه والحاكم وابن خزيمة بسند صحيح من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [... فيكون عيسىٰ بن مريم في أمتي حكماً عدلاً، وإماماً مقسطاً، يدق الصليب، ويذبح الخنزير، ويضع الجزية، ويترك الصدقةَ، فلا يُسعىٰ على شاة ولا بعير، وتُرفع الشحناءُ والتباغض، وتُنْزَعُ حُمَةُ[5] كلّ ذات حمةٍ، حتى يُدْخِلَ الوليد يده في الحية، فلا تضرُّه، وتضرُّ الوليدةُ الأسدَ

---

(1) صحيح الجامع (6954).
(2) مختصر صحيح مسلم (2059).
(3) مختصر مسلم (2060).
(4) صحيح أبي داود (3635).
(5) قال في قاموس الصحاح: (وحُمَة العقرب: سَمُّها وضرّها). وقال غيره: (والحُمَة: سمٌّ كل شيءٍ يلدغ أو يلسع). وقيل: (حُمَة كل شيء: شدته ومعظمه).

فلا يضرها ، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها ، وتُملأ الأرض من السِّلْم كما يملأ الإناء من الماء ، وتكون الكلمةُ واحدةً ، فلا يعبد إلا الله ، وتضع الحرب أوزارها ، وتسلَب قريشٌ مُلْكَهَا ، وتكون الأرض كفاثور[1] الفضة ، تُنْبتُ نباتها بعهد آدم حتىٰ يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم ، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم ، ويكون الثورُ بكذا وكذا من المال ، ويكونُ الفرس بالدريهمات ، . . .][2].

وقد أوجب الله على المؤمنين الإيمان بنبيّه عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وأخبر سبحانه أن أهل الكتاب سيؤمنون به قبل موته ، وهو يدعوهم يومئذ إلى القرآن الكريم وهدي محمد ﷺ سيد المرسلين ، وتوعد سبحانه الذين يفرقون بين رسله بمجرد التسلي والتشهي خِزياً وذلاً في الدنيا والآخرة ، فقال سبحانه في سورة النساء : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ .

وفي صحيح الإمام مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار][3].

بينما تكفل سبحانه بالأجر المضاعف مرتين لمن آمَنَ من أهل الكتاب بنبيّه وآمن بمحمد عليهم الصلاة والسلام أجمعين .

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن صالح بن صالح الهمداني عن الشعبي قال : [رأيت رجلاً من أهل خراسان سأل الشَّعبي فقال : يا أبا عمرو ، إن مَنْ قَبْلنا من أهل خراسان يقولون في الرجل إذا أعتق أَمَتَهُ ثم تزوجها فهو كالراكب بَدَنَته . فقال الشعبي : حدثني أبو بُردة بن أبي موسىٰ عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : ثلاثة

(1) هو الخُوان : وهو الطَّسْتُ : ما يؤكل عليه .
(2) جزء من حديث طويل . صحيح الجامع (7752) .
(3) صحيح مسلم (1/93) .

يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله عز وجل عليه وحق سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غِذَاءَها ثم أدّبها فَأَحْسَنَ أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران. ثم قال الشعبي للخُراساني: خذ هذا الحديث بغير شيء فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة](1).

ثم ذم سبحانه اليهود بافترائهم الكذب من القول وبسط لسان الإثم في عرض نبي الله عيسىٰ وأمه مريم عليهما الصلاة والسلام، فقال سبحانه يخزي اليهود: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 156 - 158].

فقوله سبحانه: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ قال ابن عباس: (يعني أنهم رموها بالزنا). ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾. وذلك حين سعوا إلى ملك دمشق وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب يقال لأهل ملته اليونان وأنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلا يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه. فغضب وكتب إلى نائبه في بيت المقدس أن يصلبه، فذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسىٰ عليه السلام وهو في جماعة من أصحابه.

قال ابن إسحاق: (وحدثني رجل كان نَصرانياً فأسلم، أن عيسىٰ حين جاءه من الله إني رافعك إليّ قال: يا معشر الحواريين أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة حتى يشبّه للقوم في صورتي فيقتلوه في مكاني. فقال سرجس: أنا يا روح الله. قال: فاجلس في مجلسي. فجلس فيه ورفع عيسىٰ عليه السلام فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه فكان هو الذي صلبوه وشبه لهم به).

ثم أنزل الله ما يثبت نزول عيسى بن مريم آخر الزمان، واتباع أهل الكتاب له وهو يحكم بالكتاب والسنة فقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

---

(1) مختصر صحيح مسلم (21).

وقد أخبر النبي ﷺ عن تتابع هذه الأحداث بحيث أنه أيها كان قبل الآخر فإن الذي يليه يكون قريباً ، فإن خروج المهدي عليه السلام ثم ظهور الأعور الدجال ثم نزول عيسىٰ عليه الصلاة والسلام يتبع بعضه بعضاً.

فقد أخرج أبو داود بإسناد حسن عن معاذ بن جبل ، قال: قال رسول الله ﷺ: [عُمرانُ بيت المقدسِ ، خرابُ يثربَ ، وخرابُ يثربَ ، خروج الملحمة ، وخروج الملحمة ، فتح قسطنطينية ، وفتح قسطنطينية خروج الدجال. ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدث أو منكبه ثم قال: إن هذا لحق كما أنك هنا ، أو كما أنك قاعد. ـ يعني: معاذ بن جبل ـ][1].

وفي المعجم الأوسط للطبراني بسند صحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [خروج الآيات بعضها على أثر بعض ، يتتابعن كما تتابع الخرزُ في النظام][2].

وقبل الحديث عن العلامة التالية من العلامات الكبرىٰ وهي خروج يأجوج ومأجوج ، لابأس أن نَتَعَرَّفَ على الخارطة الكلية التي توضح هذه الأحداث العظام وما هو قادم كتمهيد لقيام الساعة ، وما عطفه النبي ﷺ على الدجال من أمور الأهوال والفزع.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: [اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر. فقال: ما تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: إنها لن تقوم حتى تَروا قبلها عشر آيات فذكر: الدخانَ ، والدجّالَ ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزولَ عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثةَ خسوف: خسفٍ بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم][3]. (وفي رواية: العاشرة: وريح تلقي الناس في البحر). (وفي رواية: نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر).

---

(1) تخريج المشكاة (5424) وصحيح الجامع (3975).

(2) صحيح الجامع (3222).

(3) مختصر صحيح مسلم (2037).

ثامناً: خروج يأجوج ومأجوج.

فإنـه ما إن يظفر المسلمون بأعظـم نصر في الأرض علـى اليهـود من يوم خلق الله الأرض وبث فيها الدواب إلى يوم القيـامة، وقد كلّـل الله جيش المسلمين الفاتح بأجمل ألوان البهجة والفرح والسرور، ورجعوا مع قيادتهم الممثلة بعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام وقد قتل بيده عدو الله وعدوهم الدجال، وأجهز عليه في حربته وأراهم دمه عليها، وبالخليفة الراشد محمد بن عبد الله المهدي الذي قاد المعركـة إلى نهايتهـا، وقـد تحركت الطبيعـة معه ومع جنوده أهل الإيمان شوقـاً لقهر اليهود فشاركتهم القتال بأن دَلَّتْ على مكان اليهود المختبئين خلف أشجارها وأحجارهـا. فما إن قفلوا عائدين من بيت المقدس باتجاه قاعدتهم دمشق إلا أوحىٰ الله إلى نبيّه عيسىٰ عليه الصلاة والسلام أن حرز عبادي إلى الطور فإني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، وهم قوم يأجوج ومأجوج.

ويأجوج ومأجوج قوم من نسل نوح عليه الصلاة والسلام من أولاد يافث، تُركوا وراء السد الذي بناه ذو القرنين كما قال الله تعالى في سورة الكهف: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴾.

فقوله (بين السدين) يعني جبلين بينهما ثغرة، يخرج منهما يأجوج ومأجوج فيعيثون فيها فساداً، فوجد العبد الصالح ذو القرنين في رحلته في الأرض في تلك الأرجاء قوماً لا يكادون يفقهون قولاً لاستعجام لسانهم وبعدهم عن الناس، وشكوا إليه أمر فساد هؤلاء القوم يأجوج ومأجوج فقالوا له: «يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا ـ قال ابن عباس: أجراً عظيماً ـ على أن تجعل بيننا وبينهم سدا» فتحجبهم عنا وتخلصنا من سوئهم

وشرورهم ، وكان الله سبحانه قد أعطىٰ ذا القرنين قوة وسلطاناً ، فكان يقيم الحق والعدل ويحكم به بين الناس .

فأجابهم ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أي ما أعطاني سبحانه وتعالى من الملك والتمكين في الأرض خير لي من الذي تجمعونه وتفكرون بإهدائه لي . وهذا كقول سليمان عليه الصلاة والسلام لوفد بلقيس الذين حاولوا حجب نفوذه وسلطانه بهداياهم فقال لهم : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ .

وقال لهم ذو القرنين : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ أي ساعدوني بقوة بعملكم وبآلات البناء ، ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ أي قطع الحديد ، فإن الزبر جمع زبرة وهي القطعة منه . قال مجاهد : (وهي كاللبنة) يقال كل لبنة زنة قنطار .

ثم قال سبحانه : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ ﴾ أي وضع بعضه على بعض من الأساس ، حتى إذا حاذىٰ به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً ﴿ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ﴾ أي أجّج عليه النار ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾ أي صار كله ناراً ﴿ قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال مجاهد وقتادة : (هو النحاس المذاب) .

فما قدروا أن يصعدوا فوق هذا السد المنيع ولا قدروا على نقبه من أسفله ، فقد صنعه ذو القرنين بأحدث وسائل زمانه واستخدم في بنائه أشد وأمتن مواد البناء ، فقد دخل في إنشائه الحديد والحجارة والنار والنحاس فياله من سد متين ذي مقاومة حدية عالية .

قال الحافظ ابن كثير في التفسير : (ولما كان الظهور عليه أسهلَ من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾) .

لقد حجب ذو القرنين عليه السلام بهذا البنيان العظيم أشدَّ الناس شروراً وفاحشة في الأرض ، فإن يأجوج ومأجوج قوم مفسدون ، خبأهم الله فتنة في آخر الزمان لمن ضل أو من كفر ، وجعل خروجهم من علامات يوم القيامة ، وجعل نهايتهم من الأرض من أشد أيام الفرح بهجة في الدنيا ، ليضيفها إلى فرحة التخلص من مكر اليهود في الأرض وجنسهم ، ليفرح بها عيسى بن مريم ومن سيكون معه في الطور من المؤمنين .

إن يأجوج ومأجوج قوم أحياء يحفرون في كل يوم في محاولة منهم للخروج من ذلك السجن الذي كتبه الله عليهم قسطاً وعدلاً ، إلا أنهم يمكرون ويمكر الله بهم وهو خير الماكرين.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة مرفوعاً: [إن يأجوج ومأجوج يحفرون كُلَّ يوم ، حتى إذا كادوا يَرَوْنَ شعاعَ الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غداً فيعيده الله أَشَدَّ ما كان ، حتى إذا بلغت مُدَّتُهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتىٰ إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فسنَحفره غداً إن شاء الله تعالىٰ ، واستثنوا ، فيعودون إليه وهو كهيئتِهِ حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس ، فينشِفون الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم. فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع عليها الدمُ الذي احَفَظَّ ، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله نغفاً في أقفائهم فيقتلون بها.

قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ، إن دواب الأرض لتَسْمَنُ وتَشْكَرُ شَكَراً من لحومهم][1].

وقوله سبحانه: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فالحدب المرتفع من الأرض.

قال ابن عباس: (أي يسرعون في المشي إلى الفساد).

وقد فُصِّل ذلك الحدث تفصيلاً رائعاً في حديث الإمام مسلم عن النواس بن سمعان حيث قال رسول الله ﷺ: ـ بعد أن يقتل عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام المسيح الدجال ـ: [ثم يأتي عيسىٰ إلى قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحىٰ الله إلى عيسىٰ: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرِّز عبادي إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾. . فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم ويقول: لقد كان بهذه مرة ماء. ثم يسيرون إلى جبل الخَمَر (وهو جبل بيت المقدس) فيقولون: لقد قتلنا من في

---

(1) صحيح الجامع (2272) والسلسلة الصحيحة (1735).

الأرض هَلُمَّ فلنقتل من في السماء ، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً ، ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه ، حتىٰ يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبيّ الله عيسىٰ وأصحابه ، فيرسِلُ الله عليهم النغف في رقابهم ، فيصبحون فرسىٰ كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسىٰ وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهم ونتنُهم ، فيرغب نبي الله عيسىٰ وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله][1] .

وفي روايةٍ : (تطرحهم بالنهبل ـ اسم موضع ـ ، ويستوقد المسلمون من قُسِيِّهم ونُشَّابِهم وجعابهم سبع سنين ، ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنُّ منه ـ أي لا يمنع من نزوله ـ بيتُ مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركَها كالزَّلفة ـ أي كالمرآة ـ ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك ورُدّي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرّمانة ، ويستظلون بقحْفِهَا ويبارك في الرِسْلِ ، حتى إن اللِقْحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللِّقْحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفَخْذَ من الناس ، فبيناهم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبِضُ روحَ كل مؤمن وكُلِّ مسلم ، ويبقى شرارُ الناس يتهارجون فيها تهارجَ الحُمُر فعليهم تقوم الساعة][2] .

وأما قوله : (ثم يأتي عيسىٰ إلى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم) .

قال النووي في شرح مسلم : (قال القاضي : يحتمل أن هذا المسح حقيقة على ظاهره فيمسح على وجوههم تبركاً وبراً ، ويحتمل أنه إشارة إلى كشف ما هم فيه من الشدة والخوف) .

وقوله (لا يدان لأحد بقتالهم) معناه لا قدرة لأحد ولا طاقة له على حربهم . قال النووي : (يقال مالي بهذا الأمر يد ومالي به يدان لأن المباشرة والدفع إنما يكون باليد) .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (2048) كتاب الفتن .

(2) صحيح مسلم (8/197-198) .

وقوله (فحرز عبادي إلى الطور) أي اجعل الطور لهم حرزاً بأن ينضموا إليه من هؤلاء القوم الذين هم من كل حدب ينسلون ، أي من كل نشز يمشون مسرعين. والخَمَر الشجر الملتف والمراد بالحديث جبل بيت المقدس. وأما النَغَفُ فهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم ، واحدته نغفة ، وقوله فرسىٰ: أي قتلىٰ ، واللقحة بكسر اللام وفتحها لغتان معروفتان وإن كان الكسر أشهر وهي القريبة العهد بالولادة ، واللقوح ذات اللبن. وأما الفئام فهم الجماعة من الناس ، وكذا الفخذ في اللغة الجماعة من الأقارب. قال النووي: (وهم دون البطن والبطن دون القبيلة).

والحديث رواه ابن ماجه والترمذي وفي لفظ عند الترمذي: (فَيُرْسِلُ الله عليهم طيراً كأعناق البُخْتِ فَتَحْمِلُهُم فتطرحُهم بالمَهْبَلِ ، ويستوقد المسلمون من قِسيِّهم ونُشَّابهم وجعابهم سبع سنين...)(1).

وفي سنن ابن ماجه عن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: [سيوقِدُ المسلمون من قِسِيِّ يأجوجَ ومأجوجَ ونُشَّابهم وأتْرِسَتِهم سبعَ سنين] وسنده صحيح(2).

لقد حذّر النبي ﷺ من هذه الفتنة ـ فِتنة يأجوج ومأجوج ـ تحذيراً كثيراً ، وخاف منها على أمته خوفاً كبيراً ، واستيقظ يوماً فزعاً لذلك كأنه يرى أمامه شراً مستطيراً.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن زينب بنتِ جحش رضي الله عنها أنها قالت: [استيقظ النبي ﷺ من النوم مُحْمَراً وَجْهُهُ يقول: لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوجَ مثل هذه ، وعقد سفيان تسعين أو مائة. قيل: أنهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخَبَثُ](3).

وفي رواية عنها: [أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فَزِعاً يقول: لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فُتح اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق

---

(1) صحيح ابن ماجه (3294).
(2) صحيح ابن ماجه (3295).
(3) أخرجه البخاري (13/9-10) ومسلم (8/165-166).

بإصبعِهِ الإبهام والتي تليها ، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله: أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخُبْثُ].

ولقد وصف النبي ﷺ في حديث آخر شدة الرعب الذي يحصل في الأرض عند خروجهم ، حتى إنهم ليعُمُّون الأرض ويتحصن المسلمون منهم في مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم من شدة الخطر الذي يرونه مقبلاً آنذاك.

فقد أخرج ابن ماجه بإسناد حسن صحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: [تُفْتَحُ يأجوجُ ومأجوجُ. فيخرُجون كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ فيعمُّون الأرْضَ ، وينحازُ منهم المسلمون ، حتىٰ تصيرَ بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهَم ، حتىٰ أنهم ليمرون بالنَّهْر فيشربونَه ، حتى ما يذرون فيه شيئاً فيمرُّ آخِرُهُمْ على أَثَرِهمْ ، فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان ، مرة ، ماءٌ. ويَظْهَرون على الأرض. فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض ، قد فرغنا مِنْهُم ، ولَنُنازِلَنَّ أهلَ السماء ، حتى إن أحَدهم لَيَهُزُّ حَرْبَتَهُ إلى السماء ، فَتَرْجِعُ مُخَضَّبَةً بالدم. فيقولون: قَدْ قتلنا أهل السماء. فبينَما هُمْ كذلك ، إذ بعث الله دوابَّ كنَغَفِ الجراد ، فتأخُذُ بأعناقهم فيموتون موتَ الجراد يَرْكَبُ بعضهم بعضاً. فيُصبح المسلمون لا يسمعون لهم حِسّاً. فيقولون: مَنْ رجل يَشْري نفسه ، ويَنْظُر ما فعلوا؟ فينزل منهم رجل قد وَطَّنَ نفسه على أن يقتلوهُ. فيجِدُهم مَوْتىٰ. فيناديهم: ألا أبشروا ، فقد هلك عَدُوُّكُم. فيخرج الناسُ ويخْلُونَ سبيل مَواشيهمْ ، فما يكون لهم رعْيٌ إلا لحومُهُم. فتَشْكرُ علَيْها ، كأحسِن ما شَكِرت من نباتٍ أصابتْهُ قَطُّ][(1)].

وجملة القول: إن تتابع هذه الأحداث الرهيبة في الأمة قد ربطها النبي ﷺ بترهيب الله لعباده ليخافوه وليفردوه بالتعظيم والعبادة ، فإن الفتن يبعثها الله على حين غفلة من الناس ، يختبر بها صدقهم وينذرهم مغبة ركونهم إلى الدنيا وتركهم لجهاد النفس والهوى وللجهاد الأكبر الذي يحمي الله به دينهم وبلادهم ومستقبلهم وذريتهم.

فهاهو رسول الله ﷺ قد عطف هذه الآيات الكبرىٰ على ما حدث في زمانه من

---

(1) صحيح ابن ماجه (3307).

كسوف للشمس وخسوف للقمر ، مشيراً إلى أن هذه المتغيرات المرعبة هي مما يخوف الله بها عباده يا عباد فاتقون .

فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده ورجاله ثقات غير ثعلبة بن عباد لم يوثقه غير ابن حبان ، ولكن له شواهد عند أبي داود والنسائي من حديث عائشة رضي الله عنها : [أنه ﷺ لما سَلَّم ، حَمِد الله ، وأثنىٰ عليه ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وأنه عبدُه ورسولُه ، ثم قال : أيها الناس ! أُنْشدكم بالله هل تعلمونَ أني قصرت في شيء من تبليغ رسالاتِ ربي لما أخْبرتموني بذلك؟ فقام رجل ، فقال : نشهد أنك قد بَلَّغْتَ رسالاتِ ربك ، ونصحت لأمتك ، وقضيت الذي عليك . ثم قال : أما بعد فإن رجالاً يزعمون أن كسوف هذه الشمسِ ، وكُسوفَ هذا القمر ، وزوال هذه النجوم عن مَطالعِهَا لموتِ رجال عُظماء من أهل الأرض ، وإنهم قد كَذَبوا ، ولكنها آياتٌ من آياتِ الله تبارك وتعالى يَعْتَبرُ بها عبادُه ، فيَنْظرُ مَنْ يُحْدِثُ منهم توبةً ، وايْمُ الله ، لقد رأيتُ منذُ قُمْتُ أُصَلِّي ما أنتم لاقوه مِنْ أَمْر دُنياكم ، وآخِرَتكم ، وإنه ـ والله أعلم ـ لا تقوم الساعةُ حتى يخرجَ ثلاثون كذَّاباً آخرهم الأعْورُ الدجال ، ممسوح العين اليُسرىٰ ، كأنها عَيْنُ أبي تحيىٰ لشيخ حينئذٍ من الأنصار ، بينَهُ وبين حُجْرةِ عائشة ، وإنه مَتَىٰ يخرج ، فسوفَ يزعُمُ أنه اللهُ ، فمن آمَنَ به وصَدّقه واتبعه ، لم ينفَعْهُ صالحٌ من عمله سلف ، ومَنْ كَفَرَ به وكذبه ، لم يُعاقب بشيءٍ من عمله سلف ، وإنه سيظهر على الأرض كُلِّها إلا الحرم وبَيْتَ المقدس ، وإنه يَحْصُرُ المؤمنين في بيت المقدس ، فيُزَلْزَلون زِلزالاً شديداً ، ثم يُهلِكْهُ الله عز وجل وجنودَه ، حتى إن جِذْمَ الحائِط أو قال : أصْلَ الحائط ، وأَصْلَ الشجرة لينادي : يا مُسْلمُ ، يا مُؤْمِنُ ، هذا يهودي ، أوْ قال : هذا كافِرٌ ، فتعال فاقتلْهُ ، قال : ولَنْ يكون ذلك حتى تَرَوا أمُوراً يتفاقَم بينكم شأْنُها في أنفسكم ، وتساءلون بينكم : هل كان نَبّيكُمْ ذَكَرَ لكم مِنْها ذِكْراً : وحتى تَزُول جبالٌ عَنْ مراتِبها ، ثُمَّ على أثر ذلِكَ القبضُ][1] .

تاسعاً : عودة البركة والأمن إلى الأرض والحكم بمنهج الوحي .

وهذا بعد انتصار المسلمين على الروم ثم الإجهاز على اليهود وتخليص الأرض منهم ، وهو في آخر حياة المهدي الخليفة الراشد ومعه عيسىٰ عليه الصلاة والسلام .

---

(1) يشهد له ما في صحيح مسلم (3/27-28) ومافي مختصر مسلم (2025) .

فقد أخرج الديلمي وأبو بكر الأنباري بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [طوبىٰ لعيشٍ بعد المسيح يؤذن للسماء في القَطْر ، ويُؤذن للأرض في النبات ، حتى لو بذَرتَ حبَّك على الصَّفا لنبت . وحتى يمُرَّ الرجلُ على الأسد فلا يَضُرُّهُ ، ويطأُ على الحية فلا تضرُّه . ولا تشاحَّ ، ولا تحاسدَ ، ولا تباغض][1] .

عاشراً: خروج الدابة .

قال تعالى : ﴿ ۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل : 82] .

وهذه الدابة تخرجُ في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامرَ الله وتبديلهم الدين الحق . قيل : تخرج من مكة . وقيل من غيرها . ورُوي عن علي رضي الله عنه : (تكلمهم كلاماً ، أي : تخاطبهم مخاطبة)[2] . وقال عطاء الخراساني : (تكلمهم فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) واختاره ابن جرير[3] .

وفي صحيح مسلم عن حذيفة بن أَسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غُرفة ونحن نتذاكر أمرَ الساعة فقال : [لا تقوم الساعة حتى تَرَوا عشر آيات : طلوعُ الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوجَ ، وخروج عيسىٰ بن مريم ، والدجال ، وثلاثةُ خسُوفٍ : خَسْفٌ بالمغرب ، وخَسْفٌ بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرجُ من قَعْرِ عدن تسوق ـ أو تحشر ـ الناس ، تبيتُ معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا][4] .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمْرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنْسَهُ بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغْربها ، وخروج الدابة على الناس ضحىٰ ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على إثرها قريباً][5] .

---

(1) صحيح الجامع (3814) والسلسلة الصحيحة (1926) .
(2) تفسير ابن كثير . آية النمل (82) .
(3) المرجع السابق .
(4) صحيح مسلم (2901) ومسند أحمد (3/6-7) .
(5) مختصر مسلم (2053) .

حادي عشر : طلوع الشمس من مغربها :

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً][1] .

ثاني عشر : لحاق قبائل من هذه الأمة بالمشركين وعبادة الأوثان .

ففي صحيح الترمذي عن ثوبان ، عن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال : [لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتىٰ تعبدَ الأوثان][2] .

ثالث عشر : نسيان لا إله إلا الله في الأرض .

ففي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض اللهُ اللهُ][3] . وفي رواية لأحمد : (لا إله إلا الله)[4] .

رابع عشر : شهود شرار الناس لقيام الساعة .

ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس][5] .

* * *

---

(1) صحيح الجامع (7288) وهو جزء من حديث طويل ، ورواه ابن ماجه .

(2) جزء من حديث أطول ، ورواه الحاكم ، انظر تخريج المشكاة (5406) والسلسلة الصحيحة (1683) وصحيح الجامع (7295) .

(3) صحيح مسلم (91/1) .

(4) مختصر مسلم ـ تعليق الألباني على الحديث السابق برقم (2020) ـ قال : (وإسنادها صحيح على شرط مسلم ، وهذا يبين أن المراد باسم الجلالة هذه الكلمة الطيبة دون مجرد ذكر الاسم الموصوف) .

(5) مختصر مسلم (2022) .

- 23 -

ـ شبهات في مسائل الألوهية وجوابها ـ

المسألة الأولىٰ: هل حبُّ الذات والآباء والأبناء والأوطان يؤثر على إخلاص العبد حبّه لله؟!

الجواب: إن الله سبحانه قد فطر عباده على حب الذات والآباء والأبناء والأوطان، ومن ثَمَّ فلا يعاب على أحد ظهر منه بعض ذلك، وإنما الشرك في هذه المسألة يأتي حين يتخذ العبد من دون الله نداً يحبه كما يحب الله عز وجل، ومن ثم فإخلاص العبودية لله جل ثناؤه لا يعني القضاء على تلك الفطرة وإنما المطلوب أن يكون حبها بعد حب الله تعالىٰ، بمعنىٰ أن العبد يضحي بكل هذه المحاب إذا تعارضت مع محبة الله سبحانه.

قال الله في سورة التوبة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار][1].

---

(1) مختصر صحيح مسلم (22) كتاب الإيمان.

المسألة الثانية: هل دعاء المخلوق الحاضر أو الاستغاثة به عند الحاجة شرك في الدعاء أو العبادة؟!

الجواب: يجب إفراد الله سبحانه في الدعاء والتوكل والرجاء فيما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه تعالىٰ، كما قال جل ثناؤه:

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: 106].

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: 23].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: 218].

والدعاء من أبرز العبادات التي ضلل بها الشيطان أقواماً يُنسبون إلى الإسلام، فجعلهم يصرفونها لغير الله، كدعاء الميت أو الغائب فيما لا يقدر عليه إلا الله جل ثناؤه.

وفي المسند بسند صحيح عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: [الدعاء هو العبادة. ثم قال: اقرؤوا إن شئتم قول الله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [المؤمن: 60]][1].

وقال جل ثناؤه في سورة مريم حاكياً قول إبراهيم ﷺ: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٤٨ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾.

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتىٰ يسأله شِسْع نعله إذا انقطع][2].

وفي المسند بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [من لم يسأل الله يغضب عليه][3].

---

(1) تخريج المشكاة (2330) وصحيح الجامع (3401) وصحيح أبي داود (1329).

(2) ويشهد له ما في صحيح الجامع (5325) بلفظ: (ليستَغْن أحدُكم عن الناس بقضيب سِواك). وانظر السلسلة الصحيحة (2198).

(3) تخريج المشكاة (2238) وصحيح الجامع (2414) بلفظ: (إنه من لم يسأل الله تعالى يَغضب عليه).

وفي المسند وصحيح أبي داود من حديث أبي جُرَي : [قلت يا رسول الله إلام تدعو؟ قال : أدعو إلى ربك الذي إن مَسّكَ ضر فدعوته كشف عنك ، والذي إن أضللت بأرض قفر فدعوته ردَّ عليك ، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك](1) .

وأما الدعاء الذي لا يعد صارفه أو فاعله لغير الله مشركاً فهو دعاء الحي الحاضر فيما يقدر عليه ، فهذا ليس من الشرك ولا من الحرام في شيء .

قال تعالى في سورة القصص : ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ .

المسألة الثالثة : هل الخوف من المخلوق ـ أحياناً ـ شرك في الخوف من الله وحده؟ !

الجواب : لابد من وجوب إفراد الله تعالى بالخوف منه والرهبة من عظمته وقدرته .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة : 40] .

وقال أيضاً : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 175] .

ومن ثم فالخوف المخرج من الملة أن يخاف العبد شيئاً لذاته خوف السر الذي لا ينبغي إلا لله عز وجل ، كأن يخاف من وثن أو قبر أو ميت أن يوقع به مكروها ، وقد قال الله في كتابه : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : 17] . وقال : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس : 107] .

وأما الخوف الطبيعي الذي يحصل للإنسان عند الشعور بالخطر فهذا أمر فطر الله الناس عليه ولا يُعاب من شعر به إلا أن يبالغ فيه ويتجاوز حدوده ، وقد ذكره الله في القرآن في أكثر من موضع :

قال تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : 45 - 46] .

وقال جل ثناؤه : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ [القصص : 7] .

---

(1) صحيح الجامع (242) .

وقال جل ذكره: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: 21].

وقال سبحانه: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ [طه: 67 - 68].

وقال: ﴿ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ [القصص: 31].

وقال عز وجل: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ... ﴾ [ص: 22].

وفي المسند وصحيح أبي داود عن أبي موسىٰ قال: [كان إذا خاف قوماً قال: اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم][1].

وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة][2].

المسألة الرابعة: قيل: إنّ حكم الله تعالىٰ على المشركين بالكفر نابع من دعائهم لحجارة لا تضرُّ ولا تنفع، بخلاف دعاء المسلمين اليوم للأولياء والصالحين والأنبياء والمرسلين!!! فما الجواب؟

الجواب: إن الأنصاب والأصنام والتماثيل والأوثان كاللات والعزىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ لم يكن العرب يعبدونها لذاتها وإنما كانوا يعبدونها على أنها رموز لصالحين.

فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وسواع لهذيل، ويغوث لمراد، ثم صارت لبني غطيف بالجرف عند سبأ، أما يغوث فكانت لِهَمْدان، وأما نسر فلحمير لآل ذي الكلاع، كلها أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي يجلسون فيها أنصاباً وسمّوها بأسمائهم، فلم تعبد، حتىٰ إذا هلك هؤلاء

(1) صحيح الجامع (4582) وتخريج الكلم (124).

(2) السلسلة الصحيحة (2335).

وتنسخ[1] العلم عبدت) ذكره الحافظ في الفتح[2].

وروى البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان اللات رجلاً يلت السويق للحجاج)[2].

المسألة الخامسة: فإن قال قائل: إن شرك المشركين نابع من اعتقادهم أثناء توجههم بالعبادة لهذه الأصنام أنها تؤثر وتتصرف في الكون استقلالاً، أما لو عدّوها وسائط توصلهم إلى الله كما يفعل بعض المسلمين اليوم تجاه بعض مشايخهم لما أنكر الله عليهم؟! فما الجواب؟

الجواب: لقد كذّب القرآن الكريم هذه الدعوى حين صرّح أنهم كانوا يعبدونها وسائط تقربهم من الله زلفىٰ وليس على أنها تستقل بالضرر والنفع.

قال جل ثناؤه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3].

وقال جل ذكره: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: 18].

فإن قيل إن دعاء المسلمين اليوم للأولياء والصالحين ليس من قبيل العبادة في شيء، فلا هو ركوع ولا سجود، والعبادة معناها نهاية التذلل كما في قواميس اللغة العربية!

قلنا: بل سمّى الله ورسوله الدعاء عبادة، ومن ثم فأي فرق بين دعاء المسلمين للأنبياء والأولياء والاستغاثة بهم وقت الكرب والشدة وبين دعاء المشركين بالأمس لأصنامهم مستنصرين بها، بل إن المشركين كانوا يفردون الله بالدعاء عند وقوعهم بالشدائد فهم أحسن حالاً من القبوريين اليوم الملازمين لدعائها.

قال جل ذكره: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65].

---

(1) وفي رواية: (ونسي).

(2) قد مضى تخريجه.

وقال سبحانه : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء : 67].

فالآيات جعلت إفراد المشركين لله بالدعاء وقت الشدة إخلاصاً وقرنهم الدعاء لله بدعاء الأصنام وقت الرخاء شركاً ، وكثير من المنتسبين للإسلام اليوم إذا وقع في شدة أو كرب نسي الله وأخلص دعاءه للأولياء والأنبياء .

المسألة السادسة : قيل : هناك فرق شاسع بين مشركي الأمس ومسلمي اليوم فالمشركون الأوائل كانوا يدعون أصناماً مصنوعة من حجارة لا تضر ولا تنفع ، فهل من العدل أن يجعل فعل هؤلاء بمثابة من يدعو أولياء مقربين من الله أطبقت الدنيا على الشهادة لهم بالدين والورع ! !

الجواب : إن الباحث في القرآن المتأمل في دلالات الآيات يراها تنكر على المشركين توجههم بالعبادة إلى كل مخلوق سواء كان عاقلاً أو غير عاقل ، وسواء في ذلك الأنبياء والأولياء بل حتى الملائكة .

قال الله في سورة سبأ : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ : 40 - 41].

وقال سبحانه في سورة الإسراء : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء : 56 - 57].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله : [﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن واستمسك الإنس بعبادتهم ، فنزلت ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾][1] .

ثم ساقه من طريق أخرى إلى ابن مسعود ، وفيه : (فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون فنزلت)[2] .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1245) .

(2) صحيح مسلم (244/8) .

وذكر ابن جرير في التفسير عن ابن عباس قال: (كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة وعزيزاً وهم الذين يدعون يعني الملائكة والمسيح وعزيراً).

المسألة السابعة: قيل: إن الذين يدعون الأولياء والصالحين لا يثبتون لهم في قلوبهم أي معنىً للربوبية أو الألوهية فلا يجوز الحكم على فعلهم بالكفر! فما الجواب؟

الجواب: هذا القول يدفعنا لردّ أقوال الفقهاء في حكم المرتد، وأن كل من صدر منه فعل كفر أو قول كفر فلا يجوز أن نحكم بكفره حتىٰ نكشف عن مقصده، وهذا مخالف لمنهج الله في الحكم على أمثال هؤلاء.

قال الله في سورة التوبة: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: 65 - 66].

فَحَكَمَ عليهم سبحانه بالكفر سواء قالوها جادين أو هازلين، وهذا فيه إجماع أهل العلم.

فقد نقل القاضي عياض في كتابه «الشفاء» إجماع الأمة الإسلامية على كفر من يتلفظ بمسبة الله تعالى أو رسوله.

وقال الشيخ أبو الطيب العظيم آبادي في كتابه «التعليق المغني على سنن الدارقطني»: (ومن أقبح المنكرات وأكبر البدعات وأعظم المحدثات ما اعتاده أهل البدع من ذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى بقولهم: «يا شيخ عبد القادر شيئاً لله» هؤلاء عبدة غير الله ما قدروا الله حق قدره ولم يعلم هؤلاء السفهاء أن الشيخ رحمه الله لا يقدر على جلب نفع ولا دفع ضرر، فَلِمَ يستغيثون به ولم يطلبون الحوائج منه ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك أو نعظم أحداً من خلقك كعظمتك).

وقال القاضي حميد الدين ناكوري الهندي في كتابه «التوشيح»: (منهم الذين يدعون الأنبياء والأولياء عند الحوائج والمصائب باعتقاد أن أرواحهم حاضرة تسمع النداء وتعلم الحوائج وذلك شرك قبيح وجهل صريح، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: 5].

المسألة الثامنة: يحتج مجيزوا الاستغاثة بغير الله بما رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة عن الهيثم بن حنش قال: (كنا عند عبد الله بن عمر رضي الله عنه فَخُدِّرَت رجله فقال له رجل: اذكر أحب الناس إليك فقال: يا محمد، فكأنما نشط من عقال) فهذا حديث فيه استغاثة صحابي بالنبي ﷺ!! فما الجواب؟

الجواب: قال أهل العلم من المحدِّثين: (إن هذا الحديث ضعيف جداً لعلل كثيرة منها جهالة الهيثم بن حنش).

وأفاد بعض أهل العلم أن أمثل ما رُوي في هذا الباب وأصحه ما رواه البخاري في الأدب المفرد عن عبد الرحمن بن سعد قال: (خدرت رجل ابن عمر فقال له رجل: اذكر أحب الناس إليك فقال محمد). قال: والجواب أن هذا الدواء التجريبي للخدر كان معروفاً عند الجاهليين قبل الإسلام، جُرِّبَ فنفع، قال الشاعر:

صبٌّ محبٌّ إذا ما رجله خدرت ... نادى كبيشة حتى يذهب الخدر

وقال الشاعر:

والله ما خدرت وما عثرت ... إلا ذكرتك حتى يذهب الخدر.

وأما استدلالهم بما روى الطبراني أن النبي ﷺ قال: (إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل: يا عباد الله أعينوني فإن لله عباداً لا نراهم). وبما روىٰ الطبراني أيضاً عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد أعينوني يا عباد الله). فالجواب: إن هذين الحديثين ضعيفان، والأول أشد ضعفاً من الثاني كما ذكر أهل العلم، وعلى كل فلو صح هذان الحديثان فلا دلالة فيهما على جواز نداء الغائب فيما لا يقدر عليه، بل فيهما نداء الملائكة «ملائكة أحياء» أَوْكَلَهُم الله بإعانة من يضل أو يقع في كرب وشدة.

وأما استدلالهم بما روى الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» من رواية سيف بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، صعد المنبر فقال: (أنشدكم بالله الذي

هداكم للإسلام هل رأيتم شيئاً تكرهون؟ فقالوا اللهم لا ، وعمَّ ذلك؟ فأخبرهم أن بلال بن الحارث أخبره أنه أتىٰ قبر النبي ﷺ فقال : يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا ، فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال : (ايت عمر فأقرئه مني السلام وأخبرهم أنهم مسقون وقل له عليك بالكيس الكيس) .

والجواب كما قال أهل العلم : إن هذه الرواية التي ذكرها ابن كثير وكذلك البيهقي في «دلائل النبوة» ضعيفة كثيرة العلل : ففيها عنعنة الأعمش وهو مدلس ، والمدلس لا يقبل من حديثه إلا ما قال فيه حدثنا أو أخبرنا . ثم في السند مالك الدار مجهول ، والمجهول لا يقبل حديثه ، ثم إن ذكوان الراوي عن مالك لا يعلم سماعه وإدراكه لمالك . وكذلك سيف ضعيف الحديث كما قال الحافظ ابن حجر .

ثم إنه لو صحت الرواية فلا تدل على مرادهم ، فقول النبي ﷺ «الكيس الكيس يا عمر» فيه إرشاد إلى وجوب اللجوء إلى الاستسقاء في مثل تلك الحال وأن تأخّر عمر عن هذه العبادة الشرعية «الاستسقاء» أوقع الرجل في المحظور .

وأما استدلالهم بما رواه الحافظ ابن كثير : (أن شعار المسلمين في موقعة اليمامة كان «محمداً») ضمن خبر طويل . فالجواب كما ذكر أهل العلم أن الرواية فيها ضعف ونكارة من ثلاث جهات :

1- في السند سيف بن عمر يروي عن خلق كثير من المجهولين ، قال فيه أبو داود : (ليس بشيء) . وقال ابن حبان : (اتهم بالزندقة) . وقال أبو حاتم : (متروك) .

2- في السند الضحاك بن يربوع وهو ضعيف .

3- يربوع مجهول الحال .

وأما استدلالهم بقوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ قالوا : فالله ندبنا حين نقع في الذنوب أن نأتي النبي ﷺ ونطلب منه أن يستغفر لنا .

والجواب : إن هذه الآية تعني المجيء إلى الرسول ﷺ أثناء حياته حيث يسمع منهم شكواهم ويستغفر لهم ، ولم يصح عن أحد من الصحابة رضوان الله عليهم

مجيئه إلى قبر النبي ﷺ بعد موته وطلبه أي شيء ، وكذلك فإنه لم يفهم أحد من المفسرين هذا الفهم الذي ذكره مجيزوا دعاء غير الله .

المسألة التاسعة : هل العبرة بالإهلال الحقيقي أم بالتسمية أثناء الذبح والنذر ؟ !

الجواب: لقد قرن الله سبحانه في كتابه بين أجل العبادات البدنية وأجل العبادات المالية ، فقال جل ثناؤه : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر : 2]. وقال جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : 163] .

وفي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : [لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثاً ، لعن الله من غيّر منار الأرض][1] .

قال الشيخ حامد الفقي : (الإهلال لغير الله كأن يقول هذه شاة السيد فلان ليعرف الناس أنها مُهلة لغير الله ولو سمّى الذابح أثناء الذبح اسم الله تعالى فإن هذه التسمية اللفظية لاغية والعبرة بالإهلال الحقيقي من قصد التقرب لغير الله) .

وكذلك النذر فإنه عبادة ، والعبادة لا تصرف لغير الله سبحانه ، قال جل ثناؤه : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾ [البقرة : 270] .

وفي صحيح الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : [مَنْ نذر أن يُطيعَ الله فَلْيُطِعْه ، ومَنْ نذر أن يعصي الله فلا يعصه][2] .

قال الشيخ قاسم الحنفي في شرح «درر البحار» : (النذر الذي ينذر أكثر العوام كقولهم «إن شفىٰ الله مريضي أو رد غائبي فلقبر الشيخ فلان كذا من الذهب أو الفضة أو الشمع ، فهذا النذر باطل لأنه لمخلوق والنذر عبادة) .

المسألة العاشرة: هل توسل الأعمىٰ بالنبي ﷺ وتوسل عمر بالعباس يجعل التوسل بذوات الأشخاص مشروعاً؟ !

الجواب: قال أبو حنيفة رحمه الله في «الفقه الأكبر» : (لا ينبغي لأحد أن يدعو

(1) مختصر صحيح مسلم (1261) .
(2) ورواه أحمد وأصحاب السنن . انظر الإرواء (949) .

الله إلا به ، وأكره أن يقول: بمعاقد العز من عرشك أو بحق خلقك).

ومن ثمّ فإن من التوسل الممنوع لا المشروع أن يتوسل العبد بذوات الأشخاص كأن يقول: اللهم بحق فلان وقربه لديك ، حتىٰ ولو كان نَبيّاً ، فإن هذا لا دليل عليه من القرآن والسنة بل الأدلة الصحيحة تخالفه.

وأما استدلالهم بما أخرج الإمام أحمد وغيره بسند صحيح عن عثمان بن حنيف: [أن رجلاً ضرير البصر أتىٰ النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني. فقال ﷺ: إن شئت دعوت لك وإن شئت أخرت ذاك فهو خير. فقال: ادعه. فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه فيصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: اللهم أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضىٰ لي ، اللهم فشفّعه فيَّ وشفعني فيه. قال: ففعل الرجل فبرىء].

قالوا: فالحديث واضح أن الرجل توسل بذات النبي ﷺ: (يا محمد ، وبنبيك).

والرد من وجوه:

1- إن هذا التوسل في الحقيقة هو من النوع الثالث المشروع ، وهو التوسل إلى الله بدعاء الرجل الصالح ، بدليل أن الأعمىٰ جاء إلى النبي ﷺ ليدعو له حيث قال: (ادع الله أن يعافيني) والنبي ﷺ وعده بالدعاء فقال: (إن شئت دعوت لك) ثم أصرّ الأعمى على الدعاء فقال: (ادعه).

2- ثم إن في الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ إياه أن يقول: (اللهم فشفّعه فيَّ) ما يحيل حمله على التوسل بذاته ﷺ ، إذ المعنى: اللهم اقبل شفاعته ﷺ فيَّ ، أي اقبل دعاءه في أن تردَّ عليّ بصري.

3- وكذلك فإن مما علّمه النبي ﷺ أن يقول: (وشفعني فيه) أي اقبل دعائي في أن تقبل شفاعته ﷺ. وقد ذكر العلماء هذا الحديث في معجزاته ﷺ مما يدل على أن السِّر في شفاء الأعمىٰ ليس التوسل بذات النبي ﷺ وإنما هو دعاء النبي ﷺ ، ولذا لم يسمع أن أحداً من العميان دعا هذا الدعاء فَشُفي غير صاحب القصة.

وأما استدلالهم للتوسل بجاه الأشخاص وحرمتهم وحقهم بحديث أنس: [أن

عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقىٰ بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيّنا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيّنا ، قال فيسقون] البخاري.

قالوا: فعمر كان يتوسل بجاه العباس ومكانته عند الله!

ولكن هذا الفهم خاطىء من وجوه:

1- إن النصوص الشرعية يفسر بعضها بعضاً ، فما أُجمِلَ في مكان فصل في موضع آخر ، وقد ثبت أن العباس كان يقول: (اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث).

وفي هذا دليل واضح على أن التوسل إنما كان بدعاء العباس وليس بذاته.

2- إن التوسل لو كان بجاه النبي ﷺ لما عدل عمر رضي الله عنه عن التوسل بجاهه عليه الصلاة والسلام إلى التوسل بالعباس رضي الله عنه ، إذ الجاه لا ينقطع بوفاة النبي ﷺ ، ففي هذا العدول دليل واضح على أن التوسل إنما كان أثناء حياة النبي ﷺ بدعائه كما في حديث الأعرابي ، وهذا غير ممكن بعد وفاته ﷺ ، ولذا لم ينقل عن أحد من الصحابة مجيئه إلى قبر النبي ﷺ والطلب منه أن يدعو للمسلمين.

3- فإن قالوا إنما عدل عمر عن التوسل بالنبي ﷺ وجاهه إلى التوسل بالعباس لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل! والرد: إن هذا لا يَرِدُ في خاطر أحد خاصة عند الوقوع في ظرف عصيب وحالة شديدة يكاد الناس يموتون فيها من شدة الجوع والعطش ، إذ يعمد أقل الناس علماً وفهماً إلى الأخذ بأقوىٰ الأسباب والوسائل عند المصيبة ليردها عن نفسه وغيره ، حتىٰ إن المشركين كانوا يدركون هذا المعنىٰ جيداً وهم في البحر ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67]. وقال جل ذكره: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65].

فاستنجدوا بالقوة العظمىٰ والوسيلة الكبرىٰ وتركوا الوسائل الصغرىٰ التي كانوا يلجؤون إليها وقت الرخاء.

ثم هب أن عمر رضي الله عنه قد خَطر في باله أن يبين ذلك الحكم الفقهي المزعوم ، ترىٰ! هل خطر هذا الخاطر في بال معاوية والضحاك بن قيس حين توسلا بالتابعي الجليل يزيد بن الأسود الجرشي .

4- ثم إنه لو كان التوسل من عمر بذات العباس لما كان هناك من داع لأن يُعلم العباس بذلك لأن الذات موجودة ولها مكانتها عند الله سواء عرف صاحبها أم لم يعرف ، ولما كان هناك داعٍ لأن يتعب العباس نفسه ويدعو الله عز وجل أن يسقي الناس ، ثم إن جريان عمل الصحابة على ترك التوسل بذاته ﷺ عند نزول الشدائد بهم بعد أن كانوا لا يتوسلون بغيره في حياته لهو من أكبر الأدلة الواضحة على أن التوسل بذاته ﷺ غير مشروع .

وهناك استدلالات أخرى لمجيزي التوسل بذوات الأشخاص هي في التحقيق مدارها على أحاديث ضعيفة أو موضوعة :

أ ـ فقصة الرجل مع عثمان بن عفان التي أخرجها الطبراني في المعجم الصغير والكبير قصة ضعيفة منكرة .

ب ـ والحديث الذي عن أبي سعيد مرفوعاً: [من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً] ضعيف ، فيه عطية العوفي ذكره الذهبي في الميزان وقال: مجمع على ضعفه .

جـ ـ وحديث بلال عن النبي ﷺ أنه قال: [كان النبي ﷺ إذا خرج إلى الصلاة قال: بسم الله آمنت بالله . . . اللهم بحق السائلين عليك وبحق مخرجي هذا . .] ضعيف جداً ، لأن فيه الوازع بن نافع العقيلي قال عنه النووي: متفق على ضعفه ومنكر الحديث . وقال الحاكم: يروي أحاديث موضوعة .

د ـ والحديث الذي رواه أمية بن خالد بن أسيد قال: (كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين) ضعيف مرسل ، مداره على أمية بن خالد لم تثبت صحبته .

هـ ـ وحديث عمر مرفوعاً: [لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي ، فقال: يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه! قال يا رب لما

خلقتني بيدك. . . رأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال: غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك]. قال الذهبي: هو موضوع.

و ـ وكذلك ما رُوي في حديث عندهم: (إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم) فهو حديث باطل لا أصل له في شيء من كتب السنة كما ذكر أهل العلم والاختصاص.

والخلاصة: فإنه وإن وَرَدَ عن الإمام أحمد جواز التوسل بذات النبي ﷺ فقط دون غيره ، وكذلك عن الإمام الشوكاني جواز التوسل بالرسول ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين ، إلا أن العصمة للوحي والنص الصحيح ولا نتعصب لأحد ، فكل يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ الذي أمرنا بالتمسك بهديه والحق الثابت في الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة والله المستعان.

المسألة الحادية عشرة: هل التبرك بذات النبي ﷺ وآثاره أو بالقرآن الكريم والرقية مشروع أم ممنوع؟!

الجواب: التبرك هو طلب أو التماس البركة من نفع حسي أو معنوي أو خير من المتبرك به.

وهو نوعان: تبرك ممنوع وتبرك مشروع.

التبرك المشروع: هو ما كان بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ، ومن ذلك التبرك الذي التمسه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بذات النبي ﷺ وآثاره.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه ـ من حديث صلح الحديبية ـ عن المِسور وفيه: [ثم إن عُرْوة جعل يرمقُ أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال: فوالله ما تنخَّم رسول الله ﷺ نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وَجْهَهُ وجِلْدَه ، وإذا أمرهم ابتدروا أمْرَه ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه][(1)].

وكذلك جاء في الصحيحين عن أم عطية رضي الله عنها قالت: [دخل علينا النبي ﷺ ونحن نغسل ابنته زينب فقال: اغسلنها ثلاثاً أو خمساً. . . فإذا فرغتن فآذِنَّني ،

---

(1) السيرة النبوية على منهج الوحيين القرآن والسنة الصحيحة. د. مأمون حموش. ص 812.

فلما فرغنا آذَنّاه ، فألقىٰ إلينا حَقْوه ـ أي إزاره ـ فقال: أشعِرْنَها[1] إياه (تعني إزاره) . . .][2] فأعطىٰ اللاتي يغسلن ابنته إزاره ليجعلوه على بدنها مباشرة .

وكذلك فإن من التبرك المشروع التبرك بالقرآن الكريم والرقية به على الوجه الشرعي ـ يعني قراءته ـ . والتبرك بالتماس خير ليلة القدر وشهر رمضان والثلث الأخير من الليل والجمعة والاثنين والخميس والأشهر الحرم وعشر ذي الحجة ونحو ذلك مما دلّ النص الصحيح على جواز ذلك .

وكذلك فإن من التبرك المشروع التماس الخير والنفع من زيت الزيتون والعسل واللبن والحبة السوداء والعجوة وماء زمزم كل ذلك على الوجه الشرعي .

ومن الأمكنة التي يتبرك بها المساجد عموماً والمساجد الثلاثة خصوصاً ومكة والمدينة والشام والمشاعر المقدسة كعرفة والمزدلفة ومنىٰ .

وأما التبرك الممنوع: فما كان بغير الأمور الشرعية ، أو كان بالأمور الشرعية لكن على غير الوجه الشرعي ، ومن ذلك التمسح بقبر النبي ﷺ وتقبيله ونحو ذلك ، ولقد نصّ على كراهة هذا الفعل والنهي عنه جماعة من العلماء منهم الإمام الغزالي رحمه الله حيث قال: (إنه عادة النصارىٰ واليهود) م 1 ص 271 .

وقال الإمام النووي: (يكره مَسْحُه باليد وتقبيله ، بل الأدب أن يبعد منه كما يبعد منه لو حضر في حياته ﷺ) الإيضاح في الناسك ص 161 .

ثم قال النووي: (هذا هو الصواب وهو الذي قاله العلماء وأطبقوا عليه وينبغي ألا يغتر بكثير من العوام في مخالفتهم ذلك ، فإن الاقتداء والعمل إنما يكون بأقوال العلماء ولا يلتفت إلى محدثات العوام وجهالاتهم . . . إلى أن قال: ومن خطر بباله أن المسح باليد ونحوه أبلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته لأن البركة إنما هي فيما وافق الشرع) انتهى[3] .

---

(1) أي اجعلنه شعارَها ، والشعار الثوب الذي يلي الجسد لأنه يلي شعره . أحكام الجنائز .

(2) أخرجه البخاري (3/99-104) ومسلم (3/47-48) وكذلك أهل السنن . انظر أحكام الجنائز (29) ص 48 .

(3) الإيضاح في الناسك ص 161 .

وقال شيخ الإسلام: (ليس في الدنيا من الجمادات ما يشرع تقبيله إلا الحجر الأسود).

وقد ثبت في الصحيحين أن عمر قال: [والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك].

ومن الأدلة التي ذكرها بعض أهل العلم على عدم مشروعية التبرك بالجمادات ـ غير المنصوص عليها كتقبيل الحجر الأسود واستلام الركن اليماني ـ ما رواه ابن وضاح عن مروان الأسدي قال: (خرجت مع أمير المؤمنين عمر من مكة إلى المدينة فلما أصبحنا صلى بنا الغداة ثم رأى الناس يذهبون مذهباً فقال: أين يذهب هؤلاء؟ قيل يا أمير المؤمنين مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ هم يأتون يصلون فيه فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا يتبعون آثار أنبيائهم فيتخذونها كنائس وبيعاً، من أدركته الصلاة في هذا المسجد فليصل ومن لا فليمض).

وروى ابن سعد في الطبقات عن نافع قال (كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأوعدهم فيها وأمر بقطعها فقطعت).

وروى الإمام أحمد في المسند عن عمر بن الحارث بن هشام أنه قال: (لقي أبو بصرة الغفاري أبا هريرة وهو قادم من الطور فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الطور صليت فيه. قال: أما لو أدركتك قبل أن ترحل إليه ما رحلت. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصىٰ] وسنده صحيح[1].

وله شاهد عنده في أخبار المدينة بإسناد جيد عن قَزَعة قال: [أتيت ابن عمر، فقلت: إني أريد الطور. فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصىٰ. فدع عنك الطور ولا تأته][2].

قال في فتح المجيد: (فابن عمر وبَصْرة بن أبي بصرة جعلا الطور مما نهي عن

---

(1) هو جزء من حديث طويل رواه مالك في الموطأ (108/1). انظر تخريج فتح المجيد ص 289.

(2) انظر فتح المجيد ص 289.

شد الرحال إليه ، لأن اللفظ الذي ذكراه فيه النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة ، فعلم أن المستثنىٰ منه عام في المساجد وغيرها ، وأن النهي ليس خاصاً بالمساجد)[1] .

ومن التبرك الممنوع التبرك بذوات الصالحين وآثارهم قياساً على التبرك بذات النبي ﷺ وآثاره كتقبيل أيديهم والتمسح بهم أو بثيابهم. قال أهل العلم : (وذلك لإطباق الصحابة ومن بعدهم من التابعين على عدم فعل هذا الأمر مع أفضل الناس بعد النبي ﷺ كأبي بكر وعمر وغيرهم من العشرة المبشرين مع وجود مقتضيات هذا التبرك ، وهو طلب الخير والشفاء والبركة وتوفر أسبابه ، وإن خالف في هذه المسألة بعض كبار العلماء كالنووي وابن حجر العسقلاني) .

وأما استدلال بعض مجيزي التبرك بما نقل عن الإمام الشافعي رحمه الله ـ كما جاء في تاريخ ابن عساكر ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ـ : (أنه بعث بكتاب من مصر إلى الإمام أحمد في بغداد ذكر فيه أنه رأىٰ النبي ﷺ في نومه وأنه أمره أن يبشر أحمد بأنه سيمتحن في القول بخلق القرآن وأن الله سيرفع له بذلك علماً إلى يوم القيامة فدفع أحمد إلى حامل الكتاب أحد ثوبيه بشارة ، فلما رجع الرسول إلى مصر تبرك الشافعي بغسالة ثوب الإمام أحمد) .

وهذه القصة لا تثبت من الناحية الحديثية ، وقد ردّها الإمام الذهبي وبين عدم صحتها حيث قال في كتابه سير أعلام النبلاء : (ولم يكن الربيع بن سليمان ـ حامل رسالة الشافعي ـ صاحب رحلة ، فأما ما يروىٰ أن الشافعي بعثه إلى بغداد بكتاب إلى الإمام أحمد فغير صحيح)[2] .

ثم إن الشافعي لقي من هو أكبر من الإمام أحمد وأفضل في نظره كالإمام مالك ولم يتبرك به . وكان يقول : (مالك بن أنس معلمي وعنه أخذت العلم ، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم ، وما أحد أمنّ علي من مالك بن أنس) الانتقاء .

كما لقي الشافعي رجالاً كباراً في الأمة كالإمام الثوري وابن عيينة وغيرهم ولم يتبرك بهم .

---

(1) المرجع السابق .

(2) سير أعلام النبلاء م 2 ص 588/587 .

ومن التبرك الممنوع: التبرك بالقبور والتمسح بها وقد ذكرت إطباق الصحابة على الإحجام عن هذا الأمر فضلاً عن التحذير منه. وأما ما يروىٰ عن الشافعي رحمه الله أنه كان يقول: (إني إذا نزلت بي شدة أجيء فأدعو عند قبر أبي حنيفة فأجاب) فذلك مكذوب عليه كما ذكر المحققون كشيخ الإسلام وابن القيم وغيرهم وذلك من وجوه:

1- إن الشافعي قد نص في كتابه الأم (278/1) على كراهية تعظيم قبور المخلوقين خشية الفتنة والضلال.

2- إن الشافعي لما قدم إلى بغداد لم يكن فيها قبر ينتاب عنده بالدعاء البتة.

وأما استدلال بعضهم على تعظيم القبور بقصة أصحاب الكهف وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ قالوا: فاتخاذ المساجد على القبور جائز في شرع من قبلنا وهو شرع لنا ما لم ينسخ. فالجواب من وجوه:

1- اختلف العلماء في القوم الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف هل هم مسلمون أم كفار؟

2- وعلى فرض أنهم مسلمون فليس في الآية أكثر من حكاية قول طائفة من الناس وعزمهم على ذلك الفعل وليست خارجة مخرج المدح لهم والتأسي بهم.

3- قد ثبت في الصحيحين عن عائشة قالت: [لما نُزل برسول الله ﷺ طِفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها كشفها فقال ـ وهو كذلك ـ: لعنة الله على اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يُحذِّر ما صنعوا، ولولا ذلك أبُرِزَ قبره، غير أنه خشِيَ أن يتَّخذَ مسجداً][1].

4- ثم إن القاعدة الأصولية تقول: (إن شرع من قبلنا يكون شرعاً لنا مالم ينسخه شرعنا)، وقد تواترت الأحاديث بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد ولعن من فعل ذلك.

وأما استدلال بعض المجيزين ببناء القبة الخضراء على قبر النبي ﷺ،

---

(1) مختصر صحيح مسلم 255.

فالجواب: إن هذا البناء ليس من عمل النبي ﷺ والصحابة والتابعين ولا تابعيهم ولا من علماء الأمة ولم يحدث إلا سنة 678 هـ في أيام الملك المنصور قلاوون وقد أنكر هذا الفعل جملة من العلماء. وكذلك فإن قبر النبي ﷺ لم يكن شيء منه داخل المسجد وقد استمر الأمر على ذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك الذي وسع المسجد سنة 88 هـ وأدخل فيه الحجر للضرورة مع كراهة من كره ذلك من السلف.

وقد أبعد قوم النجعة حين استدلوا بقصة الأعرابي التي ذكرها ابن عساكر في تاريخه وابن الجوزي في «مثير العزم الساكن» وغيرهما بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي قال: (دخلت المدينة فأتيت قبر النبي ﷺ فزرته وجلست حذاءه، فجاءه أعرابي فزاره ثم قال: يا خير الرسل إن الله أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروك» وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم بكىٰ، وأنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف، فرقدت فرأيت النبي ﷺ في نومي وهو يقول: الحق الرجل فبشِّره أن الله غفر له بشفاعتي). فهي قصة إسنادها ظلمات بعضها فوق بعض، قال الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتابه (الصارم المنكي في الرد على السبكي) بعد ذكره هذه القصة: (إنه لا تقوم بها حجة وإسنادها مظلم، ولا يمكن الاعتماد على مثلها عند أهل العلم).

وأما استدلالهم بما رُوي عن أبي أيوب الأنصاري أنه جلس عند قبر النبي ﷺ ووضع خدّه عليه وأخذ يبكي، وحين سئل عن ذلك ذكر لهم قول النبي ﷺ: (لا تبكوا الإسلام إذا وليه أهله). فهذا حديث غير صحيح عند أهل العلم ومن ثمّ فلا تقوم به بينّة ولا حجة.

المسألة الثانية عشرة: كيف يكون الحلف بغير الله شرك وقد قال النبي ﷺ بعد خروج الأعرابي (أفلح وأبيه إن صدق)؟!

الجواب: لقد ثبت في الصحيحين أن رجلا سأل النبي ﷺ عن أمور الإسلام

فأخبره فقال: (أفلح وأبيه إن صدق) وقد ذكر العلماء جواباً على ذلك أن هذا كان أول الأمر ثم نسخ.

ويؤيده أيضاً إنكار النبي ﷺ على عمر حلفه بأبيه حيث قال له: (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت).

والأصل أن الحلف بغير الله كفر أكبر لظاهر الحديث الذي رواه الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك]. إلا أننا عدلنا عن هذا الظاهر لما صح عن ابن عباس وغيره أن هذا الكفر ليس كفراً مخرجاً من الملة.

المسألة الثالثة عشرة: كيف تكون شهادة الله لنفسه بالتوحيد حجة على الخلق؟!

الجواب: قال الله في سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: 18 - 19].

وعبارات السلف في شهد على أربع مراتب كما ذكر أهل العلم:

1- علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته.

2- تكلمه بذلك وإن لم يُعَلِّم غيره، بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها.

3- أن يُعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له.

4- أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربعة.

1- علمه بذلك سبحانه.

2- وتكلمه به.

3- وإعلامه وإخباره.

4- وأمرهم وإلزامهم به.

وتفصيل ذلك:

أ ـ مرتبة العلم: قال سبحانه: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: 86].

ب ـ مرتبة التكلم والخبر: قال جل ذكره: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: 19].

جـ ـ مرتبة الإعلام والإخبار:

1- إعلام بالقول: أرسل به رسله وأنزل به كتبه.

2- إعلام بالفعل: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ ﴾ [التوبة: 17]. فهذه شهادة منهم على أنفسهم.

والمقصود أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه، ودلالتها إنما هي بخلقه وجعله.

د ـ مرتبة الأمر بذلك والإلزام به:

قال جل ثناؤه: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: 23].

﴿ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ ﴾ [النحل: 51].

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الإسراء: 22].

ولفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجملة الخبرية ويقال للجملة الخبرية (قضية وحكم): قال سبحانه: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الصافات: 151-154].

فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكماً.

وقال جل ذكره: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: 35-36] ولكن هذا حكم لا إلزام معه.

والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو متضمن الإلزام، ولو كان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها ولم ينتفعوا بها ولم تقم بها الحجة، بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يُبَيِّنها بل كتمها لم ينتفع بها أحد ولم تقم بها حجة.

وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بثلاثة طرق: السمع والبصر والعقل.

أولاً: السمع.

فبسمع آياته المتلوة المبينة صفات كماله كلها، الوحداينة وغيرها، لا كما يزعمه الجهمية والمعتزلة والمعطلة أنها توقع في الحيرة، فإن ذلك ينافي البيان الذي وصف به سبحانه كتابه.

قال في سورة الزخرف: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾. وقال في سورة يوسف: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾. وقال في سورة الحجر: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾. وقال في سورة آل عمران: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾. وقال في المائدة: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾. وقال في سورة النحل: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

والسنة بينت ما دل عليه القرآن فلم يحوجنا ربنا عز وجل لرأي فلان ولا إلى ذوق فلان في فهم أصول ديننا، قال جل ثناؤه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: 3].

ثانياً: البصر والعقل:

فالنظر في آياته العيانية الخلقية والاستدلال بها، يدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية، والعقل يجمع بين هذه وهذه ويجزم بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة. وهو سبحانه من كمال عدله ورحمته وحكمته ومحبته للعذر وإقامة الحجة لم يبعث نبياً إلا ومعه آية تدل على صدقه.

قال في سورة الحديد: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

وقال في سورة آل عمران: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾. وقال فيها: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾.

وقال في سورة الشورى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾.

فإن قيل فكيف يستدل بالفطرة على أسمائه وصفاته؟

قلنا: لقد أودع الله سبحانه في الفطرة التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل ولا بالتشبيه والتمثيل أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه رسوله ، ثم ما خفي من كماله على الخلق هو أعظم مما يعرفون.

والقرآن العظيم قد اجتمع فيه مالم يجتمع بغيره ، فهو الدليل والمدلول عليه ، والشاهد والمشهود له. قال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: 51].

أخرج عبد الله بن الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي بن كعب قال: [كان رسول الله ﷺ يعلمنا إذا أصبحنا: أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين][1].

فملة إبراهيم: التوحيد ، ودين محمد ﷺ: ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً. وكلمة الإخلاص: هي شهادة أن لا إله إلا الله. وفطرة الإسلام: هي ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلاً وانقياداً وإنابة.

قال في شرح الطحاوية: (فهذا توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: 130 ـ 131]. وكل من له حِسٌّ سليم وعقل يميز به لا يحتاج في الاستدلال إلى أوضاع أهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البتة فهي طرق للشك والحيرة والضلال)[2].

---

(1) رواه أحمد والطبراني في الكبير عن عبد الرحمن بن أبي أبزىٰ ، تخريج الطحاوية (35) وصحيح الجامع (4550).

(2) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي.

المسألة الرابعة عشرة: بعض الناس يخصون الخلة بإبراهيم والمحبة بمحمد عليهما الصلاة والسلام ، ثم يستخدمون كلمة العشق للتعبير عن محبة بعض الصالحين بالله أو برسوله!! فما الجواب؟

الجواب: نثبت للنبي ﷺ أعلى مراتب المحبة لله سبحانه وهي الخلة. فمراتب المحبة عشرة:

1- العلاقة: وهي تعلق القلب بالمحبوب.

2- الإرادة: وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

3- الصبابة: وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه.

4- الغرام: وهو الحب اللازم للقلب ، ومنه الغريم لملازمته: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: 65].

5- المودة: ومنه الود ، وهي صفو المحبة وخالصها ولبّها: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96].

6- الشغف: وهو وصول المحبة إلى شغاف القلب.

7- العشق: وهو الحب المفرط الذي يُخاف على صاحبه منه ، ولا يوصف به الرب لأن معه شهوة.

8- التَّيْم: وهو بمعنىٰ التعبد.

9- التعبد: وهو بمعنىٰ التذلل والخضوع.

10- الخلة: وهي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه.

والمحبة والخلة هما كما يليق بجلال الله سبحانه ، والخلة أعلى مراتب المحبة:

ففي صحيح مسلم عن جندب ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً][1].

(1) انظر صحيح مسلم (7/108) كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ. ومختصر مسلم (1622).

وفي صحيح مسلم وجامع الترمذي عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : [ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الرحمن][1] .

وفيه قال : [إني أبرأ إلى كل خليل من خلته][1] .

ومن ثم فبطل قول من خصّ الخلة بإبراهيم والمحبة بمحمد ، بل الخلة خاصة بهما والمحبة عامة ، فإن المحبة قد ثبتت لغيره :

قال الله في سورة آل عمران : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقال في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وأما العشق فلم تستعمله العرب إلا في موضع الحب المفرط بين الرجل والمرأة ، أو حيث يتخلل ذلك الشهوة ، ومن ثم فلا يليق استخدام هذه الكلمة وهذا المفهوم للتعبير عن محبة بعض العباد لربهم عز وجل ، أو لنبيهم صلوات الله وسلامه عليه .

المسألة الخامسة عشرة : كيف يكون الاستشفاع بالنبي ﷺ وغيره في الدنيا إلى الله تعالى في الدعاء ، فيه مخالفة شرعية ؟ !

الجواب : إن الداعي قد يقول تارة بحق نبيك أو بحق فلان ، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته ، فهذا محذور من وجهين كما ذكر أهل العلم .

1- أنه أقسم بغير الله .

2- اعتقاده أن لأحد على الله حقاً .

فيقال : أ ـ لا يجوز الحلف بغير الله ، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه سبحانه على نفسه ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : 47] .

وكقوله عليه الصلاة والسلام ـ كما في الصحيحين عن ابن عباس ـ لمعاذ وهو رديفه : [يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حقه

---

(1) المرجع السابق .

عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم ، قال: حقهم عليه أن لا يعذبهم][1] .

فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق ، لا لأن العبد مستحق على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلوق .

وأما الحديث الذي يستشهدون به: (أسألك بحق ممشاي هذا وبحق السائلين عليك) فضعيف لا حجة به كما ذكر المحققون .

مـــا للعبـــاد عليـــه حـــق واجـــب كـــلا ولا سعـــي لـــديـــه ضـــائـــع
إن عُــذِّبــوا فَبِعَــدْلِــهِ أو نُعِّمُــوا فبفضلــه وهــو الكــريــم الســامــع

ومن ثم فلا يجوز أن يسأل أو يتوسل أو يقسم بـ (ترك تعذيبهم) لأن السبب هو ما نصبه الله سبباً .

ب ـ لا يجوز الدعاء (بحق فلان ، أو بحق نبيك ، أو بحق البيت الحرام ، أو بجاه نبيك أو أحد من خلقك) فكلها محدثات لم يعرفها الصحابة رضوان الله عليهم ، بل كانوا يتوسلون في حياته بدعائه لا بذاته وشخصه ، كما جاء في الاستسقاء حيث خرجوا يستسقون فقال عمر: (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بِنَبِيِّنا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا)[2] . أي بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله ، وليس المقصود بجاهه عندك ، إذ لو كان ذلك مراداً لكان جاه النبي ﷺ أعظم ، وأعظم من جاه العباس .

جـ ـ الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر: فالشفيع عند البشر كما أنه شافعٌ للطالب شفعة في الطلب بمعنىً أنه صار شفعاً فيه بعد أن كان وتراً ، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه ، وبشفاعته صار فاعلاً للمطلوب ، فقد شفع الطالب والمطلوبَ منه ، والله تعالى وتر لا يشفعه أحد ، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ويقول الله لسيد الشفعاء يوم القيامة: (ارفع رأسك وقل يُسمع لك وسَلْ تعطه واشفع

---

(1) صحيح مسلم (43/1) .

(2) قد مضى بتمامه .

تشفع)[1]. وفي التنزيل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 154]، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: 128]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 53].

5- لكن الله يُكرم الشفيع بقبول شفاعته بعد أن يأذن له بالشفاعة.

ففي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء][2].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، قال عليه السلام: [يا بني عبد مناف لا أملك لكم من الله شيئاً، يا صفيةُ عمةَ رسول الله ﷺ لا أملك لك من الله شيئاً، يا عباس عمَّ رسول الله، لا أملك لك من الله شيئاً][3].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [لا ألفينَّ أحدَكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رُغاءٌ أو شاة لها يعار، أو رقاع تخفِق، فيقول: أغثني أغثني فأقول: قد أبلغتك، لا أملك لك من الله من شيء][4].

فالله سبحانه هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع، وهو الخالق لأفعال العباد، فهو الذي وفَّق العبد للتوبة ثم قبلها، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه[5].

المسألة السادسة عشرة: كيف يرد قول المرجئة: لا يضر مع الإيمان ذنب ولا ينفع مع الكفر طاعة؟!

الجواب: قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ

(1) جزء من حديث مسلم عن أنس وقد مضىٰ بتمامه.
(2) صحيح البخاري (1432)، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها. ورواه مسلم.
(3) صحيح مسلم (133/1).
(4) مختصر صحيح مسلم (1213).
(5) شرح العقيدة الطحاوية.

﴿ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: 84-85].

فأخبر سبحانه أنهم أقروا بميثاقه والتزموه وصدقوه ثم عصوا أمره فقتل فريق منهم فريقاً آخر فهذا كفرهم بما أخذ عليهم ، فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق كافرين بما تركوا منه فهو كفر عمل .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن][1] .

وفي صحيح أبي داود عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا زنىٰ العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلة ، فإذا أقلع رجع إليه][2] .

فالإيمان يزيد وينقص وهو قول وعمل ، وله شعب كثيرة ، وكذلك الكفر مراتب منها المخرج عن الملة ومنها دون ذلك .

شعب الإيمان		شعب الكفر	
قولية	فعلية	قولية	فعلية
منها شعبة يوجب زوالها زوال الإيمان	منها شعبة يوجب زوالها زوال الإيمان.	كلمة تخرج من الملة	فعل يخرج من الملة
الاستكبار عن النطق بالشهادتين	إنكار الركوع بحجة أنه دناءة، أو إنكار الطواف حول الكعبة واعتقاد ذلك وثنية	شتم الله أو الدين أو الرسول	السجود لصنم أو الاستهانة بالمصحف

الإيمان	
قول	عمل
1 ـ قول القلب (الإيمان والاعتقاد)	1 ـ عمل القلب (نيته وإخلاصه)
2 ـ قول اللسان (التكلم بكلمة الإسلام)	2 ـ عمل الجوارح

(1) مختصر مسلم (43).
(2) صحيح الجامع (600).

الكفـر	
كفر عمل	كفر جحود وعناد
1 ـ يضاد الإيمان (الاستهانة بالمصحف)	1 ـ جحود نص ثابت كبراً وعناداً
2 ـ لا يضـاد الإيمان (الحكم بغير ما أنزل الله، ترك الصلاة كسلاً)	2 ـ جحـود عمـل مـن أعمـال الإسـلام المعلومة بالضرورة

والخلاصة:

1- الإيمان له شعب (النطق بالشهادتين ـ الصلاة ـ الزكاة ـ الحج ـ الصيام ـ الأعمال الصالحة (الباطنة: الحياء، التوكل، الخشية، الإنابة. . .) و(الظاهرة: المشي على الأقدام إلى صلاة الجماعة، عيادة المريض، مسح رأس اليتيم. .)، وآخرها: إماطة الأذىٰ عن الطريق).

2- الكفر له شعب: (شتم الله أو الدين أو الرسول (مخرج من الملة)، الشرك بالله في الدعاء أو الاستغاثة، سؤال قبور الصالحين، الحكم بغير ما أنزل الله، المعاصي والكبائر، الكذب. . .، قلة الحياء).

3- من شعب الإيمان ما بزوالها يزول الإيمان (مثالها: الشهادة) أو بزوالها لا يزول (مثاله: ترك إماطة الأذىٰ). وبينهما شعب متفاوتة منها ما يلحق بشعبة الشهادة وإليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى وإليها أقرب.

4- من شعب الكفر ما يخرج من الملة (كشتم الله أو رسوله) ومنها ما يبقي في الملة، وبينهما شعب متفاوتة منها ما للخروج من الملة أقرب ومنها غير ذلك.

5- الإيمان (قول وعمل) والقول: (قول القلب وقول اللسان) والعمل: (عمل القلب وعمل الجوارح) وبزوال الأربعة يزول الإيمان كله، وبزوال التصديق لا تنفع بقية الأجزاء إذ لا بد من الاعتقاد. وكذلك بزوال عمل القلب مع اعتقاد التصديق لا ينفع صاحبه، وهو كفر ككفر إبليس وفرعون واليهود والمشركين يعتقدون

بصدق الرسول ويقرون سراً أو جهراً ولكن يقولون: لا نؤمن ، كبراً وعلواً.

6- طالما يزول الإيمان بزوال عمل القلب فغير مستنكر زواله بزوال أعظم أعمال الجوارح التي هي الصلاة وخاصة إذا رافق ذلك عدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم.

عدم طاعة الجوارح ← عدم طاعة القلب ← عدم التصديق المستلزم للطاعة وهو حقيقة الإيمان.

الإيمان ↔ تصديق مستلزم للطاعة والانقياد.

ففي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير: [إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب][1].

وقد ظهرت بدعة الإرجاء في عهد الصحابة رضوان الله عليهم ، واتفقوا على قتل المرجئة إن لم يتوبوا من ذلك ، فإن قُدامة بن عبد الله شرب الخمر بعد تحريمها هو وطائفة وتأولوا قوله تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟[2] إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المائدة. فلما ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اتفق هو وعلي بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا وإن أصروا على استحلالها قتلوا ، وقال عُمر لقُدامة: (أخطأت استُك الحفرة ، أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر). ثم إن أولئك أيسوا بعد ذلك من التوبة فكتب عمر إلى قدامة: (﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: 1 ـ 2]. ما أدري أي ذنبيك أعظم؟ استحلالك المحرم أولاً؟ أم يأسك من رحمة الله ثانياً)[3].

ثم إن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يُلحقها بالصغائر ، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة

(1) مختصر البخاري (48).
(2) المراد من مات قبل تحريم الخمر من الصحابة كما في أسباب النزول.
(3) شرح العقيدة الطحاوية.

بها ما يلحقها بالكبائر ، والمرجع هو القلب. وقد يُعفىٰ لصاحب الإحسان العظيم مالا يعفىٰ لغيره.

وقد ذكر الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية أن فاعل السيئات تسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب عُرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة.

1- التوبة:

لقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: 70]. وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النساء: 146].

والتوبة النصوح هي الخالصة لا يختص بها ذنب دون ذنب ، ولابد من التوبة مع الإسلام ، أي يتوب توبة عامة من كل ذنب حالة إسلامه ، والتوبة سبب لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها ، وفي التنزيل: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]. وهذا لمن تاب ولذا قال ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾ ولهذا قال بعدها ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

2- الاستغفار:

لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33].

وتارة يذكر وحده وتارة مع التوبة ، فالتوبة تتضمن الاستغفار ، والاستغفار يتضمن التوبة ، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق ، وأما عند اقتران إحدىٰ اللفظتين بالأخرىٰ ، فالاستغفار: طلب وقاية شرّ ما مضىٰ ، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شرّ ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

ونظير ذلك (الفقير والمسكين) إذا ذكر أحدهما شمل الآخر ، وإذا ذكرا معاً كان لكل معنىٰ: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾ [المائدة: 89]. ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ﴾ [المجادلة: 4]. ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: 271]. فلا خلاف أن كلاً منهما لما أفرد شمل المقل والمعدم ، ولما قرن أحدهما بالآخر: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ [التوبة: 60] ، كان المراد بأحدهما المقل والآخر المعدم (على خلاف فيه).

ومثله (الإثم والعدوان) و(البر والتقوىٰ) و(الفسوق والعصيان) و(الكفر

والنفاق) فالكفر أعم فيشمل النفاق ، أما لو ذكرا معاً فلكل معنىٰ ، وكذا (الإيمان والإسلام).

3- الحسنات :

لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : 114].

فالحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها ، فالويل لمن غلبت آحادُه عشراته ، وفي المسند وجامع الترمذي بسند حسن من حديث معاذ عن النبي ﷺ قال : [اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها ، وخالقِ الناس بخلق حسن](1).

4- المصائب الدنيوية.

لما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غمّ ولا هم ولا حزن حتىٰ الشوكة يشاكها إلا كُفِّر بها من خطاياه](2).

وفي المسند عنه : أنه لما نزلت هذه الآية : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ : [شَقَّت على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله أن تبلغ ، فشَكَوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال لهم : قاربوا وسددوا فكل ما يصاب به المسلم كفارة حتىٰ النكبة ينكبها]. ورواه مسلم وزاد (والشوكة يشاكها)(3).

فالمصائب نفسها مكفرة وبالصبر عليها يثاب العبد وبالسخط يأثم.

5- عذاب القبر : وقد فصلته عند الحديث عن الإيمان بالملائكة.

6- دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات. (بحث الدعاء).

7- ما يهدىٰ إليه بعد الموت من ثواب صدقة أو حج.

8- أهوال يوم القيامة وشدائده. (الإيمان باليوم الآخر).

9- ما ثبت في الصحيحين : [أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وُقفوا على قنطرة

---

(1) حسن. صحيح الجامع (96).

(2) مختصر صحيح مسلم (1798).

(3) مختصر صحيح مسلم (1797).

بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض ، فإذا هُذِّبوا ونقّوا أذن لهم في دخول الجنة].

10- شفاعة الشافعين. (بحث الشفاعة).

11- عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48].

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي - في عقيدته المدونة - (وأهل الكبائر[1] من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون ، إذا ماتوا وهم موحدون ، وإن لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا الله عارفين «مؤمنين» وهم في مشيئته وحكمه ، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله ، كما ذكر عز وجل في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وإن شاء عذبهم في النار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ، ثم يبعثهم إلى جنته ، وذلك بأن الله تعالى تولىٰ أهل معرفته ، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته ، الذين خابوا من هدايته ، ولم ينالوا من ولايته. اللهم يا ولي الإسلام وأهله ، ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به)[2].

المسألة السابعة عشرة: قيل: الإقرار باللسان ركن زائد في مفهوم الإيمان بل يكفي ما وقر في القلب وصدقه العمل؟ فما الجواب؟

الجواب: لقد ذهب الناس في مفهوم الإيمان إلى مذاهب شتىٰ:

1- الإيمان: (تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان). «مالك + الشافعي + أحمد + الأوزاعي + إسحاق + أهل الحديث + أهل المدينة».

---

(1) الكبائر: ما يترتب عليها حدٌّ أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب.
والصغائر: ما ليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد خاص (بالنار أو اللعنة أو الغضب) في الآخرة.
وفي التنزيل: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: 31].
وكلام الطحاوي رد على الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد أهل الكبائر في النار ، لكن الخوارج قالوا بتكفيرهم والمعتزلة بخروجهم من الإيمان لا بدخولهم بالكفر بل لهم عندهم منزلة بين منزلتين ، وكل ذلك من الضلال.

(2) متن العقيدة الطحاوية (68).

2- الإيمان: (إقرار باللسان وتصديق بالجنان). «أبو جعفر الطحاوي» قال: (ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه. والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق، والإيمان واحد وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقىٰ ومخالفة الهوى وملازمة الأولى).

3- الإيمان: (إقرار باللسان فقط). «الكرامية».

4- الإيمان: (إقرار في القلب وحده. والإقرار باللسان ركن زائد غير أصلي). «أبو منصور الماتريدي + أبو حنيفة».

5- الإيمان: (هو المعرفة بالقلب). «الجهم بن صفوان وبعض القدرية».

فالمنافقون عند الكرامية مؤمنون كاملوا الإيمان لكن يستحقون الوعيد، وهذا ظاهر الفساد. وفرعون وقومه ـ عند جهم وأصحابه ـ كانوا مؤمنين، فإنهم عرفوا صدق موسىٰ وهارون ولم يؤمنوا لهما. ولهذا قال موسىٰ لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: 102]. وفي التنزيل أيضاً: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14]. وكذلك أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ولم يؤمنوا. وكذلك أبو طالب حيث قال:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية ديناً

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

وكذلك إبليس يكون عند الجهم مؤمناً كامل الإيمان فلم يجهل ربه، ففي التنزيل: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: 79]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82]. فالكفر عند جهم: الجهل بربه، وهو أحق به.

ومن ثم فإن فساد قول الجهمية والكرامية ظاهر باتفاق أهل العلم. والخلاصة:

الإيمان: 1- ما يقوم في القلب وباللسان وسائر الجوارح «جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم». 2- القلب واللسان دون الجوارح «كما ذكر الطحاوي عن

أبي حنيفة وأصحابه». 3- باللسان وحده. «الكرامية». 4- بالقلب وحده: إما بالمعرفة «الجهم». أو التصديق «الماتريدي».

ويرى بعض أهل العلم أن الاختلاف بين أبي حنيفة والأئمة صوري، فكون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب أو جزءاً من الإيمان ـ مع الاتفاق أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان بل هو في مشيئة الله إن شاء عذبه أو تاب عنه ـ نزاع لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد. والقائلون بتكفير تارك الصلاة ضموا إلى هذا الأصل أدلة أخرىٰ، وإلا فقد نفىٰ النبي ﷺ الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر ولم يوجب ذلك زوال الإيمان بالكلية اتفاقاً. ولا خلاف أنه تعالى أراد من العباد القول[1] والعمل. وأجمعوا أنه لو صدق بقلبه وأقر بلسانه وامتنع من العمل بجوارحه أنه عاص لله ورسوله ومستحق للوعيد.

ووجه الانحراف في قول بعضهم أن الأعمال غير داخلة بمسمىٰ الإيمان أن يقول: لما الإيمان شيء واحد فإيماني كإيمان أبي بكر وعمر بل والأنبياء وجبرائيل، وهذا غلو، فإن الكفر مع الإيمان كالعمىٰ مع البصر ولاشك أن البصراء يختلفون بقوة البصر وضعفه.

وقول الطحاوي «وأهله في أصله سواء» فيه نظر، إذ لا يلزم منه التساوي في كل وجه فنور لا إله إلا الله يتفاوت في القلوب، لذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على قدر إيمانهم، فربما أحرق نور الإيمان بقلبه كل شهوة وشبهة وذنب، وبه يفهم حديث البطاقة، إذ معلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار ثم يخرج، وبنحوه يفهم حديث قاتل المائة إذ أن ما قام في قلبه من حقائق الإيمان التي دفعته للسير نحو القرية الصالح أهلها جعلته ينوء بصدره لها عند الموت. وعليه يفهم حديث عتبان بن مالك ـ في الصحيحين ـ: [إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله][2].

وفي التنزيل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 201]. قال مجاهد: (هو الرجل يهم بالذنب فيتذكر الله

(1) المراد التصديق بالقلب والإقرار باللسان.

(2) قد مضى تخريجه.

فيدعه). ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس: (لا الإنس تقصر عن السيئات ولا الشياطين تمسك عنهم). والمقصود أن إخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي ثم لا يقصرون، ومن ثم فالشهوة والغضب مبدأ السيئات فإذا أبصر المؤمن رجع.

وأما استدلالهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي بمصدق، وقوله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ فلو كان مركباً من قول وعمل لزال كله بزوال جزئه، وقوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعطف العمل على الإيمان يقتضي المغايرة!! فيقال: هذا المعنىٰ اللغوي للإيمان أنه التصديق صحَّ ببعض مواضع في القرآن لا على الإطلاق، ومما يدل على عدم الترادف قوله تعالىٰ: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ والمراد صدقوه واتبعوه، ولو صدقوه وقالوا لا نتبعك بل نبغضك ونعاديك لكان كفراً أعظم، كما فعل بعض اليهود الذين علموا صدق النبي ﷺ ومع ذلك كفروا بدينه وأعلنوا الحرب عليه، فعُلم من ذلك أن الإيمان ليس التصديق فقط.

وقد ذكر أهل العلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة مع الاشتراك في الحكم، والمغايرة مراتب:

1- المغايرة التامة وانعدام التلازم: وهو أعلاها، وذلك بأن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزءاً منه، ولا بينهما تلازم. نحو قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: 3]. وهذا هو الغالب.

2- المغايرة مع وجود تلازم: كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 42]، وقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: 59].

3- عطف بعض الشيء عليه: كقوله تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: 238]، وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾ [الأحزاب: 7].

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي: (وفي مثل هذا وجهان:

أ ـ أن يكون داخلاً في الأول فيكون مذكوراً مرتين.

ب ـ أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلاً فيه هاهنا وإن كان داخلاً فيه منفرداً كما بلفظ «الفقراء والمساكين». . .) شرح الطحاوية.

4- عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين: كقوله تعالىٰ: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: 3].

والخلاصة: لو أطلق الإيمان فيراد به ما يراد بلفظ البر والتقوى والدين، ففي حديث عمر: [هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم] فجعل النبي ﷺ الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان. وكذلك لو أطلق الإسلام، أما لو خصص فقد يراد به كلمة الإسلام، أو الأعمال الظاهرة ﴿ ۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾ [الحجرات: 14]، ويراد بالإيمان عند ذلك رسوخ الأصول الخمسة واليقين بها.

قلت: ويفصل النزاع مافي الصحيحين عن ابن عباس ـ في حديث وفد عبد القيس ـ قال لهم النبي ﷺ: [أتدرون ما الإيمان بالله وحده قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تُعطوا من المغنم الخمس][1]. فجمعت كلمة الإيمان قول اللسان والقلب وعمل الجوارح، وهذا أقوى دليل على أن الأعمال داخلة بالإيمان.

وكذلك مافي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان][2]. فدخل العمل في مفهوم الإيمان.

قال الحسن البصري: (ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في الصدور وصدقته الأعمال).

وفي صحيح أبي داود والمسند عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

---

(1) صحيح مسلم (1/35-36).

(2) مختصر صحيح البخاري (9) كتاب الإيمان.

[أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً][1] .

وفيهما أيضاً عن أبي أمامة الحارثي عن النبي ﷺ قال : [البذاذة من الإيمان][2] .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [من رأى منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان][3] .

وفي لفظ : (ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) .

وفي صحيح الترمذي وأبي داود عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : [من أحب لله وأبغض لله ، وأعطىٰ لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان][4] . فدخل الحب والبغض الذي هو أصل حركة القلب في مفهوم الإيمان ، كما دخل البذل للمال ومنعه كذلك .

المسألة الثامنة عشرة : مسألة الاستثناء في الإيمان : هل يصح القول أنا مؤمن إن شاء الله؟

الجواب : الناس في هذه المسألة طرفان ووسط كما ذكر أهل العلم :

1- منهم من يوجبه .

2- منهم من يحرمه .

3- ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار .

أ ـ من أوجبه :

1- قالوا : الإيمان هو ما مات عليه الإنسان ولا يعلمه إلا الله ولا عبرة بما قبله ، وعندهم : الله يحب الكافر منذ الأزل إذا علم أنه يموت مؤمناً ، والصحابة لم يزالوا محبوبين قبل إسلامهم ، وإبليس ومن ارتد ما زال مبغوضاً إلى الله وإن كان لم يكفر بعد ، وهذا قول فاسد . والصواب : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فجعل محبته لهم سبحانه إن اتبعوا الرسول ، فهي محبة مشروطة . ثم غلا بعضهم

---

(1) صحيح . ورواه الترمذي وابن حبان من حديث أبي هريرة . انظر صحيح الجامع (1243) .
(2) يعني التقشف . وأخرجه ابن ماجه (4118) . انظر السلسلة الصحيحة (341) .
(3) مختصر صحيح مسلم (34) كتاب الإيمان .
(4) صحيح الجامع (5841) .

فقال: صليت إن شاء الله ـ يعني القبول ـ ، وغلا آخرون فقالوا: هذا ثوب إن شاء الله ، هذا حبل إن شاء الله ، قالوا لأنه لو شاء غيره.

2- قالوا: إن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله ، وترك ما نهاه عنه كله ، فلو قال: أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين ، وأنه من الأولياء المقربين ، ثم ينبغي أن يشهد لنفسه بالجنة واحتجوا بقوله تعالىٰ: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [الفتح: 27]. وبما في صحيح مسلم: [وإنا إن شاء الله بكم لاحقون]. [إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله]. وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون وإن جوّزوا ترك الاستثناء.

ب ـ من يحرمه: قالوا: من استثنىٰ في إيمانه فهو شاك وهذا غير جائز ، إذ يتهم رسوخ أصول إيمانه ، وأجابوا عن الاستثناء في قوله ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ أنه يعود للأمن والخوف أما الدخول فلا شك فيه ، وقيل: لتدخلن جميعكم أو بعضكم لأنه علم أن بعضهم يموت. قال شارح الطحاوية: وفي الجوابين نظر ، فوقعوا بما فروا منه:

1- أما الأمن والخوف فأخبر أنهم يدخلون آمنين مع علمه بذلك فلا شك في الدخول ولا في الأمن ولا في دخول الجميع أو البعض فالله علم من يدخل ، فكان قوله: إن شاء الله هنا تحقيقاً للدخول كما يقول الرجل فيما عزم على شيء أن يفعله لا محالة: والله لأفعلن كذا إن شاء الله ، لا لشك بإرادته بل لا يحنث الحالف هنا لأنه لا يجزم.

2- وأجيب أيضاً أنه قال تعليماً لنا كيف نستثني إذا أخبرنا عن مستقبل.

ج ـ أما من جوّز الاستثناء وتركه فهو أسعد بالدليل من الفريقين ، وخير الأمور أوسطها ، فإن أراد المستثني الشك في أصل إيمانه مُنع من الاستثناء (وهذا لا خلاف فيه). وإن أراد أنه مؤمن من المؤمنين الموصوفين بقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: 2-4]. وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: 15]. فالاستثناء حينئذ جائز ، فهو كمن استثنىٰ وأراد عدم علمه بالعاقبة ، أو أراد تعليق الأمر على مشيئة الله لا شكاً في إيمانه . وهذا القول هو الوسط ومن القوة بمكان والله تعالىٰ أعلم .

المسألة التاسعة عشرة: هل الولاية خاصة ببعض المؤمنين أم هي عامة لكل مؤمن؟! وهل ثمة علاقة بين الولاية والكرامة؟!

الجواب: قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن ، وأكرمهم أطوعهم وأتبعهم للقرآن) متن الطحاوية .

والولي: من الولاية: ضد العداوة[1]. وقيل: (الوَلاية: النصرة) ، (والوِلاية: الإمارة). ومن ثم فالمؤمنون أولياء الله وهو سبحانه وليهم . وفي التنزيل:

1- ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: 62-63].

2- ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾ [البقرة: 257].

3- ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: 11].

4- ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ [التوبة: 71].

5- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ [الأنفال: 72].

6- ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: 55-56].

فالله سبحانه ولي المؤمنين يتولاهم ويحبهم ويحبونه ، ويرضىٰ عنهم ويرضون عنه ، ويدافع عنهم ويبارز بالمحاربة من عادى له ولياً ، فهي ولاية محبة لا كولاية المخلوق للحاجة ، فالله ليس له ولي من الذل بل له العزة جميعاً ، خلاف الملوك

(1) وهو مشتق لغة من الولاء: الدنو والتقرب ، فولي الله: من والىٰ الله بموافقته محبوباته .

وغيرهم ممن يتولاه لذله وحاجته إلى ولي ينصره. قال في سورة الإسراء: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: 11].

والولاية نظير الإيمان أي أهلها في أصلها سواء، وتكون كاملة وناقصة ـ كما ذكر أهل العلم ـ فالكاملة للمؤمنين المتقين: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ وهم قسمان:

أ ـ مقتصدون: يتقربون بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح.

ب ـ سابقون مقربون: يتقربون بالنوافل بعد الفرائض.

فقوله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ في محل نصب صفة أولياء الله، أو بدل منه، أو بإضمار أمدح، أو في محل رفع خبر الضمير (هم) أو خبر ثان لـ (إن) كما ذكر أهل اللغة، وكلها تفيد أن الولاية لمن كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون الموافقي الولي الحميد في محابه ومساخطه.

وقد يجتمع في المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوىٰ وفجور، ونفاق وإيمان، ودليل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: 106]. وقوله: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات: 14].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو: [أربع خِلال مَنْ كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتىٰ يدعها: إذا ائتمن خان (وفي رواية: إذا وعد أخلف)، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر][1].

ولكن الولاية لا ترقىٰ بحال من الأحوال إلى مقام النبوة، فإن مقام النبوة خاص لا يبلغه أحد من الناس مهما بلغ عمله، ومن ثم فإن غلو بعض الناس في هذا الأمر هو من وحي الشياطين.

---

(1) مختصر مسلم (26).

قال الإمام الطحاوي: (ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء، ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء، ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصحَّ عن الثقات من رواياتهم)(1).

وقد أفاد شارح الطحاوية أن الشيخ يرد على الاتحادية وجهلة المتصوفة، وإلا فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم والشرع، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: 64 – 65].

قال بعض أهل العلم: ما ترك بعضهم شيئاً من السنة إلا لكبر في نفسه.

وقال بعض أهل الخرافة: النبوة ختمت ولكن الولاية لم تختم. وقال:

مقام النبوة في برزخ ... فويق الرسول ودون الولي

والحق أن النبوة أخص من الولاية، كما أن الرسالة أخص من النبوة، ومن ثم فإن دعوى بعض المتأخرين: (المعجزة للنبي، والكرامة للولي) لابأس بها، وإن كانت المعجزة تعم كل خارق للعادة، وكذلك الكرامة في عرف أئمة العلم، فجماعها الأمر الخارق للعادة. ومعلوم أن صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة:

1- العلم.

2- القدرة.

3- الغنىٰ.

وهذه الثلاثة لا تكون إلا لله وحده، ولهذا أمر الله نبيه ﷺ بالتبرؤ من دعوىٰ الثلاثة.

ففي التنزيل: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام: 50].

---

(1) متن العقيدة الطحاوية (98).

والناس تطالبهم بعلم الغيب:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: 42].

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: 90].

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 7].

فأمر الرسول أن يخبرهم أنه لا يملك ذلك.

وهناك فوائد هامة تخص أمر الولاية والكرامة والفراسة لابد من معرفتها:

الفائدة الأولىٰ: الخارق إن حصل به منفعة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً إما واجب أو مستحب. وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً. وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه كان سبباً للعذاب أو البغض.

الفائدة الثانية: الخارق إن ظهر من صالح مستقيم كان كرامة، وإن ظهر من فاسد كان فتنة.

الفائدة الثالثة: إن الدين إذا صح علماً وعملاً فلابد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه، ففي التنزيل:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2 - 3].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29].

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 66 - 68].

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس: 62 - 64].

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: 75]. قال مجاهد: (المتفرسين).

وقال ابن عباس: (للناظرين). وقال قتادة: (للمعتبرين).

وفي مسند البزار عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إن لله تعالى عباداً يعرِفون الناس بالتوسم] وحسنه الألباني[1].

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى قال: مَنْ عادىٰ لي وليّا فقد آذَنْتُه بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحِبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموتَ وأنا أكره مساءته][2].

الفائدة الرابعة: الفراسة ثلاثة أنواع:

1- **إيمانية**: سببها نور يقذفه الله في قلب عبده وهي على حسب قوة الإيمان.

2- **رياضية**: وهي التي تحصل بالجوع والسهر والتخلي، فالنفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر، فلا تدل على إيمان أو ولاية أو استقامة بل كشفها من جنس فراسة الولاة وأصحاب عبادة الرؤساء.

3- **فراسة خلقية**: وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم واستدلوا بالخَلْق على الخُلق لما بينهما من الارتباط، كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل وبكبره على كبره، وبسعة الصدر على سعة الخُلق وبضيقه على ضيقه، وبجمود العينين وكلال نظرهما على بلادة صاحبهما وضعف حرارة قلبه[3].

وخلاصة القول: إن الصدق في عبادة الله وتعظيمه يورث كرامة لابد أن يراها المؤمن في حياته وربما يراها من حوله، فإن التقوى مفتاح كثير من الخيرات التي يطمح بها المؤمن في حياته وآخرته، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي ميزاناً يفرق به المؤمن بين الحق والباطل، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ

(1) صحيح الجامع (2164).
(2) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق (6502)، باب التواضع.
(3) شرح العقيدة الطحاوية.

يُسۡرٗا﴾ ، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق : 5].

المسألة العشرون: هل الضلال والفسق يطلقان على الكفر؟ وهل الفِرَق الموصوفة بالحديث: [وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة. . . كلها في النار إلا واحدة] خارجة عن الملة؟

الجواب: «الضلال» من ألفاظ الوعيد، وهو ليس مرادفاً للكفر بإطلاق، فإن أطلق على أحد من أهل القبلة فالمراد به المعصية في الاعتقادات، كما أن لفظ «الفسق» يطلق على المعصية من الأعمال.

إلا أن الضلال والفسق يطلقان على الكفر أيضاً كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: 99].

يقول الدكتور سفر الحوالي: (والحاصل أن قولنا أن الأشاعرة فرقة ضالة يعني أنها منحرفة عن طريق الحق ومنهاج السنة، ولا يعني مطلقاً خروجها عن الملة وأهل القبلة. . . فنصوص الوعيد ومنها قوله ﷺ: «كلها في النار إلا واحدة» لها منهجها المنضبط في مذهب السلف عند الإطلاق وعند التعيين. فنحن نعلم جَميعاً أن الله توعد قاتل النفس التي حرم الله والزاني وآكل مال اليتيم بالنار بصريح القرآن، لكن هل يعني هذا، أن كل قاتل وزان وآكل مال يتيم يدخل النار قطعاً وأننا لو رأينا أحداً منهم بعينه يجوز لنا أن نعتقد دخوله النار؟

ليس هذا من مذهب السلف أبداً، وإنما مذهب السلف أن هذه النصوص تبين وتقرر حكم من فعل هذه الذنوب أما تحقق هذا الحكم فيه وتطبيق الوعيد وتنفيذه فيه فهو متوقف على شروط لابد من تحققها وموانع لابد من انتفائها.

فقد يقتل الرجل نفساً مؤمنة متأولاً مجتهداً ـ كما كان من اقتتال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ويكون هذا الذنب في حقه مثل النقطة السوداء في بحر من الحسنات وأعمال التقوىٰ.

وقد يقتله ظالماً معتدياً وليس له رصيد من الخير يكفر عنه هذا الجرم.

فليس هذان عند الحكيم الخبير سواء وليس حكمهما في مذهب السلف واحد.

وكذلك الفرق بين زان وزان ، وشارب خمر وآخر ، وسارق وسارق ، وآكل مال يتيم ومثله . . .

وقد صح عن النبي ﷺ لعن شارب الخمر ومع هذا صح عنه النهي عن لعن الصحابي الذي شربها ، وجلده الحد ، فلعنه بعضهم فنهاه وشهد له بأنه يحب الله ورسوله . فحب الله ورسوله في هذا المعين مانع من تحقيق الحكم المطلق فيه وهو الوعيد لشارب الخمر في الدنيا والآخرة .

وهكذا معاملة أهل القبلة في مجال العقيدة . فإن أصحاب المناهج والفرق البدعية منهم من هو على الحد الأدنى منها وله مع ذلك علم وعبادة وجهاد وإخلاص في نصرة الدين ، ومنهم من يكون رأساً في البدعة داعياً إليها بقصد وسوء نية بل وربما تكون هذه البدعة مجرد ستار لعقائد أخبث يضمرها في نفسه .

فمع اشتراك هذين في أصل المنهج وشمول الاسم لهما معاً وتناول الوعيد المطلق لكل منهما يظل الفرق بينهما حقيقة قائمة لاشك فيها . فالمنهج له حكمه والأفراد كل بحسب حاله وتقويم الفكرة في ذاتها غير تقويم حامليها كل على حدة .

حتىٰ منهج السلف نفسه يتفاوت أصحابه فيه جداً فمنهم من هو غاية التمسك به قولاً وعملاً واعتقاداً ودعوة ومنهم من هو على الحد الأدنىٰ منه .

بل نحن نقول أن بعض المنتسبين أو المنسوبين إلى مناهج بدعية ليس منهم أصلاً ولكنه متوهم يحسب أنهم على الحق وأن الانتساب إليهم لا ضير فيه مع أنه لا يوافقهم في مذهبهم لو عرفه حق معرفته أوأنهم مخطئون في نسبته لمذهبهم ولو فتشنا لما وجدنا فيه مما يدعون شيئاً .

ولهذا كانت هذه الأمة ـ ولله الحمد ـ أكثر أهل الجنة مع أن الفرقة الناجية منها واحدة فقط ، وما هذا إلا لأن المعدودين حقاً من الفرق الثنتين وسبعين لا يساوون بالنسبة لسلف الأمة وخلفها إلا نزراً يسيراً أما من اتبعهم عن جهل أو خطأ أو حسن نية أو تأثر بهم دون أن يشعر فله حكم آخر . والله تعالى حكم قسط ورحمته أوسع وفضله أعظم .

والحاصل أن أحكام الآخرة ومنازل الناس فيها خاضعة لأمر أحكم الحاكمين

وأعدلهم ، أما نحن في الدنيا فمأمورون أن نحكم على كل منهج أو فرد بما حكم الله به عليه من غير إفراط ولا تفريط ونتقيد بالضوابط التي جاءت في مذهب السلف)[1].

ثم نقل كلام شيخ الإسلام من مجموع الفتاوى 179/3 : (وليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكاً. فإن المنازع قد يكون مجتهداً مخطئاً يغفر الله خطأه. وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة ، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته).

ثم قال شيخ الإسلام: (ومن قال: إن الثنتين وسبعين فرقة كل واحدة منها يكفر كفراً ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة) ص 206.

* * *

(1) رسالة «منهج الأشاعرة في العقيدة» ص 76 - 79.

- 24 -

ـ شبهات في مسائل الأسماء والصفات وجوابها ـ

المسألة الأولىٰ:

يزعم بعض الناس أن كمال الإيمان بالأسماء والصفات بعدم ذكرها وإغلاق باب النظر في فهمها وأنها من المتشابهات!! فما الجواب؟

الجواب: إن هذه الدعوى تعني في حقيقتها أن يعبد المسلم رباً لا يعرف صفاته ومدلولات أسمائه، ومن ثم فهو يجهل علماً أوجبه الله عليه لتكون عبادته على بصيرة.

وقد ضلّ قوم لم يعرفوا ربهم وهم يطمعون أن يستجيب لهم ويكشف مصائبهم.

وقد جحدت قريش فيما مضىٰ اسم الرحمن فأنزل الله في سورة الرعد: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: 30].

يروي عبد الرزاق بإسناد صحيح عن مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: (أنه رأىٰ رجلاً انتفض ـ لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك ـ فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رِقّة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه).

و(عبد الرزاق) هو ابن همام الصنعاني المحدث، محدِّث اليمن صاحب التصانيف، أكثر الرواية عن شيخه مَعْمَر بن راشد الأزدي الحراني ثم اليماني صاحب الزهري. والذي روىٰ عن عبد الله بن طاوس[1] اليماني. قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية. وأبوه طاوس بن كيسان الجَنَدي الإمام العلم من أئمة التفسير ومن أوعية العلم.

---

(1) مات سنة 132 هـ.

قال في «تهذيب الكمال»: عن الوليد الموقري عن الزهري قال: (قدمت على عبد الملك بن مروان، فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قال: قلت: من مكة، قال: ومن خَلَّفت يسودها وأهلها؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فبِمَ سادهم؟ قال: قلت: بالديانة والرواية. قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي؟ قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغي ذلك، قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل، قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهْران، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت: الحسن البصري، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من العرب، قال: ويلك يا زهري، فرجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب في هذا البلد، حتىٰ يخطب لها على المنابر والعرب تحتها. قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين. من حفظه ساد ومن ضيعه سقط).

فهذا الأثر يدل على أن هؤلاء الذين خاضوا في العلم بصفات الله وأسمائه رجال كبار قدَّمَتْهُم الأمة يوماً وسوّدتهم وغرفت من علومهم إذ كانوا تلامذة أصحاب النبي ﷺ ونقلة علم الوحي إلى الأمة.

وأما ابن عباس فهو حبر الأمة وترجمان القرآن، وقد دعا له النبي عليه الصلاة والسلام.

فقال: ـ كما يروي الإمام أحمد عن ابن عباس ـ: (اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل). وهو في البخاري بلفظ: (اللهم فقهه الدين) وبلفظ: (اللهم علمه

الكتاب). وبلفظ: (اللهم علمه الحكمة). وفي صحيح مسلم بلفظ: (اللهم فقهه). وقد روىٰ عنه أصحابه أئمة التفاسير، كمجاهد وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس وغيرهم.

فأشار ابن عباس بقوله (ما فرق هؤلاء) إلى أناس ممن يحضر مجلسه إذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فَرَق أي خوف، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات التي يجب عليهم العلم بمدلولها ومفهومها انتفضوا منكرين، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب بالله تعالىٰ.

وفي التنزيل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: 85].

قال الذهبي: (حدث وكيع عن إسرائيل بحديث: إذا جلس الرب على الكرسي، فاقشعر رجل عند وكيع. فغضب وكيع، وقال: «أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها»)(1).

وإنما المصيبة دخلت على الأمة من علم الكلام والحديث بالمنطق والعقليات في أصول الدين، فسقط كثير من المنتسبين للعلم صرعىٰ الفلسفة والعجب بالأجنبي، وأكثروا من شغل الناس بهذه المتشابهات.

يروي البخاري في صحيحه عن علي رضي الله عنه قال: (حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكَذَّب الله ورسوله)(2).

وكان أولى بهؤلاء تعظيم الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة، وتحديث الناس بما هو معروف وينفعهم في أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال من الحرام الذي كلفوا به علماً وعملاً، دون ما يشغل عن ذلك من القصص والغرائب والعقليات التي قد يؤدي الخوض بها إلى نكران بعض ما عُلِمَ من الدين بالضرورة، أو إلى التكذيب والبناء على المتشابه وترك المحكم.

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ينهىٰ القصاص عن

---

(1) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب «الرد على الجهمية».

(2) رواه البخاري (199/1) في العلم. باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا.

القصص ، لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك ، ويقول: (لا يقص إلا أمير أو مأمور).

وفي التنزيل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران: 7].

قال في فتح المجيد: (فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن ، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن ، وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنىٰ الذي أراد الله ، فيحمله على غير معناه ، كما جرىٰ لأهل البدع ، كالخوارج ، والرافضة والقدرية ، ونحوهم ممن يتأول بعض آيات القرآن على بدعته).

والسبب في التحقيق أن هؤلاء ضلوا طريق أخذ العلوم الشرعية على وجهها من منهاج النبوة ، فما أخذوها عن أهلها العلماء الراسخين في فهم الوحيين والعلم بالتوفيق بين النصوص وكيفية ردّ المتشابه إلى المحكم.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ، فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال. فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا][(1)].

وفي التفاسير عن قتادة: (﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ﴾ الآية ، قال: طلب القوم التأويل ، فأخطؤوا التأويل وأصابوا الفتنة ، وطلبوا ما تشابه منه ، فهلكوا بين ذلك).

وعند ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ ﴾ قال: (منهن قوله تعالى:

---

(1) تفسير الطبري (30/1) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: 151-153] إلى ثلاث آيات، ومنهن: ﴿ ۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: 23-39] إلى آخر الآيات).

وقال يحيىٰ بن يعمر: (هن اللاتي فيهن الفرائض، والأمر والنهي والحلال والحرام، والحدود وعماد الدين).

وكذلك أخرج ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة رضي الله عنهم: (المحكمات: الناسخات التي يعمل بهن، والمتشابهات: المنسوخات).

كما أخرج عن محمد بن جعفر بن الزبير، قال: («المحكمات» فيهن حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ في الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلىٰ الله بهن العباد، كما ابتلاهم بالحلال والحرام، لا يصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق).

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان: (إنما قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأنه ليس من أهل دين لا يرضىٰ بهن ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ يعني فيما بلغنا ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓمٓرٓ﴾).

قال في فتح المجيد ـ بعد ذكر تفسير الآية ـ (وليس في هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه، وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوىٰ بلا برهان).

وخلاصة القول: إن العلم الذي جاءنا من الوحي الكريم هو فوق كل كلام أو فلسفة أو رأي أو تأويل أو اعتبار، ولا دليل أن الله سبحانه ذكر صفاته في القرآن وأراد غير مدلولها وغير مفهومها، ولو كان ذلك لما استقام الدين ولم يعد الوحي مصدر العلم عن الله، إذ يصبح المقصود من كل التكاليف الشرعية يحتمل التأويل، ومن ثم فكل يعبد ربه على شاكلته، وهذا غاية الفساد، فلابد من تعظيم النص من الوحيين، وقبوله على ظاهره دون تنطع.

وكان القاضي أبو يوسف[1] رحمه الله يقول: (من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن تتبع غريب الحديث كذب).

ويرحم الله ابن القيم حيث قال:

والجهل داءٌ قاتل وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقان
نص من القرآن، أو من سنة ... وطبيب ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث، ما لها ... من رابع، والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكل في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤ متحذلق ... بسواهما إلا من الهذيان

وجزىٰ الله القائل:

أخي، لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاءٍ، وحرص، واجتهاد، وبلغة ... وإرشاد أستاذ، وطول زمان

قال في فتح المجيد ـ بعد ذكره هذين البيتين ـ: (وأعظم من هذه الستة: من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ، وأتعب نفسه في تحصيله، فالله الموفق لمن شاء من عباده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾).

قلت: وهذا الفضل من الله له صلة من النسب مع أخذ تلك الأسباب والحرص على التقوىٰ والمجاهدة في طريق الوصول إلى توفيقه سبحانه، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

المسألة الثانية:

يذهب بعض الناس إلى أنه إذا سمينا الله باسم أو وصفناه بصفة فقد وقعنا في التشبيه، ومن ثم فلا يثبتون اسماً ولا صفة لله عز وجل!! فما الجواب؟

الجواب: هذا هو مذهب الجهمية أتباع الجهم بن صفوان، الذي أخذ عقيدته عن شيخه الجعد بن درهم. ومن أبرز أصحاب هذا المذهب بشر المريسي.

---

(1) توفي 182 هـ، وقد ثبت عنه هذا القول كما أكد شيخ الإسلام.

ومذهبهم في الأسماء والصفات: وصف الله تعالى بالصفات السلبية على وجه التفصيل ولا يثبتون اسماً ولا صفة إلا وجوداً مطلقاً ، أما الصفات الثبوتية فلا يثبتون منها شيئاً لا اسماً ولا صفة ، وحجتهم أننا إذا سمينا الله باسم أو وصفناه بصفة فقد وقعنا في التشبيه.

وهم أول من أظهر أن الله ليس على العرش حقيقة وأن معنىٰ استوىٰ: استولىٰ. وقالوا بأن كلام الله تعالى مخلوق.

وقد أثرت مقولتهم هذه في كل الفرق التي جاءت بعدهم تأثيراً كبيراً ، وحسبنا أن نعلم أن المعتزلة امتداد للجهمية وفرع من فروعهم.

وقد تعاقب أهل الحديث وأئمة العلم في الأمة على إبطال دعواهم وتصوراتهم ودحضها: قيل ليزيد بن هارون مَن الجهمية؟ فقال: (من زعم أن الرحمن على العرش استوىٰ بخلاف ما يقر في قلوب العامة فهو جهمي).

وقال حماد بن زيد: (إنما يحاولون أن يقولوا ليس في السماء شيء).

ورونٰ البخاري عن الفضيل بن عياض أنه قال: (إذا قال لك الجهمي: أنا لا أؤمن برب ينزل عن مكانه فقل له أنت «أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء»).

ويقول الترمذي في «باب فضل الصدقة»: (ما ثبت بهذه الروايات فنؤمن بها ولا نتوهم ولا يقال كيف؟ وهذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة ، وأما الجهمية فأنكروها وقالوا هذا تشبيه).

قال إسحاق بن راهويه: (إنما يكون التشبيه لو قيل يدٌ كَيد ، وسمع كَسَمع).

ويذهب الجهمية إلى أن الجنة والنار تفنيان ويفنىٰ أهلهما ، وأن العبد مجبورٌ على فعله ، وأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا في القلب ولا عبرة باللسان والجوارح ، والكفر عند الجهمي هو الجهل بالله فقط ولا يكفر بالله تعالى إلا الجاهل فقط.

وإنما الواجب إثبات الصفات لله سبحانه كما أثبتها لنفسه دون تكييف ، كما قال الوليد بن مسلم: (سألت الأوزاعي ومالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن

سعد[1] عن الأحاديث التي فيها الصفات؟ فكلهم قالوا لي: أمروها كما جاءت بلا تفسير[2]) رواه الدارقطني بسنده عن الهيثم بن خارجة. وذكر الذهبي بإسناده عن الوليد قال: (سألت الأوزاعي والليث بن سعد ومالكاً والثوري عن هذه الأحاديث التي فيها الرؤية وغير ذلك؟ فقالوا: امضها بلا كيف).

قال الذهبي: (مالك في وقته إمام أهل المدينة، والثوري إمام الكوفة، والأوزاعي إمام أهل دمشق، والليث إمام أهل مصر، وهم من كبار أتباع التابعين، وحكىٰ الإجماع على ذلك بعدهم محمد بن الحسن فقيه العراق).

وقال شيخ الإسلام في «الحموية»: (فقولهم رضي الله عنهم: «أمروها كما جاءت» رد على المعطلة. وقولهم «بلا كيف» رد على الممثلة).

وعن أبي زرعة الرازي قال: حدثنا هدبة بن خالد: سمعت سلام بن أبي مطيع[3] يقول: (ويلكم ما تنكرون هذا الأمر، والله ما في الحديث شيء إلا وفي القرآن ما هو أثبت منه، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾. قال: فما زال في ذا من العصر إلى المغرب)ذكره الذهبي في العلو وصححه الألباني[4].

وكان حماد بن سلمة ـ إمام أهل البصرة ت 167 هـ ـ من أئمة السنة، لهجاً ببث أحاديث الصفات، رأساً في العلم والعمل. روىٰ عبد العزيز بن المغيرة قال: (حدثنا حماد بن سلمة بحديث نزول الرب جل جلاله فقال: من رأيتموه ينكر هذا فاتهموه) وسنده جيد[5].

وكان عبد العزيز بن الماجشون مفتي المدينة وعالمها مع مالك (ت 164 هـ)،

---

(1) عالم مصر (ت 175 هـ).
(2) أي بلا تكييف.
(3) من أئمة البصرة (ت 164 هـ).
(4) مختصر العلو ص 144.
(5) المرجع السابق.

ومن بحور العلم بالحجاز ، نودي مرة بالمدينة بأمر المنصور: لا يفتي الناس إلا مالك وعبد العزيز بن الماجشون. وقد صح عنه أنه سئل عما جحدت به الجهمية فقال: (أما بعد فقد فهمت ما سألت عنه فيما تتايعت[1] الجهمية في صفة الرب العظيم الذي فاقت عظمته الوصف والتقدير ، وكلت الألسن عن تفسير صفته ، وانحسرت العقول دون معرفة قدره ، فلم تجد العقول مساغاً فرجعت خاسئة حسيرة ، وإنما أمروا بالنظر والتفكر فيما خلق ، وإنما يقال «كيف» لمن لم يكن مرة ثم كان ، أما من لا يحول ، ولا يزول ، ولم يزل ، وليس له مثل ، فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو ـ إلى أن قال ـ : فالدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته ، عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه ، لا تكاد تراه صغراً يحول ويزول ، ولا يرى له بصر ولا سمع ، فاعرف غناك عن تكلف صفة مالم يصف الرب من نفسه ، بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها ، فإذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلفك علم مالم يصف ، هل تستدل بذلك على شيء من طاعته ، أو تنزجر به عن شيء من معصيته؟

فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقاً وتكلفاً فقد استهوته الشياطين في الأرض حيران ، فعمي عن البين بالخفي ، ولم يزل يملي له الشيطان حتىٰ جحد قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فقال: لا يُرى يوم القيامة. وقد قال المسلمون لنبيهم ﷺ: هل نرىٰ ربنا يا رسول الله؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس» الحديث ـ إلى أن قال ـ وقال رسول الله ﷺ: «لا تمتلىء النار حتىٰ يضع الجبار فيها قدمه فتقول: قط! قط! ويزوي بعضها إلى بعض». وقال لثابت بن قيس: «لقد ضحك الله مما فعلت بضيفك البارحة»...) رواه أبو بكر الأثرم وصححه الألباني في مختصر العلو[2].

وأما حماد بن زيد البصري فهو أحد الحفاظ الأعلام (98-179 هـ) توفي هو ومالك في سنة. فقد أخرج عبد الله بن أحمد في «السنة» بإسناد صحيح عن

(1) التتايع: ركوب الأمر على خلاف الناس ، أو التهافت والإسراع في الشر واللجاجة ، كذا في لغة العرب.

(2) مختصر العلوص 145.

سليمان بن حرب قال: سمعت حماد بن زيد يقول: (إنما يدورون على أن يقولوا ليس في السماء إله). يعني الجهمية[1].

قال الذهبي: (مقالة السلف وأئمة السنة بل والصحابة والله ورسوله والمؤمنون، أن الله عز وجل في السماء، وأن الله على العرش، وأن الله فوق سماواته، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا، وحجتهم على ذلك النصوص والآثار. ومقالة الجهمية: أن الله تبارك وتعالى في جميع الأمكنة، تعالى الله عن قولهم، بل هو معنا أينما كنا بعلمه. ومقال متأخري المتكلمين: أن الله تعالى ليس في السماء، ولا على العرش، ولا على السماوات، ولا في الأرض، ولا داخل العالم، ولا خارج العالم، ولا هو بائن عن خلقه، ولا متصل بهم! وقالوا: جميع هذه الأشياء صفات الأجسام والله تعالى منزه عن الجسم. قال لهم أهل السنة والأثر: نحن لا نخوض في ذلك، ونقول ما ذكرناه اتباعاً للنصوص، وإن زعمتم... ولا نقول بقولكم، فإن هذه السلوب نعوت المعدوم، تعالى الله جل جلاله عن العدم، بل هو موجود متميز عن خلقه، موصوف بما وصف به نفسه، من أنه فوق العرش بلا كيف.

حماد بن زيد للعراقيين، نظير مالك بن أنس للحجازيين في الجلالة والعلم) مختصر العلو ص 146-147.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا زكريا بن داود بن بكر: سمعت أبا قدامة السرخسي، سمعت أبا معاذ خالد بن سليمان بفرغانة يقول: (كان جهم على معبد ترمذ، وكان فصيح اللسان، ولم يكن له علم ولا مجالسة لأهل العلم، فكلم السمنية، فقالوا له: صف لنا ربك عز وجل الذي تعبده، فدخل البيت لا يخرج منه، ثم خرج إليهم بعد أيام، فقال: هو هذا الهواء مع كل شيء، وفي كل شيء، ولا يخلو منه شيء، فقال أبو معاذ: كذب عدو الله، بل الله جل جلاله على العرش كما وصف نفسه) وإسناده صحيح.

---

(1) وله شاهد عنده عن عبد الرحمن بن مهدي قال: (ليس في أصحاب الأهواء شر من أصحاب جهم يدورون على أن يقولوا: ليس في السماء شيء، أرى والله أن لا يناكحوا ولا يوارثوا).
وشاهد آخر عن عباد بن العوام مُحَدِّثُ واسط ت 185 هـ - قال: (كلمت بشراً المريسي وأصحابه فرأيت آخر كلامهم ينتهي أن يقولوا: ليس في السماء شيء).

وقال الحافظ الإمام أبو عمر الطلمنكي[1] في كتاب «الوصول إلى معرفة الأصول»: (أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنىٰ قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ونحو ذلك من القرآن أنه علمه، وأن الله تعالى فوق السماوات بذاته، مستوٍ على عرشه كيف شاء.

وقال أهل السنة في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾: إن الاستواء من الله على عرشه على الحقيقة لا على المجاز، فقد قال قوم من المعتزلة والجهمية: لا يجوز أن يسمىٰ الله عز وجل بهذه الأسماء على الحقيقة[2]، ويسمىٰ بها المخلوق. فنفوا عن الله الحقائق من أسمائه وأثبتوها لخلقه.

فإذا سئلوا: ما حملهم على هذا الزيغ؟ قالوا: الاجتماع في التسمية يوجب التشبيه.

قلنا: هذا خروج عن اللغة التي خوطبنا بها، لأن المعقول في اللغة أن الاشتباه في اللغة لا يحصل بالتسمية، وإنما تشبيه الأشياء بأنفسها أو بهيئات فيها، كالبياض بالبياض، والسواد بالسواد، والطويل بالطويل، والقصير بالقصير، ولو كانت الأسماء توجب اشتباها لاشتبهت الأشياء كلها لشمول اسم الشيء لها وعموم تسمية الأشياء به، فنسألهم: أتقولون إن الله موجود؟ فإن قالوا: نعم، قيل لهم: يلزمكم على دعواكم أن يكون مشبهاً للموجودين. وإن قالوا: موجود ولا يوجب وجود الاشتباه بينه وبين الموجودات.

قلنا: فكذلك هو حي، عالم، قادر، مريد، سميع، بصير، متكلم، يعني ولا يلزم من ذلك اشتباهه بمن اتصف بهذه الصفات).

---

(1) هو أحمد بن محمد بن عبد الله الأندلسي الطلمنكي المالكي (339-429) من كبار الحفاظ وأئمة القراء بالأندلس.

(2) حتى أفضىٰ الضلال بأحمد بن أبي دؤاد القاضي الذي عذب الإمام أحمد وكان سبب الفتنة أن أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة (ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم) لينفي وصفه بأنه السميع البصير.

المسألة الثالثة:

يذهب بعض الناس إلى إثبات الأسماء ونفي الصفات بدعوى أن الأسماء ليس من الضروري أن تدل على الصفات!! فما الجواب؟

الجواب: هذا مذهب المعتزلة أتباع واصل بن عطاء الغزَّال الذي اعتزل مجلس إمام أهل السنة في عصره الحسن البصري، الذي ولد سنة 80 هـ.

وقد كان واصل بن عطاء فصيحاً جداً وله كتاب «المنزلة بين المنزلتين» وكتاب الغنية وكتاب التوحيد.

ويقوم مذهب المعتزلة على أصول خمسة:

أ ـ التوحيد: وهو تجريد الله تعالىٰ عن جميع الصفات ونفيها عنه.

ب ـ المنزلة بين المنزلتين: والمعنىٰ أن هناك منزلة بين الإيمان والكفر.

جـ ـ الوعد والوعيد، وفعل الصلاح والأصلح: ويعني أنه يجب على الله أن يعذب الكفار والعصاة ولا يجوز له أن يغفر لهم، كما يجب عليه إثابة المؤمنين الطائعين ولا يجوز له أن يعذبهم.

د ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ومعناه عندهم الخروج على الحاكم لأدنىٰ ذنب ارتكبه.

هـ ـ إن العبد يخلق أفعال نفسه.

وأما مذهبهم في الأسماء والصفات: فهو إثبات الأسماء ونفي الصفات، وقالوا: (الأسماء ليس من الضروري أن تدل على الصفات بل هي أعلامٌ محضة، فهو رحمانٌ بدون رحمة، ومتكبر بدون كبرياء، وعالم بلا علم...).

وشبهتهم أن الصفات أعراض، والعرض لا يقوم إلا بجوهر متحيز، وكل متحيز فهو جسم، ومن قال بذلك وقع في التشبيه(1).

---

(1) لقد بنوا أصل دينهم على الجسم والعرض الذي هو الموصوف والصفة عندهم واحتجوا بالصفات التي هي الأعراض على حدوث الموصوف الذي هو الجسم، فنفوا عن الله كل صفة تشبيهاً بالصفات الموجودة في الموصوفات التي هي الأجسام، ثم تكلموا بأفعاله (القدر)=

وقد أُتي هؤلاء من تقديسهم المفرط للعقل واعتباره المصدر الأول للاعتقاد والإيمان ، فهم لا يترددون في ردّ وتأويل ما يرونه من النصوص متعارضاً مع حكم العقل ، لأن حكم العقل في زعمهم قطعي ، ودلالة النصوص ظنية ، وعلى ذلك أقاموا مذهبهم ، قالوا : «الحسن ما حسّنه العقل والقبيح ما قبحه العقل» .

قلت : وقد كان علماء السلف يكرهون الخوض في وصف الله من تلقاء أنفسهم ولكن إذا جاءت النصوص والآثار أخبتوا ولم يتركوا للعقل مجالاً للخوض بغير علم .

يروي اللالكائي والبيهقي عن أفلح بن محمد قال : قلت لابن المبارك : إني أكره الصفة ، عنىٰ صفة الرب تبارك وتعالىٰ ، فقال : (وأنا أشد الناس كراهة لذلك ، ولكن إذا نطق الكتاب بشيء قلنا به ، وإذا جاءت الآثار بشيء جسرنا عليه) .

قال شيخ الإسلام : (أراد ابن المبارك أنا نكره أن نبتدىء بوصف الله من تلقاء أنفسنا حتىٰ يجيء به الكتاب والآثار) العقيدة الحموية .

المسألة الرابعة :

يذهب بعض الناس في الأسماء والصفات إلى التفويض أو التأويل تنزيهاً لله عز وجل فهل هذه الطريقة أسلم وأفضل؟

الجواب : هذا هو مذهب الأشاعرة والماترودية . قالوا : إن للمسلم في باب الأسماء والصفات أحد مذهبين :

أ ـ التفويض : ومعناه عندهم نفي معنىٰ آيات الصفات وأحاديثها وكيفيتها وأنها من المتشابه وبمنزلة الحروف المقطعة في أوائل السور ، وينسبون ذلك إلى السلف .

ب ـ التأويل : ومعناه صرف معاني آيات وأحاديث الصفات عن ظاهرها إلى معانٍ أخرىٰ توافق العقل وتنزه الله عن مشابهة المخلوقات ، فيؤولون قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ بأن معناه : وجاء أمر ربك . ويؤولون أحاديث نزول الرب إلى السماء

= وسموا ذلك العدل . ثم تكلموا في النبوة والشرائع والأمر والنهي والوعد والوعيد وهي مسائل الأسماء والأحكام التي هي المنزلة بين المنزلتين ، ومسألة إنفاذ الوعيد . ثم تكلموا في إلزام الغير بذلك الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضمنوه جواز الخروج على الأئمة للقتال .

الدنيا بأن النزول نزول رحمة وليس نزول الذات. ويؤولون علو الله على خلقه بأنه علو قهر ورفعة وليس علو ذات.

والأشاعرة يثبتون الصفات التي دل عليها العقل وهي:

1- صفات نفسية: كالوجود.

2- صفات سلبية: كالوحدانية، والبقاء، والقدم، والمخالفة للحوادث، والقيام بالنفس.

3- صفات معاني: وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام.

4- صفات معنوية: وهي كونه حياً عليماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً.

وأما الصفات التي لم يدل عليها العقل ويسمونها: «الصفات السمعية» فيؤولونها إلى معانٍ يدل عليها العقل برأيهم.

والردّ على مفوضة المعنىٰ والكيف من وجوه كما ذكر أهل العلم(1):

الأول: إنكم تثبتون لله تعالى صفات سبعة سبق ذكرها ولاشك أن إثباتكم لها إثبات لمعانيها وتفويض لكيفيتها، لأنه لو كان المراد من الإثبات إثبات الألفاظ فقط وتفويض المعنىٰ والكيف لما كان هناك داع لهذا التعداد ولكان ذكر صفتي السمع والبصر لغواً من القول، لأن صفة العلم تغني عنها، ولو كان السلف لا يقصدون معاني هذه الصفات لما كان بينهم وبين المعتزلة أي خلاف، فإذا اتفقنا على أن مذهب السلف الصالح إثبات معاني هذه الصفات وتفويض كيفيتها ثبت لنا أيضاً أن هذا هو مذهبهم في سائر الصفات، لأنه لم يرد عنهم تفريق بين صفة وصفة، ولأن الصفات كلها من باب واحد.

الثاني: إن أدنىٰ العقلاء يفرق بين اسم «الجبّار» واسم «الغفار» ولو كان إيمان السلف بالأسماء والصفات كإيمانهم بالحروف المقطعة في «أوائل السور» لساغ وقوع بعض الصفات مكان بعض، فلا يكون هناك فرق بين أن يرضىٰ الله عن العبد

---

(1) رسالة «توحيد الربوبية» لبعض طلبة العلم.

أو أن يغضب عليه، وبين أن يعذبه أو يرحمه، ولجاز لنا في الدعاء أن نقول: «اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الجبار المنتقم» وأن نقول: «اللهم أعطني إنك أنت الضار القابض».

الثالث: تواترت النقول عن السلف الصالح أنهم كانوا يقولون في الصفات: «أمروها كما جاءت بلا كيف» ـ وكانوا أعلم الناس بربهم عز وجل إذ كانوا يستقون من نبع الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة دون الخوض في الرأي والفلسفة والجدل ـ وهذا دليل على أنهم كانوا يثبتون المعاني ويفوضون الكيف، إذ لو كان مرادهم اقرؤوها كما تقرؤون المقطعات في أوائل السور لما كان هناك داعٍ لقولهم (بلا كيف) لأنه إنما يقال بلا كيف حين يكون هناك معنىٰ.

الرابع: إن الذين نقلت عنهم عبارة: «أمروها كما جاءت بلا كيف» نُقل عنهم القول بإثبات الصفات.

فهذا أبو حنيفة يقول: (وغضبه ورضاه صفتان من صفاته). ولما سُئل عن النزول الإلهي قال: (ينزل بلا كيف).

وحين سئل الإمام مالك عن الاستواء قال: (الاستواء معلوم والكيف مجهول).

وأما بطلان مذهب التأويل فقد ذهب إليه الراسخون من العلماء. وتفصيل ذلك:

التأويل: معناه لغة التصيير، والعرب تقول: آل العجين خبزاً أي صار. ويأتي التأويل بمعنىٰ التفسير: أي تفسيرٍ ما يؤول إليه الشيء. وفي التنزيل: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا ﴾ [يوسف: 100].

وبمعنىٰ أوضح: لم يعرف العرب التأويل إلا بأحد معنيين:

أ ـ حقيقة الشيء وكنه المراد منه، كقوله تعالىٰ: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ ﴾ أي حقيقته، ولم يقل أحد بالتأويل بهذا المعنىٰ في باب الأسماء والصفات لأن حقيقتها لا يعلمها إلا الله.

ب ـ التفسير والبيان: ومنه قول ابن جرير وغيره: (القول في تأويل قوله تعالىٰ

كذا. . .) وقول الرسول ﷺ لابن عباس: [اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل] البخاري.

والتأويل بهذا المعنىٰ تأويل صحيح، وأما التأويل الباطل فهو تأويل المعتزلة والجهمية وغيرهم من فرق المتكلمين، ومرادهم بالتأويل صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهره[1].

وقد صنّف علماء كثيرون في إبطال هذا التأويل، ومنهم: القاضي أبو يعلىٰ في كتابه: «إبطال التأويل» وابن قدامة في كتابه «ذم التأويل». وأفرد لذلك شيخ الإسلام في فتاويه جزءاً كبيراً في مواضع مختلفة.

ومن أمثلة التأويل الباطل كما ذكر العلماء:

1- مالا يحتمله اللفظ بوضعه، كتأويل قوله ﷺ: (حتىٰ يضع رب العزة قدمه فيها) بأنه محمد ﷺ.

2- ما لا يحتمله اللفظ ببنيته الخاصة بين تشبيه أو جمع وإن احتمله مفرداً، كتأويل قوله تعالىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ بالقدرة.

3- ما لا يحتمله سياق اللفظ وتركيبه وإن احتمله في غير ذلك السياق.

كتأويل قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ بأن إتيان الرب هو إتيان بعض آياته. وكتأويل قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بأن المعنىٰ أقبل على خلق العرش، فهذا التأويل باطل، لأن الرسول ﷺ يقول: [إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء].

4- التأويل الذي يوجب تعطيل المعنىٰ ـ وهذا التأويل لا تعرفه العرب ـ وذلك حين يكون ظاهر اللفظ في غاية العلو والشرف فيأتي التأويل ويحطه إلى معنىٰ دونه بمراتب كثيرة. مثاله تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ بأنها فوقية الشرف، فهذا تعطيل لفوقية الله المطلقة

(1) قلت: وهذا في الواقع تحريف وتشويه.

والمتضمنة لجميع أنواع الفوقيات ، وحطٌّ بها إلى كون قدره فوق قدر ابن آدم وأنه أشرف منهم .

قال ابن عيينة : (كل شيء وصف الله به نفسه فقراءته تفسير . ثم قال : أي هو على ظاهره لا يجوز صرفه إلى المجاز بنوع من التأويل) مختصر العلو .

ومن أكبر اللوازم الباطلة للتأويل بمعناه الاصطلاحي أنه يفتح الباب للفرق الباطنية التي أولت نصوص الشريعة والمعاد ، فذهبت إلى أن الصلاة هي الدعاء والزكاة هي الطهارة والصوم هو حفظ السر ، والحج هو قصد مقامات الأولياء . ومن بين هؤلاء القاديانية التي اعتقدت بعقائد الإسلام إلا خاتم النبيين أولته بزينة النبيين .

ويرحم الله إمام الحرمين الإمام عالم الشرق ـ أبو المعالي الجويني[1] الشافعي ـ كما يحكي الإمام أبو الفتح محمد بن علي الفقيه قال : (دخلنا على الإمام أبي المعالي ابن الجويني نعوده في مرض موته فأقعد ، فقال لنا : اشهدوا علي أني قد رجعت عن كل مقالة قلتها أخالف فيها ما قال السلف الصالح ، وأني أموت على ما تموت عليه عجائز نيسابور) .

ذكره الذهبي في مختصر العلو ثم قال : (قلت : هذا معنىٰ قول بعض الأئمة : عليكم بدين العجائز . يعني أنهن مؤمنات بالله على فطرة الإسلام ، لم يدرين ما علم الكلام . وقد كان شيخنا العلامة أبو الفتح القشيري[2] رحمه الله يقول :

تجاوزت حد الأكثرين إلى العلا ... وسافرت واستبقيتهم في المفاوز
وخضت بحاراً ليس يدرك قعرها ... وسيرت نفسي في قسيم المفاوز
ولججت في الأفكار ثم تراجع اخـ ... ـتياري إلى استحسان دين العجائز)[3]

وقد أفَاد شارح الطحاوية أن الاختلاف في الكتاب على نوعين :

أ ـ اختلاف في تنزيله .

---

(1) (418-478) هـ. قال الذهبي: (كان ـ يعني إمام الحرمين ـ من بحور العلم في الأصول والفروع ، يتوقد ذكاء) .

(2) هو الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله .

(3) مختصر العلو ص 275-276 .

ب ـ اختلاف في تأويله . وكلاهما فيه إيمان ببعض دون بعض :

فالأول كاختلافهم في تكلم الله بالقرآن وتنزيله ، فطائفة قالت : هذا الكلام حصل بقدرته ومشيئته لكونه مخلوقاً في غيره لم يقم به ، وأخرى قالت : بل هو صفة له قائم بذاته ليس بمخلوق ، لكنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته . وكل منهما جمعت بكلامها من حق وباطل ، فآمنت ببعض الحق وكذبت بما تقوله الأخرى من الحق .

والثاني : اختلاف في تأويله الذي يتضمن الإيمان ببعضه دون بعض ، وهو كثير كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : [خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القدر ، هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية ، فكأنما فقىء في وجهه حبُّ الرمان ، فقال : أبهذا أمرتم؟ أم بهذا وكلتم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ انظروا ما أمرتم به فاتبعوه ، وما نُهيتم عنه فانتهوا] .

وفي رواية : [يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن يصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به] رواه أحمد وصححه الألباني(1) .

وله شاهد في السنن بلفظ : [فإن الأمم قبلكم لم يلعنوا حتىٰ اختلفوا ، وإن المراء في القرآن كفر] وسنده صحيح .

وشاهد آخر في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن رباح الأنصاري أن عبد الله بن عمرو قال : [هجَّرْت إلى النبي ﷺ يوماً ، فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية ، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب ، فقال : إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب](2) .

وجميع أهل البدع مختلفون في تأويله مؤمنون ببعضه دون بعض يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات . وما يخالفه إما يتأولوه تأويلا يحرفون فيه الكلم عن مواضعه أو يقولوا هذا متشابه لا يعلم أحد معناه ، فيجحدوا ما أنزله من معانيه وهو في معنىٰ

---

(1) قد مضى بتمامه .
(2) مختصر صحيح مسلم (2121) كتاب فضائل القرآن . باب : الزجر عن الاختلاف في القرآن .

الكفر بذلك لأن الإيمان باللفظ بلا معنىً هو من جنس إيمان أهل الكتاب كما قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: 5]. ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: 78]، أي إلا تلاوة من غير فهم معناه، وليس هذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم من القرآن فعمل به واشتبه عليه بعضه فوكل علمه إلى الله كما أمره ﷺ بقوله: [فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه] رواه أحمد ـ وقد مضىٰ ـ بسند صحيح(1).

ويمكن تلخيص النتائج السيئة التي تركها فتح باب التأويل الذي هو في حقيقته التحريف:

1- فتح باب للمشركين والمبتدعين يصعب سده لتسويغهم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي.

2- تأليه العقل وجعله الحكم لا الوحي وعندها عُبِدَ غير الله.

3- نسف حقائق إيمانية كثيرة ثابتة بسبب تفاوت قدرات العقول وموازينها. (فالباطني زعم بطلان ظواهر الشرع لقواطع عقلية عنده، والفيلسوف زعم بطلان حشر الأجساد لقواطع عقلية رآها، والمعتزلي زعم امتناع رؤية الله تعالى وامتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى).

4- عدم الإقرار بشيء من معاني الكتاب والسنة حتىٰ نبحث بحوثاً طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل، الأمر الذي يعني حيرة وتردداً.

5- تتخلىٰ القلوب عن الجزم بشيء مما أخبر به الرسول إذ لا يوثق أن الظاهر هو المراد، الأمر الذي يعني عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد، لذا فنصوص الكتاب والسنة عندهم للاعتضاد لا للاعتماد.

6- ضعف بناء الكيان الإسلامي إذ يصبح الدين مجموعة أقوال متناقضة ويموت الجهاد في الأمة وتحمل الأمانة بأي طريق، ويصبح لا معنىً لقوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾.

وأختم بكلام الدكتور سفر الحوالي حيث قال: (وحسب الأشاعرة في باب

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية.

التأويل ما فتحوه على الإسلام من شرور بسببه ، فإنهم لما أولوا ما أولوا تبعتهم الباطنية واحتجت عليهم في تأويل الحلال والحرام والصلاة والصوم والحج والحشر والحساب ، ومامن حجة يحتج بها الأشاعرة عليهم في الأحكام والآخرة إلا احتج الباطنية عليهم بمثلها أو أقوى منها من واقع تأويلهم للصفات. وإلا فلماذا يكون تأويل الأشاعرة لعلو الله ـ الذي تقطع به العقول والفطر والشرائع ـ تنزيهاً وتوحيداً وتأويل الباطنية للبعث والحشر كفراً وَرِدَّة؟ أليس كل منهما رداً لظواهر النصوص مع أن نصوص العلو أكثر وأشهر من نصوص الحشر الجسماني؟ ولماذا يُكَفِّرُ الأشاعرة الباطنية ثم يشاركونهم في أصل من أعظم أصولهم؟)(1).

المسألة الخامسة:

يذهب بعض الناس إلى أن كلام الله هو الكلام النفسي ، أي أنه معنىٰ واحد ليس بحرف ولا صوت ، وأن جبريل عليه السلام فهم معاني القرآن من الله تعالى دون أن يسمع من الله حرفاً ولا صوتاً ، بل فهم معنىً مجرداً وعبّر عنه بألفاظ من عنده!! فما الجواب؟

الجواب: هذا هو قول الأشاعرة في صفة كلام الله سبحانه ، وهي فلسفة لا تليق بوصف القرآن ولا بوصف الله جل ثناؤه ، بل إن هذا التنطع نتيجة مباشرة للبعد عن نضارة الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة ، والعكوف على مناهج الآخرين من أعداء هذه الأمة.

إن الناس افترقوا في مسألة الكلام على أقوال متعددة منها:

1- قول المعتزلة: إن القرآن الكريم مخلوق ، خلقه الله منفصلاً عنه.

2- قول الأشاعرة: إنه الكلام النفسي ، بمعنىٰ أن كلام الله معنىً واحد قائم بذات الله ، وأن التوراة والإنجيل والقرآن هي عبارات عن ذلك المعنىٰ النفسي ، وأن الله إذا أراد أن يوصل الكلام إلى أنبيائه يعطي قوة وقدرة لجبريل يستطيع بها أن يفهم مافي نفسه تعالىٰ ويعبر عنها ، وهذا معنىٰ قولهم إن القرآن عبارة عن كلام الله.

3- قول أهل السنة والجماعة: إنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتىٰ شاء وكيف

(1) رسالة «منهج الأشاعرة في العقيدة» ص 54.

شاء ، وأن كلامه لفظ ومعنىٰ ، وأنه يتكلم به بصوت مسموع ، وأن نوع كلامه قديم وآحاده ـ جزئياته ـ حادثة غير قديمة .

وأما الرد على شبهات المعتزلة فقد أفرد له العلماء المجلدات الكثيرة ، وخلاصة ذلك أن يقال : إن شبهة المعتزلة التي مفادها أن إثبات الكلام لله يلزم منه التشبيه والتجسيم! فيقال لهم : إذا فهمتم أنه جل ثناؤه يتكلم كما يليق بجلاله انتفت عنكم الشبهة ، ألم يقل ربكم ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ ﴾ [يس : 65] . فالمؤمنون يؤمنون أنها تتكلم وإن كنا لا نعلم كيف تتكلم ، وكذلك تسبيح الحصىٰ والطعام وسلام الحجر الذي ثبت في السنة .

وأما شبهتهم التي استدلوا بها أن القرآن مخلوق لما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فإن استدلالهم باطل يلزم منه أن يكون جميع صفاته مخلوقة ، لأن علمه شيء وقدرته شيء وحياته شيء .

وأما قولهم : إنه خلق الكلام في غيره ، فيقال لهم : إن الصفة لا يعقل قيامها بذاتها بل لابد لها من موصوف ، فالكلام من متكلم ، وإلا فلازم كلامهم أن كل كلام في الوجود هو كلام الله تعالىٰ .

وأما استدلالهم بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ فقد بسطت الرد في غير هذا الموضع من الكتاب ، وخلاصته أن (جعل) في لغة العرب تكون بمعنىٰ خلق إذا تعدت إلى مفعول واحد ، نحو قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام : 1] . وأما إن تعدت إلى مفعولين فلا تكون بمعنىٰ خلق ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل : 91][1] .

ولما طلب بشر المريسي من عبد العزيز المكي أن يناظره بغير نص التنزيل ، قال له عبد العزيز : يلزمك واحدة من ثلاث لابد منها :

1- إما أن تقول : إن الله خلق القرآن في نفسه .

---

(1) وفي التنزيل أيضاً : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [العنكبوت : 27] ، ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف : 70] ، ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف : 19] .

2- وأما إن تقول: خلق القرآن قائماً بذاته ونفسه.

3- وإما أن تقول خلق القرآن في غيره.

فإن قلت خلقه في نفسه سبحانه فهذا محال ، لأن الله تعالى ليس محلاً للحوادث المخلوقة ، وإن قلت خلقه في غيره فيلزم أن يكون كل كلام خلقه الله في غيره كلامه وهذا محال أيضاً ، وإن قلت خلقه قائماً بذاته ونفسه فهذا محال لأن الكلام لا يكون إلا من متكلم كما أن الإرادة لا تكون إلا من مريد.

وأما دحض شبهة الأشاعرة في أن كلام الله هو الكلام النفسي ليس بحرف ولا صوت بل مكنّ جبريل من فهمه ثم التعبير عنه ، فيقال: إنه يلزم من هذه الفلسفة لوازم باطلة كثيرة منها:

1- أن يكون الأخرس متكلماً ، لأن الكلام يقوم في نفسه ، والرسول ﷺ فرّق بين حديث النفس والكلام الذي يظهر على اللسان.

ففي الصحيحين والسنن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به ، أو تعمل به][1].

وهو عند البيهقي بلفظ: [إن الله تجاوز لأمتي عما توسوسُ به صدورهم مالم تعمل أو تتكلم به ، وما استكرهوا عليه] ورواه ابن ماجه[2].

وهو في المسند بلفظ: [إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوستْ به صدورها ، مالم تعمل أو تتكلم] ورواه البخاري[3].

وفي الصحيح أيضاً: [إنّ صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس][4] ، فلو كان المعنىٰ النفسي كلاماً لكانت صلاة المسلم باطلة من الأصل.

2- أن يكون القرآن الكريم مخلوقاً لأن الذي أنشأه هو جبريل عليه السلام.

3- إن هذا القول له شبه قوي بقول النصارى القائلين بحلول اللاهوت

---

(1) مختصر صحيح مسلم (68).

(2) صحيح الجامع (1725).

(3) الإرواء (2122).

(4) جزء من حديث رواه مسلم.

بالناسوت ، إذ إفهام المعنىٰ القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت.

4- ثم يقال لهم : هل سمع موسىٰ عليه السلام جميع كلام الله أو بعضه؟ فإن قالوا سمعه كله فقد زعموا أنه سمع جميع كلام الله وهذا باطل ، وإن قالوا بعضه فقد قالوا بالتبعيض!! وهو ما فرّوا منه.

5- لقد تحدىٰ الله تعالى البشر أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، أفتراه تحداهم أن يأتوا بمثل مافي نفسه ولم يسمعوا كلامه ولم يعرفوه؟! فإن قالوا إنما أشار إلى حكاية مافي نفسه قلنا هذا صريح القول بأن القرآن مخلوق ، إذ حكاية الشيء بمثله وشبهه.

ويرحم الله الإمام الطحاوي[1] حيث قال : (وإن القرآن كلام الله ، منه بدأ بلا كيفية قولا ، وأنزله على رسوله وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر ، حيث قال تعالىٰ : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ فلما أوعد الله بسقر لمن قال : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر : 25]، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ، ولا يشبه قول البشر) العقيدة الطحاوية 33.

وفي الأثر عن ابن أبي أويس قال : (سمعت مالكاً يقول : القرآن كلام الله ، وكلام الله منه ، وليس من الله شيء مخلوق) رواه عبد الله بن أحمد ، وأبو داود في المسائل.

وكذلك أخرج عبد الله بن الإمام أحمد في «السنة» عن ميمون بن يحيىٰ البكري قال : (قال مالك : من قال : القرآن مخلوق يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه) وفي لفظ : (يوجع ضرباً ويحبس حتىٰ يتوب) وسنده صحيح كما في مختصر العلو 136.

ويروي البيهقي بسند جيد عن معاوية بن عمار قال : (سئل جعفر بن محمد[2]

---

(1) هو عالم الديار المصرية في وقته أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي الحنفي (239-321 هـ).

(2) هو جعفر الصادق سيد العلويين في زمانه وأحد أئمة الحجاز ، لم يلحق بالصحابة ، توفي 148 هـ.

عن القرآن فقال: ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله عز وجل) مختصر العلو 144.

وروى أبو حاتم الرازي بسند صحيح عن عفان بن مسلم قال: (كنت عند سلام[1] أبي المنذر قارىء أهل البصرة فأتاه رجل بمصحف فقال: أليس هذا ورق وزاج فهو مخلوق؟ فقال له سلام: قم يا زنديق).

وروى بسند صحيح عن أبي محمد المروزي قال: سمعت الحارث بن عمير وهو مع فضيل بن عياض[2] يقول: (من زعم أن القرآن محدث فقد كفر، ومن زعم أنه ليس من علم الله فهو زنديق) فقال فضيل: صدقت.

وروىٰ بإسناد جيد عن محمد بن يحيىٰ بن أبي سمينة قال: (جاء رجل إلى هشيم[3] فقال: إن لنا إماماً يقول: إن القرآن مخلوق، فقال: اقرأ عليه آخر الحشر، فإن زعم أنه مخلوق فقدرت أن تضرب عنقه فاضرب عنقه). وكذا قال أحمد بن يونس، سمعت ابن المبارك يقول: من قال: («إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني» مخلوق، فهو كافر).

وروىٰ ابن أبي حاتم بسند جيد عن علي بن الحسن الكراعي: قال أبو يوسف: (ناظرت أبا حنيفة ستة أشهر، فاتفق رأينا على أن من قال: القرآن مخلوق فهو كافر)[4].

وروى الخطيب بسند جيد عن الإمام أحمد أنه قال: (لم يصح عندنا أن أبا حنيفة كان يقول: القرآن مخلوق)[5].

---

(1) سلام هو مقرىء البصرة توفي 171 هـ. والرواية ذكرها الذهبي، انظر مختصر العلو 145 ص 148.

(2) هو شيخ الحرم (ت 187 هـ). والرواية ذكرها الذهبي وصححها الألباني. انظر مختصر العلو 153 ص 152.

(3) هو هشيم بن بشير عالم أهل بغداد (ت 183 هـ). والرواية في مختصر العلو برقم (154) ص 153.

(4) مختصر العلو 159 ص 155.

(5) مختصر العلو ص156.

وقال أبـو حاتم الرازي: (حدثنا الحسن بـن صباح قـال: سئل عبد الله بـن إدريس[1] فقيل له: (إن قبلنا قوماً يقولون: القرآن مخلوق. قال: من النصارىٰ؟ قيل: لا ، قال: فمن اليهود؟ قيل: لا ، قال: من المجوس؟ قيل: لا ، قال: ممن؟ قيل: من المسلمين. قال: ما هم بمسلمين ، ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم ، فالله لا يكون مخلوقاً ، والرحمن لا يكون مخلوقاً ، والرحيم لا يكون مخلوقاً ، هؤلاء زنادقة) وإسناده صحيح كما قال الألباني في مختصر العلو (161/ ص 158).

وقال يحيى[2] بن سعيد: (كيف يقل هو الله أحد ، يقولون هذا مخلوق؟!) رواه أبو حاتم.

وأخرجه عبد الله بن أحمد عن أبي الوليد الطيالسي: قال لي يحيىٰ بن سعيد: (كيف يصنعون بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؟! كيف يصنعون بهذه الآية ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾؟! يكون مخلوقاً؟!) وسنده صحيح. انظر مختصر العلو ص 160.

وكان سفيان بن عيينة أحد الأعلام (107-198 هـ) يقول: (كلام الله منه خرج وإليه يعود): فقد أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن محمد بن منصور المكي الجّواز قال: (رأيت سفيان بن عيينة ، وسأله رجل: يا أبا محمد ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله منه خرج وإليه يعود).

وقال البخاري في أول «خلق الأفعال»: حدثني الحكم بن الطبري قال: حدثنا سفيان بن عيينة قال: (أدركت مشيختنا منذ سبعين سنة منهم عمرو بن دينار يقولون: القرآن كلام الله وليس بمخلوق) قال الألباني وإسناده جيد.

وله شاهد عند أبي بكر الخلال عن إسحق بن راهويه عن سفيان عن عمرو بن دينار قال: (أدركت الناس منذ سبعين سنة أصحابَ رسول الله ﷺ فمن دونهم يقولون: الله خالق ، وما سواه مخلوق إلا القرآن ، فإنه كلام الله منه خرج وإليه يعود) وسنده صحيح.

قال الذهبي: (وقد تواتر هذا عن ابن عيينة) مختصر العلو ص 164.

---

(1) أحد الأعلام (ت 192 هـ).

(2) هو يحيىٰ القطان ، سيد الحفاظ (120-198 هـ).

وكان أبو بكر بن عياش[1] يقول: (القرآن كلام الله ألقاه إلى جبرائيل، وألقاه جبرائيل إلى محمد ﷺ، منه بدأ وإليه يعود) رواه الحافظ أبو حاتم الرازي بسند صحيح.

وله شاهد عند أبي داود عن حمزة بن سعيد المروزي قال: (سألت أبا بكر بن عياش فقال: من زعم أن القرآن مخلوق فهو عندنا كافر زنديق) وسنده جيد.

قال الذهبي: (وقال أبو هاشم الرفاعي: سمعت أبا بكر يقول: الخلق أربعة، معذور، ومخبور، ومجبور، ومثبور، فالمعذور: البهائم، والمخبور: فابن آدم، والمجبور: الملائكة، والمثبور: إبليس) مختصر العلو ص 166-167.

وقال: (نقل غير واحد بإسناد صحيح عن عبد الرحمن[2] ـ الذي يقول فيه علي بن المديني: «حافظ الأمة، لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت أعلم من ابن مهدي» ـ قال: إن الجهمية أرادوا أن ينفوا أن يكون الله كلم موسىٰ، وأن يكون على العرش، أرىٰ أن يستتابوا، فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم) وأخرجه عبد الله بن أحمد[3].

وكان النضر بن محمد المروزي (ت 203 هـ) يقول: (من قال: هذه الآية مخلوقة «إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني» فقد كفر) رواه عبد الله بن أحمد عن محمد بن أعين بسند صحيح وقال: (فجئت إلى عبد الله بن المبارك، فأخبرته، فقال: صدق أبو محمد عافاه الله، ما كان الله ليأمر أن نعبد مخلوقاً)[4].

وبنحوه ذكر البخاري في «الأفعال» عن سليمان بن داود الهاشمي قال: (من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، وإن كان القرآن مخلوقاً كما زعموا فلم صار فرعون أولى بأن يخلد في النار إذ قال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وزعموا أن هذا مخلوق، والذي قال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ هذا أيضاً قد ادعىٰ ما ادعى فرعون! فلم صار فرعون أولى بأن يخلد في النار من هذا وكلاهما عنده مخلوق؟! فأخبر بذلك

---

(1) إمام معروف ت 194 هـ.

(2) عبد الرحمن بن مهدي، الإمام (125-198 هـ).

(3) أخرجه عبد الله ص (10-11) وصححه ابن القيم في «جيوشه» ص 84.

(4) مختصر العلو ص 173.

أبو عبيد فاستحسنه وأعجبه) مختصر العلو ص 174 .

قال الذهبي : (أما تكفير من قال بخلق القرآن فقد ورد عن سائر أئمة السلف في عصر مالك والثوري ، ثم عصر ابن المبارك ووكيع ، ثم عصر الشافعي وعفان والقعنبي ، ثم عصر أحمد بن حنبل وعلي بن المديني ، ثم عصر البخاري وأبي زرعة الرازي ، ثم عصر محمد بن نصر المروزي والنسائي ومحمد بن جرير وابن خزيمة. وكان الناس في هذه الأزمنة إما قائلاً بأنه كلام الله ووحيه وتنزيله ، غير مخلوق ، وإما قائلاً بأنه كلام الله وتنزيله وأنه مخلوق ، وذكروا في دليلهم ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ قالوا: والمجعول لا يكون إلا مخلوقاً[1]. فولي المأمون ، وكان متكلماً ، عربت له كتب الأوائل ، فدعا الناس إلى القول بخلق القرآن ، وتهددهم وتخوفهم ، فأجابه خلق كثير رغبة ورهبة ، وامتنع من إجابته مثل أبي مسهر عالم دمشق ، ونعيم بن حماد عالم مصر[2] ، والبويطي فقيه مصر ، وعفان محدث العراق[3] ، وأحمد بن حنبل الإمام ، وطائفة سواهم ، فسجنهم ، ثم لم ينشب أن مات بِطَرسوس ودفن فيها. ثم استخلف بعده أخوه المعتصم ، فامتحن الناس ، ونهض بأعباء المحنة قاضيه أحمد بن أبي دؤاد ، وضربوا الإمام أحمد ضرباً مبرحاً فلم يجبهم ، وناظروه ، وجرت أمور صعبة ، من أراد أن يتأملها ويدري ما تمّ كما ينبغي فليطالع الكتب والتواريخ ، وإلا فليجلس في بيته ويدع الناس من شره ، وليسكت بحلم ، أو لينطق بعلم ، فلكل مقام مقال ، ولكل نزال رجال ، وإن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله ورسوله أعلم) مختصر العلو ص 174 .

قال الألباني رحمه الله بعد هذا معلقاً: (قلت: وأقدم من صرح بذلك ـ يعني قولهم غير مخلوق ـ ممن صرحوا باسمه من السلف عمرو بن دينار. . . توفي

---

(1) قلت: تقدم الرد على هذه الشبهة .

(2) نعيم بن حماد من أوعية العلم ، أخذ في محنة خلق القرآن فسجن حتى مات في القيد رحمه الله سنة 229 هـ وله ثمانون سنة ، حدث عنه البخاري. وقال محمد بن إسماعيل الترمذي: سمعت نعيم بن حماد يقول: (من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيهاً). قال الألباني في مختصر العلو: «وهذا إسناد صحيح» .

(3) توفي سنة 219هـ ، وسيأتي تفصيل موقفه وثباته. مختصر العلو ص 178 .

سنة (126). وأما الصحابة فلم أر نصاً صريحاً صحيحاً عن أحد منهم. . . فقد صح عنهم القول بأن القرآن كلام الله، ولكن لم يقولوا: «غير مخلوق» لعدم الحاجة إليه يومئذ. وإلى هذا أشار الإمام أحمد رحمه الله تعالى حين سئل: هل لهم رخصة أن يقول الرجل: «كلام الله»، ثم يسكت؟ قال: ولم يسكت؟ لولا ما وقع فيه الناس كان يسعه السكوت، ولكن حيث تكلموا فيما تكلموا لأي شيء لا يتكلمون؟! رواه عنه أبو داود).

قال ابن أبي حاتم: (حدثنا يحيى بن زكريا بن عيسىٰ: حدثني يحيى بن أبي بكر السمسار، سمعت عفان بن مسلم بعدما جاء من دار إسحاق بن إبراهيم - والي بغداد أكثر من عشرين سنة آنذاك مات 235 هـ - لما امتحنه في القرآن فقال: إنه كتب أن أُدر أرزاقك إن أجبت إلى خلق القرآن. فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يريدون أن يبدلوا كلام الله، الله لا إله إلا هو الحي القيوم، قل هو الله أحد، أمخلوق هذا؟ أدركت شعبة وحماد بن سلمة وأصحاب الحسن يقولون: القرآن كلام الله ليس مخلوقاً. قال: إذن نقطع أرزاقك، قلت: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. قيل: كان رزقه في الشهر ألف درهم، فترك ذلك لله عز وجل) توفي سنة 219 هـ[1].

وقال ابن أبي حاتم: سمعت مسلم بن الحجاج: سمعت يحيىٰ بن يحيىٰ يقول: (من زعم أن من القرآن من أوله إلى آخره آية مخلوقة فهو كافر)[2].

ويحيىٰ بن يحيىٰ هو عالم المشرق من علماء نيسابور. قال الذهبي: (كان يحيىٰ بن يحيىٰ إليه المنتهىٰ في الإتقان والورع والجلالة بنيسابور، قل أن ترىٰ العيون مثله، حمل عن مالك وخارجة بن مصعب والكبار، ومات سنة ست وعشرين ومائتين)[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو هارون محمد بن خلف الجزار: سمعت هشام بن عبيد الله[4] يقول: (القرآن كلام الله غير مخلوق، فقال له رجل: أليس الله

---

(1) مختصر العلو ص 178.

(2) مختصر العلو ص 181.

(3) المرجع السابق.

(4) هو عالم الري: هشام بن عبيد الله الرازي (ت 221 هـ).

تعالى يقول: «ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث»؟ فقال: محدث إليناوليس عند الله بمحدث).

قال الذهبي: (قلت: لأنه من علمه، وعلمه قديم، فعلّم عباده منه، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فالمقرىء يلقن الختمة مائة نفس ومائتين فيحفظونه وهو ما انفصل عنه منه شيء كسراج وقدت منه سرجاً ولم يتغير)(1).

وهذا فقيه المدينة عبد الملك بن الماجشون المتوفىٰ 214 هـ، وكان من أجل تلامذة مالك، وكان أبوه عبد العزيز بن الماجشون يفتي مع مالك في دولة المهدي. قال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيىٰ بن زكريا بن عيسىٰ: حدثنا هارون بن موسىٰ الفروي قال: (ما سمعت الكلام في القرآن إلا سنة تسع ومائتين، جاء نفر إلى عبد الملك بن الماجشون وكلموه، فأنكر ذلك عليهم، فكان في بعض ما كلمهم به أن قال: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أهذا مخلوق؟ ثم قال: لو أخذت بشراً المريسي لضربت عنقه) قال الألباني: إسناده صحيح(2).

وهذا أحمد بن نصر الخزاعي الشهيد (ت 231 هـ). قال إبراهيم الحربي فيما صح عنه: (قال أحمد بن نصر ـ وسئل عن علم الله؟ فقال: علم الله معنا وهو على عرشه. وسئل عن القرآن؟ فقال: كلام الله، فقيل له: أمخلوق؟ قال: لا)(3).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا صالح بن أحمد بن حنبل قال: (سمعت أبي يحتج بأن القرآن غير مخلوق، يقول: قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فأخبر تعالى أن القرآن من علمه) وروى عبد الله بن أحمد نحوه(4).

وقال: حدثنا أحمد بن سلمة النيسابوري: سمعت إسحاق بن إبراهيم الحنظلي رضي الله عنه يقول: (ليس بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله ليس

---

(1) مختصر العلو ص 181 - 182.

(2) مختصر العلو ص 182.

(3) المرجع السابق ص 186 - 187.

(4) المرجع السابق ص 191.

بمخلوق ، فكيف يكون شيء خرج من الرب عز وجل مخلوقاً؟) وصححه الألباني[1].

قال الذهبي : (كان إسحاق من كبار أئمة الاجتهاد ، ومن أعلام الحفاظ ، توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين عن بضع وسبعين سنة ، ولم يخلف بخراسان مثله) مختصر العلو ص 194 .

وهذا العيشي[2] من علماء البصرة (ت 228 هـ) كان يقول : (يستحيل في صفة الحكيم أن يخلق كلاماً يدعي الربوبية ، يعني قوله تعالى : «إنني أنا الله» وقوله «أنا ربك») ذكره الذهبي[3].

وهذا أبو جعفر النُفَيلي عالم أهل الجزيرة يقول : (من قال : إن القرآن مخلوق ، فهو كافر ، فقيل له : يا أبا جعفر ، الكفر كفران : كفر نعمة ، وكفر بالرب عز وجل؟ قال : لا ، بل كفر بالرب ، ما تقول فيمن يقول : «الله أحد ، الله الصمد» . مخلوق؟ أليس كافراً هو) وسنده صحيح[4].

قال الذهبي : (كان النفيلي من أركان الدين ، وكان يُنْظَر بأحمد بن حنبل ، بحيث أن أبا داود السجستاني يقول : ما رأيت أحفظ من النفيلي) .

وهذا أبو زرعة ـ كما يروي أبو حاتم الرازي ـ قال : (كان بالبصرة رجل وأنا مقيم في سنة ثلاثين ومائتين فحدثني عثمان بن عمرو بن الضحاك عنه أنه قال : إن لم يكن القرآن مخلوقاً فمحا الله مافي صدري من القرآن ، وكان من قراء القرآن ، فنسي القرآن حتى كان يقال له : قل : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فيقول : معروف معروف ، ولا يتكلم به) .

والقصة صحيحة كما ذكر الألباني في مختصر العلو ، ولها شاهد عند الذهبي قال : قال أبو زرعة : (فجهدوا بي أن أراه فلم أره . فقال محمد بن بشار : سمعت جاراً كان لي وكان يقرئني القرآن ، ويقول : هو مخلوق ، فقال له رجل : إن لم يكن

---

(1) مختصر العلو ص 194 .

(2) هو عبد الله بن محمد بن عائشة .

(3) المرجع السابق ص 197 .

(4) مختصر العلو ص 196 .

القرآن مخلوقاً فمحا الله كل آية من صدرك؟ قال: نعم ، فأصبح وهو يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ﴾ فإذا أراد أن يقول: «نعبد» لم يجر لسانه)[1].

وهذا الحافظ أبو عوانة صاحب الصحيح المتوفىٰ (316) هـ ، كما يقول الحاكم في ترجمته: سمعت يحيىٰ بن منصور القاضي يقول: سمعت أبا عوانة رحمه الله يقول: (دخلت على أبي إبراهيم المزني في مرضه الذي مات فيه قلت له: ما قولك في القرآن؟ فقال: كلام الله غير مخلوق. فقلت: هلا قلت هذا قبل هذا؟ قال: لم يزل هذا قولي ، وكرهت الكلام فيه لأن الشافعي كان ينهانا عن الكلام فيه ، يعني البحث والجدال في ذلك) وسنده جيد كما قال الألباني[2].

المسألة السادسة:

ثبت عن ابن عباس في تفسير الساق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أن المراد عن شدة وكرب ، فهل هذا من قبيل التأويل؟

الجواب: إن هذا ـ كما قال أهل العلم ـ ليس من باب التأويل لأن لفظة الساق في الآية نكرة غير معرفة ولا مضافة ، وهذا اللفظ بمجرده لا يدل على صفة الساق الثابتة لله ، بخلاف الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (فيكشف ربنا عن ساقه) الدالة صراحة على الساق لله تعالىٰ ، والذي به أثبت السلف الصالح صفة الساق.

فقد أخرج البخاري عن عطاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقىٰ من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً][3].

قال شيخ الإسلام: (لم يتنازع الصحابة والتابعون في تفسير آية من آيات الصفات إلا في هذه الآية ، فبعضهم حملها وفسرها بالكشف عن الشدة ، والبعض فسرها بالساق الذي هو صفة لله ، والكل متفق على إثبات صفة الساق بالحديث

---

(1) مختصر العلو ص 206.
(2) المرجع السابق ص 233.
(3) قد مضى تخريجه.

«حديث الشفاعة» ، «فيكشف ربنا عن ساقه»).

قلت: ويفصل النزاع ما ثبت في سنن الدارمي وصححه الألباني ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا جمع الله العباد بصعيد واحد نادىٰ مناد: يلحق كل قوم بما كانوا يعبدون. ويبقىٰ الناس على حالهم ، فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم هاهنا؟ فيقولون: ننتظر إلهنا ، فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: إذا تعرف إلينا عرفناه ، فيكشف لهم عن ساقه فيقعون سجداً ، وذلك قول الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ويبقىٰ كل منافق فلا يستطيع أن يسجد ثم يقودهم إلى الجنة][1].

فهذا نص في أن الآية تدل على صفة الساق كما أثبت ذلك التحقيق الحديثي ، فإن من فضل الله على الأمة أن هيأ لها أهل الاختصاص يكشف الله لهم كثيراً مما اخْتُلف فيه حتىٰ تجتمع الأمة على فهم الحق ويكون ذلك حجة من الله عليها ، فلله الحمد والمنة.

المسألة السابعة:

ثبت عن السلف الصالح تفسيرهم لمعية الله لخلقه بأنها معية علم: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أفليس هذا تأويلاً؟!

الجواب: المعية في لغة العرب إن جاءت مطلقة لا تدل إلا على مطلق المصاحبة ، ولا يراد منها الاختلاط إلا بحسب سياق الكلام وسباقه ، فيراد بالمعية أحياناً معية الرعاية والتأييد والنصر كقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40] ، وقوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: 12].

ونحو قولنا: (نحن مع المسلمين ضد الكفار).

وكذلك فإن المعية تأتي بمعنىٰ العلم والاطلاع كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: 15].

وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46]. وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ

(1) أخرجه الدارمي في سننه (326/2) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (584).

﴿ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ . . . ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة : 7].

كما تأتي المعية بمعنىٰ الموافقة في الحال والمنهج والمبدأ كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

كما تأتي بمعنىٰ معية الذات كقوله تعالىٰ : ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ [النساء : 140] ، وقوله : ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾ [يوسف : 66].

قلت : والمتتبع لآيات معية الله لخلقه وأحاديثها يجد أنه حيثما ذكرت المعية ذكرت الصفة بعدها التي تفسر تلك المعية ، كما يجد أنه لا شيء منها يدل على الذات بل إنما يدل أن المعية هي معية علم أو تأييد أو رعاية . وتفصيل ذلك :

1- قوله جل ذكره في سورة الحديد : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أَلْحَقَهُ بتفسير هذه المعية فقال : ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي : (شاهد لكم يعلم أعمالكم وهو على عرشه فوق سماواته السبع) ذكره ابن جرير .

2- وقوله سبحانه في سورة طه : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فجاءت صفة السمع والبصر لتفسير المعية . أي إنه سبحانه بذاته فوق عرشه مَعَهُما بسمعه وبصره .

3- قوله جل ثناؤه في سورة المجادلة : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ قال الإمام البغوي الشافعي(1) : (أي إلا هو رابعهم بالعلم) .

قلت : ونهاية الآية تدل على ذلك فقد قال الله في آخرها : ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فدل أن تفسير المعية في هذه الآية هي معية العلم .

4- قوله سبحانه في سورة التوبة : ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ثم عقّب سبحانه بتفسير هذه المعية فقال : ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ

---

(1) هو الإمام محيي السنـة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي صاحب «معالم التنزيل» (436-516) هـ.

قال الذهبي : (كان محيي السنة من كبار أئمة المذهب ، زاهداً ، ورعاً ، متعبداً ، ألف كتاب «التهذيب» في المذهب فأتقنه ، وصنف كتاب «شرح السنة») مختصر العلو 281 .

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا . . . وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فدل أنها معية التأييد والمَدد من الله القوي العزيز الحكيم.

5- قوله عز وجل في سورة الأنفال: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ أتبعها بقوله المفسر للمعية: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ ليبين سبحانه بذلك أنها معية إنزال النصر والمدد والتأييد بإلقاء الرعب في قلوب المشركين.

6- قوله جل ثناؤه في سورة الشعراء: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ فسّر فيها سبحانه معيته لموسىٰ وهارون عليهما الصلاة والسلام بأنها معية صفة السمع وليست معية الذات.

7- قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ دل أنها معية إعانة وتصبير وتأييد، إذ استعانوا به سبحانه بالطاعة والصبر والصلاة فأعانهم، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ . . .﴾ [المائدة: 12].

8- قوله في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: يؤيدهم بتقواهم وينصرهم على عدوهم الذي اعتدىٰ عليهم، فإن بداية الآية: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ . . .﴾. ومثلها آية النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾.

9- قوله في سورة البقرة: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. فهو يرسل لهم النصر والغلبة على عدوهم رغم قلة عددهم ويمدهم بجنوده نتيجة ثباتهم وصبرهم. وهذه الآية تشبه آية الأنفال: ﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

10- قوله سبحانه في سورة العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي يهديهم هداية توفيق وإلهام ويفتح لهم. ومثله قوله سبحانه في سوة محمد: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾.

11- قوله جل ذكره في سورة النساء: ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ وذلك بعد قوله: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ

﴿ٱللَّهِ﴾ فهو يبصرهم سبحانه ولا يخفىٰ عليه تحركهم ومكرهم بل هو محيط بكل أعمالهم عليم بما يدور في نفوسهم.

12- قوله سبحانه في سورة الشعراء: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أي يرشدني سبحانه إلى طريق النجاة من فرعون ويوفقني ومن معي لسلوكه.

وخلاصة القول في المعية كما قال أبو حنيفة رحمه الله: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾: هو كما تكتب إلى الرجل: إني معك وأنت غائب عنه) رواه البيهقي في كتاب الصفات.

وكما قال الإمام مالك: (الله في السماء وعلمه في كل مكان) رواه أبو داود في المسائل وعبد الله بن أحمد في السنة[1].

وإلى ذلك ذهب الإمام أحمد وسفيان الثوري والإمام البغوي الشافعي ومقاتل بن حيان وغيرهم من أئمة العلم في هذه الأمة.

وهذا نعيم بن حماد الخزاعي الحافظ (146-228 هـ) كما يذكر الذهبي قال: قال محمد بن مخلد العطار: حدثنا الرمادي قال: سألت نعيم بن حماد عن قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ قال: (معناه أنه لا يخفىٰ عليه خافية، بعلمه، ألا ترى قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية) وسنده صحيح كما أفاد العلامة الألباني رحمه الله في مختصر العلو ص 184.

وهذا علي بن المديني إمام المحدثين (ت 234 هـ)، كما يروي الحسن بن محمد بن الحارث ـ قال: سئل علي بن المديني وأنا أسمع: ما قول أهل الجماعة؟ قال: (يؤمنون بالرؤية وبالكلام، وأن الله عز وجل فوق السماوات على عرشه استوىٰ). فسئل عن قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ فقال: (اقرأ ما قبله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾).

قال الذهبي: (قد أكثر البخاري في صحيحه عن علي بن المديني، وقال: ما استصغرت نفسي إلا بين يدي ابن المديني) مختصر العلو ص 189.

وهذا الإمام أحمد بن حنبل شيخ الإسلام (164-241 هـ) حامل لواء السنة

---

(1) وانظر مختصر العلو للذهبي ص 140.

والصابر في المحنة والمشهود بأنه من أهل الجنة قد تواتر عنه تكفير من قال بخلق القرآن العظيم ، وإثبات الرؤية والصفات والعلو والقدر ، وتقديم الشيخين وأن الإيمان يزيد وينقص ، إلى غير ذلك من عقود الديانة كما يذكر الذهبي . قال : قال يوسف بن موسىٰ القطان[1] : (قيل لأبي عبد الله : الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه ، وقدرته وعلمه بكل مكان؟ قال : نعم هو على عرشه ولا يخلو شيء من علمه) .

وقال أبو طالب أحمد بن حميد[2] : (سألت أحمد بن حنبل عن رجل قال : الله معنا ، وتلا : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ فقال : قد تجهم هذا ، يأخذون بآخر الآية ، ويدعون أولها ، قرأت عليه ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ﴾؟ فعلمه معهم ، وقال في سورة «ق» : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ فعلمه معهم) ذكره الذهبي ، مختصر العلو ص 190 .

وقال المروزي : (قلت لأبي عبد الله : إن رجلاً قال : أقول كما قال الله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ أقول هذا ولا أجاوزه إلى غيره ، فقال : هذا كلام الجهمية بل علمه معهم ، فأول الآية يدل على أنه علمه) مختصر العلو ص 190 .

وقال حنبل بن إسحاق : قيل لأبي عبد الله ما معنىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾؟ قال : (علمه ، علمه محيط بالكل ، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة) أخرجه اللالكائي . مختصر العلو ص 190 .

وروى الخلال عن حرب بن إسماعيل الكرماني : قلت لإسحاق بن راهويه[3] : قوله تعالىٰ : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ كيف نقول فيه؟ قال : (حيث ما كنت فهو أقرب إليك من حبل الوريد ، وهو بائن من خلقه ، ثم ذكر عن ابن المبارك قوله : هو على عرشه ، بائن من خلقه . ثم قال : أعلى شيء في ذلك وأبينه قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾) .

---

(1) ثقة من شيوخ البخاري مات 253 هـ . والقصة رواها ابن القيم في «الجيوس» ص 77 .

(2) صاحب أحمد روى عنه مسائل تفرد بها ، وكان أحمد يكرمه ويعظمه كما قال الخطيب (ت 244 هـ) .

(3) عالم خراسان (166-238 هـ) . والرواية ذكرها الذهبي ، انظر مختصر العلو ص 191 .

وقال الإمام العالم أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (213 - 276 هـ) في كتابه «مختلف الحديث»: (نحن نقول في قول الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾: أنه معهم، يعلم ما هم عليه، كما تقول الرجل وجّهته إلى بلد شاسع: احذر التقصير فإني معك، يريد أنه لا يخفىٰ علي تقصيرك، وكيف يسوغ لأحد أن يقول: إن الله سبحانه بكل مكان على الحلول فيه مع قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ومع قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ كيف يصعد إليه شيء هو معه؟! وكيف تعرج الملائكة والروح إليه وهي معه) مختصر العلو[1].

المسألة الثامنة:

ما هو مفهوم القرب لله الوارد في القرآن والسنة، ألا يدل على قرب الذات؟!

الجواب: أهل السنة والجماعة يثبتون صفة القرب لله تعالىٰ على وجه يليق بجلال الله وكماله سبحانه، ويفسرون هذا القرب في كل موضع بحسبه وفق موضعه من السياق وبدلالة مفهوم الآيات الوارد فيها دون غلو، فأحياناً يكون القرب قرب ذات وأحياناً يكون قرب تأييد ونصر، وأحياناً يكون القرب بمعنىٰ العلم.

فقوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

قيل: القرب هنا بمعنى العلم. قال ابن جرير: (وإذا سألك يا محمد عبادي عني: أين أنا؟ فإني قريب منهم أسمع دعاءهم، وأجيب دعوة الداعي منهم).

ومن أمثلة قرب الذات ما روىٰ مسلم في صحيحه عن عائشة، أن النبي ﷺ قال: [ما مِنْ يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء][2].

وفي التنزيل أمثلة كثيرة لمفهوم القرب بمعانيه المختلفة، منها قوله تعالىٰ:

1- ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]، وهو قرب التأييد والنصر.

---

(1) مختصر العلو للذهبي ص 216.

(2) مختصر مسلم (643).

2- ﴿ وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف: 56].

وهو قرب رحمته سبحانه من عباده المحسنين.

3- ﴿ فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴾ [هود: 61].

قال ابن جرير: (يقول: إن ربي قريب ممن أخلص له العبادة ورغب إليه في التوبة، مُجيبٌ له إذا دعاه).

4- ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴾ [سبأ: 50].

قال ابن جرير: (قريب من كل متكلم يسمع كل ما ينطق به، أقرب إليه من حبل الوريد).

وقال الإمام أبو زكريا يحيىٰ بن عمار السجستاني[1] الواعظ في رسالته: (لا نقول كما قالت الجهمية: إنه تعالى مداخل للأمكنة وممازج بكل شيء، ولا نعلم أين هو؟ بل نقول: هو بذاته على العرش، وعلمه محيط بكل شيء، وعلمه وسمعه وبصره وقدرته مدركة لكل شيء، وذلك معنىٰ قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾ فهذا الذي قلناه هو كما قال الله وقاله رسوله) مختصر العلو.

قال الذهبي: (كان ابن عمار له جلالة عجيبة بتلك الديار، وكان يعرف الحديث، أخذ عنه شيخ الإسلام الأنصاري)[2].

المسألة التاسعة:

تكرر لفظ الوجه بإضافته لله سبحانه في القرآن الكريم، أليس المقصود بذلك رضاه وابتغاء مرضاته!؟

الجواب: الوجه في لغة العرب يطلق على معانٍ مختلفة بحسب السياق، فيراد أحياناً منه الجهة كقولنا: (قصدت الوجه الفلاني) أي الجهة. قال الرازي: (والوْجهُ والجِهَة بمعنىً، والهاء عوض من الواو). وقال: (ووجوه البلد أشرافُه).

---

(1) مات وله تسعون سنة (332-422) هـ.

(2) مختصر العلو ص 263.

وفي التنزيل: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي قبلة الله كما ورد ذلك عن الشافعي ومجاهد، والسياق يقتضي ذلك لقوله سبحانه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ أي تستقبلوا. وأين من الظروف، فيكون المعنىٰ: أي موضع استقبلتموه فهناك وجه الله أي جهة الله وقبلة الله.

قال مجاهد في التفسير: (﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: قبلة الله، فأينما كنتَ من شرق أو غرب فاستقبلها). قال: (حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها). فإن الكعبة ممكن لكم التوجه إليها من كل مكان.

وقال آخرون: (معنىٰ قوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ فثم تدركون بالتوجه إليه رضا الله الذي له الوَجْه الكريم). وقيل المراد: (فثم الله تبارك وتعالىٰ).

ومنهم من أثبت الصفة من هذه الآية قالوا: (عني بـ «الوجه» ذا الوَجْه. قالوا: وجه الله صفةٌ له).

قال البيهقي: (تكرر ذكر الوجه في القرآن والسنة الصحيحة وهو في بعضها صفة ذات كقوله ﷺ: (إلا رداء الكبرياء على وجهه). وفي بعضها بمعنىٰ من أجل كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾. وفي بعضها بمعنىٰ الرضىٰ كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾).

قلت: ومن أمثلة ذلك المختلفة في القرآن:

1- ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27].

2- ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 272].

3- ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الدهر: 9].

4- ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: 19-20].

5- ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: 38].

6- ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: 39].

7- ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: 52].

8- ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88].

وخلاصة القول: إن ما أورده المؤولون من أئمة العلم هو من التأويل بمعنىٰ التفسير الذي يفهمه العرب بلغتهم التي نزل بها القرآن وليس من التحريف وصرف اللفظ عن معناه الذي مضىٰ عليه الغلاة والمتنطعون.

المسألة العاشرة:

هل لفظ الجنب الوارد في قوله تعالى: ﴿جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ يراد منه العنصر المعروف؟!

الجواب: إن لفظ الجنب عند العرب لا يراد منه عند الإطلاق العنصر المعروف بل يفهم معناه حسب السياق، ومن ثمّ فقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ ليس فيه إثبات صفة الجنب، لأن العرب لا تعرف الجنب في مثل هذا التركيب بمعنىٰ العنصر المعروف، فهي تقول هذا يصغر في جنب ذاك تريد بالإضافة إليه أو بالمقارنة معه، فيكون معنىٰ الآية: يا حسرتا على ما ضيعت من حق الله وأمره كما جاء عند أئمة التفسير.

قال مجاهد: (﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ قال: في أمر الله).

وقال السدي: (﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾: تركت من أمر الله).

المسألة الحادية عشرة:

هل لفظ (اليد) في القرآن يراد منها دوماً إثبات الصفة أم تأتي بمعان أخرىٰ لا يستقيم معها المعنىٰ الأول؟!

الجواب: ليس المراد بلفظ اليد عند العرب في كل موضع أطلقت «الجارحة المعروفة» بل إن معناها يفهم من السياق.

فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: 30] يراد منه ما كسبه الإنسان وعمله سواء أكان قد باشر العمل باليد أو بغيرها.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 79] فهو نص على المباشرة باليد لتعدي الفعل بالباء.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: 71] فالمراد أن الله خلق الأنعام كما خلق غيرها، وإضافة العمل إلى اليد وإرادة صاحبها أسلوب عربي معروف.

وبنحوه قوله تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: 47]. فالمراد بنيناها بقوة إذ معنىٰ الأيد في قواميس لغة العرب القوة، وليس المراد منها أن الله بنىٰ السماء بيده التي هي صفته.

وفي التفاسير عن ابن عباس: (﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾: يقول: بقوة).

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: والسماء رفعناها سقفاً بقوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يقول: لذو سعة بخلقها وخلق ما شئنا أن نخلقه وقدرة عليه. ومنه قوله: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ يراد به القوي).

وأما قوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75]. فالمراد منه هنا اليدان الحقيقيتان اللتان تليقان بالله عز وجل وجلاله وكماله ولا يمكن التأويل هنا مطلقاً. وبنحوه قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64]. وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو: [وكلتا يديه يمين][1].

وفي صحيح البخاري ـ من حديث الشفاعة ـ عن أنس، عن النبي ﷺ: [خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء][2] وذلك قول الناس لآدم.

فكل هذه النصوص تدل على إثبات اليد للرحمن عز وجل، ومن تأول قوله تعالى ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فقال: اليد: القدرة، قلنا له: لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد، ولو صح لقال إبليس: وأنا أيضاً خلقتني بقدرتك، فلا فضل له علي بذلك، فإبليس مع كفره أعرف بربه من الجهمية.

وأما قوله تعالىٰ في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ

(1) جزء من حديث في مختصر مسلم (1207).
(2) قد مضى بتمامه في بحث الشفاعة.

لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ فلا دليل لهم بها ، لأنه تعالى جمع الأيدي لما أضافها إلى ضمير الجمع ليتناسب الجمعان ، فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة ، فليس قوله ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ نظير قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ .

فـائــدة: ولا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء أو جوارح أو أدوات أو أركان ، لأن الركن جزء الماهية والله تعالى هو الأحد الصمد لا يتجزأ سبحانه ، والأعضاء فيها معنىٰ التفريق والتعضية - أي التقطيع وجعل الشيء أعضاء كما قال سبحانه : ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر : 91] - والجوارح : فيها معنىٰ الاكتساب والانتفاع ، والأدوات : هي الآلات ينتفع بها بجلب نفع أو دفع ضر ، كما ذكر أهل العلم .

المسألة الثانية عشرة :

ما المفهوم بلفظ «العين والعينان والأعين» كما جاء في القرآن الكريم؟ أهو حصراً تلك الصفة؟

الجواب : لقد جاء في التنزيل : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه : 39]. وقوله سبحانه كذلك : ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر : 14].

وظاهر الآيتين : أن السفينة تجري وعين الله ترعاها وتكلؤها ، وأن تربية موسىٰ عليه الصلاة والسلام إنما كانت برعاية الله سبحانه ، لأن العرب حين تقول : (فلان يسير على عيني) يعنون : برعايتي . و(ربّيته على عيني) أي تحت نظري ومراقبتي وإشرافي .

وفي التفاسير عن قتادة : (﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ قال : هو غذاؤه ، ولتغذى على عيني) .

وقال ابن جريج فيها : (أنت بعيني إذ جعلتك أمك في التابوت ، ثم في البحر) .

وقال أبو نهيك : (ولتعمل على عيني) .

قال ابن جرير شيخ المفسرين : (معناه : ولتغذىٰ وتربىٰ على محبتي وإرادتي) .

وقال في آية القمر : (تجري السفينة التي حملنا نوحاً فيها بمرأى منا ومنظر) .

وعن ابن عباس: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[1] قال: بعين الله).

وقال قتادة: (بعين الله ووحيه).

والخلاصة: فإن لفظ (العين) في التنزيل قد يفيد الصفة التي لابد من إثباتها وقد يفيد العناية والرعاية والله المستعان.

المسألة الثالثة عشرة:

كيف نغلق باب التأويل وقد جاء عن الإمام البخاري أنه أول الضحك بالرحمة، وعن الإمام أحمد أنه أول الحجر الأسود بيمين الله في الأرض؟!

الجواب: هناك نُـقُول عن بعض السلف من العلماء تندرج في باب التأويل الاصطلاحي لبعض الصفات، إلا أنه في التحقيق إما أخطأ ناقلوها أو أساؤوا فهمها أو نسبت إليهم كذباً وافتراء.

ومن ذلك ما رُوي عن البخاري أنه أول الضحك بالرحمة، وهذا النقل غير صحيح، فقد عقّب الحافظ ابن حجر العسقلاني عليه بقوله: (قلت: لم أر ذلك في النسخ التي وقعت لنا من البخاري، والبيهقي نقل هذا الكلام عن البخاري دون إسناد وهو معروف بتساهله في النقل).

ومما يؤكد لنا أن موقف الإمام البخاري من الصفات هو الإثبات لا التأويل هو ما أورده في صحيحه من الآيات والأحاديث المثبتة للصفات في كتاب التوحيد، حتىٰ إن المتأمل فيه يجده قد عنون لها بعناوين تدل على أن موقفه رحمه الله من الأسماء والصفات هو الإثبات وليس التأويل.

وكذلك فإنه جاء في إحياء علوم الدين للغزالي فيما أورده عن بعض الحنابلة أن الإمام أحمد لم يتأول إلا في ثلاثة أشياء: الحجر الأسود يمين الله في الأرض، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمان، وإني لأجد نفس الرحمن من قِبل اليمن.

قال شيخ الإسلام ـ تعقيباً على هذا النقل ـ (هذه الحكاية عن أحمد كذب).

---

(1) سورة هود، آية (37).

ونقل حنبل عن أحمد بن حنبل شيئاً قريباً مما ذكره الغزالي فغلطه العلماء في ذلك ، وأنكروا أن يكون أحمد قد قال ذلك خاصة ، وذكروا أن لحنبل غلطات معروفة عند المحققين من العلماء فيكون هذامنها .

قلت : والمتتبع للمنهج الذي مضىٰ عليه الإمام أحمد وللنقول المتواترة الصحيحة التي نقلت عنه يبصر أن ما نسبه إليه بعضهم يناقض أسس منهجه رحمه الله في إنكاره على المتأوِّلة ومسلك التأويل ، وما محنة «خلق القرآن» التي كان هو فارسها المنافح عن الحق إلا أكبر شاهد على ذلك .

وبنحو ذلك ما نسب إلى الإمام مالك من تأويل نزول الله بنزول أمره ، إلا أن في الرواية ـ كما ذكر المحققون ـ حبيب بن أبي حبيب قال فيه أبو داود : (كان من أكذب الناس). وقال فيه ابن عدي : (أحاديثه كلها موضوعة). وقال فيه الإمام أحمد : (ليس بثقة) .

مما يؤكد ضرورة التعامل مع أسانيد تلك النقول بشكل علمي نقدي حتىٰ لا يتمكن مدّع من اختراق صرح العلم ومنهاج الراسخين من العلماء ليفسد على الأمة دينها أو لغاية أخرىٰ يريد الوصول إليها .

قال الحافظ الخطيب[1] رحمه الله تعالىٰ : (أما الكلام في الصفات ، فإن ما روي منها في السنن الصحاح ، مذهب السلف رضوان الله عليهم إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ، ونفي الكيفية والتشبيه عنها. وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله سبحانه . وحققها من المثبتين قوم فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف. والقصد إنما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين ، ودين الله بين الغالي فيه والمقصر عنه .

والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ويحتذي في ذلك حذوه ومثاله . فإذا كان معلوماً أن إثبات رب العالمين عز وجل إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف .

---

(1) هو الحافظ الخطيب البغدادي المؤرخ المشهور «392-463» هـ.

فإذا قلنا: لله تعالى يد، وسمع، وبصر، فإنما هي صفات أثبتها الله تعالى لنفسه، ولا نقول: إن معنىٰ اليد القدرة، ولا إن معنىٰ السمع والبصر العلم، ولا نقول: إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إنما وجب إثباتها لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها لقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

ولما تعلق أهل البدع على عيب أهل النقل برواياتهم هذه الأحاديث ولبسوا على من ضَعُفَ علمهُ بأنهم يروون ما لا يليق بالتوحيد ولا يصح في الدين، ورموهم بكفر أهل التشبيه، وغفلة أهل التعطيل أجيبوا بأن في كتاب الله تعالى آيات محكمات يفهم منها المراد بظاهرها، وآيات متشابهات لا يوقف على معناها إلا بردها إلى المحكم، ويجب تصديق الكل والإيمان بالجميع، فكذلك أخبار الرسول ﷺ جارية هذا المجرىٰ، ومنزلة على هذا التنزيل، يرد المتشابه منها إلى المحكم، ويقبل الجميع.

قال: وتنقسم الأحاديث المروية في الصفات ثلاثة أقسام:

أ ـ منها أخبار ثابتة أجمع أئمة النقل على صحتها، لاستفاضتها وعدالة ناقليها. فيجب قبولها، والإيمان بها، مع حفظ القلب أن يسبق إليه اعتقاد ما يقتضي تشبيهاً لله بخلقه، ووصفه بما لا يليق به من الجوارح والأدوات، والتغير والحركات.

ب ـ القسم الثاني: أخبار ساقطة، بأسانيد واهية، وألفاظ شَنيعة، أجمع أهل العلم بالنقل على بطولها، فهذه لا يجوز الاشتغال بها ولا التعريج عليها.

ج ـ القسم الثالث: أخبار اختلف أهل العلم في أحوال نقلتها، فقبلهم البعض دون الكل، فهذه يجب الاجتهاد والنظر فيها لتلحق بأهل القبول، أو تجعل في حيز الفساد والبطول) انتهىٰ(1). قال الذهبي: (وقد كان الخطيب رحمه الله الدارقطني الثاني، لم يكن ببغداد بعده مثله في معرفة هذا الشأن، توفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة، وأول سماعاته بعد الأربعمائة).

---

(1) مختصر العلو للحافظ الذهبي ـ تحقيق الألباني ص 47-48.

يروي أبو الحسن الدارقطني عن العباس الدوري قال: سمعت أبا عبيد[1]، وذكر الباب الذي يروى فيه حديث الرؤية، والكرسي، وموضع القدمين، وضحك ربنا، وحديث «أين كان ربنا» فقال: (ولكن إذا قيل لنا: كيف وضع قدمه وكيف يضحك؟ قلنا: لا نفسر هذا ولا سمعنا أحداً يفسره).

ذكره الذهبي في مختصر العلو ثم قال: (كان أبو عبيد من أئمة الاجتهاد، رأساً في اللغة، حسبك أن إسحاق بن راهويه قال: الله يحب الإنصاف، أبو عبيد أعلم مني ومن الشافعي ومن أحمد)[2].

وهذا يحيىٰ بن معين سيد الحفاظ (ت 233) كان يقول: (إذا قال لك الجهمي: وكيف ينزل؟ فقل له: كيف صعد؟) ذكره الذهبي عن جعفر بن أبي عثمان الطيالسي ثم قال: (الكيف في الحالتين منفي عن الله تعالى لا مجال للعقل فيه. ويحيىٰ لا يحتاج إلى تعريف، هو حامل راية الحديث، مات بمدينة النبي ﷺ سنة ثلاث وثلاثين ومائتين)[3].

المسألة الرابعة عشرة:

يقول المتأولة: إن قولنا (الله في السماء) معناه أن السماء حاوية له ومحيطة به فيصبح محدوداً، والمحدودية صفة للمخلوقين!! فما الجواب؟

الجواب من وجوه:

1- إن (في) في قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ بمعنىٰ علىٰ، وهذا وجه مشهور في لغة العرب.

قال البيهقي في كتاب الاعتقاد: (﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وأراد مَنْ فَوْقَ السماء كما قال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي على جذوع النخل، وقال أيضاً: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي على الأرض).

قلت: وبنحوه ما جاء في صحيح أبي داود من حديث عبد الله بن عمرو:

---

(1) هو أبو عبيد القاسم بن سلّام (150-224 هـ) ولد هو والشافعي سنة خمسين ومائة.
(2) مختصر العلو ص (185-186).
(3) المرجع السابق ص 188.

[ارحموا من في الأرض ، يرحمكم من في السماء]. ورواه الطبراني بلفظ : [من لم يرحم من في الأرض ، لم يرحمه من في السماء] وسنده صحيح[1].

2- إن السماء في لغة العرب معناها العلو ، فقولنا(الله في السماء) معناه فوق السماء.

3- قال ابن جرير الطبري : (﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ . . . ﴾ هو الله). فهذا فهم شيخ المفسرين.

وقال ابن الجوزي في تفسيره (زاد المسير): (إن ابن عباس قال في هذه الآية أأمنتم عذاب من في السماء وهو الله عز وجل).

وبنحوه ذكر القرطبي في التفسير ، وقال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ : (قد كان السلف الأول رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك ، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطقَ كتابه وأخبرت رسله ، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوىٰ على عرشه حقيقة وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تُعلم حقيقته ، قال مالك: الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة) 220/4.

المسألة الخامسة عشرة:

يقول بعض المؤولين: إن قوله تعالىٰ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ يراد منه فوقية القهر والغلبة والرتبة لا فوقية الذات!! فما الجواب؟

الجواب: إن هذا المعنىٰ المجازي الذي ذكروه محتمل في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾. وهو أقل احتمالاً في قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، لانتفاء الحاجة إلى حشر كلمة فوق في الآية. فالعرب تقول: (صلاح الدين قاهر الصليبيين) ولا تقول: (صلاح الدين قاهر فوق الصليبيين). وأما قوله تعالىٰ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ فالمعنىٰ المجازي مستحيل فيها لأن معنىٰ خوف الملائكة من قوة الله وقهره متحقق تحقيقاً كاملاً في قوله تعالىٰ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم ﴾ ودون الحاجة إلى ذكر الظرف ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ فتعين أن الفوقية هنا فوقية ذات ، فإنه في لغة العرب متىٰ

---

(1) قد مضى تخريجه في بحث العلو.

جاء ذكر الظرف (فوق) مقيداً بحرف الجر (من) فلا يفهم إلا المعنىٰ الحقيقي للظرف دون المعنىٰ المجازي[1]. قال تعالىٰ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 26]. وقال جل ذكره: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: 5]. وقال جل ثناؤه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: 16].

المسألة السادسة عشرة:

قالوا: أليس قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ يدل أنه في كل مكان؟!

الجواب: إنه سبحانه لم يقل: (وهو الله في السماء وهو الله في الأرض) فإن لفظ الإله في لغة العرب لا تعني إلا المعبود والمألوه والمطاع. فيكون المعنىٰ للمتبصر في لغة العرب: (وهو الذي في السماء معبود وفي الأرض معبود). فالملائكة في عبادة مستمرة لا يفترون، وكذلك المؤمنون في الأرض يتقلبون بين أصناف العبادة في كل وقت وحين.

المسألة السابعة عشرة:

قال بعض المتأولين: ثبت عن علي بن أبي طالب قوله: (كان الله ولا مكان، وهو على ما عليه كان)!! فما الجواب؟

الجواب: إن الشطر الأول من هذا القول متفق عليه كتاباً وسنة وإجماعاً وعقلاً.

فقد أخرج البخاري عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال لأهل اليمن: [كان الله على العرش وكان قبل كل شيء، وكتب في اللوح كل شيء يكون].

وفي لفظ: [كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وخلق السماوات والأرض، وكتب في الذِّكر كل شيء][2].

وأما الشطر الثاني فهو مردود لوجوه منها:

---

(1) ومن زعم غير ذلك فليأت بمثال واحد من القرآن أو السنة أو أقوال العرب!!

(2) مختصر البخاري (1287) كتاب بدء الخلق.

1- إن القول برمته لم يصح ولم يثبت في أي من كتب السنة إلا في «مسند الرملي» وقد تسرب إليه هذا القول من كتب الشيعة الإمامية المغالين ، إذ هو موجود بِنَصِّه في كتاب الكليني المليء بالانحرافات والغلو .

2- يذكر الإمام ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ج 6 ، ص 286 ـ تنبيه : (وقع في بعض الكتب في هذا الحديث : «كان الله وهو لا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان» وهي زيادة ليست في شيء من كتب الحديث) .

قلت : والذي ينبغي لكل مسلم أن يؤمن به أن الله تبارك وتعالىٰ فوق العرش لا يخفىٰ عليه شيء . فقد أخرج عبد الله بن الإمام أحمد في السنة وكذلك الطبراني والبيهقي بسند صحيح حديث ابن مسعود قال : (العرش فوق الماء والله فوق العرش لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم)[1] .

وفي صحيح مسلم حديث ابن مسعود في قوله : «بل أحياء عند ربهم يرزقون» قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقالوا : [أرواحهم في أجواف طير خضر تسرح في الجنة في أيها شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك اطلاعة فقال : سلوني ما شئتم][2] .

وأخرج ابن جرير الطبري في التفسير والبيهقي في الصفات بإسناد جيد ـ كما قال الألباني في مختصر العلو ـ عن ناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال : (إن الله تعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع ، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً ، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين ، إلى أن قال : فلما فرغ الله عز وجل من خلق ما أحب ، استوى على العرش)[3] .

وأخرج الدارمي بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت : (وايم الله إني

---

(1) مختصر العلو ص 103 .
(2) مختصر العلو ص 106 .
(3) مختصر العلو ص 105 .

لأخشىٰ لو كنت أحب قتله لقتلت ـ يعني ـ عثمان رضي الله عنه ـ ولكن علم الله فوق عرشه أني لم أحب قتله)[1].

وأخرج أبو أحمد العسال بإسناد صحيح عن ابن مسعود أنه قال: (من قال: سبحان الله والحمد لله والله أكبر، تلقاهن ملك فعرج بهن إلى الله عز وجل فلا يمر بملأ من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتىٰ يحيى بهن وجه الرحمن عز وجل)[2].

وأخرج اللالكائي بإسناد صحيح كما قال ابن القيم والألباني حديث ابن مسعود قال: (إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتىٰ إذا تيسر له نظر الله إليه من فوق سبع سماوات فيقول للملائكة: اصرفوه عنه فإنه إن يسرته له أدخلته النار)[3].

المسألة الثامنة عشرة:

هل العرش فوق الكرسي أم الكرسي فوق العرش؟ فإن كانت الأخيرة فكيف التوفيق مع قوله ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؟

الجواب: ليس فوق العرش إلا الله سبحانه، فلا مخلوق فوق العرش، فهو نهاية المخلوقات، وفوقه الخالق عز وجل. قال جل ثناؤه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ أي ارتفع.

وقد أخرج ابن خزيمة في التوحيد وعبد الله بن أحمد في السنة بسند صحيح عن ابن عباس قال: [الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره][4].

فإذا كان يوم القيامة نزل الرب إلى العباد ليقضي بينهم كما روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إذا كان يوم القيامة نزل الرب إلى العباد][5].

---

(1) المرجع السابق ص 104.
(2) المرجع السابق.
(3) المرجع السابق.
(4) صحيح موقوف. أخرجه ابن خزيمة في التوحيد ص (71-72) وعبد الله بن أحمد في «السنة» ص 71، وانظر مختصر العلو ص 102.
(5) الترمذي (61/2) وصححه الألباني. انظر مختصر العلو ص 110.

وقد أورد الإمام الذهبي في العلو حديثاً أخرجه ابن حبان وبنحوه البيهقي وقال الذهبي إسناده صالح عن جابر قال: [لما رجعت مهاجرات البحر إلى رسول الله ﷺ قال: ألا تحدثون بأعجب شيء رأيتم بأرض الحبشة؟ فقال فتية منهم: يا رسول الله بينا نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائزهم تحمل قلة من ماء، فمرت بفتىً منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها على ركبتها، فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت التفتت فقالت: سوف تعلم يا غُدر إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، أتعلم أمري وأمرك عنده غداً. فقال رسول الله ﷺ: صدقت، كيف يقدس الله قوماً لا يؤخذ لضعيفهم من قويهم؟][1].

وروىٰ عبد الله بن أحمد في السنة بسند صحيح عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: [يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي، ثم ينادي مناد: أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورَزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً أن يولي كل ناس ما كان يتولى ويعبد في الدنيا؟ أليس ذلك عدلاً من ربكم؟ قالوا: بلىٰ فينطلقون، فيتمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون، فمنهم من ينطلق إلى الشمس، ومنهم من ينطلق إلى القمر، وإلى الأوثان، ويتمثل لمن كان يعبد عيسىٰ شيطان عيسىٰ، ولمن كان يعبد عزيزاً شيطان عزيز، ويبقىٰ محمد وأمته، فيتمثل الرب عز وجل لهم فيأتيهم فيقول: مالكم لا تنطلقون كما انطلق الناس؟ فيقولون: بيننا وبينه علامة فإذا رأيناه عرفناه، فيقول: ما هي؟ فيقولون: يكشف عن ساق. فعند ذلك يكشف عن ساقه فيخرون، ويبقىٰ قوم ظهورهم كصياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون ثم يقول: ارفعوا رؤوسكم، فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم، والرب عز وجل أمامهم] وصححه الألباني. انظر مختصر العلو ص 111.

وأخرج البيهقي في «الأسماء والصفات» حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال:

---

(1) ويبدو أن الحديث له شواهد فيستشهد به كما أفاد العلامة الألباني رحمه الله. انظر مختصر العلو ص 107.

(الكرسي موضع القدمين[1] ، وله أطيط[2] كأطيط الرحل) وهو موقوف صحيح ورواه عبد الله في السنة كما قال الألباني رحمه الله .

المسألة التاسعة عشرة :

قالوا إن الرفع المذكور بقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يراد منه رفع المكانة لا جهة الرفع ! ! فما الجواب؟

الجواب : لو كان صحيحاً كما يقولون لما قال تعالى «إليّ» ولا كتفى بقوله : «ورافعك»فهذا مقتضىٰ البيان في لغة العرب ، فإن قالوا إن عيسىٰ لم يتعدّ أربع سماوات والله فوق السماء السابعة قلنا : إن لفظة إليه تعني الجهة أي جهة الرفع ولا تعني مكان الوصول إذ أن الله عز وجل لا يمكن أن يصل إلى علوه مخلوق .

قال الإمام الطبري ـ شيخ المفسرين ـ : (رفعه الله إليه فهو عنده في السماء) .

وقال الإمام الذهبي رحمه الله : (ومما يدل على أن الباري تبارك وتعالى عالٍ على الأشياء فوق عرشه المجيد ، غير حالٌّ في الأمكنة ، قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ وقوله : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ وقوله : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ . وقد أمرنا نبينا ﷺ أن نقول إذا سجدنا : «سبحان ربي الأعلى» . وقال تعالى في وصف الشهداء : ﴿ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ . وقالت امرأة فرعون : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾) مختصر العلو ص 122 .

قال الألباني : (فهذا هو المؤلف ـ يعني الإمام الذهبي في مختصر العلو ـ وهو من كبار أئمتهم يصرح بتنزيهه تعالى عن الحلول في الأمكنة كلها . وما يحمل أولئك الجماهير على ذلك إلا توهمهم ، أن الإيمان بعلوه عز وجل على خلقه ، يستلزم أن يكون حالاً في مكان ، قالوا : وهذا باطل ، وما لزم منه باطل فهو باطل ، وجهلوا أو تجاهلوا أن المكان أمر وجودي ، وأنه ليس فوق العرش وجود حادث ، وبالتالي

---

(1) لقد وقع في كتابي منهج الوحيين في بناء النفس ص 17 عبارة (وهو العرش وفوقه كرسي الرحمن عز وجل) والتصويب (وتحته كرسي الرحمن عز وجل) فتنبه .

(2) قال الذهبي : (وليس للأطيط مدخل في الصفات أبداً ، بل هو كاهتزاز العرش لموت سعد وكتفطر السماء يوم القيامة) . مختصر العلو ص (124) .

فليس ثمة مكان إطلاقاً ، فالله تبارك وتعالىٰ فوق عرشه ، وليس في مكان أصلاً .

ومن العجيب أن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بعد بعلوه عز وجل على عرشه فراراً من الإيمان بالمكان المزعوم ، قد وقعوا على أم رأسهم في الإيمان بأن الله في الأمكنة حقيقة ، وذلك بقولهم : الله موجود في كل مكان . أو الله موجود في كل الوجود! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وأعجب من ذلك أن بعضهم تنبه لما في هذا القول من تشبيه الله عز وجل بمخلوقاته الحالة في الأمكنة ، فأرادوا تنزيهه عن ذلك فوقعوا فيما هو شر منه ألا وهو التعطيل المطلق المستلزم نفي وجوده تعالى أصلاً! فقالوا : (الله ليس فوق ، ولا تحت ، ولا يمين ، ولا يسار ، ولا أمام ، ولا خلف ، لا داخل العالم ، ولا خارجه ، لا متصلاً به ، ولا منفصلاً عنه) . ثم قال : (وإني لأحلف بالله تعالى لو قيل لأبلغ الناس وأفصحهم : صف لنا العدم ، لما استطاع أن يصفه بأكثر من هذا) مختصر العلو ص 122 .

المسألة العشرون :

قيل : إن التنزيل والنزول الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ وغيره يعني المجاز دون الحقيقة ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ ! ! فما الجواب؟

الجواب : إن آيات النزول والتنزيل من الله كثيرة جداً كقوله جل ثناؤه :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة : 67] .

وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 44] .

وقوله : ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : 1-2] .

والنزول لا يكون إلا من علو إلى أسفل ، مع ملاحظة اقتران حرف الجر «من» في قوله «من ربك» الدال على النزول الحقيقي ، وأما شبهتهم في أن الحديد يستخرج من الأرض وقد قال الله ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ فإن العلم الحديث أثبت نزول

الحديد من السماء نزولاً حقيقياً. وتبقىٰ شبهتهم في قوله تعالىٰ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ فإن المفسرين قد ذكروا أن الله تعالى خلقها في الجنة ثم أنزلها كما جاء في فتح القدير للشوكاني وغيره من التفاسير.

وفي سنن الدارمي ورجاله ثقات عن ابن عباس قال: (إذا نزل الوحي سمعت الملائكة صوتاً كصوت الحديد). قال الألباني: ورواه أبو الشيخ في العظمة من طريق آخر مرفوعاً نحوه[1].

وفي الأثر عن عبد الله بن عمرو قال: (العرش مطوق بحية والوحي ينزل في السلاسل)[2].

وكذلك قوله: (الحرام حرام إلى العرش).

ومثله نزول الرب عز وجل يوم القيامة كما صحّ عن ابن عباس: (ينادي منادٍ بين يدي الساعة: أتتكم الساعة ـ فيسمعه الأحياء والأموات ـ ثم ينزل الله إلى السماء الدنيا) رواه ابن المبارك[3].

المسألة الحادية والعشرون:

بعض الناس يقولون: كيف نشير إلى الله في السماء والأرض كروية، فما كان فوقنا هو بالنسبة لآخرين على سطح الأرض أسفل منهم؟! فما الجواب؟

الجواب: إن من أفضل ما قيل في الرد على هذه الشبهة هو ما حكاه الإمام أبو محمد الجويني في آخر رسالة «الاستواء والفوقية» في تقريب هذه المسألة إلى الأفهام بمعنىٰ من علم الهيئة والفلك لمن عرفه، قال: (لا ريب أن أهل العلم حكموا بما اقتضته الهندسة، وحكمها صحيح لأنه ببرهان، لا يكابر الحسّ فيه بأن الأرض في جوف العالم العلوي، وأن كرة الأرض في وسط السماء كبطيخة في جوف بطيخة، والسماء محيطة بها من جميع جوانبها، وأن سفل العالم هو جوف كرة الأرض، وهو المركز، وهو منتهىٰ السفل والتحت، وما دونه لا يسمىٰ

---

(1) مختصر العلو ص 126.

(2) ذكره الذهبي، وإسناده حسن كما قال الألباني. مختصر العلو ص 126.

(3) ورواته ثقات كما صرح الذهبي في مختصر العلو ص126، ووافقه الألباني.

تحتاً ، بل لا يكون تحتاً ويكون فوقاً ، بحيث لو فرضنا خرق المركز وهو سفل العالم إلى تلك الجهة لكان الخرق إلى جهة فوق ، ولو نفذ الخرق جهة السماء من تلك الجهة الأخرىٰ لصعد إلى جهة فوق[1].

وبرهان ذلك أنا لو فرضنا مسافراً سافر على كرة الأرض من جهة المشرق إلى جهة المغرب ، وامتد مسافراً لمشىٰ مسافراً على الكرة إلى حيث ابتدأ بالسير ، وقطع الكرة مما يراه الناظر أسفل منه ، وهو في سفره هذا لم يبرح الأرض تحته ، والسماء فوقه ، فالسماء التي يشهدها الحسّ تحت الأرض هي فوق الأرض ، لا تحتها ، لأن السماء فوق الأرض بالذات ، فكيف كانت السماء كانت فوق الأرض من أي جهة فرضتها .

قال : وإذا كان هذا جسم ـ وهو السماء ـ علوها على الأرض بالذات فكيف من ليس كمثله شيء وعلوه على كل شيء بالذات كما قال تعالى : ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ وقد تكرر في القرآن المجيد ذكر الفوقية ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ . . . لأن فوقيته سبحانه وعلوه على كل شيء ذاتي له ، فهو العلي بالذات ، والعلو صفته اللائقة به ، كما أن السفول والرسوب والانحطاط ذاتي للأكوان عن رتبة ربوبيته وعظمته وعلوه . والعلو والسفول حد بين الخالق والمخلوق ، يتميز به عنه ، هو سبحانه علي بالذات، وهو كما كان قبل خلق الأكوان ، وما سواه مستقل عنه بالذات ، وهو سبحانه العلي على عرشه ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج الأمر إليه)[2].

المسألة الثانية والعشرون :

استدلوا بقوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ أنه تعالى في كل مكان ! ! فما الجواب؟

الجواب : قال شيخ المفسرين في تفسير هذه الآية : (وهو الظاهر على كل شيء دونه وهو العالي فوق كل شيء ، ولا شيء أعلى منه) . ومعنىٰ الظاهر في اللغة

(1) وبنحو ذلك ذكر شيخ الإسلام في الرسالة «العرشية» .
(2) جزء من كلام طويل مفيد . انظر مختصر العلو ص 73-76 .

العالي المرتفع كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوه أو يصعدوا فوقه.

قال البيهقي: (استدل بعض أصحابنا في نفي المكان عنه بقول النبي ﷺ: أنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء).

وهذا الاستدلال(1) ـ كما ذكر بعض أهل العلم ـ لا يصح من عدة وجوه:

1- قال ابن جرير الطبري في معنىٰ الباطن: (وهو الباطن لجميع الأشياء فلا شيء أقرب منه، وإنما قربه بعلمه وهو فوق عرشه).

وقال مقاتل بن حيان: (الباطن بمعنىٰ المعية).

2- إن معنىٰ الباطن الذي ليس دونه شيء أي الذي ليس يدانيه من خلقه شيء، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ . . .﴾ عقب ذكره للمسافات الشاسعة التي تفصل بين السماوات وبينها وبين الكرسي وقال ﷺ في آخر الحديث: [والله تعالى فوق العرش ولا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم]. ويريد بهذا أن يوضح أن الله عز وجل مع بعد هذه المسافات الزمنية وطولها لا يمكن أن يدانيه شيء من مخلوقاته.

3- عقب سبحانه وتعالى في الآية نفسها بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ليؤكد على ما بينته الأحاديث الشريفة من معنىٰ الباطن الذي ليس دونه شيء، أي على الرغم مما ورد من بعد المكان، المكان بين الله وخلقه، فالله سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فائدة: قد جاء الشرع باسمه «الأول» سبحانه وهو أحسن من «القديم» الذي أدخله المتكلمون في أسماء الله تعالىٰ وليس هو من أسمائه الحسنىٰ، فالقديم بلغة العرب هو المتقدم على غيره، فيقال هذا قديم للعتيق وهذا حديث للجديد، ولم يستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره لا فيما لم يسبقه عدم، كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾، والعرجون القديم هو الذي يبقىٰ إلى حين وجود العرجون الثاني فإذا وجد الجديد قيل للأول قديم.

---

(1) أي الاستدلال الوارد في نص المسألة.

وكقوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي متقدم في الزمان.

وكقوله جل ثناؤه: «﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي يتقدمهم إليها.

والتقدم في اللغة مطلق ـ كما ذكر أهل العلم ـ لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها، فلا يكون من الأسماء الحسنىٰ. وقد جاء الشرع باسمه «الأول» لأنه يشعر أن ما بعده آيل إليه، وتابع له بخلاف القديم، والله تعالى له الأسماء الحسنى لا الحسنة، تعالى عما ينسبه له الجاهلون علواً كبيراً.

المسألة الثالثة والعشرون:

لو نثبت نزول الله كل ليلة إلى السماء الدنيا أفلا يترتب على ذلك بقاء السماوات والعرش فترة النزول أعلى من الخالق؟!!

الجواب والله المستعان: نحن نعلم نـزول المخلوق ونجهل نزول الخالـق عز وجل، ونعلم أن نزول المخلوق من مكان إلى مكان يعني خلو المكان الأول منه، ولكن هذا لا يليق بالله المهيمن القهار، فإنه ليس لنزوله سبحانه شبيه ومثل، فلو نزل وخلا العرش منه لكان العرش المخلوق أثناء نزول الخالق فوقه، تعالى الله عما يظن الجاهلون به علواً كبيراً. فإن من أسمائه المهيمن، فلا يكون المخلوق فوق الخالق بحال من الأحوال، فنثبت لله سبحانه نزولاً لا يخلو منه العرش بل يبقىٰ سبحانه مستوياً على العرش في كل وقت وحين.

يروي الحاكم بإسناد صحيح عن أحمد بن سلمة قال: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: (جمعني وهذا المبتدع ـ يعني إبراهيم بن أبي صالح[1] ـ مجلس الأمير عبد الله بن طاهر، فسألني الأمير عن أخبار النزول فسردتها، فقال ابن أبي صالح: كفرتُ برب ينزل من سماء إلى سماء. فقلت: آمنت برب يفعل ما يشاء).

(1) قال الإمام مسلم فيه: (جهمي لا يكتب حديثه). وقال الحافظ في اللسان: (وقد كذبه إسحاق بن راهويه في مجلس عبد الله بن طاهر) ذكره الألباني في مختصر العلو وقال عن الإسناد إنه في غاية الصحة. فإن أحمد بن سلمة هو الحافظ أبو الفضل النيسابوري رفيق مسلم في الرحلة كان حافظاً ماهراً مات 286 هـ.

وأخرج البيهقي وغيره بسند صحيح عن إسحاق قال: (دخلت على ابن طاهر فقال: ما هذه الأحاديث؟ تروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا؟ قلت: نعم، رواها الثقات الذين يروون الأحكام، فقال: ينزل ويدع عرشه؟ فقلت: يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش؟ قال: نعم. قلت: فلم تتكلم في هذا؟).

قال الألباني رحمه الله: (وهذا الذي أشار إليه إسحاق هو المأثور عن سلف الأمة وأئمتها، أنه تعالى لا يزال فوق العرش، ولا يخلو العرش منه، مع دنوه ونزوله إلى السماء. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهو الصواب) مختصر العلو ص 192 - 193.

وقد ذكر الذهبي أثراً آخر عن أحمد بن سعيد الرباطي[1] قال: (حضرت مجلس ابن طاهر وحضر إسحاق، فسئل عن حديث النزول أصحيح هو؟ قال: نعم، فقال له بعض القواد: كيف ينزل؟ فقال: أثبته حتى أصف لك النزول! فقال الرجل: أثبته فوق، فقال إسحاق: قال الله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ فقال ابن طاهر: هذا يا أبا يعقوب يوم القيامة. فقال: ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم؟) وصححه الألباني[2].

ثم ساق أثراً عن إسحاق بن راهويه: (قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ إجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوىٰ، ويعلم كل شيء في أسفل الأرض السابعة). ثم قال الذهبي رحمه الله: (اسمع ويحك إلى هذا الإمام كيف نقل الإجماع على هذه المسألة الشريفة كما نقله في زمانه قتيبة المذكور)[3].

وهذا أبو جعفر الترمذي الفقيه[4] ـ واسمه محمد بن أحمد بن نصر، وهو ثقة فاضل، شافعي المذهب ـ كما يذكر الذهبي بسند جيد عن أبي الطيب أحمد والد أبي حفص بن شاهين قال: (حضرت عند أبي جعفر الترمذي فسأله سائل عن

---

(1) ثقة من شيوخ البخاري مات 246 هـ.
(2) مختصر العلو ص 193.
(3) المرجع السابق ص 194.
(4) فقيه بغداد وعالمها في زمانه (201-295 هـ). والرواية ذكرها الذهبي كما في مختصر العلو ص 231.

حديث نزول الرب ، فالنزول كيف هو يبقى فوقه علو؟ فقال: النزول معقول ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة) مختصر العلو.

ثم قال الذهبي: (قلت: صدق فقيه بغداد وعالمها في زمانه ، إذ السؤال عن النزول ما هو؟ عيّ ، لأنه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة في اللغة ، وإلا فالنزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جلية واضحة للسامع ، فإذا اتصف بها من ليس كمثله شيء ، فالصفة تابعة للموصوف ، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر.

وكان هذا الترمذي من بحور العلم ومن العباد الورعين. مات سنة خمس وتسعين ومائتين)[1].

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية: (ومن ظن من الجهال أنه بنزوله سبحانه إلى سماء الدنيا يكون العرش فوقه ويكون محصوراً بين طبقتين من العالم فمخالف لإجماع السلف بل للكتاب والسنة ، فالكيف لا نعلمه ، قال أبو حنيفة: «ينزل بلا كيف»).

المسألة الرابعة والعشرون:

يزعم بعضهم أن قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ يعني استولىٰ!؟ فما الجواب؟

الجواب: في لغة العرب استوىٰ الرجل على ظهر دابته أي استقر. واستوىٰ إلى السماء قصد.

وهذا أبو عبد الله ابن الأعرابي لغوي زمانه (151-231 هـ) كما يروي اللالكائي والخطيب عن ابن النضر قال: (كان أبو عبد الله الأعرابي جارنا ، وكان ليله أحسن ليل ، وذكر لنا أن ابن أبي دؤاد[2] سأله: أتعرف في اللغة استوى بمعنىٰ استولىٰ؟ فقال: لا أعرفه) وحسنه الألباني في مختصر العلو (240).

---

(1) المرجع السابق.

(2) هو أحمد بن أبي دؤاد القاضي الجهمي المشهور الذي تسبب بامتحان العلماء كأحمد بن حنبل وغيره بالضرب والهوان على القول بخلق القرآن. مات سنة 240هـ شر موتة.

قال جهم بن صفوان: (وددت أني أحُكّ من المصحف قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾) شرح الطحاوية.

وعن نفطويه: حدثنا داود بن علي قال: كنا عند ابن الأعرابي، فأتاه رجل فقال: (يا أبا عبد الله، ما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾؟ قال: هو على عرشه كما أخبر، فقال الرجل: ليس كذلك، إنما معناه استولىٰ، فقال: اسكت، ما يدريك ما هذا؟ العرب لا تقول للرجل استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضاد، فأيهما غلب، قيل: استولىٰ، والله تعالى لا مضاد له، وهو على عرشه كما أخبر) وصححه الألباني.

قلت: والاستيلاء يكون بعد ضعف ومغالبة، فلا يحصل إلا بعد تجاوز ذلك، وهذا لا يليق بالله القوي العزيز الجبار المتكبر القهار.

قال الألباني: (ونفطويه، هو إبراهيم بن محمد بن عرفة أبو عبد الله العتكي النحوي المشهور، وهو صدوق لابأس به، توفي سنة 323 هـ) مختصر العلو (241).

قلت: وقد بوّب الإمام البخاري في آخر الصحيح في كتاب «الرد على الجهمية» فقال: (باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قال أبو العالية: استوىٰ إلى السماء: ارتفع).

وقال مجاهد في «استوى»: علا على العرش، وبه قال شيخ المفسرين ابن جرير رحمه الله. وحدّث محمد بن إبراهيم الأصبهاني عن أبي زرعة الرازي[1] ـ وسئل عن تفسير ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾؟ فغضب وقال: (تفسيره كما تقرأ، هو على عرشه، وعلمه في كل مكان، من قال غير هذا فعليه لعنة الله) ذكره الذهبي ثم قال: (كان ـ يعني أبا زرعة ـ رأساً في العلم والعمل، ومناقبه جمة، مات سنة أربع وستين ومائتين. حدث عنه مسلم في صحيحه)[2].

---

(1) هو إمام أهل الحديث في زمانه. قال فيه الإمام أحمد: (ما عبر جسر بغداد أحفظ من أبي زرعة، وكان من الأبدال تحفظ بهم الأرض ـ يعني بدعائهم وإخلاصهم ـ وقال: يحفظ هذا الشاب سبعمائة ألف حديث) مختصر العلو.

(2) مختصر العلو (252) ص 203.

وذكر الإمام ابن قتيبة الدينوري صاحب التصانيف في كتابه «مختلف الحديث»: (ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرتهم وما ركبت عليه ذواتهم من معرفة الخالق، لعلموا أن الله عز وجل هو العلي، وهو الأعلى، وأن الأيدي ترفع بالدعاء إليه، والأمم كلها عجمها وعربها تقول: إن الله في السماء ما تركت على فطرها)(1).

وقال الإمام أبو الحسن علي بن مهدي الطبري تلميذ الأشعري في كتاب «مشكل الآيات» له في باب قوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾: (اعلم أن الله في السماء فوق كل شيء، مستو على عرشه، بمعنىٰ أنه عال عليه، ومعنى الاستواء: الاعتلاء، كما يقول العرب: استويت على ظهر الدابة، واستويت على السطح، بمعنى علوته، واستوت الشمس على رأسي، واستوى الطائر على قمة رأسي، بمعنى علا في الجو فوجد فوق رأسي. والله جل جلاله عال على عرشه، يدلك على أنه في السماء عال على عرشه قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾. وزعم البلخي أن استواء الله على العرش هو الاستيلاء عليه، مأخوذ من قول العرب: استوىٰ بشر على العراق، أي: استولى عليها، وقال: إن العرش يكون الملك، فيقال له: ما أنكرت أن يكون عرش الرحمن جسماً خلقه، وأمر ملائكته بحمله، قال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ وأمية يقول:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسىٰ كبيراً

بالبناء الأعلى الذي سبق الناس ... وسوّىٰ فوق السماء سريراً

قال: ومما يدل على أن الاستواء ههنا ليس بالاستيلاء، أنه لو كان كذلك لم يكن ينبغي أن يخص العرش بالاستيلاء عليه دون سائر خلقه، إذ هو مستولٍ على العرش وعلى الخلق، ليس للعرش مزية على ما وصفته، فبان بذلك فساد قوله.

ثم يقال له أيضاً: إن الاستواء ليس هو الاستيلاء الذي هو من قول العرب:

استوى فلان على كذا، أي: استولىٰ، إذا تمكن منه بعد أن لم يكن متمكناً، فلما كان الباري عز وجل لا يوصف بالتمكن بعد أن لم يكن متمكناً، لم يُصرف

---

(1) المرجع السابق 263 ص 216.

معنىٰ الاستواء إلى الاستيلاء. ثم قال: فإن قيل: فما تقولون في قوله ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؟ قيل له: معنىٰ ذلك أنه فوق السماء على العرش كما قال: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بمعنىٰ على الأرض، وقال: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ فكذلك ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾. فإن قيل: فما تقولون في قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ قيل له: إن بعض القراء يجعل الوقف في «السماوات» ثم يبتديء ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ﴾ وكيفما كان، فلو أن قائلاً قال: فلان بالشام والعراق ملك، لدل على أن ملكه بالشام والعراق، لا أن ذاته فيهما ـ إلى أن قال: ـ وإنما أمرنا الله برفع أيدينا قاصدين إليه برفعهما نحو العرش الذي هو مستو عليه) مختصر العلو للذهبي (305).

وقال الإمام الزاهد أبو عبد الله بن بطة العكبري شيخ الحنابلة «304-387 هـ» في كتاب «الإبانة» من جمعه وهو ثلاث مجلدات: (وأما قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معناه أنه هو الله في السماوات وهو الله في الأرض «إله» وتصديقه في كتاب الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞ﴾ واحتج الجهمي بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ فقال: إن الله معنا وفينا، وقد فسّر العلماء أن ذلك علمه، ثم قال تعالىٰ في آخرها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾).

ذكره الذهبي في مختصر العلو وقال: (ثم إن ابن بطة سرد بأسانيده أقوال من قال: إنه علمه، وهم الضحاك والثوري ونعيم بن حماد، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه. قال: وكان ابن بطة من كبار الأئمة، ذا زهد وفقه، وسنة واتباع، وتكلموا في إتقانه، وهو صدوق في نفسه، سمع من البغوي وطبقته، وتوفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة)[1].

وقال العلامة أبو أحمد القصاب[2] في عقيدته التي ألفها، فكتبها الخليفة القادر بالله وجمع الناس عليها، وذلك في صدر المائة الخامسة، وفي آخر أيام الإمام أبي حامد الإسفراييني شيخ الشافعية ببغداد، وأمر باستتابة من خرج عنها من

(1) مختصر العلو 307 ص (252-253).

(2) هو أبو أحمد الكرَجي من كرَج، مدينة بين أصبهان وهمذان، توفي نحو 400 هـ، واسمه محمد بن علي بن محمد المجاهد، وعرف بـ (القصاب) لكثرة ما أهدق من دماء الكفار في الغزوات.

معتزلي ورافضي وخارجي ، فمما قال فيها : (كان ربنا عز وجل وحده لا شيء معه ، ولا مكان يحويه ، فخلق كل شيء بقدرته ، وخلق العرش لا لحاجة إليه ، فاستوى عليه استواء استقرار كيف شاء وأراد ، لا استقرار راحة كما يستريح الخلق) .

ذكره الذهبي في مختصر العلو ثم قال : (قلت : ليته حذف «استواء استقرار» وما بعده ، فإن ذلك لا فائدة فيه بوجه ، والباري منزه عن الراحة والتعب)[1] .

المسألة الخامسة والعشرون :

كيف يوصف الله سبحانه ببعض الصفات وقد وصف بها بعض خلقه كالحي والعزيز في قوله : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ وفي قوله : ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾؟!!

الجواب : قال الله في سورة الشورىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

قال الإمام الطحاوي : (إن الله واحد لا شريك له ولا شيء مثله ، ولا شيء يعجزه ، ولا إله غيره ، قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء ، لا يفنىٰ ولا يبيد ، ولا يكون إلا ما يريد . لا تبلغه الأوهام ، ولا تدركه الأفهام ، ولا يشبه الأنام ، حي لا يموت ، قيوم لا ينام)[2] .

فقوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ ردّ على المشبهة ، وردٌّ على النفاة المعطلة ، فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل ، وذهب بعضهم إلى أنه لا يثبت لله شيء من الصفات ، فلا يقال : له قدرة ، ولا علم ، ولا حياة لأن العبد موصوف بها ، ولازم هذا أن لا يقال له : حي ، عليم ، قدير ، لأن العبد يسمىٰ بها ، وكذلك كلامه وسمعه وبصره وإرادته . وهم يوافقون أهل السنة أنه موجود عليم قدير حي .

فيقال لهم : إن المخلوق يقال له : موجود حي عليم قدير ، ولا يقال هذا تشبيه[3] يجب نفيه . فالله سبحانه قد سمىٰ نفسه بأسماء وسمّىٰ بعض عباده بها ،

---

(1) مختصر العلو 315 ص 259 .

(2) متن العقيدة الطحاوية (1-10) .

(3) التشبيه نوعان كما ذكر أهل العلم :

أ ـ تشبيه الخالق بالمخلوق : وهذا يتعب أهل الكلام برده وإبطاله . =

وكذلك صفاته. فسمّى نفسه حيّاً عليماً قديراً رؤوفاً رحيماً عزيزاً حكيماً سميعاً بصيراً، ملكاً، مؤمناً، جباراً، متكبراً. وسمىٰ بعض عباده بهذه الأسماء فقال:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: 95].

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: 28].

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: 101].

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف: 51].

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: 79].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35].

ومعلوم أنه لا يماثل الحيُّ الحيَّ، ولا العليم العليم، ولا العزيزُ العزيزَ. قال تعالىٰ:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: 255].

﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: 166].

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: 11].

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: 15].

وفي صحيح البخاري من حديث جابر ـ حديث الاستخارة ـ وفيه: [اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. .] الحديث(1).

= ب ـ تشبيه المخلوق بالخالق: وهذا أخطر وأهله أكثر (كعباد المشايخ، وعزير، والشمس، والقمر والأصنام، والملائكة والنار والماء والعجل، والقبور، والجن. . .) وهؤلاء هم أرسلت لهم الرسل يدعونهم لعبادة الله وحده.

(1) قد مضىٰ بتمامه.

المسألة السادسة والعشرون:

هل الاسم يراد به المسمّى تارة ويراد به اللفظ الدال عليه أخرىٰ؟!

الجواب: قولنا: قال الله كذا، سمع الله لمن حمده، المراد به المسمّى نفسه.

وأما قولنا: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، والرحيم من أسماء الله، فالاسم هاهنا هو المراد لا المسمّى.

فلو أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنىٰ فحق. وأما إن أريد أن الله كان ولا اسم له حتىٰ خلق لنفسه أسماء أو حتىٰ سّماه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد.

وأصل هذا الكلام من الجهمية. قالوا: إن دوام الحوادث ممتنع، وإنه يجب أن يكون للحوادث مبدأ، لامتناع حوادث لا أول لها، فيمتنع بزعمهم أن يكون الباري عز وجل لم يزل فاعلا متكلماً بمشيئة، أو قادراً على ذلك لأن القدرة على الممتنع ممتنعة. وهذا يقتضي امتناع حدوث العالم وهو حادث!! والحادث إذا حدث بعد أن لم يكن محدثاً فلابد أن يكون ممكناً، والإمكان ليس له وقت محدود، ومن ثمّ فيلزم أنه لم يزل الرب سبحانه قادراً فاعلاً متكلماً رغم أنف الجهال بصفاته، ويلزم جواز حوادث لا نهاية لأولها.

والحاصل أن نوع الحوادث هل يمكن دوامها في المستقبل والماضي أم لا؟ أو في المستقبل فقط، أو في الماضي فقط؟

فيه ثلاثة أقوال كما ذكر أهل العلم:

1- أضعفها: لا يمكن دوامها لا في الماضي ولا في المستقبل. (وهو قول: جهم بن صفوان، وأبو الهُديل العلاف).

2- يمكن دوامها في المستقبل دون الماضي: (وهو قول كثير من أهل الكلام ومن وافقهم من الفقهاء).

3- يمكن دوامها في الماضي والمستقبل: (وهو قول أئمة الحديث).

وهذه المسألة من المسائل الكبار، ولم يقل أحد يمكن دوامها في الماضي دون المستقبل.

وأما الرسل وأتباعهم: كل ما سوى الله مخلوق كائن بعد أن لم يكن ، فإنه معلوم بالفطرة أن كون المفعول مقارناً لفاعله لم يزل ولا يزال معه ممتنع محال. ولما كان تسلسل الحوادث في المستقبل لا يمنع أن يكون الرب سبحانه هو الآخر الذي ليس بعده شيء ، فكذا تسلسل الحوادث في الماضي لا يمنع أن يكون سبحانه هو الأول الذي ليس قبله شيء. فالرب سبحانه لم يزل ولا يزال يفعل ما يشاء ويتكلم إذا يشاء. وفي التنزيل:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 40].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253].

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 15-16].

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: 27].

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109].

فالرب سبحانه لم يكن في وقت قط معطّلاً عن كماله ، من الكلام والإرادة والفعل.

فالتسلسل ـ كما أفاد شارح الطحاوية ـ ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن:

أ ـ التسلسل الواجب: وهو ما دل عليه العقل والشرع من دوام أفعال الرب تعالىٰ في الأبد ، وأنه كلما انقضىٰ لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيماً آخر لا نفاد له ، وكذلك التسلسل في أفعاله سبحانه من طرف الأزل ، وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر ، فهذا واجب في كلامه سبحانه ، فإنه لم يزل متكلماً إذا شاء ، ولم تحدث له صفة الكلام في وقت ، وهكذا أفعاله التي هي من لوازم حياته جل ثناؤه ، فالفرق بين الحي والميت: الفعل ، فلم يكن ربنا تعالى قط في وقت من الأوقات معطلاً عن كماله ، من الكلام والإرادة والفعل.

ب ـ التسلسل الممكن: فالتسلسل في مفعولاته من هذا الطرف كما تتسلسل في طرف الأبد ، فإنه لم يزل حياً قادراً مريداً متكلماً ، فالفعل ممكن له بموجب هذه

الصفات له ، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل ، وهذا لا يقتضي أنه لم يزل الخلق معه . فإنه سبحانه متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدماً لا أول له ، فلكل مخلوق أول ، والخالق سبحانه لا أول له ، فهو وحده الخالق ، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن .

جـ ـ التسلسل الممتنع : فالتسلسل في المؤثرين محال ممتنع لذاته ، وهو أن يكون مؤثرون كل واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية .

وخلاصة القول : إن ما دل عليه الشرع والعقل أن كل ما سوى الله محدث كائن بعد أن لم يكن ، وأما كون الرب تعالى لم يزل معطّلاً عن الفعل ثم فعل ، فليس من الشرع ولا العقل ما يثبته ، بل كلاهما يدل على نقيضه .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي في عقيدته التي كتبها : (خالق بلا حاجة ، رازق بلا مؤنة . مميت بلا مخافة ، باعث بلا مشقة ، ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري ، له معنىٰ الربوبية ولا مربوب ، ومعنىٰ الخالقية ولا مخلوق ، وكما أنه محيي الموتىٰ بعدما أحياهم ، استحق هذا الاسم قبل إحيائهم ، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم . ذلك بأنه على كل شيء قدير ، وكل شيء إليه فقير ، وكل أمر عليه يسير ، لا يحتاج إلى شيء ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾)[1] .

وقال أيضاً : (ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه ، لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته ، وكما كان بصفاته أزلياً ، كذلك لا يزال عليها أبدياً)[2] .

المسألة السابعة والعشرون :

بعض الناس يقولون : إن قولنا بأن الله يتكلم يلزم منه التشبيه والتجسيم ! !

فما الجواب؟

الجواب : افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال :

---

(1) متن العقيدة الطحاوية (11 - 17) .

(2) المرجع السابق (فقرة 13) .

1- أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معان إما من العقل الفعال أو غيره (الصائبة والمتفلسفة).

2- أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه (المعتزلة).

3- أنه معنىٰ واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة (ابن كلاب، والأشعري).

4- أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل (طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث).

5- أنه حروف وأصوات لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً (الكرامية).

6- أن كلامه يرجع إلى ما يُحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته (الرازي).

7- أن كلامه يتضمن معنىٰ قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره (أبو منصور الماتريدي).

8- أنه مشترك بين المعنىٰ القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات (أبو المعالي).

9- أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتىٰ شاء وكيف شاء، وهو يتكلم بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً، وهذا هو المأثور عن (أئمة الحديث والسنة).

وقد زعم المعتزلة أن إضافة الكلام لله إضافة تشريف كبيت الله وناقة الله، وهذا باطل. فالمضاف لله كما قال أهل العلم (معان وأعيان). فإضافة الأعيان لله للتشريف وهي مخلوقة له (كبيت الله، وناقة الله) بخلاف المعاني فإضافتها (كعلم الله، وقدرة الله، وعزة الله، وكبرياء الله، وكلام الله، وعلو الله، وحياته، وقهره) لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً، فكلها من صفاته سبحانه. ثم هناك تفصيل ذكره أهل العلم:

أ- الوصف بالتكلم من أوصاف الكمال وضده من أوصاف النقص.

قال الله في سورة الأعراف: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ

خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ﴾ [الأعراف: 148].

قال شارح الطحاوية: (فكان عباد العجل مع كفرهم أعرف بالله من المعتزلة فإنهم لم يقولوا لموسىٰ (ربك لا يتكلم أيضاً). وقال تعالى عن العجل أيضاً: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه: 89]. فعلم أن نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل).

ب ـ إذا قلنا إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهة التشبيه والتجسيم لديهم، فقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ [يس: 65]، يدل أنها تتكلم ونحن نؤمن بذلك ولا نعلم كيف. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت: 21]. وكذا تسبيح الحصا والطعام وسلام الحجر كله بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه المعتمد على مقاطع الحروف.

جـ ـ قال تعالى يثبت لنفسه الكلام: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾. قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء ـ أحد القراء السبعة ـ: أريد أن تقرأ، كلم اللهَ موسىٰ، بنصب اسم الله، ليكون موسىٰ هو المتكلم لا الله! فقال أبو عمرو: هب أني قرات هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ فبهت المعتزلي.

وقال سبحانه يثبت كلامه لأهل الجنة: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: 58]. وينفيه عن أهل النار أن يكون كلام تشريف: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: 108]. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ أي لا يكلمهم تكليم تشريف بل يخرسهم وأما المؤمنون فيكلمهم، وإلا فلا معنىٰ للنفي عن الكفرة.

وفي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا جمع الله الأولى والأخرى يوم القيامة جاء الرب تبارك وتعالى إلى المؤمنين فوقف عليهم والمؤمنون على كوم، فيقول: هل تعرفون ربكم؟ فيقولون: إن عرفنا نفسه عرفناه.

ثم يقول لهم الثانية ، فيضحك في وجوههم فيخرون له سجداً][1] .

د ـ أما قولهم مستدلين بـ ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ ﴾ [الرعد : 16] ، والقرآن شيء ، فيقال : هم يقولون أفعال العباد غير مخلوقة لله بل يخلقها العباد ، فواعجباً لهم إذ أخرجوها من عموم (كل) وأدخلوا كلام الله في عمومها وهو صفة لله به تكون الأشياء المخلوقة إذ بأمره تكون المخلوقات : ﴿ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾ ففرق بين الخلق والأمر ، فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر ، والآخر بآخر . . . إلى ما لا نهاية وهذا باطل . ومن ثمّ فطرد باطلهم أن تكون جيمع صفاته تعالى مخلوقة ، كالعلم والقدرة ، وهذا كفر ، إذ يلزم من كونها بعد أن لم تكن نقص في الخالق ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

هـ ـ وكيف يصح أن يكون متكلماً بكلام يقوم بغيره؟ فإنه يلزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات والحيوانات والمخلوقات كلامه ، ولا فرق حينئذ ين نطق وأنطق ، وإنما قالت الجلود : ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ﴾ . ثم يلزم من زعمهم أن يكون متكلماً بكل كلام خلقه بغيره من زور أو كفر ، كما يلزم ـ لو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره ـ أن يقال للبصير أعمى وللأعمى بصير ، وأن يوصف الله بالصفات التي خلقها بغيره من الألوان والروائح والأطوال . . . تعالى الله سبحانه .

و ـ وأما زعمهم أنه معنىً واحد ، والتعدد في الدلالات لا في المدلول ، فالعبارات مخلوقة وسميت كلام الله لدلالتها عليه ، فاختلفت العبارات التي تسمىٰ مجازاً كلام الله ، فإن عبر بالعربية فهو قرآن ، وبالعبرانية فهو توراة! قلنا : لازم هذا أن معنىٰ ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ ﴾ هو ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ومعنى آية الكرسي هو معنىٰ آية الدين .

المسألة الثامنة والعشرون :

بعض الناس يقولون : العرش فلك مستدير محيط بالعالم ، وبعضهم يقولون : بل العرش هو المُلك ! ! فما الجواب؟

الجواب : هذا قول بعض طوائف أهل الكلام ، فيقال لمن ادّعى منهم أن العرش فلك مستدير : ماذا تصنعون بما في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ

(1) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (ص 153) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (756) .

قال: [فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور][1].

ففيه رد على أهل الكلام الذين تطاولوا بغير علم، فالحديث يثبت أن للعرش قوائم عدة. والعرش لغة: السرير الذي يكون للملك. قال تعالى ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

وأما الرد على من زعم أن العرش هو المُلك فقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: 17].

وفي صحيح أبي داود عن جابر عن النبي ﷺ قال: [أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام][2].

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (والعرش والكرسي حق، وهو عز وجل مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وما فوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه)[3].

وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة، تعالى الله عما يقولون، بل المراد: إحاطة عظمته وسعة علمه وقدرته.

وفي التنزيل: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج: 20]. ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: 54]. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: 126].

قال ابن عباس: (ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم).

وكان ابن عباس يقول: (الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدّر قدْره إلا الله تعالى)[4].

---

(1) قد مضى بتمامه في بحث النفخ في الصور.

(2) تخريج الطحاوية (249) وصحيح الجامع (867).

(3) متن العقيدة الطحاوية فقرة (49-51).

(4) صحيح موقوفاً وقد مضىٰ.

المسألة التاسعة والعشرون :

بعض الناس يقسمون الأخبار إلى متواتر وآحاد ، ومن ثم فالأدلة اللفظية لا تفيد عندهم اليقين ، ومنها ألفاظ صفات الله في القرآن والسنة ! ! فما الجواب؟

الجواب : هذا هو قول الجهمية والمعطلة والمعتزلة والرافضة ، فإنهم يقولون بأن الأخبار قسمان : متواتر وآحاد .

فالمتواتر : وإن كان قطعي السند ـ لكنه غير قطعي الدلالة ـ فإن الأدلة اللفظية لا تفيد عندهم اليقين ، ولذلك قدحوا في دلالة القرآن على الصفات .

والآحاد : ظني الدلالة عندهم ، قالوا : لا تفيد أخباره العلم ولا يحتج بها ، لا من طريقها ولا متنها ، فسدوا على القلوب معرفة الرب وأسمائه وأفعاله وصفاته من جهة الرسول ، وأحالوا الناس على قضايا وهمية ومقدمات خيالية سموها قواطع عقلية وبراهين يقينية ، وهي في التحقيق : ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ فقدموها على الوحي ، فما وافق هواهم فهو عندهم محكم ، وما خالفه فهو متشابه .

ولذلك ردّ عليهم الإمام أبو جعفر الطحاوي بالقول : (وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق) متن الطحاوية (63) .

فإن طريقة أهل السنة أن لا يعدلوا عن النص الصحيح ولا يعارضوه بمعقول ولا قول فلان .

قال البخاري رحمه الله : (سمعت الحميدي يقول : كنا عند الشافعي رحمه الله ، فأتاه رجل فسأله عن مسألة فقال قضىٰ فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا ، فقال رجل للشافعي : ما تقول أنت؟ فقال : سبحان الله ! تراني في كنيسة! تراني في بيعة! تراني على وسطي زنار؟ أقول لك قضىٰ رسول الله ﷺ وأنت تقول : ما تقول أنت؟) .

ومن ثم فإن خبر الواحد الذي تلقته الأمة بالقبول عملاً به وتصديقاً له يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة ، وهو أحد قسمي المتواتر ، ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع ، كخبر عمر بن الخطاب : [إنما الأعمال بالنيات][1] ، وخبر أبي هريرة :

---

(1) رواه الشيخان .

[لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها] (1)، وكقوله: [يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب](1) ، وكخبر ابن عمر: [نهىٰ عن بيع الولاء وهبته](1) ، وكخبر الرجل الذي أتىٰ مسجد قباء وقال للقوم وهم يصلون: [أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت](2) .

وكان ﷺ يرسل رسله آحاداً كما بعث معاذاً إلى اليمن ، ويرسل كتبه مع الآحاد ، فلا أحد من المرسل إليهم قالوا: لا نقبله لأنه خبر واحد. وفي التنزيل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ فلابد أن يحفظ الله حججه وبيّناته على خلقه لئلا تبطل حججه وبيناته .

المسألة الثلاثون :

هل هناك صفات لله سبحانه أو أصول في الإيمان مصدر الإثبات فيها هو العقل وحده؟ أم لابد من اجتماع العقل والنقل ؟

الجواب: هذه الدعوى من آثار فلسفة الأشاعرة الذين قسمّوا أصول العقيدة بحسب مصدر التلقي إلى ثلاثة أقسام :

1- قسم مصدره العقل وحده وهو معظم الأبواب ومنه باب الصفات ، ولهذا يسمون الصفات السبع «عقلية» وهذا القسم هو «ما يحكم العقل بوجوبه» دون توقف على الوحي عندهم .

2- قسم مصدره العقل والنقل معاً ، كالرؤية ـ على خلاف بينهم فيها ـ وهذا القسم هو «ما يحكم العقل بجوازه استقلالاً أو بمعاضدة الوحي» .

3- قسم مصدره النقل وحده وهو السمعيات أي المغيبات من أمور الآخرة ، كعذاب القبر والصراط والميزان وهو عندهم: ما لا يحكم العقل باستحالته لكن لو لم يرد به الوحي لم يستطع العقل إدراكه منفرداً. ويدخلون فيه التحسين والتقبيح والتحليل والتحريم .

والحاصل أنهم في صفات الله جعلوا العقل حاكماً وفي إثبات الآخرة جعلوا

---

(1) رواه الشيخان .

(2) رواه البخاري عن البراء .

العقل عاطلاً وفي الرؤية جعلوه مساوياً. ومذهب بعضهم - وهم صوفيتهم - كالغزالي والحامي - في مصدر التلقي هو تقديم الكشف والذوق على النص وتأويل النص ليوافقه وقد يصححون بعض الأحاديث ويضعفونها حسب هذا الذوق، كحديث إسلام أبوي النبي ﷺ ودخولهما الجنة بزعمهم. ويُسَمُّون هذا «العلم اللدني» جرياً على قاعدة الصوفية «حدثني قلبي عن ربي». ويرى السنوسي (ت 885) أن الكتاب والسنة لا تعرف حُجِّيَتُهما إلا بالنظر العقلي، ويقول: («أصول الكفر ستة» . . . ذكر خمسة ثم قال: سادساً: التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية والقواطع الشرعية)[1].

وعقب الدكتور سفر الحوالي بقوله: (أما في مذهب أهل السنة والجماعة فلا منافاة بينَ العقل والنقل أصلاً، ولا تضخيم للعقل في جانب وإهدار في جانب وليس هناك أصل من أصول العقيدة يستقل العقل بإثباته أبداً، كما أنه ليس هناك أصل منها لا يستطيع العقل إثباته أبداً. فالإيمان بالآخرة وهو أصل كل السمعيات ليس هو في مذهب أهل السنة والجماعة سمعياً فقط بل إن الأدلة عليه من القرآن هي في نفسها عقلية كما أن الفطر السليمة تشهد به فهو حقيقة مركوزة في أذهان البشر مالم يحرفهم عنها حارف. لكن لو أن العقل حكم باستحالة شيء من تفصيلاته - فرضاً وجدلاً - فحكمه مردود وليس إيماننا به متوقفا على حكم العقل. وغاية الأمر أن العقل قد يعجز عن تصوره، أما أن يحكم باستحالته فغير وارد ولله الحمد) انتهى.

المسألة الحادية والثلاثون:

هل الأشاعرة المعاصرون على مذهب أبي الحسن الأشعري فعلاً أم على مذهب المعتزلة ونحوهم؟

الجواب: قال الإمام الذهبي رحمه الله: (كان أبو الحسن[2] أولاً معتزلياً أخذ عن أبي علي الجبائي، ثم نابذه ورد عليه، وصار متكلماً للسنة، ووافق أئمة الحديث في جمهور ما يقولونه . . .

---

(1) رسالة «منهج الأشاعرة في العقيدة» د. سفر الحوالي. ص 56,55,54,35.

(2) أبو الحسن الأشعري صاحب التصانيف (260-324 هـ).

فلو انتهىٰ أصحابنا المتكلمون إلى مقالة أبي الحسن هذه ولزموها لأحسنوا ، ولكنهم خاضوا كخوض حكماء الأوائل في الأشياء ، ومشوا خلف المنطق ، فلا قوة إلا بالله) مختصر العلو (243) .

وكان قد ساق أقواله التي استقر عليها كقوله في كتابه الذي سماه: «اختلاف المصلين ومقالات الإسلاميين» بعد أن ذكر فرق الخوارج والروافض والجهمية وغيرهم إلى أن قال: «ذكر مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث»:

(جملة قولهم: الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء عن الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ ، لا يردون من ذلك شيئاً. وأن الله على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ .

وأن أسماء الله لا يقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوراج .

وأقروا أن لله علماً كما قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ .

وأثبتوا السمع والبصر ، ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة .

وقالوا: لا يكون في الأرض من خير وشر إلا ما شاء الله ، وأن الأشياء تكون بمشيئته كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ . إلى أن قال: ويقولون: إن القرآن كلام الله غير مخلوق .

ويصدقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ: «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر» كما جاء في الحديث .

ويقرون أن الله يجيء يوم القيامة كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وأن الله يقرب من خلقه كما يشاء ، قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ إلى أن قال: فهذا جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه ، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب ، وما توفيقنا إلا بالله) مقالات الإسلاميين ص (290 - 297)[1] .

---

(1) مختصر العلو ص 237 .

كما ذكر الذهبي ، قول الأشعري في كتابه «الإبانة في أصول الديانة» ، في باب الاستواء: (نقول إن الله مستو على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ . . . وقال عز وجل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ فالسماوات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السماوات ، وكل ما علا فهو سماء ، وليس إذا قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني جميع السماوات ، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات ، ألا ترى أنه ذكر السماوات فقال: «وجعل القمر فيهن نوراً» ولم يرد أنه يملؤهن جميعاً ، وأنه فيهن جميعاً. قال: ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم ـ إذا دعوا ـ نحو السماء لأن الله مستو على العرش الذي هو فوق السماوات ، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش.

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن معنىٰ استوىٰ: استولىٰ وملك وقهر ، وأنه تعالى في كل مكان ، وجحدوا أن يكون على عرشه ، كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة ، فلو كان كما قالوا كان لا فرق بين العرش وبين الأرض السابعة لأنه قادر على كل شيء ، والأرض شيء ، فالله قادر عليها وعلى الحشوش ، وكذا لو كان مستوياً على العرش بمعنىٰ الاستيلاء ، لجاز أن يقال: هو مستو على الأشياء كلها ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: إن الله مستو على الأخلية والحشوش ، فبطل أن يكون الاستواء على العرش: الاستيلاء) مختصر العلو/ 239.

ثم ذكر ما نقل الحافظ ابن عساكر في كتاب «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري» من كتاب «الإبانة»: (وجملة قولنا: أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله ورواه الثقات عن رسول الله ﷺ ، لا نرد من ذلك شيئاً ، وأن الله إله واحد فرد صمد لا إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأن الله تعالى مستو على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وأن له وجهاً كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وأن له يدين كما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وأنه له عينين بلا كيف كما قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ وأن من زعم أن اسم الله غيره كان ضالاً ، وندين أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر. . . إلى أن قال:

وأنه يقرب من خلقه كيف شاء كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وكما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[1] ونرى مفارقة كل داعية إلى بدعة، ومجانبة أهل الأهواء) مختصر العلو ص 242.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله في شكاية أهل السنة: (ما نقموا من أبي الحسن الأشعري إلا أنه قال بإثبات القدر، وإثبات صفات الجلال لله، من قدرته، وعلمه، وحياته، وسمعه، وبصره، ووجهه، ويده، وأن القرآن كلامه غير مخلوق[2].

سمعت أبا علي الدقاق يقول: سمعت زاهر بن أحمد الفقيه يقول: مات الأشعري رحمه الله ورأسه في حجري، فكان يقول شيئاً في حال نزعه من داخل حلقه، فأدنيت إليه رأسي، وأصغيت إلىٰ ما كان يقرع سمعي، فكان يقول: لعن الله المعتزلة موهوا ومخرقوا)[3].

* * *

(1) الدنو في الآية يقصد فيه جبريل عليه السلام كما في التحقيق، وكما يستفاد من حديث عائشة في صحيح مسلم وغيره. وانظر تعليق الألباني على الإبانة «ص 12-35».

(2) تبيين كذب المفتري ص 111.

(3) التبيين ص 148، مختصر العلو ص 240.

- 25 -

ـ شبهات في مسائل القدر وجوابها ـ

المسألة الأولىٰ :

هل ثمّ فرق بين إرادته سبحانه أن يفعل العبد وإرادة أن يجعله فاعلاً؟ !

الجواب : قال الله تعالىٰ : ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : 15-16] .

وتدل الآية :

1- أنه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته .

2- أنه لم يزل كذلك ، لأنه ساقه بمعرض مدح نفسه وكماله ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 17] .

3- أنه إذا أراد شيئاً فعله ، فإن (ما) موصولة عامة ، أي يفعل كل ما يريد أن يفعله ، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله .

وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فلها شأن آخر ـ كما ذكر أهل العلم ـ : فإنه سبحانه إن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه عليه ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل وإن أراده حتىٰ يريد من نفسه أن يجعله فاعلاً . قال شارح الطحاوية : (وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية ، ففرق بين إرادته أن يفعل العبد وإرادة أن يجعله فاعلاً) .

4- أن فعله وإرادته متلازمان ، فما أراد أن يفعل فعل ، وما فعله فقد أراده بخلاف المخلوق ، فإنه يريد مالا يفعل ، وقد يفعل مالا يريده ، فما ثم فعال لما يريده إلا الله .

5- إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال ، وأن كل فعل له إرادة تخصه ، وهذا

هو المعقول في الفطر ، فشأنه سبحانه أنه يريد على الدوام ويفعل ما يريد .

6- إن كل ما صح أن تتعلق به إرادته جاز فعله ، فإن أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء وأن يُري عباده نفسه وأن يتجلىٰ لهم كيف يشاء ، ويخاطبهم ويضحك إليهم . . . ، لم يمتنع عليه فعله ، فإنه فعال لما يريد . وإنما يتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به ، فإذا أخبر وجب التصديق ، وكذلك محو ما يشاء وإثبات ما يشاء ، كل يوم هو في شأن سبحانه وتعالىٰ .

المسألة الثانية :

أليس القول بأن الحوادث لها أول منسجماً مع قوله عليه السلام : [كان الله ولم يكن شيء قبله]؟!

الجواب : هذه المقولة كان لها بعد آخر في الماضي فيه انتقاص لصفات الله سبحانه .

فالقول بأن الحوادث لها أول يلزم منه التعطيل قبل ذلك ، وأنه سبحانه لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلا . ولا يلزم من ذلك قدم العالم لأن كل ما سوى الله محدث ممكن الوجود ، موجود بإيجاد الله له ، ليس له من نفسه إلا العدم ، والفقر والاحتياج وصف ذاتي لازم لكل ما سوىٰ الله ، والله تعالى واجب الوجود لذاته ، غني لذاته ، والغنىٰ وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالى(1) .

وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين ، قال : [قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ: جئناك لنتفقه في الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال : كان الله ولم يكن شيء قبله . (وفي رواية : غَيْرُهُ) ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض](2) .

والذكر : اللوح المحفوظ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء : 105] . فيسمىٰ ما يكتب في الذكر ذكراً ، كما يسمىٰ ما يكتب في الكتاب كتاباً .

---

(1) وانظر شرح العقيدة الطحاوية فقرة (5)-(6)-(13)-(14) .

(2) مختصر صحيح البخاري (1287) ، كتاب بدء الخلق .

والمراد: يخبر سبحانه عن مبدأ الخلق لهذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام ثم استوى على العرش. كما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو: [قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء][1].

فأخبر النبي ﷺ أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة أيام كان قبل خلقه السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة، وأن عرشه تعالى كان حينئذ على الماء.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله في عقيدته: (خلق الخلق بعلمه، وقدر لهم أقداراً. وضرب لهم آجالاً. ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هو عاملون قبل أن يخلقهم. وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته. وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن)[2].

وقد أفاد الشارح حين ذكر حديث الإمام مسلم السابق: أنه لا يعني أن الله تعالى موجود وحده لا مخلوق معه أصلاً، لأن قوله ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ يرد ذلك. وهذه الجملة إما حالية أو معطوفة، وكلا الحالتين فهو مخلوق موجود في ذلك الوقت، فعلم أن المراد: ولم يكن شيء من هذا العالم المشهود.

المسألة الثالثة:

بعض الناس يقولون: لو لم يُقتل المقتول لعاش إلى أجله؟!

الجواب: هذا قول المعتزلة: «المقتول مقطوع عليه أجله، ولو لم يقتل لعاش إلى أجله» فكأن له أجلين حسب زعمهم، وهذا باطل، فلا يليق أن ينسب إلى الله أن جعل له أجلاً يعْلم أنه لا يعيش إليه البتة.

قال الله جل ثناؤه: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: 49].

---

(1) مختصر مسلم (1841).

(2) متن الطحاوية فقرة (18-23).

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: 145].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: [قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ ورضي عنها: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، قال: فقال النبي ﷺ: قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل أجله ولن يؤخر شيئاً عن أجله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار وعذاب في القبر كان خيراً وأفضل][1].

فالمقتول ميت بأجله، وقد علم ذلك تعالى وقدّر، كما قضىٰ أن هذا يموت بسبب المرض، وهذا بسبب الهدم، وهذا بسبب الحرق أو الغرق، وهذا بسبب القتل، والله سبحانه خلق الموت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة.

فإن قال قائل: فكيف التوفيق مع قوله عليه الصلاة والسلام: [صلة الرحم تزيد في العمر]! فيقال: قد قدّر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب لهذه الغاية، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية، ولكن قدر هذا السبب وقضاه، وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا.

وحديث أم حبيبة يدل أن الأعمار مقدرة لم يشرع الدعاء بتغييرها، وإنما المشروع الدعاء بالنجاة من عذاب الآخرة، والدعاء بتغيير العمر لما يتضمن النفع الأخروي.

ففي صحيح النسائي من حديث عمار، عن النبي ﷺ قال: [اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي][2].

وهو في الصحيحين من حديث أنس بلفظ: [فإن كان لابد فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي][3].

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1846) كتاب القدر. باب: (في ضرب الآجال وقسم الأرزاق).
(2) صحيح الجامع (1312).
(3) أخرجه الشيخان والبيهقي (377/3). وانظر أحكام الجنائز 3 ص 4.

المسألة الرابعة:

أليس قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد: 39] يدل على تغيير الله للأجل؟!.

الجواب: هذه الآية هي في سورة الرعد، وقد ورد قبلها قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾. وفيها أكثر من تأويل:

التأويل الأول: قيل يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره، إلا الشقاء والسعادة، فإنهما لا يُغيّران.

قال ابن عباس: (يدبر الله أمر العبادة، فيمحو ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت). وفي لفظ: (يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت). وقال مجاهد: (إلا الحياة والموت والسعادة والشقاوة، فإنهما لا يتغيران).

التأويل الثاني: يمحو ما يشاء ويثبت من كتاب سوى أم الكتاب الذي لا يُغَيَّرُ منه شيء. وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ، فكأن المحو والإثبات من الصحف التي بأيدي الملائكة.

قال عكرمة: (الكتاب كتابان: كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب).

التأويل الثالث: قيل بل يمحو كل ما يشاء، ويثبت كل ما أراد.

يروي ابن جرير بسنده عن أبي عثمان النَّهْدي: (أن عمر بن الخطاب قال وهو يطوف بالبيت ويبكي: اللهم إن كنت كتبت علي شِقْوة أو ذنبا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة).

ثم روى عن ابن عباس قوله: (هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله، فيموت على ضلاله، فهو الذي يمحو. والذي يثبت: الرجلُ يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتىٰ يموت وهو في طاعة الله، فهو الذي يثبت).

التأويل الرابع: قيل بل معنىٰ ذلك يمحو من قد حان أجله ويثبت من لم يجيء أجله إلى أجله.

قال الحسن: (يمحو من جاء أجله فذهب، والمثبت الذي هو حيّ يجري إلى أجله).

التأويل الخامس: يغفر ما يشاء من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفر.

فعن عطاء، عن سعيد قال: (يثبت في البطن الشقاء والسعادة، وكلَّ شيء، فيغفر منه ما يشاء، ويؤخر ما يشاء).

التأويل السادس: ينسخ الله ما يشاء من أحكام كتابه، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه.

قال ابن عباس: (﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من القرآن. يقول: يبدل الله ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت، كل ذلك في كتاب).

قلت: والسياق يدل على التأويل السادس، فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ فيه إخبار أن الرسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه بل من عند الله الذي قدر للشرائع أجلاً وغاية ثم ينسخها بالشريعة الأخرى ويثبت ما يشاء منها.

المسألة الخامسة:

قيل: لا يعلم الله الشيء قبل أن يخلقه ويوجده وإلا كان جَبْراً؟! فما الجواب؟

الجواب: هذا قول الرافضة والقدرية قالوا: لا يعلم الشيء قبل أن يخلقه ويوجده، وإنما الله علام الغيوب.

قال جل ذكره: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: 23].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: 28].

وقال جل ثناؤه في حياة أبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1].

فهو سبحانه أخبر أن أبا لهب سيموت كافراً ولم يجبره، فهي كتابة علم لا جبر.

قال أبو جعفر الطحاوي: (ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم)[1].

وكذلك أنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالماً في الأزل وقالوا: إن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد حتىٰ يفعلوا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

فإن قيل يلزم أن يكون العبد قادراً على تغيير علم الله، لأن الله علم أنه يفعل فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله؟! الجواب: إن مجرد قدرته على الفعل لا تستلزم تغيير العلم فلو وقع الفعل كان المعلوم وقوعه لا عدم وقوعه، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه.

وفي صحيح أبي داود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم][2].

المسألة السادسة:

ألم يحتجّ آدم على موسىٰ بالقدر!! وشهد ﷺ أنه حجّ موسىٰ!؟

الجواب: لقد أخرج الإمام البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [احتج آدم وموسىٰ، فقال موسىٰ: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم! قال آدم: يا موسىٰ أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وأنزل عليك التوراة أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني؟ فحج آدم موسىٰ][3].

وهذا الحديث تلقاه العلماء بالقبول والسمع والطاعة لصحته عنه ﷺ، ولم يردوه بالتكذيب كالقدرية. والحديث يدل بمفهومه أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب وهو كان أعلم بربه وذنبه، بل إن آحاد بنيه من المؤمنين لا يصح له أن

(1) متن العقيدة الطحاوية فقرة (21).

(2) حسن. تخريج الطحاوية (242) وصحيح الجامع (4318).

(3) ورواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي، وانظر صحيح الجامع (182).

يحتج بالقدر ، فإن هذا باطل . وموسىٰ عليه الصلاة والسلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه ، وإنما وقع اللوم على المصية التي أخرجت أولاده من الجنة ، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة ، فإن القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب[1] .

بينما عاب الله على المشركين حيث جعلوا الشرك كائناً منهم بمشيئة الله : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام : 148] . ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل : 35] . ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف : 20] .

وكذلك ذمّ الله إبليس حيث أضاف الإغواء إلى الله تعالى ، إذ قال : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر : 39] .

فأنكر الله عليه وعليهم من وجوه :

1- احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته ، وقالوا : لو كره ذلك وسخطه لما شاءه ، فجعلوا مشيئته دليل رضاه ، فرد الله عليهم ذلك .

2- أنكر عليهم سبحانه اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به .

3- أنكر عليهم معارضته شرعه وأمره الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره ، فذكروا المشيئة معارضين بها لأمره دافعين لشرعه كفعل الزنادقة والجهال .

وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر ، فقال له عمر : (وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره) .

وعن وهب بن منبه أنه قال : (نظرت في القدر فتحيرت ، ثم نظرت فيه فتحيرت ، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهّم عنه ، وأجهل الناس بالقدر أنطقَهم به) .

المسألة السابعة :

بعض الناس يقولون : يُحْكَمُ على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه ! ! فما الجواب؟

الجواب : قال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله : (يهدي من يشاء ويعصم ويعافي

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية .

من يشاء فضلاً ، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً . وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله)[1] .

وهو ردّ على المعتزلة بقولهم بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله ، وهي مسألة الهدىٰ والضلال. قالت المعتزلة: (الهدى من الله: بيان طريق الصواب. والإضلال: تسمية العبد ضالاً وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه).

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية: (وهذا مبني على أصلهم الفاسد: أن أفعال العباد مخلوقة لهم ، بل: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ ولو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه لأنه بين الطريق ﷺ لمن أحب وأبغض. قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة: 13] ، ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [المدثر: 31]. ولو كان الهدى من الله البيان وهو عام في كل نفس لما صح التقييد بالمشيئة ، وكذلك قوله: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات: 57] ، ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: 39]).

فالكل يتقلب في مشيئة الله بين فضله وعدله ، قال جل ثناؤه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: 2]. فمن هداه سبحانه إلى الإيمان فبفضله وله الحمد ، ومن أضله فبعدله وله الحمد.

المسألة الثامنة:

ألا يَحْمِلُ قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ مفهوم الجبر والقهر؟!

الجواب: ليست مشيئة الله سبحانه كمشيئة الإنسان تعتريها الفوضىٰ أحياناً ويحكمها الهوى ومصالح النفس وحظوظ الذات أحياناً أخرىٰ ، بل هي صفة كمال منزهة عن العبث ، والله سبحانه موصوف بالحكمة والعلم والعدل فهو يهدي من يشاء بحكمة وعلم وعدل ، ويضل من يشاء كذلك.

---

(1) متن العقيدة الطحاوية (24-25).

وفي التنزيل :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : 26] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [النحل : 125] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : 117] .

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام : 53] .

﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : 124] .

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن : 11] .

فنرد المتشابه دوماً إلى المحكم ولا نخوض بالعقل والهوىٰ .

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة][1] .

زاد البخاري في رواية : (وإنما الأعمال بالخواتيم) .

وهذا حوار جرىٰ بين العالم المعتزلي عبد الجبار الهمداني والعالم السني أبو إسحاق الإسفراييني :

قال المعتزلي : سبحان من تنزه عن الفحشاء .

فقال السني : سبحان من لا يكون في ملكه إلا ما يشاء .

قال المعتزلي : أيحب ربنا أن يُعصىٰ؟

قال السني : أيعصىٰ ربنا قهراً؟

قال المعتزلي : أرأيت إن منعني الهدى وأرداني الردىٰ أيكون قد أساء إليّ؟

قال السني : إن منعك حقك فقد أساء ، وإن منعك فضله فهو يؤتيه من يشاء .

وقد قصد المعتزلي أن الله لم يخلق أعمال الإنسان القبيحة بل الإنسان يخلقها بفعله ، ولذلك قال : (سبحان من تَنَزَّه عن الفحشاء) . فأجابه السني بأن الله هو

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1027) .

الخالق الوحيد ومشيئته هي النافذة في هذا الكون فلا خالق غيره وما شاء كان ومالم يشأ لم يكن. فقال المعتزلي: (أيحب ربنا أن يُعصىٰ) لاعتقاده أن الله إذا خلق الكفر فيعني يحبه، وخلط بين المشيئة والمحبة وهذا باطل، فهو سبحانه يشاء مالا يحب كخلق إبليس مثلاً. فقال السني مثبتاً أن الله لا يمكن أن يعصىٰ قهراً أو يجري في ملكه شيء إلا بإذنه وإرادته، ففي الصحيح: [لو شاء الله أن لا يعصىٰ لما خلق إبليس]. فقال المعتزلي: (أرأيت إن منعني الهدى وأرداني الردى...). وقصد بالهداية التوفيق وبالردى الخذلان، إذ لا يمكن أن يكون قصد هداية الدلالة والإرشاد لأنها هداية عامة للمكلفين فإن انتفت انتفىٰ التكليف وبطل الثواب والعقاب. فأجابه السني بأن الله قد أعطى العباد حقهم وذلك بهداية الدلالة والإرشاد فأرسل لهم الرسل وخلق لهم أعيناً يرون بها وألسنة يسألون بها وعقولاً يميزون بها بين الخير والشر، فسبحانه قد أعطاهم حقهم وهو تمام العدل، فلو حرمهم شيئاً من هذا الذي لا يقوم التكليف إلا به ثم حاسبهم فقد ظلمهم وهو سبحانه منزه عن الظلم، وأما قوله (إن منعك فضله فهو يؤتيه من يشاء) فالمراد إن منعك توفيقه وتثبيته وتحبيبه الإيمان للمؤمنين فهذا فضل منه ورحمة واختصاص للمؤمنين دون الكافرين، قال جل ذكره: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

المسألة التاسعة:

كيف يُفهم قوله تعالى: ﴿ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وقوله ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ أليس فيه معنى الجبر؟!

الجواب: يخبر سبحانه عن نفسه أنه فعال لما يريد فما أراده كان ومالم يرده لم يكن، وكله مرتبط بالعلم والحكمة والعدل. فهو سبحانه لا يضع المؤمنين في النار بحجة أنه فعال لما يريد، فإن هذا لا يليق بكمال حكمته وعدله وهو القائل: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾.

وكذلك قوله ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ لأنه لا يفعل إلا بعلم وحكمة وعدل، فلا يسأل لكمال صفاته. فهذه الآيات لابد من فهمها وفق قواعد الإيمان بالقدر.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (وأصل القدر سرّ الله في خلقه، لم يَطّلِع على

ذلك ملك مقرّب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسُلّم الحرمان ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك ، نظراً أو فكراً أو وسوسة ، فإن الله تعالى طوىٰ علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال في كتابه: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ فمن سأل: لم فعل؟ فقد ردّ حكم الكتاب ، ومن ردّ حكم الكتاب كان من الكافرين)[1] . وقال علي رضي الله عنه: (القدر سر الله فلا نكشفه).

فالله سبحانه قدر كلّ شيء ، وهو يريد الكفر من الكافر ويشاؤه لكن لا يرضاه ولا يحبه ، فيشاؤه كوناً ولا يرضاه ديناً . وخالف بذلك القدرية والمعتزلة وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر ، وأرادوا أن يخلصوا بذلك (إلى أنه شاء الكفر من الكافر وعذّبه عليه) فوقعوا بما هو شر منه وهو أنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله .

روى عمرو بن الهيثم قال: (خرجنا في سفينة وصحبنا فيها قدري ومجوسي ، فقال القدري للمجوسي: أسلم . قال المجوسي: حتىٰ يريد الله ، فقال القدري: إن الله يريد ولكن الشيطان لا يريد! قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان فكان ما أراد الشيطان فأنا مع أقواهما).

ووقف أعرابي على حَلْقة فيها عمرو بن عبيد فقال: يا هؤلاء إن ناقتي سُرِقت فادعوا الله أن يردّها علي ، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم تُرد أن تُسرق ناقته فسرقت ، فاردُدْها عليه . فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك! قال: ولم؟ قال: (أخاف ـ كما أراد أن لا تُسرق فسُرقت ـ أن يريد ردّها فلا ترد)[2] .

ومنشأ الضلال من التسوية بين المشيئة أو الإرادة والمحبة والرضىٰ ، فسوّى بينهما الجبرية والقدرية ، ثم اختلفوا ، فقالت الجبرية: (الكون كله بقضائه وقدره فيكون محبوباً مرضياً) . وقالت القدرية النفاة: (ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له ، فليست مقدّرة ولا مقضية فهي خارجة عن مشيئته وخلقه).

---

(1) متن العقيدة الطحاوية فقرة (45).

(2) شرح العقيدة الطحاوية.

وقد دلّ الكتاب على المحبة والرضىٰ ، فقال سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة : 205] . ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر : 7] .

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء : 38] .

وفي الصحيحين من حديث المغيرة : [إن الله كره لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال][1] .

وفي المسند من حديث ابن عمر : [إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتىٰ معصيته][2] .

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة : [اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك][3] .

المسألة العاشرة :

كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه؟ وما الحكمة من ذلك؟ !

الجواب : المراد نوعان :

1- مراد لنفسه .

2- مراد لغيره .

فالمراد لنفسه : مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير ، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره : قد لا يكون مقصوداً لما يريد ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته وإن كان وسيلة إلى مقصوده ، فهو مكروه له من حيث نفسه ، مُراد له من حيث قضائه وإيصاله إلى مراده . فيجتمع فيه الأمران : بغضه وإرادته ، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما .

ومثاله : الدواء الكريه بغية الشفاء ، وقطع العضو المتآكل من الجسد بغية

---

(1) قد مضى تخريجه .

(2) صحيح الجامع (1882) .

(3) ورواه أبو داود وغيره من أهل السنن . صحيح أبي داود (823) .

السلامة لبقية الأعضاء ، وكقطع المسافة الشاقة بقصد الوصول إلى المحبوب واللقاء.

فالله سبحانه خلق إبليس وهو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات ، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد ، والله لا يحبه ، وفي ذلك من الحكم الكثيرة كما ذكر أهل العلم :

1- أنه يظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فهو سبحانه خلق إبليس ، وخلق جبرائيل الذي هو أشرف الذوات وأطهرها ، وخلق الليل والنهار ، والدواء والداء ، والحياة والموت ، والحسن والقبيح ، والخير والشر ، كل ذلك ليدل على كمال عزته وقدرته وسلطانه ، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير ملكه.

2- ومنها ظهور آثار أسمائه وصفاته القهرية ، كالقهار ، والمنتقم ، والعدل ، الضار ، الشديد العقاب ، السريع العقاب ، ذي البطش ، الشديد ، الخافض ، المذل.

فهذه الأسماء والأفعال كمال ، لابد من وجود متعلَّقها ، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

3- ومنها ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره ، وتجاوزه عن حقه ، وعتقه لمن شاء من عبيده ، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد. وأشار لذلك النبي ﷺ بقوله: [لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبونَ ويستغفرون فيغفر لهم] صحيح مسلم[1].

4- ومنها ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، فهو الحكيم الخبير يضع الأشياء مواضعها ومنازلها اللائقة بها ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه ، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ، فلو قدر عدم

(1) ورواه أحمد من حديث ابن عباس بلفظ : (لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون ، ليغفر لهم). صحيح الجامع (5177).

الأسباب المكروهة لتعطلت حكم كثيرة ومصالح عديدة ، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير ، وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر .

5- ومنها حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ، فإن عبودية الجهاد من أحب الأنواع من العبودية لله . ولو الكل مؤمنون لتعطلت. وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محابّ الله تعالى ، وعبودية التوبة والاستغفار ، وعبودية الاستعاذة بالله ليجيره من عدوه . إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها .

6- فإن قيل : فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟

الجواب : هذا سؤال فاسد ، وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه ، كفرض وجود الابن بدون الأب ، والحركة بدون المتحرك ، والتوبة بدون التائب .

المسألة الحادية عشرة :

إذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تقتضيه من الحِكَم ، فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه أم مسخوطة من جميع الوجوه؟ !

الجواب :

أ ـ من جهة الرب تعالىٰ : أيكون محباً لها من جهة إفضالها إلى محبوبه وإن كان يبغضها لذاتها .

ب ـ من جهة العبد : هل يسوغ له الرضىٰ بها من تلك الجهة؟

وتفصيل ذلك :

أ ـ من جهة الرب : اعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم ـ عدم الخير وأسبابه المفضية إليه ـ وهو من هذه الجهة شر ، أما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه .

ومثال ذلك :

1- النفوس الشريرة : وجودها خير من حيث هي موجودة ، ولكن حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها ، فإنها خلقت بالأصل متحركة ، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به ، وإن تُركت تحركت بطبعها إلى خلافه .

وحركتها من حيث هي حركة إنما هو خير . وإنما تكون شراً بالإضافة ، والشر كله ظلم وهو وضع الشيء في غير محله . فجهة الشر فيه نسبية .

2- العقوبات الموضوعة في مَحالّها : خير في نفسها ، شر بالنسبة للمحل الذي حلَّت به لما أحدثته من الألم .

وأسباب الخير ثلاثة :

1- الإيجاد : فإيجاد هذا خير وهو إلى الله .

3,2- الإعداد والإمداد : فإن لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس إلى الفاعل .

فإن قيل : هلاّ أمده إذ أوجده؟

الجواب : ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده ، وإنما اقتضت إيجاده وترك إمداده ، فإيجاده خير ، والشر وقع من عدم إمداده : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

ب ـ من جهة العبد : نحن غير مأمورين بالرضىٰ بكل ما يقضيه الله ويقدّره ، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة ، بل من المقضي ما يُرضىٰ به ، ومنه ما يُسخط ويُمقت ، فهناك أمران :

1- قضاء الله : وهو فعل قائم بذاته سبحانه .

2- مقضي : وهو المفعول المنفصل عنه .

فالقضاء كله خير وعدل وحكمة نرضىٰ به كله ، والمقضي قسمان :

منه ما يُرضىٰ به ومنه ما لا يرضىٰ به . فالأول مثاله الطاعات والثاني مثاله المعاصي والشرك والكفر .

فقتل النفس : من حيث قدّره الله وجعله أجلاً للمقتول ونهاية عمره يُرضىٰ به ، وأما من حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصىٰ الله به فنسخطه ولا نرضىٰ به[1] .

---

(1) وانظر شرح العقيدة الطحاوية .

المسألة الثانية عشرة :

كيف يرضىٰ لعبده شيئاً ولا يعينه عليه؟!

الجواب : إن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظمَ من حصول تلك الطاعة التي رضيها له ، وقد يكون وقوع تلك الطاعة يتضمن مفسدة أكره إلى الله من محبته لتلك الطاعة .

وقد استدل أهل العلم لذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [التوبة : 46] .

فإن الله سبحانه كره انبعاثهم للغزو مع رسوله وهو طاعة ، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه ، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي تترتب على خروجهم مع رسوله فقال :

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 47] .

قال شيخ المفسرين: (وكان تثبيط الله إياهم عن الخروج مع رسوله ﷺ والمؤمنين به ، لعلمه بنفاقهم وغشهم للإسلام وأهله ، وأنهم لو خرجوا معهم ضرّوهم ولم ينفعوا) .

والخبال : الفساد والضر . والخلال : من الخَلَل : وهي الفُرَج تكون بين القوم في الصفوف وغيرها . فيكون المراد بقوله : ﴿ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ ﴾ ولأسرعوا السَّير بينكم بالفساد والشَّر .

قال مجاهد : (يبطئونكم) . وقال ابن زيد : (يخذلونكم) . يطلبون لكم ما تفتنون به عن مخرجكم .

﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ أي قابلون منكم مستجيبون لهم ، فاقتضت الحكمة أن أقعدهم .

المسألة الثالثة عشرة:

كيف تفهم عبارات السلف بالنهي عن الخوض في القدر وهو ركن من أركان الإيمان، لا يقوم الإيمان إلا بالعلم به وبدقائقه؟!

الجواب: إن المنهي عنه هو الخوض في القدر بالشكوك والأوهام والوساوس دون علم بأركان وقواعد الإيمان بهذا الركن العظيم الذي لا يكتمل صرح الإيمان دون اليقين به.

فقول الإمام الطحاوي: (والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك، نظراً أو فكراً أو وسوسة)[1]، إنما يقصد به المبالغة في الغوص في القدر حتى تظهر الشكوك ويختل البناء وتعرض الأوهام والشبهات.

ومثال ذلك: ما روى مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [لا يزال الناس يسألونكم عن العلم، حتى يقولوا: هذا الله خلقنا فمن خلقَ الله؟ قال: فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله]. وفي رواية: (فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولِيَنْتَه)[2].

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: (لا يبلغ العبد حقيقة التقوىٰ حتى يدع ما حاكَ في الصدر)[3].

وعند البيهقي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [تَفَكَّرُوا في آلاء الله، ولا تَفَكَّرُوا في الله][4].

وله شاهد عن أبي نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بلفظ: [تفكروا في خلق الله، ولا تَفَكَّرُوا في الله] وحسنه الألباني[5].

---

(1) متن العقيدة الطحاوية فقرة (45).

(2) صحيح مسلم (84/1).

(3) وله شاهد في المسند من حديث أبي أمامة بلفظ: (إذا حاك في صدرك شيء فدعه). صحيح الجامع (498).

(4) صحيح الجامع (2972).

(5) السلسلة الصحيحة (1788).

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد ـ واللفظ لمسلم ـ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة؟ فقال: تلك محض الإيمان].

وله شاهد من حديث أبي هريرة قال: [جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلم به؟ قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان][1].

وذلك إشارة إلى تعاظم أن يتكلموا به، فمدافعة الوسوسة واستعظامها صريح الإيمان، وهذه هي طريقة الصحابة رضوان الله عليهم، فخلف من بعدهم خلف سوّدوا الأوراق بتلك الوساوس التي هي شكوك وشبه، بل سوّدوا القلوب وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق. فحق بهم قول النبي ﷺ: [أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم] رواه الشيخان عن عائشة[2].

والخلاصة: إن المنهي عنه هو الخوض في القدر دون علم بقواعد وأركان بناء هذا الركن الكبير الذي يفرز الجهل به كل مصيبة.

يروي الإمام أحمد بسند جيد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: [خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب. فقال لهم: مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم. قال: فما غبطتُ نفسي بذلك المجلس أني لم أشهده][3].

وفي التنزيل: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: 69].

وعند البخاري عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: [لتأخذن أمتي مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع، قالوا: فارس والروم؟ قال: فمن الناس إلا أولئك][4].

---

(1) مختصر صحيح مسلم (45).
(2) صحيح الجامع (39).
(3) قد مضى بتمامه.
(4) ورواه أحمد وابن ماجه، صحيح الجامع (4939).

وفي المسند من حديث معاوية: [. . . وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة يعني الأهواء كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة][1].

المسألة الرابعة عشرة:

كيف نفهم قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 188]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17] ؟!

الجواب: الآية الأولى من سورة الأعراف تتحدث عن النفع الكوني والضرر الكوني: (نحو المرض والرزق وطول العمر وجلب المنافع)، وهي بتمامها يكتمل معناها: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال شيخ المفسرين: (يقول: لا أقدر على اجتلاب نفع إلى نفسي، ولا دفع ضر يحلّ بها عنها، إلا ما شاء الله أن أملكه من ذلك، بأن يقوّيني عليه ويعينني. ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ يقول: لو كنت أعلم ما هو كائن مما لم يكن بعد ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ يقول: لأعددت الكثير من الخير). وقال ابن زيد: (لاجتنبت ما يكون من الشر واتقيته).

وقال غيره: (لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، ولعرفت الغلاء من الرُّخْص، واستعددت له في الرُّخْص).

وأما آية الأنفال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فقد أثبت الله سبحانه لرسوله فعل الرمي بقوله: «إذ رميت» ونفىٰ عنه التأثير والنتائج، فكانت من الله سبحانه، وهي بمنزلة التوفيق وتسديد الرمية. قال ابن جرير: (فأضاف الرمي إلى نبي الله، ثم نفاه عنه، وأخبر عن نفسه أنه هو الرامي، إذ كان جل ثناؤه هو الموصل المرميّ به إلى الذين رُمُوا به من المشركين، والمُسَبِّب الرمية لرسوله).

---

(1) قد مضى بتمامه.

وقال ابن إسحاق: (قال الله عز وجل في رمي رسول الله ﷺ المشركين بالحصباء من يده حين رماهم: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي: لم يكن ذلك برميتك، لولا الذي جعل الله فيها من نصرك، وما ألقىٰ في صدور عدوك منها حين هزمهم الله).

وكذلك فقد أضاف جل ثناؤه قتلهم إلى نفسه، ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين، إذ كان جل ثناؤه هو مُسبِّب قتلهم، وعن أمره كان قتال المؤمنين إياهم.

قال ابن جرير: (ففي ذلك أدلُّ الدليل على فساد قول المنكرين أن يكون لله في أفعال خلقه صُنْعٌ به وصَلوا إليها).

المسألة الخامسة عشرة:

كيف نفهم قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾؟! هل يأمر الله بالفسق والفحشاء والفساد والإفساد؟!

الجواب: الآية من سورة الإسراء وتأويلها يعود إلى طريقة قراءة قوله ﴿أَمَرْنَا﴾:

فقد قرأها قرّاء الحجاز والعراق بالتخفيف «أمَرْنا» بينما قرأها أبو عثمان بالتشديد: «أمَّرنا». وذكر عن الحسن البصري أنه قرأها: «آمَرْنا». فيكون المعنىٰ وفقاً لذلك:

التأويل الأول: «أمَرْنا مترفيها» قال ابن عباس: (بطاعة الله، فعصوا) واختاره ابن جرير.

التأويل الثاني: «أمَّرْنا مترفيها» مشدّدة من الإمارة. قال الربيع بن أنس: (سلَّطنا).

وقال أبو العالية: (جعلنا عليها مترفيها: مستكبريها). وكذلك روي عن ابن عباس قال: (سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب).

وقال مجاهد: (أمرَّنا مترفيها: بعثنا).

التأويل الثالث: «آمَرْنَا مترفيها» بمعنىٰ أكثرنا فسقتها. قال عكرمة: (أكثرناهم).

وقال الضحاك: (أكثرنا مترفيها: أي كبراءها).

وقال قتادة: (يقول: أكثرنا مترفيها: أي جبابرتها ، ففسقوا فيها وعملوا بمعصية الله «فدمّرناها تدميراً» وكان يقال: وإذا أراد أن يهلكها أكثر مترفيها) .

المسألة السادسة عشرة:

كيف نفهم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ فهل قضى الله هلاكها؟!

الجواب: هذه الآية من سورة الإسراء ومعناها كما قال قتادة: (قضاء من الله كما تسمعون ليس منه بدّ ، إما إن يهلكها بموت وإما أن يهلكها بعذاب مستأصل إذا تركوا أمره وكذبوا رسله) .

فالمعنىٰ: مامن قرية إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء ـ أي الموت ـ فمبيدوهم استئصالاً قبل يوم القيامة ، أو معذبوها ببلاء كقتل بالسيف أو غير ذلك من صنوف العذاب عذاباً شديداً.

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [إذا ظهر الزِّنا والرِّبا في قرية ، فقد أحلُّوا بأنفسهم عذابَ الله][1] .

وفي المسند وصحيح الحاكم عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا ظهرَ السوء في الأرض أنزل الله بأسه بأهل الأرض ، وإن كان فيهم قوم صالحون ، يصيبهم ما أصاب الناسَ ، ثم يرجعون إلى رحمة الله ومغفرته][2] .

المسألة السابعة عشرة:

هل القلم واحد قد كتب وانتهى ، أم هناك أقلام تكتب القدر وأعمال العباد؟!

الجواب: روىٰ أبو داود بسند صحيح عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب. قال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة][3] .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله كتب

---

(1) صحيح الجامع (692) .

(2) السلسلة الصحيحة (1372) وصحيح الجامع (693) .

(3) قد مضىٰ تخريجه .

مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. وكان عرشه على الماء][1].

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (ونؤمن باللوح والقلم وبجميع مافيه قد رقم. فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه، ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه. وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض، ولا معقب، ولا مزيل ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالىٰ في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2]. وقال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]. فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً)[2].

والراجح أن القلم أول مخلوق، فهو قبل العرش، ثم أُمِرَ بكتب كل شيء يكون ومنه العرش. وبعض المفسرين على أنه القلم المذكور بقوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فهذا هو القلم الأول.

والقلم الثاني: قلم الوحي. فهو الذي يُكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم وكل الأقلام خدَمٌ لأقلامهم، وقد رفع نبينا ﷺ ليلة الإسراء لمستوى سمع فيه صريف الأقلام وهي تكتب ما يوحيه الله تعالى من الأمور التي يدبرها لأمر العالم العلوي والسفلي.

والقلم الثالث: قلم الكتابة في الأرحام وبطون الأمهات.

ففي المسند بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى وَكَّلَ بالرحم

(1) قد مضى تخريجه.

(2) متن العقيدة الطحاوية فقرة (47),(48).

ملكاً يقول: أي ربِّ نطفةٌ، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب شقي أم سعيد؟ ذكر أو أنثىٰ، فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه][1]. وفي رواية: (فيقول الرب ويكتب الملك).

والقلم الرابع: قلم كتابة الملكين على العبد عند بلوغه. كما قال جل ثناؤه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾.

وفي معجم الطبراني بسند حسن عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [إن صاحِبَ الشمال ليرفع القلمَ ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء، فإن ندمَ واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتبت واحدة][2].

والخلاصة: إن الكتاب والسنة قد دلّ على أن الأقلام أربعة:

القلم الأول: هو القلم العام الذي كتبت به جميع أحداث الخلق والتقدير لكل المخلوقات في اللوح المحفوظ قبل حدوثها.

القلم الثاني: هو القلم الخاص بخبر خلق آدم وذريته، وذكر أعمالهم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقيب خلق أبيهم.

القلم الثالث: قلم الكتابة في الأرحام حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتابة أربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

القلم الرابع: قلم كتابة أعمال العبد عند بلوغه بأيدي الكرام الكاتبين.

المسألة الثامنة عشرة:

كيف يفهم قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ [الأعراف: 179].

الجواب: قال الحسن: (خلقنا). وقال مجاهد: (لقد خلقنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس).

وقال أبو جعفر: (لنفاذ علمه فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم بربهم).

---

(1) قد مضى بتمامه في بحث الإيمان بالملائكة.

(2) حسن. صحيح الجامع (2093).

وقال الإمام الطحاوي: (وإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له، والخير والشر مقدران على العباد)[1].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبىٰ لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل سوءاً ولم يدركه. فقال: أو غير ذلك يا عائشة! إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم][2].

والموجودات نوعان:

1- مسخر بطبعه: هداه لما سخّره له طبيعة.

2- متحرك بإرادته: هداه هداية إرادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره. ويقسم إلى ثلاثة أنواع:

أ- نوع لا يريد إلا الخير ولا يتأتىٰ منه إرادة سواه (كالملائكة).

ب- نوع لا يريد إلا الشر ولا يتأتىٰ منه إرادة سواه (كالشياطين).

ج- نوع يتأتىٰ منه إرادة القسمين (كالإنسان). ثم جعله ثلاثة أصناف:

ج-1: صنف يغلب إيمانُه ومعرفته وعقله هواه وشهوته فيلتحق بالملائكة.

ج-2: صنف عكسه فيلتحق بالشياطين.

ج-3: صنف تغلب شهوته البهيمية عقله فيلحق بالبهائم.

والمقصود أنه سبحانه أعطىٰ الوجودين: العيني والعلمي، فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده، فلا هداية إلا بتعليمه، وكله من الأدلة على كمال قدرته وثبوت وحدانيته وتحقيق ربوبيته.

(1) متن العقيدة الطحاوية فقرة (83).

(2) مختصر صحيح مسلم (1855).

وفي التنزيل: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: 2-3].

فالله سبحانه لا يمنع الثواب إلا إذا مُنع سببه وهو العمل الصالح فإنه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: 112]. ولا يعاقب سبحانه إلا بعد حصول سبب العقاب: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: 30].

وهو المعطي المانع، لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع. وإذا منّ على عبده بالإيمان والعمل الصالح فلا يمنعه موجب ذلك بل يغدق عليه من الثواب والقرب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وهو سبحانه يهدي من يشاء ويضل من يشاء بحكمة منه وعدل، ومن ثمّ فمنعه للأسباب التي هي الأعمال الصالحة من حكمته وعدله، فكل عطاء منه فضل وكل عقوبة منه عدل فهو الحكيم يضع الأمر بمحله.

قال في سورة الأنعام: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾.

وقال فيها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: 53].

المسألة التاسعة عشرة:

قيل: الاستطاعة لا تكون إلا قبل الفعل، وقيل بل هي مع الفعل؟! فما الجواب؟

الجواب: الاستطاعة والقدرة والوسع ألفاظ متقاربة تكلم في مفهومها العلماء، وخاض فيها قوم أخطؤوا طريق الوحي فضلوا وأضلوا.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله ـ في عقيدته ـ: (والاستطاعة التي يجب بها الفعل، من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به ـ فهي مع الفعل. وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات ـ فهي قبل

الفعل، وبها يتعلق الخطاب، وهو كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286][1].

وتقسم الاستطاعة عند أهل العلم إلى قسمين، استطاعة قبل العمل واستطاعة مع العمل. وقالت القدرية والمعتزلة: لا تكون القدرة إلا قبل الفعل، فقابلهم علماء أهل السنة بأنها لا تكون إلا مع الفعل. وتفصيل ذلك:

1- للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي وهذه القدرة قد تكون قبله، لا يجب أن تكون معه.

2- والقدرة التي بها الفعل لابد أن تكون مع الفعل، لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة.

3- أما القدرة التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فقد تتقدم الأفعال. وهي المذكورة بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[2]. فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج، ومن ثم فلم يعاقب أحداً على ترك الحج، وهذا خلاف المعلوم من الدين بالضرورة.

وبنحوه قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[3] فأوجب التقوىٰ بحسب الاستطاعة. فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوىٰ لم يكن قد أوجب التقوىٰ إلا على من اتقىٰ، ولم يعاقب من لم يتق وهذا معلوم الفساد.

4- والمراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: 4]: استطاعة الأسباب والآلات. وكذلك بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: 42]، وكذبهم الله بذلك، وإلا فلو كان المقصود حقيقة قدرة الفعل ما كانوا بنفيهم كاذبين. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [النساء: 25]، فالمراد استطاعة الآلات والأسباب.

---

(1) متن العقيدة الطحاوية (85).

(2) آل عمران 97.

(3) التغابن 16.

5- أما ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة فنحو قوله تعالىٰ :

﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ [هود : 20] .

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف : 67] .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف : 72] .

فالمراد حقيقة قدرة الصبر لا آلاته وأسبابه ، وحقيقة قدرة السمع والبصر لا آلاته وأسبابه ، فالآيات جاءت بموضع اللوم ، وإنما يلام من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل باشتغاله بغير ما أمر به ، أو لعدم اهتمامه بما أمر به ، فيحرمه الله التوفيق على الفعل .

6- أبعد القدرية الفهم حين قالوا بأن إقدار الله للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر سواء هذا رجَّح بنفسه الطاعة وذاك رجح المعصية واستدلوا بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الحجرات : 7]. فيقال : الكفار ليسوا راشدين ، والآية ليست عامة لكل الخلق ، بل هي للمؤمنين خاصة ، فالله خصَّ المؤمن المطيع بإعانة حصَّل بها الإيمان ، فالآية تتحدث عن هداية التوفيق والإلهام الخاصة بأهل الإيمان ، لا عن هداية الخلق العامة ـ هداية الدلالة والإرشاد ـ التي قام بها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

قال سبحانه في سورة الأنعام : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 125] .

وقال في سورة الكهف : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ .

فالقدرية لما رأوا الإقدار سواء ، رأوا أن القدرة لابد أن تكون قبل الفعل ، وهذا منشأ الضلال(1) .

---

(1) انظر شرح العقيدة الطحاوية ، فقرة (85) .

المسألة العشرون:

كيف تكون أفعال العباد خلقاً لله وكسباً من العباد؟! وكيف يعذب على ذنوب هو خلقها فيهم؟

الجواب:

1- الجبرية غَلَوْا بإثبات القدر فنفوا صنع العبد أصلاً. واستدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ قالوا: فنفاه عن نَبيه وأثبته لنفسه، قالوا: والجزاء غير مرتب على الأعمال لقوله ﷺ: [لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل] مسلم(1).

والآية دليل عليهم، فالله أثبت لرسوله ﷺ رمياً بقوله: «إذ رميت» فعلم أن المثبت غير المنفي. وذكر شارح الطحاوية رحمه الله: أن الرمي له ابتداء وانتهاء، فابتداؤه الحذف وانتهاؤه الإصابة، وكل منهما يسمىٰ رمياً، فالمعنىٰ والله أعلم: وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصاب. وإلا فطرد كلامهم: وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى، وما صمت إذ صمت! وما زنيت إذ زنيت! وما سرقت إذ سرقت! وفساد هذا ظاهر. وأما ترتيب الجزاء على الأعمال فضلت به الجبرية والقدرية، فالباء التي في النفي غيرُ الباء التي في الإثبات، فالمنفي في الحديث: [لن يدخل الجنة أحد بعمله] ـ الباء باء العِوَض ـ هو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله! كلا بل ذلك برحمة الله وفضله. والباء في قوله: «جزاء بما كانوا يعملون» ـ باء السبب ـ أي بسبب عملكم، والله خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضله سبحانه ورحمته.

2- القدرية: نفاة القدر، جعلوا العباد خالقين مع الله فكانوا مجوس هذه الأمة.

استدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14]. قالوا: والجزاء مرتب على الأعمال ترتب العوض، لقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

---

(1) صحيح الجامع (5105).

[السجدة: 17]. ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: 72].

وأما استدلالهم بقوله ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فالمراد به أحسن المصورين المقدرين. قال مجاهد: (يصنعون ويصنع الله، والله خير الصانعين).

وإنما الفصل في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، ومن ثم فإن (ما) في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ليست مصدرية ـ أي خلقكم وعملكم ـ فسياق الآية يأباه، لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنكر عليهم عبادة المنحوت لا النحت، وإنما تدل الآية أن المنحوت مخلوق لله وإن كان بفعلكم فكيف تعبدونه من دون الله؟

فلا منافاة بين كون العبد محدثاً لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالىٰ، كما قال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[1] فقوله: (فألهمها) إثبات للقدر، وقوله (فجورها وتقواها) إثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوىٰ إلى نفسه ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية، ثم قوله بعد ذلك ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ إثبات لفعل العبد.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (وأفعال العباد خلق الله، وكسب من العباد)[2].

فإن قيل كيف يعذب الله على ذنوب هو خلقها فيهم؟ قيل: الذنوب عقوبة من الله على ذنوب قبلها، فهي وإن كانت خلقاً لله إنما هي نحو عقاب السيئة السيئة بعدها، فالذنوب كالأمراض التي يورث بعضها بعضاً. فإن قيل فما الذنب الأول؟ قيل هو عدم فعل ما خُلق له العبد وفُطر عليه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾[3]، فإذا لم يفعل عوقب بتسليط الشيطان عليه يزين له المعصية ليركبها، وذلك أنه صادف قلباً خاوياً من تعظيم الله وأوامره، وإلا فلو كان الخير يغلب عليه لحال ضد تمكن الشيطان منه كما قال تعالىٰ:

---

(1) الشمس (7-8).
(2) متن العقيدة الطحاوية فقرة (86).
(3) الروم (30).

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف: 24].

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [ص: 82-83].

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾ [الحجر: 42-41].

قال شارح الطحاوية: (والإخلاص: خلوص القلب من تأليه ما سوىٰ الله تعالى وإرادته ومحبته، فخلص لله فلم يتمكن منه الشيطان).

المسألة الحادية والعشرون:

ما مفهوم قوله عليه السلام: (والشر ليس إليك)؟

الجواب: روى البزار عن حذيفة موقوفاً: [لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك] (الشفاعة).

وهو جزء من حديث علي في حديث الاستفتاح وفيه: [لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك] رواه مسلم(1).

فمن الأدب مع الله سبحانه أن لا ينسب الشر إليه وإن كان هو خلقه، فإن كل ما خلقه الله خير بالنسبة له سبحانه، وإن كان للعبد فيه ألم أو مرض أو نصب، فهو إما تكفير لسيئاته أو رفع لدرجاته، ومنه قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾(2) فنسب المرض لنفسه تأدباً مع الله، والشفاء له سبحانه، فإنه مامن شيء يصيب العبد إلا بذنب.

وقد يسلط الله الشيطان على الذين يتولونه عقوبة لهم، والعقوبة نوعان:

1- جعله مذنباً مخطئاً: بسبب عدم إخلاصه وإقباله على الله، وقد لا يحس بألمها ومضرتها لموافقتها شهوته.

2- العقوبات المؤلمة بعد فعله السيئات: ففي التنزيل: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ

(1) جزء من حديث طويل، مختصر مسلم (278) كتاب الصلاة، باب: ما يقال بين التكبير والقراءة.

(2) الشعراء (80).

بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44].

المسألة الثانية والعشرون:

قيل: العطاء والتوفيق إحسان ورحمة منه سبحانه، فهلاّ كان له الغلبة كما غلبت رحمته غضبه؟

الجواب: إنما يكون المانع ظالماً إذ منع غيره حقه، وأما إذا منع غيره ما ليس بحق له بل هو محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالماً بمنعه. ومنه القاعدة التالية:

(منع الحق ظلم ومنع الفضل والإحسان عدل).

فالله سبحانه هو العدل في منعه كما هو المحسن المنان بعطائه.

فإن قيل: لم تفضل على هذا ولم يتفضل على الآخر؟

الجواب: أجاب سبحانه على ذلك فقال:

1- ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21].

2- ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: 29].

3- ولما سأله اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الأمة بأجرين وإعطائهم هم أجراً أجراً قال ـ كما روى البخاري من حديث ابن عمر ـ [هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء][1].

4- ولما استشكل أعداؤه المشركون هذا التخصيص قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾؟ فأجابهم سبحانه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: 53].

5- ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124].

فهو سبحانه أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر من

---

(1) جزء من حديث طويل رواه البخاري عن ابن عمر.

المحل الذي لا يصلح لغرسها فلو غُرست فيه لم تثمر ، فكان غرسها ضائعاً لا يليق بالحكمة .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس : [أن النبي ﷺ قال لأشَجِّ عبد القيس : إن فيك لخلتين يحبهما الله : الحلمُ والأناة . فقال : أخُلقين تخلقتُ بهما؟ أم خُلقين جُبلت عليهما؟ فقال : بل خُلقان جُبلت عليهما . فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله تعالىٰ][1] .

وجملة القول : إنّ فعلَ العبد فعلٌ له حقيقة ولكنه مخلوق لله تعالىٰ ، ومفعول لله تعالىٰ ، ليس هو نفسَ فعل الله . ففرق بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق .

فأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد[2] . والكسب : هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفعٌ أو ضرر ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ والعبد محاسب على فعله الإرادي الكسبي . قال الإمام الطحاوي رحمه الله : (ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون ، ولا يطيقون إلا ما كلفهم . وهو تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله ، نقول : لا حيلة لأحد ولا تحول لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله ، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله ، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره . غلبت مشيئته المشيئات كلها ، وعكست إرادته الإرادات كلها ، وغلب قضاؤه الحيل كلها . يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾)[3] .

المسألة الثالثة والعشرون :

ما مثال الكوني والشرعي في القضاء والإرادة والإذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات؟

الجواب : لقد فصل الله ذلك في القرآن الكريم .

1- القضاء الكوني : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 12] .

---

(1) صحيح مسلم (1/35-36) .

(2) وانظر شرح العقيدة الطحاوية .

(3) متن العقيدة الطحاوية فقرة (87-88) .

2- القضاء الديني الشرعي: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: 23].

3- الإرادة الكونية: ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: 82].

4- الإرادة الشرعية: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: 27].

5- الأمر الكوني: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: 82].

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: 16].

6- الأمر الشرعي: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: 90].

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: 58].

7- الإذن الكوني: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 102].

8- الإذن الشرعي: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: 5].

9- الكتاب الكوني: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: 11].

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: 105].

10- الكتاب الشرعي: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ﴾ [المائدة: 45].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: 183].

11- الحكم الكوني: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [يوسف: 80].

﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 112].

12- الحكم الشرعي: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا . . . إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: 1].

﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: 10].

13- التحريم الكوني: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: 26].

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: 95].

14- التحريم الشرعي: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: 3].

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: 23].

15- الكلمات الكونية: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: 137].

وفي الحديث: [أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر][1].

16- الكلمات الشرعية: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: 124].

المسألة الرابعة والعشرون:

ما مفهوم قوله عليه السلام: [لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم] رواد أحمد عن زيد بن ثابت؟

الجواب: إن أهل السنة علموا عظمة ربهم وقدر نعمه عليهم، وعدم قيام الخلق بحقوقه عجزاً أو جهلاً أو تفريطاً، فحقه أن يطاع سبحانه فلا يُعصىٰ، ويُذكر فلا يُنسىٰ، ويُشكر فلا يُكفر، وتكون قوة الحب والإنابة والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء كلها متوجهة إليه متعلقة به، ولما كان لا يستطيع أحد المداومة على هذا الكمال الذي يليق بجلاله سبحانه، فإنه لو عذب عباده وخلقه جميعهم كان غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [لن ينجي أحداً منكم عمله

(1) جزء من حديث رواه مالك في الموطأ عن القعقاع بن حكيم.

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل][1].

ولما سأله الصديق يوماً دعاء يدعو به في صلاته أجابه: [قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم] أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي بكر[2].

المسألة الخامسة والعشرون:

هل تصل الصدقة إلى أعمال الأموات فتنفعهم أم لا يفيدهم إلا الدعاء؟

الجواب: ينتفع الميت من عمل غيره بأمور:

1- دعاء المسلم له، إن توفرت فيه شروطُ القبول.

ففي التنزيل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

فأثنىٰ عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل ذلك على انتفاع الأموات باستغفار الأحياء لهم.

وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: [دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملكٌ مَوَكَلّ، كُلّما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكَّلُ به: آمين ولك بِمثل][3].

قال الألباني في أحكام الجنائز: (بل إن صلاة الجنازة جُلّها شاهدٌ لذلك، لأن غالبها دعاء للميت واستغفار له).

وقال الطحاوي في عقيدته: (وفي دعاء الأحياء للأموات وصدقتهم[4] منفعة

---

(1) صحيح الجامع (5105).
(2) مختصر مسلم (307) كتاب الصلاة. باب: الدعاء في الصلاة.
(3) مختصر صحيح مسلم (1882).
(4) سيأتي تفصيل الراجح في شأن الصدقة إن شاء الله.

للأموات ، والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات)[1] .

وفي صحيح أبي داود عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : [كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال : استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسأل][2] .

وفي صحيح مسلم عن بُريدة قال : [كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُهم إذا خرجوا إلى المقابر ، فكان قائلهم يقول : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون ، أنتم لنا فَرَط ، ونحنُ لكم تبع ، أسأل الله لنا ولكم العافية][3] .

2- قضاء وليِّ الميت صومَ النذر عنه .

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : [مَنْ ماتَ وعليه صيام ، صامَ عنه وليُّه][4] .

وفي صحيح أبي داود ومسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه : [أن امرأة ركبت البحر فَنَذَرتْ ، إن الله تبارك وتعالى أنجاها أن تصوم شهراً ، فأنجاها الله عز وجل ، فلم تَصُم حتى ماتت ، فجاءت قَرابَةٌ لها (إما أُخْتُها أو ابنتُها) إلى النبي ﷺ ، فذكرت ذلك له ، فقال : أرأيتُك لو كان عليها ديْنٌ كنتِ تقضينَه؟ قالت : نعم . قال : فدينُ الله أحق أن يُقضىٰ ، فاقض عن أمِّك][5] .

وكذلك في الصحيحين عن ابن عباس : [أن سعدَ بن عبادة رضي الله عنه استفتىٰ رسولَ الله ﷺ : إن أمي ماتت وعليها نَذْرٌ؟ فقال : اقضِه عنها][6] .

وذهب الشافعية وابن حزم إلى أن إطلاق الحديث الأول (من مات وعليه صيام

---

(1) متن العقيدة الطحاوية فقرة (89 - 90) .
(2) أخرجه أبو داود (70/2) وصححه الألباني في أحكام الجنائز (107) ص 156 .
(3) صحيح مسلم (65/3) .
(4) مختصر صحيح مسلم (605) .
(5) صحيح أبي داود (2829) تحقيق الألباني .
(6) ورواه أبو داود . انظر صحيح أبي داود (2828) .

صام عنه وليه)[1] يدل على صوم الفرض أيضاً. بينما قال الحنابلة إنه يحمل على صوم النذر. قال أبو داود في المسائل: (96):

(سمعت أحمد بن حنبل قال: لا يُصام عن الميت إلا في النذر).

ويؤيده ما أخرج الطحاوي وابن حزم وقواه الألباني عن عَمْرَة: [أن أمها ماتت وعليها من رمضان فقالت لعائشة: أقضيه عنها؟ قالت: لا بل تصدقي عنها مكان كلِّ يوم نصفَ صاع على كل مسكين][2].

وله شاهد عند أبي داود عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: [إذا مَرِضَ الرجلُ في رمضان، ثم مات ولم يَصم، أطعم عنه ولم يكن عليه قضاءٌ، وإن كان عليه نَـذْرٌ قضى عنه وليه] وسنده صحيح[3].

وقد أجاد ابن القيم في إعلام الموقعين بعد أن ذكر الحديث وصححه[4] فقال: (فطائفة حملت هذا على عمومه وإطلاقه، وقالت: يُصام عنه النذر والفرض. وأبت طائفة ذلك وقالت: لا يُصام عنه نذرٌ ولا فرض، وفصّلت طائفة فقالت: يُصام عنه النذر دون الفرض الأصلي. وهذا قول ابن عباس وأصحابه، وهو الصحيح، لأن فرض الصيام جارٍ مجرىٰ الصلاة، فكما لا يُصلي أحدٌ عن أحد، ولا يُسلم أحد عن أحد، فكذلك الصيام، وأما النذر فهو التزامٌ في الذمة بمنزلة الدين، فيُقبل قضاءُ الولي له كما يقضي دينه، وهذا مَحْضُ الفقه. وطردُ هذا أنه لا يَحُجُّ عنه، ولا يُزكي عنه إلا إذا كان معذوراً بالتأخير كما يُطعم الوليُّ عمّن أفطر في رمضان لِعُذْر، فأما المُفَرِّطُ من غير عُذر أصلاً فلا ينفعُه أداءُ غيره لفرائضِ الله التي فرَّط فيها، وكان هو المأمورَ بها ابتلاءً وامتحاناً دون الولي، فلا تنفع توبةُ أحد عن أحد، ولا إسلامُه عنه، ولا أداءُ الصلاة عنه ولا غيرُها من فرائض الله تعالى التي فرَّط فيها حتىٰ مات).

3- قضاء الدَّين عنه من أي شخصٍ وليّاً كان أو غيره.

---

(1) صحيح مسلم عن عائشة، وصحيح أبي داود (2100).

(2) تخريج الطحاوية (89-90).

(3) صحيح أبي داود (2101).

(4) أي حديث عائشة الأول. انظر أحكام الجنائز.

أخرج الحاكم وصححه الألباني من حديث جابر قال: [مات رجل، فغسلناه وكفَّناه وحَنَّطْناه، ووضعناه لرسول الله ﷺ حيث توضع الجنائز، عند مقام جبريل، ثم آذنا رسول الله ﷺ بالصلاة عليه، فجاء معنا، فتخطّىٰ خُطىً، ثم قال: لعل على صاحبكم ديناً؟ قالوا: نعم ديناران، فتخلف، فقال له رجل منا يُقال له أبو قتادة: يا رسول الله هما علي، فجعل رسول الله ﷺ يقول: هما عليك وفي مالك، والميت منهما بريء؟ فقال: نعم، فصلىٰ عليه][(1)].

4- الأعمال الصالحة من الولد الصالح.

فإن لوالديه مثلَ أجره، دون أن ينقُصَ من أجره شيء، لأن الولد من سعيهما وكسبهما، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: 39].

وفي صحيح أبي داود عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [إن أطيب ما أكلَ الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه][(2)].

وله شاهد في المسند من حديث عائشة عن النبي ﷺ قال: [إن أولادكم من أطيب كسبكم، فكلوا من كسب أولادكم][(3)].

ومن تلك الأعمال الصدقة والصيام والعتق ونحوه لأحاديث منها:

أ ـ أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: [أن رجلاً قال: إنّ أمي افْتُلِتَتْ[(4)] نفسُها ولم تُوص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجْرٌ إن تصدَّقْتُ عنها ولي أجر؟ قال: نعم، فتصدق عنها][(5)].

ب ـ أخرج البخاري وأحمد واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنه: [أن سَعْدَ بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها، فقال: يا رسولَ الله إن أمي توفيت، وأنا غائب

---

(1) أخرجه الحاكم (58/2) وصححه الألباني في أحكام الجنائز 17 ص 16.

(2) صحيح أبي داود (3013).

(3) ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو. صحيح أبي داود (3015).

(4) أي ماتت فجأة.

(5) أخرجه البخاري (198/3) ومسلم (81/3).

عنها ، فهل ينفعُها إن تصدَّقت بشيء عنها؟ قال : نعم ، قال : فإني أشهِدُك أن حائطَ المِخْراف[1] صدقةٌ عليها][2] .

جـ - أخرج مسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه : [أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إن أبي مات وترك مالاً ولم يُوص فهل يكفِّر عنه أن أتصدق عنه؟ قال : نعم][3] .

د - وفي صحيح أبي داود من حديث عبد الله بن عمرو : [أن العاصَ بن وائل السَّهْمي أوصىٰ أن يُعْتَقَ عنه مائةُ رقبة ، فأعتق ابنُه هشام خمسين رقبة ، وأراد ابنُه عمرو أن يُعتق عنه الخمسين الباقية ، قال : حتىٰ أسأل رسول الله ﷺ ، فأتىٰ النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن أبي أوصىٰ أن يُعتق عنه مائة رقبةٍ ، وإن هشاماً أعتق عنه خمسين ، وبقيت عليه خمسون ، أفأعتِقُ عنه؟ فقال رسول الله ﷺ : (إنه لو كان مسلماً فأعتقتم أو تصدَّقتم عنه ، أو حَجَجْتُم عنه بلغه ذلك ، وفي لفظ : فلو كان أقرَّ بالتوحيد فصُمت وتصدّقت عنه نفعه ذلك)][4] .

فائدة : كل الأحاديث تفيد أن الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما بدون وصية منهما ، ويصل إليهما ثوابُها . قال الشوكاني[5] : (فيخصَّص بهذه الأحاديث عمومُ قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ . ولكن ليس في أحاديث الباب إلا لحوق الصدقة من الولد ، وقد ثبت أن ولد الإنسان من سعيه فلا حاجة إلى دعوىٰ التخصيص ، وأما من غير الولد فالظاهر من العموميات القرآنية أنه لا يصلُ ثوابُهُ إلى الميت ، فيوقَفُ عليها ، حتى يأتي دليلٌ يقتضي تخصيصها)[6] .

وقد استنبط الشافعي رحمه الله من الآية : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أن القراءة لا يصل إهداءُ ثوابها إلى الموتىٰ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم . ذكره

---

(1) أي المثمر - لما يخرف منه أي يجنىٰ ثمره - .
(2) أخرجه البخاري (297/5) ، وأحمد (3080) .
(3) أخرجه مسلم (73/5) .
(4) حسن . أخرجه أبو داود في آخر الوصايا (15/2) وصححه الألباني في أحكام الجنائز (117) ص 173 .
(5) أحكام الجنائز نقلاً عن نيل الأوطار .
(6) نقلاً عن أحكام الجنائز ص (173) .

الحافظ ابن كثير في التفسير ثم قال: (ولهذا لم ينذُب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه).

وقال العز بن عبد السلام: (ومن فعل طاعة لله تعالى ، ثم أهدى ثوابها إلى حيّ أو ميت ، لم يُنتقل ثوابُها إليه ، إذ ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فإن شَرَعَ في الطاعة ناوياً أن يقع عن الميت لم يقع عنه ، إلا فيما استثناه الشرعُ كالصدقة والصوم والحج)[1].

5- الآثار الصالحة والصدقات الجارية يخلفها الميت.

ففي التنزيل: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس: 12].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [إذا مات الإنسان انقطع عنه عملهُ إلا من ثلاثة أشياء ، إلا من صدقة جارية ، أو علمٍ يُنْتفعُ به ، أو ولدٍ صالح يدعو له][2].

وفي صحيح ابن ماجه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته ، علماً علّمه ونشره ، وولداً صالحاً تركه ، ومُصْحفاً ورَّثه ، أو مسجداً بناهُ ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقُهُ من بعد موته][3].

والخلاصة: يصل إلى الميت من الحي: الدعاء ، وصوم النذر من الولي ، وقضاء الدين ، وأعمال الصلاح من الولد الصالح ، والحج عنه حالة وصيته بذلك ، وينتفع بالآثار الصالحة والصدقات الجارية التي خلفها ، وأما العبادات البدنية كالصلاة والصوم وقراءة القرآن والذكر فالراجح عدم وصولها وبه قال الشافعي ومالك وكثير من العلماء المحققين رحمهم الله جميعاً.

---

(1) نقلاً عن أحكام الجنائز ص (174).

(2) مختصر صحيح مسلم (1001).

(3) صحيح ابن ماجه (198) تحقيق الألباني.

المسألة السادسة والعشرون:

ما مفهوم السببية وأفعال المخلوقات؟ هل النار تحرق بطبعها أم يُخلق الحرق فيها عند الاشتعال؟

الجواب: هذه من آثار فلسفة الأشاعرة الذين أنكروا الربط العادي بإطلاق وأن يكون شيء يؤثر في شيء وأنكروا كل «باء سَبَبِيَّة» في القرآن، وكفّروا وبدّعوا من خالفهم، ومأخذهم فيها هو مأخذهم في القدر، فمثلاً عندهم: من قال إن النار تحرق بطبعها أو هي علة الإحراق فهو كافر مشرك لأنه لا فاعل عندهم إلا الله مطلقاً. ومن ذلك قولهم: الرجل إذا كسر الزجاجة ما انكسرت بكسره وإنما انكسرت عند كسره، والنار إذا أحرقت ما تحرق ما احترق بسببها وإنما احترق عندها لا بها، فالإنسان إذا أكل حتىٰ شبع ما شبع بالأكل، وإنما شبع عند الأكل.

ومن قال عندهم أن النار تحرق بقوة أودعها الله فيها فهو مبتدع ضال، قالوا: إن فاعل الإحراق هو الله ولكن فعله يقع مقترناً بشيء ظاهري مخلوق، فلا ارتباط عندهم بين سبب ومسبب أصلاً، وإنما المسألة اقتران كاقتران الزميلين من الأصدقاء في ذهابهما وإيابهما.

ومن متونهم في العقيدة:

والفعل في التأثير ليس إلا	للواحد القهار جل وعلا
ومن يقل بالطبع أو بالعلة	فذاك كفر عند أهل الملة
ومن يقل بالقوة المودعة	فذاك بدعي فلا تلتفت

والغريب أن هذا هو مذهب ما يسمىٰ المدرسة الوضعية من المفكرين الغربيين المحدثين ومن وافقهم من ملاحدة العرب، وما ذاك إلا لأن الأشاعرة والوضعيين كلاهما ناقل عن الفكر الفلسفي الإغريقي[1].

وإنما جواب الوحي الكريم عن هذه المسألة المحدثة التي أفرزتها مدرسة الفلسفة كما يلي:

إن الله قسم المقادير وغرّز الغرائز وبسط السنن في مخلوقاته، وفرغ من ذلك

(1) منهج الأشاعرة في العقيدة، د. سفر الحوالي ص 46.

قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة .

قال تعالىٰ : ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : 1-3] .

وقال سبحانه : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : 50] .

وفي المسند من حديث عبادة : [إن أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له اكتب ، فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة . يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار] وسنده صحيح[1] .

* * *

(1) ورواه الترمذي وأبو داود . انظر صحيح الجامع (2013),(2014) .

- 26 -

ـ الفِـرَق وبيـان مناهجهـا ـ

1 ـ المعتزلة

هم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزَّال وأصحابهما ، سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري أوائل المائة الثانية ، وكانوا يجلسون معتزلين ، وقيل : إن واصل بن عطاء هو وضع أصول المذهب وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري . فلما كان زمن هارون الرشيد صنَّف لهم أبو الهذيل كتابين وبيَّن مذهبهم الذي يقوم على الأصول الخمسة التي سمَّوها :

1 ـ العدل .

2 ـ التوحيد .

3 ـ إنفاذ الوعيد .

4 ـ المنزلة بين المنزلتين .

5 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولبَّسوا الحق بالباطل ، وهم مشبهة الأفعال لأنهم قاسوا أفعال الله على أفعال عباده ، وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه ، وما يقبح من العباد يقبح منه ، وقالوا : يجب عليه أن يفعل كذا ، ولا يجوز له أن يفعل كذا بمقتضىٰ ذلك القياس الفاسد . (فلو رأى السيد عبده يزني بأمته ولم يمنعه لكان مستحسناً للقبيح أو عاجزاً ! !) .

وتفصيل ذلك :

1 ـ العدل: ستروا تحته نفي القدر ، وقالوا: إن الله لا يخلق الشر ولا يقضي به ، إذ لو خلقه ثم يعذبهم عليه كان جائراً ، فاتفقوا: أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير ، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد ، وأما الأصلح واللطف ففي وجوبه عندهم خلاف ، وسمُّوا هذا النمط عدلاً. ويلزم من أصلهم الفاسد أن الله يكون في ملكه ما لا يريده ، فيريد الشيء ولا يكون ، ولازمه وصفه بالعجز ، تعالى الله عما يصفون.

2 ـ التوحيد: ستروا تحته القول بخلق القرآن ، إذ لو كان غير مخلوق لزم تعدد القدماء ، فاتفقوا أن كلامه محدَث مخلوق في محل ، وهو حرف وصوت ، كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه. ويلزمهم على هذا الأصل الفاسد أن علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة أو التناقض. واتفقوا أن الإرادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته. واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ، ونفي التشبيه عنه من كل وجه: جهة ومكاناً وصورة وجسماً وتحيزاً ، وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً ، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط توحيداً.

3 ـ إنفاذ الوعيد: قالوا: إذا أوعد بعض عبيده وعيداً فلا يجوز أن لا يعذبهم ويخلف وعيده لأنه لا يخلف الميعاد ، فلا يعفو عمن يشاء ولا يغفر لمن يريد عندهم. فاتفقوا أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة ، استحق الثواب والعوض.

والتفضل معنىً آخر وراء الثواب. وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها ، استحق الخلود في النار ، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار ، وسموا هذا النمط: وعداً ووعيداً.

4 ـ المنزلة بين المنزلتين: فعندهم من ارتكب كبيرة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر.

5 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قالوا: علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به ، وأن نُلزمه بما يلزمنا ، وذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وضمنوه أنه يجوز الخروج على الأئمة بالقتال إذا جاروا.

ومن عقائدهم :

أ ـ عندهم التوحيد والعدل من الأصول العقلية التي لا يعلم صحة السمع إلا بعدها وإذا استدلوا بأدلة سمعية فللاعتضاد لا للاعتماد ، فيقولون لا نثبت هذه بالسمع بل العلم بها متقدم على العلم بصحة النقل . والقرآن عندهم بمنزلة الشهود الزائدين على النصاب .

ب ـ ويُسَمّون أصحاب العدل والتوحيد ويُلَقَّبُون بالقدرية والعدلية ، وقد جعلوا لفظ القدرية مشتركاً وقالوا : لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله احترازاً من وصمة اللقب ، إذ كان الذم متفقاً عليه لقول النبي ﷺ : [القدرية مجوس هذه الأمة](1) .

ج ـ يقولون بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف ذاته . ونفوا الصفات القديمة أصلاً فقالوا : هو عالم بذاته ، حي بذاته ، لا بعلم وقدرة وحياة ، هي صفات قديمة ومعان قائمة به ، لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية .

د ـ واتفقوا أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة ، والرب تعالى منزه أن يضاف إليه شر وظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً ، كما لو خلق العدل كان عادلاً .

هـ ـ واتفقوا على أن أصول المعرفة وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع . والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل . واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك ، وورود التكاليف ألطاف للباري تعالى ، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال : 42] .

و ـ واختلفوا في الإمامة والقول فيها نصاً ، واختياراً(2) .

والمعتزلة يقولون بوجوب تكليف الله تعالى للإنسان ما يستطيعه معتمدين على

---

(1) قد مضى بتمامه في بحث القدر .

(2) الملل والنحل للشهرستاني ، وشرح العقيدة الطحاوية .

مقولة القبح العقلي ، ووجوب فعل الأصلح على الله تعالى ، ويا لها من جرأة ـ أو بشكل أدق ـ قلة أدب مع الله جل ثناؤه ، وسبب ذلك اعتمادهم على العقل ومقولاته ، فيوجبون على الله ويحيلون ، ويجوِّزون ، طالما أن عقولهم توجب وتحيل وتجوِّز ، وربما كان خطأ بعض علماء الإسلام مناقشة المعتزلة دون بحث أصل المشكلة : وهو مدىٰ استعمال العقل ، وتحديد قيمة النص القرآني والحديثي ، وضرورة الاحتكام إليهما .

وقد أجاد الأستاذ غازي التوبة[1] بقوله : (فهل يحاكم ـ نحن البشر الضعاف ـ ذات الله ـ تعالى ـ؟ فنوجب عليه ـ تعالى ـ ، ونريد له ـ تعالى ـ بعقولنا القاصرة؟ أم نوجب له ـ تعالى ـ ما أوجبه على نفسه ، ونريد له ما أراده الله ـ تعالى ـ لذاته على لسان رسله وعن طريق كتبه؟ ما أظن مؤمناً يتوقف لحظة واحدة عن التسليم بإيجاب ما أوجبه ـ تعالى ـ على نفسه ، لأنه مقتضىٰ العقل السليم ، ومطلب الإيمان الحقيقي) .

2 ـ الصفاتية ـ (الأشعرية ـ الأشاعرة ـ الماتريدية ، المشبهة)

قال الشهرستاني في الملل والنحل/ 92/ : (اعلم أن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم ، والقدرة ، والحياة ، والإرادة والسمع ، والبصر ، والكلام ، .والجلال ، والإكرام ، والجود ، والإنعام ، والعزة ، والعظمة ، ولا يفرقون بين صفات الذات ، وصفات الفعل بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً ، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل اليدين ، والوجه ولا يؤولون ذلك إلا أنهم يقولون : هذه الصفات قد وردت في الشرع ، فنسميها صفات خبرية . ولما كانت المعتزلة ينفون الصفات والسلف يثبتون ، سمي السلف صفاتية ، والمعتزلة معطلة .

فبالغ بعض السلف في إثبات الصفات إلى حد التشبية بصفات المحدثات ، واقتصر بعضهم على صفات دلت الأفعال عليها وما ورد به الخبر ، فافترقوا فرقتين :

---

(1) في مجال العقيدة نقد وعرض . غازي التوبة ص 51 .

فمنهم من أوله على وجه يحتمل اللفظ ذلك. ومنهم من توقف في التأويل، وقال: عرفنا بمقتضىٰ العقل أن الله تعالى ليس كمثله شيء، فلا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء منها، وقطعنا بذلك، إلا أنا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾. ومثل قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. ومثل قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾. إلى غير ذلك. ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له، وليس كمثله شيء، وذلك قد أثبتناه يقيناً.

ثم إن جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف، فقالوا: لا بد من إجرائها على ظاهرها، فوقعوا في التشبيه الصرف، وذلك على خلاف ما اعتقده السلف.

ثم الشيعة في هذه الشريعة وقعوا في غلو وتقصير، أما الغلو فتشبيه بعض أئمتهم بالإله تعالى وتقدس، وأما التقصير فتشبيه الإله بواحد من الخلق. ولما ظهرت المعتزلة والمتكلمون من السلف رجعت بعض الروافض عن الغلو والتقصير، ووقعت في الاعتزال، وتخطت جماعة من السلف إلى التفسير الظاهر فوقعت في التشبيه.

وأما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل، ولا تهدفوا للتشبيه فمنهم: مالك بن أنس رضي الله عنهما، إذ قال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. ومثل أحمد بن حنبل رحمه الله، وسفيان الثوري، وداود بن علي الأصفهاني، ومن تابعهم.

حتى انتهى الزمان إلى عبد الله بن سعيد الكلابي، وأبي العباس القلانسي، والحارث بن أسد المحاسبي، وهؤلاء كانوا من جملة السلف إلا أنهم باشروا علم الكلام، وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية، وبراهين أصولية، وصنف بعضهم ودرسَ بعض حتىٰ جرىٰ بين أبي الحسن الأشعري وبين أستاذه مناظرة في مسائل من مسائل الصلاح والأصلح فتخاصما، وانحاز الأشعري إلى هذه الطائفة، فأيد مقالتهم بمناهج كلامية، وصار ذلك مذهباً لأهل السنة والجماعة، وانتقلت سمة الصفاتية إلى الأشعرية.

أ ـ الأشعرية[1] :

هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفىٰ 324 هـ ، المنتسب إلى أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه. ولد أبو الحسن الأشعري في البصرة 260 هـ والتحق بالمعتزلة مبكراً ، ودرس مذهب الاعتزال على الجبائي رئيس معتزلة البصرة ، واستمر في الدراسة حتى بلغ في الاعتزال مبلغاً خطيراً كان له أكبر الأثر في تقدير أستاذه له وإنابته عنه في بعض المجادلات والمناظرات ، واستمر على هذا الوضع حتى بلغ الأربعين من عمره.

ثم اعتزل في بيته بالبصرة عدة أيام وخرج إلى المسجد فيها ، ورقي كرسياً ثم نادىٰ : (من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي : أنا فلان بن فلان ، كنت قد قلت بخلق القرآن ، وأن الله لا يُرى بالأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع)[2].

ويذكر المؤرخون ثلاثة أسباب لهذا التحول :

أولها : مناظرة مع أستاذة الجبائي : (ناظر أستاذه الجبائي في ثلاثة : مؤمن وكافر وصبي ، وقد أجابه أستاذه أن المؤمن من أهل الدرجات ، والكافر من أهل الهلكات ، والصبي من أهل النجاة ، فقال الأشعري : إن أراد الصبي أن يرقىٰ إلى أهل الدرجات ، هل يمكن؟ قال الجبائي : يقال له : إن المؤمن نال هذه الدرجة بالطاعة وليس لك مثلها.

قال الأشعري : فإن قال : التقصير ليس مني فلو أحييتني كنت عملت من الطاعات كعمل المؤمن.

قال الجبائي : يقول له : كنت أعلم لو بقيت لعصيت ، ولعوقبت ، فراعيت مصلحتك أَمَتّك قبل أن تنتهي إلى سن التكليف.

قال الأشعري : لو قال الكافر : يا رب علمت حاله كما علمت حالي ، فهلاّ راعيت مصلحتي مثله ، فانقطع الجبائي)[3].

---

(1) تحليل ملخص من كتاب ـ في مجال العقيدة نقد وعرض ـ غازي التوبة.

(2) ابن النديم ، الفهرست ، ص 271 ، ط. مصر.

(3) السبكي ، طبقات الشافعية ، ج2 ، ص250 - 251.

وينقل السبكي مناظرة أخرى في أسماء الله هل هي توقيفية؟

ويبدو أن عجز أستاذه عن إجابة مقنعة في إحدى القضايا هي التي أنهت علاقة الأشعري بمذهب الاعتزال.

ثانيهما: رؤاه. وهي رؤياه للرسول ﷺ يدعوه لترك الكلام ونصرة مذهب أهل السنة. ذكرها المؤرخون.

ثالثهما: تأثره بالشافعي رحمه الله. فقد كان أبو الحسن الأشعري شافعي المذهب، وقد درس الفقه الشافعي على أبي إسحاق المروزي ـ كما ذكر السبكي في طبقات الشافعية ج 2، ص 248 ـ في الوقت الذي كان يدرس مذهب الاعتزال، وربما كانت عقلية الشافعي الفذة عاملاً أثّر في أبي الحسن الأشعري وحوّله، لاسيما أن الشافعي جمع بين القواعد والفروع، وتوسط بين أهل الرأي وأهل الحديث، فكان مذهبه أقصد المذاهب وأوسطها.

وقد وصلنا من كتب أبي الحسن الأشعري ثلاثة كتب ورسالتان، أما الكتب فهي:

1 ـ مقالات الإسلاميين.

2 ـ الإبانة عن أصول الديانة.

3 ـ اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع.

وأما الرسالتان فهما:

1 ـ رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام.

2 ـ رسالة كتب بها إلى أهل الثغر بباب الأبواب.

ففي كتاب «اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع» دلّل الأشعري على الخالق، ثم تحدث عن صفاته سبحانه وأنه ليس كمثله شيء، ثم ردَّ على شبهة كون الله جسماً، ثم قدَّم الدلائل على كونه تعالى سميعاً بصيراً، ثم بين أن الله عالم بعلم واستشهد بقوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾. ثم انتقل لموضوع الكلام في القرآن ودلّل على تكلم الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وردَّ شبهة خلق القرآن، ثم

ردَّ بعض شبه المعتزلة ، ثم أثبت وجهة نظر أهل السنة برؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة ، وفنَّد أقوال المعتزلة .

وفي كتاب «الإبانة عن أصول الديانة» دار كلام الأشعري حول محورين ، الأول : أقوال المخالفين . والثاني : أقوال أهل السنة .

فذكر إنكار أهل الزيغ والبدع رؤية الله يوم القيامة بالأبصار ، وإنكارهم شفاعة الرسول ﷺ ، وجحودهم عذاب القبر ، وقولهم بخلق القرآن ، وإثباتهم للعباد خلق الشر ، وحكمهم على العصاة بالخلود في النار ، وإنكارهم صفات الله وتعطيلها ، ونفيهم نزوله سبحانه كل ليلة إلى السماء الدنيا .

ثم بين قول أهل الحق والسنة : الإقرار باستقرار الله على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنىٰ الذي أراده ، وبأن له وجهاً ويدين وعينين بلا كيف ، وبإثبات العلم والسمع والبصر له ـ تعالى ـ ، وأن أعمال العباد مخلوقة مقدورة لله ـ تعالى ـ ، وأن الله يُرى في الآخرة ، وبعدم تكفير أحد من أهل القبلة بذنب ، وبرجاء الجنة للمذنبين ، وبالإيمان بعذاب القبر ، وبأن الميزان حق والبعث حق ، وبتولي جميع الصحابة ، وبالاعتراف بأن الأئمة الأربعة خلفاء راشدون مهديون ، وبالتصديق بالروايات التي يثبتها أهل النقل عن نزول الرب ـ عز وجل ـ إلى السماء الدنيا كل ليلة ، وبمجيء الله تعالى يوم القيامة بلا كيف ، وبصلاة الجمعة والأعياد خلف كل بر وفاجر ، وبالمسح على الخفين ، . . . الخ .

ثم يدلِّل على ما سبق ويبطل آراء الخصوم ، ثم يناقش آراء المعتزلة في الشفاعة والحوض وعذاب القبر ، وإمامة أبي بكر الصديق .

والسمة العامة للكتابين هي سمة الدفاع التي ستصبح فيما بعد سمة كتب العقائد جميعها ، والتي ترد على آراء المخالفين وبالذات «المعتزلة» . ويلاحظ أن أبا الحسن الأشعري وغيره فصَّل في الدفاع والرد ، وأغفل الوجه الإيجابي من الدين بكل ما يشمله : من تأليه للرب ، وتعظيم له تعالى ، وتوتر تعيشه النفس البشرية من أجل تحقيق هذا التعظيم ، وصوارف تبعدها عنه ، الخ .

ويبدو أن أبا الحسن الأشعري لم يكتف بدلائل القرآن والحديث بل دعا إلى

اعتماد علم الكلام للدفاع عن حقائق الدين. ويمكن البحث في جديد أبي الحسن الأشعري في مجالين:

1 ـ مضمون الدفاع.

2 ـ وسيلة الدفاع.

فالمضمون متابع لأهل الحديث والسنة: من إثبات صفات الله وعذاب القبر وخلق الله أفعال الإنسان والرفض بقول خلق القرآن. قال في كتابه: «الإبانة»/ 102/ : (قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل، وبسنة نبينا محمد ـ ﷺ ـ وما رُوي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضَّر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائفين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم، وجليل معظم، وكبير مفهم).

وأما وسائل الدفاع فلم تسلم من فتنة علم الكلام الذي حذر منه كِبار علماء أهل السنة كالشافعي ومالك وأحمد وتلاميذ أبي حنيفة رحمهم الله جميعاً. بل صرح الأشعري في رسالته: «الاستحسان في خوض علم الكلام» باعتماده علم الكلام لتدعيم آراء أهل السنة. وهو بدعوته تلك أحدث شرخاً في البناء الذي أقامه كبار علماء الأمة:

فقد نقل عن الشافعي قوله يوم ناظر حفصاً الفرد وكان من متكلمي المعتزلة: (لأن يلقىٰ الله ـ عز وجل ـ بكل ذنب ما خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام، ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه)، وقال أيضاً: (لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ولأن يبتلىٰ العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام). وسئل مرة عن الكلام فغضب وقال: (سل عن هذا حفصاً الفرد وأصحابه، أخزاهم الله). ولما مرض الشافعي دخل عليه حفص الفرد فقال له: من أنا؟ فقال: (حفص الفرد، لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه).

وقال أيضاً: (لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد).

وقال أيضاً: (إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمىٰ أو غير المسمىٰ فاشهد إنه من أهل الكلام ولا دين له). وقال: (حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام)[1].

وقال أحمد بن حنبل: (لا يفلح صاحب الكلام أبداً، ولا نكاد نرىٰ أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل). وقال أيضاً: (علماء الكلام زنادقة)[2].

وقال مالك بن أنس: (أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد).

وقال: (لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء)[2] وقال: (الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر وما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل)[3].

وقال أبو حنيفة: (لعن الله عمرو بن عبيد فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعنيهم من الكلام)[4].

وقال تلميذه أبو يوسف: (من طلب من العلم بالكلام تزندق)[2].

ولقد ترسخت دعوة أبي الحسن الأشعري مع مرور الزمن ولقيت قبولاً عند بعض المفكرين، بحيث تداخلت أدلة «علم الكلام» في كتب «العقائد» مع الأدلة السمعية، ثم مع علوم أخرى مثل المنطق والفلسفة، فما السر وراء انتشار العقيدة الأشعرية؟

الجواب: لقد ترسخ منهج أبي الحسن الأشعري وتبلور في «العقيدة الأشعرية»

(1) إحياء علوم الدين ج 1 ص 95.
(2) إحياء علوم الدين، الغزالي، ج 1، ص 95.
(3) ابن عبد البر. «جامع بيان العلم وفضله» ص 155.
(4) «ذم الكلام وأهله» لأبي إسماعيل الهروي.

التي لم تبق عند أتباعه بمضمونها الذي طرحه بل حدث تغيير ، وإضافة ، وتحويل إلى حد المخالفة الكاملة أحياناً ، كما يظهر عند دراسة كتابي «العقيدة النسفية» و«جوهرة التوحيد» . إلا أن أهم العوامل التي أدت لترسيخ «العقيدة الأشعرية» في المجتمع الإسلامي وانتشارها بين أفراده يعود إلى ظروف المواجهة التي كانت تعيشها الدولة العباسية مع أعدائها المحيطين بها . وقد فرضت «العقيدة الأشعرية» رسمياً على المجتمع الإسلامي لأول مرة بمرسوم أصدره الخليفة العباسي : القادر عام 433 هـ ، الذي عرف «بالمرسوم القادري» ألزم العلماء فيه بها ، وهدَّد المخالفين بالعقاب ، في محاولة لمواجهة الدولة الفاطمية التي كان خطرها يتعاظم على الدولة العباسية ، حتىٰ إن الخليفة القادر شكك بعلوية الدولة الفاطمية فجمع أشراف بغداد وأخذ منهم إقراراً بعدم صحة علوية الدولة الفاطمية .

وقد بلغ خطر الدولة الفاطمية ذروته حين خرج البساسيري ـ أكبر قواد بني بويه ـ عام 450 هـ على الخليفة العباسي وطرده من بغداد ، وأقام الخطبة باسم الخليفة الفاطمي المستنصر ، وضرب العملة باسمه أيضاً ، ولكن الخليفة العباسي استنجد بطغرل بك السلجوقي فتدارك الموقف عام 451 هـ ، وبهذا دخلت الدولة العباسية طور نفوذ السلجوقيين .

وقد واجهت القيادة الجديدة الخطر القديم : الدولة الفاطمية والتشيع الفاطمي بأن روَّجت «العقيدة الأشعرية» من أجل مواجهة الدعاة الفاطميين الذين كانوا ينشطون في مناطق الدولة العباسية ، وأنشأت المدارس لتدريسها وأبرزها : المدرسة النظامية في بغداد ، والمدرسة النظامية في نيسابور اللتان أنشأهما نظام الملك أبرز وزراء العهد السلجوقي ، لتخريج الدعاة ذوي العقيدة الأشعرية لمواجهة الدعاة الفاطميين .

ثم جاء صلاح الدين الأيوبي وقضى على الدولة الفاطمية ، واستمر في اعتماد العقيدة الأشعرية على مستوى الحكم لأنه كان قد تلقاها وحفظها على يد أساتذته .

وخلاصة القول : إن العوامل التاريخية السياسية كان لها أكبر الأثر في انتشار العقيدة الأشعرية لا لأنها الحق الكامل الذي لم تشبهُ أية شائبة .

ومن أهم الكتب الممثلة للعقيدة الأشعرية : (شرح العقائد النسفية)

للتفتازاني ، و(شرح جوهرة التوحيد) للباجوري .

أولاً : «شرح العقائد النفسية» للتفتازاني .

كتبه أبو حفص النسفي السمرقندي (ولد بنسف 461 هـ وزار بغداد وسكن بسمرقند ومات بها 537 هـ) ، وقد اشتغل بالتفسير والفقه والحديث والكلام والأصول والتاريخ والأدب والشعر واللغة ، ولـه مـؤلفات يقال إنها بلغت المائة ، منها متن العقائد الذي شرحه كثيرون أهمها شرح التفتازاني (مسعود بن عمر 712- 791 هـ)[1] الذي قسم الأحكام الشرعية إلى قسمين : (ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية وعملية ، ومنها ما يتعلق بكيفية الاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية) «شرح العقائد النسفية ص 4» .

وهنا يقول الأستاذ غازي التوبة ص 27 : (إن ثنائية تقسيم الدين إلى عقيدة وشريعة من أخطر الأمور التي جرّت آثاراً سيئة على ديننا الحنيف ، وذلك لأن هذا التقسيم مخالف لحقيقة الدين الذي تقوم على أمر واحد وهو تأليه الله ـ عز وجل ـ وحده ، ويشمل تأليه الله الخوف منه تعالى ، والرجاء فيه ، وحبّه ، وطاعته ـ عز وجل ـ فيما شرع لنا ، وعبادته جل وعلا . وقد استمر بناء هذا التأليه من اللحظة التي صدع فيها الرسول ـ ﷺ ـ لأمر الله في غار حراء إلى اللحظة التي توفي فيها . . . ولولا استمرار وجود هذا التأليه لانهار بناء المسلمين في المدينة . وإن اختلاف صور التعبير عن هذا التأليه هو الذي جعل المفسرين يقعون في الخطأ ، فالتعبير عنه في المدينة كان في أمور ظاهرة في المسجد وفي الشارع وفي البيت إلخ . . . ، في حين أنه كان محصوراً في مكة ضمن نطاق النفوس المسلمة وجماعتها .

---

(1) ولد بتفتازان ، قرية قريبة من نسافي خراسان ، وعاش فترة ببسرخس ثم سافر إلى دمشق ثم خوارزم وكان مثالاً لطلب العلم ، ولما اجتاحها تيمورلنك عام 780 - 781 هـ أرسل بالتفتازاني إلى سرخس بناء على طلب أحد قواده ، لكن عاد فاستقدمه إلى سمرقند عندما علم بمكانته العلمية وعامله معاملة كريمة . قيل سبب وفاته كان هماً أصابه بعد مناقشته الجرجاني بمحضر تيمورلنك الذي انحاز للجرجاني لأنه أفصح منه إذ كان يشكو التفتازاني من لكنة في لسانه ، على عكس كتاباته التي كان متفوقاً فيها على منافسه . وعندما شاع خبر بروزه عليه في المناقشة شعر بغم كبير ولم يلبث أن توفي .

ومن أبرز الآثار السيئة التي تركها هذا التقسيم اعتقاد كثير من المسلمين أن هناك مرحلتين في حركة الدعوة الإسلامية وفي بناء الأشخاص :

أولاهما : مرحلة بناء العقيدة ويقصد بها معرفة أمور عقلية فيما يتعلق بذات الله وصفاته وغيره وهي مرحلة مكة .

ثانيتهما : مرحلة تطبيق الشريعة الإسلامية وهي مرحلة المدينة .

وهذا مخالف لما صدع به رسول الله ﷺ ونزلت به الآيات الكريمة ، إذ نجد أن آيات شرعت بعض الأحكام في مكة(1) ، وأخرى تحدثت عن صفات الله في المدينة)(2) .

ثم علل التفتازاني استغناء الصحابة عن تدوين علمي العقيدة والشريعة وترتيب الأبواب والفصول وتقدير المقاصد بعدة أسباب : «صفاء عقائدهم ببركة صحبة النبي ﷺ وقرب العهد بزمانه ولقلة الوقائع والاختلافات وتمكنهم من المراجعة إلى الثقات»(3) .

وقد عقب الأستاذ غازي التوبة على ذلك بالقول : (إن الأسباب التي تحدث عنها التفتازاني تقدم بعضاً من الحقيقة وليس كل الحقيقة ، إذ أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ استغنوا عن أي تدوين لعلمي العقيدة والشريعة باعتمادهم القرآن الكريم والسنة الشريفة بالإضافة إلى العوامل الأخرى التي ذكرها التفتازاني) ص 29 .

ثم بين التفتازاني ارتباط العلوم بأدلتها ، فيقول ص 5 : (وسمُّوا ما يفيد الأحكام العملية بأدلتها التفصيلية بالفقه ، ومعرفة أحوال الأدلة إجمالاً في إفادتها الأحكام بأصول الفقه ، ومعرفة العقائد عن أدلتها بالكلام) . ثم بين أسباب تسمية أدلة العقائد بعلم الكلام قال : (لأن عنوان مباحثه كان قولهم : الكلام كذا وكذا ، ولأن مسألة الكلام كان أشهر مباحثه وأكثرها نزاعاً وجدالاً ، ولأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم ، ولأنه أول ما يجب من العلوم التي

---

(1) انظر إلى الآيات (26 - 35) من سورة الإسراء . وانظر أيضاً الآيات (38 - 42) من سورة الشورى .
(2) انظر إلى الآيات الأولى من سورة الحديد وهي سورة مدنية .
(3) شرح العقائد النسفية ص 4 .

إنما تعلم وتتعلم بالكلام ، ولأنه إنما يتحقق بالمباحثة وإثارة الكلام من الجانبين) .

قلت: وهذا اعتراف من التفتازاني بأن دليل العقائد يؤخذ من علم الكلام بتعليلات مختلفة ، ولعمرو الله فإن هذا الاتجاه إلى الاستعانة بعلوم أرضية لإثبات حقائق قرآنية والحكم بها على تفسيره يتهم القرآن الكريم ويوحي بنقصه ، فإن القرآن له أدلته الخاصة التي تدعم حقائقه ، كما أن السنة الشريفة ـ الوحي الثاني ـ هي التي توضح مفهوم القرآن وتفسر مجمله .

ثم ذكر التفتازاني اختلاط علم الكلام بالفلسفة فقال ص 8: (ثم لما نقلت الفلسفة إلى العربية وخاض فيها الإسلاميون ، حاولوا الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة فخلطوا بالكلام كثيراً من الفلسفة ليحققوا مقاصدهم فيتمكنوا من إبطالها وهلم جرا ، إلى أن أدرجوا فيه معظم الطبيعيات والإلهيات وخاضوا في الرياضيات حتى كاد لا يتميز عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيات وهذا هو كلام المتأخرين) .

ثم يقرر أنه رأس العلوم وأشرفها ، فيقول: (وبالجملة هو أشرف العلوم لكونه أساس الأحكام الشرعية ورئيس العلوم الدينية ، وإن معلوماته العقائد الإسلامية ، وغايته الفوز بالسعادات الدينية والدنياوية وبراهينه الحجج القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية) .

وقد أجاد الأستاذ ـ التوبة ـ في تعليقه فقال ص 31: (إن الكلام السابق ينقض آخره أوله: فكيف يؤكد اختلاط علم الكلام بالفلسفة ثم يقرر أنه أشرف العلوم ورئيسها!!! كيف يمكن أن يكون علمان بشريان أشرف العلوم ، ويحتلاَّ رئاستها؟؟ أين ـ إذن ـ مكان القرآن الكريم؟

ومتى كانت حجج الفلسفة قطعية يقينية؟ أليست كل فلسفة تهدم ما بنته سابقتها؟) .

ثم يتحدث التفتازاني عن العالم وأنه محدث وأن فيه أجساماً مركبة وجواهر وهي الأجزاء التي لا تتجزأ ، وأن فيه أعراضاً تلحق بالأجسام والجواهر كالألوان والطعوم والروائح ، ليثبت بعد مقدمات طويلة أن الله خالق هذا الكون وليدلِّل على وجوده تعالى!! وكأن الفطرة تحتاج إلى مثل هذه المتاهات لتدل على الله تعالى ،

ألم يعترف المشركون ويقروا لله بالخلق والملك والتدبير وصفات الربوبية ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ . وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ .

ثم يتحدث التفتازاني عن صفات الله فيبدأ بصفة الواحد ، ويذكر عليها دليل التمانع المشهور عند علماء الكلام المأخوذ من قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ . ثم يتحدث عن صفات الله ـ تعالى ـ الأخرى فيذكر منها أنه : القديم ، الحي ، القادر ، العليم ، السميع ، البصير ، المريد ، ثم ينتقل إلى نفي بعض الصفات عنه تعالى مثل : إنه ليس بعرض ولا جسم ولا جوهر ، ولا محدود ، ولا معدود ، ولا متبعض ولا متجزىء ، ولا متركب ، ولا متناه ، ولا يوصف بالماهية ولا بالكيفية ، ولا يجري عليه زمان . ثم يقرر فيقول : الصفات ليست عين الذات ولا غيرها مخالفاً المعتزلة الذين قالوا : إن الصفات عين الذات .

ونلاحظ أن التفتازاني يتحدث عن صفات الله حديثاً عقلياً في مجال الإثبات والنفي ، وقد توصل إلى نتيجة غامضة غير مفهومة ينقض آخرها أولها حين قرر : أن الصفات ليست عين الذات .

ثم يذكر أمرين مما يتعلق بالصفات :

أ ـ رؤية الله تعالى : يقر بإمكان ذلك خلافاً للمعتزلة ويأتي بالأدلة التقليدية بصددها .

ب ـ كلامه تعالى : وقف موقفاً وسطاً بين المعتزلة وبين أهل السنة ، فلم يشأ أن يقول إن القرآن الموجود بين يدينا كلام الله على الحقيقة ، ولم يشأ أن يقر المعتزلة على قولهم ، فجاءت فكرة الكلام النفسي القديم في ذات الله الذي عبر عنه بالعربية فكان قرآناً ، وبالعبرية فكان توراة ، وهو في كل هذا استشهد ببيت شعر لشاعر نصراني هو الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل الكلام على اللسان دليلاً

ثم يعرف الإيمان بأنه التصديق للقلب وينفي زيادته ونقصانه . ثم يذكر عن الرسل وكرامات الأولياء .

ثانياً: «شرح جوهرة التوحيد» للباجوري[1].

مؤلف جوهرة التوحيد هو: إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني المكنىٰ بأبي الإمداد، الملقب ببرهان الدين، متصوف مصري مالكي، ينسب إلى «لقانة» من البحيرة بمصر، وتوفي قرب العقبة عائداً من الحج عام 1041 للهجرة الموافق 1631 للميلاد.

أما الشارح فهو الشيخ إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري شيخ الجامع الأزهر من فقهاء الشافعية نسبة إلى «الباجور» من قرى المنوفية بمصر، ولد ونشأ فيها عام 1198 هـ وتعلم في الأزهر، وتقلد مشيخته عام 1263 هـ، وتوفي عام 1277 هـ.

والجوهرة أرجوزة نظمها اللقاني كعادة أهل العصور المتأخرة في نظم الأراجيز في مختلف العلوم والفنون، جمع فيها أحكام العقائد الإسلامية، وقد شرحها الباجوري، ويعتبر هذا الشرح من الكتب المعتمدة في الأزهر وفي العالم العربي خلال القرن الماضي.

يعرف الباجوري التوحيد بعدة تعريفات لا تخلو من فلسفة وكلام كقوله: لا تقبل ذاته ـ تعالى ـ الانقسام لا فعلاً ولا وهماً ولا فرضاً مطابقاً للواقع. وكقوله: وسمي علم التوحيد لأن مبحث التوحيد أشهر مباحثه ويسمىٰ علم الكلام أيضاً واستمد من الأدلة العقلية والنقلية.

ويعقب الأستاذ ـ غازي التوبة ـ قائلاً: (نلاحظ أن جميع التعريفات تدور حول مشكلة الصفات التي أثارها المعتزلة، وهي تظهر مدى الإجحاف الذي لحق مضمون «العقيدة» من جهة، ومدى سيطرة التاريخ على مؤلفي العصور المتأخرة من جهة ثانية، ويبلغ الإجحاف ذروته عندما يربط الشارح بين علمٍ بشري هو «علم الكلام» وكلام إلهي هو «علم التوحيد» ربطاً محكماً، ويعتبر أحدهما صنو الآخر، ليقرر ـ في النهاية ـ الوجوب العيني على كل مسلم أن يعرف هذه الأمور «الكلامية» التي ما أنزل الله بها من سلطان!!).

---

(1) تحليل ملخص من كتاب ـ في مجال العقيدة نقد وعرض ـ غازي التوبة.

ثم يلاحظ تقلص مفهوم العقيدة ليصبح عند الشارح «وجود الله وصفاته» وتقلص التعامل معها ليصبح «معرفة الدليل» كقوله: «ما الدليل على وجود الله تعالى»؟ فيتحدث بكلام فلسفي عن العدم والوجود وأقسام الحكم العقلي الواجب والجائز والمستحيل لينتهي إلى أن الله واجب الوجود من خلال هذه المقدمات الفلسفية، ليدلل على قضية اعتبرها القرآن الكريم قضية فطرية.

وقد أجاد الأستاذ ـ التوبة ـ بتعقيبه حيث قال: (وهذه المقدمات الفلسفية توضح لنا مدى الخلل الذي حبلت به هذه المؤلفات، ومدى ابتعادها عن الدليل القرآني، واعتمادها على الأدلة الفلسفية بشكل عام. والخلل الأكثر أهمية هو اعتبار الشارح أن من لا يعرف «العقيدة» بهذا الركام من المقدمات والدلائل الفلسفية مؤمناً عاصياً[1] إن قدر على النظر، وكافراً في رأي آخر كما ينقل عن السنوسي)[2].

ثم يقول: (نلحظ اعتبار الشارح أن الواجب أن يعرف المكلف عشرين صفة لله ـ تعالى ـ بأدلتها العقلية والنقلية، وإنه لأمر عجيب أن يختزل الدين حتىٰ تصبح أهم أموره أن يعرف المسلم فقط عشرين صفة لله ـ تعالى ـ بأدلتها. وليس من شك بأن الدين الذي جاء به محمد ـ ﷺ ـ أجَلّ وأكبر من أن ينحصر في معرفة عقلية باردة. إن دين محمد ـ ﷺ ـ لا يقوم على أن يعرف المسلم ربه فقط فهذا أمر فطري، لكن يقوم على أن يؤله المسلم ربه وحده، ويتجه إليه وحده في تعظيمه وخضوعه، وخوفه ورجائه وحبه وثقته، وهذا يحتاج إلى مجاهدة المسلم لأهوائه لا أن يعرف أقسام الحكم العقلي)[3].

ثم عرف الشارح الإيمان بأنه التصديق، ورجَّح أن العمل والنطق به شرط له وليس شطراً منه، ورفض رأي المعتزلة الذي يعتبر العمل جزءاً من الإيمان، وقرر زيادته بالطاعات ونقصانه بالمعاصي. فأصاب ببعض أقواله كتقريره زيادة الإيمان ونقصانه وأخطأ في أخرى كقوله الإيمان هو التصديق فحسب.

---

(1) شرح جوهرة التوحيد (ص 37).

(2) في مجال العقيدة، نقد وعرض ـ غازي التوبة ـ ص 42.

(3) المرجع السابق ص 44.

ثم تحدث الشارح عن صفات الله تعالى فذكر أنها تنقسم إلى قسمين: ثبوتية وسلبية.

فالثبوتية منها ما يدل على نفس الذات وهي الوجود، ومنها ما يدل على معنىً زائد على الذات وهي صفات المعاني والمعنوية، وكلاهما أربع عشرة هي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، وكونه تعالى: قديراً، مريداً، عليماً، حيّاً، بصيراً، سميعاً، متكلماً. والسلبية خمس صفات هي: القدم، والبقاء، والقيام بالنفس، والمخالفة للحوادث، والوحدانية.

ثم يدلِّل على واجب الوجود ببطلان التسلسل والدور، ثم يفصل الحديث عن الصفات السلبية فيذكر المخالفة للحوادث التي يلحقها القدم، ويذكر قيامه بالنفس، والمقصود: عدم افتقاره تعالى إلى المحل والمخصص، ويذكر الوحدانية التي تعني: وحدانية الذات، والصفات والأفعال.

ثم ينتقل إلى صفات المعاني فيذكر صفة القدرة، ويشير إلى تعلقاتها السبعة، ويتحدث عن صفة الإرادة، ويذكر أن لها تعلقاً صلوحياً(1) وتنجيزياً(2) قديمين، ويؤكد أن الإرادة غير الرضا. ثم يتحدث عن صفة العلم فيوجبها له ـ تعالى ـ وتعلق العلم تعلق تنجيزي قديم، وينفي عن الله اكتسابه له. ثم يقرر صفتي الحياة والكلام لله تعالى، ودليل ذلك النقل، وخالف المعتزلة ذلك فقالوا: معنىً كونه متكلماً عندهم أي: خالق للكلام في بعض الأجسام، وذلك لزعمهم أن الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت.

ويتبع ذلك بالكلام على صفتي السمع والبصر، ويقرر أن السمع هو دليل هذه الصفات ويذكر أن للسمع والبصر تعلقات ثلاثة:

أولها: صلوحي قديم.

ثانيها: تنجيزي قديم.

---

(1) المراد صلاحيتها في الأزل للإيجاد والعدم.

(2) هو الإيجاد أو الإعدام بالفعل.

ثالثها: تنجيزي حادث[1].

ثم يتعرض لصفة الإدراك فيذكر إقرار بعضهم لها، وإنكار آخرين، وتوقف فئة ثالثة في شأنها. ثم يتحدث عن الصفات المعنوية وهي: حيّ، عليم، قادر، مريد، سميع، بصير، متكلم، ويوضح الفرق بين صفات المعاني والمعنوية. إن المعاني صفات وجودية، والمعنوية ثبوتية. بمعنى أنها عبارة عن قيام المعاني بالذات، وأن المعاني ملزومة للمعنوية عقلاً، والمعنوية لازمة للمعاني بمعنى أنه يلزم من كونه قادراً أنه موصوف بالقدرة. ثم يتحدث عن علاقة الصفات بالذات فيقرر أنها ليست بعين الذات ولا غيرها.

ويعقب الأستاذ ـ غازي التوبة ـ بقوله[2]: (قصدت نقل الكلام السابق بطوله ليبصر القارىء بنفسه التطور الفلسفي الذي لحق الحديث عن الصفات في الدليل والمضمون من جهة، ومدى تعقيد المصطلحات المرادفة من جهة ثانية، واستمرار خلط الحديث العقلي بالسمعي من جهة ثالثة).

ثم يتابع الباجوري فيقرر أن النصوص تقسم إلى قسمين: محكم ومتشابه، وأن الموقف من المتشابه: إما التفويض[3] كما فعل السلف، وإما التأويل[4] كما فعل الخلف، وينصح المسلم أن يؤول أو يفوض في كل نص متشابه، ويورد بعض الآيات التي يراها من المتشابه، وتحتاج إلى تأويل وهي:

1 ـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ يؤول الاستواء بالقدرة والاستيلاء.

2 ـ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ويؤول الفوقية بالرتبة.

3 ـ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ويؤول المجيء بمجيء أمر الله.

---

(1) مصطلحات كلامية عميقة ما أنزل الله بها من سلطان، ولعمرو الله لَدينُ العجائز الذي هو على الفطرة خير من كل هذه التقسيمات والمتاهات.
(2) في مجال العقيدة نقد وعرض ص 47.
(3) التفويض: هو صرف اللفظ عن ظاهره مع عدم التعرض لبيان المعنى المراد منه.
(4) التأويل: هو حمل اللفظ على خلاف ظاهره مع بيان المعنى المراد منه.

4 ـ «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير» يؤول النزول بنزول رحمته ـ تعالى ـ.

5 ـ ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ يؤول العين بالتربية والرعاية إلخ . .

قلت: وما دليل هذا التأويل وحرف المعنىٰ وقصره على صفات ضعف ونقص !! كالاستيلاء الذي مفهومه القوة والتغلب بعد عجز ، وفوقية الرتبة التي تلغي آفاقاً كبيرة عظيمة لاسم «القاهر» وعلوه وعظمته وهيمنته ، وكتأويل المجيء بمجيء الأمر والنزول بنزول الرحمة ، ولا خصوصية بذلك ، فأمره سبحانه ماض في كل لحظة ورحمته وسعت كل شيء وقد وضعها في الأرض فبها يتراحم الخلق ، وللمحسنين رحمة خاصة ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، إلى غير ذلك مما يسخط الله أن يتكلم في صفاته دون دليل أو أثارة من علم .

وقد أجاد الأستاذ ـ التوبة ـ ص48 بقوله : (ينسب الشارح التفويض إلى السلف والتأويل إلى الخلف. ولكن كيف يمكن أن نقبل أن السلف ـ وهم خير من فقه القرآن وعمل به ـ يرددون ألفاظاً لا يعرفون معناها ، وهم الذين سألوا الرسول ـ ﷺ ـ عن كل شيء : الأهلة ، والمحيض والشهر الحرام؟؟!! وعلى العكس فإن كل الروايات التي وردتنا تشير إلى أنهم عرفوا مدلول هذه الألفاظ لكنهم توقفوا في كيفيتها مع تنزيه الله ـ تعالى ـ عن أي مثيل أو شبيه ، وأبرز ما يمكن أن ننقله عنهم جواب مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ عندما سئل عن الاستواء فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول .

إن دعوة الشارح والراجز أن يأخذ المسلم بأحد الرأيين : التفويض أو التأويل ، ابتعاد عن الحق الذي جاء به محمد ﷺ وعلّمه صحابته ، وهو تطور لم نعهده عند التفتازاني في (شرح العقائد النسفية) ولا عند أبي الحسن الأشعري في كتبه جميعها. وهو التقاء بمذهب المعتزلة الذي انبرى أسلاف الباجوري لمحاربته ، وقام وجودهم على مخالفته ، وإذا بهم بعد فترة من الزمن يأخذون بتأويلاته ، وهو ما يثير العجب عند الدارس) انتهى .

ثم يقرر الشارح استحالة الصفات التالية في حق الله ـ تعالى ـ وهي : العدم ، والحدوث ، والمماثلة للحوادث ، وعدم القيام بالنفس إلخ . . . كما يعود مرة ثانية

إلى نفي الجهة في حقه ـ تعالى ـ ، وتأويل الآيات الواردة فيها كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ . ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ . ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ . ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ . ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ . ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ . ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ إلخ . . فيعتبر الشارح النصوص السابقة من المتشابه لذلك ينصح بتأويليها .

فتابعه المعقب[1] بقوله : (نلحظ فيما سبق أمرين : الأول : مايزال النهج الفلسفي هو الذي يتحكم في نظرة الشارح إلى صفات الله ـ تعالى ـ ، مع أنه يفترض أن يحكمه النهج القرآني في الألفاظ الواجب إطلاقها ، وفي المجالات التي يمكن الخوض فيها . الثاني : اعتبر الشارح الآيات السابقة من المتشابه وأوجب تأويلها انطلاقاً من الاعتبار السابق . فهل المتشابه هو الذي يختلف الناس في تفسيره؟ أم المتشابه ما خفي معناه وأشكل من جهة ويمكن لأولي العلم أن يصلوا إلى تحديد المعنى المطلوب منه من جهة ثانية؟) .

ثم ينقل الشارح رأي المعتزلة في وجوب فعل الأصلح[2] على الله ـ تعالى ـ وامتناع إرادة الشرور والقبائح منه ـ تعالى ـ ، ويرد على ذلك بمثال إيلامه الأطفال لإبطال رأيهم الأول وبأنه لا يقبح منه ـ تعالى ـ فعل لإبطال رأيهم الثاني .

ثم يقرر الشارح جواز رؤيته ـ تعالى ـ يوم القيامة ، ويحشد الأدلة التي تدعم رأيه ويبدؤها بسؤال هو : هل يجوِّز العقل والسمع الرؤية؟ ثم يعرض دلائل المعتزلة التي تجوِّزها ، ويرد عليها دليلاً دليلاً ، وهو في كل ما ذكره لم يأت بشيء جديد ، إنما كرر ما ذكرته كتب «العقائد» السابقة .

ثم يتحدث عن إرسال الرسل وأنه فضل من الله ، وليس واجباً كما ذكر المعتزلة والفلاسفة ، وليس مستحيلاً كما ذهب السمنية والبراهمة ، ثم يتحدث عن فضل الصحابة وأفضلية الخلفاء حسب تسلسل خلافتهم ، ويقرر وجوب التقليد

---

(1) في مجال العقيدة نقد وعرض . غازي التوبة . ص 50 .

(2) شرح جوهرة التوحيد ص 230 .

المذهبي ، ثم يتحدث عن الروح والعقل والموت وعذاب القبر[1] . . . . وإثبات الكرامة للأولياء .

وقد تعقبّه الأستاذ ـ التوبة ـ بقوله[2] : (هذه الأحكام ليست من صلب الدين حتىٰ يخص كل قضية منها ، وكان يمكن أن يكتفي بتحديد المنهج العام الذي يؤدي إلى الحكم على هذه القضايا مثل : الأخذ بحديث الآحاد في مجال العقائد أو عدمه .

ثم يتابع[3] تحت عنوان :

ـ بعض الملاحظات على كتب العقائد ـ

فيقول : وبعد أن درسنا بعض مؤلفات (الأشعري ، التفتازاني ، الباجوري) يمكن أن نرصد خط التطور في بعض المسائل ، ويمكن أن ندوِّن الملاحظات المشتركة التالية عليها :

1 ـ مصطلح العقيدة :

أصبحت كلمة «العقيدة» علماً على أمور مهمة في الدين ، وشطر عظيم منه ، وأضحى المسلم حريصاً على سلامتها حتى يضمن ـ كما يظن ـ سعادة الدنيا والفوز بالآخرة ، وصارت حيثيات العقيدة بالصورة التي انتهت إليها كتب «العقائد» ميزاناً يوزن به الأشخاص والجماعات .

وإن مما يستغربه الدارس أن يكون مصطلح «العقيدة» قد أخذ مكانة عالية مع أنه لم يرد في قرآن ولا سنة ، ولم يرد على أفواه العلماء الأجلاء من أمتنا في القرون الأولى الخيرية أمثال : أبي حنيفة ، والشافعي ، ومالك ، وأحمد بن حنبل وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين ، وإنما عرفوا مصطلحات أخرى مثل مصطلح «الفقه الأكبر»[4] ، و«أصل الدين»[5] ، وقد تكون هذه المصطلحات أكثر إيحاءً

---

(1) وكذلك علامات الساعة والصراط والكرسي والقلم والحوض والشفاعة .

(2) كتاب : في مجال العقيدة نقد وعرض ص 52 .

(3) المرجع السابق ص 53 .

(4) نقل عن أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ .

(5) نقل عن أبي الحسن الأشعري ـ رحمه الله ـ .

وأقرب دلالة إلى روح الشرع الإسلامي من المصطلح السابق «العقيدة»[1] ومع ذلك فإنه شاع بين المسلمين وترسخ على مدار العصور ، واستمر نافذاً إلى العصور الحديثة .

فما المدلول الذي يشير إليه مصطلح «العقيدة» عندما يسمعه المسلم؟ يشير إلى ما يجب أن يعتقده المسلم في أهم أمور الدين ، والاعتقاد هنا عملية عقلية سواء في مضمونها أم في دلائلها[2] .

لا شك أن اعتبار الاعتقاد العقلي هو الجانب الأهم من الدين اعتبار خاطىء ، لأن فيه إغفالاً لجانبين آخرين مهمين هما : الجانب المعنوي والسلوكي . المعنوي الذي يعالج الخوف والرجاء والحب والتعظيم إلخ ، والسلوكي الذي يعالج الطاعة والمعصية والحلال والحرام والشبهات إلخ . . .

ويمكن أن نقرر دون مبالغة رجحان الجانب النفسي على الجانب العقلي في ديننا من خلال آيات القرآن الكريم ومن خلال مطالعة النفس البشرية ، ولا يوجد ـ أصلاً ـ اعتقاد عقلي مجرد إلا على صفحات الورق ، بل يتأثر الاعتقاد العقلي بالجانب النفسي قبله وأثناءه وبعده .

2 ـ تضخيم دور العقل :

تتسم كتب «العقيدة» عموماً بأنها تضخم دور العقل ، وتقحمه في مجالات لم يتهيأ لها وليست من مجال بحثه ، وأبرز دلائل التضخم : أنها تعتبر أوّل واجب على المسلم هو النظر ، وأنها امتلأت بالمقدمات والأحكام العقليين مثل : ما يوجبه العقل وما يجيزه وما يستحيل عليه ، وأنها اعتمدت البراهين المنطقية والفلسفية مثل : الدور والتسلسل والتطبيق ، وأنها أقحمته في مجالات ليست من اختصاصه

---

(1) قلت : بل استخدم العلماء الأوائل المصطلح الأمثل لهذه الأمور وهو الإيمان كما بحديث جبريل . ككتاب «الإيمان» لابن مندة و«كتاب الإيمان» لابن أبي شيبة .

(2) مما يجدر الانتباه له أن الجذر اللغوي لكلمة (عقد) ربما يعطي معاني أخرى مثل : ربط العقل والقلب على أمور ، لكن الذي يهمنا هو المعنى الذي انتهى إليه هذا اللفظ ، والمدلول الذي يشير إليه في نهاية تطوره التاريخي .

مثل: البحث في صفات الله ـ تعالى ـ هل هي عين الذات أم غيرها؟ وهل يعلم الله علماً كلياً أو جزئياً؟

وأنها استعانت للتدليل على وجهات نظرها بعلوم الكلام والمنطق والفلسفة، وأنها اعتبرت الدليل النقلي ظنياً في حين أنها اعتبرت الدليل العقلي يقينياً إلخ . . .

3 ـ الصيغة الدفاعية:

تتسم الكتب التي درسناها بسمة الدفاع عن الدين ـ بغض النظر عن مضمون هذا الدفاع: صحته أو خطئه ـ والرد على الخصوم، وتفنيد آرائهم، وقد نال المعتزلة نصيباً وافراً من هذه الردود، ربما لأنهم أول الفئات التي اجترأت على الدين وابتدعت فيه.

وإن اقتصار كتب «العقائد» على الردود والدفاع جعل بعض المسلمين المتأخرين يخطئون في تحديد أصول الدين، ويظنون أن الموضوعات التي تناولها البحث والرد، هي جوهر الدين ولبه الذي يجب أن يبدأ العبد به، ويعلمه، ويقيمه في حياته، وجعلهم يغفلون عن الوجه الإيجابي للدين المبثوث في ثنايا القرآن الذي يعتبر إقامة معاني التأليه في قلب العبد أصل الدين وجوهره، ولبه المطلوب ليسعد في الدنيا وينجو في الآخرة.

4 ـ الاستدلال بالعلوم الأخرى ومراحل ذلك:

القرآن كتاب الله الكامل الذي يدلل خير تدليل على الحقائق التي ينشدها، وقد أدرك السلف الصالح ذلك، فاستغنوا بأدلته عن أية آية، وهو ما يفسر موقفهم الصلب المتشدد من بواكير علم الكلام. وقد شرخه أبو الحسن الأشعري عندما رغَّب أهل السنة في الاستفادة من علم الكلام للتدليل على الحقائق القرآنية، واعتبره علماً محايداً يمكن أن نستفيد منه في مواجهة خصومنا بدل أن نجعلهم يتفردون في استخدامه. وقد استفحل الشر بعد الشرخ الذي أحدثه الأشعري حيث أصبح علم الكلام أداة أساسية لإثبات عقائد أهل السنة، ثم دخل علم آخر إلى كتب العقائد في مرحلة تالية هو علم المنطق، ثم دخل علم ثالث بعد ذلك هو علم الفلسفة وتداخلت موضوعاته مع الموضوعات الدينية. وأصبحت ترىٰ في كتب العقائد عند المتأخرين خليطاً عجيباً من علم الكلام والمنطق والفلسفة متداخلة مع

بعض الحقائق الدينية في الدليل والمضمون ، وقد انتبه إلى ذلك بعض النقاد ومن ضمنهم ابن خلدون فميَّز في مقدمته ثلاث مراحل مرَّت بها كتب العقائد وأشار إلى ذلك فيها .

وقد أفرز هذا الاختلاط أحكاماً في منتهى العجب ، منها :

1 ـ إطلاق اسم علم الكلام على علم التوحيد .

2 ـ إيجابهم على المكلف أن يعرف بعض أصول علم الكلام أو المنطق ، أو الفلسفة ، أو جميعها التي يبنون عليها أدلتهم ، فمثلاً من المقدمات العقلية التي أوجبوها في مرحلة من المراحل : إثبات الجوهر الفرد ، الخلاء ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ، وأنه لا يبقىٰ زمانين . . . إلخ . . . ، وجعلوا هذه القواعد تبعاً للعقائد في وجوب الإيمان بها ، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول . ومنها أيضاً الوجود والعدم ، وأقسام الحكم العقلي الواجب والجائز والمستحيل . . . إلخ .

وقد نسي الذين أخذوا بهذه المقدمات العقلية للتدليل على بعض الحقائق القرآنية ، أن طبيعة الدليل القرآني تختلف عن كل الأدلة السابقة ، ومن هذه الاختلافات أنه يقوم على مخاطبة الكيان الإنساني جميعه : عقلاً وحساً وعاطفة ، في حين أن الأدلة الأخرى جميعها تقوم على مخاطبة العقل وحده .

5 ـ موضوعات كتب العقائد :

إن أبرز موضوعين انشغلت بهما كتب «العقائد» هما : وجود الله وصفاته ، ونحن قبل أن نحكم على قيمة انشغالها بهما : صوابه أو خطئه ، قربه من الحق أو بعده ، سنرصد خط تطورها أولاً .

أ ـ وجود الله تعالى :

أثار الأشعري مشكلة وجود الله تعالى في كتاب : «اللمع في الردِّ على أهل الزيغ والبدع» وقد زاوج في تدليله بين الأدلة العقلية وبعض الآيات القرآنية التي أشارت إلى مظاهر الكون .

ثم تحدث التفتازاني وأثار المشكلة نفسها وقدَّم لذلك بالحديث عن أسباب

العلم والعرض والجوهر والأجزاء التي لا تتجزأ والجسم . . الخ . . قدَّم بكل ذلك ليثبت أن العالم حادث لا بد من محدث وهو الله تعالى ، ثم تعرَّض لبعض الأدلة المشهورة لتدعيم وجهة نظره وهي دليل الدور والتسلسل وبرهان التطبيق .

وقد تحدث الباجوري كذلك عن وجود الله ـ تعالى ـ ولكن أورد مقدمات أخرىٰ بالإضافة إلى مقدمات التفتازاني وهي : الوجود والعدم ، والحكم العقلي بتقسيماته الثلاثة : الواجب والجائز والمستحيل . وتعرض لأدلة الدور والتسلسل والتطبيق ، ليصل إلى أن الله واجب الوجود .

إذن نلحظ أن قضية وجود الله تعرضت لها كتب المؤلفين الثلاثة ، وقد كان واضحاً أن الأشعري تحدث حديثاً عقلياً ونقلياً بسيطاً في حين أن التفتازاني والباجوري كان حديثهما أكثر تعقيداً واستعانة بأدلة العلوم الأخرى ومقدماتها .

والآن : هل تشكل قضية وجود الله إحدى مشاكل الإنسان فعلاً؟؟ .

وما الذي قاله القرآن في هذا الصدد؟؟

لم يتعرض القرآن لقضية وجود الله ، واعتبرها قضية فطرية ، مهما تعنَّت الإنسان في إنكارها ، وحال الكِبْرُ دون الإقرار بها ، فلا بد أن تتغلب فطرته وتظهر حقيقتها في المواقف الصعبة القاسية التي يتعرىٰ الإنسان فيها من كل زيف ويصرخ فيها : يا رب عونك ، نجدتك ، لطفك ، إلخ . . . وقد أشارت الآيات إلى ذلك في أكثر من سورة :

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 63 ـ 64] .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس : 12] .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 40 - 41] .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا

جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: 22 - 23].

وقد أبرزت آية الأعراف فطرية الإقرار بوجود الله بصورة فريدة إذ بيَّنت أن الله قد أخذ العهد بهذا على الإنسان وهو في عالم الذر قبل أن يخلق، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

وقد استغرب الأنبياء في حديثهم مع أممهم أن يتطرق الشك إليهم في وجود الله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ . . .﴾ [إبراهيم: 10].

وقد حدثنا القرآن عن أنبياء كثيرين دعوا أقوامهم، ونقل لنا طرفاً من الحوار الذي جرى بينهم، فلم تسأل أية أمة نبيها: هل الله موجود أم لا؟ إنما حاورته في أمور أخرى كثيرة سوىٰ هذه القضية، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: 37].

إذن لم يكن الحديث الذي حبَّرت به كتب العقائد صفحاتها، لم يكن انعكاساً لقضية فطرية أو قرآنية، إنما كان انعكاساً لكتب الفلسفة.

ب ـ الصفات:

ترتبط مشكلة الصفات عند المعتزلة بالتعطيل الذي أثاره جهم بن صفوان (128 هـ) في مرحلة مبكرة من التاريخ الإسلامي، ويرجع ابن تيمية أصل مقالة الجهمية إلى عناصر دخيلة على الإسلام، لأن جهم بن صفوان أخذ مقالته عن جعد بن درهم، وقيل إن جعد بن درهم أخذ مقالة التعطيل عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت، وأخذها طالوت عن خاله لبيد بن أعصم اليهودي.

وقد تصدىٰ رهط كبير من العلماء للرد على الشبهات المثارة حول قضية الصفات على مدار القرون الثلاثة: الثاني والثالث والرابع وهم:

أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي (181 هـ) وأبو سعيد يحيىٰ بن سعيد بن فروخ التميمي القطان البصري المحدث الحجة الناقد (198 هـ)

وابن أبي شيبة أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي (225 هـ) وألف في ذلك كتاب السنة ، ويحيىٰ بن بني يحيىٰ بكير بن عبد الرحمن بن يحيىٰ الحنظي الحافظ (226 هـ) ، وأبو عبد الله نعيم بن حماد المروزي (228 هـ) ، وعبد الله بن محمد بن عبد الله الجعفي شيخ البخاري (229 هـ) الذي ألف كتاب «الرد على الجهمية» والإمام أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم المعروف بابن راهويه شيخ البخاري أيضاً (238 هـ) ، وألف الإمام أحمد بن حنبل (241 هـ) كتاب «الرد على الجهمية والزنادقة» وصنَّفَ الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (256هـ) كتاب «خلق أفعال العباد» و«الرد على الجهمية» وألف أبو بكر أحمد بن محمد بن هانىء الأثرم البغدادي تلميذ الإمام أحمد بن حنبل (273هـ) «كتاب السنة»وصنف أبو علي حنبل بن إسحاق بن هلال تلميذ الإمام أحمد بن حنبل أيضاً (273هـ) «كتاب السنة». وكتب أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (275 هـ) كتاب «السنة» وكذلك فعل أبو بكر أحمد بن عمرو بن النبل الشيباني البصري (277 هـ) فألف كتاب «السنة» وصنف عثمان بن سعيد الدارمي تلميذ يحيىٰ بن معين (280 هـ) كتاب «الرد على الجهمية» وكتاب «الرد على بشر المريسي» ، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل (290 هـ) ، وصنف أبو بكر أحمد بن علي بن سعيد المروزي (292 هـ) «كتاب السنة» وألف أيضاً أبو عبد الله محمد بن يحيىٰ بن منده العبدي (301 هـ) «كتاب التوحيد» ، وتكلم في ذلك أبو العباس بن سريج (306 هـ) وصنف أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال مرتب آثار الإمام أحمد بن حنبل (311 هـ) «كتاب السنة» وألف أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (311 هـ) «كتاب التوحيد».

وكتب أبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم الأصبهاني العسال (349 هـ) «كتاب السنة» وألف أيضاً أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (360 هـ) «كتاب السنة» وكذلك أيضاً أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان (369 هـ) فإنه كتب «كتاب السنة» وألف عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري (387 هـ) «كتاب الإبانة» وصنف أبو القاسم هبة الله بن الحسن الرازي اللالكائي (418 هـ) «كتاب السنن» وكتب في ذلك من المغاربة أبو عمرو أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي الأندلسي (429 هـ) «كتاب الأصول» وصنف أيضاً في ذلك

أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري الهروي (434 هـ) «كتاب السنة» وألف أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي (458 هـ) كتاب «الأسماء والصفات» وتكلم في ذلك في عدة كتب حافظ المغرب بلا منازع أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (463 هـ) وغير هؤلاء كثير[1].

وقد أكدوا جميعاً المنهج الذي يجب أن نتبعه إزاء الصفات وهو ضرورة اعتماد النصوص القرآنية والحديثية فيما يتعلق بها ، والتسليم لله ـ تعالى ـ بما وصف ذاته وأخبر عنها ، مع تنزيهه ـ تعالى ـ عن أي مثيل وشبيه ، وعدم الجنوح إلى التأويل بحال من الأحوال.

وقد لاحظنا عند استعراضنا لما كتب الأشعري أنها استغرقت معظم حديثه في الكتابين ، وقد توسع في الحديث عن صفة كلام الله لأن لها ارتباطاً بمسألة خلق القرآن التي كان الخلاف حولها تعبيراً عن الموقف من قضية الصفات.

وقد تميزت كتابة الأشعري حول موضوع الصفات وآراؤه بأنها اعتمدت آراء وأقوال أحمد بن حنبل ، فأقر بالصفات الخبرية ، ورفض التأويل ، وأقرَّ أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وزاوج في حديثه بين الأدلة العقلية والنقلية ودعا إلى اعتماد علم الكلام للمنافحة عن «العقيدة الإسلامية».

وقد اتسم حديث التفتازاني عن الصفات بالجنوح العقلي أكثر من السابق ، وإلى نفي بعض الصفات عن الله ـ تعالى ـ ، وبالحديث عن سبع صفات لله ـ تعالى ـ ، وبالحديث التفصيلي عن صفة الكلام والرد على المعتزلة وتقرير أن القرآن كلام الله ـ تعالى ـ وأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها.

وكانت ذروة التطور في الحديث عن الصفات عند الباجوري من ناحية التعقيد ومن ناحية البعد عن الصواب ، حيث أصبحت تقسم إلى ثبوتية وسلبية ، والثبوتية تقسم إلى قسمين: صفات معاني ومعنوية ، ويذكر أن بعض الصفات لها تعلق صلوحي وتنجيزي ، وربما كان المنعطف الجديد في قضية الصفات هو إقراره

---

(1) تشير هذه الردود الكثيرة إلى حيوية أمتنا ، وتصديها المباشر للأخطاء ، والتفافها حول مصادر الوحي الإلهي. «في مجال العقيدة ـ غازي التوبة ص 64».

التأويل ودفاعه عنه ، وقد بدأ هذا المنعطف في عصور سابقة ، منذ زمن أبي حامد الغزالي ، ولا شك أن التأويل التقاء بالمعتزلة ، وقبول لما رفضه السلف الصالح والأشعري ذاته مؤسس العقيدة الأشعرية .

ونطرح الآن السؤال الذي كنا طرحناه في نهاية الكلام عن وجود الله :

هل تشكل صفات الله إحدى مشاكل الإنسان الفطرية فعلاً؟ ما الذي قاله القرآن الكريم في هذا الصدد؟

لا تشكل قضية صفات الله إحدى مشاكل الإنسان بدليل أن المشركين أقروا بها ، واعترفوا بالكثير منها ، ويتضح ذلك في قول الله تعالى :

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : 84 - 89] .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 31] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : 87] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : 61] .

إن الآيات السابقة تشير إلى أن المشركين أقروا أن الله : عزيز ، عليم ، مالك ، رب العرش العظيم ، خالق السماوات والأرض ، يجير ولا يجار عليه ، يرزق عباده ، مالك الأسماع والأبصار ، يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، مدبر لأمر الكون ، مسخر الشمس والقمر إلخ . . . وهذا أمر طبيعي لأن التصور الفطري للإله : أنه قادر عليم ، يضر وينفع ، قوي ، يسمع ، ويرزق إلخ . . .

وربما كانت قضية الصفات في أحد وجوهها مشكلة النفس التي تتعامل معها ، فإذا كانت زائفة أو مريضة اضطربت أحكامها ، وقد أشارت آيات كثيرة إلى هذه

النفوس. فحدثنا الله عن النفوس التي امتلأت بالكبر ومجادلتها بالباطل في آيات الله، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: 56].

وحدثنا عن القلوب الزائغة إزاء المحكم والمتشابه من القرآن، وبيَّن لنا أنها تتبع المتشابه منه، تبتغي الفتنة من ذلك، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7].

وحدثنا عن القلوب المريضة أنها ترتاب في العدد، فتراها تتساءل ماذا أراد الله بهذا مثلاً، في الوقت الذي يمكن أن يُرتاب في كل شيء ما عدا الأعداد، لأن المقصود بالعدد محدد واضح ولكن تضطرب الأمور وتختل عندما تكون القلوب مريضة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 31].

إذن النفوس المتكبرة والقلوب الزائغة المريضة تُشْكل معها أشياء كثيرة: آيات الله، وصفاته، والمحكم والمتشابه في القرآن، والأعداد التي يذكرها القرآن، يشكل معها كل شيء، لأنها هي في إشكال، وليس بالضرورة لأن الموضوع الخارجي مشكل.

والصحابة ـ في المقابل ـ الذين يعتبرون الذروة في الإيمان لم تشكل معهم الصفات، ولم ينقل عنهم أنهم سألوا عن واحدة منها، وقد زادهم ذكر أعداد الملائكة التي أشكلت على الكافرين إيماناً، وآمنوا بالمحكم والمتشابه لأن جميعه من عند الله ـ تعالى ـ وأعلمهم الله بعد ذلك تأويل المتشابه.

إذن تخبطت تلك النفوس المريضة في معالجة قضية الصفات، فأخضعت ذات الله وصفاته لمناهج عقلية وفلسفات بشرية، فهل وصلت إلى قرار؟ لا لم تصل بل

زادت المشكلة تعقيداً كما ذكر كبار الوالجين لهذا الباب ، بل وانتهوا إلى حيرة أكثر من السابق . قال الرازي في كتابه «أقسام اللذات» :

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال أيضاً : (لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً)[1] .

وقال الشهرستاني :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف نادم على ذقن أو قارعاً سن نادم[2]

وقد قال أبو المعالي الجويني[3] : (يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به ، وقال عند موته : لقد خضت البحر الخضم ، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت في الذي نهوني ، والآن فإن لم يتداركني برحمته فالويل لابن الجويني ، وها أنذا أموت على عقيدة أمي أو قال : على عقيدة عجائز نيسابور) .

6 ـ **الإيمان** : عرَّف أبو الحسن الأشعري الإيمان بأنه قول وعمل وأنه يزيد وينقص كما هو معروف عند أهل السنة .

لكن شارح النسفيَّة اعتبر الإيمان هو التصديق ، واعتبر العمل شرطاً لإجراء الأحكام الدنيوية وليس شطراً منه وأنه لا يزيد ولا ينقص ، في حين أن شارح الجوهرة التقىٰ معه في تعريف الإيمان واختلف معه في أنه يزيد وينقص .

إن تعريف الإيمان بالتصديق خطأ من عدة أوجه :

الأول : المعنى اللغوي : ففيه اقتصار على المعنىٰ اللغوي ، وهذا ليس صحيحاً إذ أخرج الإسلام الألفاظ من معناها اللغوي وأعطاها المعنىٰ الشرعي الذي يريده

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية ص 227 .
(2) المرجع السابق ص 228 .
(3) المرجع السابق ص 228 .

إضافة إلى أن بعض وجوه الأصل اللغوي لكلمة «الإيمان» تفيد العمل كما وضَّح ابن تيمية[1] ـ رحمه الله ـ.

الثاني: قصر الإيمان على العقل: إن الكتَّاب الذين اعتبروا الإيمان تصديقاً فقط ربطوا الإيمان بالعقل وحده فقط، في حين أن الإيمان المطلوب من العبد ليس إيمان عقله فقط، بل إيمان العبد كله: عقله ونفسه، وهذا يقتضي أن يوجِّه العبد خوفه ورجاءه وحبه وتعظيمه وخضوعه إلى الله ـ تعالى ـ.

الثالث: عدم إدخال أعمال الإسلام فيه: لقد تنبَّه العلماء الأخيار من أمتنا إلى ترابط الإيمان والإسلام فَقالوا: عندما يأتي أحد اللفظين منفرداً، فإن ذلك يعني اشتماله على معنىٰ اللفظ الآخر، أما عندما يأتيان معاً فنفرد كل لفظ بمدلولاته الخاصة، وهذا يوجب دخول العمل في معنىٰ الإيمان.

أما المقولة الأخرى التي وردت في مجال الإيمان وهي أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فهي واضحة التهافت لأن الله ـ تعالى ـ أخبرنا في أكثر من آية من آياته بزيادته ونقصانه، قال تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ ﴾، وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾.

ليس من شك بأن تبنِّي كتب العقائد لهذا التعريف التقاء بالمعتزلة ونصر لهم.

7 ـ الرد على الرأيين القائلَيْن: بوجوب فعل الأصلح على الله ـ تعالى ـ، وبالتحسين والتقبيح العقليين.

ردت كتب العقائد على المعتزلة القائلين بوجوب فعل الأصلح على الله ـ تعالى ـ، فأطلقت مشيئته ـ تعالى ـ، وقد أوقعها ردها العقلي في خطأ مقابل خطأ المعتزلة، فجوَّزت أفعالاً عليه ـ تعالى ـ مثل: إثابة العاصي، وعقاب الطائع.

وردت كذلك على المعتزلة القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين: بأن الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع كذلك، وقد غالت في ذلك حتى ألغت دور العقل، وقالت: إن الشرع قد يأتي بما هو قبيح في نظر العقل مثل: ذبح الحيوان فهو إيلام له بلا ذنب وهو قبيح في نظر العقل.

---

(1) انظر كتاب «الإيمان» لابن تيمية ففيه تفصيل الرأي القائل إن الإيمان قول وعمل، وينقل فيه رأي أحمد بن حنبل الذي يقول فيه بكفر من يعتبر الإيمان تصديقاً فقط.

وقد كان الأسلم أن نخضع ما يتعلق بذات الله أو بدور العقل إلى وحي الله ، ففي مجال الإيجاب والإطلاق نوجب له ـ تعالى ـ ما أوجبه على نفسه ، فنوجب له ـ مثلاً ـ الرحمة لأنه أوجبها على ذاته في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ ﴾ . وفي مجال دور العقل: نعطيه المجال الذي أعطاه الوحي له .

8 ـ موضوعات متفرقة :

لقد امتلأت كتب «العقائد» بموضوعات مثل: عذاب القبر ، والحوض ، والشفاعة ، والمسح على الخفين ، إلخ . . . ، وقد جاء إبرازها والحديث عنها نتيجة موقف المعتزلة أو غيرهم منها : إنكاراً أو رفضاً .

ليس من شك بأن هذه الأمور ليست أهم ما في الدين ، حتى تعالج في مثل هذه الكتب وحتىٰ ينص على كل قضية منها ، وإن هناك خطأً يؤلف بينها جميعها ، هو: الموقف من حديث الرسول ـ ﷺ ـ ، وكان الأولى معالجة هذا الأصل الذي تنسحب معالجته على كل التفريعات التي نتجت عنه .

أوضح الاستعراض السابق لنا مدى ابتعاد كتب «العقائد» عن القرآن في موضوعاتها وفي طريقة تدليلها ، ووضع يدنا على الجرح ، ولم تُجْدِ ـ بكل أسف ـ أية صحيات لإيقاف هذا الابتعاد ، مثل صيحات: ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، أو أية محاولات لإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي ، إلى أن أخذ الابتعاد مداه النهائي ، والتدهور مداه السفلي .

والآن: ونحن في صدد الصعود مرة ثانية من أسفل المنحدر لا عذر لنا إذا لم نأخذ بالحقيقة القرآنية الكاملة التي أصعدتنا سابقاً: بحجمها ، وبمسمياتها ، وبتفاصيلها ، لنرتقي القمة مرة ثانية سريعاً وأكيداً كما ارتقيناها في السابق ، ولا شيء غير الحقيقة القرآنية الكاملة يمكن أن ينتج هذا أو يفعله . إذن لنعد إلى القرآن الكريم والسنة المشرفة ، إلى الوحي الإلهي ، لنستخلص منه «أصل الدين» و«العقيدة»)[1] انتهىٰ .

---

(1) في مجال العقيدة ، نقد وعرض ، ص74 .

ـ الأشاعرة ـ

الأصول المنهجية في مذهبهم[1]:

1 ـ **مصدر التلقي عند الأشاعرة**: العقل، وقد صرح الجويني والرازي والبغدادي والغزالي والآمدي والإيجي وابن فورك والسنوسي وشراح الجوهرة وسائر أئمتهم بتقديم العقل على النقل عند التعارض. وبعضهم صرح بأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة أصل من أصول الكفر وبعضُهم خففها فقال: هو أصل الضلالة!! تعالى الوحي عما يصفون.

قال السنوسي (ت 885 هـ) في شرح الكبرى: (وأما من زعم أن الطريق بدأ إلى معرفة الدين بالكتاب والسنة ويحرم ما سواهما فالرد عليه أن حجيتهما لا تعرف إلا بالنظر العقلي، وأيضاً فقد وقعت فيهما ظواهر من اعتقدها على ظاهرها كفر عند جماعة وابتدع).

ثم إن نصوص الكتاب والسنة عندهم ظنية الدلالة لا تفيد اليقين إلا إذا سلمت من عشر عوارض منها: الإضمار والتخصيص والنقل والاشتراك والمجاز. . . . وسلمت بعد هذا من المعارض العقلي بل قالوا: من احتمال المعارض العقلي. قبح الله العقول المتطاولة المغرورة.

وأما موقفهم من السنة خاصة فهو أنه لا يثبت بها عقيدة بل المتواتر منها يجب تأويله وآحادها لا يجب الاشتغال بها حتى على سبيل التأويل. حتى إن إمامهم الرازي[2] قطع بأن رواية الصحابة كلهم مظنونة بالنسبة لعدالتهم وحفظهم سواء، وإنه في الصحيحين أحاديث وضعها الزنادقة.

وتقرأ في كتب عقيدتهم قديمها وحديثها المائة صفحة أو أكثر فلا تجد فيها آية

---

(1) تحليل ملخص بتصرف من رسالة «منهج الأشاعرة في العقيدة» د. سفر الحوالي. والمراد من بقوا على مذهب الأشعري القديم.

(2) في كتابه التقديس والأربعين.

ولا حديثاً ، لكنك قد تجد في كل فقرة «قال الحكماء» أو «قال المعلم الأول» أو «قالت الفلاسفة» ونحوها .

وأما بعض صوفيتهم كالغزالي والحامي فيقدمون الكشف والذوق على النص ويصححون الأحاديث ويضعفونها حسب هذا الذوق كحديث إسلام أبوي النبي ﷺ ودخولهما الجنة بزعمهم ويسمون هذا «العلم اللدني» جرياً على قاعدة الصوفية : «حدثني قلبي عن ربي» .

2 ـ **إثبات وجود الله** : بدليل «الحدوث والقدم» أي الكون حادث لا بد له من محدث قديم ، وأخص صفات هذا القديم مخالفته للحوادث وعدم حلولها فيه ، ومن مخالفته للحوادث إثبات أنه ليس جوهراً ولا عرضاً ولا جسماً ولا في جهة ولا مكان . . . ثم رتبوا على ذلك من الأصول الفاسدة كإنكارهم لكثير من الصفات كالرضا والغضب والاستواء بشبهة نفي حلول الحوادث في القديم ونفي الجوهرية والعرضية والجهة والجسمية . . . إلى آخر هذه المصطلحات الفلسفية البدعية التي جعلوا نفيها أصولاً وأنفقوا الأعمار والمداد في شرحها ونفيها . ولو رجعوا إلى الفطرة لرأوا أن وجوده تعالى معلوم بالضرورة دون هذه المتاهات ، والأدلة عليه في الكون والنفس والآثار والآفاق والوحي أجل من الحصر ، ففي كل شيء له آية وعليه دليل .

3 ـ **التوحيد** : عندهم هو نفي التثنية أو التعدد ونفي التبعيض والتركيب والتجزئة ، ففسروا الإله بأنه الخالق أو القادر على الاختراع ، وأنكروا بعض الصفات كالوجه واليد والعين لأنها تدل على التركيب والأجزاء عندهم . فجعلوا الشرك توحيداً من خلال فلسفتهم . وأوجبوا النظر أولاً قبل الإيمان ، واختلفوا فيمن مات قبل النظر أو في أثناءه أيحكم له بالإسلام أم بالكفر . وخالفهم الحافظ ابن حجر بشدة وأكثر من الأقوال في الرد عليهم وأن لازم قولهم تكفير العوام بل تكفير الصدر الأول .

4 ـ **الإيمان** : الأشاعرة في الإيمان مرجئة جهمية يرون الإيمان التصديق القلبي . واختلفوا في النطق بالشهادتين أيكفي عنه تصديق القلب أم لا بد منه ، قال صاحب الجوهرة :

وفسر الإيمان بالتصديق ... والنطق فيه الخلف بالتحقيق

يقول الدكتور سفر الحوالي : (وقد رجح الشيخ حسن أيوب من المعاصرين أن المصدق بقلبه ناج عند الله وإن لم ينطق بهما ومال إليه البوطي. فعلى كلامهم لا داعي لحرص النبي ﷺ أن يقول عمه أبو طالب لا إله إلا الله لأنه لا شك في تصديقه له بقلبه ، وهو ومَنْ شابهه على مذهبهم من أهل الجنة!!) ص 39.

وأولوا كل آية أو حديث ورد بزيادة الإيمان ونقصانه أو وصف بعض شعبه بأنها إيمان أو من الإيمان فرد عليهم شيخ الإسلام بما يسكتهم.

5 ـ **القرآن**: اتخذ الأشاعرة منطلق «التوفيقية» بين أهل السنة وبين المعتزلة. فأهل السنة يؤمنون أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنه تعالى يتكلم بكلام مسموع تسمعه الملائكة وسمعه جبريل وسمعه موسىٰ ـ عليه السلام ـ ويسمعه الخلائق يوم القيامة. ومذهب المعتزلة أنه مخلوق. أما الأشاعرة فقادتهم فلسفتهم إلى التفريق بين المعنى واللفظ. فالكلام الذي يثبتونه لله تعالى هو معنىٰ أزلي أبدي قائم بالنفس ليس بحرف ولا صوت ولا يوصف بالخبر ولا الإنشاء. واستدلوا بالبيت المنسوب للأخطل النصراني :

إن الكــلام لفــي الفــؤاد وإنمـا جعـل اللسـان علـى الفـؤاد دليـلا

أما الكتب المنزلة ذات الترتيب والنظم والحروف ـ ومنها القرآن ـ فليست هي كلامه تعالى على الحقيقة بل هي عبارة عن كلام الله النفسي. والكلام النفسي شيء واحد في ذاته لكن إذا جاء التعبير عنه بالعبرانية فهو توراة ، وإن جاء بالسريانية فهو إنجيل ، وإن جاء بالعربية فهو قرآن ، فهذه الكتب كلها مخلوقة ووصفها بأنها كلام الله مجاز لأنها تعبير عنه.

واختلفوا في القرآن خاصة فقال بعضهم: إن الله خلقه أولاً في اللوح المحفوظ ثم أنزله في صحائف إلى سماء الدنيا ، يقرؤه جبريل ويبلغه محمداً ﷺ. وقال آخرون: إن الله أفهم جبريل كلامه النفسي وأفهمه جبريل لمحمد ﷺ ، فالنزول نزول إعلام وإفهام لا نزول حركة وانتقال (لأنهم ينكرون علو الله). ثم اختلفوا باللفظ العربي الذي عبر عن الكلام النفسي هل هو لجبريل أو محمد؟ واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ في سورتي الحاقة والانشقاق حيث أضافه في الأولى إلى محمد ﷺ وفي الأخرى إلى جبريل بأن اللفظ لأحد الرسولين «جبريل أو

محمد» وقد صرح الباقلاني بالأول وتابعه الجويني.

فرد عليهم شيخ الإسلام بقوله في الفتاوى: «وفي إضافته تعالى إلى هذا الرسول تارة وإلى هذا تارة دليل على أنه إضافة بلاغ وأداء لا إضافة إحداث لشيء منه وإنشاء كما يقول بعض المبتدعة الأشعرية من أن حروفه ابتداء جبريل أو محمد مضاهاة منهم في نصف قولهم لمن قال إنه قول البشر من مشركي العرب».

ثم قال الدكتور الحوالي ص 43: (وعلى القول أن القرآن الذي نقرؤه في المصاحف مخلوق سار الأشاعرة المعاصرون وصرحوا، فكشفوا بذلك ما أراد شارح الجوهرة أن يستره حيث قال: يمتنع أن يقال إن القرآن مخلوق إلا في مقام التعليم).

6 ـ **القدر**: أراد الأشاعرة أن يوفقوا بين الجبرية والقدرية فجاؤوا بنظرية الكسب وهي في مآلها جبرية خالصة لأنها تنفي أي قدرة للعبد أو تأثير. أما حقيقتها النظرية الفلسفية فقد عجز الأشاعرة أنفسهم عن فهمها فضلاً عن إفهامها لغيرهم حتى قال الرازي: (إن الإنسان مجبور في صورة مختار).

أما البغدادي فأراد أن يوضحها فذكر مثالاً لأحد أصحابه في تفسيرها شبه فيه اقتران قدرة الله بقدرة العبد مع نسبة الكسب إلى العبد «بالحجر الكبير قد يعجز عن حمله رجل ويقدر آخر على حمله منفرداً به فإذا اجتمعا جميعاً على حمله كان حصول الحمل بأقواهما، ولا خرج أضعفهما بذلك عن كونه حاملاً»!!.

وعلى مثل هذا المثال الفاسد يعتمد الجبرية وبه يتجرأ القدرية المنكرون، لأنه لو أن الأقوى من الرجلين عذب الضعيف، وعاقبه على حمل الحجر فإنه يكون ظالماً باتفاق العقلاء، لأن الضعيف لا دور له في الحمل، وهذه المشاركة الصورية لا تجعله مسؤولاً عن حمل الحجر.

والإرادة عند الأشاعرة معناها «المحبة والرضا» وأولوا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ بأنه لا يرضاه لعباده المؤمنين! فبقي السؤال وارداً عليهم: وهل رضيه للكفار أم فعلوه وهو لم يرده؟ وفعلوا بسائر الآيات مثل ذلك، ومن هذا القبيل كلامهم في الاستطاعة، فخرجوا عن المنقول والمعقول في هذا الباب.

7 ـ **السببية وأفعال المخلوقات**: ينكر الأشاعرة الربط العادي بإطلاق وأن يكون شيء يؤثر في شيء، وأنكروا كل «باء سببية» في القرآن، وكفروا وبدّعوا من

خالفهم. قالوا: من قال إن النار تحرق بطبعها أو هي علة الإحراق فهو كافر مشرك. وقالوا: الرجل لو كسر زجاجة ما انكسرت بكسره إنما انكسرت عند كسره، وهذه فلسفة المدرسة الوضعية من المفكرين الغربيين المحدثين ومن وافقهم من ملاحدة العرب، ولا عجب بذلك فالأشاعرة والوضعيون كلاهما ناقل عن الفكر الفلسفي الإغريقي.

فضلوا إذ أنكروا السنن التي خلقهـا الله في تلك المخلوقات وجعلوها مخلوقة آنياً وقت الفعل، وغفلوا عن حديث النبي ﷺ: [فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة] أحمد عن عبادة بسند صحيح[1].

8 ـ **الحكمة الغائية**: ينفي الأشاعرة قطعاً أن يكون لشيء من أفعال الله تعالى علة مشتملة على حكمة تقضي إيجاد الفعل أو عدمه، وهو رد فعل لقول المعتزلة بالوجوب على الله حتى أنكر الأشاعرة كل لام تعليل في القرآن وقالوا: إن كونه يفعل شيئاً لعلة ينافي كونه مختاراً مريداً. وسموا أصلهم هذا «نفي الغرض عن الله» واعتبروه من لوازم التنزيه. وجعلوا أفعاله تعالى كلها راجعة إلى محض المشيئة ولا تعليق لصفة أخرى ـ كالحكمة ـ مثلاً ـ بها، ورتبوا على هذا أصولاً فاسدة كقولهم بجواز أن يخلد الله في النار أخلص أوليائه ويخلد في الجنة أفجر الفجار، وجواز التكليف بما لا يطاق ونحوها.

وسبب هذا التأصيل الباطل عدم فهمهم ألا تعارض بين المشيئة والحكمة أو المشيئة والرحمة. ولهذا لم يثبت الأشاعرة الحكمة مع الصفات السبع واكتفوا بإثبات الإرادة مع أن الحكمة تقتضي الإرادة والعلم وزيادة.

9 ـ **النبوات**: يختلف مذهب الأشاعرة عن مذهب أهل السنة والجماعة في النبوات اختلافاً بعيداً، فهم يقررون أن إرسال الرسل راجع للمشيئة المحضة وأنه لا دليل على صدق النبي إلا المعجزة، ثم يقررون أن أفعال السحرة والكهان من جنس المعجزة لكنها لا تكون مقرونة بادعاء النبوة والتحدي. قالوا: ولو ادعى

---

(1) قد مضى تخريجه في بحث القدر.

الساحر أو الكاهن النبوة لسلبه الله معرفة السحر رأساً وإلا كان هذا إضلالاً من الله وهو يمتنع عليه الإضلال. . إلى آخر ما يخالفون به النقل والعقل. . . حتى أغروا أعداء الإسلام بالنيل منه ـ لضعف مذهبهم في النبوات ـ واستطال عليهم الفلاسفة والملاحدة. والصوفية منهم كالغزالي يفسرون الوحي تفسيراً قرمطياً فيقولون هو انتقاش العلم الفائض من العقل الكلي في العقل الجزئي. أما في موضوع العصمة فينكرون صدور الذنب عن الأنبياء ويؤولون الآيات والأحاديث الكثيرة تأويلاً متعسفاً متكلفاً كالحال في تأويلات الصفات.

10 ـ **التحسين والتقبيح**: ينكر الأشاعرة أن يكون للعقل والفطرة أي دور في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح ويقولون مرد ذلك إلى الشرع وحده، وهذا رد فعل مغال لقول البراهمة والمعتزلة أن العقل يوجب حسن الحسن وقبح القبيح، وهو مع منافاته للنصوص مكابرة للعقول. ومما يترتب عليه من الأصول الفاسدة قولهم أن الشرع قد يأتي بما هو قبيح في العقل، فإلغاء دور العقل بالمرة أسلم من نسبة القبح إلى الشرع. ومثلوا لذلك بذبح الحيوان فإنه إيلام له بلا ذنب وهو قبيح في العقل، ومع ذلك أباحه الشرع. وهذا في الحقيقة قول البراهمة الذين يحرمون أكل الحيوان، فلما عجز هؤلاء عن رد شبهتهم ووافقوهم عليها أنكروا حكم العقل من أصله وتوهموا أنهم بهذا يدافعون عن الإسلام. كما أن من أسباب ذلك مناقضة أصل من قال بوجوب الثواب والعقاب على الله بحكم العقل ومقتضاه.

11 ـ **التأويل**: ومعناه المبتدع صرف اللفظ عن ظاهره الراجح إلى احتمال مرجوح لقرينة. وهو في التحقيق تحريف كما قرر شيخ الإسلام. وهو أصل منهجي عند الأشاعرة ضمن أصولهم. وضرورته عندهم بسبب تعارض الأصول العقلية مع النصوص الشرعية، فيلجؤون إلى التأويل مضطرين بزعمهم لئلا يوقعوا القرآن في التناقض. وإنما التناقض في منهجهم تعالى الشرع والقرآن عن ذلك. وهم بذلك فتحوا على الإسلام شروراً تبعتهم الباطنية في ذلك واحتجت عليهم في تأويل الحلال والحرام والصلاة والصوم والحج والحشر والحساب بنحو تأويلاتهم، وإلا فلماذا يكون تأويل الأشاعرة لعلو الله ـ الذي تقطع به العقول والفطر والشرائع ـ تنزيهاً وتوحيداً وتأويل الباطنية للبعث والحشر كفراً وردة.

12 ـ **السمعيات**: قسم الأشاعرة أصول العقيدة بحسب مصدر التلقي إلى ثلاثة أقسام:

(1) قسم مصدره العقل وحده، وهو معظم الأبواب ومنه باب الصفات ولهذا يسمون الصفات السبع «عقلية» وهذا القسم هو «ما يحكم العقل بوجوبه» دون توقف على الوحي عندهم.

(2) قسم مصدره العقل والنقل معاً كالرؤية ـ على خلاف بينهم فيها ـ وهذا القسم هو «ما يحكم العقل بجوازه» استقلالاً أو بمعاضدة الوحي.

(3) قسم مصدره النقل وحده وهو السمعيات أي المغيبات من أمور الآخرة، كعذاب القبر والصراط والميزان، وهو عندهم: ما لا يحكم العقل باستحالته لكن لو لم يرد به الوحي لم يستطع العقل إدراكه منفرداً. ويدخلون فيه التحسين والتقبيح والتحليل والتحريم.

بينما مذهب أهل السنة والجماعة أن لا منافاة بين العقل الصحيح والنقل الثابت ولا تضخيم للعقل وإنما جاء الوحي منسجماً مع الفطرة والعقل النير.

13 ـ **التكفير**: التكفير عند أهل السنة والجماعة حق لله تعالى لا يطلق إلا على من يستحقه شرعاً ولا تردد في إطلاقه على من ثبت كفره بشروطه الشرعية.

أما الأشاعرة فهم مضطربون اضطراباً كبيراً فتارة يقولون نحن لا نكفر أحداً، وتارة يقولون نحن لا نكفر إلا من كفرنا، وتارة يكفرون بأمور لا تستوجب أكثر من التفسيق أو التبديع، وتارة يكفرون بأمور لا توجب مجرد التفسيق، وتارة يكفرون بأمور هي نفسها شرعية. ويجب على كل مسلم أن يعتقدها.

فأما قولهم لا نكفر أحداً فباطل قطعاً إذ في المنتسبين إلى الإسلام فضلاً عن غيرهم كفار لا شك في كفرهم، وأما قولهم لا نكفر إلا من كفرنا فباطل إذ ليس تكفير أحد لنا بمسوغ أن نكفره. وأما تكفير من لا يستحق سوى التبديع فنحو قولهم: من قال إن الله جسم لا كالأجسام يكفر، وهذا ليس بكافر بل هو ضال مبتدع لأنه أتى بلفظ لم يرد به الشرع والأشاعرة تستعمل ما هو شر منه. وأما تكفير من لا يستحق حتى مجرد الفسق أو المعصية فهو كتكفيرهم من قال إن النار علة الإحراق

والطعام علة الشبع. وأما التكفير بما هو حق في نفسه يجب اعتقاده فنحو تكفيرهم لمن يثبت علو الله ومن لم يؤمن بالله على طريقة أهل الكلام، وكقولهم أن الأخذ بظواهر النصوص من أصول الكفر، وكقولهم أن عبادة الأصنام فرع من مذهب المشبهة ويعنون بهم أهل السنة والجماعة.

14 ـ **الصحابة والإمامة**: الصحابة هو الموضوع الوحيد الذي يتفقون فيه مع أهل السنة والجماعة. وقريب منه موضوع الإمامة. ولا يعني هذا الاتفاق التام بل هم مخالفون في تفصيلات كثيرة مبسوطة في مراجع مختلفة.

15 ـ **الصفات**: مذهبهم فيها مركب من بدع سابقة وبدع أحدثوها حتى صار غاية في التلفيق المتنافر. فمدرستهم بذلك في غاية التعقيد والانحراف والبعد عن بساطة ووضوح منهج الوحي الكريم، حتى إنها لم تسلم من التناقضات العجيبة، فهم ينفون العلو ويقولون كلاماً فلسفياً أصله من فلاسفة اليونان: (الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته)(1) ومع ذلك تجد في خبايا كلامهم إقراراً به دون أن يشعروا، لأن مغالبة الفطرة من أصعب الأمور. فالرازي مثلاً ـ مع إنكاره الشديد للعلو في (التأسيس والتفسير) قال في التفسير: إن الله (خسف بقارون فجعل الأرض فوقه ورفع محمداً ﷺ فجعله قاب قوسين تحته) 248/1. والرفع يدل على علو الله.

---

(1) قال الألباني رحمه الله في مختصر العلو ص 53: (ثم انقسم هؤلاء ـ يعني الخلف ـ على مذهبين:
الأول: مذهب الجهمية الذين ذهبوا إلى أن الله تعالى في كل مكان مخلوق. وقد جادلهم الإمام أحمد رحمه الله تعالى، فأحسن جدالهم، وكشف به عوارهم.
والمذهب الآخر قول بعض غلاة النفاة للعلو: «الله، لا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا يسار، ولا أمام، ولا خلف، ولا داخل العالم، ولا خارجه» ـ كذا في حاشية البيجوري على الجوهرة ص 58، وقد سمعت هذا النفي من بعض المشايخ على المنبر يوم الجمعة يعلم المسلمين الإيمان برب العالمين ـ. ويزيد بعض فلاسفتهم: «لا متصلاً بالعالم، ولا منفصلاً عنه»! قلت: وهذا النفي معناه ـ كما هو ظاهر ـ أن الله غير موجود، وهذا هو التعطيل المطلق، والجحد الأكبر، تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وما أحسن ما قال محمود بن سبكتكين لمن وصف الله بذلك: ميز لنا بين هذا الرب الذي تثبته وبين المعدوم! ذكره في «التدمرية» ص 41) انتهى.

الماتريدية

هي فرقة كلامية ، تنسب إلى أبي منصور الماتريدي (المتوفى 333 هـ) ، قامت على استخدام البراهين والدلائل العقلية والكلامية ضد خصومها من المعتزلة والجهمية وغيرهم ، لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية .

وأبو منصور الماتريدي هو محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي ، نسبة إلى (ما تريد) محلة قرب سمرقند فيما وراء النهر ، وقد عاصر أبا الحسن الأشعري ، وعاش الملحمة بين أهل الحديث وأهل الكلام من المعتزلة وغيرهم ، فكانت له جولاته ضد المعتزلة وغيرهم ، ولكن بمنهاج غير منهاج الأشعري ، وإن التقيا في كثير من النتائج غير أن المصادر التاريخية لا تثبت لهما لقاء أو مراسلات بينهما ، أو اطلاع على كتب بعضهما .

من أشهر كتبه «كتاب التوحيد» وهو كتاب في علم الكلام قرّر فيه نظرياته الكلامية ، ويقصد بالتوحيد: توحيد الخالقية والربوبية ، وشيء من توحيد الأسماء والصفات ، ولكن على طريقة الجهمية بتعطيل كثير من الصفات بحجة التنزيه ونفي التشبيه مخالفاً طريقة السلف الصالح .

من عقائدهم :

1 ـ تقسيم أصول الدين حسب مصدر التلقي إلى :

أ : الإلهيات ـ العقليات ـ: أي : ما يستقل العقل بإثباتها والنقل تابع له ، وتشمل أبواب التوحيد والصفات .

ب : الشرعيات ـ السمعيات ـ: وهي الأمور التي يجزم العقل بإمكانها ثبوتاً ونفياً ، ولا طريق للعقل إليها مثل : النبوات ، وعذاب القبر ، وأمور الأخرة ، علماً أن بعضهم جعل النبوة من قبيل العقليات .

وقد خالفوا بذلك منهج أهل السنة والجماعة حيث أن القرآن والسنة وإجماع الصحابة هم مصادر التلقي عندهم ، فضلاً عن مخالفتهم في بدعة تقسيم أصول الدين إلى : عقليات وسمعيات ، والتي قامت على فكرة باطلة أصّلها الفلاسفة من :

أن نصوص الدين متعارضة مع العقل ، فعملوا على التوسط بين العقل والنقل ، مما اضطرهم إلى إقحام العقل في غير مجالات بحثه ، فخرجوا بأحكام باطلة تصطدم مع الشرع ألجأتهم إلى التأويل والتفويض ، بينما لا منافاة عند أهل السنة والجماعة بين العقل السليم الصريح والنقل الصحيح .

2 ـ وكنتيجة للتقسيم السابق ، فقد قسموا الأدلة تقسيماً مبتدعاً إلى قطعي الثبوت قطعي الدلالة ، وقطعي الثبوت ظني الدلالة .

فإن كان من نصوص القرآن الكريم والسنة المتواترة مما هو قطعي الدلالة عندهم ، أي مقبولاً عقلاً ، خالياً من التعارض مع عقولهم ، فإنهم يحتجون به في تقرير العقيدة ، وأما إن كان قطعي الثبوت ظني الدلالة عندهم أي: مخالفاً لعقولهم ، فإنه لا يفيد اليقين ، ولذلك تُؤوَّل الأدلة النقلية بما يوافق الأدلة العقلية ، أو تفوض معانيها إلى الله عز وجل . وهم في ذلك مضطربون ، فليست عندهم قاعدة مستقيمة في التأويل والتفويض ، فمنهم من رجح التأويل على التفويض ومنهم من رجَّح التفويض ، ومنهم من أجاز الأمرين ، وبعضهم رأى أن التأويل لأهل النظر والاستدلال ، والتفويض أليق بالعوام .

والملاحظ للباحث أن القول بالتأويل لم يكن على عهد النبي ﷺ ولا أصحاب القرون المفضلة ، وإنما هي بدعة دخلت على الجهمية والمعتزلة من اليهود والنصارى ، وإلى التأويل يرجع جميع ما أُحدث في الإسلام من بدع فرَّقت شمل الأمة ، وهو أشرُّ من التعطيل ، حيث يستلزم التشبيه والتعطيل ، واتهاماً للرسول ﷺ بالجهل ، أو كتمان بيان ما أنزل الله .

وأما القول بالتفويض فهو من أشر أقوال أهل البدع لمناقضته ومعارضته نصوص التدبر للقرآن ، واستلزام تجهيل الأنبياء والمرسلين برب العالمين .

3 ـ أحاديث الآحاد عندهم تفيد الظن لا العلم اليقيني ، ولا يعمل بها في الأحكام الشرعية مطلقاً ، بل وفق قواعدهم وأصولهم التي أحدثوها ، وأما في العقائد فلا يحتج بها ولا تثبت بها عندهم عقيدة ، وإن اشتملت على جميع الشروط المذكورة في أصول الفقه ، وإن وردت مخالفة للعقل ولا تحتمل التأويل رُدَّت بافتراء ناقله أو سهوه أو غلطه ، وإن كانت ظاهرة فظاهرها غير

مراد ، وهذا موقف الماتريدية قديماً وحديثاً حتى أن الكوثري ومن وافقه من الديوبندية[1] طعنوا في كتب السنة بما فيها الصحيحين ، وفي عقيدة أئمة السنة مثل حماد بن سلمة راوي أحاديث الصفات ، والإمام الدارمي عثمان بن سعيد صاحب السنن .

وهذا القول بأحاديث الآحاد مبتدع ابتدعته القدرية والمعتزلة ، إذ كان أول من قال بهذا القول هو : إسماعيل بن علية (ت 218 هـ) قال عنه الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال : (جهمي هالك كان يناظر في خلق القرآن) 20/1 . وناظره الإمام الشافعي وقال فيه : (هو ضال) .

وإنما الأحاديث حجة عليهم ، وهو منهج مخالف لفعل النبي ﷺ حيث كان يبعث الرسل إلى الملوك والرؤساء فُرادى يدعونهم إلى الإسلام . وكذلك فإن تقسيم الحديث إلى متواتر وآحاد لم يكن معروفاً في عهد النبوة ولا في عصر الصحابة والتابعين .

4 ـ كما رتبوا على ذلك وجوب معرفة الله تعالى بالعقل قبل ورود السمع ، واعتبروه أول واجب على المكلف ، ولا يعذر بتركه ذلك ، بل يعاقب عليه ولو قبل بعثة الأنبياء والرسل ، وبهذا وافقوا المعتزلة في هذا القول الظاهر البطلان .

فأدلة القرآن والسنة تبين أن معرفة الله تعالى يوجبها العقل ، ويذم من يتركها ، لكن العقاب على الترك لا يكون إلا بعد ورود الشرع ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : 15]. وأن أول واجب على المكلف ، وبه يكون مسلماً : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والبراءة من كل دين يخالف دين الإسلام على الإجمال ، ولهذا لما أرسل رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن لم يأمره بغير ذلك . وكذلك الأنبياء لم يدعوا أقوامهم إلا بقول : ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف : 59] .

(1) نسبة لجامعة ديوبند ـ دار العلوم ـ في الهند . مدرسة فكرية عميقة الجذور طبعت كلَّ خريج منها بطابعها العلمي . وهي مدرسة ترجح مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله في الفقه والفروع ومذهب أبي منصور الماتريدي في الاعتقاد والأصول ، وتعتمد الطريقة النقشبندية والقادرية من طرق الصوفية في السلوك .

5 ـ قالوا بالتحسين والتقبيح العقليين. وقد مضى تفصيل ذلك عند الحديث عن المعتزلة.

6 ـ وذهبت الماتريدية كغيرها من الفرق الكلامية إلى أن المجاز واقع في اللغة والقرآن والحديث، ويقصدون بالمجاز اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، فأوّلوا النصوص دفعاً ـ في ظنهم ـ لشبه التجسيم والتشبيه. وهو بهذا المعنى: قول مبتدع، محدث، لا أصل له في اللغة ولا في الشرع. ولم يتكلم فيه أئمة اللغة: كالخليل بن أحمد، وسيبويه فضلاً عن أئمة الفقهاء والأصوليين المتقدمين.

7 ـ الإله عندهم: القادر على الاختراع، والتوحيد عندهم: إثبات أن الله تعالى واحد في ذاته، لا قسيم له، ولا جزء له، واحد في صفاته، لا شبيه له، وواحد في أفعاله، لا يشاركه أحد في إيجاد المصنوعات، وبذلوا الأدلة والمقاييس العقلية والفلسفية التي أحدثها المعتزلة والجهمية من أجل تقرير ذلك، مثل دليل حدوث الجواهر والأعراض، وهي أدلة طعن فيها أئمة السلف وأتباعهم.

8 ـ وافقوا أهل السنة والجماعة في القول بالتوقيف في أسماء الله تعالى، وبأنه لا يسمى إلا بما سمّى به نفسه وجاء به الشرع، ولكن خالفوهم فيما أدخلوه في أسمائه تعالى: كالصانع، القديم، الذات... حيث لم يفرقوا بين باب الإخبار عن الله تعالى وباب التسمية.

9 ـ قالوا بإثبات ثماني صفات لله تعالى فقط، على خلاف بينهم وهي: الحياة، القدرة، العلم، الإرادة، السمع، البصر، الكلام، التكوين. وعلى أن جميع الأفعال المتعدية ترجع إلى التكوين، أما ما عدا ذلك من الصفات التي دل عليها الكتاب والسنة (الصفات الخبرية) من صفات ذاتية، أو صفات فعلية، فإنها لا تدخل في نطاق العقل، ولذلك قالوا بنفيها جميعاً. أما أهل السنة والجماعة فهم كما يعتقدون في الأسماء يعتقدون في الصفات وأنها جميعاً توقيفية، ويؤمنون بها «بإثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، مع تفويض الكيفية وإثبات المعنى اللائق بالله ـ تعالى ـ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾».

10 ـ قالوا: القرآن ليس كلام الله على الحقيقة بل هو كلام الله النفسي، لا يسمع، وإنما يسمع ما هو عبارة عنه، فالكتب عندهم بما فيها القرآن مخلوقة،

وهو قول مبتدع أول من ابتدعه ابن كلاب . وإنما الله تعالى يتكلم إذا شاء متى شاء بما شاء ، ولا يزال يتكلم كما كلم موسىٰ ، ويكلم عباده يوم القيامة ، والقرآن كلامه على الحقيقة ، غير مخلوق ، وكذلك التوراة والإنجيل والزبور . وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة .

11 ـ تقول الماتريدية في الإيمان أنه التصديق بالقلب فقط ، وأضاف بعضهم الإقرار باللسان ، ومنعوا زيادته ونقصانه ، وقالوا بتحريم الاستثناء فيه ، وأن الإسلام والإيمان مترادفان ، لا فرق بينهما ، فوافقوا المرجئة في ذلك ، وخالفوا أهل السنة والجماعة ، حيث الإيمان عندهم : اعتقاد بالجنان ، وقول باللسان ، وعمل بالأركان ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . ويجوز الاستثناء فيه (والمقصود عدم تزكية النفس) والإيمان والإسلام متلازمان ، إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا .

12 ـ وافقت الماتريدية أهل السنة والجماعة في الإيمان بالسمعيات مثل : أحوال البرزخ ، وأمور الآخرة من : الحشر ، والنشر ، والميزان ، والصراط ، والشفاعة ، والجنة ، والنار ، لأنهم جعلوا مصدر التلقي فيها السمع ، لأنها من الأمور الممكنة التي أخبر بها الصادق ﷺ ، وأيدتها نصوص الكتاب والسنة . وبالتالي فإنهم أثبتوا رؤية الله تعالى في الآخرة ، ولكن مع نفي الجهة والمقابلة . وهذا قول متناقض حيث أثبتوا ما لا يمكن رؤيته ، ولا يخفى مخالفته لما عليه أهل السنة والجماعة .

كما وافقوا أهل السنة والجماعة في القول في الصحابة على ترتيب خلافتهم ، وأن ما وقع بينهم كان خطأ عن اجتهاد منهم ، ولذا يجب الكف عن الطعن فيهم ، لأن الطعن فيهم إما كفر ، أو بدعة ، أو فسق . كما يرون الخلافة في قريش ، والصلاة خلف كل بر وفاجر ، ولا يجوز الخروج على الإمام الجائر . كما وافقوا في القول بالقدر ، والقدرة والاستطاعة ، لكنهم قالوا بعدم جواز التكليف بما لا يُطاق موافقين المعتزلة بذلك ، والذي عليه أهل السنة والجماعة هو التفصيل ، وعدم إطلاق القول بالجواز أو بالمنع .

والخلاصة : لقد تأثر أبو منصور الماتريدي مباشرة أو بواسطة شيوخه بعقائد الجهمية من الإرجاء والتعطيل وكذلك المعتزلة والفلاسفة في نفي بعض الصفات

وتحريف نصوصها ، ونفي العلو والصفات الخبرية ، كما تأثر بابن كلاب (ت 240 هـ) أول من ابتدع القول بالكلام النفسي لله عز وجل. وقد اقترب منهجه وابتعد حسب المنهج الذي ذكرناه من الأصول التي وضعها لنفسه ، وقد انتشر المذهب نتيجة وجود أكثر من دولة تحميه وتؤيده مثل: الدولة العثمانية ، فضلاً عن وجود جامعات ومدارس مشهورة تعمل على نشره ، وكان لانتسابهم للمذهب الحنفي في الفروع أكبر الأثر في انتشار المذهب. ومع هذا فإن للماتريدية خدمات جليلة في الرد على المعتزلة والباطنية والفلاسفة الملحدين والروافض ، ولهم جهود مشكورة في خدمة كتب الحديث[1].

ب: ـ المشبهة ـ

هم الذين شبهوا الله بالخلق في صفاته ، عكس النصارى شبهوا المخلوق ـ عيسى عليه الصلاة والسلام ـ بالخالق وجعلوه إلهاً ، وهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق.

قال الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل»: (ومن المشبهة من مال إلى مذهب الحلولية ، وقال: يجوز أن يظهر الباري تعالى بصورة شخص ، كما كان جبريل عليه السلام ينزل في صورة أعرابي وقد تمثل لمريم بشراً سوياً. وعليه حمل قول النبي عليه السلام: «رأيت ربي في أحسن صورة». وفي التوراة عن موسىٰ عليه السلام: شافهت الله تعالى فقال لي كذا. والغلاة من الشيعة مذهبهم الحلول. ثم الحلول قد يكون بجزء ، وقد يكون بكل) ص 108.

3ـ الجبرية ـ

الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى ، والجبرية أصناف:

1ـ **الجبرية الخالصة**: هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً.

---

(1) وللمزيد من التفصيل راجع الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة. د. مانع الجهني.

2 ـ **الجبرية المتوسطة**: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً.

والجبرية: أصل قولهم من جهم بن صفوان، وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه وهم عكس القدرية نفاة القدر، وسموا كذلك لنفيهم القدر كما سميت المرجئة لنفيهم الإرجاء وأنه لا أحد مرجأ لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، وقد تسمى الجبرية قدرية لأنهم غلوا في إثبات القدر، وكانت المرجئة الأولى يرجئون عثمان وعلياً ولا يشهدون بإيمان ولا كفر.

في سنن أبي داود بإسناد حسن من حديث ابن عمر: [القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم][1].

قال الشهرستاني في «الملل والنحل»: (جهم بن صفوان وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية).

وتفصيل ذلك:

أ ـ الجهمية ـ

هم المنتسبون إلى جهم بن صفوان السمرقندي، وهو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل، وقد أخذه عن الجعد بن درهم[2] الذي ضحىٰ به خالد بن عبد الله القَسْري بواسط سنة 124 هـ بعد استفتاء علماء زمانه وهم من السلف الصالح. وكان جهم بعده بخراسان فأظهر مقالته هناك وتبعه عليها ناس بعد أن ترك الصلاة أربعين يوماً شكاً في ربه، وكان ذلك لمناظرته قوماً من المشركين (السمنية) من فلاسفة الهند، ينكرون من العلم ما سوى الحسيات، قالوا له: هذا ربك الذي تعبده هل يُرىٰ أو يُشَمُّ أو يذاق أو يُلمس؟ فقال: لا، فقالوا: هو معدوم، فبقي أربعين يوماً لا يعبد شيئاً، ثم نقش الشيطان اعتقاداً نحته فكره فقال: إنه الوجود المطلق، ونفىٰ جميع الصفات واتصل بالجعد. وقيل: إن جعداً كان قد اتصل

(1) حسن. صحيح الجامع (4318) وتخريج الطحاوية (242).

(2) الجعد: أول من ابتدع القول بخلق القرآن، وتعطيل الله عن صفاته.

بالصابئة الفلاسفة من أهل حرَّان ، وأخذ عن بعض اليهود المُحرِّفين لدينهم المتصلين بلبيد بن الأعصم الساحر الذي سحر النبي ﷺ. فقتل جهم بخراسان ، قَتَلَهُ سلم بن أحوز بعدما فشت مقالته وأخذها بعض المعتزلة ، وكان جهم أدخلَ في التعطيل منهم لأنه ينكر الأسماء حقيقة وهم لا ينكرون الأسماء بل الصفات ، وقد تنازع العلماء في الجهمية هل هم من الفرق الثنتين والسبعين؟ !

واشتهرت مقالة الجهمية من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل من علماء السنة ، فإنه من إمارة المأمون قوُوا وكثروا ، فقد أقام بخراسان مدة واجتمع بهم ثم كتب بالمحنة من طرسوس سنة 218 وفيها مات ، وردوا الإمام أحمد إلى الحبس ببغداد إلى سنة عشرين وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم بالكلام ، ولما فند حججهم ورد عليهم وأراد المعتصم إطلاقه أشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه لئلا تنكسر حرمة الخلافة ، فلما ضربوه قامت الشناعة في العامة وخافوا فأطلقوه[1].

وافق جهم بن صفوان المعتزلة في نفي الصفات الأزلية ، وزاد عليهم أشياء:

1 ـ لا يجوز عنده أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه ، لأن ذلك يقضي تشبيهاً ، فنفىٰ كونه حياً عالماً ، وأثبت كونه: قادراً ، فاعلاً ، خالقاً ، لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة ، والفعل ، والخلق.

وكان جهم يخرج بأصحابه فيقفهم على المجذومين ويقول: انظروا ، أرحم الراحمين يفعل مثل هذا؟ إنكاراً لرحمته كما أنكر حكمته.

2 ـ الإيمان عنده هو المعرفة فقط والكفر هو الجهل فقط. قال: من أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده ، لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد ، فهو مؤمن. قال: والإيمان لا يتبعض أي لا ينقسم إلى: عقد ، وقول ، وعمل. قال: ولا يتفاضل أهله فيه ، فإيمان الأنبياء ، وإيمان الأمة على نمط واحد إذ المعارف لا تتفاضل.

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية.

ووافـق المعتزلـة في نفي الرؤيـة ، وإثبـات خلق الكـلام ، وإيجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع .

3 ـ الإنسان عنده لا يقدر على شيء ، ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور في أفعاله ، لا قدرة له ، ولا إرادة ، ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات ، وتنسب الأفعال إليه مجازاً كما تنسب إلى الجمادات ، كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرىٰ الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، . . . ، فلا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وحده ، وتنسب الأفعال للناس على المجاز . والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال كلها جبر . قال : وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً .

4 ـ قال : لا يجوز أن يعلم ـ أي الله ـ الشيء قبل خلقه . قال : إن الله يعلم الشيء في حال حدوثه ، ومحال أن يكون الشيء معلوماً وهو معدوم ، لأن الشيء عنده هو الجسم الموجود ، وما ليس بموجود فليس بشيء فيعلم أو يجهل . فألزمه مخالفوه أن لله علماً محدثاً إذ زعم أن الله قد كان غير عالم ثم علم . ويجب على أصله أن يقول في القدرة والحياة كقوله في العلم[1] .

5 ـ قال : إن حركات أهل الخالدين تنقطع ، والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما فيهما وتلذذ أهل الجنة بنعيمها ، وتألم أهل النار بجحيمها ، إذ لا تتصور حركات لا تتناهىٰ آخراً ، كما لا تتصور حركات لا تتناهىٰ أولا . وحمل قوله تعالى : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ على المبالغة والتأكيد دون الحقيقة في التخليد ، كما يقال خلد الله ملك فلان ، واستشهد على الانقطاع بقوله تعالى : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فالآية اشتملت على شريطة واستثناء ، والخلود والتأبيد لا شرط فيه ولا استثناء . إلى غير ذلك من الجهل بنصوص الكتاب والسنة وعلم التفسير . ولقد أحسن القائل :

عجبت لشيطان دعا الناس جهرة ... إلى النار واشتق اسمه من جهنم

(1) مقالات الإسلاميين للأشعري (2/ 494) . وانظر الملل والنحل للشهرستاني ص 86 .

ولما سئل أبو حنيفة عن الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: (لعن الله عمرو بن عبيد، هو فتح على الناس الكلام في هذا)[1].

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى في رسالة «الرد على الجهمية».

(وإذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله سبحانه وتعالى حين زعم أنه في كل مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، فقل له: أليس كان الله، ولا شيء؟ فيقول: نعم. فقل له: فحين خلق الشيء خلقه في نفسه أو خارجاً عن نفسه؟ فإنه يصير إلى أحد ثلاثة أقاويل:

أ ـ إن زعم أن الله تعالى خلق الخلق في نفسه كفر، حين زعم أن الجن والإنس والشياطين وإبليس في نفسه!

ب ـ وإن قال: خلقهم خارجاً من نفسه، ثم دخل فيهم، كفر أيضاً، حين زعم أنه دخل في كل مكان وحش وقذر.

ج ـ وإن قال خلقهم خارجاً من نفسه، ثم لم يدخل فيهم، رجع عن قوله أجمع، وهو قول أهل السنة)[2].

4 ـ الخوارج والمرجئة والوعيدية

كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً. سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان.

والمرجئة: صنف آخر تكلموا في الإيمان والعمل، إلا أنهم وافقوا الخوارج في بعض المسائل التي تتعلق بالإمامة.

والوعيدية: داخلة في الخوارج، وهم القائلون بتكفير صاحب الكبيرة وتخليده في النار.

وتفصيل ذلك:

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية، والملل والنحل للشهرستاني ص 88.

(2) اجتماع الجيوش الإسلامية ص 76 - 80. ومختصر العلو ص 53.

أولاً: الخوارج. إن أول من خرج على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه جماعة ممن كان معه في حرب صفين، وأشدهم خروجاً عليه ومروقاً من الدين: الأشعث بن قيس الكندي، ومسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي حين قالوا: القوم يدعوننا إلى كتاب الله، وأنت تدعونا إلى السيف! حتى قال: أنا أعلم بما في كتاب الله! انفروا إلى بقية الأحزاب! انفروا إلى من يقول: كذب الله ورسوله، وأنتم تقولون صدق الله ورسوله. قالوا: لترجعن الأشتر عن قتال المسلمين، وإلا فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان، فاضطر إلى رد الأشتر بعد أن هزم الجمع، وولوا مدبرين وما بقي منهم إلا شرذمة قليلة فيهم حشاشة[1] قوة، فامتثل الأشتر أمره.

وكان من أمر الحكمين: أن الخوارج حملوه على التحكيم أولاً، وكان يريد أن يبعث عبد الله بن عباس رضي الله عنه فما رضي الخوارج بذلك، وقالوا هو منك، وحملوه على بعث أبي موسىٰ الأشعري على أن يحكم بكتاب الله تعالى، فجرى الأمر على خلاف ما رضي به، فلما لم يرض بذلك خرجت الخوارج عليه وقالوا: لم حكمت الرجال؟ لا حكم إلا الله. وهم المارقة الذين اجتمعوا بالنهروان.

وكبار الفرق منهم: المحكمة، والأزارقة، والثعالبة، والإباضية، والصفرية وغيرهم، ويجمعهم القول بالتبري من عثمان وعلي رضي الله عنهما، ويقدمون ذلك على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك، ويكفرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة: حقاً واجباً.

وسنفصل القول في أهم فرقهم المنتشرة: الإباضية.

ـ الإباضية ـ

وهي إحدى فرق الخوارج، مؤسسها عبد الله بن إباض التميمي[2] ويدعي أصحابها أنهم ليسوا خوارج وينفون عن أنفسهم هذه النسبة، والحقيقة أنهم ليسوا

---

(1) أصل الحشاشة بقية الروح في المريض.

(2) من بني مرة بن عبيد بن تميم، يرجع نسبه إلى إباض ـ وهي قرية العارض باليمامة ـ عاصر معاوية وتوفي أواخر أيام عبد الملك بن مروان.

من غلاة الخوارج كالأزارقة مثلاً ، لكنهم يتفقون مع الخوارج في مسائل منها : أن عبد الله بن إباض يعتبر نفسه امتداداً للمحكمة الأولى من الخوارج ، كما يتفقون مع الخوارج في تعطيل الصفات والقول بخلق القرآن وتجويز الخروج على أئمة الجور .

من عقائدهم :

1 ـ يظهر من خلال كتبهم تعطيل الصفات الإلهية ، فيلتقون إلى حد كبير مع المعتزلة في تأويل الصفات[1] .

2 ـ ينكرون رؤية الله تعالى في الآخرة .

3 ـ يؤولون بعض مسائل الآخرة تأويلاً مجازياً كالميزان والصراط .

4 ـ أفعال الإنسان خلق من الله واكتساب من الإنسان ، وهم بذلك يقفون موقفاً وسطاً بين القدرية والجبرية .

5 ـ صفات الله ليست زائدة على ذات الله ولكنها هي عين ذاته .

6 ـ القرآن لديهم مخلوق ، وقد وافقوا الخوارج في ذلك ، يقول الأشعري : (والخوارج جميعاً يقولون بخلق القرآن) مقالات الإسلاميين 203/1 .

7 ـ مرتكب الكبيرة ـ عندهم ـ كافر كفر نعمة أو كفر نفاق .

8 ـ الناس عندهم ثلاثة أصناف : مؤمنون أوفياء بإيمانهم ، ومشركون واضحون في شركهم ، وقوم أعلنوا كلمة التوحيد وأقروا بالإسلام دون التزام بذلك سلوكاً وعبادة ، فهم ليسوا مشركين لأنهم يقرون بالتوحيد ، وليسوا مؤمنين لأنهم لا يلتزمون ما يقتضيه الإيمان ، فهم مع المسلمين في أحكام الدنيا ومع المشركين في أحكام الآخرة .

9 ـ يعتقدون أن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال ، وغنيمة أموالهم من السلاح والخيل حلال ـ مما فيه من قوة الحرب ـ وما سواه حرام .

---

(1) يدعون أنهم ينطلقون بذلك من منطلق عقدي ، فيؤولون الصفة مجازياً بما يفيد المعنى دون أن يؤدي ذلك إلى التشبيه .

10 ـ مرتكب الكبيرة كافر ولا يمكن في حال معصيته وإصراره عليها أن يدخل الجنة إذا لم يتب منها ، فإن الله لا يغفر الكبائر لمرتكبيها إلا إذا تابوا منها قبل الموت .

11 ـ ينكرون الشفاعة لعصاة الموحدين .

12 ـ ينفون شرط القرشية في الإمام .

13 ـ يتهجم بعضهم على عثمان ومعاوية وعمرو بن العاص ـ رضي الله عنهم ـ .

14 ـ الإمامة بالوصية باطلة عندهم ويجوز تعدد الأئمة في أكثر من مكان .

15 ـ لا يوجبون الخروج على الإمام الجائر ولا يمنعونه ، بل يجيزونه .

ثانياً : المرجئة .

الإرجاء على معنيين :

1 ـ التأخير ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي : أمهله وأخره .

2 ـ إعطاء الرجاء .

وإطلاق اسم المرجئة بالمعنى الأول فصحيح ، لأنهم قوم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد .

وأما بالمنعى الثاني فظاهر ، فإنهم كانوا يقولون : لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وقيل الإرجاء : تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يقضىٰ عليه بحكم ما في الدنيا ، من كونه من أهل الجنة ، أو من أهل النار . فعلىٰ هذا : المرجئة ، والوعيدية فرقتان متقابلتان .

وقيل الإرجاء : تأخير علي رضي الله عنه عن الدرجة الأولى إلى الرابعة . فعلى هذا المرجئة والشيعة فرقتان متقابلتان .

والمرجئة أربعة أصناف : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة .

والغيلانية أصحاب غيلان الدمشقي ، أول من أحدث القول بالقدر والإرجاء .

ثالثاً: الوعيدية.

فرقة داخلة في الخوارج، وهم يقولون بتكفير صاحب الكبيرة وتخليده في النار، وقد تم الإشارة إلى بعض مذاهبهم.

5 ـ الشيعة ـ

هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه على الخصوص. وقالوا بإمامته نصاً ووصية، إما جلياً، وإما خفياً. واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده. وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله.

ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر. والقول بالتولي قولاً، وفعلاً، وعقداً، إلا في حال التقية.

ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك، ولهم في تعدية الإمام كلام وخلاف كثير. وعند كل تعدية وتوقف: مقالة، ومذهب، وخبط.

وهم خمس فرق: كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية. وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى التشبيه.

ـ الشيعة الإمامية ـ
(الاثنا عشرية)

هم تلك الفرقة من المسلمين الذين زعموا أن علياً هو الأحق في وراثة الخلافة دون الشيخين وعثمان رضي الله عنهم أجمعين. وقد أطلق عليهم الإمامية لأنهم جعلوا من الإمامة القضية الأساسية التي تشغلهم وسُمُّوا بالاثني عشرية لأنهم قالوا باثني عشر إماماً دخل آخرهم السرداب بسامراء على زعمهم.

والاثنا عشر إماماً لديهم هم:

1 ـ علي بن أبي طالب رضي عنه ـ يلقبونه بالمرتضىٰ ـ مات غيلة ، فقد قتله عبد الرحمن بن ملجم في مسجد الكوفة 17 رمضان سنة 40 هـ .

2 ـ الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ويلقبونه بالمجتبىٰ (3 - 50 هـ) .

3 ـ الحسين بن علي رضي الله عنهما ، ويلقبونه بالشهيد (4 - 61 هـ) .

4 ـ علي زين العابدين بن الحسين ، ويلقبونه بالسَّجَّاد (38 - 95 هـ) .

5 ـ محمد الباقر بن علي زين العابدين ، ويلقبونه بالباقر (57 - 114 هـ) .

6 ـ جعفر الصادق بن محمد الباقر ، ويلقبونه بالصادق (83 - 148 هـ) .

7 ـ موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، ويلقبونه بالكاظم (128 - 183 هـ) .

8 ـ علي الرضا بن موسىٰ الكاظم ، ويلقبونه بالرضىٰ (148 - 203 هـ) .

9 ـ محمد الجواد بن علي الرضا ، ويلقبونه بالتقي (195 - 220 هـ) .

10 ـ علي الهادي بن محمد الجواد ، ويلقبونه بالنقي (212 - 254 هـ) .

11 ـ الحسن العسكري بن علي عبد الهادي ، ويلقبونه بالزكي (232 - 260 هـ) .

12 ـ محمد المهدي بن الحسن العسكري ، ويلقبونه بالحجة القائم المنتظر (256 هـ . . .) .

ومن شخصياتهم البارزة: عبد الله بن سبأ ، وهو يهودي من اليمن ، أظهر الإسلام . وكان يقول في يهوديته بأن يوشع بن نون وصي موسىٰ عليه السلام ، فقال في الإسلام بأن علياً وصي محمد ﷺ. تنقل من المدينة إلى مصر والكوفة والفسطاط والبصرة وقال لعلي : «أنت أنت» أي أنت الله مما دفع علياً إلى أن يهم بقتله لكن عبد الله بن عباس نصحه بأن لا يفعل . فنفاه إلى المدائن .

من معتقداتهم :

1 ـ الإمامة : وتكون بالنص ، إذ يجب أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق بالعين لا بالوصف .

2 ـ العصمة : كل الأئمة معصومون عن الخطأ والنسيان ، وعن اقتراف الكبائر والصغائر .

3 ـ العلم اللدني: كل إمام من الأئمة أُودعَ العلم من لدن الرسول ﷺ ، بما يكمل الشريعة ، وهو يملك علماً لدنيًّاً ولا فرق بينه وبين النبي سوى أنه لا يوحىٰ إليه ، وقد استودعهم رسول الله ﷺ أسرار الشريعة ليبيِّنوا للناس ما يقتضيه زمانهم.

4 ـ خوارق العادات: يجوز أن تجري هذه الخوارق على يد الإمام ويسمون ذلك معجزة ، وإذا لم يكن نص على إمام من سابقه وجب أن يكون إثبات الإمامة في هذه الحالة بالخارقة.

5 ـ الغيبة: يرون أن الزمان لا يخلو من حجة لله عقلاً وشرعاً ، ويترتب على ذلك أن الإمام الثاني عشر قد غاب في سردابه ، كما زعموا ، وأن له غيبَة صغرىٰ وغيبة كبرىٰ ، وهذا من أساطيرهم.

6 ـ الرجعة: يعتقدون أن الحسن العسكري سيعود في آخر الزمان وسيقتص من خصوم الشيعة على مدار التاريخ.

7 ـ التقية: وهم يعدونها أصلاً من أصول الدين ، ومن تركها كان بمنزلة تارك الصلاة وهي واجبة لا يجوز رفعها حتى يخرج القائم ، ويستدلون عليها بقوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ وينسبون إلى أبي جعفر الإمام الخامس قوله: (التقية ديني ودين آبائي ولا إيمان لمن لا تقية له). وهم يتوسعون في مفهوم التقية إلى حد كبير.

8 ـ المتعة: يرون بأن متعة النساء خير العادات وأفضل القربات مستدلين بقوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ وقد حرم الإسلام هذا الزواج الذي تشترط فيه مدة محدودة فيما يشترط معظم أهل السنة وجوب استحضار نية التأبيد.

9 ـ المغالاة: بعضهم غالىٰ في علي فرفعوه لمرتبة الألوهية (كالسبئية) وبعضهم قالوا بأن جبريل قد أخطأ في الرسالة فنزل على محمد ﷺ بدلاً من علي ، لأن علياً يشبه النبي ﷺ كما يشبه الغرابُ الغرابَ ولذلك سموا بالغرابية.

10 ـ عيد غدير خم: وهو عيد لهم يصادف 18 ذي الحجة.

11 ـ يعظمون عيد النيروز وهو من أعياد الفرس ، وبعضهم يقول : غسل يوم النيروز سنة .

12 ـ يقيمون حفلات العزاء والنياحة والجزع وتصوير الصور وضرب الصدور ، كما في كربلاء والنجف .

ـ الزيـديـة ـ

تعتبر الزيدية أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة والجماعة حيث يتصف مذهبهم بالابتعاد عن غلو ـ الاثنا عشرية ـ وباقي فرق الشيعة. وترجع نسبتها لمؤسسها زيد بن علي زين العابدين(1) الذي صاغ نظرية شيعية متميزة في السياسة والحكم ، وقد جاهد من أجلها وقتل في سبيلها ، وكان يرى صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، ولم يقل أحد منهم بتكفير أحد من الصحابة ، ومن مذهبهم جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل .

تنقل زيد بن علي زين العابدين في البلاد الشامية والعراقية باحثا عن العلم أولاً وعن حق أهل البيت في الإمامة ثانياً ، فقد كان تقياً ورعاً عالماً فاضلاً مخلصاً شجاعاً وسيماً مهيباً مُلمَّاً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وتلقى العلم عن أخيه الأكبر محمد الباقر الذي يعد أحد الأئمة الاثني عشر عند الشيعة الإمامية. وقد اتصل بواصل بن عطاء رأس المعتزلة وتدارس معه العلوم ، فتأثر به وبأفكاره التي نقل بعضها إلى الفكر الزيدي ، وإن كان هناك من ينكر وقوع هذا التتلمذ ، وهناك من يؤكد وقوع الاتصال دون التأثر. وتتلمذ عليه أبو حنيفة النعمان وأخذ عنه العلم. وخرجت عن الزيدية ثلاث فرق طعن بعضها في الشيخين كما مال بعضها عن القول بإمامة المفضول. وهذه الفرق هي : (الجارودية ، والصالحية ، والبترية).

---

(1) هو زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وقد عاش في الفترة (80 - 122هـ). قاد ثورة شيعية في العراق ضد الأمويين أيام هشام بن عبد الملك ، فقد دفعه أهل الكوفة لهذا الخروج ثم ما لبثوا أن تخلوا عنه وخذلوه عندما علموا أنه لا يتبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر ولا يلعنهما ، بل يترضى عنهما ، فاضطر لمقابلة جيش الأمويين وما معه سوى 500 فارس حيث أصيب بسهم في جبهته أدى إلى وفاته عام 122 هـ.

من أفكار الزيدية ومعتقداتهم :

1 ـ يجيزون الإمامة في كل أولاد فاطمة ، سواء أكانوا من نسل الحسن أو الحسين رضي الله عنهما .

2 ـ الإمامة عندهم تقوم على البيعة وليست وراثية ، ويرون أحقية أهل البيت في الخلافة .

3 ـ يجوز لديهم وجود أكثر من إمام واحد في وقت واحد في قطرين مختلفين .

4 ـ يقولون بالإمام المفضول مع وجود الأفضل .

5 ـ معظم الزيدية المعاصرين يقرون خلافة أبي بكر وعمر ، ولا يلعنوهما كما تفعل فرق الشيعة ، بل يترضون عنهما ، ويقرون بصحة خلافة عثمان مع مؤاخذته على بعض الأمور .

6 ـ يميلون إلى الاعتزال فيما يتعلق بذات الله ، والاختيار في الأعمال . ومرتكب الكبيرة يعتبرونه في منزلة بين المنزلتين كما تقول المعتزلة .

7 ـ يرفضون التصوف رفضاً قاطعاً .

8 ـ يخالفون الشيعة في زواج المتعة ويستنكرونه .

9 ـ يتفقون مع الشيعة في زكاة الخمس وفي جواز التقية إذا لزم الأمر .

10 ـ يتفقون مع أهل السنة بشكل كامل في العبادات والفرائض سوى اختلافات قليلة في الفروع مثل : (يقولون «حي على خير العمل» في الأذان على الطريقة الشيعية . صلاة الجنازة لديهم خمس تكبيرات . يرسلون أيديهم في الصلاة . صلاة العيد تصح فرداى وجماعة . يعدون صلاة التراويح جماعة بدعة . يرفضون الصلاة خلف الفاجر . فروض الوضوء عشرة عندهم) .

11 ـ يقولون بوجوب الخروج على الإمام الظالم الجائر ولا تجب طاعته .

12 ـ لا يقولون بعصمة الأئمة عن الخطأ ، كما لا يغالون برفع أئمتهم شأن بقية فرق الشيعة . ولو أن بعض المنتسبين للزيدية قرروا العصمة لأربعة فقط : علي وفاطمة والحسن والحسين .

13 ـ لا يوجد عندهم مهدي منتظر.

14 ـ مصادر الاستدلال عندهم: كتاب الله، ثم سنة رسول الله، ثم القياس ومنه الاستحسان والمصالح المرسلة، ثم العقل.

وقد ظهر من بينهم علماء فطاحل أصبحوا من أهل السنة، سلفيُّو المنهج والعقيدة أمثال: ابن الوزير وابن الأمير والشوكاني.

خلاصة القول في الفرق:

لقد ذكر البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب قال: [وقعت الفتنة الأولى يعني مقتل عثمان فلم تُبق من أصحاب بدر أحداً. ثم وقعت الفتنة الثانية فل تبق من أصحاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طبَاخ، أي: عقل وقوة][1].

وعلماء اليهود يقرؤون كتب شيوخ المعتزلة ويستحسنون طريقتهم، وكذا شيوخ المعتزلة يميلون لليهود ويرجحونهم على النصارى، وأكثر المنحرفين من العُبَّاد من المتصوفة ونحوهم يشبهون النصارىٰ يميلون لنوع من الرهبانية والحلول والاتحاد.

ولفرق الضلال في الوحي طريقتان:

1 ـ طريقة التبديل.

2 ـ طريقة التجهيل.

وأهل التبديل نوعان:

أ ـ أهل الوهم والتخييل.

ب ـ أهل التحريف والتأويل.

فأهل الوهم والتخييل: يقولون الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه، بل مما يتخيلون به ويتوهمون أن الله شيء

---

(1) تخريج الطحاوية، باب الفتن. والحديث يصنِّف زمنياً تتابع ظهور الانحراف. فالخوارج ومن قابلهم حدثوا في الفتنة الأولى. والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية. والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة.

عظيم كبير وأن الأبدان تعاد ولهم نعيم وعقاب محسوسان وذلك لمصلحة الجمهور وإن كان كذباً. ووضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هذا الأصل.

أما أهل التحريف والتأويل يقولون: يقصد الأنبياء الحق في نفس الأمر لكن هذا الحق هو ما علمناه بعقولنا ويتأولونه ولا يجزمون بل يجوز أن يراد كذا. . .

وأهل التجهيل والتضليل، حقيقة قولهم: الأنبياء وأتباعهم جاهلون ضالون لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء ويقولون: يجوز أن يكون للنص تأويل لا يعلمه إلا الله، لا يعلمه جبرائيل ولا محمد ولا أي نبي ولا الصحابة. وأن محمداً ﷺ كان يقرأ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ولا يعرف معناها بل الله وحده يعرفها ويظنون أن هذه طريقة السلف(1).

وإنما الغربة هي غربة الحق في كل زمان ومكان أبعدت عنه دولة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة. ففي التنزيل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾. ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ فوحَّد لفظ صراطه وسبيله وجمع السبل المخالفة له.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: [خط لنا رسول الله ﷺ خطّاً وقال: هذا سبيل الله ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن يساره وقال: هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾] رواه الحاكم بسند صحيح(2).

ـ أهل السنة والجماعة ـ

إن مصطلح أهل السنة والجماعة يطلق ويراد به معنيان:

1 ـ **المعنى الأعم**: أهل السنة، فالمنتسبون للإسلام قسمان: أهل السنة والشيعة. وهذا المعنىٰ يدخل فيه كل من سوىٰ الشيعة كالأشاعرة. لا سيما

(1) شرح العقيدة الطحاوية.

(2) وانظر صحيح ابن ماجه (11) تحقيق الألباني.

والأشاعرة متفقون مع أهل السنة فيما يتعلق بموضوع الصحابة والخلفاء وهي نقطة الاتفاق المنهجية الوحيدة.

2 ـ **المعنى الأخص**: وهو ما يقابل المبتدعة وأهل الأهواء وهو الأكثر استعمالاً في كتب الجرح والتعديل، فإذا قالوا عن الرجل إنه صاحب سنة أو كان سنياً أو من أهل السنة ونحوها، فالمراد أنه ليس من إحدى الطوائف الأخرى كالخوارج والمعتزلة وليس صاحب كلام وهوى. وتفصيل ذلك:

أ ـ عند المالكية:

يروي الحافظ ابن عبد البر بسنده عن فقيه المالكية بالمشرق ابن خويز منداذ «أنه قال في كتاب الشهادات شرحاً لقول مالك: لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء، وقال: (أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعرياً كان أو غير أشعري، ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبداً، ويهجر ويؤدب على بدعته، فإن تمادىٰ عليها استتيب منها) جامع بيان العلم وفضله 117/2.

وكذلك روى حافظ المغرب ابن عبد البر في «الانتقاء» عن الأئمة الثلاثة: مالك وأبي حنيفة والشافعي نهيهم عن الكلام وزجر أصحابه وتبديعهم وتعزيرهم. وبنحو ذلك أورد ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية.

ب ـ عند الشافعية:

وقال الإمام أبو العباس بن سريج الملقب بالشافعي الثاني وكان معاصراً للأشعري:

(لا نقول بتأويل المعتزلة والأشعرية[1] والجهمية والملحدة والمجسمة والمشبهة والكرامية والمكيفة بل نقبلها بلا تأويل ونؤمن بها بلا تمثيل) تاريخ بغداد 290/40 وسير أعلام النبلاء 201/14.

وقال الإمام أبو الحسن الكرجي من علماء القرن الخامس الشافعية ما نصه: (لم

---

(1) الظاهر أن ابن سريج المتوفىٰ سنة 306 هـ قبل رجوع الأشعري إلى مذهب السلف. والأشعري توفي 324 أو 330 على قولين. انظر رسالة «منهج الأشاعرة في العقيدة» د. سفر الحوالي.

يزل الأئمة الشافعية يأنفون ويستنكفون أن ينسبوا إلى الأشعري ويتبرؤون مما بنى الأشعري مذهبه عليه وينهون أصحابهم وأحبابهم عن الحوم حواليه)[1].

ج ـ عند الحنفية:

فواضع العقيدة الطحاوية وشارحها كلاهما حنفيان ، وكان الإمام الطحاوي معاصراً للأشعري وكتب هذه العقيدة لبيان معتقد الإمام أبي حنيفة وأصحابه وهي مشابهة لما في الفقه الأكبر عنه ، وقد نقلوا عن الإمام أنه صرح بكفر من قال إن الله ليس على العرش أو توقف فيه ، وتلميذه أبو يوسف كفَّر بشراً المريسي ، ومعلوم أن الأشاعرة ينفون العلو وينكرون كونه تعالى على العرش وأصولهم مستمدة من بشر المريسي[2].

د ـ الحنابلة: لقد بدَّع الإمام أحمد «ابن كلاب» المؤسس الحقيقي للمذهب الأشعري وأمر بهجره.

ومذهب الأشاعرة رد خبر الآحاد جملة وأن في الصحيحين أحاديث موضوعة أدخلها الزنادقة ، ومعلوم أن إمام الأشعرية المتأخر الذي ضبط المذهب وقعَّد أصوله هو الفخر الرازي (ت 606 هـ) ثم خلفه الآمدي (631 هـ) والآرموي (682 هـ) فنشرا فكره في الشام ومصر. وفي التحقيق أن الحافظ ابن حجر في الفتح قد نقد الأشاعرة باسمهم الصريح فخالفهم في الإيمان ونقدهم في مسألة المعرفة وأول واجب على المكلف ، كما نقد شيخهم في التأويل (ابن فورك) وذمَّ التأويل والمنطق مرجحاً منهج الثلاثة القرون الأولىٰ ، كما خالفهم في الاحتجاج بحديث الآحاد في العقيدة[3].

والعقل عند الأشاعرة يحكم على النقل ، فإن وافق النقل العقل صحَّ النقل وإلا وجب التأويل. قال الرازي: (ثم إن جوزنا التأويل اشتغلنا على سبيل التبرع)[4].

وقال: (لم يبق إلا أن يقطع بمقتضىٰ الدلائل العقلية ـ القاطعة بأن هذه الدلائل

---

(1) انظر الرسالة السابقة ص18.

(2) رسالة «منهج الأشاعرة في العقيدة» د. سفر الحوالي.

(3) الرسالة السابقة ص 27. وانظر فتح الباري 46/1 ، 367/3 - 361 ,347/13 - 350.

(4) الرسالة السابقة ص 33.

النقلية إما أن يقال إنها غير صحيحة. أو يقال إنها صحيحة إلا أن المراد منها غير ظواهرها).

وقد عقَّب الدكتور سفر الحوالي على ذلك بقوله: (يلاحظ أن الدلائل النقلية تشمل نصوص الكتاب والسنة معاً، فكيف يقال أنها غير صحيحة دون تفريق بينهما، مع أن مجرد إطلاقها على السنة وحدها في غاية الخطورة).

ثم قال رداً على قوله ـ على سبيل التبرع ـ: (هل وصلت قيمة نصوص الوحي إلى حد أن الاشتغال بتأويلها ـ الذي هو تحريف لها يعتبر تبرعاً وإحساناً).

قلت: وأما أهل الحق فهم أهل الثبات على منهج النبوة رغم الأعاصير الهدامة والفتن الجارفة والتيارات المهددة، وهم أهل الغربة الذين وصفهم النبي ﷺ بقوله: [لا تزال طائفة من أمتي قوَّامةً على أمر الله لا يضرها من خالفها][1]. وبقوله: [طوبىٰ للغرباء، أناسٌ صالحون في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثرُ ممن يطيعهم][2]. وتفصيل ذلك:

1 ـ في التنزيل: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [آل عمران: 106 - 107].

قال ابن عباس: (فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة، وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والأهواء) الشرح والإبانة.

وجاء في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي:

2 ـ قال عبد الله بن مسعود: (إنما الجماعة ما وافق طاعة الله وإن كنت وحدك).

3 ـ وقال عبد الله بن المبارك ـ لما سئل عن الجماعة ـ: (أبو بكر وعمر. فقيل له: قد مات أبو بكر وعمر! قال: ففلان وفلان. قيل: قد مات فلان وفلان. قال ابن المبارك: أبو حمزة السكري[3] جماعة) شرح السنة للبغوي.

---

(1) صحيح ابن ماجه من حديث أبي هريرة. باب اتباع سنة الرسول ﷺ.
(2) أخرجه أحمد من حديث ابن عمرو، وصححه الألباني في السلسلة 1619.
(3) محمد بن ميمون المروزي (ت 168 هـ) فاضل صالح على منهج السلف الصالح.

4 ـ وفسر الإمام البخاري الجماعة بأهل العلم .

5 ـ ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح عن الطبري في تعريف الجماعة : (وقال قوم المراد بهم أهل العلم ، لأن الله جعلهم حجة على الخلق ، والناس تبع لهم في أمر الدين) ورواه أحمد وحسنه الألباني .

6 ـ وقال شيخ الإسلام : (وسمُّوا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة ، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً للقوم المجتمعين) الفتاوىٰ 157/3 .

7 ـ وقال الإمام أحمد في الطائفة المنصورة : (إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم) .

8 ـ وقال القاضي عياض : (إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث) .

9 ـ وقال عمرو بن قيس الملائي (ت 143 هـ) : (إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فارجه ، وإذا رأيته مع أهل البدع فايئس منه فإن الشاب على أول نشوئه) الشرح والإبانة 133 .

10 ـ وقال : (إن الشاب ينشأ فإن آثر أن يجالس أهل العلم كاد يسلم ، وإن مال إلى غيرهم كاد يعطب) الإبانة 206/1 .

11 ـ وقال ابن شوذب (ت 120 هـ) : (من نعمة الله على الشاب والأعجمي إذا تنسكا أن يوفقا إلى صاحب سنة) الشرح والإبانة .

12 ـ وقال الفضيل بن عياض (ت 187 هـ) : (إن لله عباداً يحيي بهم البلاد وهم أصحاب السنة) اللالكائي 65/1 .

13 ـ ونقل القاضي عياض عن الإمام مالك قال : (وسأل رجل مالكاً مَنْ أهل السنة يا أبا عبد الله؟ قال : الذين ليس لهم لقب يعرفون به لا جهمي ولا رافضي ولا قدري) ترتيب المدارك 72/1 .

14 ـ وقال ابن القيم رحمه الله : سئل بعض الأئمة عن السنة فقال : (ما لا اسم له سوى السنة) مدارج السالكين 174/3 .

15 ـ ويقول مالك بن مغول (ت 159 هـ) : (إذا تسمىٰ الرجل بغير الإسلام

والسنة فألحقه بأي دين شئت) الدر المنثور للسيوطي.

16 ـ وقال ميمون بن مهران (ت 117 هـ): (إياكم وكل اسم يسمىٰ بغير الإسلام) الشرح والإبانة 137.

17 ـ ويقول الفضيل بن عياض: (أدركت خيار الناس كلهم أصحاب سُنة ينهون عن أصحاب البدع) الشرح والإبانة 153.

18 ـ وقيل لأبي بكر بن عياش (ت 194 هـ): (من السني؟ قال: الذي إذا ذكرت الأهواء لم يتعصب إلى شيء منها) اللالكائي 65/1.

19 ـ وعند الدارمي عن الحسن البصري قال: (فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الأتراف في إترافهم ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا).

20 ـ ويقول سفيان الثوري (ت 161 هـ): (استوصوا بأهل السنة خيراً فإنهم غرباء).

وكان يقول: (إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سنة وآخر بالمغرب، فابعث إليهما بالسلام، وادع لهما، ما أقل أهل السنة والجماعة) اللالكائي.

21 ـ وقال ابن سيرين (ت 110 هـ): (لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سمُّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم) مسلم في المقدمة 15/1.

22 ـ يقول أيوب السختياني (ت131 هـ): (إني أخبر بموت الرجل من أهل السنة، وكأني أفقد بعض أعضائي) الحلية لأبي نعيم واللالكائي.

ويقول: (إن الذين يتمنون موت أهل السنة يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون).

23 ـ ولما توفي الإمام عبد العزيز بن محمد الداروردي (ت 187 هـ) جزع سفيان بن عيينة (ت 198 هـ) وأظهر الجزع فقيل له: ما علمنا أنك تبلغ مثل هذا! قال: إنه من أهل السنة) اللالكائي.

* * *

- 27 -

ـ منهج الوحيين في بناء العقيدة الصحيحة ـ

أ ـ مفهوم التأليه وحقيقته

الله ـ وحده ـ الذي خلق السماوات وزينها بالنجوم ، وهو ـ وحده ـ الذي خلق الأرض وأرسىٰ فيها الجبال ، وهو ـ وحده ـ الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وهو ـ وحده ـ الذي خلق الليل والنهار ، وهو ـ وحده ـ الذي خلق الإنسان فأحسن تصويره ، وهو ـ وحده ـ الذي خلق الأنعام ، وهو ـ وحده ـ الذي خلق البحار والأنهار إلخ . . .

الله ـ وحده ـ يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، وهو ـ وحده ـ يعلم ما في الليل والنهار ، وهو ـ وحده ـ يعلم ما في نفوس الناس .

الله ـ وحده ـ يسمع دعاء الداعين ، وهو ـ وحده ـ يسمع سؤال المحتاجين ، وهو ـ وحده ـ يسمع طلب المستغيثين .

الله ـ وحده ـ يحفظ السماوات من أن تقع على الأرض ، وهو ـ وحده ـ يحفظ تعاقب الليل والنهار ، وهو ـ وحده ـ يحفظ الماء من أن يطغىٰ مالحه على عذبه .

الله ـ وحده ـ يصرف أمور الخلائق ، ويعطيها كلها دون أن ينقص ذلك من ملكه شيئاً . . . إلخ . . الله ـ وحده ـ الإله .

هذا هو أصل الدين هذه هي العقيدة ، كلمة : (لا إله إلا الله) هذا ما يقرُّ به الكون ، وتدين به الخلائق ، ويقوم عليه أمر الكائنات ، والمطلوب من العبد أن يقيم ذلك الأصل ، أي أن يؤله الله وحده ، ولا يؤله أحداً غيره .

هذا هو التحدي الذي يواجهه العبد، والأفق الذي يجب أن يصبو إليه، ومشكلته على مدار الحياة.

وقد بين الله - تعالى - أنه أرسل جميع الرسل قبل محمد - ﷺ - داعين إلى هذا الأصل فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 25].

وقال - تعالى - أيضاً:

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: 2]. وقال - تعالى مخاطباً الرسل - عليهم الصلاة والسلام: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: 52]. وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92].

وقد بينت آية أخرى أن الله والملائكة وأصحاب العلم شهدوا لله بأنه وحده القيوم على أمر الكون والعباد فقال - تعالى -: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 18]. وقد وضحت آية أخرى أن الله - تعالى - كلّم موسىٰ بهذا الأصل ودعاه إلى تطبيق وجه من وجوهه وهو العبادة وإقامة الصلاة، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: 14].

وقد جاء الحديث عن هذا الأصل على لسان جميع الأنبياء فدعا نوح - عليه السلام - قومه إلى عبادة الله ثم ذكرهم بالأصل الذي يلزمهم بهذه العبادة وهو أنه ليس لهم من إله إلا الله وحده، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59].

ودعا هود - عليه السلام - قومه إلى تأليه الله وعبادته وحده بالصيغة السابقة التي دعا نوح - عليه السلام - قومه بها، فقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: 65]. وقال - تعالى - أيضاً: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود: 50]. وانتهج صالح - عليه السلام - نهج أخويه السابقين نوح وهود - عليهما السلام - ودعا قومه إلى الحقائق نفسها وبالألفاظ عينها قال

ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾ [الأعراف: 73]. وقال ـ تعالى ـ أيضاً: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾ [هود: 61].

وسار شعيب ـ عليه السلام ـ مسار إخوته الأنبياء السابقين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ودعا قومه إلى تأليه الله وحده، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾ [الأعراف: 85]. وقال ـ تعالى ـ أيضاً: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾ [هود: 84].

ثم جاء محمد ﷺ والتقىٰ مع الأنبياء السابقين في دعوتهم إلى تأليه الله وحده لأنه يصدر معهم من مشكاة واحدة، ويبتغي معهم هدفاً واحداً في الأرض هو إحقاق الحق في الأرض. وأبرزت الآيات الكثيرة في القرآن الكريم هذا المعنىٰ فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: 19].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 163]. وقد جاءت آية الكرسي التي وصفها الرسول ﷺ بأنها أعظم آية في القرآن مبدوءة بتأكيد حقيقة أن الله وحده الإله، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ . . . ﴾.

وقد بدأت سورة آل عمران أيضاً بتقرير ألوهية الله وحده، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [آل عمران: 1 - 3].

وقد بين الله تعالى في سورة آل عمران حقيقة عيسى عليه السلام ودعا النصارى إن كانوا لا يرون ذلك إلى المباهلة، ثم علم المسلمين بأن الله وحده هو الإله وحصر الألوهية به عز وجل فقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 62].

وقد دعا الله تعالى في سورة الأنعام الناس إلى عبادته بعد أن بيّن أنه وحده الإله الذي خلق كل شيء فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 102].

وقد أمر الله تعالى في آية أخرى من سورة الأنعام نبيه أن يتبع وحيه لأنه ليس هناك إله إلا الله. فقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 106]. و قد دعا الله المسلمين أن يعلموا أن الله وحده الإله فقال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: 14].

وقد أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يعلن بين المشركين التأليه لله، والتوكل عليه، والتوبة إليه، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: 30].

وقد جاء في سورة إبراهيم دعوة للعلم بألوهية الله وحده قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: 52].

وقد نهىٰ الله عن تأليه إلهين اثنين فالواجب تأليه الله وحده، قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: 51]. وقد طلب الله من محمد ﷺ في آخر سورة الكهف أن يعلن التأليه لله وحده فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110].

وقد طلبت سور أخرىٰ من محمد ﷺ أن يعلن القول بمثل القول السابق الوارد في سورة الكهف، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: 108].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: 34].

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت : 6].

والسؤال الذي يرد الآن هو : لماذا كانت دعوة الإنسان على مدار الحياة البشرية إلى تأليه الله وحده؟ ولماذا كانت البداية به؟ ولماذا كان هو الأصل؟

لأن الإنسان مفطور على أن يؤله شيئاً ما ، ويتعلق به ، ويعظمه ، فهو حسب عرض القرآن في إحدى حالتين لا ثالث لهما : ـ إما أن يؤله الله وحده عزَّ وجل ـ وإما أن يؤله آلهة أخرى مع الله . فالتأليه لازم لنفسه ، لاصق به .

الخلاصة : إن الله دعا الإنسان على لسان رسله جميعاً أن يؤلهه وحده ، وأن لا يؤله أحداً غيره ، لأنه يعلم تعالى ما يناسب فطرته ، ويسعده في الدنيا والآخرة .

ـ حقيقة التأليه وجوهره ـ

تتصف علاقة الإنسان الفطرية بالإله الذي يعبده بأنها علاقة توجه نفسي في جوهرها :

يرجو ذلك الإله ، ويخاف غضبه ، ويخضع له ، ويحبه ، ويثق فيه ، ويؤكد ذلك الاشتقاق اللغوي لكلمة الإله التي تعني في بعض معانيها : الإجارة والشوق ، والتعلق ، والسكون ، ويؤكده أيضاً تاريخ علاقة الشعوب بآلهتها .

وقد تعبدنا الله تعالى في دين الإسلام بشعائر كثيرة ، لكن جوهر عبادته تعالى يبقىٰ واحداً مهما اختلفت : من صلاة وصيام وحج إلخ . . . ، وهذا الجوهر هو تأليهه تعالى ، ويشمل التأليه تعظيمه تعالى ، والخضوع له ، وخوفه ، ورجاءَه ، وحبَّه ، والثقة فيه .

وقد أشارت الآيات القرآنية إلى هذه المعاني عند الحديث عن العبادات مما يؤكد أنها اللب المقصود منها ، والجوهر المستهدف فيها ، فقد أناط الله فلاح المؤمن بالخشوع في صلاته ، فقال تعالى : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون : 1 - 2].

فمتى يحدث الخشوع؟ يحدث عندما يكون هناك تعظيم له ـ تعالى ـ أو خوف

منه ، أو رجاء فيه ، أو حب له ، أو ثقة فيه ، أو عندما تكون هذه المعاني جميعها. إذن هناك دعوة قرآنية إلى هذه المعاني التي تؤدي إلى الفلاح.

وقد بين الله تعالى لنا في آية أخرى الحالة التي تكون الصلاة فيها ثقيلة على العبد وذلك عندما لا يكون هناك خشوع ، ولكنها غير ثقيلة ومحببة إلى النفس التي تؤمن بلقاء الله وحسابه وهذا اليقين يأتي عندما يكون هناك تعظيم لله وحده ، أو خضوع له وحده ، أو خوف منه وحده ، أو رجاء فيه وحده ، أو حب له أكثر من كل محبوبات الدنيا ، أو ثقة فيه أكثر من كل أسباب الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة : 45 - 46].

وقد صرحت الآية التي أمرت بأخذ الزكاة من المسلمين أن القصد من ذلك هو التوصل إلى تطهير المسلمين وتزكيتهم والمقصود بذلك جعلهم يعظمون الله عوضاً عن المال ، يقول تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ ﴾ [التوبة : 103].

وقد صرحت الآية التي تحدثت عن فرض الصوم على العباد بأن الله فرضه أياماً معدودات لعل خوف الله ينمو في قلوب العباد ، يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 183].

وقد صرحت بعض الآيات إلى أن الهدف من أحد أعمال الحج وهو الذبح توليد التقوى والخوف في قلوب العباد من الله ، لأن الله لن يصل إليه شيء من لحوم الأضاحي ودمائها ، ولكن تصله التقوى التي تتمثل في الخوف منه تعالى ، وفي الحرص على تنفيذ أمره تعالى ، يقول تعالى : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج : 36 - 37].

إذن : أبانت الآيات السابقة عن جوانب من تأليه الله - تعالى - التي ترافق بعض

العبادات أو تنتج عنها مثل التقوى ، والخشوع .

أما حقيقة تأليه الله تعالى وجوهره فيتركز في المعاني التالية :

تعظيمه تعالى ، والخضوع له ، وخوفه ، ورجاؤه ، وحبه ، والثقة فيه .

1 ـ تعظيمه تعالى :

لا بد للإنسان من أن يعظم شيئاً من الأشياء لأنه مفطور على الضعف والنقص ، فهو قد يعظم المال أو الشهوات ، أو الأوطان ، أو الأشخاص . . إلخ . وهو في كل ذلك يجانب الصواب ، بل يجب عليه أن يعظم الله لأنه مالك كل شيء ، والقادر عليه ، والمتصرف فيه ، ومدبر أمره وشأنه ، وممده بالوجود والحياة . . . إلخ .

وإن نظرة واحدة إلى السماوات واتساعها ، والنجوم وكثرتها ، والإنسان وتعقيده ، والمخلوقات وتكاملها ، . . . إلخ . إن نظرة واحدة إلى كل هذا تؤكد عظمة الله وتوجب على الإنسان تعظيمه .

والتعظيم أساس كبير من أسس تأليه الله تعالى يدل على ذلك أن أولى الآيات التي نزلت على محمد ﷺ دعته إلى تكبير الله تعالى وتعظيمه ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر : 1 - 3]. واعتبرت آية أخرى تعظيم حرمات الله بأنها خير للمسلم عند ربه ، فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج : 30].

ويشير إلى ذلك ابتداء الصلاة أهم شعيرة من شعائر الإسلام بكلمة (الله أكبر) ، وابتداء الأذان والإقامة بكلمة (الله أكبر) ، وأن الهتاف في الأعياد كلمة (الله أكبر) .

2 ـ الخضوع له تعالى :

كل ما في الكون يخضع لله : يأتمر بأمره ، ويسير حسب ناموسه ، لا يشذ عن ذلك ذرة ولا ينبو جبل .

الكوكب في فلكه ، والزهرة في حقلها ، والحيوان في حظيرته . وقد أشارت آيات كثيرة إلى سجود كل شيء لله عز وجل وتسبيحه بحمده وهو يعني في أبسط صورة خضوعه لله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ۩ ﴾ [الرعد : 15]. ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: 83]. ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11]. ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [النحل: 48 - 49]. ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: 18]. والإنسان مفطور على أن يخضع لأشياء كثيرة أبرزها الشهوات، لكنه قادر على أن يحدد حجم الخضوع ومساحته، لذلك يفترض فيه أن يوجه خضوعه لله تعالى لأنه جدير به، فهو خالق الشهوات والقادر على إشباعها.

وفي الحقيقة إن الله تعالى دعا الإنسان إلى عبادته التي تعني في آكد معانيها وأبرزها الخضوع له. فقال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23].

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ [هود: 1 - 3].

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ [الرعد: 36].

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [يوسف: 40].

﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾[فصلت: 14].

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: 21].

وقد نهاه الله تعالى عن عبادة غيره والخضوع له، وبالذات الشيطان فقال تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [يس: 60].

﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: 56].

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: 1 - 2].

3 ـ حبه تعالى:

طاقة الحب أصيلة وغنية ومتشعبة في نفس الإنسان فهو يحب الشهوات والمال والولد، والقوم، والوطن. قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ

﴿وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران : 14].

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر : 20].

وقال تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات : 8].

وعلى هذه الطاقة يقوم عمران الكون ، وبها تستمر دورة الحياة ، فلم يخلقها الله عبثاً ، تعالى الله عن العبث ، لكنه طلب من المسلم أن يكون حبه لله ورسوله أكثر من كل المحبوبات التي تشعبت إليها ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة : 24]. ليس من شك بأن هذا الطلب القرآني طلب حق ، لأن الله هو فاطر هذه الشهوات وهو القادر على إشباعها وإروائها وهو الذي هيَّأ لذلك مئات الأسباب بل آلافها وهو القادر على أخذها.

والله تعالى جدير بأن يحب ليس فقط لأنه أشبع شهواتنا فأعطانا المال والولد. . . إلخ بل لأن نعمه تعالى أكثر من أن تحصىٰ ، وأجلَّ من أن تعد : فهو الذي خلق الإنسان من العدم في أحسن صورة ، وكرمه على بقية المخلوقات ، وأمده بكل أسباب الحياة ، وسخَّر له الشمس والقمر والليل والنهار. . . إلخ. وسخر له كل ما في الأرض ، وتفضل عليه بإرسال الرسل ، وخلق الجنة لإثابة الطائع ، والنار لمعاقبة العاصي.

لو تأملنا بعض النعم البسيطة التي نغفل عنها ونستهين بها : شربة الماء التي نشربها ، أو حبة القمح التي نلوكها ، أو التمرة التي نستمتع بأكلها ، لوجدنا أنها احتاجت إلى عشرات الشروط ، ومئات الموافقات وآلاف المعادلات ، حتى وصلت إلينا ، ومع كل هذه النعم فإن الإنسان في بعض حالاته يحب غير الله وهي حالات مرضيَّة من غير شك.

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنىٰ مستنكراً ومقرراً أن المؤمنين أشد حباً لله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ . . .﴾ [البقرة : 165].

4 ـ خوفه تعالى :

الإنسان مفطور على شدة الخوف والفزع ، قال تعالى : ﴿ ۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ [المعارج : 19 - 20]. فهو يخاف على ماله ، ويخاف على صحته ، ويخاف على ولده ، يخاف المستقبل ، يخاف المجهول .

وقد طلب الله من المسلم أن يخافه وحده وهو من أبرز مظاهر تأليه الله تعالى : ﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [النحل : 51]. واعتبر الجنة ثمرة الخوف من الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات : 40 - 41]. ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46].

وقد اشترط الله تعالى على المؤمنين أن يخافوه وحده تعالى من أجل تمكينهم في الأرض ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم : 13 - 14].

وقد أثنى الله على المؤمنين الذين يخافون اليوم الآخر ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴾ [الإنسان : 10]. ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴾ [الإنسان : 7].

وقد وصفهم في آية أخرى بأنهم يدعون ربهم خوفاً من ناره ، قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : 16].

وقد أمر الله عباده أن يدعوه خوفاً وطمعاً ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ ﴾ [الأعراف : 56].

5 ـ رجاؤه تعالى :

الإنسان قوي الرجاء ، يرجو إرواء شهوته ، ويرجو الاستمرار في ذلك ، وقد يرجو الأسباب في بعض الأحيان ، والأشخاص في أحيان أخرى . لكن الله يريد من الإنسان أن يتجه إليه تعالى برجائه لأنه المالك والقادر والمعطي والوهاب والقوي

والعليم بحاجات العبد. وقد أثنت آية على المسلم الذي يتجه برجائه إلى ربه ووصفته بالعلم قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ [الزمر: 9]. وقد طلب الله من المؤمن أن يوجه رجاءه إلى نعيم الله في اليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: 110].

والمؤمن قوي الرجاء في الله تعالى وقد أثنى بهذه الصفة على صحابة الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ ﴾ [النساء: 104].

وقد وصف الله تعالى الكافرين بأنهم لا يرجون لقاء الله. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: 7 - 8]. وقد وصف الله المؤمنين بأنهم يرجون رحمة الله فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: 218].

واعتبرت آيات في سورة الأحزاب أن رجاء الله ورجاء الجنة في اليوم الآخر هما العنصران اللذان يؤهلان العبد للاقتداء بالرسول ﷺ. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 21].

6ـ الثقة به تعالى:

يولّد خلق الله تعالى للكون المنظم ثقة المؤمن به تعالى.

وقد عاش الأنبياء هذه الثقة بالله عز وجل وبوعده، فأعطتهم سكينة وثباتاً ورسوخاً وبالذات عندما كان يتهددهم الكافرون بالعذاب، والإيذاء، والإخراج، فلا ينكصون عن إيمانهم، ولا يتراجعون عن يقينهم ولا عن موقفهم. بل كانوا يتحدون الكافرين ثقة بالله تعالى وبقدرته وبعذابه الذي ينتظر الكافرين في الدنيا والآخرة.

يحدثنا الله عز وجل عن ثقة نوح عليه السلام بمجيء عذاب الله المخزي للكافرين فيقول تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ

إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: 38 - 39].

ويبين لنا تعالى ثقة هود عليه السلام بربّه ويحدثنا عن تحديه عليه السلام لقومه وآلهتهم أن يجمعوا كيدهم دون تأخير فيقول تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: 53 - 57].

ويوضح لنا ثقة شعيب ـ عليه السلام ـ بعذاب الله القادم للكافرين وبنصر الله للمؤمنين فيقول تعالى: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: 91 - 93].

ويعرض ثقة محمد ﷺ بربه فيقول في سورة الأعراف: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 195 - 198].

هذه معاني التأليه التي تعتبر «أصل الدين» و«عقيدته»، وهي التي تنبثق عن كلمة (لا إله إلا الله) وتلازمها، وهي المعاني التي يجب أن يسعىٰ المسلم إلى إغنائها في نفسه وتنميتها، وأن ترافق كل عبادة أو طاعة يؤديها لله، وإلا أصبحت العبادات والطاعات رسوماً لا تغني، وحركات لا تفيد، وأصبحت عبئاً على الشخص نفسه.

إن معاني التأليه هي المعاني التي تثمر الاطمئنان والسكينة والاستقامة والصلاح في الدنيا، وازدياد الأجر في الآخرة كلما ارتقى المسلم سلَّمها وصعد فيه.

ب ـ دور الإيمان في بناء معاني التأليه في ذات المسلم(1)

1 ـ الإيمـــان بالله تعـــالى :

لقد أفاض علينا الوحي الكريم بقسميه القرآن والسنة الصحيحة بالحديث عن الله تعالىٰ ، وأخبرنا أن الله وحده خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، وأنه يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما نعد ، وأنه خلق السماوات والأرض والظلمات والنور ، وخلق الإنسان وقضىٰ الآجال ، وأهلك المكذبين ، وأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وأنه يسمع النجوى مهما قل عدد أصحابها ، وأن ملكه شامل ، وعلمه محيط ، وإرادته نافذة. ولا شك أن إيمان المسلم بالله تعالى بالصورة القرآنية يغني تأليه الله في ذاته وينمِّيه ويبنيه بناء راسخاً ، فإنه عندما يؤمن بأن الله خلق السماوات والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والإنسان والجبال والشجر فإنه يعظم الله تعالى وحده.

وعندما يؤمن المسلم أنه قد خضعت لله تعالى السماوات والأرض ، ورضخ له الليل والنهار ، والتزمت بأمره تعالى المخلوقات جميعها ، وسارت على ناموسه تعالى الكائنات كلها ، فإنه يخضع لله تعالى.

وعندما يؤمن المسلم أن الله خلق الأرض ذلولاً من أجل الناس ، وفصَّل الليل والنهار من أجل أن يحسبوا أيامهم ومن أجل أن يعملوا في النهار ويسكنوا في الليل ، وسخَّر المخلوقات جميعاً لهم. . إلخ. . . يجعله كل هذا يتجه بالحب إلى الله.

وعندما يؤمن المسلم أن الله هو الخالق لهذه الآيات العظيمة: السماوات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والإنسان ، وغيرها كثير ، وهو تعالى المسيِّر لها الحافظ له ، يجعله يثق بالله تعالى.

وعندما يؤمن المسلم أن الله مالك السماوات والأرض ، وبيده تعالى خزائنهما ، وأنه تعالى كريم غني يجيب دعوة الداعي يجعله يرجو الله تعالى.

---

(1) انظر كتاب «في مجال العقيدة نقد وعرض. أ. التوبة. ص 121 - 146».

وعندما يؤمن المسلم أن الله تعالى سخَّر بعض الملائكة التي تحصي أعماله ، وأنه أهلك المكذبين ، وأنزل عليهم العذاب في الدنيا ، وأنه أعد لهم عذاباً أشد وأنكىٰ في الآخرة يجعله يخاف الله تعالى .

أما المشكلتان اللتان أثارتهما كتب العقائد وهما : وجود الله تعالى وصفاته[1] ، فهما مشكلتان غريبتان عن القرآن والحديث ، وذلك لأن الإقرار بوجود الله فطري . . . ولأن قضية الصفات مرتبطة بالإسلام ، فعندما يسلم المرء نفسه لله يصبح من مقتضيات إسلامه التسليم لله عز وجل بما وصف به نفسه ، وعندما لا يسلم المرء نفسه لله بشكل كامل ينتج عن هذا محاكمة أقوال الله بعقله وتبرز المشكلة التي لا يحلّها إلا تعميق الإستسلام لله تعالى .

الخلاصة : ليس هناك إيمان عقلي بارد بالله تعالىٰ ، بل إن الإيمان بالله مرتبط ارتباطاً مباشراً بتعظيمه أو الخضوع له تعالى أو حبّه ، أو الخوف منه ، أو الرجاء فيه ، أو الثقة فيه ، ويجب أن يولد الإيمان بالله بعض هذه المعاني أو كلَّها .

ومما يؤكد المعاني السابقة أن القرآن الكريم لم يتحدث عن الله تعالى حديثاً مجرداً ، بل ربط حديثه بخلق شيء ، أو بنصر نبي ، أو بإهلاك عاصي إلخ . . . مما يشير إلى أن المقصود هو توليد معاني : التعظيم لله ، والخوف منه ، والرجاء فيه . . . من هذا الربط في الحديث .

2 ـ الإيمان بالملائكة :

حدثنا القرآن الكريم والحديث الشريف عن الملائكة الحديث الكثير ، فأخبرنا أنها مخلوقات نورانية لا تعصي الله تعالى ، وتفعل ما تؤمر ، وأنها تسبح الله ولا تفتر عن ذلك ، وأن منها من يحمل العرش ، ومن يقف على أبواب جهنم ،

---

(1) إن مما يثير الدهشة أن معظم الكتاب المحدثين الذين كتبوا في مجال العقائد قد تناولوا هاتين المشكلتين على أنهما أهم مشكلتين يواجهان الإنسان ، وأنهما عقيدة الإسلام ، ولا نجد تعليلاً لموقفهم سوىٰ أنهم استلهموا التاريخ ولم يستلهموا القرآن . «في مجال العقيدة نقد وعرض . أ . التوبة ص 125» .

ومن يقبض الأرواح ومن ينزل بوحي الله كجبريل عليه السلام ، ومن ينفخ في الصور يوم القيامة كإسرافيل عليه السلام ، ومن يكتب حسنات الناس وسيئاتهم . . . إلخ .

والسؤال المحدد الذي تهمنا الإجابة عليه هو :

كيف يبني الإيمان بالملائكة تأليه الله ـ تعالى ـ في ذات المسلم؟

الخلق دليل قدرة وعلم وحكمة وهو في الوقت نفسه دليل الألوهية . . . وقد تحدى الله تعالى به الكافرين وآلهتهم ، فعندما يعلم المسلم أن الله تعالى قد خلق مخلوقات من نور تحيط به تسمعه وتراه ، وهي عظيمة في خلقها ، وفي قدرتها ، وفي المهام التي تقوم بها يولد ذلك تعظيم الله في قلبه ، ويبني بالتالي جانباً من جوانب تأليهه تعالى . وعندما يعلم المسلم ويؤمن ويوقن أن الله تعالى سخر بعض الملائكة لحفظه يقول تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد: 11]. ويقول تعالى: ﴿ إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴾ [الطارق: 4]. ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: 61]. وأنه سخَّر تعالى بعضهم للصلاة عليه ، ولإخراجه من الظلمات إلى النور ، يقول تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ﴾ [الأحزاب: 43]. وأنه تعالى سخَّر بعضهم الآخر للاستغفار له . . . يتولد في نفسه حمد الله وشكره على هذه النعم التي لا تقدر بثمن ، وينمو بالتالي جانبا التعظيم والحب في قلبه .

وعندما يخبر الله تعالى المسلم أن الملائكة قاتلت في بدر وأنها ثبتت المؤمنين . . . وعندما يعلم هذا ويوقن به يجعله يرجو الله تعالى أن يمده بجنوده في محنه ومعاركه مع الكافرين ، ويبني بالتالي جانباً من جوانب التأليه .

ويبني الإيمان بالملائكة تعظيم الله تعالى والخوف منه عندما يعلم أن الله تعالى سخَّرها لمعاقبة الكافرين عند الموت . يقول تعالى : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: 50].

وينمي الإيمان بالملائكة الخوف من الله تعالى عندما يعلم أن بعضاً منهم يحصي عليه أعماله حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ

مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 16 - 18].

3 ـ الإيمـان بالكـتـب:

أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أنه أنزل كتباً متعددة على رسل مختلفين في مراحل متعددة من الزمان منها: الصحف على إبراهيم عليه السلام، والزبور على داود عليه السلام، والتوراة على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام، وكان آخرها القرآن الكريم أنزله الله تعالى على محمد ﷺ.

فوصف الله تعالى التوراة التي أنزلها على موسى وهارون بأنها فرقان وبأنها ضياء وذكر، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 48 - 50]. ووصفها في آية أخرى بأن فيها هدى ونوراً، يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ . . .﴾ [المائدة: 44]. ووصف كذلك الإنجيل بأن فيه هدى ونوراً فقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 46].

ثم أنزل الله القرآن على محمد ﷺ وأخبرنا أنه مصدق للكتابين السابقين التوراة والإنجيل ومهيمن عليهما، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: 48].

وقد رد القرآن على الناس الذين أنكروا أن ينزل الله تعالى شيئاً بأن استنكارهم ناتج من عدم تقديرهم لله ورحمته ورأفته بعباده، يقول تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: 91 - 92].

وقد ذكَّر القرآن العرب في أكثر من موضع بنعمة الكتاب المنزَّل بلسانهم ، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : 10]. ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : 71]. ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : 2].

وقد بين الله تعالى أن هذا القرآن فرقان بين الحق والباطل ، فيه الهدى والشفاء ، وضرب الله تعالى فيه مختلف الأمثال ، وأنه ميسر ، وأنه عربي البيان . . .

والسؤال الوارد الآن هو :

كيف يبني الإيمان بالكتب تأليه الله في نفس المسلم؟

إن الكتب نعمة كبرى من نعم الله تعالى على الإنسان تهديه إلى الحق في الدنيا والآخرة ، وفضل يبني عقله ونفسه ، ونور مبين يعم أرجاء حياته ، وخير عميم يدل على رأفة الله تعالى ورحمته به ورعايته له ، وإن الموقف الطبيعي الذي تقتضيها هذه النعمة وهذا الفضل وهذا النور وهذا الخير أن يحمده تعالى وأن يثني عليه من أجلها .

إذن يبني الإيمان بالكتب جانبي التعظيم والحب لله تعالى في نفس المسلم لأن حمده تعالى والثناء عليه هو تعظيم له تعالى وحب .

4 ـ الإيمــان بالـرسـل :

أخبرنا الله تعالى أنه بعث نبياً إلى كل أمة من الناس ، فقال ـ تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24]. وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : 7].

واختار الله تعالى أنبياءه من أفضل الناس نفساً وخلقاً ، فقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: 124] ، وربَّاهم تعالى على عينه ، فقال عن موسىٰ عليه السلام : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه : 39] ، ورعاهم تعالى منذ طفولتهم وزينهم بكل ما يحببهم إلى الناس ، وأبعدهم عن كل رجس وشرك ، وأيَّدهم بمعجزاته التي تدل على صدقهم ، ثم خاطبوا أقوامهم مشفقين عليهم من عذاب اليوم الآخر ، ناصحين لهم غير راغبين في أجر منهم ، وقد نقل القرآن الكريم بعض مخاوف الأنبياء على أقوامهم ، فقال تعالى :

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [الأعراف : 59] .

﴿ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف : 68] .

﴿ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 62] .

﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [يونس : 72] .

وقد أوجز النبي القول عندما دعا قومه إلى تأليه الله وحده ، وإلى عبادته وحده ، وأحسنه عندما ناداهم بكلمة (يا قوم) تحبباً وتقرباً ، قال تعالى :

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ ﴾ [الأعراف : 65] .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ ﴾ [الأعراف : 73] .

وقد أوصىٰ تعالى موسى وهارون أن يقولا القول اللين لفرعون ، قال تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه : 44] .

وقد تفنَّن نوح عليه السلام في دعوته قومه : فلَوَّن في الزمان ، فلعلهم يستجيبون ، في الليل إن لم يستجيبوا في النهار ، ولعلهم يقبلون الدعوة في النهار إن لم يقبلوها في الليل ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴾ [نوح : 5] ، وقلَّب في الطريقة فلعل الجهر أجدىٰ ، ولعل الإسرار أنفع ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴾ [نوح : 8 - 9] .

وقد ذكَّر كل نبي قومه بنعم الله تعالى الكثيرة عليهم : في أجسامهم في بنيانهم في زروعهم . . . إلخ ، وحشد الأدلة الكثيرة التي تشدهم إلى القضية الموضوعية التي يدعوهم لها وهي تأليه الله وحده ، لكن الملأ واجهوا أدب الأنبياء وموضوعيتهم بأمور شخصية مثل : أنتم بشر مثلنا ، أنتم ضالون ، سفهاء ، كاذبون ، اتبعكم الأرذلون ، قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [الأعراف : 66] .

﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : 60 - 61] .

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: 27].

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: 33 - 34].

وقد كانت نتيجة الصراع مع الملأ أن آمن قلة من الناس، وقد أبرز القرآن ذلك في سورة الشعراء عندما جاء قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ عدة مرات تعقيباً على دعوة الأنبياء: نوح، وهود، وصالح، وشعيب عليهم السلام لأقوامهم.

ثم يكيد الكافرون للمؤمنين، ويحاولون الإيقاع بهم، فينجي الله المؤمنين، ويهلك الكافرين بالمطر كما فعل مع قوم نوح، وبالريح كما فعل مع عاد، وبالصاعقة كما فعل مع ثمود، وبالظلة كما فعل مع مدين، . . . إلخ.

فكيف يبني الإيمان بالرسل تأليه الله تعالى في نفس المسلم؟

إن ابتعاث الأنبياء والرسل إلى الناس نعمةٌ كبرىٰ من نعم الله التي لا تقدر بثمن، وذلك لأنهم يحملون الحق إليهم، وينافحون عنه، ويتعبون في إيصاله إليهم، ويهدونهم إليه، ويكونون قدوةً لهم فيه، وتقتضي هذه النعمة حمد الله وشكره عليها، إذ يبني الإيمان بالرسل حب الله تعالى وتعظيمه، لأن الحمد يعني الحب والتعظيم.

يبني الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ـ الثقة بالله تعالى ـ في نفس المسلم لأن سيرتهم توضح رعاية الله تعالى لعباده الصالحين، ويبني تعظيمه تعالى لأنه أمضىٰ سنته في انتصار الحق وزهوق الباطل، والخضوع له تعالى طالما أنه خضع له من هم أفضل منه، والخوف من عقابه تعالى لأنه أهلك المكذبين، والرجاء فيه تعالى لأنه نصر المؤمنين.

5ـ الإيمان باليوم الآخر:

قام حديث الله تعالى عن اليوم الآخر في القرآن حول ثلاث قضايا:

الأولى: اختلال نظام الكون يوم القيامة.

الثانية: النعيم الذي يلقاه المؤمن.

الثالثة: العذاب الذي يلقاه الكافر.

(1) ـ اختلال نظام الكون:

سيختل نظام الكون، هذا ما سيحدث يوم القيامة: السماء المتماسكة ستتصدع، الأرض الثابتة ستتزلزل، الجبال الراسخة ستنسف، النجوم المتألقة ستذوب، البحار الواسعة ستتفجَّر، الشمس الملتهبة ستطفأ... إلخ، يقول تعالى:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾ [التكوير: 1 - 13].

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ [الإنفطار: 1 - 4].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: 13 - 16].

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 1 - 2].

فما الذي يبنيه الإيمان بالحقائق السابقة؟

يركن الإنسان إلى الكون الكبير، الواسع، المنتظم، في بعض الأحيان فيعظمه وقد يقوده ذلك إلى الضلال، وهذا ما حدث مع الفلاسفة عندما قالوا بقدم العالم، ومع الناس في العصر الحديث عندما قالوا: إنَّ الطبيعة خَلقَتْ وأوْجَدَت... إلخ. فعندما يؤمن المسلم أن كلَّ هذا الكون سيختل نظامه، ويفقد ترابطه ويصغر كبيره، سيوجّه تعظيمه لله تعالى الذي سيفعل هذا، لأن هذا يعني أنه ـ سبحانه ـ أكبر وأعظم من الكون الذي كان بداية فتنة له.

2ـ نعيم الجنة :

أوضح القرآن الكريم النعيم الذي ينعم به الله تعالى على المؤمنين في الجنة من طعام ، وشراب ، وسكينة ، ولباس ، وحلية . . . إلخ .

إن الحديث عن النعيم وإيمان المسلم به يبني رجاءه فيجعله يرجو نعيم الله في اليوم الآخر الذي لا يمكن أن يقارن بأي نعيم في الدنيا .

3ـ عذاب النار :

أوضح القرآن الكريم العذاب الذي يصيب الكافرين يوم القيامة ، وفصَّل لنا بعض وقائعه ، فذكر أنَّ النار وقودها الناس والحجارة ، وأن شررها كالقصر ، وأنها تسأل هل من مزيد ، وأنها تتميز من الغيظ ، وأن الكافر يتمنىٰ من شدة عذابها ألا يكون قد استلم كتابه ، ولا عرف حسابه ، وأنه هلك قبل ذلك ، ويتحسر حيث لم يعد يفيده ماله وسلطانه ، وأن الكافرين تلفح وجوههم رياح السموم الحارة ، وأنهم يستظلون بظلٍ لا بارد ولا كريم .

فما الذي يبنيه الإيمان بعذاب النار؟

عندما يتلو المسلم آيات الله التي تتحدث عن النار ، يوقن بالعذاب الذي يصيب الكافرين والعاصين فيها ، لا شك أن هذا يوجه خوفه إليها ، لأن عذابها لا يمكن أن يقارن بأي عذاب في الدنيا .

6ـ الإيمان بالقضاء والقدر :

إن الإيمان بأن الله تعالى قضىٰ الأشياء والحوادث وقدَّرها قبل أن تقع جزءٌ من الإيمان المطلوب من المسلم ، فما الذي يبنيه الإيمان بالقضاء والقدر في تأليه المسلم لله تعالى؟

يبني ذلك الثقة بالله تعالى وبأن ما أصابه ما كان ليخطئه ، وبأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما حدث معه كان بعلم الله القوي وبإذنه تعالى .

ج ـ دور الإسلام في بناء تأليه الله تعالى في ذات المسلم(1)

الإسلام كما حدده حديث جبريل ـ عليه السلام ـ الذي جاء يعلم المسلمين دينهم هو: الشهادتان، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت. فكيف يبني كل ركن من هذه الأركان تأليه الله تعالى في ذات المسلم؟

1 ـ الشهادتان:

الشهادة في أحد معانيها وأبسطها حضور العقل وإعمال الحواس، فعندما يطلب الإسلام من المسلم أن يشهد أن لا إله إلا الله هذا يعني أن عليه أن يعمل حواسه: من بصر وسمع وذوق في مخلوقات الله، من أجل أن يشهد أن الله تعالى خلق وحده الكون، ويصرف وحده أمره، ويرزق وحده خلائقه، ويحفظ وحده حركته.... إلخ، حيث يؤدي ذلك به إلى تعظيمه تعالى والخضوع له وحبه وخوفه والرجاء فيه تعالى والثقة فيه تعالىٰ.

وتعني شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ أن يتلو المسلم القرآن الكريم لأنه المعجزة الباقية والدلالة الأكيدة على أن محمداً مرسل من ربِّه، حيث يؤدي ذلك إلى أن يعظم الله تعالى على نعمة إرساله محمد ﷺ، وأن يحبه تعالىٰ لأنه أيده بنَصره، وأن يخافه تعالى لأنه أهلك المكذبين، وأن يرجوه تعالى أن يعلي دينه في الوقت الحاضر كما أعلاه في السابق.

2 ـ الصـــلاة:

ورد الأمر بالصلاة منذ ابتداء الدعوة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 1 - 6].

(1) تحليل بتصرف من مفاهيم في كتاب «في مجال العقيدة، نقد وعرض» أ. التوبة. مزود بأدلة أكثر من الوحيين القرآن والسنة الصحيحة.

وقد اعتبر الإسلام الصلاة ركن الدين الذي يكفر تاركها في أرجح الأقوال ، وهي أول ما يحاسب عليه المسلم يوم القيامة ، وقد بشَّر الله تعالى الخاشعين فيها بالفلاح :

فقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : 1 - 2].

وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : 5].

وفي صحيح مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إن بين الرجل وبين الشرك والكفر تركُ الصلاة](1) .

وفي جامع الترمذي ومسند أحمد من حديث بُريدة ، عن النبي ﷺ قال : [العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر] وسنده صحيح(2) .

وفي جامع الترمذي وصحيح ابن ماجه والمسند من حديث معاذ : [رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله](3) .

وفي صحيح ابن ماجه عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إن أول ما يحاسب به العبد المسلم يوم القيامة الصلاة المكتوبة ، فإنه أتمها وإلا قيل انظروا هل له من تطوع ، فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه ، ثم يفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك](4) .

كما بشَّر الله المصلين الخاشعين الذين ينهضون للصلاة بالليل بالجنة يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : 15 - 18].

---

(1) مختصر صحيح مسلم (204) .
(2) صحيح الجامع (4022) .
(3) قد مضىٰ بتمامه .
(4) وانظر صحيح أبي داود (810 - 812) ، وصحيح الجامع (2016) .

وحثَّ القرآن المسلم أن يصبر عليها وأن يأمر أهله بها ، فقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 132].

وبين الله تعالى أنها تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45].

وقد تحدث القرآن عن كثير من أركانها ، فقال تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238]. وقال عن ركوعها وسجودها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج: 77]. وقد أشار إلى الوضوء الذي يسبقها ، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: 6].

إنَّ الصلاة مدرسة كاملة: فيتطهر المسلم استعداداً للصلاة ، ويتجه إلى الكعبة في بيت الله الحرام ، ويقف قانتاً لله تعالى ثم يركع ويسجد ثم يختم صلاته داعياً ومستغفراً.

ما الذي تبنيه الصلاة في ذات المسلم في مجال تأليه الله تعالى؟

تبني الصلاة تعظيم الله تعالى في ذاته لأنه يقتطع من وقته وجهده قدرين يسأل فيهما ربه أن يعطيه ، وأن يعافيه ، وأن يعينه ، وتبني الخضوع لله تعالىٰ لأنه يمتثل أمره في الركوع والسجود وفي التطهر بالصورة التي أمر بها وفي الوقت الذي أراده تعالى ، وتبني حبه تعالى لأنه يحمده تعالىٰ في صلاته على نعمه الكثيرة ، وتبني الرجاء فيه تعالى لأنه يسأله استمرار النعم التي أنعم عليه بها ، ويسأله تعالى المزيد منها ، كما يدعوه تعالى أن ينعم عليه بالجنة ، ويوجه خوفه إليه تعالى من أن يسلبه النعم التي أنعم عليه بها أو من أن يعذبه في النار التي أعدَّها.

3 ـ الزكـاة:

فرض الله تعالى الزكاة في أكثر من موضع في القرآن ، وفصَّلت السنة أحكامها

وأنصبتها ، واعتبرها القرآن حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: 24 - 25].

وقد رهَّب الله من منعها كما رهب رسوله عليه الصلاة والسلام:

ففي التنزيل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: 34 - 35].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثم يقول: أنا كنزك أنا مالك ، ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ الآية](1). والشجاع: هُوَ الذكر من الحيات. والأقرع: الذي ذهب شعره من كثرة السم. والزبيبتان: نكتتان سوداوان فوق عينيه.

وبين الله في القرآن وجوه إنفاقها ، فقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 60].

فما الذي تبنيه الزكاة في نفس المسلم في مجال تأليه الله تعالى؟

يبني إخراج الزكاة في ذات المسلم الخضوع لله تعالى عندما يمتثل أمر الله سبحانه ويخرج ماله طاعة لله ، وتبني تعظيم الله تعالى لأنه يتخلَّى عن شيء يحبه وهو المال من أجل محبوب أعظم وهو الله تعالى ، وتبني الخوف من الله تعالى لأنه يخرجها خوفاً من عقاب الله يوم القيامة ، وتبني الرجاء في الله تعالى لأنه يرجو المثوبة في الجنة على إيتائها ، وتبني الثقة في الله تعالى في أن يخلفه عوضاً عنها.

4ـ الصوم:

فرض الله تعالى على المسلم الصوم شهراً في السنة ، وهو شهر رمضان ، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

---

(1) مختصر صحيح البخاري (671).

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 183 - 184].

وفي السنة الصحيحة ما يدل على النهي عن إفطار شيء من رمضان دون عذر: فقد روىٰ ابن حبان وابن خزيمة والنسائي والحاكم عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [بينا أنا نائم أتاني رجلان، فأخذا بِضَبْعَيَّ فأتيا بي جبلاً وعراً، فقالا: اصعد. فقلت: إني لا أطيقُهُ. فقال: إنا سنسِّهلهُ لك. فصعدت حتىٰ إذا كنت في سواء الجبل إذا بأصوات شديدة. قلت: ما هذه الأصوات؟ قالوا: هذا عواء أهل النار، ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم، مشققه أشداقهم، تسيل أشداقهم دماً. قلت: من هؤلاء؟ قال: الذين يفطرون قبل تحلة صومهم](1).

فما الذي يبنيه الصوم في نفس المسلم؟

يبني الصوم الخضوع لله تعالى عندما يخضع لأمر الله في الامتناع عن النساء والطعام في وقت محدد، ويبني الخوف من الله تعالى عندما يمتنع عن تناول الطعام والشراب مع قدرته على تناولهما، ويبني حب الله تعالى عندما يمتنع عن شهوتين محبوبتين لصيقتين بذاته من أجل محبوب أعظم هو الله تعالى، ويبني الرجاء في الله والثقة فيه تعالى عندما يرجو أن يجزل له العطاء يوم القيامة جزاء صيامه.

ففي المسند بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفعني به. ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان](2).

5ـ الحج:

فرض الله الحج على المسلم في العمر مرة واحدة، وهو: قصد بيت الله الحرام

---

(1) وأخرجه الحاكم (430/1) وصححه ووافقه الذهبي وأقره الألباني. انظر صحيح الترغيب (995/1) ص 420.

(2) صحيح الترغيب (973/1) ص (411).

طاعة لله وتعظيماً ، وقد بينت الآيات القرآنية بعض مناسكه : من طواف ، وإفاضة ، ونحر ، وفصلتها السنة الشريفة ، قال تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة : 196] .

وفي صحيح مسلم عن عائشة ، أن النبي ﷺ قال : [ما من يوم أكثرَ مِنْ أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء؟][1] .

وفي صحيح ابن ماجه عن بلال ، أن النبي ﷺ قال له غداة جمع : يا بلال أسكت الناس أو أنصت الناس ثم قال : [إن الله تطول عليكم في جمعكم هذا ، فوهب مسيئكم لمحسنكم وأعطى محسنكم ما سأل ، ادفعوا باسم الله][2] .

فتفضل الله سبحانه بذلك على الحجاج في عرفة ومزدلفة بالمغفرة .

وفي صحيح أبي داود عن ابن مِرْبع الأنصاري ، أن النبي ﷺ قال : [قفوا على مشاعركم هذه فإنكم على إرث من إرْث أبيكم إبراهيم][3] .

فما الذي ينميه الحج في نفس المسلم؟

ينمِّي تعظيم الله تعالى لأنه يقصد بيتاً من بيوت الله تاركاً أهله ، باذلاً الجهد والمال ، ويبني الخضوع له تعالى لأنه يؤدي أعمالاً بصورة معينة في أوقات معينة ، وينمي حب الله تعالى لأنه يضحي بمحبوبات كثيرة : أهله وماله وراحته ، وينمي الثقة والرجاء في الله تعالى لأنه يرجو المغفرة والجنة ويثق في وعد الله ، وينمي الخوف من الله تعالى لأنه يرجو بعمله هذا البعد عن النار .

---

(1) مختصر مسلم (643) .

(2) صحيح الجامع (1730) والسلسلة الصحيحة (1624) .

(3) صحيح الجامع (4270) .

د ـ دور القرآن في بناء معاني التأليه في ذات المسلم(1)

يظن بعض الناس أن القرآن رسم لنا فقط معالم الإسلام والتشريع . والحق أنه ـ إضافة لما سبق ـ يبني العقل ، ويبني معاني التأليه الأساسية . ومن أمثلة ذلك :

1 ـ قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ . . . ﴾ [البقرة : 164 - 165] .

ذكرت الروايات أن سبب نزول هذه الآيات هو أن قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ نزل على النبي ﷺ في المدينة فقال كفار قريش : كيف يسع الناس إله واحد. فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ .

تتحدث الآيات السابقة عن مظاهر وألوان من آيات الله الباهرة : منها خلق السماوات والأرض وهو خلق عظيم في سعته ، ووزنه ، وانتظام حركته ، وقد توصل العلم الحديث إلى أرقام هائلة عن عدد المجرات والنجوم وربما عرف أكثر في المستقبل .

ومن هذه الآيات : اختلاف الليل والنهار : في الظلمة والضياء ، في السكون والجلية ، في البرودة والحرارة ، . . . إلخ .

ومنها : سير السفن العظيمة على سطح الماء في البحار الواسعة ، ونقلها بعض متاع الإنسان وطعامه من مكان إلى آخر ، وهو ما كان يعجز عنه العجز الكامل لولا تسخير الله عز وجل لهذه المخلوقات .

ومنها : إنزال المطر من السماء ، وإحياء الأرض ، فتصبح مخضرة بالزروع والنبات والثمار بعد أن كانت قاحلة .

---

(1) تحليل بتصرف مستفاد من مفاهيم في كتاب «في مجال العقيدة نقد وعرض» أ. التوبة .

ومن هذه الآيات: بث الدواب بأنواعها المختلفة من إنسان وحيوان وطير تتعايش على سطح هذه الأرض.

ومنها: تقليب الرياح وتغيير جهتها من شرق إلى غرب وبالعكس، وتغيير سرعتها من هدوء إلى شدة.

ومنها: تسيير السحاب المعلق بين السماء والأرض، المحمل بالأمطار الغزيرة ليهطل فوق أرض معينة بإذن الله وقدرته.

إن تلك الآيات السابقة مع أنها متفرقة، معجزة في آحادها، إلا أن العاقل يبصر يد الله الواحدة تجمع بين تفاريقها وشتاتها، فلم تصطدم أية ظاهرة مع أخرىٰ بل الكل مسخَّر للإنسان، متكامل معها، يحقق هدفاً في منظومة الكون السائرة إلى الأمام.

يولِّد خلق الله السماوات والأرض والفلك والدواب والرياح والسحاب من العدم تعظيمه تعالى والثقة فيه في ذات الإنسان لأنها مخلوقات عظيمة... ويحرك فيه الخضوع له تعالى لأن تلك المخلوقات خاضعة له لا تخرج عن ناموسه وقانونه وهي أكبر منه، ويستجش حبه تعالى لأن هذا الخلق مسخر كله للإنسان يتنعَّم به: الأرض يمتطيها ويحرثها، ويأكل الخيرات من فوقها وتحتها وداخلها، والفلك يستخدمه في نقل متاعه وحاجاته، والمطر يشربه، والدواب يركبها إلخ...، ومع ذلك فإنك تجد بعض الناس يجعلون من دون الله أنداداً يعظمونهم ويحبونهم كحب الله، لا شك أن هذا منتهىٰ الظلم والابتعاد عن الصواب. لكن المؤمنين يحبونه تعالى أكثر من حب الكافرين لآلهتهم لأن أهواءهم لم تسيطر عليهم، ولم تحجب الحقائق عنهم.

2 ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

إن خلق الله للآيات السابقة جميعها: السماوات، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، يقتضي منا تعظيم الله تعالىٰ، لأنها آيات

تدل على عظمته تعالى وقدرته في خلقها وعلمه في تدبير أمرها ، وحكمته في حفظها . . .

ويقتضي منا كذلك الخضوع له ـ تعالى ـ لأنها خضعت له ـ تعالى ـ خضوعاً كاملاً في حركتها ودورانها ، وهي أكبر منا وأضخم .

ويقتضي منا كذلك ـ حبه تعالى ـ لأنه سخَّر لنا هذه المخلوقات نستفيد منها فوائد تقوم عليها حياتنا :

فالأرض نمتطيها ونتنعم بما هو فوقها وعلى سطحها وفي جوفها ، والشمس نستفيد من ضيائها وحرارتها ، والقمر نَتَنَعَّم بنوره ، والنجوم نهتدي بها في ظلمات الليل .

ويقتضي كذلك الثقة به ـ تعالى ـ لأن الرب الذي حفظ الأرض من أن تميل ، والشمس من أن تنطفىء ، والقمر من أن يسقط ، والنجوم من أن تتصادم ، والليل والنهار من أن تختل حركتهما : جدير بأن يوثق فيه . بما هو أبسط من ذلك من معاش الإنسان ، وبعض حاجاته البسيطة .

إن انتهاء الآيات بتمجيد الله والثناء عليه يؤكد لنا أنه الهدف الرئيسي من الحديث السابق عن مظاهر الكون . . . وأن القصد من وراء ذلك دفع الإنسان إلى تأليه الله تعالى وتوليد تعظيمه وحبه والخضوع له والخوف منه والرجاء والثقة فيه سبحانه ، فالآيات السابقة يتفاعل معها كيان الإنسان جميعه : عقله وبصره وسمعه وذوقه وشمه ولمسه ، وخوفه وحبه ورجاؤه ، وليس عقله فقط .

3 ـ قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 5 - 6].

وتبرز المعاني التالية من خلال تدبر الآيات السابقة :

1 ـ تقرير فعل الله في عناصر الكون مثل : الشمس والقمر ، وهو ما يوجه المؤمن نحو ربه بالحب والتعظيم والسؤال .

2 ـ الربط بين الحق وبين عناصر الكون ، وأن خضوعها لم يأت عبثاً أو صدفة إنما هو إذعان للحق ، مما يدفع المؤمن إلى الخضوع لله تعالىٰ .

3 ـ توضيح أن المستفيد من تلك الآيات هم العاملون المتقون الذين يعلمون عظمة الله وقدرته ، ويخافون ناره ومقامه فيزداد تعظيمهم وخوفهم منه تعالى ، وفي هذا توجيه للمسلم إلى العلم والتقوى المرتبطين بتعظيم الله وخشيته .

وتقدم لنا السيرة النبوية شواهد على بناء القرآن لمعاني التأليه ، نستعرض ذلك في حادثتين :

الأولى : سجود المشركين عند سماعهم سورة النجم .

فقد روىٰ البخاري في صحيحه «باب فاسجدوا لله واعبدوا» حديثين قال في أولهما : حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : [سجد النبيَ ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس][1] .

وقال في ثانيهما : حدثنا نصر بن علي أخبرني أبو أحمد ـ يعني الزبيري ـ حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الأسود بن يزيد عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : [أول سورة أنزلت فيها سجدة والنجم ، قال : فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلاّ رجلاً رأيته أخذ كفّا من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافراً هو أمية بن خلف][2] .

إذن سجد المشركون مع الرسول ﷺ عند سجوده ، وهم الكافرون بمحمد ورسالته فبم نفسّر هذا السجود .

نجد تفسيره في الآيات الأخيرة من سورة النجم التي تحدثت في بيان رائع عن إضحاكه تعالى وإبكائه ، وعن إماتته وإحيائه ، وعن خلقه الزوجين ، وعن بعثه لهما ، وعن إغنائه من يشاء ، وعن ربوبيته للنجوم ، وعن إهلاكه للأمم السابقة . وولّدت تعظيم الله في قلوبهم الذي دفعهم إلى السجود الذي هو المظهر

---

(1) مختصر صحيح البخاري (540) أبواب سجود القرآن .

(2) المرجع السابق (538) .

العملي للتعظيم، يقول تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴾ [النجم: 43 - 62].

الثانية: خوف عتبة بن ربيعة عند سماعه آيات من سورة «فصِّلت»:

فقد أخرج ابن أبي شيبة في المنصف وعبد بن حميد في المسند[1] بسند حسن عن جابر أن عتبة قال للنبي ﷺ ـ بعدما كلَّم قريشاً أن يأتيه فيكلمه ـ: [فرَّقت جماعتنا وشتَّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانىٰ. أيها الرجل: إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتىٰ تكون أغنىٰ قريش رجلاً واحداً، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاستمع مني. قال: أفعل. قال: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ

---

(1) وانظر بقية الروايات في كتابي «السيرة النبوية على منهج الوحيين القرآن والسنة الصحيحة» مجلد/1/ص 167.

ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 1- 13].

وفي رواية: فصاح عتبة وقال له: حسبك، حسبك، ما عندك غير هذا، وأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم.

وفي رواية: فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم ـ يخاطب قومه حين رجع ـ أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب].

إذن: ولَّدت الآيات الخوف عندما عرضت بعض مظاهر من قدرة الله العظيم الذي خلق الأرض، ثم خلق الجبال، وقدَّر الأقوات، ثم خيَّر السماء والأرض بين المجيء طائعتين أو كارهتين، فاختارتا المجيء طائعتين، ثم هددتهم الآيات إن أعرضوا عن الإيمان بصاعقة مثل التي أهلكت عاداً وثمود.

والخلاصة: إن سجود المشركين عند سماعهم للقرآن مع عدم إيمانهم أن هذا الكلام من عند الله، وصيحة عتبة بن ربيعة خوفاً من آيات سورة «فصلت» يظهران جانباً من أثر القرآن في بناء معاني التأليه، وتحريكها في قلب الإنسان.

* * *

هـ- تحصين معاني التأليه في نفس المسلم وثمرات منهج التأليه(1)

إن أبرز ما يمكن أن يتسرب التأليه إليه: الأشخاص سواء في حياتهم أم في مماتهم، وقد كان هذا أوسع باب للضلال ساق الأمم السابقة موارد التهلكة وبالذات مع أنبيائهم. لذلك أكد القرآن على بشرية الرسول ﷺ فقال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: 110].

﴿ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: 93].

قد وجهت الآيات القرآنية الرسول ﷺ أن يربط أي فعل له بمشيئة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: 23 - 24].

وقد أمرت الآيات القرآنية الرسول ﷺ أن يعلن عدم تملكه لخزائن الله، وعدم علمه للغيب، وأنه ليس ملكاً، وأنه متبع لوحي الله، قال تعالى:

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: 50].

وقد تحدث القرآن عن بعض أفعال الرسول ﷺ ومخالفته للأولى فيها من أجل تأكيد بشريته عليه الصلاة والسلام وقد جاء ذلك في حادثتين كما ذكر القرآن الكريم:

الأولىٰ: حادثة عبد الله بن أم مكتوم حينما عاتبه الله تعالى على إعراضه عنه بقوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ [عبس: 1 - 4].

الثانية: أسرى بدر، عندما نفّذ الرسول ﷺ الفداء، وكان القتل هو الأولى، فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا

---

(1) تحليل بتصرف مستفاد من مفاهيم في كتاب: «في مجال العقيدة نقد وعرض» أ. التوبة. مؤسسة الرسالة.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 67 - 68].

وقد وجَّه الرسول ﷺ صحابته إلى أن لا يطروه كما أطرت النصارىٰ المسيح بن مريم. فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [لا تطروني كما أطرت النصارىٰ عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، ولكن قولوا عبد الله ورسوله] صحيح الجامع 7240.

وقد كانت علاقته ﷺ بصحابته في منتهى البساطة، بعيدة عن أي تمييز في أي مجال: طعامه أو شرابه أو لباسه أو معاشه إلخ....

والخلاصة: إن الإسلام عندما حصَّن المسلمين من الانحراف في علاقتهم برسولهم حيّاً - مع حبهم له - حفظ تأليههم لله تعالى ليأخذ مجراه الصحيح.

أما بالنسبة للأشخاص في حال مماتهم فقد حرَّم الإسلام رفع القبور، وحرَّم شد الرحال لها، وسؤالها، والتبرك بها، كل ذلك لأن فيها امتصاص لطاقة التعظيم التي يجب أن تتجه إلى الله تعالى.

ومما يرتبط بتعظيم الأشخاص سواءً في حياتهم أم في مماتهم: تصويرهم وتمثيلهم، وقد حرَّم الإسلام هذين الصنفين فقال الرسول ﷺ: [إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون] رواه البخاري[1]. وقال أيضاً: [لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا تصاوير] رواه البخاري في كتاب اللباس من صحيحه[2] من حديث أبي طلحة.

وقد شدَّد الإسلام النكير على خلق الكِبْر، واعتبر مثقالاً فيه كفيلاً أن يحرم المسلم من دخول الجنة كما قال الرسول ﷺ: [إن الجنة لا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر] رواه مسلم[3]. وسبب ذلك أن الكبر تعظيم للذات، وهو مناقض لتعظيم الله، وامتصاص كامل لطاقة التعظيم عند العبد.

---

(1) ورواه أحمد من حديث ابن مسعود. انظر تخريج الحلال (133) والسلسلة الصحيحة (281).

(2) وانظر صحيح الجامع (7139).

(3) مختصر مسلم(54) من حديث ابن مسعود بلفظ: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه...].

والخلاصة: يبني الإيمان والإسلام والقرآن معاني التأليه في قلب المسلم، فيجعله معظماً لله وحده، خاضعاً له وحده، محباً له أكثر من كل محبوبات الدنيا، خائفاً من ناره، راجياً جنته، واثقاً به تعالى أكثر من كل الأشياء والأشخاص.

ولم يكتف الإسلام بالتشريعات التي تبني معاني التأليه، بل حصَّنها بتشريعات تمنع تسربها، وحصيلة الأمرين: البناء والتحصين، وثمرتها أن تتطهر النفس من كل أمراضها اللاصقة بها، وأن تفلت من تأثير الشيطان وغوايته، ويتم ذلك من خلال قاعدة البناء والهدم: بناء تعظيم الله الذي يهدم تعظيم المال والأشخاص والأشياء والأسباب، بناء الخوف من اليوم الآخر الذي يهدم رعب النفس من الأشخاص والأشياء، بناء حب الله الذي يتفوق على حب الشهوات، وقد أشارت أكثر من آية إلى قاعدة البناء والهدم فذكرت أن العروة الوثقى المتينة التي تنجي العبد في الآخرة والدنيا تكون بالكفر بالطاغوت وبالإيمان بالله، أي بهدم الطاغوت في القلب وبناء الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة: 256]. وذكرت أن البشرى تكون لمن يجتنب عبادة الطاغوت وينيب إلى الله، أي بهدم عبادة الطاغوت وبناء الإنابة إلى الله: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ [الزمر: 17].

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه مرفوعاً: [من وحَّد الله تعالى، وكفر بما يعبد من دونه، حرُم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل](1).

ثمرات منهج التأليه:

إن تأليه الله تعالى يطهر النفس من أمراضها، ومن أبرز هذه الأمراض: اتباع الهوىٰ، الهلع، الشح، الطغيان، اليأس، وتفصيل ذلك:

1 ـ سيطرة الهوى.

قد تعظم الشهوات في نفس الإنسان، فيتعلق بها، ويخشىٰ عدم إروائها، ويعطيها حجماً أكبر من حقيقتها، فتصبح هوىً جامحاً يسيطر عليه، وقد يقوده

(1) قد مضى تخريجه.

ذلك إلى مستنقع الشرك الذي يوحِّل كرامته الإنسانية التي اختصه الله بها حيث قال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: 70]. ويستلب شخصيته فيصبح أسوأ من الدواب، حيث قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: 22].

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: 179].

لكن تأليه المسلم لله تعالى يبرئه من هذا المرض ويطهره منه، لأن أحد مقتضيات تأليه الله تعالى أن يعظم الله الذي خلق الشهوة، وأمده بأسباب إروائها، ويقدر وحده على حرمانه منها، لذلك تراه يستمتع بالشهوات مثل غيره، لكن دون أن تستعبده، أو توحل كرامته، أو تمسخ كيانه الإنساني.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [تعِسَ عبد الدينار وعبدُ الدرهم وعبدُ الخميصة، إنْ أعطي رضيَ، وإن لم يُعْطَ سخط، تعِس وانتكسَ، وإذا شيك فلا انتقش...][1].

2ـ الهلع.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ [المعارج: 19 - 20].

فوصف الله الإنسان بكثرة الخوف الذي ينغص عليه حياته، ويدمرها في بعض الأحيان، وهو يخاف من كل شيء وعلى كل شيء.

لكن المسلم عندما يؤله الله وحده، يخاف مقامه وعذابه يوم القيامة، ويركن إلى الله ويثق فيه تعالى يولِّد ذلك في نفسه اطمئناناً وأمناً، ولأن خوفه اتجه إلى أمر يقيني في حين أن خوفه السابق كان من أمر ظني، لذلك نجد أن القرآن حصر الأمن بفئة واحدة هي التي آمنت ولم تخلط إيمانها بأي شرك، مما يدل على أن الشرك هو

---

(1) صحيح الجامع (2959).

الذي يولِّد القلق والخوف ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام : 82].

واعتبر أن ذكر الله يولِّد الاطمئنان فقال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد : 28].

ودعا المؤمنين إلى ذكر الله عند لقاء العدو لأنه يساعد في الثبات ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال : 45].

قلت : وأفضل علاج للهلع ذكر الموت وتعظيم همِّ المعاد فوق كل هموم الحياة الدنيا ومنغصاتها وآلامها ومخاوفها. وقد أثنى الله بهذه الخاصة على إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام ، فقال في سورة(ص) : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص : 46 - 47].

وفي صحيح ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : [من جعل الهموم همّاً واحداً ، همَّ المعاد ، كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعَّبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك][1].

3 ـ الشحّ.

أكدت بعض الآيات الشح في طبع الإنسان ، ووصفته بالتقتير مرة ، وبالمنع مرة أخرى ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء : 100].

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج : 21].

إن الشح مزيج من تعظيم المال والثقة فيه والخوف من فقدانه ، وعدم الثقة في تعويض الله له ، فلذلك عندما يؤله المسلم الله تعالى ويعظمه وحده ، ويوقن أنه هو تعالى يحفظ العبد ويعينه ، ويقضي حاجته وليس المال ، ويوقن ـ كذلك ـ أنه لو شاء سبحانه أتلف له كل ما حرص على حفظه وتخبئته ، فإن ذلك التأليه يطهر النفس من مرض الشح.

---

(1) حسن. تخريج الترغيب (83/4) وصحيح الجامع (6065).

وتأتي فريضة الزكاة لتدرب النفس على العطاء ، وتقلل حجم الشح في النفس .

قلت : فإذا علم المسلم أن الشح طريق إلى فتن الدنيا كسفك الدماء واستحلال المحارم ، وطريق ميسر لعذاب الآخرة خاف منه وأعرض عنه .

ففي التنزيل : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل : 8 - 11] .

وفي صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : [اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم](1) .

4 ـ الطغيان في حالة الاغتناء .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ [الإسراء : 83] .

وقال سبحانه : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلق : 6 - 7] .

إن الطغيان والتكبر في حقيقته تعظيم للمال أو الذات أو للسبب بشكل عام ، لذلك عندما يؤله المسلم الله لا يصبح عظيم في قلبه إلا الله ، فعندما تأتيه أية نعمة : مال ، أو ولد ، أو منصب ، فإنها لا تفقده توازنه بل يبصر يد الله فيها ، وأنها وصلت إليه بإذن الله ، ويعرف أنها فضل من الله ، لذلك يعظم الله : يحمده لاجتراحها له ، ويشكره لأنه وهبها تعالى له .

قلت : فإذا علم المسلم أن الله تعالى يملي للظالم ويتخلَّى عنه حتى إذا اشتد طغيانه وحان أمر الله فيه أخذه فلم يفلته ، خاف من الطغيان ومصير أهله .

ففي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله لَيُمْلِي للظالم ، فإذا أخذه لم يُفْلِتْه ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾](2) .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (1829) .

(2) مختصر مسلم (1831) .

5 ـ اليأس في حالة الشدة.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: 9].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: 83].

اليأس في حالة الشدة هو عدم ثقة في الله، وفي رحمته تعالى. فعندما يؤله المسلم ربه وحده تعالى، فإنه لا يمكن أن ييأس في حالة الشدة لأنه يثق بربه تعالى، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن الله يريد له الخير في كل ما يصيبه، وأن الله رحيم واسع الرحمة أوجبها على ذاته كما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54].

قلت: فإذا علم المسلم أن اليأس من رحمة الله من أكبر الكبائر التي عطفها الله على الشرك اهتز قلبه خوفاً من الله وثقة به.

ففي التنزيل: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: 56].

وفي معجم الطبراني عن ابن عباس: [أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: الشرك بالله، واليأس من رَوْح الله، والأمن من مكر الله] ورجاله ثقات(1).

وله شاهد صحيح رواه عبد الرزاق عن ابن مسعود قال: [أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من رَوْح الله](2).

6 ـ العجلة.

وصف الله ـ تعالى ـ الإنسان بالعجل، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11].

وقال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: 37].

وعندما يؤله العبد ربه تعالى وحده، فإن هذا التأليه يشفيه من مرض التعجل،

---

(1) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (104/1). وانظر تحقيق فتح المجيد ص422.

(2) ورواه الطبراني في الكبير. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (104/1): وإسناده صحيح. فتح المجيد ص 422.

فلا يستعجل قدوم الخير ولا دفع الشر ، لأنه يثق بأن الله حدَّد له أواناً لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

قلت : وقد جاء في السنة الصحيحة النهي عن استبطاء الرزق . فقد أخرج الحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : [لا تستبطؤوا الرزق ، فإنه لم يكن عبدٌ ليموتَ حتى يبلغَهُ آخرُ رزقٍ هو له ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، أخذِ الحلال ، وترك الحرامِ][1] .

* * *

(1) تخريج الترغيب (7/3) وصحيح الجامع (7200) .

و ـ الشيطان: أساليبه وكيف يبطل مفعولها ـ

لقد بيَّن الله لنا في القرآن أن طريق الشيطان مخالف ومناقض لطريق الله المستقيم ، وأنه عدو للمؤمنين مبين ، ومن ثم فقد حذرنا الله سبحانه من اتباع خطواته ، فإن في اتباعها استدراجاً إلى سخط الله والوقوع في ما يبغضه . قال سبحانه :

﴿ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 168 - 169]. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: 208] وقال: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: 21].

وقد أمر الله بمعاداته وإعلان البغضاء والحرب عليه ، فلا طريق للفلاح إلا بمعاداته . قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: 6].

وقد بين لنا النبي ﷺ في السنة الصحيحة بعض وسائل هذه الحرب عليه .

ففي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إذا قرأ ابنُ آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي ، يقول: يا ويله أُمِرَ ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمِرْت بالسجود فعصيت فليَ النار](1) .

وفي صحيح مسلم أيضاً عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الشيطان قد أيِسَ أن يعبدَه المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم](2) .

وفيه أيضاً عنه عن النبي ﷺ قال: [لا تأكلوا بالشمال ، فإن الشيطان يأكل بالشمال](3) .

---

(1) مختصر صحيح مسلم (369) .

(2) مختصر صحيح مسلم (1804) .

(3) صحيح الجامع (7071) .

وقد بيَّن الوحي الكريم أساليب كثيرة للشيطان يحاول بها التأثير على الإنسان :

1 ـ الإيعاد وبث الأماني .

قال تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : 120] .

وقال : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء : 64] .

وقال : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ . . . ﴾ [النساء : 117 - 119] .

وفي المسند عن سبرة عن النبي ﷺ قال : [إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد بطريق الإسلام فقال : تُسلِمُ وتذرُ دينك ودينَ آبائك وآباء آبائك؟! فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : تهاجر وتدع أرضك وسماءك . . . فعصاه فهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتُقتل فتُنكح المرأة ويقسم المال؟! فعصاه فجاهد . . .] وسنده صحيح(1) .

2 ـ تزيين الأعمال الباطلة .

إن الشيطان يزين لابن آدم المعصية ليركبها ، ويسهِّل له أمر الأعمال الباطلة ليستغرق فيها ، وقد أخبرنا الله عن أقوام فيما مضى زين لهم الشيطان أعمالهم فكفروا . قال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 38] .

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : 43] .

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : 24] .

وقد فصَّل لنا سبحانه في سورة الأنفال تزيين الشيطان لمشركي قريش خوض معركة بدر ، حتىٰ إذا رأى الملائكة تنزل لتقاتل في صف المسلمين نكص على

(1) صحيح الجامع (1648) .

عقبيه. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: 48].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: [الجرس مزامير الشيطان][1].

وفي رواية: [لا تَصْحبَ الملائكة رُفْقةً[2] فيها كلب أو جَرَس][3].

3 ـ **الوسوسة.**

وهي من أكبر الوسائل التي يغوي بها الشيطان ابن آدم ويرهقه بها، وقد بدأ استعمال هذا السلاح مع آدم وحواء عليهما السلام حتى كانت النتيجة الخروج من الجنة. قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: 120].

وقال: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف: 21].

وفي صحيح البخاري عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: [هو اختلاس يختلِسُهُ الشيطان من صلاة العبد][4].

ومن هنا كان أمر الله لنا بالتعوذ من وسرسته. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾.

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ألم ترَ آيات أُنزلت الليلة لم يُرَ مثلهن قط: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾][5].

---

(1) مختصر مسلم (1391).
(2) الرفقة: الجماعة في السفر.
(3) مختصر مسلم (1390).
(4) مختصر البخاري (409).
(5) وله شواهد كثيرة عند أبي داود والترمذي والنسائي، انظر صحيح الجامع (4272).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: [إن الشيطان إذا سمع النداء أحالَ له ضُراط حتى لا يسمع صوته ، فإذا سكت رجع فوسوس ، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته ، فإذا سكت رجعَ فوسوس][1] .

وفيه من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي يلبسها علي! فقال رسول الله ﷺ: [ذلك شيطان يقال له خِنْزَب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه ، واتفل عن يسارك ثلاثاً][2] . قال: فعلت ذلك فأذهبه الله تعالى عني .

4ـ النزغ .

ينفخ الشيطان في روع الإنسان ليزيد من غضبه وإضلاله ، وقد أمرنا الله بأن نعوذ به عند حدوث ذلك النزغ ، فتبطل قدرة الله آنذاك فعل الشيطان ونزغه ، يقول تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: 36] .

وفي الصحيحين عن سُليمان بن صُرَد رضي الله عنه قال: [كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يَسْتَبَّان وأحدها قد احمرَّ وجْهُه ، وانتفخت أوداجه . فقال رسول الله ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد . فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: تعوذ بالله من الشيطان الرجيم][3] .

5ـ الإنساء .

ينسي الشيطان الإنسان . يقول تعالى مخاطباً محمداً ﷺ: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 68] .

وتبين آية أخرى أن الشيطان عندما يستحوذ على الإنسان ينسيه ذكر الله ، يقول

---

(1) وانظر مختصر مسلم (196) .

(2) مختصر مسلم (1448) .

(3) مختصر مسلم (1792) .

تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: 19].

لذلك كان ذكر الله هو الوسيلة لاسترجاع المنسي، يقول تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: 24].

وقد بينت السنة الصحيحة أن الحصن الحصين للمسلم من الشيطان ومحاولاته ومكره هو ذكر الله تعالى.

ففي المسند بسند صحيح من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ قال: [وآمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في إثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يَحْرِزُ نفسَهُ من الشيطان إلا بذكر الله تعالى][(1)].

6 ـ الوعد بالفقر والأمر بالفحشاء والمنكر.

قال تعالى يبين في محكم تنزيله هذه الصفة في الشيطان: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة: 268].

وقال: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: 119 - 120].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: [لا يُشِرْ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان يَنْزِعُ في يده، فيقع في حفرة من النار][(2)].

وفي صحيح ابن حبان من حديث أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [إذا أصبح إبليس بثَّ جنوده، فيقول: من أضل اليوم مسلماً ألبسته التاج، فيخرج هذا فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته فيقول: أوشك أن يتزوج. ويجيء هذا فيقول:

(1) صحيح الجامع (1720).

(2) ورواه أحمد في المسند. انظر صحيح الجامع (7593).

لم أزل به حتى عقَّ والديه فيقول: يوشك أن يبرَّهما. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قتل، فيقول أنت أنت ويُلْبِسُهُ التاج][1] وأصله في صحيح مسلم.

7- إيقاع العداوة والبغضاء.

قال تعالى يوضح بعض أهداف الشيطان في تخريب علاقات المسلمين بعضهم ببعض: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: 91].

وفي صحيح الحاكم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال: [إن الشيطان قد يئِسَ أن يُعبد بأرضكمَ، ولكن رضيَ أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم، فاحذروا، إني قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، كتابَ الله، وسنَّة نبيه...] وأصله في صحيح مسلم[2].

إلا أن الشيطان لا تأثير له على عباد الله المخلصين الذين أقاموا منهج التأليه في حياتهم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 42].

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 65].

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 99].

وقد اعترف الشيطان - نفسه - بالحقيقة السابقة، فاستثنى عباد الله الخالصين من غوايته، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 82 - 83].

والخلاصة: إن الشيطان يعد، ويزين الأعمال الباطلة، ويوسوس، وينزغ، وينسي، ويعد بالفقر، ويأمر بالفحشاء، لكن دوره يبقى خارجياً، فإذا كان هناك

---

(1) انظر صحيح الجامع (1522).

(2) حسن. السلسلة الصحيحة (1608) وصحيح الجامع (1647).

إخلاصٌ لله من العبد ، وتأليه كامل ، بطل كل ذلك ، واندحر كيده إلى صدره[1] .

والسؤال المهم الآن: فيمن تحققت كل الأمور السابقة؟ من فهم العقيدة بالصورة التي بناها الوحي الكريم ، من أقام معاني التأليه في قلبه؟ ومن تطهرت نفسه من كل أمراضها؟ ومن استطاع أن يفلت من غواية الشيطان؟

الجواب : إنه المسلم الصحابي .

فإلى تفصيل ذلك .

* * *

(1) في مجال العقيدة نقد وعرض . أ: التوبة . ص 205 . مؤسسة الرسالة .

ي ـ الصحابي المثال ـ

ليس من شك بأن الصحابي خير من فهم أن «العقيدة» في المنهج القرآني هي كلمة «لا إله إلا الله» ، وخير من أقام معاني التأليه وحصنها ، وخير من تطهر من أمراض الإنسان ، وانفلت من غواية الشيطان .

وقد كان ذلك الصحابي نموذجاً فريداً على مدار التاريخ في كل شيء : في حيويته وإيجابيته ، واندفاعه وسرعة تغييره للواقع ، ونظافته ونظامه ، وجنديته وقيادته . . . وهو ما يمكن أن نحبِّر به المجلدات الطوال ، لكن نريد أن نفهم فقط نقطتين : كيف وجهته تلك «العقيدة» القرآنية إلى طاعة الله ، وإلى التأثير في الواقع ؟

لقد استعذب الصحابي تنفيذ أوامر الله ، فعندما جاء أمر الله بالهجرة ، أو بالتآخي ، أو بترك الخمر ، أو بالجهاد . أطاع ذلك ونفذه : لأن نفسه خاضعة لله مسبقاً ، ومعتادة ذلك ، ولأن الله عظيم عندها ، فأمره ـ بالتالي ـ عظيم ، ولأنها محبة لله فهي حريصة على تنفيذ أوامره ، ولأنها راجية جنة الله في طاعتها ، خائفة من ناره تعالى عند عصيانها ، واثقة بحكمة الله من أمره .

أما توجيهه إلى التأثير في الواقع فهو إفراز طبيعي لامتلاء نفسه بتأليه الله : تعظيماً وحباً وخوفاً ورجاء ، وخلوها من الشرك حيث سيدفعه هذا الامتلاء إلى تطويع الواقع الخارجي حسب امتلائه الداخلي ، وتلوين الخارج بألوان الداخل ، وهو مصداق قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1] [الأنبياء : 18] .

فَحُقَّ للمسلم الصحابي بذلك أن يكون موضع الأسوة بعد النبي ﷺ ، فإن الصحابة رضوان الله عليهم هم النموذج الأسبق في الأمة الذين لا تقوم دولة الحق على منهاج النبوة إلا بأمثالهم .

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : [دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهباً ما بلغتم أعمالهم][2] .

---

(1) في مجال العقيدة نقد وعرض . أ : التوبة . ص 206 . مؤسسة الرسالة .

(2) السلسلة الصحيحة (1923) وصحيح الجامع (3380)/2 .

- 28 -

ـ آثار غياب منهج الإيمان في حياة المسلمين ـ

1 ـ تسليط الله الأعداء والمستعمرين .

قال تعالى : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : 141] .

ولكن لما فقد المسلمون منهج الإيمان الصحيح ، وحلَّت محلَّه الخرافات والبِدع ـ إلا من رحم الله ـ أصبحوا مهيئين لقبول المتسللين المتسلطين على الأمم باسم الاستعمار والنهضة ، فدخلوا بلاد المسلمين ونهبوا خيراتها وأقاموا صروح بنائهم من ثرواتها .

ففي صحيح أبي داود عن ثوبان رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [يوشك أن تداعىٰ عليكم الأمم من كل أفق ، كما تداعىٰ الأكلة إلى قصعتها ، قيل : يا رسول الله! فمن قلة يومئذ ؟ قال : لا ، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل ، يُجعل الوهن في قلوبكم ، وينزع الرعب من قلوب عدوكم ، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت][1] .

2 ـ تقطيع أواصر المحبة بين أبناء الأمة المسلمة وتمزق أوصالها .

فبعد أن ضَعُفَ الإيمان في النفوس ، وضعفت الصلة بالله ، ضعفت الأخلاق والسلوك حتى بدأ الفساد يدُّب شيئاً فشيئاً ، فتظالم الناس ، وكثرت الذنوب والجرائم ، ونشأ الصراع بين أبناء الأمة الواحدة ، وتفشىٰ الجهل بأمور الدين والدنيا معاً ، وكثرت البدع والخرافات ، وفقد المسلمون وَحْدَتهم وأخوتهم ، وذهبت بذلك قوتهم ، وأصبحوا يتجهون نحو الهلاك والدمار .

---

(1) صحيح الجامع (8035) .

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: 30].

وفي صحيح ابن ماجه من حديث ابن عمر: [... ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم][1].

3 ـ **التخلف المادي والانحسار الحضاري.**

إن المتأمل في أحوال المسلمين، يجد أنهم قد أصبحوا عالة على غيرهم من الشعوب في تصريف أمور الدنيا: من صناعة، وزراعة، وتجارة، وخبرات فنية. وما ذلك إلا لأنهم أهملوا الأخذ بالأسباب التي أمرهم الله بها، والتي تحقق لهم النهضة في أمر دنياهم والحضور القوي في واقع الحياة بين الأمم.

وتتمثل الأسباب التي تحقق النهضة والتقدم في أمر الدنيا في أن يُحسن المسلمون الانتفاع بما أودع الله في أرضهم من خيرات. وهم يحتاجون لتحقيق هذا إلى أسباب من أهمها:

1 ـ توفير الخبرات الفنية والأيدي العاملة المُدَرَّبة.

2 ـ توفير الأموال والمواد الخام.

3 ـ توفير المصانع والأسواق المستهلكة لما تنتجه المصانع.

4 ـ وجود النظام العادل الذي يشجع العمل، ويَمْنع التجاوز والظلم والطغيان.

ولا شك أن هذه الأسباب من أنواع البر الذي يحثُّنا ديننُا على الأخذ بها، فإن في تركها المذلة للكافرين، وإن من فضل الله على هذه الأمة أن جعل بلاد المسلمين غنيةً بالثروات، وإنما تحتاج إلى جهود خالصة لبناء دولة الحق التي وعدنا الله ورسوله بها، والتي هي سبب العز والشوكة في حياة المسلمين.

ولا بد لنا أن نفهم أن التقدم الذي وقع في بلاد الغرب تحقق لهم لأنهم أخذوا بالأسباب التي جعلتهم يتمكنون من كشف ألغاز العلم وكنوز الطبيعة والنِّعم

---

(1) صحيح الجامع (7855).

العظيمة التي بسطها الله لعباده في هذا الكون الفسيح . قال سبحانه : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : 20] .

فأخذوا عطاءَ الله لأنهم عملوا ، وحُرِمْنا ذلك لأننا تكاسلنا وأخْلدنا إلى الراحة واللهو وتضييع الوقت والاستسلام للخمول .

طريق النجاح :

ويوم أن يتمسك المسلمون بدينهم ويمتثلوا منهج الإيمان الذي ارتضاه الله لهم ويأخذوا بأوامره في أخذ الأسباب نحو التقدم لبناء دولة الحق التي ستهدد أمن دول الظلم في الأرض ، فهناك يذلل الله لهم النصر الذي وعدهم ويفتح لهم من آفاق العلم والقوة والشوكة ما يكونون به خير أمة أخرجت للناس .

قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : 55] .

انتهى مشروع هذا الكتاب في أصل الدين والإيمان
عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان
مساء يوم الإثنين 25 محرم 1423 سنة هـ
والحمد لله رب العالمين

وكتب
مأمون أحمد راتب حموش

الأحاديث الصحيحة مرتبة على الحروف

(أ)

(ب)

(ك)

(ن)

(هـ)

(ي)

الآثار الصحيحة مرتبة على الحروف

(أ)

(خ)

(د)-(ذ)-(ر)-(ز)

(س)-(ش)

(ص)

(ض)

(ط)-(ظ)

(ع)-(غ)

(ف)

(ل)

(م)

(ن)

(ي)

فهرس إجمالي للكتاب

فهرس أبحاث المجلد الثاني